عبد الله أوج آلان

من دولة الكهنة السومرية

نحو

الحضارة الديمقراطية

المرافعات المقدمة

إلى محكمة حقوق الإنسان الأوروبية

الجزء الأول

الإهداء

"أهدي مرافعتي هذه إلى شهدائنا الذين افتدوا
أرواحهم ببطولة في سبيل تحرر الجغرافيا التي احتضنت ميلاد البشرية
وشعبهم العزيز."

عبد الله أوج آلان

المحتويات

المقدمة...5
الفصل الأول
المجتمع العبودي والتطور الحضاري............................16
أ ـ السومريون : الحضارة التي ولدت على ضفاف
دجلة والفرات...........................17 ..
ب ـ الدور التاريخي للحضارة السومرية وتمأسسها...........22
ج ـ النتائج الدائمة للحضارة السومرية......................33
د ـ التطور التاريخي وقضية الأسلوب في التوسع والانتشار..41
هـ ـ مرحلة النضوج وانتشار الحضارة العبودية..............46
1- الحضارة المصرية..............................50
2ـ حضارة هارابا وماهانجادارو في الهند والبنجاب ووادي اندلس...53
3ـ الحضارة الصينية..............................54
و ـ عصر دويلات المدن ـ العبودية في الشرق الاوسط..56
4 ـ حضارة الكريت..............................75
5ـ الحضارتان السومرية والمصرية...................76
ز ـ الإصلاح والمقاومة ضد الحضارة العبودية..............78
1ـ ميلاد الأديان التوحيدية وموقعها في الحضارة..........83
2 ـ مقاومة البنى الاثنية والحضارة العبودية..............91
3 ـ تطور الفكر الفلسفي والحضارة " نبذة تاريخية عن التطور الروحي والذهني..95
أولاً: زرادشت والزرادشتية..........105
ثانياً: البوذية.............................106
ثالثاً: كونفوشيوس.........................108
رابعاً : سقراط وعصر الفلسفة الاجتماعية..........109
ح ـ الذروة في الحضارة العبودية....................121

1- الحضارة الإغريقية..............................122
2- مرحلة روما في الحضارة العبودية..............135
3ـــ ظهـــور ميـــديا - الفـــرس ، ومفتـــرق الطـــرق بـــين الشـــرق والغرب...148
ط - انهيار الحضارة العبودية..............................167

الفصل الثاني

عصر الحضارة الإقطاعية...................................211
أ - الهوية الأيديولوجية للعصر الإقطاعي..................215
ب - الإسلام - القوة الثورية في العصر الإقطاعي..........227
ج - تمأسس وانتشار الحضارة الديمقراطية...............265
د - الذروة والانهيار في الحضارة الإقطاعية..............275
هـ - بدلاً عن النتيجة.......................................295

الفصل الثالث

حضارة عصر الرأسمالية.....................................306
أ - ميلاد الحضارة الرأسمالية وهويتها الأيديولوجية.........314
ب - تطور وتمأسس الحضارة الرأسمالية..................331
ج - عصر انتشار الحضارة الرأسمالية والذورة.............351
د - الأزمـــة العامـــة للحضـــارة وعصـــر الحضـــارة الديمقراطية..364

الفصل الرابع

المكـــان والزمـــان والهويـــة الأيديولوجيـــة للتطـــور الحضـــاري الجديـــد وشروطه...405

الفصل الخامس

هـل يسـتطيع الإرث الثقـافي فـي الشـرق الاوسـط ان يكـون تركيبـاً للحضـارة الجديدة.؟......... 458

المقدمة

لقد أظهرت ظروف مرحلة محاكمة إيمرالي حاجة ماسة لبذل جهود، تساهم في قطع الطريق وبسرعة أمام العنف الذي نتج عن اعتقالي، الذي تم على شكل مؤامرة، وعدم إتاحة الفرصة لتحقيق آمال المتآمرين وحلفائهم، والقيام بما هو صحيح للتوجه نحو السلام المشرف حتى ولو كان محدوداً.

ان التقرب العملي من ذلك جاء على شكل تقديم الدفاعات على أساس الحل و" السلام والوحدة الديمقراطية". ولا يمكننا أن ننسى سيطرة البطش السياسي على الأجواء في هذه الظروف. واعتقاد بان الأوساط صاحبة التفكير السليم والمسؤولة في تركيا كانت بعيدة عن فهم منطق تطور المؤامرة في تلك الظروف، وكانت غير مستعدة لمواجهة مجرى الأحداث وتطوراتها، وظروف اتخاذ قرار سليم لم يلاح في الأفق وعلى جميع المستويات أو أنه كان محدوداً.

لقد كانت المؤامرة بمثابة هدية سقطت من السماء على الشوفينية التي أصابها مس هستيري، وتم إعداد اللعبة الرومانية للقرن العشرين أي تقديم الضحية للأسد في الحلبة، وهذا كان عرضاً للعنف الأعمى الذي لا يمكن الخروج منه، والذي يتجاوز جميع أهداف حزب العمال الكردستاني ويتناقض معها. مع الأسف الشديد دخل الجميع في الموقع المضاد ضد بعضهم، معتقدين بأن العمليات الانتحارية والمواجهة والمقاومة هو حقهم المشروع، وأسوأ ما في الأمر هو ترك الأطراف بعيداً عن فهم اللعبة.

إن إحدى أكبر الخيانات للعصر، هي أنها لازالت تظهر نفسها وكأنها صديقة ومؤيدة للحرية من جهة، وتحاول نسيان وإزالة أصحاب الموقف المظلوم والبطل دون رحمة من جهة ثانية. فكان الميدان سينفتح أمام جميع الخونة والعملاء المتربصين في الكمين، الذين ظهروا مرات عديدة. في الحقيقة كان قد تم إعداد وضبط كل شيء حسب موتي، وكان الهدف هو إزالتي جسدياً على الأرجح، وإذا لم يحدث ذلك فالهدف هو إزالتي معنوياً، ولا أعتقد أن هناك هدفاً آخر غير ذلك رغم تفكيري بالمسألة مطولاً.

كانت المؤامرة عميقة ومليئة بالاستفهامات لدرجة يتطلب إفشالها انطلاقة إنسانية متقدمة جداً لا تقل قيمتها عن قيمة القيام بمعجزة.

كان كل شيء معداً وفق قدرٍ لا يرحم، جعل العالم برمته في الموقع المضاد، ولم ينتظر الأصدقاء المقربين وحتى الرفاق أكثر من " موت مشرف " كارتباط بالقيم العقائدية والمعنوية، وكان هذا منطق العصر، ومنطق الصديق والعدو أيضاً، في هذه النقطة بالذات تتجمد العواطف والمعتقدات، وكان كل شيء يفرض العزلة. لن أقول أن الرمي بالرصاص كانت عقوبة بعيدة حسب قواعد الحرب، لكنهم لم يمنحون هذا الحق رغم رؤيته كحق، إذ كانت الحضارة ترغب بالانتقام بشكل آخر.

لم ألعب في أي وقت من الأوقات من أجل البطولة، كما أني لم أكن بذاك الشجاع كما يعتقد، ورغم رغبتي بأن يعرفوني كما أنا، إلا أني لم أشهد ذلك حتى لدى أكثر رفاقي المقربين، ولكن كان لدي جانب لم أخنه، وكنت سأستمر أن أكون ذاك الطفل الذي لا يخون أحلامه، ولا أعترف بآلهة الحضارة، ولا انحل في مؤسساتها، ولم أكن سأصبح رب أسرة زوجاتها. لقد حقق ديالكتيك شخصيتي تطوراً من هذا النوع، وكانت المسألة قد خرجت من أن تكون مسألة تناقض داخلي بسيط لتركيا منذ أمد طويل، كان موقعي يفرض عليَّ أن أكون بروما توس **prometeus** العصر. إن صلبي على حجر إيمرالي لم يكن يختلف عن صلب بروما توس في جبال القوقاز كما جاء في الأسطورة، وكم كان ذلك محزناً ومؤلماً، فقد قام بذلك أيضاً أحفاد إله أثينا زيوس **zeus** .

أن موسكو التي تعتبر إحدى أهم المراكز الحضارية، لعبت لعبة دنيئة لا مثيل لها ضد اشتراكية الملايين حتى وإن لم يكن لهذه الاشتراكية دعائم كافية، فإنها في مسألتي أيضاً، لم تكن ستشعر وبدون أي خجل بالانزعاج من المشاركة باللعبة، وذلك مقابل بضعة مناقصات وقرض بضعة مليارات من صندوق النقد الدولي. أما روما بحلبتها العبودية الكلاسيكية، وحساباتها الدقيقة للرأسمالية الحديثة فإنها لم تكن ستعترف بالقيم القانونية والمعنوية. وكانت تجبرني على خوض حرب كبيرة من أجل الشرف، بإرهاب نفسي لا يمكن وصفه، وكنت سأضطر للقيام بما تطلبه. أما أثينا فقد كانت ستستغل باسم الصداقة الثقة الممنوحة لها بأكثر الأشكال دناءة، حتى ان عاهرة لا يمكنها التفكير والتجرؤ على القيام بذلك وترسلني الى عاصمة كينيا، موطن آكلي لحوم البشر. لقد كان يتضح الوجه الحقيقي لحضارة القرن العشرين مع كل دقيقة تمر حيث الخسة والتعذيب والبعد عن المشاعر، ذاك الوجه القبيح الذي لا مكان للقيم الإنسانية فيه وسوى منطق المنفعة، وكنت سأظل جامداً تجاه ذلك. هذا هو الواقع الذي جمدت فيه ردود أفعالي، وهذه هي الحقيقة، فالذين ينتظرون موقفاً مختلفاً لن يستخلصوا النتائج الفكرية والمعنوية اللازمة فيما إذا لم يدركوا الحقيقة بكل جوانبها ولن يشعروا بها حتى النخاع.

ما آمنت بالقدر أبداً، لكن كنت سأنتظر لوحدي في الصليب الحديث للقرن العشرين، والذي صنعته لي قوى القدر في سكون القبور، وكنت أدرك بان استخدام آخر نبضة لقلبي وآخر جزء من معرفتي لصالح الإنسانية هو فضيلتي ومعناي الجوهري، وكنت سأترك الأمور تأخذ مجراها الطبيعي.

في الوقت الذي أقوم فيه بهذا التعريف القصير لمن يريد فهم وقفتي في إيمرالي، فإن الشيء الذي سيتطور ليس نقداً أو نقداً ذاتياً عادياً، أو آمالا بالعفو، أو أمل العيش بشكل أو بآخر، إن التطورات بهذا الاتجاه، لا يمكن أن تكون فضيلة ومعنى ما عشته. إن الوضع مختلف ويتطلب فهماً حقيقياً وجوهرياً وبلا تردد، لأني لا أشك أن موقف السلام والأخوة ـ حتى لو كان محدوداً ـ هو سمة جوهرية من الأعماق، لذا لم أكن سأعطي الأولوية لمسألة الموقف السياسي الذي يحتل موقعه في المرتبة الثانية والواجب اتخاذه، أو لم أكن سأصبح جواباً للآمال المنسجمة حسب اليمين واليسار الحضاري، ولم أكن سأجعل نفسي أداة لها. و كنت سأبحث هنا عن السمو، ولم أكن سأجعل نفسي تليق بلعنة الحضارة المعاصرة.

كنت سأعطي قيمة لأي رأي سياسي يعطي مكانة للعيش الأخوي بشراكة والتي تمر عبر السلام المشرف والحرية، وكنت سأفضل الاتحادات التي تعتمد على التعبير الحر في جميع المستويات، لأنني لا أؤمن بالجزر السياسية الصغيرة والتي تنطوي على قيم الفقر والافتقار والطوباوية. وكما حدث دائماً، فإنني كنت سأواصل وقفتي ذات المعنى إلى درجة لن أقع في ـ بقدر موقف الوحدة الإجبارية ـ موقف الانفصالية الإجبارية.

هذا هو جوهر مرافعاتي في إيمرالي، وكلي أمل أن تفهم قيمتها بشكل أفضل يوماً بعد يوم، إذا كنا قد استطعنا إيقاف الإرهاب الحقيقي قليلاً والذي كان ثمرة الحظ الأعمى الملعون لتركيا بعض الشيء، وأبطأنا استغلال السمسرة الظالمة، وأظهرنا سريان مفعول النهج الديمقراطي للنضال السياسي بقدر ما هو ذو معنى، وساهمنا في تحديد كيفية الدفاع المسلح المشروع ضد القوى التي ترفض السلام، كل ذلك يعني بأننا أصبحنا أصحاب موقف تاريخي يثمنه ذوي العواطف الواقعية والعادلة والجوهرية. وعلى هذا الأساس، فإنني أعرف بأن استخدام حق الدفاع أمام محكمة حقوق الإنسان الأوروبية (**AIHM**)، من خلال الدفاع الذي أعددته على أساس الأيمان بأنه سيعبر عن قيم تاريخية، يعني في الدرجة الأولى دفاع الشرق الأوسط تجاه الغرب، ودفاع ثقافة الشرق الأوسط تجاه الحضارة الأوروبية، وتقييم المحفل القانوني الديمقراطي الذي يتطلب التحدث فيه عن المواضيع التي أصبحت كونية وباسم الشعوب بهذا الشكل، وارتباطاً بكل ذلك قمت بتسليط الضوء وبشكل صحيح على التاريخ، كمهمة لي،

وإنني أرى بأن استخدام هذه الحق الذي بلغ مستوى ليكون لغة حل كافة المشاكل الاجتماعية والتي أضحت حالة شاملة، وعلى الرغم من انه ينبع من مصالح القوى الحاكمة، وحتى لون كان متأخراً، ومن أجل تجاوز الحالة التي ارتبط كل شيء بالاوليغارشية والتي تتناقض مع حدث تأسيس تركيا ومنطقها، وهذا المحفل الذي يرتبط بحل الاتحاد الديمقراطي والسلمي ولو بشكل محدود، والذي سيجد مساندة للانضمام إلى عضوية الاتحاد الأوربي، وهذا ليس بخطأ، ولا يصيبني عقدة من جراء ذلك.

إن أوربا في موقع متقدم، ودون فهم الجوانب التي أغنتها، من غير المكن تحقيق تطور مرحلي لثقافات الشرق والشرق الاوسط والتي آمنت بجوهرها دائماً. وان معرفة الاستفادة من قيم الاتحاد الأوربي حسب المصالح العادلة للقوى الاجتماعية، لا تعني العمالة الرخيصة أو مفهومها المعروف، والوقوف ضد ذلك لا يعني التقدمية أيضاً، بل ليس له معنى سوى التخلف المتفسخ، ونظراً للظروف التي مهدت السبيل أمام اعتقالي، والقوى التي نفذت ذلك هي قوى حاكمة الحضارة المعاصرة، فمن الجليّ بأنه يتوجب عليّ أن أضع مرافعاتي بهذه النوعية، ومن الضروري أن نضع في الأولويات كشف النقاب عن مغامرتي الأوربية والتي يجب أن نستخلص منها الدروس. في هذه النقطة، لا يمكننا رؤية الحقيقة بكاملها فيما إذا انغمسنا في واقع تركيا وحده وحتى في واقع الشرق الأوسط. فإن البحث عن الحل في الواقع الحضاري الأوربي بمقدار منبع المشكلة يكتسب أهمية بارزة.

أصبحت أغلب الحركات التي يطلق عليها حركات التحرر أسيرة سبل حل أضحت عائقاً، نتيجة لمساعيها في البحث عن الحل في إطار ضيق، وقد تجاوزتها الحضارة الأوربية منذ أمد بعيد وعلى أعلى المستويات، أو أن هذه الحركات تعيش اختناقاً تحت ضغط سياسات " فرق - تسد ". إن التعصب القومي والتطرف الديني والبقاء بعيداً عن الديمقراطية هي مفاهيم تجاوزتها أوربا منذ زمن طويل، وأثمر التمأسس فوق القوميات والعيش في التعددية الثقافية والنظام الديمقراطي الذي وصل حتى إلى حقوق الفرد، عن قيماً كونية معاصرة أثبتت نفسها.

هذا الموقف الأساسي يتطلب حلاً يعتمد على التحليل الحضاري. والسبب الهام الآخر، أن التراجيديا التي عشتها شخصياً هي أبعد من أن تكون مسألة فردية، بل هي تعبير صادق لواقع يعيشه الشعب الكردي كما رأينا ذلك على أرض الواقع. إن تعريف الواقع الكردي بشكل صحيح، سيمهد السبيل أمام تشخيص سليم لقضية تحتل تأثيرها جدول أعمال أوربا منذ الآن، ويكتسب هذا التشخيص أهمية تحدد مصير الديمقراطية في تركيا، وسيساهم الحل الديمقراطي

في تركيا بهذا المعنى، في تطوير حلول حياتية لقضايا الشرق الأوسط والقوقاز وآسيا الوسطى وحتى البلقان. وتنبع الأهمية العالمية الكبرى للمشكلة من هذه الحقيقة، وستؤدي الآراء التي تنكر المشكلة، أو التي تضخمها، أو التي تدافع عن ضرورة عدم إيجاد الحلول، إلى تأزم المشكلة وإدامتها، وستسد الطريق على الآراء التي قد تساهم إيجابياً في حلها.

لي دور كبير في إيصال القضية الكردية الى هذا المستوى، وفي الوقت الذي تدور فيه نقاشات هامة حول الموضوع الكردي، فإن تقديم مرافعتي على أساس حل علمي وشامل يتمتع بأهمية كبيرة. ولذلك سأقوم بتحليل تاريخي - وان لم يكن بشكل معمق - للحضارة بخطوطها العامة، والى جانب سبرنا أغوار المشكلة القائمة، فإننا سنربط حل المشكلة بهذا التحليل بحيث يصبح دليلاً للحل.

لم تستطع الآراء التي تتنكر للمشكلة أو التي تفتقر إلى القيمة العلمية والمتضمنة لعواطف شوفينية، أن تخطو أية خطوة في سبيل حل المشكلة، وهي من الأسباب الأساسية للسلبيات التي خسرنا بسببها الكثير. وأعتقد أن أسوأ أسلوب متبع هو ترك القضايا حتى التعفن. قد يكون لمنطق نفي شيء قيمة ما، لكن لا توجد أية قيمة منطقية للتعفن.

إن تعريف واقع الشعب الكردي وتشخيص أمراضه، وإيجاد طرق المعالجة الصحيحة، كما كان الأمر في قضايا سائر الشعوب التي عانت من مشاكل اجتماعية أساسية، مرتبطة بشكل وثيق بهذا الرأي. إن القيام بالنضال اللازم والذي لم يتم أثناء انطلاقة حزب العمال الكردستاني بسبب المواقف المرسومة للاشتراكية المشيدة، إلى جانب التأثيرات العاطفية للمفهوم القومي الكردي البدائي، والمآزق والخسائر والآلام الكبيرة التي لا معنى لها، بات مهمة ملقاة على عاتق الجميع وكل وفق قوته مهما كان ذلك مؤلماً ومتأخراً، وطبعاً لم تأخذ هذه المهمة حقها إلا إذا قام بها من يمتلكون القوة والشعور بالمسؤولية.

هذا هو معنى محاولة تحليل الحضارة بالخطوط العريضة. ويمكن أن يكون ذلك قد أصبح واضحاً للكثير من الشعوب أو المجتمعات، التي جعلت نشاطاتها التاريخية والاجتماعية الشاملة تلك ممكناً، وذلك ضروري من أجل الموضوع الكردي وينتظر اكتساب المعنى، وعند القيام بذلك، يجب أخذ التاريخ أساساً أيضاً، إذ يوجد تاريخ كردي حتى وإن لم يكن بخط ساطع وعريض، ولم يعد مرئي اليوم، ولا يمكن تشخيص ومعالجة الواقع الذي وصل إلى مرحلة لا يمكن تجاوزها دون تسليط الضوء على التاريخ، وعند النجاح في النمط التاريخي، تظهر على الساحة قوة حل لا مثيل لها، وتؤدي إلى انفراج دقيق بنفس النسبة.

إن إتمام المنظور التاريخي الأساسي بالمراحل الأساسية، سيظهر إمكانية تحقيق منظور حل غني وفهم يومنا هذا، وتحويل الظلمة إلى نور، وسيتم استيعاب كم أعمت المواقف الدينية والقومية المتطرفة العيون وضخمت المواقف الخيالية والتي ذات بعد واحد، سيجعل ذاك الرأي ذو معنى اكثر، ولذلك لا نعتبر أن الوقت متأخر. ومع مقارنة هذه القضية بالقضية الفلسطينية والقضايا المشابهة لها، حينها يجب التخلي عن النمط القومي الذي يستمر لعصور مع جذوره الدينية ويتعقد مع مرور الزمن الى جانب وقوعه في مأزق، وذلك كضرورة للموقف الديمقراطي الحضاري والعلمي.

إن رؤية ذلك النمط الجديد من قبل القطاعات والمؤسسات المعنية، وإصلاح مواقفها يكتسب أهمية حياتية. إن بنية الأزمة الشاملة القائمة في تركيا تجعل من هذا الأمر مهمة لا يمكن تأجيلها.

لا شك أن أبعاد العلاقات التركية ـ الكردية هي من أبرز العلاقات في الواقع الكردي تاريخياً وعلى صعيد العلاقة اليومية، وإن تناول هذا البعد بعمق وشمولية يكتسب أهمية حياتية أيضاً. إذا كان الحل المنتظر سيكون في إطار بنية وحدة الدولة على أساس الوحدة الديمقراطية، سيجعل ذلك التحليل العلمي للعلاقات التاريخية أكثر أهمية. وهنا يجب علينا تذكير الذين لا يريدون الاعتراف بالقضية الكردية ـ لندع جانباً الاتحاد تحت سقف دولة مشتركة مع عدة دول تركية ومجموعة دول تركية ـ فحتى تضامن محدود يشترط استيعاب حقيقته التاريخية واليومية بشكل صحيح. إن الآراء العاطفية أدت بالنتيجة إلى ردود فعل، وهذا حقيقة نراها بشكل جليّ في يومنا هذا، وهو نمط خاطئ وغير كاف، ولذلك يجب ان تشهد العلاقات الكردية ـ التركية إصلاحات ديمقراطية شاملة كمهمة عاجلة، وسنقيّم ماهية هذه العلاقات وجوانبها المنحرفة واتجاهاتها الإيجابية مجدداً، وستشهد إصلاحات متينة وجديدة. ولا شك أن الإصلاحات تنبع من الديناميكيات الذاتية، لكنها تدخل في إطار التكامل مع واقع الاتحاد الأوروبي، الذي تحاول تركيا الانضمام إليه، والتي تعتبر نفسها جزءاً منه، وإن مواصلة هذه الجهود يضاعف أهميتها، ويجعل تلاحم الوضع الداخلي مع الوضع الخارجي بالإصلاحات ليست عبئاً بل فرصة للخروج من بنية الأزمة الكبيرة.

يكتسب بعد حزب العمال الكردستاني في مرافعتي أهمية كبيرة، إذ إن تقييم حزب العمال الكردستاني بشكل علمي عمل ضروري ليس من جانب أعضائه وقاعدته الجماهيرية فحسب، بل من جانب الموجودين في الموقع المضاد له أيضاً. والاكتفاء بوصفه إرهابياً ليس حلاً، وبالمقابل فإن قولنا أن كل ما قمنا به كان مقدساً، يجرنا إلى أخطاء كبيرة. وتعرض حزب العمال الكردستاني والكرد إلى ماهية متداخلة، ليس في الواقع الملموس لتركيا وحسب،

بل في الجغرافيا المتعلقة بالشرق الأوسط أيضاً. ولذلك فإن تحليل حزب العمال الكردستاني بدقة، بقدر ما يمهد السبيل أمام نقد ذاتي بناء، إنه يمهد السبيل أمام الحلول المحتملة أيضاً.

يكتسب شرح مصطلحي "الإرهاب" و"الانفصال" واللذان يعتبران من اكثر المواضيع أساسية ويدخلان جدول الأعمال عند ذكر **PKK** أهمية كبيرة. ومما لا شك فيه، أنه يجب رؤية أبعاد المخطط التاريخي والاجتماعي المتعلق بهذين المصطلحين بشكل جيد وما يقصد من وراء ذلك، وإعادة النظر في الإيديولوجيات الثورات الحديثة وتطبيقاتها. والشيء الأهم من ذلك، هو ضرورة القيام بتحليل علمي للضغط الإرهابي الذي يمارس كل يوم، والذي طوّر عبر التاريخ ووضع الواقع الكردي تحت المكبس. وان تقييم موقف إرهابي لم يكتف بمنع التطور الحر في المجال الاقتصادي والثقافي والاجتماعي والسياسي، بل تجاوزته إلى حد منع اللغة دستورياً، سواء من الناحية السياسية والعسكرية أو من الناحية القانونية والديمقراطية، يتمتع بأهمية حيوية. لذلك فإنه من المهم توضيح بعض التقييمات النظرية والمفهوماتية التي تنطلق من الموقع المضاد والتي جسدت أرضية لحزب العمال الكردستاني.وعلى هذا الأساس، فإنه من المهم جداً توضيح نظريات ومفاهيم الاشتراكية والاستقلال والحرية والديمقراطية والقومية والعنف والإرهاب والوطنية والاتحاد والانفصال من الناحيتين السياسية والقانونية، ووضعها على طاولة البحث بجوانبها الصحيحة والخاطئة. وسيساهم وضع الجوانب العملية والنظرية لحزب العمال الكردستاني والذي أخذ نصيبه من الشكل السطحي لهذه المفاهيم والنظريات، على طاولة البحث والوصول الى الحلول الإيجابية للمرحلة.

يبدو واضحاً أن المواقف الاتهامية المتطرفة، أو الدفاعية المتطرفة لا تخدم الحل، وعند تقييم **PKK** من الداخل أو الخارج، حتى وإن كان هذا التقييم مضاداً أو مؤيداً، فإنه يجب الأخذ بعين الاعتبار الوضع الخاص للقضية الكردية والمشحون بالعنف والآلام، وعدم منحها حقها من العلم والتطور الاجتماعي، وخصائصها التي تمتاز بالمنع والضغوطات، وسيبقى أي تقييم ذاتياً إذا لم ير علاقة الضغط برد الفعل وهذا سيؤدي إلى نتائج سياسية خطيرة ولن يساعد على الحل، بل هو جوهر المواقف الذي يؤدي إلى المأزق. وإني أرى تجاوز ذلك أمر مهم جداً، وأعرف بأن القيام بما يقع على عاتقي في هذه النقطة، بقدر ما هو مسؤولية كبيرة فهو مهمة تاريخية أيضاً، لأن المهمة صعبة جداً، ويصعب على الآخرين القيام بها. إن تقييمات كهذه بصدد **PKK** ذات معنى وستساهم في الحل، وستتيح فرصة تقديم النقد الذاتي اللازم. أما المواقف والاتهامات التي تنطوي على الشجب فقط، فإنها ستضعف فرص أي تحول قد يحدث، وستقوي المواقف والمفاهيم الصلبة والمحافظة. عندما نأخذ بعين الاعتبار الممارسة

العملية للمواقف التي تغلق أبواب السياسة الديمقراطية في تركيا أمام الاتجاهات الدينية واليمين أو اليسار، فإنها لا تؤدي إلا إلى حلقة مفرغة وفقدان القيم لدى الأطراف، فإن أهمية هذا الموقف المذكور تزداد اكثر.

إن التفوق الأوروبي في هذه النقطة نابع من بلوغها سياسة ديمقراطية بعد تجاربها الطويلة، وفتح أبوابها أمام جميع أشكال التعبير الحر. إن الإيمان بصحة هذا الأسلوب وإعطاء الفرصة لذلك، هو الطريق الواقعي والمعاصر لحل المشكلة.

إن استبعاد العنف من كونه سبيلاً لحل القضية الكردية أمر مرتبط بشكل وثيق بتجاوز سياسات الإنكار والقمع ولو بشكل محدود، وفتح الطريق أمام الخيار الديمقراطي بما يتناسب مع جوهره. فمثلما يشكل الحظر المفروض على اللغة والثقافة والنشر والتعليم شكلاً متطرفاً من الإرهاب، فهو في الوقت نفسه توجيه دعوة إلى العنف المضاد باستمرار. فإننا نجد أن **PKK** قد لجأ الى العنف دون التحكم به، وبشكل تجاوز مفهوم الدفاع المشروع، ونجد ان الكثير من الحركات في يومنا هذا قد لجأت إلى طرق أكثر تطرفاً. وبالمقابل فإن وقف إطلاق النار من طرف واحد، والبقاء في موقع الدفاع المشروع خارج الوطن على الأغلب، يجعل الاتهام "بالإرهاب" باطل المفعول. ما يجب القيام به هو إدخال الآراء التي تترك الأبواب مفتوحة أمام مرحلة الحوار والوحدة الديمقراطية على الخط، ومن ثم تحقيق عملية ترك السلاح.

إن تقييم موقع **PKK** في هذا الإطار يقدم فرصة هامة من منظور سد الطريق أمام التطورات التي قد يصعب تجاوزها في المستقبل. ويعتبر ترك الأبواب مفتوحة أمام **PKK** على الساحة التركية لتحول ديمقراطي قانوني، الطريق الصحيح لحل سياسي يمكن تطبيقه، وواقعي أكثر من طريقة المنع كلياً والدخول في مرحلة التصفية، وهو فرصة للتوجه نحو الحل السياسي.

لقد رأيت ضرورة إتباع هذا الموقف المرن في دفاعي كأسلوب أساسي يجب أخذه بعين الاعتبار دائماً، وإنني قيمت الاتحاد الديمقراطي الذي يمر طريقه من الاعتراف بالحريات ضمن حدود كل دولة شرق أوسطية تشهد فيها المشكلة الكردية، كموقف سياسي واقعي جداً تجاه الفقر، ولتحقيق السلام وأخوة الشعوب،

لقد أثبتت التجارب المعاصرة أن الصراع والاشتباكات التي نتجت عن "القوميات الصغيرة" أدت إلى فقدان الحلول و ظهور مشاكل أكثر مما كان في الماضي، بل وأدت إلى مزيد من التعقيد في القضايا التي يمكن حلها، ويمكننا أن نشهد ذلك بكل سهولة. إن عدم تحول الجغرافيا الكردية التي تمتلك قوة كامنة

كبيرة للصراع إلى وضع يشابه وضع فلسطين وإسرائيل يتطلب جهوداً ومسؤولية كبيرة. ويجب أخذ خيار الشرق الأوسط الديمقراطي بعين الاعتبار دائماً كهدف إستراتيجي.

تتيح لنا محكمة حقوق الإنسان الأوروبية فرصة من أجل اختبار إمكانيات الحل القانوني. ان معاهدة حقوق الإنسان الأوروبية والتي ترتبط تركيا بها قانونياً هي عمومية ولا تخصني شخصياً. وتعترف معاهدة حقوق الإنسان الأوروبية بشمولية الحقوق الشخصية "الفردية" والمدنية والاقتصادية والاجتماعية وحقوق تحديد كيان الشعوب والثقافات بشكل حر والتي وافقت عليها الأمم المتحدة، وتفرض على جميع أعضائها الالتزام بالواجبات المذكورة. وترى محكمة حقوق الإنسان الأوروبية خلال الدعاوى التي نظرت فيها في إطار هذا المضمون ضرورة تناول المشكلة جذرياً، وتحقيق مقاييس قانونية تتجاوز الأشخاص، ولم تكن القرارات المختلفة لآلاف الدعاوى واقعية، أو أصبح من الضروري موافقة أو مصادقة البرلمانات الوطنية على قانونية هذه القرارات. إن تركيا هي العضو الوحيد في المجلس الأوروبي الذي لا ينفذ ما يقع على عاتقه بهذا الصدد وفي مقدمتها مادة حق الحياة ولم تلب متطلبات معايير "كوبنهاغن" التي تعتبر انفتاحا آخر لمعاهدة حقوق الإنسان الأوروبية حتى في مرحلة الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي.

أتمنى لقضيتي الشخصية أن تخلق عاملاً مسرعاً، فإذا ما أرادت تركيا ذلك، فأنا أؤكد بأني منفتح على الحل الودي، ويقيم هذا الجانب من دفاعي إمكانية مساهمة القانون لإيجاد الحل السياسي بشكل صحيح. باختصار أرى من الأهمية بمكان إتاحة الفرصة للحل ضمن دولة القانون الديمقراطي بدلاً من اتباع الطرق العسكرية والسياسية الشديدة التي استخدمت بكثرة في الماضي؛ ويتطلب من تركيا تقييم حاجاتها هذه بمسؤولية، وتوسيع الحل الودي وأتمنى أن يكون ذلك سبباً لفتح الباب أمام الحوار السياسي. من منطلق المسؤولية التاريخية أتناول مسألتي بكل تفاصيلها. وان تناول بعض الأوضاع التي شهدناها إلى أبعد من الضرورات التقنية للمحكمة حتى لو كان لها جوانب أدبية هامة جداً، وتسليط الأضواء على الحقائق الكامنة في الدعوى، تعتبر مهمة لابد منها. وأني اضطررت لأن أتعمق في هذا الجانب في مرافعتي، ليس لأجل مصداقية الحقوق الدولية فقط، بل لأنه تم خرق الكثير من القيم المعنوية، ومن خلال وضعي الشخصي يمكن إلقاء الضوء ليس فقط على المأساة اليومية التي يحياها الشعب الكردي، بل وعلى الانعزال الكبير الذي أدى إليه التاريخ الملعون وجعل الشعب الكردي آلة للمؤامرات باستمرار وحدوث الخيانات غير المعقولة أيضاً، واظهار كل ذلك إلى النور. والهدف من ذلك، هو وضع حد لهذه المأساة على الأقل والدخول إلى طريق الحضارة المعاصرة. ويمكن تقييم هذا الجزء على أنه

خلاصة للمرافعة ونهاية لها.

هذه المقدمة التي أبني عليها مرافعتي قد تتضمن الكثير من النواقص. فبالإضافة إلى الأسباب الأخرى هناك السنوات الثلاث التي قضيتها في إيمرالي بمفردي. مما كان لها تأثير بالغ على تعرض ذاكرتي ولغتي للتآكل. ولكنني انطلاقاً من إيماني الكبير بأن الدروس المستنبطة من تلك الممارسة الظالمة التي تعرضت لها، وكثافة الخبرة، تشكل خدمة كبيرة للأوساط المعنية بهذا الأمر، إذ قمت بالكتابة لأول مرة منذ زمن طويل لأؤدي هذه المهمة الملقاة على عاتقي.

الفصل الأول

المجتمع العبودي والتطور الحضاري

القضية الكردية التي تعتبر جوهر دعوتي، والتي هي واقع مجتمعي عاش ـ منذ نشوئه وحتى تطوره ـ ضمن خاصيته مرحلة متشتة ومن جوانب عديدة، ترتبط عن قرب بالتطورات والعلاقات والتناقضات التي عايشتها حدثت على خط الحضارة. إن التقييمات الطبقية والقومية حسب المقاييس المعاصرة للبنية الاجتماعية لا تتيح الإمكانية لفهم الواقع الكردي بشكل كامل. وحتى إن أجريت هذه التقييمات، فلا مفر من خلق نتائج سياسية تتضمن أخطاءً وأفكاراً مجردة.

إن خروج القضية خارج حدود الشرق الأوسط وإدراجها على جدول أعمال القوى المعاصرة وفي مقدمتها أوروبا، تجعل تناول القضية في إطار

التاريخ الحضاري أمراً ضرورياً. إذا لم نعرّف الأسس التي تستند إليها المشكلة تعريفاً صحيحاً، حينها نكون قد وضعنا حاجزاً أمام الوصول إلى نتائج قانونية صحيحة.

إن معاهدة حقوق الإنسان الأوروبية ومحكمة حقوق الإنسان الأوروبية، هما مؤسستان قانونيتان وهما آخر ما طورته ديمقراطية الحضارة الأوروبية. ولا جدال في أن مقاييس القيم الأوروبية هي التي تحدد التمثيل الكامل والحاكم لحضارة أيامنا هذه. إن الكرد الذين يبحثون عن مكان وحل لمشاكلهم في أبواب أوروبا هذه الأيام بطريقة تهكمية، هم في الأصل منبع ولادة هذه الحضارة. وباتت الأم المسنة تنتظر من أولادها الذين عاشوا في مهدها آلاف السنين والذين باتوا الآن لا يتعرفون إليها، العدالة، هل سيتم الاعتراف بحق أم الحضارة..؟ هكذا أصبحت القضية شائكة بعض الشيء. وتتواجه القوى المجتمعية مع القوى التفردية، وتشكل جغرافيا الشرق والغرب، وآسيا وأوروبا، الأناضول واليونان، الجبهة الخلفية لمسرحية إيمرالي التي عرضت بمظهر المسرحية تماماً. يمكن لشخص عادي يمتلك دقة النظر أن يسأل عن كاتب سيناريو المسرحية ـ أي المحاكمة ـ وكيف قسمت الأدوار الرئيسية، ومن هم الممثلون والكومبارسات، وما هي البرقيات التي أرادوا توجيهها إلى المشاهدين، ولا يمكنه إنكار بأنه سيظل في وضع يبحث عن الأجوبة. وفي حال قيام محكمة حقوق الإنسان الأوروبية التي تناولت دعوتي بأبعادٍ ضيقة وفردية، وبتقييمات من هذا النوع، فإن ذلك يحمل خطورة الوصول إلى آخر مشهد من المسرحية، نتيجة تجاهل عدة وقائع.

كي لا نصل إلى هذا الوضع، أرى أنه من الضروري تسليط الضوء على التاريخ الماضي المليء بالعذابات والآلام، وعلى الذي يقف وراء دعوتي كمهمة أساسية لي، إيماناً مني بأن تلعب هذه الدعوى دورها في إمكانية التقييم الحر، حتى لو لم يتم اتخاذ قرار عادل في المؤسسات القانونية الديمقراطية التي تعتبر ثماراً لردود الفعل على التطور التاريخي الدموي والمأساوي والمليء بالتعذيب. يجب أن أؤكد مرة أخرى على أن التقييمات التي سأقوم بها تحمل في طياتها نقصاً، لان هدفها الأساسي هو الدفاع من جهة، ولضعف ذاكرتي بسبب بقائي في زنزانة منفردة لعدة سنوات من جهة أخرى. إن الدعاوى التاريخية تجعل التقييمات التاريخية ضرورية بهذه الحجج. ويجب على المسؤولين القيام بمهمة التوضيح بشكل ناجح لهذه الدعوى ذات الجوانب المأساوية وما سببته من خسائر فادحة. وذلك لكي يستطيع كل واحد أن يستخلص منها الدروس اللازمة والتي بها يحقق النصر. وهذا هو ما يلزم ويليق بالدعاوى التاريخية. و بقدر تأدية هذه المهمة بشكل صحيح، تصبح هذه الدعوى لائقة بصفتها التاريخية.

أ- السومريون:

الحضارة التي ولدت على ضفاف دجلة والفرات

لقد أظهرت العلوم الاجتماعية وفي مقدمتها علم الآثار القديمة وعلم الأجناس واللاهوت، ولاسيما النتائج التي وصلت إليها في القرن الماضي بعد الدراسات الشاملة، أن السومريين هم أول مجتمع بشري قد أقاموا دولة، وهم أصحاب الحضارة والتاريخ المكتوب. ولا نكون قد بالغنا فيما إذا قلنا بأن هذا التطور هو أكبر تطور تاريخي، وذلك بعد أخذنا بعين الاعتبار أن التاريخ يوازي المؤسسات التي تحققت في البنية التحتية والفوقية في مجتمع الدولة، إلى فترة طويلة. وإن تكوين الدولة يعني قفزة كبيرة في تاريخ الإنسانية بجوانبه الإيجابية والسلبية، وتواصل الدولة كمؤسسة شاملة وأداة اجتماعية وجودها في يومنا هذا بخطوطها الأساسية منذ نشأتها. إن الدول هي شكل من أشكال الهيمنة التي قامت فوق ثمار الكدح الإنساني المتغير. لذلك فإن معرفة السومريين تعني معرفة ذاتنا ويومنا. وفي الأساس كنا سننسى أنفسنا إذ لم يكتشف السومريون، وما كنا قادرين على البدء بالتاريخ بشكل صحيح فيما لو نسي منبع أم الحضارة وأقدمها. ولذلك فإن السومريون هم ماضينا، وقريبين منا كالأمس. في هذه الحالة، كيف تأسس السومريون وما هي المؤسسات الحضارية الأساسية التي حملوها في داخل دولتهم..؟ ومع مضي كل يوم تقدم الأبحاث التاريخية إجابات أقرب إلى الصحة لهذه الأسئلة التاريخية.

لا شك أن تطور الكيان الاجتماعي قبل تشكيل الدولة هو شرط أولي لمجتمع يمتلك دولة. أثبتت نظرية التطور الطبيعي بتطبيقاتها للعلوم الإنسانية أن القردة أجداد الإنسان قد تكونوا قبل 60 مليون سنة، وأن تطور النوع الذي يمشي على رجلين وبأدوات بدائية في أفريقيا الشرقية نتيجة ظروف إقليمية قد تطور قبل 20 مليون سنة. وقد أثبت حدوث انتشار جدي قبل 3 ملايين سنة تقريباً عقب الانهيارات التي حدثت في أفريقيا الشرقية والبحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط. ونرى كثافة السكان تزداد في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط وجبال طوروس - زاغروس - الهلال الذهبي كما يطلق عليه المؤرخون قبل مليون سنة تقريباً. وتلعب الإمكانيات التي تتيحها الثقافة التي تستفيد من المناخ والنباتات والحيوانات دوراً أساسياً في ذلك. وانتشر البشر من هذه البقعة الجغرافية التي أزداد فيها تعداد السكان إلى أطراف العالم الأربعة. وقد أثبت ذلك في أصل الإنسان الآسيوي والأوروبي وراثياً. لعب الهلال الذهبي وعلى الأرجح منطقة ما بين نهري دجلة والفرات والتي يطلق عليها أسم ميزوبوتاميا، دوراً أساسياً في تكوين المجتمع المشاعي البدائي

مع انتهاء العصر الجليدي الأخير قبل 20 ألف سنة تقريباً، وتراجع المناخ البارد والجاف ليحل محله المناخ المعتدل والممطر، مهد السبيل أمام تطور المجتمع الميزولتيكي " **mezolitik** " بين عامي 12000 ق.م و 15000 ق.م. إذ تتواجد الكثير من الآثار للمجتمع الميزوليتي في المنطقة.

لقد كان التطور من الناحية المجتمعية مرتبطاً عن قرب بالمناخ، لذا فالجفاف المفاجئ الذي حدث قبل 10 آلاف سنة تقريباً، مهد السبيل أمام نشوء المرحلة التي يقال عنها بالثورة النيوليثية (عصر الحجر المصقول) ليحل محل نمط التطور الذي كان عبارة عن الصيد وجمع الحاجات فقط. ونرى بأنه يوجد في الجزء الأعلى لنهري دجلة والفرات آثار للمجتمع النيوليثي والتي تعتبر أقدم آثار التاريخ. ويمكننا تعريف جوهر الثورة النيوليثية كثورة قروية تستند إلى ترويض الحيوانات والبدء بالزراعة. لقد أثبتت عمليات التنقيب في ديار بكر، وتشاي أوني آرغاني ـ جمه كوتي بار، وجمه خالان ـ باطمان، ونوالا تشوره ـ سيفرك أورفا بأن السكن بشكل جماعي يرجع تاريخه إلى 10000 سنة قبل الميلاد. وتحت التلال الترابية الموجودة بين نهري دجلة والفرات، تقبع آثار أولى قرى " غوند " ثورة العصر الحجري الأول. وتعني كلمة " غوند " **Gond** القرية باللغة الكردية، وبلغة اللويين ـ والذين يعتبرون أقدم شعوب الأناضول ـ وهم يدخلون في مجموعة اللغة الآرية ـ تعني كلمة غوند " بلاد الأماكن المرتفعة "، وقد تحولت كلمة غوندوانا "**Gondwana**" إلى كورديان " **kurdian**"، وفي العصور الوسطى أطلق عليها اسم كردستان بلهجة السلاجقة الإيرانيين. ويمكن القيام ببحث شامل في قسم التاريخ الكردي عن هذا الموضوع. في الحقيقة إن التلال الترابية التي نراها في يومنا هذا، تظهر بأن الثورة النيوليثية قد عاشت في هذه المناطق بشكل عميق وشامل. ولا يوجد في العالم أية منطقة توجد فيها مجموعات سكانية قديمة إلى هذا الحد.

هناك إجماع علمي عام على أن المجتمع النيوليثي هو الآخر قد انتشر مثل المجتمع الميزوليتي في العالم انطلاقا من هذه الأراضي. ومثلما يعتبر هذا الانتشار الأساسي أهم عصر قبل التاريخ، فإنه يتميز باحتوائه جميع الظروف الملائمة للحضارة من ناحية الشمولية الاجتماعية وأعاشتها. لقد تطور المجتمع النيوليثي على طول ضفاف الفرات وأواسط دجلة بين عامي 4000 ـ 6000 ق.م؛ ففي الوقت الذي مرّ فيه بمرحلة سميت بثقافة تل حلف، فإنه وصل في أعوام 6000 ق.م إلى إفريقيا الشمالية ـ مصر ـ وخليج البصرة ومناطق الفرات الأدنى والأناضول الأوسط وتشاتال هويوك، وفي أعوام ما يقارب 5000 ق.م وصل إلى القوقاز وشمال البحر الأسود والبلقان وشمال شرق إيران والهند والبينجاب وسواحل الهندوس، وفي أعوام 4000 ق.م وصل إلى الصين وكل أوروبا، وفي 3000 سنة ق.م إلى القارة الأمريكية. وتؤكد نظرية التاريخ العلمي

أن هذا النمط من الانتشار هو الأقرب إلى الصحة على أساس المعطيات. إن ثقافة تل حلف قد أوجدت جميع الوسائل اللازمة من أجل التحضر، كالصحون الفخارية والبلطة وحياكة الصوف وطحن الحبوب والعمارة القروية الجماعية والدولاب والآلات المعدنية النحاسية والمحراث، والإيديولوجية المستندة إلى مفهوم الربة الواحدة وقبول النجوم كإشارات... الخ ، هذه الأدوات هي النتاج الإنساني الكبير وهي التي تعبر عن فجر الحضارة في التاريخ البشري. وعند مقارنة دورها عبر التطور التاريخي لا يمكن مقارنتها إلا بأدوات القرن " 16-20". وتمتلك هذه الثقافة هذا المعنى تاريخياً.

أدى امتداد دجلة والفرات في واحة خصبة جداً وقريبة من خليج البصرة إلى محصول وفير هائل بفضل جهود المجموعات التي تمثل ثقافة تل حلف. وقد لعب دوراً بارزاً في ذلك، دخول الزراعة المروية عن طريق أقنية الري لمواجهة الجفاف الذي شهده الألف الرابع والثالث قبل الميلاد. وعند إضافة أشجار النخيل الكثيرة والأسماك إلى ذلك المحصول، تتوفر الإمكانية للبدء بالاستقرار في مرحلة تاريخية تقترن بمفهوم الجنة المتجذر في وعيهم الإنساني. وكانت هي المرحلة التي قيل فيها أن "التاريخ يبدأ بـ سومر". واعتباراً من بداية الألفية الثالثة قبل الميلاد دخلت الإنسانية في المرحلة التاريخية المدونة وذلك باختراع الكتابة المسمارية. وبالرغم من وجود العديد من الخصائص التي يمكن تعريف الحضارة بها، فإن الخاصية المميزة لهذه الحضارة هي ان جهد الإنسان مهد السبيل أمام فائض الإنتاج والذي أبرز موضوع القيمة الفائضة والعلاقات العبودية أي أنها أصبحت موضوعاً للملكية. وان النمط الذي حققه السومريين هو النمط الذي يقول عنه الكهنة (الزيكورات) والتي أنشأت الوحدات التي ستلعب دور مركز إدارة المجتمع والعمل الجماعي والمعبد. وقد أطلق عليه الكهنة اسم الدولة. إن هذه المراكز التي أخذت شكلاً قدسياً كممثلة للنظام السماوي في الأرض هي النمط الأولي للمعابد ومراكز العمل والوحدات العسكرية والتعليمية والمراكز الثقافية التي تطورت على طول الحضارة، وتعتبر الرحم لتمأسس الدولة. ان الاكتشاف الذي يطلق عليه الدولة أي زيكورات قد مهّد للكهنة الذين كانوا يعتبرون منظري تلك المرحلة، السبيل أمام إنتاج لا مثيل له، لذا فمنذ البداية كانت ستعلن بقدسية وكنظام مقدس وممثل للسماء على الأرض، وكانت ستهيمن على ذهن الإنسان وسترتقي في ذاك الوضع لتصبح مصدرا للسطلة الأكثر تطوراً.

لقد مهدت الزيكورات السبيل أمام تمتع بعض الناس الذين ظلوا خارج نطاق العمل المنتج، واعتماداً على الإنتاج المادي الكبير لكدح العبيد الذين كانوا أداة للإنتاج، بالرفاهية ووجود وقت فارغ من أجل الدين والمهن وأعمال السلطة من جهة، ويعتبر تحقيق اللاهوت السومري بخلقه نظام الآلهة كمركز إدارة

معنوي، مرحلة الهيمنة على البنية العقلية والفكرية والروحية من جهة أخرى. لقد تمم كل من التطور المادي والمعنوي بعضهما البعض، وأخذت الملكية المقدسة والعائلة والتمأسس الديني نمطاً جديداً كسند أساسي للعائلة، وأكتسب المجتمع المعتمد على وحدة الدم والسلالة بنية طبقية متمثلة بمؤسسات جديدة.

في الحقيقة إن السومريين هم من أوجدوا الدولة. ان رواد هذه المرحلة بقدر ما كانوا منظّرين كبار في البداية، فإن الطبقة التي تشكلت من الذين يقومون بمهمة وظيفية كإداريين لهم دور في التنظيم العملي للإنتاج كانت في مرحلتها الجنينية. وكان الانتقال من مرحلة الكهنة إلى مرحلة الملوك الكهنة امراً لا يثير النقاش، لأن الأرضية المادية والمعنوية كانت قد تطورت بشكل كاف. وعندما ندرس الميثولوجيا السومرية من خلال النصوص الموجودة نستطيع فهم سبب وصف السومريين لكل شيء قاموا به بأنه نظام إلهي. فقد آمن الناس في تلك المرحلة بأن النظام الذي شكله الكهنة هو نظام سماوي على الأرض وليس هو النظام الذي خلقه البشر. وكان النمط الأساسي للفكر يعتمد على الإيمان وليس على المعرفة. وإن نظام الآلهة كان يعتبر كل شيء. وكانوا يؤمنون بذلك من صميمهم بلا أدنى شك.

لم تحظ أية إيديولوجية بالتأثير على الإنسان إلى درجة التأثير الذي أحدثتها الميثولوجيا السومرية، ولا يمكننا إلا أن نقف مذهولين أمام خلق السومريين الميثولوجيا وتحويلها إلى لاهوت ومن ثم تنظيمها كدولة وإيديولوجية وتحويلها بعد ذلك إلى تيارات دينية وفلسفية، وجعلها منبع أولي ومسند للعلوم، وتحويلها إلى أشكال بدائية للصناعة والأدب أيضاً. ويجب ألا نستغرب من الأهمية التي أظهرها علم سومر " سومرلوجيا " يوماً بيوم كأهم فرع علمي في التاريخ، وهو مصدر هام جداً. وستبقى جميع التواريخ محكومة بالنقص والخطأ إذا لم يتم تحليل هذا المصدر. لذلك فإن حضارة سومر هامة جداً ولكن مع الأسف لم تفهم أهميتها إلا مؤخراً لتظهر إلى الميدان نتائج مذهلة.

يمكننا سرد المساهمات الأساسية التي قام بها السومريون في التطور التاريخي على الشكل التالي:

أـ اختراع الكتابة.

ب ـ الرياضيات والتقويم.

ج ـ أول ميثولوجيا ولاهوت شامل.

د ـ مؤسسة الدولة والسياسة، والتحول الطبقي.

هـ ـ القوانين والحقوق المدونة.

ف ـ التمدن والمعابد والمهن والتمركز التجاري.

ق ـ الملكية الخاصة والعامة.

ك ـ الأسرة المقدسة والسلالة.

ل ـ الآداب المدونة والملاحم والموسيقى.

م ـ أول استيطان والإمبريالية.

يمكننا إضافة مصطلحات ومؤسسات وأنظمة عديدة للعناصر التي ذكرناها. لكن حتى هذه اللوحة القصيرة تثبت أن الجسم والمصدر الأساسي لنظام الحضارة قد تشكل بالأساس، وإن الأشياء التي أضيفت إليها فيما بعد، لها بعد كمي ومحدود وهي الأجزاء التفصيلية وفعاليات التطور. وكان للسومريون مصطلح كانوا يحبونه ويستخدمونه كثيراً، وكان ينطق بـ **(me)** أي القانون أو خصائص الحضارة، وهذا يدل على أنهم كانوا يشعرون بكل شيء اخترعوه كمصطلحات مقدسة، وقد تم تعداد "104" مصطلحاً من هذه المصطلحات حتى الآن. وعلى ما يبدو فإن هذا العدد سيزداد، وإن الصفات الـ 99 التي أطلقت على الرب هي ناتجة عن المفاهيم السومرية.

إن المسألة الأساسية الأخرى التي يجب أن نتناولها في بحثنا المتعلق بالسومريين، هي التعبير الميثولوجي للصراع القائم بين النظام المستند إلى الأمومة والنظام المستند إلى الأبوة. لقد أصبحت نينهورساغ **"ninhursag "** آلهة النظام الجبلي في الشرق والشمال ويستدل عليها بالنجمة التي تعني ستيرك باللغة الكردية في الموقع الثاني في نظام الدولة الذكوري للسومريين، ويعتبر فقدان جنس النساء للقوة في المجتمع العبودي، ساحة صراع واسعة. كان للمرأة احترام كبير عند السومريين ولم تفقد ما تملكه، وكان لها مكانة متساوية في النظام الإلهي، وكان هناك صراع دائم، وفق قانون السن بالسن كما يقال، بين آلهة نظام الجبل "نينهورساغ" والإله "أنكي" **"ENKI"** إله الرجل الماكر و الذكي " إلاّ انه كان ينتهي بالوفاق غالباً. وعندما ظهرت إلهة باسم "إنانة" والتي خلقت العصر النيوليثي، أخذت اختراعاتها من "أنكي"، وعادت من مدينة الإله "أنكي" وهي "اريدو" **Eridu** إلى مدينة "أوروك"، وبذلك حققت نجاحاً كبيراً جراء ذلك. ولأن ذلك أصبح موضوع أيمان مطلق في ميثولوجية السومريين، لذا أصبح دينياً أيضاً. وجميع الصراعات الموجودة لتحول السومريين إلى دولة كانت عبارة عن انعكاسات مفهومة ومذهلة للصراع الطبقي وحروب المدن بين السلالات، والناس لا يدخولون في صراع مع بعضهم البعض البتة. ولا يمكن التفكير بذلك في النظام الإلهي، لأن العبد لا يمكن أن يكون إلا ظلاً، والآلهة هم وحدهم أصحاب الإرادة. وهم فقط الذين يستطيعون ان يتحاربوا أو يتفقوا باسم

البشر، وهذا يعتبر سيادة إيديولوجية مذهلة، وبأن الدولة التي مثلت النظام الديني والقانوني والسياسي في تحولها المركزي شكلت جوهر النظريات والمصطلحات. وتواصل هذه السيادة الحفاظ على كيانها حتى مع حدوث التحولات إلى يومنا هذا وبشكل ملفت للانتباه.

ب ـ الدور التاريخي للحضارة السومرية وتمأسسها

إن أهم سبب لعدم أخذ الحضارة السومرية مكانتها التي يليق بها في التاريخ العلمي رغم بدئها في مرحلة الحضارة بطريقة مذهلة، هو اكتشافها في زمن متأخر وهيمنة البنية الفكرية الأنانية الأوروبية، وتلعب أنانية حضارة الأغريق الرومانية دوراً هاماً في ذلك. وكل خطوة حضارية تملك طبيعة أنانية تحدد بدء التطور في ذاتها، وقد اتبع السومريون نفس الأسلوب الأناني، تجاه العصر النيوليثي، وحاولوا امتلاك جميع القيم والأشياء، حتى انهم ربطوا خلق كل شيء بالنظام الإلهي الذي خلقهم، ويقبع تحت هذا التمأسس والفهم الكامل حتى يومنا هذا، النظام اللاهوتي ـ الميثولوجي السومري، ويمكننا تعداد هذه التأثيرات على الشكل التالي:

أ ـ تشكيل المجتمع الطبقي: من المعروف علمياً إن مرحلة التحول المجتمعي هي الظاهرة الأساسية التي حققها الإنسان في كرتنا الأرضية. وتواصل المجتمعات البشرية بمعرفة وفهم وإرادة مرحلة التطور الطبيعي المستمر عند الكيانات الحية غير الإنسانية. إن القفزة التي حققها نوع الإنسان في مرحلة الفهم والإدراك التي مهدت السبيل أمام البنية اللغوية الحالية في نوع **Homo Sapiens**، أتاحت الإمكانية لقفزة في التكوينات الاجتماعية الإرادية. كانت المجموعات البشرية تعيش في مستوى المجموعات الحيوانية المتطورة في مرحلة المجموعات البدائية. ومع تطور العقل واستخدام أدوات وتقنيات العيش حدثت قفزة نوعية في نوع الإنسان العاقل هوموسابيينس "**Homo sapiens**"، إذ تحققت المرحلة الأولية والأساسية للثورة المجتمعية. وأهم خاصية لهذه الثورة المجتمعية هي فهم رقي العيش بشكل جماعي، وكما تتشكل العناصر الأولية الأساسية في المادة، ففي المجتمعية أيضاً هناك تطور للوحدات المتينة والثابتة في خط تصاعدي مع مرور الزمن. وبالتالي لدينا تاريخ مجتمعي استمر على هذا المنوال لآلاف السنين قبل ظهور التاريخ الحضاري.

إن الثورة القروية للعصر النيوليثي هي المرحلة الثانية الكبيرة في هذه الحقبة التاريخية. وتعتبر هذه الثورة التي حدثت قبل 12000 سنة أكبر خطوة للتحول المجتمعي. ويتواصل تأثير هذه الخطوة على تطور البنية العقلية البشرية

من خلال مؤسساتها المادية والمعنوية. إن الثورة القروية للعصر النيوليثي وبنية المجتمع الريفي التي استقرت وتطورت بالاعتماد على هذه الثورة، هي التي خلقت العناصر الأساسية التي لازالت تغذي الحضارة، وفي مقدمة هذه العناصر، العقلية الطبيعية للعيش الحر والتي لازالت مرغوباً بها حتى يومنا هذا، والصداقة الحية مع الطبيعة، والبنية الروحية التي لا يحكمها أو تؤثر عليها القوى الإلهية المخيفة، والمشاعر القوية للأم، ورغبة المساواة بين الرجل والمرأة، وتأهيل الحيوانات والزراعة، والتي لازالت تغذي الحضارة الأوروبية بوسائلها وإنتاجها، والإيديولوجية المعتمدة على هذه الوسائل والإنتاج، واكتشاف المعادن وقابليتها للاستخدام.

كان من غير الممكن ظهور المجتمع الطبقي السومري ودولته ومؤسسات البنية الفوقية له، وتطور الخط الحضاري الذي جاء بعده، لولا وجود النظام المجتمعي الكبير والوسائل التي غذت دجلة والفرات وخلقت هذه الحضارة، والتي اعتمدت على سهولها وطبيعتها. وقد يقال: " من غير الممكن إيقاف التاريخ، وكان لابد له أن يتطور في أي مكان آخر" إن هذا الرأي يعد فرضية. وسيتم بجدية تناول التاريخ الذي تحقق، وهذا هو الموقف الوحيد الساري المفعول للتاريخ العلمي. ويكتسب أهمية حيوية من حيث كتابة ومعرفة التاريخ بشكل صحيح.

إن فهم المجتمعات الموجودة خارج أوروبا عموماً، والشرقية بشكل خاص، لدورها التاريخي بشكل صحيح، يوفر لها الثقة بالذات وفرصة متابعة طريقها بشكل صحيح. وأن أخطر جانب لإمبريالية الحضارة الغربية هو جانب السيادة الإيديولوجية؛ إذ لا يمكن الدخول في طريق التطور السياسي والاقتصادي بشكل حر وسليم وامتلاك حصة في النظام العالمي دون كسر هذه السيادة. وأرى أنه من المناسب والهام تناول هذه المسألة بعمق في الأجزاء المتعلقة بها من دفاعي.

أرى إنني سأقع في نقص هام فيما إذا لم أتعرض لمسألة هامة أخرى والتي يمكن اعتبارها ملحقاً لمرافعاتي. فقد تم بذل جهود كبيرة من أجل تحول مجتمعي للإنسان القريب للمجموعات المشابهة للقرود التي ظهرت في المراحل الأولى للتاريخ والتي استمرت لمئات آلاف السنين قبل تكوين الشخصية الفردية والتي تعتبر فردية أعطت طابعاً رسمياً لمفهوم حقوق الإنسان الشخصية، وهي المستند الأساسي للحضارة الأوروبية. وسنتطرق لهذا الموضوع في الفصول القادمة. لقد بذلت الوثنية والطموطمية وعبادة الكائنات الحية والأديان التوحيدية والمتعددة الآلهة، جهوداً من أجل ربط الإنسان بالنظام والمجتمع.

ان كافة مؤسسات المجتمع الأمومي والأبوي والسحرية والشمانية

والكهنوتية والنبوية، تهدف إلى تخليص الإنسان من غرائزه الحيوانية، والتزامه بالقواعد الاجتماعية والنظام. لذلك قد نرى إن الطرق المستخدمة مأساوية وغير مفهومة؛ كان يتم تلقي المراسيم والهدايا وفي مقدمتها حول جعل الإنسان قرباناً كقسم من مرحلة التدريب البدائي، وكل ذلك من أجل إظهار القوة المجتمعية لنوع الإنسان. يجب ألا نقول بأنه مجتمع وحشي ونغض النظر عنه. بل رؤية الجهود الأصيلة الكبيرة التي بذلها اصل الإنسان من أجل الخروج من الحيوانية، والذي خلق الحضارة، وترويض الطبيعة بحيث تخدم الإنسان. ولولا تلك الجهود لما كنا موجودين.

إن الانتقال من ظروف طبيعية قد يحولها عدم المعرفة إلى جهنم في كل لحظة، والسير نحو عالم الجنة يمر من خلال طريق التحول المجتمعي المأساوي والصعب. إن مفهوم جهنم يوضح الصعوبات الدافعة هو أول ما ترسخ في عقل الإنسان، أما مفهوم الجنة ينادي دائماً الإنسان إلى الأمل والمستقبل والعيش الذي نطلق عليه اسم العيش الإنساني.

يجب علينا ألا ننسى قصة كيف أصبح الإنسان إنساناً عند خلق الميثولوجيا والأديان التي نراها فكاهية. إذا قارنا ذلك بقانون فيزيائي نقول: توجد حاجة لظاهرة التحول المجتمعي من أجل إظهار الطاقة والانفجار المجتمعي، كتحول اندماج ذرات الهيدروجين إلى ذرات الهليوم وتكوين الطاقة الشمسية. إذا فهمنا إن شخصيات الأبوة والأمومة والطوطم والآلهة والكهنة والسحرة والأنبياء هي مؤسسات خلقت هذه المرحلة، حينها يمكننا فهم المجتمعية بشكل أصح. وكخاصية أساسية لحضارة الغرب أو أوروبا أنها طورت بعض جوانب تلك المرحلة المعكوسة بشكل تدريجي وبطئ، أي تجربتها التي تنطوي على إزالة البنى الاجتماعية التي رأتها تتناقض مع مصالحها وتحريض الفرد باسم الحرية. وان جميع المؤسسات والأفراد الرأسماليين الأغنياء المتسلطون أكثر من جميع الملوك والأغنياء في التاريخ، هم نتاج لهذه الفلسفة المعكوسة. لقد أزال هؤلاء الأشخاص والمؤسسات، المعادن والجغرافيا والبنية التحتية والفوقية والجوانب المادية والمعنوية التي اعتمد عليها العمل الاجتماعي للإنسان منذ ملايين السنوات، ومزقوا جميع الجوانب التي تتناقض مع مصالحهم وتبنوا الجوانب الرابحة منها. كم يشكل ذلك تحضراً، وكم هو خارج عن الحضارة وحتى خارج عن نطاق المجتمع أي التوجه نحو التحول الحيواني، فهذا يعتبر من المواضيع الأساسية التي يقف عليها فلاسفة اليوم. ويتطلب تناول مدى تناسب رد فعل النمط الاشتراكي على ذلك بشكل واسع في الجزء المتعلق به.

إن تقييم الطبقية ومجتمع الدولة الطبقي الذي اخترعه السومريون دون شرح التطور التاريخي الأول للمجتمع سيحمل في طياته نقصاً كبيراً. ولم

توضح النظريات المجردة للمجتمع العبودي المسألة تماماً. ولم تشرح الواقع السومري كما هو مطلوب، لأنه لم يتم تحليله تماماً حتى الآن. لقد تم الوصول إلى بعض النتائج العامة من خلال تحليل نظام العبودية في أثينا وروما. و قد يكون من المفيد التطرق إلى هذه الأمثلة في مرحلة نضوج وانهيار العبودية. ولا يمكننا الوصول إلى معرفة تاريخية صحيحة إذا لم نتناول تشكيل تاريخ الحضارة والمجتمع الطبقي من مصادرها الأساسية، وبالتالي إذا لم نعد النظر بشكل واقعي وصحيح في الكثير من الخصائص والفرو قات الكبيرة التي تستند عليها هذه المصادر كما كانت بخطوطها الأساسية. وحتى لو وصلنا إلى المعرفة التاريخية فإنها ستتضمن نقصاً كبيراً. ويرجع سبب الاهتمام بالمجتمع السومري إلى ضرورة فهم خط التطور الذي بدأ به التاريخ كما كان في الواقع آنذاك. ولأن العلوم الاجتماعية والتاريخية القائمة لم تتوصل بعد إلى ذلك، لذا فإنها برأيي تحمل في طياتها مبالغات وإنكار ونواقص وأخطاء كبيرة. إن إحدى أسباب دفاعي تنبع من الحاجة التي أشعر بها لتوجيه نداء من أجل التعرف على التاريخ والمجتمع بشكل صحيح والتعامل معهما ضمن مقاييس العدالة.

يرتبط الانتقال من المجتمع المستند إلى اتحاد السلالات إلى المجتمع السياسي بتطور مؤسسة العبودية. ويجسد ذلك أرضية مادية للتحولات في العمق. لقد أتاح الجهد العبودي إمكانية إنتاج يفيض عن الاستهلاك بكثير، وأعطى الفرصة لتشكيل طبقة النخبة الحاكمة من التجار والمهنيين، دون الاعتماد على السلالات والتي تجاوزت كونفدراليات القبائل. وبذلك فقد بدأت بنية المجتمع الثلاثية الأساسية بشكلها الأصلي. لكنها لم تتخلص من رابطة السلالة تماماً، ولأنه لم يتم الفرز بخطوطه الرئيسية. فان هذه التطورات حدثت بشكل متداخل. ولا يوجد تعبير فكري واضح لهذا التكوين المجتمعي. لكن تم اعتبار شرح ذلك بتعابير ميثولوجية مذهلة من إحدى المهام الأساسية للكتاب والشعراء السومريين. وبقدر ما قدمت حضارة السومريين التحول العبودي بتعبير مثيولوجي مثير للانتباه وعلى شكل نظام الآلهة المقدس إلى المجتمع دون أن يشكوا أحد منه، وكأنه لا توجد حضارة أخرى غيرها. وفي الحقيقة فقد تغذى جميع المنظرين والإداريين في المجتمعات الطبقية التي جاءت بعدها من الميثولوجيا السومرية، أوصلوها إلى ترمينولوجيا تتلائم مع ظروفهم. يعني إن اللاهوت التي تكونت وتم اعتبارها جديدة، هي في الأصل من استمرار سومر وتطبيق تكتيكاته بشكل مناسب. لقد حققت الميثولوجيا السومرية سيادة الإيديولوجية إلى درجة أصبح فيها الملوك الكهنة ممثلين رفيعي المستوى، نفذوا واجباتهم كقوانين إلهية. إن الشيء الذي تم خلقه هو سيادة إيديولوجية خلدت مصالحهم. لكن طرحهم لها كإيمان وهدية للآخرين جاء بطريقة رائعة كانعكاس لنظام إلهي في السماء على الأرض ويعتبر فنا رائعا ومذهلا في خلق المجتمعية.

كان العبيد عبارة عن ظل وعبد منذ الألفية الرابعة حتى الثانية قبل الميلاد. وكان يتوجب على الجميع إبتداءاً من الملك الكاهن وحتى كادحي الأرض، التحرك كل حسب موقعه المحدد، مثل القانون في النظام الذي كان يسري في المعابد. ومثلما تكون حركة النجوم ذات نظام ثابت في السماء، هكذا من الضروري ان يكون الحال على الأرض أيضاً. حتى انه لا يمكن التفكير في ذلك بطريقة أخرى. ويوجد معنى لجميع العواطف، فهي كما يشاء الإله في إطار مفهوم هذا النظام. ولا يمكن أن يكون للشخص عاطفة كما يريد، ولا تفكير مختلف عن عالم تفكير الإلهة. فهناك نظام أزلي سرمدي، هو نظام المشيئة الإلهية.

إن هذا الأثر الإيديولوجي الأول للطبقة الاستغلالية الحاكمة المعتمدة على جهد الرق هو أثر كبير. عندما كان يموت الملك الإله، كانت تدفن كل حاشيته معه ليعيشوا معاً في العالم الآخر، إذ كان يعتقد إنه مساو للآلهة الخالدين. لقد عثر على سبعمائة جثة أغلبها من النساء الخادمات والزوجات في قبر احد الملوك. لقد دفن هؤلاء العبيد مع الملك وهم أحياء، وكانوا يعتبرون ذلك وظيفة هامة لهم، ولا يمكنهم التفكير حتى في التعبير عن آلامهم ومخاوفهم. وقد عثر على نفس الممارسات في قبور الفراعنة المصريين. إن الطقوس الدينية التي تقدم الإنسان ضحية عبادة بدرجات مختلفة والإيمان بها عند السومريين لها ارتباط قوي بالقوة الإيديولوجية للعبودية.

وقد وصلت الطبقة الاستغلالية هيمنة سيادتها الإيديولوجية عن طريق التجديد والصيانة اللازمة دائماً أمام يقظة العقل البشري وإرادته عبر تاريخ الحضارة. ولم تتحطم السلاسل حتى ولو للحظة واحدة، بل تم تدعيمها وتجديدها باستمرار. وعندما كان جهاز الدولة السومرية أداة بريئة تؤمن بهذا الأمر، قام الذين جاءوا فيما بعد بتدعيم كفاءة النظام باستمرار عن طريق أنماط متعددة للسيادة الإيديولوجية التي كانوا لا يؤمنون بها وتم إقناع الطبقة السفلى بها. لم يتم كسر هذا النمط من السيادة على العبيد رغم الجهود الكبيرة التي بذلتها الإنسانية حتى يومنا هذا، من أجل التعبير الحر عن الرأي والإرادة، بل على العكس من ذلك، لقد تم تدعيم هذه السيادة من أجل ديمومتها وتوسيع نطاقها عن طريق مؤسسات تعليمية لضمان هيمنتها. ويمكن أن تملك قوة تهيمن حتى على الموروثات عن طريق التكنولوجيا الحديثة. لقد تطورت في واقع السومريين على نمط رق المعابد المشتركة، أما في أثينا وروما فقد ساد الرق الخاص.

ب - إن التطور الهام الآخر الذي يعتبر من أولى التطورات في المجتمع السومري، هو المستوى الذي وصل إليه فرق الجنس. وكانت المرأة هي القوة الإنتاجية الحاكمة في العصر النيوليثي الذي كان السومريون يقفون إلى

جانبه. إن الزراعة واستئناس الحيوانات هي من نتاج المرأة. وتحمل الثورة القروية أي نظام العيش المستقر بصمات المرأة كونها تتناسب مع طبيعتها. وتعتبر صناعة الفخار والنسيج وطحن الحبوب من الأعمال النسوية، وتتجمع الأسرة حول المرأة، وكان النسب يحدد حسب المرأة. وكان النظام الأمومي هو الحاكم ويجد تعبيره الإيديولوجي في المعتقدات الدينية المعتمدة على الآلهة التي تتمثل بالنجوم والقمر. ان الفروقات بين الجنسين والتي تتطور بشكل متوازن مع الفروقات الطبقية الموجودة في المجتمع السومري، تجد تعبيرها في المثيولوجيا بشكل مكثف. وهذه الانعكاسات بين الفروقات الموقعية تصبح مذهلة هنا.

لقد بدأ موقع الآلهة المسيطرة يضعف؛ إذ تلقت ضربة مميتة في مرحلة بابل بشخصية "تيامات" **tiamat**. وكان الابن الأصغر "مردوخ" **marduk** يمثل ثقافة الذكور التي كانت تتجه بسرعة إلى الإله الواحد. وسيعتبرها النبي إبراهيم أساسا فيما بعد وسيلعب دور جد الأنبياء لتوحيد الإله. والمرأة التي تمتعت في المعابد بتأثير الكهنة بشكل يوازي تأثير الرجال. انتقلت الى الدرجة الثانية في البيت. ويعتبر أول بيت دعارة تحت اسم "مثقديم" **musakatdim** من اختراع السومريين. لم يتراجع موقع المرأة إلى الدرجة التي انحدر إليها في الموجة الثانية للحضارة. ونرى في الميثولوجيا السومرية موقعاً يقارب الوفاق.

ج ـ إن الثورة ودولة المدينة تعتبران إحدى الاختراعات الأساسية التي حققها السومريون. وفي الوقت الذي يعتمد فيه العصر النيوليثي على ثورة القرية والزراعة، فإن مجتمع الحضر يعرف بالأساس بالتمدن وكدولة. لقد أدى تمأسس البنية التحتية الاقتصادية وتمأسسات البنية الفوقية المعتمدة على مركزية الدولة إلى تنظيم المجتمعات الإنسانية مجدداً وبشكل مذهل لم يشاهد في تاريخ المجتمعات حتى تلك المرحلة. لقد تمخضت بنية المجتمع الكبيرة والمتداخلة عن عقلية وتمأسس جديدين. فقد تمأسست الكتابة والأدب والعمليات الحسابية والتقويم والصحة والتعليم وتحولت إلى مهن جديدة. وكافة هذه المهن وما شابهها تظهر تمهيد السومريين السبيل أمام هذه الأوليات. وتشكلت في التمأسسات الجديدة بنية اجتماعية جديدة استندت إلى خصائص المهن بالإضافة إلى روابط السلالة. والتمأسسات الاجتماعية وأنماط العلاقات التي مهد السومريين السبيل أمامها تواصل استمرارها حتى يومنا هذا، وتزداد غنى في الشمولية والتفصيل. ولا معنى لآخر حلقة من السلسلة إذا لم تكن الحلقة الأولى موجودة.

د ـ تحظى التمأسسات الاقتصادية السومرية بالأهمية باعتبارها من المكونات الأساسية للحضارة. إذ تمأسست وتطورت علاقات الملكية الجماعية والخاصة، وتم الاعتراف أيضاً بنمط الملكيتين على الأراضي، وتحولت الحرف بانقطاعها عن الأرض الى مهن مستقلة، وأصبحت المهن التي لا يمكن للاقتصاد

التخلي عنها وفي مقدمتها التجارة والنجارة وصناعة المعادن والفخار والنسيج من الأساسيات التي يعتمد عليها المجتمع السومري، وان تفوق وحداثة السومريين يعتمد بنسبة كبيرة على قوة تلك المهن، وللنبوة والحكمة علاقة وثيقة بهذه المهن.

هـ ـ تمثل المؤسسات الفوقية للمجتمع السومري موقعاً خلاقاً غنياً لا مثيل له في حينه، وقد شكلت الأقسام الملكية والمجلس والعسكرية والوزارية لتمأسس الدولة المثال الأول للبيروقراطية، وأصبحت مصدراً للتطورات التي حدثت بهذا الاتجاه فيما بعد. فالقيم التي تشكلت كمفاهيم ومؤسسات ازدادت تأثيرها وامتلكت قوة الوصول إلى يومنا هذا. وسيتضمن أي تحليل للتاريخ ولواقع اليوم أخطاء ونواقص هامة، فيما إذا لم نر ونقيم تكوين المصدر بهذا الصدد.

و ـ يمتلك الخلق الأيديولوجي والتمأسسات مكانة هامة في تغيير وتطوير البنية الذهنية للإنسان، ويلعب الخلق الميثولوجي للسومريين ونمط عبادتهم دور الوقود والتشحيم في تسيير مؤسسات البنى التحتية والفوقية للمجتمع. لقد كانت النخبة الحاكمة السومرية ولا سيما طبقة الكهنة على علم بأنه لا يمكن استمرار وديمومة إدارة الدولة والمجتمع الطبقي دون خلق طرق إقناع المجتمع بالمشاريع الإيديولوجية التي تدير مسننات المرحلة. لا يظهر تنظيم السلالة للمجتمع القروي البسيط المعتمد على الزراعة البسيطة وتربية الحيوانات في المجتمع النيوليثي احتياجا لقواعد ومؤسسات إدارية أو فكرية متداخلة. ولا يظهر احتياجاً لمصدر ميثولوجي غني أيضاً، تحقق المؤسسة الكهنوتية تطوراً هاماً وتصل إلى مستوى المؤسسة الأساسية بطريقة موازية لتصاعد الأصوات في المجتمع السومري التي تطالب بتجاوز العصر المستند إلى ثقافة الأمهات والأجداد والذي تتم فيه المحاولة لربط مفهومياته بالطوطم وبالكيانات السماوية بشكل محدود.

مازالت المشاريع الإيديولوجية السومرية تذهل عقول البشر حتى الآن، وندرك ذلك بشكل أفضل من خلال تطور الدراسات، أن البنى الميثولوجية التي تشكل أساس اللاهوت والآداب، هي المشاريع الأكثر تأثيراً على البنية الإيديولوجية لتاريخ الحضارة، وتحتل البنية الفكرية السومرية مكانة هامة في بنيان سائر الدوغمائيات، ولذلك تعتبر السومرلوجيا أحد فروع التاريخ الذي تزداد أهميته يوماً بعد يوم، إذ إن بنية النمط الفكري الدوغمائي يعتبر مصدراً منفتحاً وغنياً للتحول الديالكتيكي.

يمكننا تعداد العناصر الأساسية لمعايير الفكر السومري الأساسية:

1ـ ظهور بنية ديالكتيكية بدائية. إن تضاد السماء هو الأرض، وتمثلاًن المبدأ الأنثوي والذكوري في نفس الوقت. ويطلق على السماء أسم " أن **EN** ، وعلى الأرض "كي" **ki**. إن " أنكي" **Enki** هو نمط الاتحاد الأنثوي والذكوري، ويدرك بأنه في اتفاق مع الإلهة، وهو بموقع الجد لمفهوم الأب، ويتزوج من جميع الآلهات، ويمهد السبيل لولادات ذات خصائص مميزة، وتلقت الآلهة الأم "تيامات" ضربة قاصمة ـ ملحمة خلق بابل ((أنوما أليش)) في هذا الموضوع والتي تملك خاصية تعليمية ـ من قبل المولود الأخير إله بابل ((مردوخ))، ويتم إبعادها عن مجلس الآلهة، وهكذا تراجعت كثيراً عبادة الإلهة والمقولة الميثولوجية التي تعبر عنها منذ الألفية الثانية قبل الميلاد. ويرتبط هذا التطور عن قرب بانحدار مكانة المرأة من موقعها الاجتماعي، ويتوطد مبدأ السيادة الذكورية هيمنته في بنية المجتمع والدولة. لقد شهد المجتمع تحولاً إيديولوجياً وأخلاقياً كبيراً بعد اكتساب الميثولوجيا نمط الدين الإلهي الذكوري الموحد ابتداء من مؤسسة الدولة العليا حتى الوحدات الدنيا من السلطة الملكية، وكان الملك هو الإله نفسه أو ممثلاً مباشراً للإله، وتحولت علاقة العبيد بالسيد إلى علاقة العبيد بالإله. وأسفر تحول الفكر الميثولوجي إلى حالة الإيمان أي " الدين " والقانون أي "الحقوق " الأساسية، عن تطور تاريخي واجتماعي والذي سيخلق نتائج هامة، إن المعابد السومرية وأدوبا **Edduba** أي الأكاديميات الثقافية هي من أكثر المؤسسات التي حازت على التفكير من أجل مواصلة وتطوير سلطة الملوك ـ الكهنة.

كان الدين بوضعه اللاهوتي من جهة والمشاريع التي كانت على شكل ملاحم أدبية من جهة أخرى، هي المهمات الأساسية لمفكري وأدباء الكهنة في تكوين الميثولوجيا، وكانت مدينة نيبور المقدسة "**Nippur**" التي أطلق عليها اسم بابل، مركزاً للثقافة والدين والآداب لتلك الأعمال، واستمر لآلاف السنين.

2 ـ إن النظام الفكري يعتمد على النظام السماوي. وكما يكون للنجوم والقمر والشمس مسار حركي لا يتغير، فإنه يجب على قوانين الأرض أن تمتثل لذلك، وإن الدولة والملك الكاهن يمثلان هذا النظام باسم الإله، وإن إرادتهم مقدسة وكلامهم قانون. ولكل قوة موجودة على الأرض إلهاً، ويسري نفس الشيء على القوى الاجتماعية. ولا يمكن التفكير بأي خاصية أو شيء أو كيان دون إله، ويجب أن نطلق على ذلك تسمية نمط التفكير اللاهوتي" الإلهي ". وسيشهد هذا النمط الفكري فيما بعد تطوراً طبيعياً كبيراً ليصبح بداية نمط التفكير الفلسفي في اليونان والعلمي في أوربا المعاصرة. لقد خلقت أنماط التفكير هذه بعضها البعض بروابط وثيقة كونها خلقت من بعضها حتى ولو وجد تناقض على شكل إنكار بعضها البعض في قوالبها الأساسية. ولا يمكن شرح تاريخ الدين والفلسفة وتاريخ الفكر العلمي دون توضيح الروابط الموجودة فيما بينها. لقد كان النمط الفكري

السومري متقدماً جداً في مرحلته، وظهرت القوانين الإلهية كقوانين علمية فيما بعد.

3- تحتل المفاهيم الميثولوجية الأولية الأساسية، كالإنسان الأول والجنة والجحيم والطرد من الجنة والطوفان، مكانة هامة في الفكر السومري، وأن سرد الصعوبات والتناقضات التي تظهر في الطبيعة والمجتمع بلغة الشعر على نمط ملحمي هو من تقاليد السومريين، وقد عبروا عن الظواهر الطبيعية والمجتمعية التي حولوها إلى نظريات ومفاهيم خاصة بهم في إطار نظام كامل. وطبقوا لاهوتيتهم على كل حادثة وعلاقة واستخلصوا نتيجة منها، إن هذا الموقف يمهد السبيل لانفجار فكري، ولا يتخلص أي شيء من موقف ومحاكمة النظام الذي أقيم، وليس هناك شيء مستقل، فكل شيء يرتبط ببعضه البعض، وكأننا أصبحنا أمام المبدأ الأول للديالكتيك بطريقة بدائية، إن مصدر اليوتوبيا والملاحم الأولى هو عند السومريون، لقد وصلت يوتوبيا الجنة، وحياة آدم وحواء وطردهما من الجنة، وقتال الاخوة الأول بين قابيل وهابيل، وملحمة كَلكَامش الذي يعتبر نصف إله، إلينا مدونة، إن هذه اليوتوبيا والملاحم تعبر عن النضال الذي نتج عن الصعوبات التي خلقت التناقضات الاجتماعية مقارنة مع الحنين إلى أيام المساواة الكاملة في المجتمع النيوليثي، هكذا يكون الشرح والمعنى، وكان الوقت لا يزال مبكراً من أجل الشروحات العلمية، لأن عقل الإنسان بعيد عن العصر العلمي، ويجب ألا ننسى بأن العلمية مثلما كانت محدودة جداً حتى في الحضارة الإغريقية والرومانية، فإن فلسفة هذه الحضارة لم تتخلص من الميثولوجيا واللاهوت أيضاً.

ز - إن أول من وضع الممارسات الأولى للاستيطان والآلهة هو الحضارة السومرية، إن " سارغون " الذي فتح ووحد دويلات المدينة السومرية، وأسس السلالة الأكادية قد أصبح أول شخص في العالم لقب بالإمبراطور، إذ بدأ سارغون بمرحلة الدولة الاستغلالية، وأن دويلات المدينة السومرية لم تتجه قبل ذلك نحو الفتوحات أو الاستيطان عدا إنشاء بعض المخافر من أجل الدفاع عن النفس ومن أجل التجارة، إلا ان سارغون أنشأ عاصمة ضمن المدن والمستوطنات بدلاً من مخافر، وخلق النظام التوسعي على أساس ممارسة القوة، ولم يقم جميع الإمبرياليين والاستيطانيين في العالم فيما بعد سوى بإتمام ممارسة ذلك. يعتبر قتل الإنسان بالعنف المخطط له وأخذ ممتلكاته وجعله عبداً، وإنشاء مستوطنات في الأماكن التي تحقق مصالح المعتدي وقوة إدارية تابعة فيها، من أهم مراحل التطور التاريخي، ويجب أن معرفة أنهم أنشؤوا إمبراطورية عالمية رائعة لتلك المرحلة. إن السومريين ناهيك عن أنهم مجتمع دولة طبقية، فهم أصحاب حضارة إمبريالية ذات بنى عرقية عديدة.

ح ـ يعود شرف وضع النصوص القانونية المكتوبة الأولى للسومريين أيضا، فقد أبدوا اهتماما بتنفيذ قوانين الإدارة الأساسية للمجتمع وفهمها والالتزام بها من قبل الجميع وكذلك حفر القوانين على الصخور ونصبها. لقد وصلت شهرة قوانين حمورابي وأورنامو إلى يومنا هذا. وتشكل موضوعات الموسيقى والشعر التي كانت من القيم الحضارية الأساسية، أساساً للنشاطات الموسيقية في يومنا هذا أيضاً، وليس من الصعب إثبات ذلك، فقد حصلوا على اللحن والأغنية الشعبية والمقام ووسائله وأثروا على المراحل التي جاءت بعدهم بآلاف السنين.

ط ـ هناك مسألة يجب توضيحها لأهميتها، ما هو مصدر ومنشأ السومريون..؟ ما هي خصائصهم العرقية..؟ وإنكار مواقفهم حيال الكيانات العرقية..؟ ماذا بقي من الأساس العرقي لحضارة تركت بصماتها على التاريخ إلى هذه الدرجة الكبيرة..؟ لاشك أنها أسئلة هامة، ويجب التعمق في الأبحاث. أن منطقة السومريين هي منطقة تقاطع لمنطقتين أساسيتين تلعبان دوراً كبيراً في التاريخ، ومن الواضح أن مملكة السومريين التي كانت تقع في أخصب منطقة بين الصحراء العربية وسلسلة جبال طوروس ـ زاغروس ستتعرض للاعتداءات والغزوات الدائمة كلما تطورت حضارتها، إذ كانت الحضارة السومرية تفتح الشهية وتبهر العيون بغناها كالإمبراطورية الإغريقية والرومانية، والأكثر من ذلك كانت تتبع سياسة توسعية دائماً.

انطلاقا من مبدأ الفعل ورد الفعل الموجود في هذه الحياة بكل ثقله، لابد أن يتم تنفيذ الحكم الديالكتيكي على شكل التطور التاريخي، إذ لم تتوقف اعتداءات الساميين من الجنوب والغرب، والآريين من الشمال والشرق، أي وعلى حد قول السومريين اعتداءات المجموعات والقوميات ذات الجذور الهورية "**Horrit**" وستتكاثف عند فهمها للحضارة.

إن هذا الرأي يمكنه أن يفسر نهاية السومريين. لكن المصادر لا تتيح إلا إمكانية محدودة لذلك وتظهر الوثائق والصحون الفخارية التي عثر عليها خلال عمليات التنقيب بأن الانتشار كان من الشمال والغرب، ولم يترك العموريون " **Amorit**" الذين بأنه من الجنوب والشرق أي وثيقة كونهم كانوا يمثلون الرعاة، ومن المحتمل أن تكون المجموعات المشاعية الصغيرة التي جاءت من تلك الساحتين قد أنشئتا وحداتها السكنية في الألفية السادسة قبل الميلاد، حيث أدت الإمكانيات الإنتاجية المختلفة والمثمرة إلى التحول المطلوب في المرحلة الزمنية الطويلة وخلق تميّز منشأ السومريين إن وجود الكثير من الكلمات من أصل الهوريين "**Horrit**" والعموريين "**Amor**" في بنية اللغة السومرية يثبت صحة هذا الرأي. لكن ذلك لا يثبت أن السومريين لم يكونوا قوماً أصلياً، بل على العكس، فكما يحدث دائماً يظهر وجود ثقافي جديد من وحدتين

ثقافيتين مختلفتين عن طريق التداخل فيما بينهما والاتحاد عن طريق تركيب رفيع المستوى.

ج ـ النتائج الدائمة للحضارة السومرية

في النتيجة لقد تعرضت الحضارة السومرية إلى تحولات مذهلة أدت إلى مواصلة نفسها في الكيانات الثقافية التي ساهمت في تكوينها بالذات والكيانات الثقافية الأخرى، واحتلت مكانة مرموقة في التاريخ، بات الجميع يفهم قيمتها جيداً مع مرور الزمن، وقد اثبت في التاريخ بأن السلالة الأكادية لسارغون التي كانت يثقل فيها الجانب السامي الطاغي هو أول مثال للتغيير، وإن اللغة الرسمية والهيمنة الثقافية تمتاز بشخصية سومرية تماماً. ونرى كثافة في بنية اللغة السامية تحت حكم هذه السلالة التي حكمت بين عامي 2350و 2250 ق.م. وربما عقد حملة الكوتيين "**Guti**" ذات الجذور الآرية والهورية اتفاقية مع الأعيان السومريين كرد فعل على ذلك. وهكذا تتكون حالة توازن جديدة وفرصة للتحول، ونرى هنا طغيان الثقافة الإيرانية الإيلامية. لقد تعرضت المنطقة من الشرق والجنوب إلى غزو المجموعات السامية ـ العمورية في الألفية الثانية قبل الميلاد، وبدأت مرحلة دول المدينة والدويلات العمورية بعد انهيار أعيان أور "**ur**" الثالثة. لقد فقد أعيان حمورابي العموري الشهير والسومريون قوتهم السياسية تماماً في عام 1800 ق.م. وباتت لا تستخدم اللغة السومرية رسمياً، وأصبحت اللغة الأكادية البابلية والتي هي جذر اللغة الآشورية واللغة الكلدانية اللتان مازالتا حتى يومنا هذا، لغة رسمية. وأصبحت لغة الثقافة في الشرق الأوسط عامة اللغة البابلية واللغة الآرامية. لقد تحقق التوازن بين الثقافتين في عام 1600 ق.م بعد الاعتداءات التي قام بها القصيين والميتانيين والحثيين من الشمال والذين ينحدرون من أصول آرية هورية. لكن بقيت ذهنية النظام ولغته بابل والبابلية أيضاً، وبذلك فقد مرت الثقافة الآشورية من المصفاة البابلية، واحتلت مرحلة الآداب واللاهوت البابلي مكانتها الكبيرة في التاريخ، وحدثت نقلة متميزة في الرياضيات وعلوم الفلك، وقام أعيان الآشوريين ـ العموريين في نينوى التي تقع في شمال بابل بتحفيز هذه المرحلة المتقدمة، واجتاحت القيادة الإيديولوجية والثقافية البابلية والقيادة السياسية والعسكرية الآشورية كل مناطق الشرق الأوسط.

لقد تم إكمال التحول الأكادي في العهد البابلي والآشوري في الحضارة السومرية، وانتشر نحو سائر مناطق الشرق الأوسط مباشرة، وإلى المناطق الأخرى من العالم بشكل غير مباشر، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا بسبل العنف الإمبريالي، وأن مساهماتها الإيديولوجية والثقافية محدودة، وتم تعليم اللغة

السومرية كلغة قديمة مقدسة، ومع ترجمتها باستمرار يزداد تأثيرها في العالم، وتعرضت للاغتراب بعد تجسيد الثقافات المحلية لبعضها البعض، وزال كيان اللغة السومرية من الوجود مع بداية الميلاد.

عندما ننظر إلى مكانة الحضارة السومرية في التاريخ، سنوافق على أنه لا توجد حضارة أثرت بعمق على الإنسانية وعلى مدى طويل كالحضارة السومرية، لأنها امتصت وغذت الإنسانية بين عامي 4000 - 2000 ق. م بشكل مباشر، وبين عامي 2000 - 500 قبل الميلاد بشكل غير مباشر. ولا يمكن لأية إيديولوجية أخرى أن تعد نظام العبيد من خلال مؤسسات البنية التحتية والفوقية للمجتمع وتجعلها دائمة ومقدسة من خلال الدوغمائية الأدبية، والتوقف على معاني ذلك يتمتع بأهمية بالغة، ومن خلال تحليل الحضارة يجب إظهار ذاك المعنى. وعندما نقوم بتقييم ملموس وبالخطوط العامة، يمكننا التوصل إلى النتائج التالية:

1- لقد قامت الحضارة العبودية السومرية على أكتاف القيم الاجتماعية للعصر النيوليثي والتي طورتها الشعوب في منطقة الهلال الخصيب خلال عشرة آلاف عام، وامتلكت التكنولوجيا والعلم الخاص بالعصر النيوليثي عن طريق إقناع نظامها المنتج على الأغلب وعن طريق التجارة أحياناً والعنف في أحيان أخرى، وقامت بتمأسسها على أساس فروع مهنية ومسلكية وحولتها إلى غنى غير عادي ضمن كيانها، لقد جمدت الشعوب والاقليات العرقية للعصر النيوليثي مقابل تصاعد حضارة الرق السومرية، كما هو موقف الإمبريالية الأمريكية حيال الشعوب في عصرنا هذا. لقد قلبت الإمبريالية السومرية الشعوب رأساً على عقب ولا سيما في المرحلة الآشورية، إلى درجة أنه مازال يعاش تأثيرها في الشرق الأوسط وكل العالم، وتحول ذلك إلى إرهاب وإبادة جماعية من جهة، وتثبت بالأرض والخازوق من جهة أخرى، لتترك أثراً لا يمحى من الذاكرة الإنسانية. ولقد تواصلت ممارسات الاستغلال والهيمنة في المجتمع الطبقي على الإنسان حتى يومنا هذا. وإن كان تمارس إبادة الإنسان في حاضرنا بشكل منظم ويتصاعد ذلك بشكل يوازي التطور التقني، فإن هذا الوضع ناتج عن التزام المجتمع الحاضر بالواقع العملي للحضارة الأولى، التي ترسخت في ذاكرة المجتمع وراثياً. قد يوجد للذاكرة الاجتماعية مورثات تتكون باستمرار مثل مورثات الإنسان التي تمهد السبيل أمام نفس الصفة، وتسكن هذه المورثات في ذاكرة المجتمعات اللاحقة وتحدث نفس التأثير. تعيش الطبقة المستغلة حالة ضعف وتراجع في الوقت الذي تتضخم فيه الطبقة الحاكمة. لقد خلق ديالكتيك الظلم والاستغلال بحيث لازال تشتيت هذه العجلة غير ممكناً. إن الإنسانية جزأت الذرة، ولكنها لا زالت بعيدة عن تشتيت عجلة هذا النظام، لا داعي لوجود النقص والزيادة في المجتمع، إذ يمكنه أن يكون متزناً وسعيداً إذا لم

يجدا.

لقد أدى هذا الوضع إلى خلق مأساة الإنسان التي تعتمد على الوعي البدائي المختلف عن الحيوان، والحيثيات وخط تاريخي آخر واتجاهات المقاومة والحرية، وتعبر المؤسسة النبوية في جغرافية الشرق الأوسط عن هذا المعنى.

نرى في المثال الأول المثير أن الحضارة تبدأ بسرقة مساواة العصر النيوليثي التي كانت خيال الجنة في ذاكرة الإنسان، والمجتمع الخالي من الحروب وتنحية الآخرين إلى خارج التاريخ وجعلهم دون تاريخ. وتتحول الحضارة تماماً إلى تنين وذلك من خلال تحويل القيم الى ملكيتها وإقامتها تمأسس الدولة، وعن طريق هضمها المجموعات العرقية والأفراد الذين لا يمتلكون المعدات.

2- إن خلق الدولة عند السومريين كهوية وخلاصة للمجتمع الطبقي، لهو شيء غير عادي ومثير. وتعتبر الدولة أداة بحيث لا يوجد أي حلم إلا وتحققه تقريباً، ولا يزال ذلك هو الجانب الطاغي للدولة. هناك مقولة للعثمانيين تقول: ((إما ستخضع للدولة تماماً أو احسب انك غير موجود))؛ يرى الرجل الذي يمتلك الدولة - أو القومية التي تمتلك دولة - نفسه بأن له الحق الطبيعي في كل شيء وذلك من الله. وهذا يدل على أن معنى الدولة عميقة إلى هذه الدرجة. والمثال السومري الذي أظهر مصدر قوة الدولة هو الأداة المناسبة لتحليل الحضارة، كونه كان المثال الأول والطازج، هناك قوة غير عادية ولا يمكن مقارنتها بالقطاعات الاجتماعية المتبقية خارج الدولة والمجموعات العرقية والفرد، وإن هذه القوة تتجه نحو الكمال دائماً. إن إيجاد الكهنة السومريين لإيديولوجية تكوين الدولة بمهارة، وتكوينهم للذهنية الاجتماعية، والنظر إلى الدولة كنظام إلهي على الأرض من خلال تلك الذهنية هو شيء مثير ورهيب للغاية. تهدف الميثولوجيا والعلوم الإلهية أصلاً إلى خلق مجتمع طبيعي أبدي مقدس، وتكريس السيادة على إنها نظام الطبيعة. وفي الحقيقة فإن السلطة الإلهية هي أعيان الملكية المتصاعدة. لكن قول ذلك بشكل مباشر وتقديمه إلى المجتمع، يزيل مصداقية المقولة من جهة ولا يمكن من أقامتها والاستمرار عليها من جهة أخرى. فالدولة هي في وضع يتطلب تأسيسها وكسبها في الإيديولوجية أولاً. لقد خلقت الدولة عند اكتساب الطابع الإيديولوجي والاتحاد مع تكنولوجيا العصر النيوليثي في حدود الإنتاج الفائض، وعند تحقيق الأول فأنه بالإمكان الحصول على الثاني، ويؤدي اتحاد الاثنين إلى إنتاج ليس له مثيل قبل تلك المرحلة.

من الواضح إن المعبد السومري يشكل الرحم الأساسي للدولة. وهذا يعني إن الدولة ليست التعبير العلمي لعقل الإنسان بل هي التعبير اللاهوتي والدوغمائي له، إنني أقدم تعريفاً جديداً ومنفرداً؛ إن الدولة كحضارة وجوهر هذه

الحضارة هي التعبير اللاهوتي للمفهوم الدوغمائي الذي لم يتكون فيه الفكر العلمي في المرحلة البدائية للفرز الطبقي. وتقبع في اساسها دوغمائية الإيمان وليس العلم، وفي إطار هذا المفهوم فإن الدولة ربما هي اكثر أداة خارج عن العصر ولا سيما في أشكالها الكلاسيكية غير الشعبية، وسنرى في الأقسام القادمة بأن أهم الخطوات الهامة والتقدمية التي خطتها أوروبا بهذا الصدد ـ حتى ولو كانت محدودة ـ هي أنها منحت للديمقراطية مكانة في طبيعة الدولة، لكن ذلك لم يتحقق إلا بالنضال والمقاومة المريرة اللذين خاضتهما الشعوب والطبقات والقوميات والأفراد من أجل الحرية. توجد روابط وثيقة بين فكرة واعتقاد الدولة التي تطورت فيها المركزية والإله الواحد وبين فكرة واعتقاد الدولة والإله. وبقدر ما تجعلون الإله قوياً وغير مفهوماً وصاحب جميع الصفات ـ هذه الصفات هي خصائص الحضارة الأساسية ـ ولا يمكن الوصول إليها، فإنكم تجعلون الدولة والأقنعة الحضارية المختبئة فيها قوية وغير مفهومة ومخيفة ولا يمكن الوصول إليها. إن هذه الخصائص هي في الوقت ذاته خصائص الملوك أيضاً. إن جوهر تعليم الملك يكسب هذه الصفات أيضاً، لأن هذا هو ما يليق بممثل الإله. لقد كان الطوطم هوية ملخصة للمجموعات الاجتماعية مثلت قبل المجتمع الطبقي؛ أي بشكل آخر كان نسبها. ولم يكن مخيفاً لعدم وجود طبيعة استغلالية للمجتمع، وهو ليس إلهاً، لقد غيّر الطوطم مكانه من الأرض إلى السماء بعد أن بدأ الصعود إلى منزلة الإله مع تطوير الطبيعة الاستغلالية من قبل زعماء القبائل وتجرد الطوطم من صفة القريب والممكن لمسه وغير المخيف وأكتسب صفة البعيد والمخيف والمحال الوصول إليه، وهكذا بدأت خيانة الفرز الطبقي ضد جوهره.

لا شك أن تحليل الدولة كأداة معتمدة على السرقة والكذب يتضمن نقصاً كبيراً. ولا يمكن شرح ظهورها بهذه الخصائص فقط. إذ تظهر النوعية المتشابكة للمجتمع الطبقي والحاجة إلى تقسيم العمل الآخذ بالازدياد، والمسائل الأمنية، إلى تنسيق مطلق، وإن جعل الطبقة المستغلة الحاكمة نفسها ضرورية بحيث لا يمكن التخلي عنها بقدر ما جعلت الدولة إيجابية، لها علاقة قوية بظهور تلك الحاجات إلى الساحة. إن عدم تحليل الدولة بشكل صحيح ناتج عن خصائص هاتين الطبيعتين. وهذا ما يمهد السبيل لظهور تحليلات دوغمائية مزدوجة. لقد أصبحت جميع طبقات الدولة بتحليلاتها الإلهية والبيك المقدس وجهاً لوجه مع التحليلات الشيطانية والملعونة المناهضة لها، ان الدولة وفي وضع كهذا تصبح تعبيراً عن الهوية الاجتماعية التي لا يمكن تحليلها للمجتمع الذي مصالحها متناقضة وظهرت جوانبها الناقصة والزائدة. إن انشغال الدولة بالفكر والتطبيق منذ نشأتها وحتى الآن، لم يكن ناتجاً عن فراغ، لأن مصدرها إلهي. لقد تم رفض الإله حالياً في علاقات العلم والطبيعة، لكنها بعيدة عن تحقيق ذلك في

المجتمع، بما أن الدولة موجودة فإن الإله أيضاً يتواجد في مكان تواجد الدولة.

3- هناك مسألة تتطلب الحل عندما نبحث في الحضارة السومرية. فإن المثيولوجيا وعلم الإله - تيولوجية بالإغريقية والإلهيات بالعربية - الذي نتج عنهما تحليلات "كارل ماركس" للدولة والنقد على الأقل، لقد قدمت النظرية الماركسية مساهمات قيمة للعلمية، لكن تقييمها للقوة الإيديولوجية الموجودة في جذور الدولة عبارة عن انعكاس بسيط ويعتبر نقصاً جدياً وخطيراً في نظريته، إن مقولته عن الدين بأنه "أفيون الشعوب" وكأنه أمر بسيط وعادي هو أحد الأسباب التي أدت إلى عدم نجاحه، وبرأيي فإن اللاهوت يتطلب تحليلاً بمقدار ما يتطلبه تحليل "النقد" و"الدولة"، ويظهر الواقع السومري ذلك بشكل مذهل، ومن أجل تحليل الحضارة السومرية، عليكم تحليل لاهوتيتها بكل تأكيد. إن علم الإله هو علم النضال الطبقي للسومريين، ولا يمكن تحليل الإيديولوجية السومرية والعالم القديم المستند إليها، دون تحليل الأثر الاجتماعي لعلم الإله بما فيه مصطلحاته ونظرياته، ولا يمكننا حل البنى الذهنية والأدبية للمجتمعات الكلاسيكية والعصور الوسطى وحتى مجتمعات يومنا هذا بدون تحليل الأديان التوحيدية، وهناك في ذهنية سائر المجتمعات اثر دافع للدين.

ولا يمكننا إقامة مجتمع إيجابي يعتمد على أسس علمية دون التنقيب والكشف عن هذا الأثر. وأن النقص والخطأ الكبير في "الاشتراكية المشيدة" والتي فكرت بتحليلها فيما بعد، هو عدم تناولها الميدان التاريخي والإيديولوجي للمجتمع، ونظرتها الأحادية الجانب في تحليلات الدولة. كما لا يمكن شرح الواقع الاجتماعي بشكل كامل بالاعتماد على تحليل "النقد" ورأس المال، بل أن ذلك يؤدي إلى الوقوع في حضن النمط الآخر من المثالية والذي انتقدها كثيراً، تماماً مثل تسليم "الاشتراكية المشيدة" نفسها إلى حضن رأس المال، وكأنه لا مفر من أن يأخذنا الفكر الماركسي الناقص إلى ذلك بسبب النقص الذي حاولنا شرحه.

مثلما ان قوة النمط اللاهوتي للإيديولوجية لا تقل أهمية عن النقد، فأنها ليست أقل من قوة الدولة أيضاً، والأكثر من ذلك، أن جميعها "الثلاثية" متداخلة، وقد لا يوجد في التاريخ كله أي ثلاثي متداخل إلى هذه الدرجة وامتلك إمكانيات تشكيل أكبر قوة موجودة. ولا يشبه ذلك علاقة "الأب والابن والروح القدس" بعض الشيء فحسب، بل هو نفس التكوين؛ فإحداها تسير نحو المادية والأخرى نحو المعنوية، وقد كان هذا الثلاثي ملتحماً عند السومريين، إذ تخلق قوة الدنيا من إحدى هاتين الثلاثيتين، وقوة الآخرة من الثلاثية الأخرى. وكان السومريون، الذين نعتبرهم بدائيين، لا يعتقدون بهذه السفسطة، لكنهم كانوا يعرفون الإفادة منها، لأنهم أوجدوها. وإنه لمن الغريب أن يصبح المفرطون في التعصب الديني

والمتعصبون الدينيون، رجال وأصحاب العلم في يومنا هذا. إن إنسان العلم في حضرنا بعيد عن اللاهوت السومري إلى درجة بعد الإنسان السومري عن العلم في يومنا هذا. إن السفسطائية هنا هي إضافية، ولكن الواقعية موجودة في الطرفين. وما من سبيل آخر سوى البحث لإيجاد ووضع كل شيء في مكانه المناسب، ومثلما لا نستطيع تعريف الابن دون الأم، فإننا لا يمكننا تعريف العلم دون اللاهوت أيضاً.

هنا لا يوجد دعوة للاهوت، فالعلم كان مسؤولاً عن عدم منع سقوط ملايين ضحايا الأنظمة الدوغمائية، وأصبح في موقع الساحرة التي ذهبت ضحية سحرها، لأنه لم يستطيع تحليل الدولة والحضارة، إلى جانب عدم تحليله اللاهوت أيضاً. فإذا ما حلل منظروا المجتمع العصري الذين يدعون بأنهم يستندون إلى العلم، جوهر الجوانب المؤثرة والمتداخلة في بعضها البعض لمثلث اللاهوت - الدولة - النقد، وصاغوا مشاريع اجتماعية انطلاقاً من تحليلاتهم بشكل متوازن، حينذاك قد يصلون إلى أهدافهم ويخلصون أنفسهم من تأثير سحرهم المدمر. إن المواضيع التي سأتحدث عنها في الأجزاء القادمة، تبدو لي هامة جداً.

4 - عند تقييم المجتمع الطبقي السومري ضمن مصدر تاريخ الحضارة التي أدى إليها، نرى أن هناك موضوعاً هاماً، وهو تأثيره على العلاقات الموجودة بين العلم والفلسفة والمثيولوجيا والدين. هناك إدعاء يقول: إن العلم والفلسفة قد تطور مع الحضارة وهناك رأي مضاد لهذا الإدعاء، وهناك إجماع عام على إن الاختراعات التي حدثت بين الألفية السادسة والرابعة قبل الميلاد - ثقافة تل حلف للمجتمع النيوليثي - لا يمكن مقارنتها إلا بالاختراعات والتكنولوجيا التي أوجدت اعتباراً منذ القرن السادس عشر بعد الميلاد. إنه ليس صحيحاً تقييم المجتمع الطبقي كمصدر للاختراعات العلمية والتقنية، بل أن الحضارة السومرية قد أثبتت أن اغلب التراكم العلمي والتقني قد تحقق قبل المجتمع الطبقي وأن الهيمنة الإيديولوجية للدولة قد لعبت دوراً متزمتاً، وإن الاختراعات العلمية والتقنية التي أضافها السومريين إلى هذا التراكم محدودة، وأكثر ما حققوه هو احتكار الزراعة والغنى العلمي والتقني للمجتمع وتكوين الهيمنة الإيديولوجية عليه، لقد جعلوا العلم مثالياً كخصائص الآلهة وكـ لطف "خير" منهم لخادمهم الإنسان وليس كثمرة من ثمار التقنية وعمل الإنسان وتطبيقاته العملية، وأن ذلك لهو أكبر تحريف للتاريخ. إن قوة المغالطة الإيديولوجية التي حققها الكهنة السومريون في تاريخ المجتمع الطبقي ربما لها دور كبير في قيام الدولة وهيمنة الطبيعة الطبقية للحضارة، وربما كان بإمكان العلم والتقنية والفلسفة تحقيق التطور الأسرع والأكبر مع التطبيقات العملية للإنسان في الإنتاج الحر لولا تحويل هذا التحريف بواسطة الميثولوجيا والدين

السومري إلى هيمنة إيديولوجية ومغالطة إلى هذه الدرجة. إن المثال السومري التاريخي الأول يكسب الأهمية من هذه الزاوية، وذلك لعدة أسباب: فعندما يكون مستوى الحرية في العلاقات الاجتماعية أكثر ملائمة للإبداع في العلم والتقنية والفلسفة، حينها ينخفض مستوى العلم والفلسفة، أي تلقي المعلومات الصحيحة حول الطبيعة والتحليل العام بشكل جدي كلما تطورت المغالطة الإيديولوجية والضغوطات. يشكل انقطاع أحد القطاعات عن الإنتاج كلياً واستعباد القطاعات الواسعة كقطعة من آلة في المجتمع الطبقي، مصدراً لكل الدوغمائيات الإيديولوجية.

هذا هو الدور الطاغي لطبقة الكهنة عبر تاريخ الحضارة. ففي الوقت الذي يقدمون فيه وسيلة الجنة والجحيم المزيفة والإله الشديد العقاب إلى الإنسان والذي أقحم في المأساة، ويجعلون ذلك اكثر تأثيراً ويضيفون عليه صفة الديمومة، فإنهم يؤمنون لأنفسهم ولقوى المصالح المادية للإدارة والمرتبطة بهم، كل شيء حسب المرحلة وبدون عمل، إن الوسيلة التي يلجؤون إليها من أجل تحقيق ذلك، هو تطوير التصورات الذهنية للهيمنة، أي الميثولوجيا والدين بشكل دائم لصالح النظام الحاكم. ولقد أصبح فئة الكتاب والمثقفين والأكاديميات المتطورة مركزاً للإنتاج بعد أن كانت المعابد تقوم بهذا الدور، وظهور نظام الأكاديميات للفلاسفة في الحضارة الإغريقية الرومانية. ونرى بزوغ النمط الأول للأكاديميات الأدبية " **Edduba** " في نيبور"**Nippur**" التي كانت مركزاً ثقافياً عند السومريين. وقد أدى هذا التطور إلى إقامة أول جامعة في التاريخ.

يجب ألا نذهب بأفكارنا من خلال هذا التقييم الى أن الدين يساوي الطبقة الحاكمة أو الدولة، فلا شك أن عدة مفاهيم دينية بدائية كانت مهيمنة على مفاهيم الطبيعة المسيطرة على المجتمع في تلك المرحلة، وخاصة إن المفاهيم الطوطمية القبلية كانت تأخذ المفاهيم الدينية لعهد الأمومة وعهد الأبوة أساساً لها، ويمهد المعتقد الروحاني العام الأرضية الاجتماعية اللازمة لكل أنواع السحر، والتي تحيا بعيدة جداً عن المفهوم العلمي للطبيعة. ومع ازدياد صراع المصالح بعد تطور المجتمع، يزداد انقسام الدين والميثولوجيا لصالح النظام الاستغلالي والحاكم، وتصب طبقة الكهنة الجديدة اللعنة على مفاهيم الدين القديم ولا سيما السحر وتحرمها، وتبشر بعمليتها على أنها ثواب وقدسية، وبالأساس فإن الانقسام الاجتماعي بهذا الشكل يلعب دوراً رئيساً في أساس الصراع القائم بين الشيطان والأشياء، وتظهر الميثولوجيات السومرية ذلك بشكل واضح، إن المغالطة أكيدة بالنسبة لتلك المرحلة، لكن عندما ننظر إلى حاضرنا، ندرك بأنها ذات طبيعة طبقية، وخاصة إن طرد آدم وحواء من الجنة، هو التعبير الميثولوجي لبداية الفرز الطبقي، وتعبيرها الميثولوجي مذهل وشاعري، ولا

أرى حاجة لأقتبس القصة، أن صراع قابيل وهابيل يعبر عن المنازعة بين الزراعيون والرعويون.

يتم طرح ضعف موقع المرأة بتعبير ميثولوجي شاعري، وعلى شكل فقدان الآلهة لمكانتها وأهميتها مع مرور الزمن ضمن المجموعة الإلهية " **Pantheon** " إن المرأة في الأديان التوحيدية والتي تعتبر خطوة إلى الأمام، تحتل موقع جنس مستثمر عثر على وتعبير للأيديولوجية ولاستعبادها في المجتمع، فمن أي زاوية نظرنا إليها نجدها قد انزوت على نفسها وعقدت لسانها وأوصدت فمها، حتى أنه لم يبق أثر من عهد الالهات، وأعلنت المرأة مذنبة لأنها أغوت آدم بالخطيئة الأولى في ماضيها وأصبحت المسؤولة عن ذلك، وتم جعل التفوق المذهل لصالح الجنس الذكري مشروعاً وذا سيادة بواسطة الميثولوجيا والدين النابع منها، لقد سما عهد الرجل على جميع المستويات حتى أضحى الممثل المقدس للدين، ويجري تطوير تاريخ عبودية الجنس بخبث، وعندما ننظر إلى الميثولوجيا السومرية، نرى أن الأب "أنكي" يطور هذه المسألة بطريقة وفاق ذكية، لكن إله بابل مردوخ قد وجه ضربات قاضية للآلهة الأم "تيامات"**"Tiamet"** وتتمتع ملحمة خلق بابل " **Enuma Elis"** أهمية كبيرة وهي ذات اتجاهين، فقد توضحت الطبيعة المطلقة للملكية من خلال تشريع حمورابي للقوانين تدويناً، ولها أهمية تاريخية هذا من جهة، ومن جهة أخرى أظهرت القوانين الدينية قواعدها التي لا يمكن معارضتها في الميثولوجية السومرية، وهذا يمثل مرحلة متقدمة في العبودية الطبقية والجنسية وأدت إلى تمأسسها، وفتح الطريق أمام السلطة المطلقة بطريقة منظمة مع الإله، إن سجن المرأة بشكل دائم في بيوت خاصة وبيوت الدعارة وفرض العبودية عليها بعمق قد تحول إلى عملية تمأسس وتشريع.

ففي الوقت الذي تراجعت فيه مرحلة الأديان ذات الآلهة المتعددة، فإن الأبواب في جغرافية وثقافة الشرق الأوسط فتحت على آخرها أمام تاريخ الأديان التوحيدية التي تمثلت بجد الأنبياء إبراهيم الخليل، في الوقت الذي تراجعت فيه مرحلة الأديان ذات الآلهة المتعددة.

عند تطوير هذا التقييم لا يمكن القول أن دور السومريين كان سلبياً، بل يعكس الطبيعة القانونية لتطور أحداث الطبيعة بشكل رمزي حتى لو لم تكن علمية، ولا أريد أن أقّيم فكرة الإله بطريقة طوطمية وصنمية بسيطة ولا أراها هكذا، فإنني على قناعة بأن تحليل النظام الكوني لفكرة الإله الذي يسمو ويرفع إلى السماء ويتفرد مع مرور الزمن، كمرحلة أولية بدائية للنظام العالمي وللنظرية النسبية العامة والخاصة في الوقت الحاضر، سيصبح اكثر صواباً. لكن يجب التأكيد على أن ذلك يعبر بالأساس عن الدور البارز للعلاقات الطبقية. وان

التعبير العلمي لعالم القوى الطبيعية والمجتمع الذي هو قسم منه معاً، في تطور دائم. ففي الوقت الذي تسير فيه الحضارة السومرية ذلك لمصلحة الطبقة الحاكمة ضمن خط الدولة الرسمي بالميثولوجيا التي طورتها بقواعد الدين القطعية والمتزمتة اكثر منها، فإن مكانة الفئات التي مصالحها متناقضة وتتنكر لذلك تمتلك دوراً كبيراً في تطوير الفلسفة والمعلومات العلمية، حتى لو وجه لها اتهام من قبل السلطات الرسمية تحت أسماء مختلفة كـ " الشيطان " و" السحرة ". إن تقييم التطور الميثولوجي اللاهوتي والفلسفي والعلمي لكلا الطبقتين الاجتماعيتين وبجوانبه التقدمية والمتعصبة وبطبيعته المتناقضة، له أهمية لا يمكن التخلي عنها خلال القيام بتحليل حضاري صحيح.

د ـ التطور التاريخي وقضية الأسلوب في التوسع والانتشار

أجد من المهم تقييم أساليب تناول التاريخ على مستوى التعريف بسبب علاقته القريبة من موضوعنا. إن الأساليب التي نقيمها ليست مضادة للمادية الديالكتيكية والمثالية التاريخية، وصراع الأسلوب هذا بعيد عن ان يعكس جوهر التطور كما هو. وعدا ذلك، فإن الشروحات التاريخية على أساس الصراع الطبقي الممثل ببطل فردي لم تكن تلبي الحاجة، والمشكلة الأخرى المرتبطة عن كثب بهذه المشكلة هي التطور الاجتماعي والعلاقات التاريخية، وبالأحرى إلى أية درجة سيكون صحيحاً تحليل حضارة ومجتمع دون تاريخ وبتنحية مفهوم الزمن..؟ ويمكننا القول أن أغلب العلوم الاجتماعية هي دون تاريخ، ومثلما يقبل على أن التطور قد حدث بشكل مفاجئ، فإن كافة التحليلات الاقتصادية والقانونية والسياسية والعسكرية تجري على أساس هذا الافتراض وباسم العلمية المجردة، ومن جهة أخرى يستمر تناول المسألة بعلاقة جامدة ومجردة عند تعرض التطور الاجتماعي للمراحل التاريخية والانقسامات؛ وكأنها مستقلة عن المرحلة وأنه لا علاقة بينهما؛ تقوم المرحلة إما بإنكار المرحلة التي تأتي قبلها، أو تحرفها وتستخدمها كأداة من أجل آرائها الذاتية.

بالنتيجة يتم خفض مستوى التاريخ إلى معاني ضيقة الى درجة يخدم تحديداته الذاتية. ومازالت مشكلة تقييم الواقع على أساس عدم تقزيم أو تضخيم ما أخذته كل مرحلة من مرحلة أخرى وما منحتهما لبعضهما وتشكيل أو عدم تشكيل إحداها دون الأخرى سارية المفعول في يومنا هذا، بهذا المعنى، وربما يكون صحيحاً القول الذي مفاده بأن مفهوم التاريخ العلمي مازال في مرحلة الحبو، وأرى تقييم رأيي من هذه الزاوية النقدية يكتسب صفة توضيحية. إن الآراء الكتابية ـ البيانية في مرحلة تلقي المعلومات الضيقة، خلقت نتائج خطيرة تبعد الأشياء عن جوهرها، وإن وضع الوصفات الجاهزة على الطاولة كتحليلات

تاريخية واجتماعية قد جعل علماء الاجتماع الذين يعتبرون أنفسهم علميين أمام مسؤوليات كبيرة. ويجب أن نستخلص درساً من وصول آراء" الاشتراكية المشيدة" التي ظهرت على الساحة بادعائها العلمية، إلى نتائج مشابهة للمثالية الدوغمائية، ويكمن في أساس ذلك المفهوم، الذي يقول: أنا المركز، منذ السومريين، وتكون المفاهيم التي تصادق عليها المؤسسة السياسية القائمة بشكل قطعي، حتى تلك التي تعتبر بأنها علمية، أداة لإضفاء الشرعية على النظام، وإن الذي حدث لا يختلف عما قام به الكهنة السومريون، وربما قد يكون أخطر من غيره لأنه استخدم فيه معلومات علمية عديدة جداً. إن القيام بالتنميق والتضخيم والتكريم باسم العلم في عصر العلم، يخرب المجتمع أكثر من الآراء الميثولوجية واللاهوتية، فإذا كان الدين والميثولوجيا أفيون الشعوب فإن العلم المزيف هو طعنة خنجر في جوهر المجتمع، وبمقدار سهولة تجاوز التأثير المخدر للأفيون كذلك تكون صعوبة ترميم الطعنة المميتة للخنجر.

بلا ريب، ان السبب الأساسي لوصول الأنظمة القمعية والاستغلالية المستندة للعلم والتقنية في يومنا هذا، وإلى أبعاد كبيرة جداً، مرتبط بنمط خلق واستخدام العلم في الأساس أكثر من الأساليب التعذيبية، العلم وممثليه هم المسؤولون عن ذلك بكل تأكيد، ويكتسب جعل هؤلاء مسؤولين عن ذلك بكل تأكيد أكثر من مسؤولية الكهنة السومريين عن الدولة والحضارة السومرية، أهمية كبرى. ويتحمل نمط تكوين العلم وممثليه في عصرنا مسؤولية المشاكل الصعبة التي نجمت عن جميع الحروب ولا سيما الحرب العالمية الأولى والثانية وفي مقدمتها الفقر وتلوث البيئة وعدم المساواة بين الجنسين والتوازن النووي المدهش، والتكاثر السكاني والهستريا التكنولوجية، أكثر من المسؤولية التي يتحملها السياسيون وقادة الحروب.

لقد فتح كهنة العلم الطريق أمام ذلك، ووقعت الجامعات في حاضرنا في اللامسؤولية على شكل تطرف وأنانية لا تقل عن المعابد السومرية والقرون الوسطى، إن توجيه الاتهامات القذرة للقرون الأولى والوسطى، وتعميد النفس بماء "الطرق العلمية" ليس له أي قيمة تنظيفية أو تعقيمية، وهذه ليست مبالغة، لأن جميع المقارنات تثبت أن الإبادة والتعذيب والجوع والمرض الذي تعرض له الإنسان في القرن العشرين يفوق جميع ما سببته القرون الماضية، وإن ذلك يثبت ما يلي: في الحقيقة إذا كان الشعور بالمسؤولية أمام التاريخ والمجتمع موجوداً، حينها فمن الضروري تمرير السلسلة الأساسية لعصرنا والطرق المستندة عليها والاختراعات التي حققتها ونمط العلم ولا سيما تطبيقاته، عبر النقد الذاتي الجذري، وإذا لم تتحقق تلك المهمة بنجاح، فإنهم لن يتخلصوا من المحاكمة بتهمة تسببهم بإساءة أكثر مما تسببت به طبقة الكهنة والسحرة، لذلك إن أول ما يجب القيام به، هو وضع الرؤية التاريخية والاجتماعية في مسارها الصحيح

والالتزام بدروسها ونتائجها الأخلاقية الأساسية، لأن الطريقة المنحرفة والسحر الذي خرج عن السيطرة لا يؤذيان ولا يخلقان مأساة تتجاوز هيروشيما أو تشيرنوبل، إضافة إلى ذلك فإن رجل الدين أو الساحر ليسا أخطر من رجل العلم.

أريد أن أقول: إن وراء كل تطور أدى إلى تخريب ومأساة، برنامج مشروع أعدّ خلف طاولة رجل علم لم يتساءل ماذا يخدم ومن يخدم، والذي أصبح بعيداً عن القيم المعنوية. ويوجد وراء ذلك مفهوم تاريخي واجتماعي معوّق ويحمل في طياته أخطاء كبيرة وبعيداً عن العدالة والمعايير. ولا يمكن للعلم أن يتخلص من النقد والاتهامات دون إيجاد حلاً لهذه المشاكل، لأن الحقيقة الموجودة هي النقد المحق بالذات.

ان الأهمية التاريخية تكمن في استناد التطور التاريخي على السومريين، واستناد السومريين على المجتمع النيوليثي والذي هو مصدرهم، تتضح بشكل أكثر على ضوء هذا النقد، لأن تاريخ الحضارة يبدأ بسومر، ويستند السومريون إلى أكبر وأول موجة اجتماعية خلقها الإنسان، أي الثورة الزراعية القروية في وسط خصب يعتمد على عطاء الطبيعة لجبال تمخضت عن الفرات ودجلة والسهول التي تمر منها. لقد اعتمدت كافة الحضارات وعلى رأسها الحضارة السومرية منذ الألفية العاشرة قبل الميلاد على الروافد التي كانت تقدمها هذه المنطقة حتى لو كان على حساب جفافها. إنها الأم المنجبة للحضارة، والتي بدأ فيها التاريخ المدون والأرض والبشر، وتم فيها نقش المبادئ الديالكتيكية الأولى. إنني لا أؤكد ذلك بطريقة عاطفية أو بسبب وطنيتي. ومن الخطأ فهم ذلك بهذا الشكل. فأنا أظهر ذلك لأنه هام من أجل إنشاء الرابط الديالكتيكي للتاريخ بشكل صحيح من حيث الزمان والمكان، ولتأمين متطلبات النقد الذي تطرقت أليه بشكل مختصر والمتطور في يومنا هذا، والذي يظهر قبولاً بشكل عام، وأتوقف على ذلك مراراً بسبب الضرورة الحيوية للبدء الصحيح في تحليل الحضارة، ومن المعروف أنه لا يمكن تعريف أي تاريخ أو كيان اجتماعي إذا لم نضع بداية سليمة له، ولن يتخلص أي تاريخ أو مجتمع إذا لم يتم تعريفه بطريقة صحيحة من المخاطر ومن أن يكون مصدراً للأزمات.

إذا كان مصدر التاريخ قد وضع صحيحاً، فهناك مسألة أخرى لها علاقة بالموضوع ويجب توضيحها بطرح أسئلة في غايةً الأهمية وهي: ألا توجد مصادر أخرى..؟ وإذا كانت موجودة، فإن السؤال كيف تكون العلاقة الموجودة فيما بينها يكتسب أهمية في هذا الموضوع، إن الخطأ الكبير الذي يقترف هنا هو طرح الأشكال الاجتماعية على أنها تطور بياني ولابد منه، وكأنها قدر يجب أن يتم. وبهذا المعنى، فما من فارق كبير بين المادية الديالكتيكية لماركس، والمثالية الديالكتيكية " لهيغل"، ولا شك أن مفاهيم الأصول

لماركس وهيغل تكتسبان أهمية كبيرة في تحليل التاريخ بشكل صحيح، وهي بعيدة عن أن تصبح لاغية المفعول ، ولذلك فإن هذين الأصولين يجب أن يكونا المسؤول الأول عن استخراج الحقائق المتعلقة بتشخيص التاريخ والمجتمع.

لقد ظل التشخيص في الدرجة الثانية بالنسبة للأسلوب، أو يكتسب قيمته التشخيصية بمقدار ما يخدم الأسلوب. إن غض النظر عن الاتجاه الأساسي ومحاولتهم جعل أدق التفاصيل الخاصة بتشخيص "فرعاً علمياً" لاسيما عند الوصول إلى القرن العشرين، أو قولهم بأنه ليس "موضوعاً للعلم" وجعله في الدرجة الثانية قد حوّل رجال العلم إلى " سفسطائيي العلم"، ولاشك أن ذلك يعود إلى عدم خروج الجامعة ورجل العلم عن دور المعبد والكاهن. إنني أؤكد على شيء يجب ألا نغض النظر عنه وهو أنه حتى لو تم تجاوز الأنانية المركزية على المستوى الفردي في عصرنا، إلا أنها على المستوى المؤسساتية لا زالت رجعية وغير متقدمة من جوانب كثيرة على العصور الوسطى والقديمة وتشكل خطراً أكبر على أخلاق المجتمع.

إن "الاشتراكية العلمية" التي تدافع عن كدحها والتي تمثل المساواة، والتي تظهر وكأنها المالكة الأساسية للعدالة والرأي العلمي، لا تزال بعيدة عن امتلاك صفتها هذه. والإثباتات على ذلك، هي الأزمة الأخلاقية واللاعدل اللذين وقعت بهما، واللذين أدت إليهما "الاشتراكية المشيدة"، ولا شك أن ذلك هو الانتقام الناتج عن عدم تناول التاريخ والمجتمع بشكل عادل وصحيح. وإنني أوافق على الرأي الذي مفاده: إن التاريخ والمجتمع هما كائنين عضويين حي، وإنهما سيردان حتماً، عاجلاً أم آجلاً، بالمثل على الذين يحللونهما بشكل خاطئ، وينكرونهما، وسيوجهان لهم الصفعة التي يستحقونها. لقد أظهر إسناد المشاريع والبرامج الاجتماعية إلى مخططات بيانية مجردة وآراء تاريخية خاطئة، نتائج أكثر مأساوية في عدة حركات اجتماعية كـ "الاشتراكية المشيدة" و" الفاشية الواقعية" وتمأسس الدولة. إن ما يبنى على أساس خاطئ سيشهد انهيارا حسب مضمونه إذا لم يتم الترميم اللازم في المكان والزمان المناسبين، ولن يشهد أي عصر صحة هذه القاعدة أكثر من عصرنا.

إن المصادر الأخرى التي تغذي التاريخ متنوعة، وهناك ثقل قوى مختلفة. وإن المشكلة الأساسية هنا هي المصدر الأساسي للمجرى، وقوته الإنجرافية والتغذوية، إن الأنهار والبحيرات الصغيرة ليست مفيدة كثيرةً بمفردها، لكنها عندما تتجمع بنفس القناة ويتم تحويلها إلى شكل سد، تكون بذلك قد تحولت إلى طاقة يمكن استخدامها، وللتاريخ مشكلة كهذه أي أن يكون نهراً أساسياً. إن التطور التاريخي ليس عبارة عن أنهار وبحيرات، لكن هناك تواريخ تكون هكذا. وهناك حقيقة ألا وهي: إن المصدر الأساسي يمكن أن يتكون من

خلال إجبار المصادر الأخرى لتكون رافداً ومغذياً له، أو يتم تجفيفها عن طريق تركها لوحدها. لقد جاء النهر الأساسي للمجرى التاريخي إلى حاضرنا من خلال التغذية من عدة روافد، وهو مثل مجرى النهر الذي يكبر ويتسرع مع مرور الزمن، حتى لو هدأ وأحيط بدوامات مائية في الماضي. إن تحديد الوحدات الاجتماعية وكيفية مساهمتها الزمانية والمكانية في هذا المجرى هو المهمة الأساسية للمؤرخين، ويصبح من السهل تحديد البقاء خارج التاريخ بهذه الطريقة. ومع أن النقاشات المتعلقة بالتطور سواء أكان خطاً مستقيماً أم حلزونياً، هامة جداً إلا أنها تبقى في الدرجة الثانية بالنسبة للأسلوب.

من الواضح أن لرأينا هذا علاقة عميقة بالإنسانية. وعلينا أن نعلم أن المجتمع الذي يدعو نفسه بأنه أكثر قومية، هو المجتمع الذي يجب أن يتغذى من التاريخ أكثر من غيره، والمثال النموذجي على ذلك هو المجتمع اليهودي، إن هذا المجتمع الذي يعتبر أكثر قومية من جميع المجتمعات عبر التاريخ والذي يرى نفسه بموقع مميز وفوقي، هو في موقع مجتمع تغذى من المصادر الأساسية للتاريخ أكثر من غيره. إن اليهود مجتمع تغذى من السومريين والمصريين والإغريقيين والرومانيين والأوروبيين وأمريكا التي يمثلها أكثر من باقي المجتمعات من جهة، وهم المجتمع الذي يقوم بواجبات تلك التغذية عن طريق المشاركة بمعرفة معها من درجة ثانية. بهذا المعنى فإن التاريخ اليهودي يمتلك حظاً بحيث أضحى عاكساً للخاصية المتداخلة للعام والخاص بطريقة مذهلة في هذا الإطار، وهناك ارتباط وثيق أيضاً بين امتلاك المثقفين من أصل يهودي دوراً في العالم وبين المشاركة التاريخية ومعرفتها، ويستمد المجتمع اليهودي قوته من هذه الوقائع.

إن النتيجة الأخرى لموقفي هي ضرورة إعطاء قيمة بحسب الواقعية التي تستحقها ومثلما يكون التاريخ كلياً، هناك قيمة لكل جزء موجود في الكل، ولا يمكن إنكار قيمة أصغر مجموعة أو فرد عادي. وكما ينعكس التاريخ على المجتمع والمجتمع على التاريخ، فإن المجتمع ينعكس على الفرد والفردي على المجتمع أيضاً. وأرى أن كون النتيجة الأكثر أساسية التي ستصل إليها المادية التاريخية كتعبير للممارسة العملية للأصول الديالكتيكية على التاريخ في هذه المعادلة، له قيمة عقائدية علمية.

أنني على قناعة بأنه من المهم والضروري تناول قضايا الأساليب بشكل أوسع في الأقسام المعنية حسب المواضيع التي سنتناولها.

هـ ـ انتشار الحضارة العبودية ومرحلة النضوج

عندما أثبت المجتمع السومري تفوقه الخارق على صعيد الإنتاج الاقتصادي الوفير، استطاع تحقيق الدليل الأساسي للدخول في وضع المجتمع المتفوق. وسيواصل التفوق في الإنتاج، في أن يكون مقياس ومؤشر قوة جميع الحضارات التي جاءت فيما بعد. إن المجتمعات المعطاءة هي مجتمعات قوية، ولذلك تشكل الموقع المركزي في حركة المد والجزر للانتشار والجذب، وقد تم تقدير التفوق عند السومريين بوصول الموقعة القمح والشعير إلى نسبة" 80 " ضعفاً، وإن هذه الظاهرة تكشف بشكل ملفت للنظر مدى القوة التأثيرية والانتشارية التي كان يمتلكها السومريون في تلك المرحلة. إن استخدام الوحدات المهنية والتجارية نتيجة فائض الإنتاج يعني فتح الطريق أمام التمدن والثورة المدينية السريعة حول المعبد الذي كان بمثابة المركز الإنتاجي. لقد أدت هذه المرحلة التي بدأت في سهل ميزوبوتاميا الدنيا إلى سرعة الوتيرة في التطور الاجتماعي وخلق تنظيم على نمط الدولة كهوية طبقية ومدينية من جهة، وكهوية سياسية وجماعية أساسية من جهة أخرى، وهذا يعني ثورة سياسية. وعندما أدت القيم المتراكمة قبل كل شيء إلى مشاكل أمنية، فإن الأهمية الكبرى لأدوات الدفاع والهجوم فرضت نفسها، وأوجبت بروز تقنية الحرب حسب هذه المرحلة، وتحولت تقنية البرونز والمحراث والفأس والبلطة التي لعبت دوراً هاما في الإنتاج الزراعي، إلى تكنولوجيا الحرب. لقد خلق السلاح البرونزي تفوقاً يماثل قوة السلاح النووي في الحاضر. وانطلاقاً من مقولة ((ان السلاح يعني التفوق))، فإنه لم تبق أي قوة باستطاعتها مواجهة المجتمع السومري في تلك المرحلة.

عندما نضيف إلى نمط التفوق الثاني، التنظيم الأكثر تطوراً كتنظيم الدولة مع قوة المعبد الهائلة التي هي بمثابة طاقة ووقود النظام، حينها نكون بذلك قد عرفنا القوة التي ستبدأ التاريخ بخطوطها العامة مرة أخرى، نحن أمام نظام لا يكتفي بالإنتاج وحماية نفسه فقط، بل أنه يثبت نفسه عن طريق قوة التوسع الهائلة. إننا نفهم ذلك بشكل أفضل عندما نرى كيف تحول ذلك ولأول مرة في التاريخ إلى إمبريالية منظمة ومخططة مجسدة بشخص "سارغون" الذي أسس السلالة الأكادية، لقد بدأ بذلك عصر الإمبريالية المعتمدة على نظام الرق، ويمكننا القول عن ذلك بأنه أول مد وجزر للحضارة والتاريخ، أي مرحلة التوسع والمقاومة. ويمكن تقييم دور "سارغون" في التاريخ على أنه قام بتوحيد دول المدن الصغيرة والمتنازعة ونشر قوتها في الخارج، وقد قلدت جميع القوى التوسعية التي جاءت فيما بعد هذا المثال وطورته. ومعنى ذلك إننا مدينون للسومريين ليس بخلق الحضارة وتمأسسها وحسب، بل بالنظام الذي أخذ التوسع

المذهل أيضاً. وإذا وقفنا عند أعوام 4000 - 2500 ق.م، وارتضينا على أنها مرحلة خلق وتمأسس، فإننا نلتقي بعد أعوام 2500ق.م مع المرحلة الإمبريالية والاستيطانية السومرية التي تثبت صحتها مع مرور الزمن ولازالت قيد البحث باهتمام. ويمكننا تعداد نقاط المنطق في هذه المرحلة بالخطوط العامة على الشكل التالي:

أ ـ إن التوسع يستند إلى الفائض الإنتاجي. والفائض يظهر الحاجة إلى سوق والذي يكبر مع مرور الزمن سواء من حيث مواد الخام أو التصنيع، وأن البيع والشراء في السوق يتمأسس لأول مرة ويدخل في مرحلة التطور. وكانت طبقة التجار المستندة إلى ذلك قد لعبت دور المحرك في التاريخ وفي التوسع.

ب ـ لقد أدى تطور تقنية الأسلحة المعتمدة على البرونز والإنتاج الكبير إلى خلق قوة عسكرية محترفة وتمأسسها ودخولها إلى مرحلة التوسع مع النظام. لقد تم فتح مرحلة الغنائم بشكل كامل ومخطط. وجعل الجنس البشري يبيد جنسه ممكناً لأول مرة في التاريخ، وبشكل مخطط له، بهدف كسب الغنائم والاستعباد، وأن هذه المسألة هامة استناداً إلى ما سيأتي: لم نشهد في عالم الحيوان قيام أي حيوان بعملية إبادة لجنسه، ناهيك عن أن تكون إبادة منظمة ومخططة، وأن أول من قام بذلك هو الإنسان، ولا شك أن ذلك تطور مع المجتمع الطبقي بكل تأكيد، إذ لم نشهد ممارسة كهذه في العصر النيوليثي الذي لم يكن قد تطور فيه التحول الطبقي ولا في العصور التي سبقتها، وقد أثبتت الأمثلة المتعلقة بأكلة لحوم البشر، أن القيام بذلك كان محدوداً ونمطاً من العبادة كضرورة هدف مقدس. إن النمط المذهل لهذه الممارسة هو قاعدة "قتل الملك"، لقد استمر هذا النمط من الممارسة التي تعبر عن التمثيل الإلهي الولادة والموت الموسمي على شكل التضحية بقرابين من الأقارب الشبيهين بأولادهم. لقد تطور الاعتداء المنظم والهادف إلى التدمير والإبادة اعتمادا على ممارسة الطبقة الاستغلالية ـ الحاكمة التي جعلته منظماً وأضفت عليه الشرعية وكأنه عملية تاريخية عادية، وأصبح عملاً بطولياً وحقاً مكتسباً وملحمياً، بعد أن تركزت عملية تقديس الدين المهيمن والعادات والتقاليد، وجعلت إحدى طبقات المجتمع أو مجتمع الفرز الطبقي ذلك هدفها الأساسي ورفعته إلى مرتبة المهنة. وبذلك فقد بدأت مرحلة "الإنسان ذئب الإنسان". ويجب أن نرى إن مصدر اللعنة يكمن في هذا التطور، لأن ملحمة "اللعنة على أغاد"، تعتبر من أهم الملاحم السومرية ولها علاقة بقيام الأكاديين بتدمير المدينة المقدسة "نيبور **Nippur**". إن "أكاد" تلقت "اللعنة" لأول مرة في التاريخ لهذا السبب.

ج ـ جعلت الاحتياجات المتعاظمة التحول إلى الإمبريالية أمراً حتمياً في الوقت الذي أدت فيه النزاعات الداخلية لدول المدن الصغرى إلى هذه

المرحلة. لقد كانت للمجموعات المشاعية السابقة توسعاً في عدة اتجاهات، الا ان توسعها لم يكن بهدف التدمير ولم يكن يستند إلى الهيمنة، وهذا وضع يعاش بشكل مكثف ويتطور بشكل مرتبط مع القاعدة العيش جنباً إلى جنب مستندة إلى الحاجات الطبيعية؛ يختلف تماماً عن ممارسات الإمبريالية الاستيطانية والتخريبية. باختصار بدأت الطبقة الاستغلالية الحاكمة المحصورة في الداخل مرحلة توجيه الضغوطات الداخلية نحو الخارج والتي تعتبر سياسة رئيسة من أجل التخلص من الضغوطات وتحقيق الربح بنفس الوقت.

د ـ إن الأسباب الثلاثة المذكورة تتحول إلى حقيقة ((تطوير وإعاشة)) الذات عن طريق الانتشار والتعاظم التي تعتبر القاعدة الأساسية للحضارة الطبقية، إن هذا الطراز هو سمة في طبيعة الحضارة، وتوجد أشكال عديدة للتوسع وكل حسب أهدافه، فهناك ما يهدف منها إلى النهب لفترة زمنية قصيرة، ومنها ما يستند إلى السيطرة الدائمة على موارد المواد الأولية الاستراتيجية كالحديد والنحاس حسب المرحلة، ومنها ما يهدف إلى إنشاء مستوطنات تجارية جديدة وتكوين المدن على اساسها، كذلك إلى جانب التوسع التجاري الذي يعتمد على تأمين المواد الخام وبيع المنتجات المصنعة، فهناك أمثلة عديدة مثل التوسع الديني والأيديولوجي الذي يعطي الأولوية لبناء معابد مشابهة لمعابدهم، وإن أشكال التوسع التي نراها كثيراً هي الاستيطان المؤقت أو الدائم حسب خصائص منطقة الانتشار. وتتحول الأشكال الدائمة إلى ساحات حضارية جديدة مع التجسيد والاندماج المتبادل بعد فترة مناسبة، إن منطق تكوين كهذا التكوين يلعب دوراً كبيراً في أساس التاريخ.

إن جميع الأبحاث والطروحات العلمية التي استندت إلى البحوث المتعلقة بمصادر الحضارة، تشير إلى أن السومريون هم مركز الانتشار من حيث الزمان والمكان. وأثبتت الدراسات العلمية أن نيوليثية الهلال الخصيب وميزوبوتاميا السومريين قد لعبتا دوراً مصيرياً في تكوين المراكز البارزة، وهذا ما تؤكده الإثباتات العلمية.

1 - الحضارة المصرية:

إن حضارة مصر - نيل، هي إحدى أولى المجتمعات العبودية التي ظهرت بعد السومريين مباشرة. وعند تقييمنا للحضارة المصرية، فإنه لم يثبت بعد استنادها إلى عصر نيوليثية شمال أفريقيا ولم يشاهد آثار انتشار لها. ومن أكبر الاحتمالات هو أنه مثلما انتشرت الثورة الزراعية التي نضجت في الهلال الخصيب في جميع الجهات، فإنها وصلت إلى هذه المنطقة أيضاً في الألفية السادسة قبل الميلاد، إن هذا التقييم يتناسب مع منطق التوسع من زاوية علم الزمان "الكرونولوجيا". ويتيح الطمي الخصيب لنهر النيل الإمكانية لثورة مدينة شبيهة، ورغم ذلك نرى آثار الثورة المدينة السومرية في منشأ الحضارة المصرية، لكن نسبة الخصوبة المرتفعة أدت مع مرحلة الهضم المبكر في مصر إلى ظهور البنية الجوهرية لها، إن اعتمادها على ثقافة العصر النيوليثي بشكل مبكر من جهة، وقابليتها للتجسيد والاندماج السريع من جهة أخرى، أدى إلى تأمين إمكانيات لاتخاذ مصر طابع الحضارة الأولي والجوهري وصورة مجتمع طبقي وليس طابع مستعمرة، ورغم جوهرية الحضارة المصرية، فإن عدم ظهورها لوحدها دون وجود الثورة الزراعية في الهلال الخصيب والثورة المدينية السومرية، هو حقيقة تاريخية. ومثلما لا يمكن التفكير بالحضارة المصرية دون النيل، فإنه لا يمكن التفكير بخصوبة النيل و بالحضارة المصرية بدون التفكير بالثورة الزراعية في الهلال الخصيب والثورة المدينية عند السومريين أيضاً. وأكبر دليل على ذلك، هو أن الظروف المناخية والجغرافية التي تحيط بالنيل، والأهم من ذلك أن الثقافة النباتية والحيوانية لا تتيح إمكانية ثورة زراعية في العصر النيوليثي، وليس في مصر ظروف تهيئ للثورة الزراعية، ولو كانت موجودة، لأصبح وادي النيل مهد الثورة الزراعية والمدينية بشكل مبكر، بسبب ظروفه التي لم تتغير حينذاك ولأحدث تطورات قبل التطورات التي أحدثتها الثورة الزراعية والمدينية في ميزوبوتاميا وليس بعدها. إن الدور الأساسي للنيل ينبع من خاصية الري للأراضي الخصبة والمناسبة. وقد

شوهدت مرحلة الحضارة المصرية الخاصة والسريعة عند وصول التكنولوجيا الزراعية اللازمة.

لقد بدأت الحضارة المصرية في الألفية الثالثة قبل الميلاد تقريباً، واستمرت حتى بداية الميلاد دون تغيير يذكر. وأظهرت تطوراً مختلفاً عن السومريين في ميادين فن العمارة والمساحة وأنواع الكتابة المختلفة، وتمتلك تفوقاً في فن العمارة، لا يمكن مقارنته إلا بالفن المعماري لروما. وكانت عملية الشحن عن طريق السفن الشراعية متطورة أيضاً، وكانت حساباتهم السنوية والموسمية المعتمدة على الكواكب أكثر دقة. ومع أن تمأسس الدولة كان مركزياً، إلا أنه لم يتح الفرصة لقيام دولة المدن. وكان يوجد تقسيم إداري على شكل نمط المقاطعات على الأغلب، وقد تم إدارتها من قبل أكثر من ثلاثين سلالة على شكل مراحل باكرة ومتوسطة ومتقدمة كما كان عند السومريين واستطاع الملك تحقيق التفوق على الكاهن، بعد أن كان الكاهن أعلى مرتبة. كان مفهوم الإله ـ الملك هو المسيطر، وظهرت البنية الميثولوجية على شكل انعكاس واهن ومحدود، وذلك مقارنة مع البنية الميثولوجية السومرية. ويوجد هنا مركز إلهي قريب من الثالوث الأب ـ الأم ـ الابن، ويجعل نفسه ديار بكر للنظام السماوي على الأرض، ويبني بنية إيديولوجية إنسانية قوية ومهيمنة على هذا الأساس. لذلك ظلت تقليد الكهنة المصريين بشكل قوي حتى يومنا هذا، وتبقى محاولة الاستيطان الإمبريالي محدودة جداً، كما تؤثر العلاقة الكريتية ـ الفينيقية التجارية على تطور الحضارة التحتية هنا. لا يمكن للحضارة أن تقوم إلا بدور الرافد القوي في تغذية النهر الأساسي، وهناك مبالغة كبيرة في تقييم مصر على أنها تقوم بدور أبعد من رافد مغذي مقارنة مع المصدر الأساسي العائد للسومريين، لكن رغم ذلك، فإن حضارة مصر هي من إحدى الحضارات التي لها حصة أساسية في تطور الحضارة العبودية بخطوطها العامة منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد وحتى الميلاد، ولا يمكن غض النظر عن تغذيتها للحضارة اليونانية، والحضارة الرومانية حتى لو كان بشكل أقل وغير مباشر. ورغم عدم تمكنها من فتح أفريقيا على الحضارة، إلا أنها استطاعت تطوير التجارة إلى أعماقها، إن البدء بالتجارة الشراعية وتطورها في النيل والبحر الأحمر والبحر المتوسط مدين للحضارة المصرية بشكل كبير.

تمتلك مصر مكانة هامة في تطوير الأديان التوحيدية رغم افتقارها الى التصورات الميثولوجية مقارنة مع السومريين. ورغم تدخلها في تجربة الأديان التوحيدية، إلا أنها بقيت محدودة. وتعتبر طبقة الكهنة المصريين هي المركز التعليمي لكوادر الميثولوجيا والدين الإغريقي، بسبب دورهم التعليمي القوي. لقد تلقى رواد الكهنة والفلاسفة الإغريق غذاءهم من تعليماتهم وتدريباتهم في مصر وبابل إلى حد كبير حتى القرن الخامس قبل الميلاد.

تعتبر الحضارة المصرية في الموقع الثاني في تطور الحضارة العبودية بعد السومريين وان كان ذلك على صعيد التطور المبكر والأساسي أو على صعيد عظمة حجمها. كما تعتبر الحضارة المصرية مولداً منتجاً ومغذياً لنظام العبودية باستمرار، إنها استغلت العبودية لحدٍ كبير جداً، لاسيما الجهود التي بذلها العبيد من أجل بناء الأهرامات كانت مخيفة ومذهلة إلى درجة قد تركت إرثاً لعدة إمبراطوريات وفي مقدمتها روما، وبكل تأكيد فإنه لا يمكن غض النظر عن دور الموروثات الاجتماعية التي زرعها النظام المصري، في مواصلة الاستبداد في الشرق الأوسط. ومثلما أعطت للرق فعالية عميقة فإنها جعلت السلطة السياسية والدينية متكاملة عن طريق التفعيل المقتدر. ومثلما كان دور السومريين هاماً في خلق وتطوير النظام العبودي في التاريخ، فإن دور المصريين هام أيضاً في نضوجه وتحقيق الاستمرارية له.

2- حضارة هارابا "Harapa" وموهاندجادور "Mohenjadora" في الهند والبنجاب ووادي أنداس

نحن أمام فرع حضاري مدهش. نبت كما ينبت الفطر من الأرض في عام 2500 ق.م. هذه الحضارة تشبه شكلاً مصيرياً متجرداً أكثر، وقد ثبت أن تطورها في العمارة والكتابة كان محدوداً. ومن المتوقع أنه كان لها علاقة بالسومريين عن طريق المحيط الهندي، ومن المحتمل أيضاً أن تكون المنطقة قد بدأت بالتعرف على أشكال العصر الحجري في الألفية الخامسة قبل الميلاد عبر إيران، وأنها اكثر من أن تكون منتوجاً لثورة زراعية، والتي أخذت منبعها من هنا، فأنها قد تطورت على شكل مستوطنة تجارية مرتبطة بالسومريين، ويقبل على أنه مع الجفاف الذي شهدته المنطقة في الألفية الثانية قبل الميلاد، عاش هذا الفرع من الحضارة انقطاعاً لم يعرف سببه حتى الآن وبقي خارج التاريخ وانطفأ بسبب عدم مقاومته الأزمة التي شهدتها مناطق الحضارة، ونرى أنه لم يكتسب ميزة خاصة أو ديمومة مثل فرع مصر.

تبدأ الحضارة الهندية بالعيش وتأصلها وديمومتها منذ الألفية الأولى قبل الميلاد كنتيجة لارتباط المجموعات الآرية القوية باستيطانها.

3- الحضارة الصينية

لقد تعرفت الصين الموجودة في الحدود الشرقية لأسيا، على العصر الحجري الحديث المستند على الهلال الخصيب في الألفية الرابعة قبل الميلاد. ولا نرى أثراً للتطور الداخلي في الثورة الزراعية، ويلعب النهر الأصفر دور مماثل للدور الذي لعبه نهر النيل المصري وذلك بفضل خصوبة تربته المناسبة للري، وتناسب الجغرافيا والمناخ الثقافات النباتية عدا الري المصطنع. لقد تكونت في الصين إمبراطورية عبودية قوية مستندة إلى تطور المجتمع الطبقي في عام 1500 ق.م تقريباً، وتطورت بمركزية قاسية مثل السلالات المصرية، وإنها لم تتعرض للانقطاع كالذي رأيناه في مثال الهند، وقد استمرت إلى يومنا هذا بعد إن شهدت عدة مراحل انقسام وتمركز، وتمكنت من ان تجعل مصدر منشأها الداخلي يغذي نفسه بنفسه دائماً، رغم إننا لم نجد لها مساهمة خاصة بالحضارة. واستطاعت المشاركة بالقناة الأساسية للحضارة بازدياد الجريان مع مرور الزمن في بداية الميلاد والمرحلة الرومانية، حيث أكتسب روافد الحضارة الاجتماعية العديدة الكبيرة والصغيرة، سرعة في المشاركة بالنهر الأساسي بعد اتحاد آسيا وأوروبا في مسار الحضارة. ان النهر الأساسي يكبر ويزداد سرعة، وإن القوى الاجتماعية التي تتجه من الشمال والجنوب بشكل دائم نحو المسار الذي يمر عبر ساحات الحضارة من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي، تقدم مساهمة للغنى الذي نسميه بالتاريخ، وذلك عن طريق نقلها الخصائص الأساسية للمسار إلى تمأسساتها التحتية والفوقية بشكل دائم، وإضافة بعض الألوان من جوهرها إلى هذه الخصائص. وإن المعنى الملحمي لواقع طريق الحرير التاريخي، ينبع من الدور الذي يلعبه في هذا الغنى الحضاري.

وفي التقسيم القاري للحضارة جاءت حصة أمريكا للتعرف على العصر النيوليثي في الألفية الثالثة قبل الميلاد تقريباً والدخول في الثورة المدينية في القرن الخامس قبل الميلاد. إن هذه القارة التي شهدت تطوراً محدوداً في داخلها، لن تستطيع البدء بدورها في العالم إلا بشكل متأخر، وتحديداً في القرن العشرين بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية استناداً إلى الرأسمالية الأوروبية الاستيطانية.

4 ـ لقد شهدت الساحات المجاورة التطورات الأساسية التي نجمت عن انتشار الحضارة السومرية، ومحاولة التصدي له. لقد دخلت كل من المجموعة

التي سميت بـ الهوريون"horrıt" من أصل آري في الشمال والشرق والمجموعة التي سميت بالعمورية "amorıt" ذات الجذور السامية في الغرب والجنوب في حركة كبيرة ضد غنى وقوة السومريين المتصاعدة في وسطهم، إذ تعرضت حياتهم القديمة الهادئة المعتمدة على النظام الزراعي القروي المستقر ونظام الرعي المتنقل، إلى زلزال كبير، وكانت المجموعات الآرية في وضع لا يمكنها من تجاوز النظام الزراعي والرعوي الذي تعيشه بعمق، وكان السومريون قد حققوا هذا التفوق منذ أمد طويل، وكانت القبائل الرعوية العمورية بعيدة جداً عن حياة الزراعة والمدينة تخوض حرب البقاء عند ازدياد الجفاف في بعض الأحيان، وذلك في ظروف الصحراء القاسية، وكانت تتصاعد جنة بجانبهم، وكانوا في مواجهة مع اللعب بقدرهم إما أن يكونوا عبيداً خدماً أو فاتحين غزاة، وفي الغرب كانت الحضارة المصرية تواجه تطورات مشابهة، وكان امتحان الحضارة إما سيتفوق على هذه البربرية وينتشر أو أن يختنق وينطفئ.

وكان التاريخ يواجه لحظات حرجة لمرحلة ديالكتيكية بارزة. وفي الحقيقة، فإن المرحلة التي بدأها السومريون، كانت مرتبطة بحركة هذه القبائل. لكنهم ومع تفوقهم مهدوا السبيل أمام التباين والذي بدوره يؤدي الى التناقض.

عندما وصل التمدن إلى حدوده الطبيعية في أعوام 2500 ق.م، واحتدمت المنافسة والحرب على الملكية، تملص أعيان سارغون ذوو الجذور السامية وقمعوا التناقضات، وجعلوا تصدير التناقضات سياسة رئيسة لهم، إن ما تميز به سارغون هو أنه أخرج الانفتاحات على الخارج التي كانت تشاهد من قبل كعملية بطولية في بعض الأحيان ـ إن ملحمة كَلكَامش ثمرة من ثمار هذه التطورات ـ من أن تكون حوادث فردية، وأدخلها إلى مرحلة توسعية واستيطانية منظمة ومخططة. لقد بدأت في الاتجاهات الأربع مرحلة سيادة متداخلة مع التجارة عن طريق البر والبحر والأنهار، وتم شرح هذه المرحلة في الكتابات الحجرية بغرور، وانتشرت المستوطنات التجارية بين أعوام 2500 - 2000 ق.م من شرق البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأسود، ومن داخل إيران إلى جزر وسواحل خليج البصرة مثل كرة الثلج المتدحرجة. لقد أخذ كل من الفينيقين في شرق البحر الأبيض المتوسط، والحثيون في الأناضول الداخلية، والميتانيون في ميزوبوتاميا العليا والوسطى، والعيلاميون في إيران وزاغروس الشرقية بعد ممارساتهم الاستيطانية الأولى وضعهم الخاص بهم ووصلوا إلى القوة السياسية وتحولوا إلى دول، وذلك بعد مقاومة طويلة لم نعرف حقيقتها ألا أننا نجدها دامية من خلال الكتابات الحجرية. وذلك، مثل تكوين الفيدراليات والدول المحلية المشابهة للدولة والتي تشكلت بعد حروب المقاومة والتي تظهر كرد فعل في مرحلة الاستغلال الرأسمالي. وتؤدي المرحلة التاريخية الجديدة التي تتشكل مع تعاظم قوة الاستيطان الإمبريالي السومري والبنى المحلية التي تأثرت بذلك

الاستيطان، إلى تطورات هامة. وإن الوصول إلى المجتمع الطبقي من خلال التجسيد والاندماج، والصعود إلى ساحة التاريخ كدول صغيرة، والصراع الناتج عن المنافسة المتزايدة،هي السمة النموذجية لهذه المرحلة.

عندما كان الاستيطان المستند إلى السومريين نزعة سائدة بين أعوام 2500 - 2000 ق.م تقريباً، نرى بأن المرحلة الجديدة التي تكونت من التشكيلات السياسية التي تطورت حول الاستيطان على الأغلب بعد الألفية الثانية قبل الميلاد، قد اكتسبت قوة اندفاعية مع مرور الزمن. وإن المرحلة التي عاشت ما بين أعوام 200ق.م وحتى القرن الخامس قبل الميلاد، فهي ذات معنى كبير في تاريخ الشرق الأوسط. وقد قدمت هذه التشكيلات مساهمة في تاريخ الإنسانية بمقدار المساهمة السومرية والمصرية الكلاسيكية على الأقل، وذلك من خلال تمهيدها السبيل لتطورات عديدة وضم غناها المحلي إلى هذا التاريخ. وهذا يعني أيضاً بقاء نظام الرق مسلطاً على رأس الإنسانية وكأنه قدر ومعايشته مرحلته الناضجة. لذلك يحمل تحليل الجوانب المتعددة للمرحلة الجديدة لحضارة الرق، أهمية كبيرة.

و - عصر دويلات المدن - العبودية في الشرق الاوسط

إن دخول الأنظمة العبودية السومرية والمصرية مرحلة التوسع مثل بقية الأنظمة الاجتماعية المتفوقة بعد تمأسسها وإثبات ديمومتها هو ضرورة لطبيعتها. لقد واجهت المجتمعات القبلية التي لها علاقة مع هذه الأنظمة، وأصبحت تحت تأثيرها، والتي كانت تؤمن لقمة عيشها من الزراعة والماشية، تقلصاً في حياتها الحرة القديمة والذي ازداد مع مرور الزمن. فالقبائل الزراعية والرعوية والتي تكونت منذ الألفية العاشرة قبل الميلاد، تطور رد الفعل عندما أجبرت على اختيار أحد الخيارين تجاه التأثير: لقد سكنت الفئة التي تزداد فقراً في ضواحي المدن السومرية والمصرية كمصدر لقوة عاملة بدائية لكلا الحضارتين، وفي الحقيقة، إن الوثائق أيضاً تثبت بأنه عاشت مرحلة كهذا، ويفهم بكل سهولة من التوراة وعدة كتابات بابلية بأن المجموعات العبرية من أصل سامي في مصر، والقسيتية الآرية في سومر قد عاشت كقوة عاملة فقيرة بظروف شبه حرة تماماً مثل اليد العاملة ذات الجذور القروية والفقيرة وشبه الحرة التي تتوجه إلى المدن الكبرى في حاضرنا. أما المجموعات المتبقية التي كانت على الأغلب من القطاعات العليا والمتمايزة للقبائل، كانت تتكاثف في ساحات السيادة المحلية والتمدن كحلقات أساسية للقوتين المركزيتين وتعمل من

أجل الرد على ذاك التأثير. وعندما تلعب هذه المجموعات في البداية دوراً مثل التجار الكومبرادوريين التابعين للمراكز الإمبريالية العبودية، فإنها تتابع الموديل المركزي مع مرور الزمن وتدخل إلى وضع دويلات المدن الصغيرة.

من المؤكد أن هذه المرحلة عاشت في جغرافية الشرق الاوسط بوتيرة عالية مع مرور الزمن، وذلك ابتداءً من الألفية الثانية قبل الميلاد. لقد كانت بيبلوس واوغاريت في السواحل الشرقية للبحر الأبيض وقارقاميش وسامسات وإبيلا وأورفا وحران وماري في شمال سوريا في ميزوبوتاميا الوسطى، وهتوشا وقانس في الأناضول الداخلية وعيلام في زاغروس الشرقية هي الساحات السكنية التي ظهرت في موجة التوسع الأولى للنظام.

لم تستطع المناطق السكنية في العصر النيوليثي تجاوز مرحلة القرية، لأنها كانت تستهدف الزراعة على الأغلب. بينما المناطق السكنية ذات الموديل الجديد تتحول بسرعة إلى بلدات ومن ثم إلى مراكز تدار بالحكم، كونها تعمل في الساحات التجارية على الأغلب وفي الصناعة بشكل جزئي في مناطق مرور استراتيجية. ومن أهم المواد التي بحثت عنها التجارة كثيراً، هي خشب الأرز الموجودة في جبال لبنان وطوروس، والخامات المعدنية. إلى جانب ذلك، فقد كان يتم إنتاج الصحون الفخارية والنسيج والكثير من المنتجات المهنية، بهدف التجارة الخارجية، وقد دخل النقد على الخط كوسيلة للتسوق والتبادل. وتأسس النظام الكتابي الذي وصل إلى درجة الرسائل التجارية وخاصة في المدن الفينيقية واكتسب طبيعة بسيطة ومستعملة، وإن قوة الكتابة والنقد والسوق للحضارة تزداد. وتطور عصر طبقة التجار البارزين، بمعنى أن الطبقة الوسطى كانت في حالة تكوينية في التاريخ كبنية للمجتمع الطبقي.

عندما نقيّم الملك والكاهن والبيروقراطية الموجودة في المراكز الإدارية والإدارة، والطبقة الرفيعة المستوى في القبائل التابعة لهم معاً بالطبقة الأساسية العليا، فإنه يمكننا القول أن طبقة التجار والحرفيين " الطبقة الوسطى" التي تحقق استقلاليتها مع مرور الزمن حتى ولو كان بشكل ضعيف، وطبقة العبيد الواسعة التي بدأت تفقد روابطها القبلية، تميزان بنية المجتمع الطبقي في تلك المرحلة. ومما لاشك فيه أن هذا الفرز الطبقي الجديد ليس نقياً بشكل واضح. لكن ظهور أرضية اجتماعية مادية تعكس المصالح الطبقية في تكوين العمليات التاريخية، هو أمر مؤكد.

هناك قضية تاريخية أساسية أخرى في هذه المرحلة تتطلب التحليل بعناية، وهي ظاهرة الكونفدرالية القبلية للبربرية العليا والتي يمكننا بمعنى آخر تقييمها كمرحلة أولية لدولة المدينة. وقبل التحضر، نرى بأن هذه المرحلة ظهرت عند المجموعات القبلية ذات صلة قرابة متطورة. ونرى أنه هناك سببان

لعبا الدور في ذلك: أولهما لإزالة النزاعات الداخلية كما في الدويلات، حيث يتم فض الخلافات والصراعات بين القبائل، وثانيهما وهو الأهم لأجل التصدي للقوات الحضارية المعتدية والدفاع عن النفس وتحقيق مكاسب أكثر توازناً، شعرت هذه القبائل بحاجتها إلى الاتحاد. نستطيع تسمية ذلك بالمرحلة البدائية للتحول إلى دولة، وهي حالة عابرة حيث مازال يوجد عدم تمركز الجيش في مركز المدينة ولم تتأسس معابدها وبيروقراطيتها ولم تستطع خلق الطبقة الوسطى. ويمكن أن تتعرض للتشتت والانهيار في مواجهة أي تهديد خارجي أو داخلي في أي لحظة. وثمة تسمية أخرى لهذه المرحلة التاريخية وهي عصر البطولات، حيث عاش هذا العصر قبيل تكون الدولة المركزية العبودية، لدى السومريون والمصريون خلال الألفية الثالثة قبل الميلاد، وفي مرحلة بلوغ نضوج النظام العبودي لدى كل من الهوريون والحثيون الذين ينحدرون من أصل آري فيما بين 2500- 2000ق.م، والعموريون والكنعانيون ذوي الأصل السامي فيما بين 2000 - 1000 ق.م. وكذلك عاشوه كل من الإغريق - الرومان والهند والصين كمرحلة أولية للنظام العبودي فيما بين 1500- 100ق.م تحت الأشكال القوية والمؤثر لتلك المرحلة.

تتطلب مرحلة الفيدرالية القبلية فهماً عميقاً. فالعشائرية والقبلية التي مازالت قوية في هذه الجغرافيا "الشرق الأوسط" تستمد قوتها من هذا التاريخ. لقد مرت لمئات بل لآلاف السنين عبر هذه التشكيلات، وأظهرت بطولات كبيرة. إن هذه المرحلة هي في الأصل تاريخ العشائر وبمعنى آخر تاريخ "البنى الأثنية".

إن تاريخ الأقوام يأتي قبل تاريخ الدين والطبقة والسلالة بكثير. وتحتاج مشكلة تاريخ البنى الأثنية إلى الحل من أجل الوصول إلى مفهوم تاريخي صحيح، لقد منحت العصور الأولى والوسطى والقريبة لنفسها مشروعية كعصور السلالة والدين والقبيلة. إن المفاهيم التاريخية التي أصبحت رسمية في العصور الأولى، المستندة إلى السلالة والعصور الوسطى، المستندة إلى الدين والعصور القريبة المستندة إلى القومية، بعيدة عن عكس تاريخ المجتمعات المضطربة بشكل ملموس. بهذه المعنى، فإنه تم تحريف التاريخ إلى درجة أصبح فيها من الصعب وضع ثقل السلالة والدين والقبائل في مكانها. وبات إعادة تدوين تاريخ التاريخ من جديد أمر لابد منه. وإن كان لفرز التحريفات التي جرت على كافة الآراء إبتداءً من التضخيم وإلغاء الآخر والأنبياء وكتابة التاريخ بشكل خاطئ عن قصد ... الخ، من معنى (حكمة) فإنه دون إظهار تاريخ كهذا إلى الوجود، بات من غير الممكن إعطاء الحقائق حقها.

يظهر "التاريخ الأثني" وكأنه يمتلك دوراً ذو أمدٍ أطول وأكثر واقعية

من تاريخ الأديان والسلالات والقبائل حتى وإن لم نشاهد إلا القليل من الأسس المكتوبة بصدده. لقد شهد البناء الذاتي والموضوعي للبنى الأثنية "الأنظمة العشائرية والقبلية" أكبر تطوراته في العصر النيوليثي بالاعتماد على الزراعة والماشية غالباً. ونرى أن عدد المجموعات البدائية "**Klan** " والتي تعتبر المركز الأم والوحدة الأساسية لمرحلة المجتمع المتوحش، لم يتجاوز عددها المئات في أي وقت من الأوقات. وكانت حياة الترحال والإقامة في الكهوف سائدة، وعندما يكون المناخ والفصول قاسية، فكان عيشهم يعتمد على صيد الحيوانات وجمع النباتات، وكانت هذه المجموعات البشرية والتي بنيتها " الكلان" عاشت حتى نهاية العصر الجليدي الأخير عشرين ألف سنة قبل الميلاد تشبه بعضها، وكانت في مرحلة نظام صوتي محدود ولغة بدائية التي يغلب عليها جانب الإشارة. وكانت هذه المجموعات تمتلك مفاهيم دينية وذهنية طوطمية "هوية الكلان" وروحية، لقد مرت مرحلة التاريخ الإنساني بنسبة 98% عبر هذا النمط من المجتمع. وحينها لم تتكون خاصية أي دين أو سلالة أو قبيلة، وبالتالي تاريخ أي منها بعد. وقد انتقلت بعد مرحلة العبور المرحلة الميزوليتيكية والتي كانت ما بين 20 ألف و 10 آلاف سنة قبل الميلاد تقريباً، إلى العصر النيوليثي " القبائل البربرية". وأصبحت الزراعة وتربية المواشي المصدر الأساسي للمعيشة، والنظام القروي المستقر أساساً لها، حيث أضحى الترحال منكمشاً، وكان العيش على شكل مجموعة قبلية تربطها صلة القربى وأساسها المجتمع الأمومي، ويصل العدد إلى الآلاف أحياناً ولم يلاحظ أن العدد قد تجاوز الخمسة آلاف.

إن شعور القبلية بالحرية كان قوي جداً، وكانت العبادات الدينية تتطور على أساس الإلهة الأم غالباً، وتوجد هياكل الآلهات الأم الصغيرة بأعداد كثيرة في جميع الساحات التي كانت مسكونة في هذه المرحلة وكانت المرأة تمثل غالباً بالقمر والكواكب وتمتلك قيمة كبيرة كالأم الطبيعية للقوى الطبيعية المحلية، وأن فهم ذلك ليس صعباً. إن المرأة بجهدها أبدعت الزراعة وروضت الحيوانات؛ وهي أيضاً أم للأطفال التي تلد، نالت قدسية كبيرة في التاريخ. وبمعنى آخر فهي القوة الخالقة للحياة. الطبيعة هي الأرض الأم، إن تمثيل الآلهة الأم للمرأة كقوة تكتشف منتوج الأشجار والنباتات والطبيعة، يمهد السبيل إلى عمق المعنى كطبيعة طبيعية. إن أهمية المرأة ـ الأم المتزايدة بشكل طارئ قد أدت إلى تفوق بارز على الرجل، وان كان دور الرجل قوياً عندما كان الصيد هو وسيلة العيش السائدة، لكنه بسبب تراجع الصيد إلى المرتبة الثانية، يلاحظ في هذه المرة ان الرجل قد ضعف كثيراً. إن تاريخ المرأة يعني تاريخ البقول والأبقار وأشجار الفواكه وأدخنة القرى والنسيج والطواحين الصغيرة، والنظام السائد كان أساسه الاحترام والمعتمد على الجهد والآلهة، وتاريخ أنظمة البيت التي تؤسس، والأطفال الذين يكبرون والمنتوجات التي تخلق بالجهد المنزلي، وهذا يعني

تاريخ الانتقال من الإشارات البدائية إلى لغة غنية، وإلى المصطلحات التي تعتمد على وسائل الإنتاج والتي تعبر عن مغزى، وبالتالي إلى تكوين ذهنية الإنسان. إن واقع تحويل ظهور ونضج التاريخ الأنثي إلى مصطلحات، يتمتع بأهمية بالغة. وعندما بدأت مرحلة حرث الأراضي واكتساب الرعي أهمية في الألفية الرابعة قبل الميلاد، أنكمش مكانة المرأة في الإنتاج، وبدأ دور المرأة ينحصر في البيت مع مرور الزمن، وأستمر ذلك إلى وقتنا هذا. بهذا المعنى، أهملت مكانة المرأة خلال تدوين التاريخ وتحويلها إلى المصطلح لتظل بعيدة عن الموقع الذي تستحقه، وهذا أمر مؤكد وغير قابل للنقاش. إن تكامل سيادة الرجل مع مرحلة الحضارة وإبعاد المرأة عن المؤسسات التحتية والفوقية للمجتمع الطبقي، يعتبر أساساً لكتابة "التاريخ دون المرأة". ونقدم هذا التحريف الكبير باسم التاريخ كنتيجة للامساواة بين الجنسين.

نحاول مع تقييمنا القصير والعام للبنية الأنثية، أن نبحث عن جواب لهذا السؤال: متى وأين قامت كونفدراليات العشائر ضد التطورات الحضارية وأين شهدت تطورها الطبيعي..؟ إن تاريخ الشرق الأوسط مرتبط بالإجابة الواقعية الصحيحة لهذا السؤال إلى حد كبير. لكن هذا الجانب أي الجواب منغمس في العتمة. رغم ذلك يمكننا تقسيم المراحل الأساسية للأنظمة القبلية في الشرق الأوسط إلى ثلاث مراحل:

1 - مرحلة تطور الزراعة والرعي: هناك إجماع عام على أن مجموعة اللغة والثقافة السامية قد وجدت وتطورت في شمال أفريقيا والجزيرة العربية فيما بين 9000 -6000 ق.م، وذلك مع انتشار تأثير مجتمع العصر النيوليثي. ومن المعروف أن الشعوب ذات الجذور الآرية اكتسبت معنى كمجموعات أبدعت تأهيل الحيوانات والزراعة النيوليثية فيما بين أعوام 6000-1000ق.م في المساحة الجغرافية التي تسمى بالهلال الخصيب المركزي في السهول والأودية المحاذية لسلسلة جبال زاغروس وطوروس. وعند توحيد الدراسات الأثرية مع علم الأعراف فإن مجموعة الشعب هذه هي التي ابتدعت الترويض والزراعة وهذا أمر مؤكد. ونحن مدينون للسومريين بتسمية هاتين المجموعتين.

2- التمأسس والعبور إلى النظام العشائري: إن المرحلة التي أدت إلى تمأسس دائم تحت اسم ثقافة "تل حلف" في الهلال الخصيب لعصر المجتمع النيوليثي، تعني المرحلة التي تشكلت فيها المجموعات العشائرية أيضاً. لقد لعبت هذه المرحلة التي استمرت 2000عاماً تقريباً بين عامي 6000 - 4000 ق.م، دوراً هاماً مثل مرحلة "الاختراعات الأساسية" التي أعدت الحضارة.

إن هذه المرحلة بالأساس هي التي أعدت السومريين. لقد تميزت

الآرية والسامية في المجالات التي شكلت تكاملاً اقتصادياً بينها عن بعضها، ودعت الحاجة الى إقامة وحدات عشائرية تختلف عن القبائل التي تشبه بعضها البعض. واستطاعت الوصول إلى حالة المجتمعات ذات الطبيعة العرقية من خلال كيانها الموضوعي حتى ولو لم تتكون المعرفة والعقلية العشائرية القوية. مثلما لعبت الظروف المادية والاقتصادية دوراً تحديدياً في الفرز الطبقي والمرحلة القومية، فإن الظروف المادية والاقتصادية والاجتماعية لهذه المرحلة قد حددت وأظهرت المجتمع العرقي والبنى العشائرية.

3 ـ مرحلة التشكل الحضاري واستمرار عدة أشكال طبقية إلى يومنا الراهن: يمكننا تقييم هذه المرحلة التي يمكن أن نقول عنها أنها مرحلة مقاومة العشائر والتحضر؛ أي أنه يمكننا تقييم هذه المرحلة بالعصر الملحمي الشعري والتي تطور فيها الوعي العشائري بقوة، وعلى الجميع أن يعتبر نفسه فيها كفرد من العشيرة كشرط لابد منه. إن هذه المرحلة كانت مليئة بالحروب والتي يمكن وصفها بأشكال التصدي والاعتداء المعاند لاعتداءات قوى الحضارية المتطورة، والصراعات التي كانت تدور حول الأراضي والمصايف التي أصبحت هامة. "فمن أجل العيش، يجب أن تكون عشيرتكم قوية. ويجب أن تكون قبيلتكم وأسرتكم قوية في العشيرة أيضاً". إن هذا هو الواقع المادي الذي خلق الذهنية الجديدة. وبالأساس فإن اللغة الشعرية التي تشرح "الملحمة والقصة" والتي مازالت قوية في عدة مجتمعات، تعبر عن هذه المرحلة. وان المقاومة والاعتداءات المضادة والبطولة ضد الاعتداء الخارجية وصراعات العشائر الدائمة، تحتل مكانة هامة في تاريخ كل شعب. وقد ترك هذا التاريخ أثراً كبيراً على جميع المراحل الاجتماعية حتى القرون الوسطى والقريبة ـ عصر القوميات والشعوب ـ حسب ظروف المجموعات الاجتماعية ذات الجذور العرقية، ودون أن تفقد أي شيء من أهميتها. إن الاعتداءات الدائمة بين العشائر ذات القربى والجوار بمعرفة عشائرية تطورت منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد واعتداءات قوى الدول المختلفة، أظهرت قوة البنية العرقية للشرق الأوسط. وإن هذه الخصوصيات هي الحقيقة التاريخية الأساسية التي تقف وراء بقاء هذه البنى قوية إلى هذه الدرجة وديمومتها في جغرافية الشرق الأوسط. وكأن كل مجموعة عشائرية هي ذات قومية وسلالة، حتى أنها ذات دين من الناحية الذهنية، ولغة من ناحية لهجتها. فإلى جانب الشوفينية القومية، تستمد الشوفينية العشائرية مصدر قوة عاطفتها وعقليتها من هذا الواقع.

عندما ننظر إلى منطقة الشرق الاوسط من حيث التقربات الصائبة والتثقف الأولي الضروري، نجد أنها تحيا وتحي مكانة بارزة في إنضاج المجتمع العبودي وتوجيهه نحو النظام العالمي منذ الألفية الثانية قبل الميلاد حتى القرن الخامس قبل الميلاد. إن الدور ليس ريادة في تأسيس وتمأسس الحضارة

السومرية والمصرية فقط. ففي مرحلة النضج أيضاً، ان القيادة هي في جغرافية الشرق الأوسط بكل تأكيد. وقبل تقيمينا لهذه المسألة، لننظر إلى التطورات الحضارية الأساسية والتي ظهرت في مرحلة موجة التوسع الأولى:

أولاً- الحثيون: هم أصحاب حضارة عاشت بين عامي 1900 - 1200 ق.م كنتيجة للحركة الاستيطانية السومرية، والتي تطورت في آسيا الصغرى والمناطق الداخلية من الأناضول، وأخذت النمط السومري أساساً لها، وبقدر ما كانت مركزاً تجارياً هاماً، فإنها اعتمدت على الفوائد التي حققتها مصادرة المعادن الموجودة في المنطقة بمقدار ما كانت مركزاً تجارياً هاماً. وقد تحدت البابليين والآشوريين والمصريين، واحتلت بابل في عام 1595ق.م، وأبرمت اتفاقية "قادش" مع المصريين في عام 1243ق.م. ووصلت إلى بنية مركزية للرق بعد أن كانت في البداية على شكل كونفدرالية عشائرية، وأن تحضر الأناضول هو أثر للنظام الحثي إلى حد كبير. أما المجموعات العرقية التي جمعتها، فهم الخالديون "أجداد الأرمن" في الشمال الشرقي، والهوريون "أجداد الكرد" في الجنوب الشرقي واللويين في جنوب وغرب الأناضول، وتمتلك المجموعات العرقية الثلاث بنية الثقافة واللغة الآرية، وإن احتكار المصادر المعدنية يشكل جوهر قوتها.

وإن مفهومها الدفاعي يضع حماية المصادر المعدنية في المرتبة الأولى، وقد كانت على صراع دائم مع بابل ومصر اللتان تحتاجان إلى المعدن الخام بشدة حتى مع الكونفدرالية الهلينية والايونية والميتانية التي تطورت حديثاً. وتعتبر التطورات التي شهدتها صناعة النحاس والحديد تحت إشراف المجموعات العرقية التي كانت من أصل أرمني من أهم المساهمات في الحضارة. وكانت البنية الإلهية الثلاثية التي كانت تمثل السماء والأرض والتراب والتي كانت تستند إلى الميثولوجيا السومرية والمجموعات العرقية الآرية، أساساً لها. ومع تطور الملكية المركزية، فإن البنية الميثولوجية المعتمدة من قبل على تعدد الإله، تضاءلت ووصلت إلى بنية ثلاثية تعبر عن مصالحة كما كان في مثال سومر، ولم تستطع الوصول بعد إلى مفهوم الإله الواحد، تستمر الحرب بين الآلهة لفترة طويلة، ومازال موقع الآلهة قوياً بالوفاق. لكنها فقدت أولويتها منذ أمدٍ بعيد وتضاءلت أهميتها مع الزمن، ويطلق على ذلك اسم ثقافة الإلهة كيبلا **"Kupapa"**.

مثلما شعرت روما عند تأسيسها بحاجتها إليها، فإن مفهوم اتجاه الصلاة والذي لازال يسمى بـ " القبلة " في الجزيرة العربية، يشكل أثراً للالتزام بهذه الآلهة. ومثلما حددت الحضارة السومرية والحضارة الحثية في الأناضول، فإن

هذه الأخيرة وبخطوة ابعد منها أثرت على الحضارة الإغريقية والايونية في إيجة عن طريق مدن طراودة التي كانت مسيطرة على مضيق الدردنيل. بهذا المعنى فإنه في البداية سيلعب "العصر البطولي" والمستند إلى طروادة دوراً كبيراً، ويكمن أهمية طروادة التي كانت من أهم المراكز والأبواب لانتشار حضارة الشرق الأوسط بشكل عام، ومخفراً متقدماً للحثيين حتى الألفية الأولى قبل الميلاد، في دورها التاريخي الذي ذكرناه. كما كانت" كانيش" باباً لنقل حضارة ميزوبوتاميا إلى الأناضول، فإن "طروادة" كانت مركزاً لنقل هذه الحضارة إلى البلقان وشبه الجزيرة اليونانية، وأوروبا مع مرور الزمن. وكانت شهرة ملحمة "الإلياذة" لهوميروس ناتجة عن تناول قسم من حروب طروادة في مضمونها وموقعها الناقل للحضارة والتاريخ إلى أوروبا. وكان سقوط طروادة سيشكل بداية تاريخية جديدة.

ثانياً- الهوريون والكوتيون والميتانيون والاورارتو والميديون: إن ميزوبوتاميا الوسطى والعليا "لويجا كوندوانا" أو بالسومرية "هوريت" وتعني "البلاد المرتفعة" التي كانت واقعة بين الامبراطورية الحثية الأناضولية والإمبراطورية البابلية - الآشورية بعد السومرية، كونها في منطقة العبور من الشرق الى الغرب وتمتلك مناجم غنية بالمعادن، ومناخ يساعد على الري الطبيعي، وتمتلك أفضل الساحات الزراعية والمساعدة على تربية المواشي. وبهذا تلعب دور "الأم الخالقة" للتاريخ والمهد الذي احتضن نشأة التاريخ ولم يعد من الممكن التخلي عن دورها هذا. لقد مهدت هذه الخصوصية في الوقت ذاته السبيل أمام تحولها إلى منطقة احتلال ونهب من كل الاتجاهات وباستمرار. وعدم امتلاكها لبنية مركزية ومؤسسات دائمة رغم أنها الساحة الأساسية التي خلقت الحضارة، مرتبط عن كثب بخصائصها التي ذكرناها سابقاً. ولم تتخلص من أن تكون منطقة عبور معزولة. علماً أنه ليست ما من حضارة إلا وتغذت من هذه المنطقة. إن هذه الخصوصية تبين لنا أسباب عدم استخدام لغتها بقدر ما تصدر الحيوانات أصواتاً خاصة بها في يومنا.

لقد عرفت البنى الأثنية الموجودة على هذه الساحة منذ الألفية السادسة قبل الميلاد. وظهرت مراكز الثورة الزراعية في نقاط التقاء الجبال التي تلتقي بروافد دجلة والفرات مع السهول. وقد أثبتت عمليات التنقيب التي أجريت بالمئات في التلال، على أن تشكل أسس مجموعة اللغة الهندية - الأوروبية كان في مراكز هذه الثورة الزراعية من خلال التنقيبات العرقية والأثرية. وقد أدى اتحاد مراكز التطور مع الخصائص الأساسية للمنطقة إلى قيام الأنظمة القبلية والعشائرية كبنى قوية وصلبة. إن اندماج خصائص البنى الأثنية المذكورة مع

حركـات الاحـتلال والاسـتيلاء للقـوى الحضـارية المركزيـة الموجـودة فـي الأطراف، لا يتيح الفرصة للتمركز كساحة حضارية بسهولة.

وعلـى ضـوء هذا الموقف العام، نـرى أن العشـائر الهوريـة والعشـائر المشابهة لها والتي تجمعها صلة القربى، قد استطاعت تشكيل كونفدرالية بين عامي 2000 - 1500 ق.م ولكنها لم تستطع التمركز أو إحراز التقدم كالحثيين. وكان الهوريون على علاقة دائمة مع الحثيين والمجموعتين اللوية والخالدية اللتين كانتا تشكلان أساسهما الاجتماعي. ولعبوا عن طريق التجارة دور أول حلقة في نقل تأثيرات السومريين والبابليين والآشوريين إلى الشرق والشمال ولان أصحاب العصر النيوليثي كان لهم علاقات قربى بسبب الجوار مع السومريين نجد في بنى لغاتهم وكلماتهم ما هو مشترك، وهناك إجماع عام على أن هذا قد تطور في مرحلة مبكرة في حين لا يزال السومريون في مرحلة التكوين. وكانت ساحات المدن السومرية والساحات الزراعية الهورية تعيش بحالة تحالف طبيعي. ونرى وجود أثار هذه الحقيقة بقوة في ميثولوجيا الآلهة "إنانا" وملحمة "كَلكَامش". ويعني ذلك أن الحضارة المركزية للهوريين وكأنها سومرية. ولم يشعر الهوريون بشكل قوي لإنشاء مركز آخر. لأن المفهوم الذي يقول أنه لا داعٍ لبناء مركز جديد في الوقت الذي يوجد فيه مركز قريب يلبي هذه الحاجة وقوي جداً، ونعيش أثر هذا المفهوم بشكل قوي إلى يومنا هذا. وأن الدور الذي يلعب، هو على شكل مقاطعة وحكم ذاتي وفيدرالية للقوى السياسية ذات المركزية الموجودة في الجوار. ويفهم أن هذا الواقع الذي يعاش اليوم في هذه الساحة، يعتمد على أساس كان موجوداً في بدايات التاريخ.

إن **الكوتيين** مجموعة عرقية أخرى ذات جذور آرية تعيش شرق السومريين في سفوح جبال زاغروس، وكانوا يتحركون كحليف لأحد الأطراف عندما كانت دول المدن السومرية ذات رأسين. لقد لعبت الاتفاقية التي أبرمت على أساس التعاون الذي جرى مع عدد من إداريي دول المدن السومرية دوراً في انهيار السلالة الأكادية السامية. وهنا سيصبح التاريخ دائماً حتى يومنا هذا شاهداً على اتفاقيات مشابهة. تعني كلمة كوتي"العجل أو الثور" وتعني باللغة الكردية الحالية "الشعب الذي يمتلك الثيران" وتمتاز البنية اللغوية للسومريين بمصطلحات على هذا الشكل.

لقد أسست السلالة الكوتية فيما بين عامي 2250 و 2150ق.م، سلالة لمدة 100 عام. ولأدارت هذه السلالة حكمها على الأرضي السومرية، وبعدها قام قسم من إداريو دول المدن السومرية في هذه المرة بالاتفاق مع العموريين ذوو الجذور السامية "العموريين **Amorit** وتعني باللغة السومرية الغربيون" بدحر هذه السلالة.

أما **القيسيتيين** فقد كانوا مجموعة ريفية كادحة وفقيرة جاءت من الريف الجبلي للمناطق الشمالية والشرقية، وتعيش في بلاد سومر. ولعبوا دوراً هاماً في تغيير السلالة في بعض الأحيان من خلال توحيد قواتهم. ويمكننا التحدث عن الدور القيسيتي في احتلال بابل من قبل الحثيين والميتانيين في عام 1595 قبل الميلاد، وخلقوا لأنفسهم نمطاً خاصاً بهم في الميادين الثقافية البيروقراطية. ونجد أثر لذلك لدى الوزراء البرمكيين ذوو الجذور الإيرانية في الإمبراطورية العباسية وفي وزارة نظام الملك في الإمبراطورية السلجوقية، ويعود تاريخ هذا النوع من البيروقراطية إلى القيسيتيين.

أما **الميتانيين** فهم في موقع فيدرالي أقوى بعد التجربة الهورية الكونفدرالية. ويفهم من اللوحات الأثرية المكتشفة بأن فيدراليتهم كانت تمتلك مركز مدينياً اسمه "واشوكاني **Wajukani**" في المكان الذي ينبع منه نهر خابور. وكانت اللغة الهورية متداولة في ميزوبوتاميا الوسطى غالباً أي انهم حكموا في مدينة أورفا وماردين وشرناخ في الحاضر. وعاشت بين عامي 1500– 1250 قبل الميلاد. حيث احتكروا مصادر الحديد واشتهروا بتربية الخيول. وعاشوا جو قتال دائم مع الآشوريين والحثيين، وفي النهاية قضى على وجودهم بشكل مؤقت الإمبراطور الآشوري "سلمانا أسار" **Salmanassar.**

أما **اورارتو** "تعني الأماكن المرتفعة باللغة السومرية" فهي جزء حضاري هام تمركزت على ضفاف بحيرة وان. وتستند إلى المجموعات الأثنية الهورية والخالدية. وقد أكتسب الخالديون ثقلاً مع مرور الزمن. والاحتمال الأقوى أن يكون الخالديون هم أجداد الأرمن. وكانوا يعيشون في المناطق الشمالية للدولة. ومن الملاحظ أنهم كانوا يعتمدون على مئات العشائر ذات الجذور الهورية، وقد حولوا فيدراليتهم التي كنت مترامية في البداية إلى دولة مركزية. وعاشوا بين عامي 1000 - 700 ق.م. وتعرضوا لاعتداءات مخيفة من قبل الآشوريين، بسبب امتلاكهم المصادر المعدنية ومراكز تربية الخيول وأخشاب الغابات. ولم يسمح الملوك الآشوريون الذين كانوا يمتلكون تكنولوجية حربية قوية في هذه المرحلة ببروز أي شعب آخر من الشعوب. ولذلك يمكننا أن نفهم من تحول الخالديين إلى هدف كبير لأنهم القوة الوحيدة التي وقفت في وجه الآشوريين. لقد أظهروا مهارة في إنشاء أطول قناة للري يبلغ طولها "56 كيلو متر" لأول مرة في التاريخ وإنشاء السدود. وكانت لغة طبقة النخبة خليط متعدد. وكانوا يدرسون النصوص السومرية المقدسة في نظامهم التدريسي. وكانت اللغة الآشورية تحتل موقعها ضمن لغة الدولة. ومثلما حدث في جميع الأماكن الأخرى، فإن بنية اللغة والثقافة السومرية تواصل تأثيرها القوي. أما لغة العشائر فهي مختلفة وغير مدونة. وتعد هذه المسألة واقع المنطقة الذي يستمر وجوده حتى الآن. كانت العشائر بموقع ناقل اللغة والثقافة الشعبية المحلية في

الوقت الذي كان فيه الإداريون الحاكمون والمتعاملون ينقلون اللغة والثقافة الحاكمة.

وفيما بعد الأورراتيون بقليل، تقوم فيدرالية العشائر الميدية ذات الأصل الآري في الشرق والتي هي استمرار للكوتيين بإقامة تحالف مع البابليين وتدحر الإمبراطورية الآشورية في عام 625 ق.م . لقد تفوقت بابل مرة أخرى ولآخر مرة. لقد لعبت الفيدرالية الميدية المترامية دوراً انتقالياً من أجل أعيان "أقها مينيت" **Akhamenit** المتصاعدة التي كانت ذات جذور بارثية ـ آرية. ودخلت السلطة السياسية إلى يد الأرستقراطية البرسية التي كانت متكاثرة وكثيفة العدد في جنوب شرق إيران لأول مرة في التاريخ بعد انقلاب القصر الذي قام به "كيروس" **Kiros** ابن شقيق الملك الميدي "أستياك" **Astiyag** ونتج عن ذلك بعد فترة قصيرة تأسيس الامبراطورية البرسية المركزية والقوية في عام 550 ق.م وإنهاء الفيدرالية.

ثالثاً ـ التحضر في شرق الأبيض الأوسط: ان منطقة شرق الأبيض الأوسط هي المنطقة التي تعرضت للتأثير المبكر والمشترك للحضارتين السومرية والمصرية:

الأساس الميزولتيكي والنيوليثي هنا قوي. وتقع في أقصى غرب منطقة الهلال الخصيب. ونرى التكاثر المتزايد للقبائل السامية منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد، وكانت غابات الأرز اللبناني مصدر ثروة غنية يحتاج إليها المصريون والسومريون أيضاً. وكان النقل البحري يجري في مثلث كريت والأناضول ومصر. وكانت غنية بالأراضي الخصبة. وإن موقع هذه المنطقة في مثلث الأناضول وميزوبوتاميا ومصر هو موقع مناسب من أجل التجارة البرية والبحرية. وإن فينيقيا مرشحة للتطور كحضارة لطبقة التجار. وكانت هذه هي الظروف الأساسية التي خلقت الحضارة الفينيقية التاريخية، واسمها العام هو بلاد كنعان.

وكانت الحضارة الفينيقية تستند مثل مستوطنة قادش في الأناضول، للإستيطانات التي جرت في المدن وعلى رأسها "بيبلوس" و"تير" **tyr** واوغاريت شمالاً. ونرى هنا تشكيل مستوطنات من المجموعات العرقية المختلفة. ومثلما حدث في لبنان في يومنا هذا، فإنها كانت تسيطر عليها منذ البداية ثقافة كوزموبوليتية. وكان الواقع الفينيقي يشهد حالة أصيلة. وكانوا كقوم بحارة، شجعان ومتحمسين للتجارة بشكل عام، والتجارة في البحر الأبيض بشكل خاص. وكانوا في بدايات الألفية الثانية قبل الميلاد يمتلكون مدن ودويلات

مدنهم. وكانت تلك الدول المحاطة بالأسوار تعمل في التجارة عموماً والمهن الحرفية ولا سيما النجارة، وكانت صناعة السفن الفينيقية مشهورة. ولقد أنشؤوا مستوطنات تابعة لهم منذ بداية تكوينهم في عدة مناطق ساحلية في البحر الأبيض المتوسط. وكانت الأبجدية الفينيقية هي أهم مساهمة لهم في التاريخ، وتشكل هذه الأبجدية مثالاً في أساس الكثير من الأبجديات التي تستخدم في حاضرنا، ومع أنه كانت الميثولوجية السومرية هي المؤثرة بالأساس، إلا أنه كان لهم أصالة تلفت الانتباه. وكان إيل "**El**" من أسمى الآلهة عندهم (يأتي اسم الله من اسم إيل). ويأتي فيما بعده إله القوة "بعل" **Baal** ومن ثم إله الموت "مود" **Mod**. وتعيش عشتا هنا بلقب "آستارته" **Astarte** ويلاحظ التضحية بالأطفال كقرابين بكثرة. وتعود ملحمة قيام النبي إبراهيم بالتضحية بإسماعيل الى هذا التقليد.

لقد واصلت الثقافة الفينيقية بعد ثقافة مصر والسومريين تأثيرها من خلال تأصل معتمد على تجسيد دائم من قبل ثقافة اليونان وروما والبيزنطة والإسلام إلى يومنا هذا، وإن أساس الثقافة العلمانية اللبنانية ينطوي على خصائص الحضارة الفينيقية. وإن الفينيقيين مثلما كان لهم الحصة الكبيرة في حضارة قرطاجة وكريت في التاريخ، فهم أكثر الذين غذوا الثقافة الإغريقية أيضاً. وقد لعب الفينيقيون أيضاً دوراً بارزاً في نقل ميثولوجيا وأبجدية الشرق الأوسط إلى الإغريق.

وفي الدور الثاني، فقد تكون جيل تمدن في المناطق الداخلية لشرق البحر الأبيض المتوسط وفي مقدمتها مدينة القدس ودمشق وحلب. وإن هذه التمدنات المستند إلى التجارة تصاعدت كمراكز تجارية بين ميزوبوتاميا والبحر الأبيض، والأناضول وشبه الجزيرة العربية، وإن الأماكن القريبة منها كانت ملائمة جداً للزراعة، وقد أصبح هذا الجيل الحضاري شاهداً على عدة أسفار تاريخية. وكان ذا موقع بارز كمراكز لنقل الحضارات وتجسيدها. وكانت بنية لغة القبائل السامية الشرقية هي المسيطرة على الأرجح، وتعرفه على بنية ثقافية متعددة كان بفضل هذه الظروف الملائمة. فمثلما جرى في عموم الشرق الأوسط في عام 1500ق.م، فأن حركات التحضر لهذا الجيل على شكل دويلات المدن هي في الذورة أيضاً. ولم يعترفوا تماماً لا بسيادة البابليين والآشوريين ولا بسيادة الحثيين أو المصريين، وذلك بسبب ظروفهم الجغرافية. وقد استطاعوا اللعب بين المراكز الثلاثة بفضل دبلوماسيتهم والحفاظ على استقلاليتهم أيضاً، وبسبب هذه الخصوصية، فان كل قبيلة تعرضت للضغوطات، انتقلت إلى هذه الأماكن. وحسب المعايير المحددة، فانهم استطاعوا المحافظة على أصالتهم وحريتهم إلى حد ما.

إن إحدى القبائل التي ستلعب دوراً هاماً في التاريخ وبما تملكه من قوة

وبهذه النوعية، هي القبيلة العبرية التي تم نقلها إلى هنا من قبل النبي إبراهيم. وتظهر الأبحاث إن جذور العبريين قد جاءت من المستوطنات السومرية أي مدينة أورفا "أور وتعني تلة"، وحران "بالسومرية تعني تقاطع الطرق" في يومنا هذا. ونرى تأثير الهوريين والعموريين معاً في تلك المستوطنات وفي الثقافة العبرية أثر لهذه الخصائص. أن هذه المغامرة التي تم معايشتها في عصر الملك البابلي حمورابي في عام 1800 ق .م تقريباً تشبه حركة القبيلة التي تناقضت مصالحها مع ملك المدينة نمرود والذي كان لقبه الملكي مشهوراً.

عندما تصبح إمكانية السكن في مراكز المدن التي تتعرض للقمع الشديد محدودة وتصبح هذه المراكز على خط تجاري تاريخي، فإنه يمكن رؤية حركات قبلية عديدة من هذا النوع. ووردت في وثائق واوغاريت المتعلقة بالمرحلة على أنه كانت هناك عدة حركات للقبائل التجارية مشابهة لهجرة النبي إبراهيم من الشمال إلى الجنوب، كانت هذه القبائل تتكون من تجار- نصف رعاة وتعيش حركة مكثفة على شكل شبه ترحال.

من المحتمل جداً أن يكون النبي إبراهيم قد تأثر من ثقافة مدينة أور السومرية وأعترف ببنية دينهم المتعددة الآلهة، لكنه وصل إلى مفهوم إله قبيلة واحد عن طريق توحيد ما أخذه من ثقافات الأديان والآلهة الحاكمة في تلك المرحلة مع اعتباره طوطمه أساساً له باعتباره رئيس قبيلة أبوية.

إن رفع طوطم القبيلة إلى منزلة الإله، واستخدام حرية القبيلة كأساس اجتماعي لتحويله إلى إله واحد، يعتبر أكبر عملية ثورية للنبي إبراهيم في مجال الدين من جهة، ويعكس جوهر التحول من جهة أخرى، وقد ابتعد عن النظام السومري نتيجة لرد فعل. وكانت عدة قبائل عمورية تعيش هذا النوع من رد الفعل بشكل دائم، إلى أن جانب طوطم القبيلة البدائية القديمة لم يعد يستطع ان يستجيب للاحتياجات الدينية للمرحلة وهذا موديل يجب تجاوزه. ويشكل هذين شرطين التاريخيين أساساً لدين النبي إبراهيم. وبالرغم من أن هذه الخطوة تظهر وكأنها صغيرة وقليلة الأهمية، إلا إنها لعبت دور "الثورة الإيديولوجية" الكبرى من الناحية التاريخية. ولم يكن عبثاً إعطاء لقب النبي والجد المؤسس للديانات التوحيدية المقدسة، التي وردت في الكتب المقدسة الثلاثة ((التوراة والإنجيل والقرآن)) والأديان متعددة الآلهة باتت عبارة عن هويات ومشاريع متخلفة بالنسبة لمرحلة الحضارة الناضجة. أتت هذه الثورة الإيديولوجية التي لا يمكن تحويلها إلى الصنم ولا ترى بالعين، وتخاطب منطق الإنسان وبنية عقليته المتطورة، وتخدم الوحدة السياسية بشكل أفضل، في المرحلة التاريخية المناسبة، وقدمت حينها أجوبة أكثر تقدمية.

إن تراجع النبي إبراهيم عن التضحية بولده إسماعيل، هو موقف

ثوري. حيث كان تقديم الأبناء كقرابين للإله بعل "**Baal** " منتشرة على نطاق واسع ضمن المعتقدات الفينيقية، ولهذا لم يكن بالإمكان تجاوز هذه السلبيات والسيئات إلا بهذه الطريقة. كما أن رفض هذه العادة المتوحشة من جهة، والمنتشرة والضرورية من جهة أخرى، ضمن شروط تلك المرحلة، فان سد الطريق أمام التضحية بالأطفال كقرابين يحمل صيغة الثورية، وهي ليست بظاهرة فردية وبسيطة وإنما عملية استيقاظ الوجدان الإنساني ضد أهم نموذج لهذا التعصب الديني البدائي المتجذر والمنتشر تكتسب قيمة عظيمة. وهي عملية تكتسب معنى كبيراً ضد هذه البدائية. ويفهم جيداً بان النبي إبراهيم لم يكتف بتطوير هاتين الثورتين الهامتين، أي بوقوفه ضد المراسيم التضحية بالأطفال وعبادة الأصنام البدائية والمحافظة للمرحلة وحسب، بل يقبل أيضاً أن إيل الكنعانية، حتى لو كان مصدر الإله إيل أو إل، هو رب السماء. ولكن يفعل ذلك بعد أن يضعه في منظومة تنسجم مع واقع قيادة قبيلته.

إن تحول إيل إلى "الله" في كافة أرجاء شبه الجزيرة العربية مع مرور الزمن وتحطيم التقاليد الطوطمية "عبادة الأصنام" للقبائل الرعاة والصحراء والانتقال بهذه القبائل إلى مرحلة الإله الواحد تعد المرحلة الأهم في ثورة دين الإله الواحد، ولم يكن هذا ليتحقق بسهولة، بل تحقق على مراحل طويلة جداً. وكذلك موسى يأخذ الإله إيل كإله واحد أساساً، ولكنه قبل كل شيء هو إله للقبائل العبرية، ويرد هذا الأمر في الكتاب المقدس كما يلي: "لقد زوجتكم نفسي، وجعلتكم فوق كل البشر ". إن هذا القرار مهم جداً، و يلعب دوراً هاماً ورئيسياً في تشكيل التقليد الذي عكس جوهر المجتمع اليهودي الذي أمتد حتى يومنا هذا. ويقوم النبي موسى بتغيير اسمه، فالإله الذي كان اسمه في البداية "إلوهيم" يتحول فيما بعد إلى إله القبيلة الخاصة ويأخذ اسم "ياهوفا" ومنه يأتي اسم اليهود، ومعنى كلمة إسرائيل هو "الذي يصارع الإله "إيل "؛ أي ان قبيلة العبرانيين تملك قوة مشابهة لقوة الإله إيل، حتى تتمكن من مصارعة إلهها.

تدون التحولات التي شهدها النبي إبراهيم في المدن الكنعانية بأسلوب خاص في الكتاب المقدس، وكأنه كلام الله. وكذلك يظهر أمامنا أن قبيلة العبرانيين بدأت تكبر شيئاً فشيئاً. وإذا نظرنا إلى عددها الذي وصل في مرحلة الخروج من مصر إلى "72" قبيلة، حينها نجد أنها اكتسبت أهمية بالغة. وعندما يزداد عددهم كثيراً يتحولون إلى إمارة، ويستفيدون من الصراعات الناشبة بين وحدة القبائل المحلية وبين دويلات المدن الصغيرة، وتظهر التناقضات فيما بينهم بعض الأحيان. ويشهدون منذ بدايتهم وضعاً شبيهاً بالصراع "الإسرائيلي - العربي" الذي نشهده في أيامنا هذه. ولا تزال تلك الخلافات والنزاعات مستمرة بنفس الخصوصية حتى الآن وفي نفس المنطقة في القدس وجوارها..!

إن تقييم العلاقة بين وضع القبائل العبرية في مرحلة النبي إبراهيم ومرحلة الخروج من مصر ودراسة تشكيل هذه العلاقة يكتسب أهمية عظمى. إن تدوين الأخبار الواردة في الكتب الدينية، والتي تتحدث عن عدم توقف هجرة العبريين في زمن النبي إبراهيم، ووصولها إلى مصر على أنها كلام الله، لهو شيء مذهل ويمكن أن نتعلم منها الكثير.

ومثلما استوطنت القبائل الآرية الفقيرة تحت اسم القيستيين **"Kassit"**((وباللغة السومرية فإن **Kassu** تعني الفقير، و**kasit** يعني الشعب الفقير)) في مدن وساحات الحضارة الغنية، فإن مصر تشهد وفي نفس الفترة تطوراً كهذا أيضاً. حيث تدفقت العديد من قبائل الصحراء الفقيرة إلى مصر تماماً كما تتدفق الهجرات في أيامنا هذه إلى أمريكا وأوروبا. وقد سمى المصريون هذه الهجرات بالـ "عابيرو" **Apiru**، وهذه الكلمة تعني "إنسان الصحراء المغبر". وقد جاءت كلمة العبري من هذه الكلمة. ولم يكن هذا الاسم موجوداً عندما كانت القبيلة تخرج من أورفا وحران، ولم يكن له أية ميزة. وقد واصلوا حياتهم في مصر كقبائل فقيرة ولكنهم نصف أحرار. وكما هو الحال في مثال "يوسف" نجد بأنه يظهر من بينهم ولو بشكل محدود من يحتل موقعه ضمن البيروقراطية. إن قصة يوسف هي الشكل الذي ارتقى ضمن البيروقراطية المصرية ليأخذ شكل كلام الله المقدس. ونجد تطوراً مشابهاً لذلك في الشرح الميثولوجي الأكثر خصوصية في قصة سارغون الأكادي في القبائل العمورية. ويفهم من ذلك أن تطوير حكايات كهذه تتناول أشخاصاً هم رجال دولة أو خلقوا سلالة جديدة من قبيلة لا صيت ولا شهرة لها، ويعتمد على إرث تاريخي طويل.

استمرت المرحلة المصرية بالنسبة للعبريين حوالي300 عام. ومن المحتمل جداً، إن انحياز هذه القبيلة إلى أحد الأطراف في تمرد داخل مصر واتخاذ شخص ما يدعى موسى "بالغة المصرية إن **Mos** يعني أبن" موقعاً ما في هذا النزاع، كيوسف الذي احتل موقعه ضمن البيروقراطية تماماً، ودخوله في حالة خطر خاص، عدا ذلك وجود رابطة قرابة له مع العبريين، إن كل هذا يقدم علامات للوصول إلى أسباب هجرة جديدة. ويلعب اعتياد قبائل الصحراء على العيش بحرية والذي مازال قوياً، دوراً كبيراً في ذلك. وان فقدانهم لثقة فرعون بهم " ما كان يعني نمرود عند إبراهيم، هو ما يعنيه فرعون عند موسى، وفي كلا الحالتين هو الملك" وتتوقهم إلى الحياة القديمة للقبيلة، تشكل الشروط المادية لهذا الخروج، كان عددهم أثناء هذه الهجرة والتي من المحتمل إنكار بدأت في أعوام 1300 ق .م حوالي 25000، انقسموا إلى 72 قبيلة " وربما جاء مصطلح 72 قوم من هنا". ومن المحتمل جداً ألا تكون قبيلة إبراهيم أكثر من عدة مئات، وتشكل قوم أو عشيرة اكبر من القبيلة. ومن المعلوم إن الهجرة التي تشكل الموضوع الأساسي في التوراة ((يقال لهذا النوع من الأنطلاقات في

الأدبيات الدينية الخروج، الهجرة)) قد تركت آثاراً كبيرة في التاريخ، كانت "مسيرة الحرية الطويلة "، الأولى هذه والتي يقال بأنها استمرت حوالي 40 عاماً صعبة جداً. فقد عبروا صحراء سيناء وكانوا يتصارعون مع كثير من القبائل المتنقلة والمستقرة التي تظهر أمامهم حيناً ويقيمون علاقات معها حيناً آخر.

وعندما كان موسى في مصر، فإنه يتأثر بكاهن بقي من العهد الذي أصبحت فيه عقيدة "آتون" إله الشمس الواحد رسمية بالقوة، وفي الطريق يتأثر موسى بالكاهن " يتيرو" **Yetro** والذي كان ذو تأثير في المنطقة ميديان " وهي مكان التغيير إلى جانب التجارة، وأنواع وأشكال الأيمان" الواقعة في الطرف الشرقي من البحر الأحمر. إن التأثير المشترك لهذه العقائد مع المشاكل الكثيرة التي عانتها الإدارة، مهد السبيل لتطور على شكل المعجزة وللقفزة النوعية الكبيرة الثانية في المفهوم الديني للنبي إبراهيم، أصلاً فالمعجزات تجد معناها كسبل الانطلاقة للمراحل. وأن عدم إيجاد الحلول للمشاكل بالسبل والأساليب القديمة والمفاهيم التي تتبعها، يظهر الحاجة إلى مفاهيم وتطبيقات جديدة، وكلمة "المعجزة " هي الأسس الذي يمكن إعطاؤه للمفاهيم والتطبيقات الجديدة، حيث كانت تبذل جهوداً كبيرة لمواجهة التغيرات الذهنية الكبرى للمرحلة الجديدة الملفتة للانتباه والتي لا يمكن قبولها بسهولة وبكلمة واحدة هي المعجزة، ولقد شهد التاريخ مراحل كثيرة بهذه النوعية، إذ كان يعطي للانطلاقات النبوية معنى بهذه المصطلحات، وهذا تقليد معروف.

كانت المشكلة الموجودة في مرحلة انطلاقة موسى كبيرة ومليئة بالمجاهل. وإن البنية الذهنية والمفاهيمية الضيقة والقديمة للإدارة التي تكونت من بعض القبائل، يصعب عليها قيادة حشد مؤلف من "72" قبيلة وهو في حالة عصيان تام وأوصل إلى حالة التمرد، حيث ستصادف في كل يوم ردود أفعال قد تصل لدرجة التمرد عند العائلات، وذلك بسبب المشاكل المادية فقط. ولن تقل الجهود التي ستبذلها كل قبيلة من أجل تفوقها، وتؤدي شروط الهجرة لأناس أثناء عبورهم الأراضي التي لا يمتلكونها، إلى مواجهات دموية مع السكان المحليين الذين سيصادفونهم وتشارك قبائله في مراسيم عبادة الأصنام التي كانت سائدة في تلك المنطقة، وقد أضطر موسى لإصدار عقوبة الموت بحقهم بسبب " عبادة العجل الذهبي" المشهورة ولم يكن من الممكن الخروج من هذه المرحلة بكونفيدرالية عشائرية بسيطة، فقد كانت هناك حاجة ماسة إلى تغيير جذري في لإيديولوجية والمعنويات والإدارة أو الحاجة إلى الثورة، وكل خطوة كانت تفرض هذه الحاجة يوماً إثر يوم.

أمام هذه المشاكل، يلجأ موسى كغيره من الأنبياء أثناء انطلاقتهم إلى الطبيعة وانزوى في المغارة ويتعمق هناك، إن عادة الشمانية (أي الشعوذة)

هي مرحلة اجتماعية عامة أثناء التحول إلى مجتمع. ولقد كانت ممارساتهم المندمجة مع السحر في مرحلة المجموعات والقبائل البدائية هي بغية دمج مجموعاتهم وخاصة شبابهم مع عاداتهم ومعتقداتهم وحملهم على تجسيدها، تمثل القادة المعنويين والعلماء قبل الشيوخ والكهنة. وتقليد الشيخ في شبه الجزيرة العربية هو تطبيق نوع من الشمانية، غير إن مؤسسة النبوة هي فوق مؤسسة الشيخ، إن الشيخ مسؤول عن حمل الناس على تجسيد الأعراف السائدة وبالتالي فهو مسؤول عن استمرارية نظام القبيلة، أنه القائم على تنفيذ العادات، ولذلك فإن دوره قريب جداً من دور الشاماني، فهو الذي يدير ويعلم بمهارة كافة الأعراف والتقاليد الدينية، والأساليب التي تتيح بالأخص العثور على الشروط المادية الحيوية. وأما النبوة فهي مختلفة عن ذلك تماماً، إذ تعني انطلاقة جديدة وطوباوية مستقبلية، وأيضاً تعني رفض الماضي وتجاوزه، ومكلفة بأمر وإلهام إعادة بناء المستقبل بمصطلحات وخطط جديدة. ولا يمكن للنبي أن يكون كاهناً. فالكهنة مسؤولون عن تمثيل التقاليد الدينية السائدة، وأما الأنبياء فهم مكلفون بتجاوز التقاليد الدينية وإنشاء تقاليد دينية جديدة بدلاً عنها.

في الوقت الذي نسعى فيه لأجراء تقييم شامل لمصطلح الإله في الفصل القادم، لنوضح باختصار بأن هوية الإله أيضاً تمر بتحولات هامة. فمصطلح "الله" عند النبي إبراهيم مختلف تماماً وينطوي على الكثير من التجديد. فأمام الشروط المادية الملموسة للمرحلة، لم يكن بوسع موسى أن يبقى أميراً مصرياً أو شيخاً أو كاهناً، فكل شيء كان يجبره على الانطلاقة النبوية، وبلا ريب فإن تأثير تقاليد النبي إبراهيم على القبائل لو كان محدود، أجبر موسى على خلق الأسس للدين "الموسوي" من أجل أكبر انطلاقة في تاريخ الأديان التوحيدية.

يصبح "الله" "يهوا" كاسم خاص، ويعني أنه هو، ويذكر يهوا الحاجة إلى إدارة قاسية بترديده عبارة " إني زوجتكم نفسي، ولن تصلوا إلى آله آخر"، وهذه العبارة تعبر عن الغيرة. ويمكن فهم الخصوصية هذه على أنها تحويل الدين إلى قومية في الواقع اليهودي. إذ أن عدم انصهارهم في القوميات وتعرضهم الدائم لأخطار كبيرة، يشكل الأساس لمفهوم الدين اليهودي القومي. ومع الوحي الشهير الذي جاء إليه في الجبل و " الوصايا العشرة"، يصل موسى إلى تشكيل آخر في المرحلة الأخيرة للهجرة الدينية. وفي هذه المرحلة يطور موسى الكثير من الإجراءات القانونية والمالية والتنظيمية. ويكلف أخيه هارون بتمثيل الدين الجديد وبالقيادة المالية والإيديولوجية، ويؤسس مجلس للشؤون القانونية، ويعيّن "يوشعا" كقائد عسكري عام، ويحافظ المجلس الاستشاري المؤلف من رؤساء القبائل على وجوده، ويعاقب بقوة بعض المناهضين له ويقتلهم، ويصل بعد عدة حروب إلى مقربة القدس. وحسبما يعتقد، فإن هذه الانطلاقة استمرت قرابة 40 عاماً، وتكون الأراضي المقدسة التي توجد فيها الفاكهة والحبوب التي وعدهم

بها يهوا، مأهولة بالسكان؛ كانوا بعيدين عن فكر استقبال الضيوف الجدد برحابة صدر، ولم ينفعهم في ذلك بعض أقرباءهم ذوي الأصول العبرية الذين بقوا هنا منذ زمن، والنتيجة ستظهر بشكل جلي، استخدام القوة، تماماً كما حدث في يومنا هذا..! كم تم الخلط بين المقدس والملعون..!

بعد ذلك يصطحب موسى الذي أمضى عمره من أجل الاستقرار في الأراضي المقدسة التي وعده الإله بها، شخصاً واحداً إلى جبل " نيبو" **Nebo** ليموت هناك وبجانبه هذا الشخص فقط. وفي الوقت الذي تسرد فيها التوراة بأسلوبها هذه القصة بشكل مشوق، فإنها تضع أساس طراز وترمينولوجية الديانات التوحيدية أيضاً، وربما تكون الحقائق قد تطورت بشكل مختلف، إلا أن النتائج والأهمية التاريخية لهذه الانطلاقة مذهلة؛ فهي تحتوي في مكنوناتها العديد من التطورات.

بعد هذا التاريخ تفسر المسيرة العبرية المراحل التالية بالأسطورة. والمرحلة التي يقال عنها مرحلة الحكماء " القادة"، عاشت حتى أعوام 1000ق.م. ومع "ساول" **SAUL** يتم الانتقال من مرحلة الكهنة إلى مرحلة الملكية. أي أنه يتم الانتقال إلى المؤسسات السياسية بعد مرحلة الاحتضان الديني الطويل، ويتم معايشة مرحلة البطولة مع ظهور " داو ود ـ سليمان"، فلا يكتب للعهد الملكي في القدس أن يعيش طويلاً أمام هجمات الآشوريين، ومع حرق وتدمير القدس من قبل الآشوريين في القرن السابع ق .م ومن قبل البابليين عام 585ق.م ينتهي الوجود السياسي فيها، ويتم تهجير قسم كبير من سكانها إلى بابل. لقد تم تجسيد الميثولوجيا السومرية على نطاق واسع في العهد البابلي، وتظهر في هذه المرحلة شريحة جديدة من المثقفين والكتاب، ومع ظهور الأنبياء، يكتسب تعليم وإدارة الكتاب أهمية بالغة، وينال المهاجرون حريتهم مع قيام كيروس إمبراطور الفرس بامتلاك بابل عام "538ق.م"، ويعودن إلى القدس مرة أخرى. وأعمارها من جديد. وتبدأ الفترة الهلينية مع الاسكندر. وفي الإسكندرية يصبح الوجود اليهودي في تماس مع اللغة الإغريقية، ونشأ جيل تربى على هذه اللغة وبعدما، ينهل اليهود من المصدرين أي "البابلي والإغريقية" جيداً ـ وبالإضافة إلى ذلك التأثير الزردشتي والبارثي ـ يتبلور على شكل "العهد القديم" الذي نراه اليوم.

ينقسم اليهود أثناء فترة الاحتلال الهليني إلى عدة مذاهب وهي الصديقيون "**Saduki**" والمتأثرون بالفرس "**Ferisi**"، والراديكاليون المكابيون "المتمردون"، ومع الاحتلال الروماني في عام "63" ق .م لم تنته تمردات ونزاعات هذه المذاهب، ولم يتمكن عملاء روما من أن يصبحوا عائقاً لكي لا تمضي المرحلة دون أن تكون تحت السيطرة. وان الواعظ يحيى المعمدان

وحركة الآسنيين الفقراء يعتبرون ممثلين للمرحلة الجديدة، وبذلك تتبلور بسرعة الشروط المادية لقيام دين إنساني عام ضد عبودية روما التي تتعمم. ولا تفي اللغة الرسمية اليهودية القومية للكهنة بمتطلبات المرحلة. ويدفع يحيى حياته ثمناً للدعوة التي بدأها ليفتح الطريق أمام ظهور عيسى "المسيح يعني المنقذ المنتظر". وان صلب عيسى وقيام روما باحتلال وتدمير القدس من جديد في عام 70 بعد ميلاد وتشريد اليهود في أرجاء المعمورة، كل ذلك يمهد السبيل للبدء بمرحلة تاريخية جديدة.

سبب الوقوف مطولاً عند القصة العبرية هو من أجل إجراء الاستعداد لتعريفها وإعطاءها المعنى في الموضوع والدور الذي ستعلبه في نظام حضارة الرق وحقيقة ولادة الأديان التوحيدية، وسنرى في الفصل القادم، كيف أن الكلاسيكيات الكبيرة والإصلاحات التي بدأت بالفلسفة من جهة، والحركات الإصلاحية والانتفاضات الدينية التي تطورت بقيادة الأنبياء من جهة أخرى، ستجبر العبودية في البداية على تحول ايديولوجي، وتغير في التمأسس السياسي مع مرور الزمن.

رابعاً- حضارة الكريت:

لقد شهدت جزيرة كريت قيام شكل حضارة تتأصل بسرعة في أعوام "2000" ق.م، حيث كان لها علاقات وثيقة مع الحضارتين المصرية والفينيقية، وكانت تشكل الطرف الغربي للحضارة والتي هي المصدر الثالث الذي يغذي شبه الجزيرة اليونانية، وقد كانت حضارة متقدمة في صناعة الأدوات الفخارية وتصديرها إلى الخارج على نطاق واسع، وأسست نظام قصر فخم، أما في الميثولوجيا كانت في بداياتها، وكانت ميثولوجيا زيوس ودميتر على وشك الميلاد، وكانت ذات كتابة بدائية أشبه ما تكون بالكتابة الفينيقية، وكانت مرتبطة بشكل وثيق بالحضارة المصرية. وبعدما تعرضت لهجوم حضارة ميكان "**miken**"اليونانية في أعوام 1500ق.م، فإنها تفقد استقلالها خلال عدة قرون، أما من زاوية حضارة الشرق الأوسط، فقد كانت كريت تقع في أقصى الدنيا في تلك المرحلة، حيث كانت تمثل أقصى الغرب، فالدور هو دور خلق الحضارة الإغريقية. أن الحضارات الفينيقية والمصرية والأناضولية (ترويا، هتيت، فريفيا، ليديا) والكرتيية والتي بدأت بهذا العمل من أربع جهات، فإنها بأحد المعاني ستحقق هذا الميلاد والذي يشكل نواة الحضارة الأوروبية. ان ميلاد الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية وخاصة ميلاد زيوس بشكل مختلف ومركب، مرتبط أشد الارتباط بالواقع المركب آنذاك، إننا هنا أمام ولادة هرمز ذات الأزواج السبعة، وبالرغم من كل الجهود التي بذلت للحفاظ على الخصوصية،

وخلق الآلهة من جبين وساق وكل أماكن زيوس، بحيث يشكل كل واحد منهم ميزة خاصة، فمن الجليّ جداً بأن حضارة الشرق الأوسط الكبيرة قد انتقلت إلى هنا، وفي الوقت الذي يتم فيه إلقاء الضوء على مسألة "كيف ولدت أوروبا ولمن هي مدينة في ذلك..؟" يجب الوقوف مطولاً وبشكل أشمل على الحضارة الإغريقية في القسم المخصص لها.

خامساً ـ الحضارتان السومرية والمصرية:

لقد شهدتا تغيراً هاماً عام 2000 ق.م، حيث انتهى عهد المؤسسات والولادات الفخمة. إن السومريون سيستبعدون بعد مرحلة الإصلاحات القصيرة على يد سلالة "أور" فيما بين أعوام 2050 -1950ق.م من مسرح التاريخ مع مرور الزمن. وتشهد تلك المرحلة قيام الكتاب السومريين بكتابة العديد من المراثي والألحان والملاحم الشعرية حول هذه الحقيقة التي أدركوها بعمق، إن هذا الأسلوب من الشرح للحضارة التي أنتجت التاريخ ملفت للنظر، فلقد أثبت على ما يبدو أن هذه الكتابات السومرية تعد مصدراً أساسياً لكافة الكتب المقدسة والدراما والتراجيديا والكوميديا. كذلك أثبت بأن تلك الحضارة تعد المصدر الأساسي للميثولوجيا التي تنبعث من جديد والأديان التوحيدية، وكذلك ظهرت النماذج الأولى لكافة المؤسسات السياسية بكل أصالتها في سومر، وانتقلت على شكل موجات إلى كافة أرجاء المعمورة، وتعد أيضاً المصدر الرئيسي لوسائل البنية التحتية وللمعلومات المتعلقة بذلك؛ لقد بذلت جهود كثيرة عبر قرون لنقلها من مصدرها إلى كل مكان.

إن الدور التاريخي لبابل وآشور محدود بنقل ذلك على الأغلب. ولقد انشغلت هاتان السلالتان ذات الأصول العمورية السامية من عام 1900 ق.م وحتى بداية الميلاد، بترتيب الميراث السومري من جديد والتغذي منه ونقله إلى الجهات ومساهمتهما الخاصة محدودة.

لقد بذل البابليون جهوداً حثيثة لتدوين الإرث السومري، وكان السومريون بالنسبة لهم يحملون صفة التقديس، لقد تصاعدت الفترة البابلية الفخمة بهذا الإرث السومري، فلقد كانت بابل عاصمة للعالم لفترة طويلة، وذلك اعتباراً من "1800" ق.م، وحتى سقوطها بيد الفرس عام 550 ق.م، ولبرج بابل نصيب كبير في تمثيل كوزموبوليتية تلك المرحلة وبعبارة أدق في تشكل الذهنية الدينية والدنيوية للإنسان، وانه في وضع بارز من حيث تدوين أسس ونضوج النظام العبودي البابلي كتابة ونقله إلى العالم، وبذلك نرى إن مرحلة

الترجمة والكتابة والتنقل والتغيرات لبابل لـ 2000 عام. تنبع من العراقة السومرية وفي الوقت الذي نرى فيه أن هاتين الحضارتين اللتين استمرتا "4000" عام كانتا وراء نضج وتمأسس تكوين الحضارة الإنسانية، فإننا ما زلنا بعيدين عن تقييم الأبعاد الإيجابية والسلبية لتلك الإسهامات، بهذا المعنى هناك مسافة طويلة يتوجب على التاريخ تناولها.

أما الآشوريون فقد أعتمد انتشارهم على الحملات العسكرية العنيفة وعلى التجارة. وفي الحقيقة استمر العهد الآشوري من عام 1300 - 650 ق.م. حيث لعب الآشوريون الدور التاريخي الأكبر في قلب التواجد الأثني "القومي" رأساً على عقب، وذلك كهدف أساسي لهم من أجل إنهاء الحركات الأثنية. ولهذا السبب تحولت الحركات الاجتماعية في التاريخ خلال الفترة الآشورية إلى معتقدات دينية ومذهبية. وأصبح تاريخ الشرق الأوسط بدلاً من تاريخ المسيرات الأثنية، تاريخ مسير وظهور الأديان والمذاهب. لقد شكل الآشوريون إمبريالية عسكرية بالمعنى الحقيقي للكلمة، حيث تم خلال الفترة الآشورية فرض التفوق العسكري عنوة في كل مكان، فقد فرضت ذلك في مصر والأناضول وشرق البحر الأبيض وميزوبوتاميا العليا وإيران. إن مكانتهم في التاريخ هي اكثر تخلفاً من البابليين، فلقد اعتمدوا على الميراث السومري، حيث واصلوا أعمال النشر والكتابة، وتطوروا في مجال العمارة، إنهم أخر قوة نقلت ونشرت الميراث السومري.

لا يمكن أن نقلل الدور الذي لعبه الملوك الآشوريين في سيطرة العبودية على ذهن وسلوك الإنسان، وكذلك دورهم المميز في تطور التجارة وتمأسسها، وكذلك يمكن الحديث عن قيادتهم مع البابليين لمسيرة الحضارة العبودية على مدى ألف عام. وهناك وجه آخر للتاريخ، وهو أن الانتفاضات التي قامت باتفاق فيما بين القوى التي مركزها في ميزوبوتاميا العليا، والحثيين في الأناضول، والميديين في شمال غرب إيران، وبعض القوى الموجودة شرق البحر الأبيض شكلت جبهة المقاومة ضد هذه القيادة. وأكثر من بذل جهوداً في ذلك هم "الميتانيون **Mitani** والأورارتيون" ذوي الأصول الآرية، ولكنهم لم ينجوا في النهاية من التشتت. لقد انبعثت ملحمة كاوا الحداد من فترة المقاومة الطويلة هذه. وفي النهاية تتفق القوتان الميدية والبابلية وتقضيان على الإمبراطورية الآشورية بتدميرهما لعاصمتها نينوى ولم يقم لها قائمة بعد ذلك، ولكن الكتاب والكهنة الآشوريين واصلوا نشاطاتهم، واستطاعت مكتبة نينوى الضخمة أن تصل إلينا في يومنا هذا، هذا كما لعبت لغة الآشوريين الآرامية كلغة حضارية مثل الإغريقية واللاتينية دوراً بارزاً وأساسياً في التواصل في الشرق الأوسط لمدة 2500 عام، لا يمكن التقليل من الدور الذي لعبه الشعب الآشوري كأحد الشعوب المسيحية الأولى بعد المسيح في نشر هذا الدين خاصة

من الشرق وبالتالي لا يمكن إغفال الدور الذي لعبه هذا الشعب في النضال ضد الحضارة العبودية.

واصلت الحضارة المصرية تطورها في مرحلة السلالات الوسطى حوالي "2000" ق.م. وقد تعرضت لاحتلال "الهكسوس" (العبرانيون الأوائل، والشعوب الآرية بعض الأحيان) القادمين من الشمال اعتباراً من أعوام 1800 ق.م. وقد جسدوها بعد عدة سلالات وطردوا الباقين. ومع بدء مرحلة السلالات الجديدة أضاعوا أصالتهم بوقوعهم تحت الهيمنة الآشورية والبارثية والإغريقية، وفي النهاية تحت الهيمنة الرومانية في عام 30ق.م. وعكس فترة حكم كليوباترا الوجه التاريخي الأخير والأكثر حزناً لهذه القصة، وفي الوقت الذي كانت فيه كيلوباترا تمثل التعبير للمقاومة والاستسلام وبالتالي الانتحار النسوي، فإنها تمثل أيضاً التعبير الأخير لفخامة وديمومة الحضارة التي لا يمكن أن تنسى بسهولة.

ز - الإصلاح والمقاومة ضد الحضارة العبودية

ففي الوقت الذي قيمّنا فيه الانتقال إلى الحضارة، حاولنا أن نقيّم ونحلل موضوعين. أولهما: ظهور شكل الاستقرار بنموذج المدينة وذلك من خلال تراكم وسائل الإنتاج وخاصة وسائل ري الأراضي الخصبة وتطور الحرف أمام المنتوج الذي قدمته تقنية البرونز لكل فرد مع النمو السكاني. وباستثناء المعنى الفيزيائي، فإن ذلك يعد ثورة في بنية المجتمع، ولكن إدارة السلالة والقبيلة المؤلفة من وحدات صغيرة، لم تتمكن من إدامة حكمها في المدن لمدة طويلة، إذ لم يكن أسلوب الإنتاج لذلك مناسباً، فتباين فترات العمل جلب معه تشتت التنظيم المعتمد على الانتماء الأسري. إن تقسيم العمل في الحرف والزراعة أدى إلى تجاوز النظام القبلي الذي تزامن مع الزراعة والري، وهذا هو جوهر الحقيقة المادية لثورة المدينة.

وأما الموضوع الهام الثاني: فهو مسألة الاستعداد الذهني للتغيير في شكل الإنتاج المادي هذا، فالأسلوب الإنتاجي الذي كان يسمح بالحرية والإنعتاق ضمن مساحات الريف، لم يتمكن من الاستمرار ضمن شروط المدينة، ولأن المعبد كان في الوقت ذاته ذو دور مركزي في عملية الإنتاج، فلا بد إذاً من إخضاعه العامل "المنتج" لسيادة قوة الإدارة؛ أي سيطرة النظام، حيث كان المعبد يلعب دوراً في خلق العامل النوعي وفي تخطيط كافة أوقاته وتدريبه على العمل الذي يقوم به، وقد فرض هذا الموقع ثورة ذهنية بالمعنى الحقيقي للكلمة، وكما وقع الإنسان الذي انسلخ عن حياة الأسلوب القبلي في فراغ كامل ضمن أجواء المدينة، فكان من الواجب إقناعه بالعمل من أجل استمراره الفيزيائي.

ولكن ذلك صعب عن الطريق العنف المجرد، وصعب حتى بالنسبة لحبس حيوان واحد في الحظيرة لوقت طويل. ولهذا فقد كانت الحاجة ماسة لثورة ذهنية وتغيير إيديولوجي، ومسألة إقناع ملفت للنظر، وذلك من أجل إقناع الفرد الذي كان يعيش بكامل ذهنيته بحرية ضمن القبيلة بالعيش في أجواء المدينة والركض وراء الإنتاج في كل أوقاته عدا الضرورات الفيزيائية. وقد حددت وأجبرت شروط الحياة والعمل الملموسة كاهن المعبد على خلق وتسيير إدارة الإنتاج والإيديولوجيا معاً وبشكل متداخل.

إن تبلور الحضارات الأولى للسومريين والمصريين مرتبط بشكل وثيق بهذه الحقيقة. كما تبين هذه الحقيقة لنا بوضوح السبب الذي جعل وجود الكاهن شرطاً أساسياً، ولماذا كان مضطراً لبذل جهود كبيرة في موضوع إنتاج الإيديولوجيا وتعليمها، ولماذا أعطيت الأولوية لوجوده قبل ظهور الملكية وتمأسس الظاهرة السياسية، إذ يجب تشكيل نظام معتقدات لدرجة يجعل الناس يؤمنون بلا حدود ولا يترك مجالاً للاعتراض. فلا يمكن لنظام إنتاج جديد أن يستمر دون وجود نظام معتقدات قوي بهذا الشكل؛ فإن العنف لوحده لا يجلب إلاّ الموت.

كانت عظمة الدين والميثولوجيا والسومرية هي في مستوى القوة التي أقنعت الإنسان الذي تحول إلى عبد لأول مرة. فقد كان النظام الأيديولوجي أو بالأحرى النظام الميثولوجي والديني الذي خلقه الكهنة قوياً لدرجة أنه لعب دوراً كبيراً في إمكانية نقل كافة العصور الحضارية إلى أيامنا هذه. ولولا اللاهوت"**Theology**" السومري لما ظهرت الديانة التوحيدية ولا الهندية ولا حتى الميثولوجية والأديان الإغريقية والرومانية بالشكل التي ظهرت به، لأن التاريخ في هذا المضمار يبدأ مع السومريين ويحدد المسار الذي يعقبه.

عموماً فالعلم الذي يدرس تطور الروح والذهن وبنية الأديان والميثولوجية، ليس متطوراً بعد. فالدين في أيامنا هذه لا يعطي أية نتيجة لأنه محدود بأناس ينتمون إليه أو يرفضونه. وعلم الاجتماع الذي يتم تدريسه بشكل جاف بدلاً عنه لا يفعل شيئاً سوى نقل الواقع بصورة محايدة. إن الدخول في تحليل الشروط المادية البحتة، معاكس تماماً عن الدخول إلى الميتافيزيقا "الماورائيات" حتى العنق، هو الموقف اللامسؤول ذاته في تحريف الحقيقية. إن ذهنية وفلسفة بل وحتى تلقين العلم في أيامنا هذه يعاني من نفس المرض، إن ما أريد الوصول إليه هو: لا يمكن فهم يومنا هذا دون فهم ما جرى في المعبد السومري، كذلك لا يمكن بدونه معرفة الجامع والكنيسة والحوراء "معبد اليهود"، وكافة المراكز الفنية ولا حتى الجامعة، وحسب معاييرنا الحالية قد يبدو لنا زيقورات "**Ziggorat**" منذ القدم كنظام مضحك ولكن يجب ألا ينسى أبداً

بأنه كان رحم آلاف المؤسسات الحضارية، ومركز بناء الموروثات الذهنية، وأول مكان لعبادة "الله" الذي خلق "العبد"، وأول كونسرفتوار ومركز للحفلات، وأول جامعة، وأول بيت للإله والإلهة، وأول بيت خاص وبيت الدعارة، وباختصار إنه أول مركز لخلق وتكوين المؤسسات الأساسية المفضلة ومنح الهوية والاسم لها. إن كل المعابد والمدارس والصالونات التي كانت موجودة في مصر وفي الحضارات اللاحقة هي عبارة عن تطوير للمعبد السومري. ولهذه الأسباب لا يمكن الوصول إلى وعي حقيقي للتاريخ والمجتمع ما لم يتناول التاريخ وعلم الاجتماع كل ما كان يجري في المعابد السومرية وكل ما كان يطبق فيها.

إن هذا التقييم المختصر ليس تعريفاً بالعلم السومري ولا هو شرحاً شاملاً له البتة، بل هو عبارة عن تذكير بالحاجة الماسة إلى هذه الدراسات، وإن سبب تناول هذا الموضوع في الجامعات الأمريكية في الآونة الأخيرة هو لإدراكهم هذه الحاجة الماسة.

إن أحد أهم اكتشافات الميثولوجيا السومرية هو أن نظام الآلهة خلق العبد، لأن هذا العبد هو الوسيلة الأساسية للإنتاج. وبالنظر إلى أنه تم الوصول إلى صنع البلطة أو العجلة نتيجة تجارب قام بها البشر بصعوبة ولربما خلال آلاف من السنين فإنه يجب أن نقبل بأن موضوع قصة خلق العبد كوسيلة إنتاج تستحق البحث والدراسة. وبعد ذلك عندما نعي ما معنى اقنان الريف وعمال المعامل وما الذي أنجز باسمهم، فإننا وقتئذ سندرك معنى "نظام العبد"، هذا النظام المرهق والمؤلم والذي يعد أطول مرحلة في التاريخ البشري. فإذا ما نظرنا إلى هرم أو مدينة أثرية ما وفكرنا بكيفية إنشاءها، فإننا سنشعر بعظمة ودهشة هذا العمل، إن الوظيفة الأساسية لعلم التاريخ والاجتماع هي "وعي" هذه الحقيقة "والإحساس الروحي" بها.

وكما اكتسب خلق ذهنية العبد واستمرارها بوجود المجتمع الطبقي أهمية أكبر، فإنها تطبق في أيامنا هذه بعد أن تمت هندستها وبإحكام وبدقة أكبر، لن أقوم هنا بتحليل الذهنية والروح والوعي، ولكن لا يمكن أن نظهر المراحل التاريخية بدقة أكثر وبسهولة دون إظهار هذه الجوانب الأساسية للمجتمعات. وقد استهدفت شروحاتي السابقة والمتعلقة بهذا الموضوع إلى سد هذه الحاجة على الأقل على مستوى " التعريفات".

وكما يحدث في التشكيلات التاريخية والاجتماعية، فإن اضطرار المجتمع ذو الطبقة العبودية للتغيير والتحول بعد اتحاد الإنسان مع ممارساته وبعد التحول إلى مؤسسات والتكيف مع كافة الظروف المختلفة هو أمر من ضروريات الطبيعة الإنسانية، وتعلمنا المادية التاريخية إنه لا يوجد أي شكل يتصف بالديمومة وإن الزمن يقطع مادته بسكينه الحاد ليخلق مادته الجديدة.

لندع جانباً مهام العلم الواجب القيام بها حول هذا الموضوع، فإنه لم يستطع تجاوز الانحرافات الكبيرة بعد واكتفى بجمع لوازم المعلومات فقط، ومن الواضح بأن ما نقوم به بصدد موضوعنا لا يتعدى اختيار تعريف له. ونظراً لأن تلك المهمة تقع على عاتقي، فقد اهتممت بهذا الموضوع في كل الأوقات، وكل ما قيل سواء أكان صواباً أو خطأ، فأنني رأيته هاماً وذكرته.

إن ما شهده النظام الحضاري العبودي في أعوام 2000 ق.م مع السلالة الثلاثة لـلأور ومع السلالة الوسطى هو عبارة عن تجربة تجديد (**Restorrasyon**) فقد تفاقمت تناقضات النظام باستمرار كطبائع داخلية وخارجية. أن تجارب العنف القاسية لـ سارغون وجهوده الرامية لتصدير النظام إلى الخارج لم توفر الإمكانيات لاستمرارية سلالته أكثر من مائة عام ولم يستطع إنقاذ نفسه من التصفية بنفس الفظاظة، وحتى عمر السلالة الوسطى كان قصيراً، ولم يعد النظام يستطيع أن يواصل أسلوبه القديم وكذلك التجديد لم يدم طويلاً لأنه لم يلمس الجوهر، ويضطر نظام ((الإله ـ الملك)) للدفاع عن قدسيته وعن قناعته القديمة. وكان مصدر هذا الاضطرار داخلي وخارجي. ففي الداخل، لقد كان إداريي الولايات أو المدن يبذلون جهوداً حثيثة من أجل الاستقلال لأنهم كبروا على نموذج الملك؛ وهؤلاء كانوا يجدون حلفاء في الخارج من أجل تحقيق غاياتهم. فبعد تجربة طويلة تم التوصل إلى وعي مفاده إن نظام ((الإله ـ الملك)) هو نظام بشري، فقد كان التغيير الذهني يتطور خطوة بخطوة، ومنذ البداية كان هناك صراع بين الكاهن والملك، وقد تم تغيير العديد من السلالات في معبد الكهنة.

كانت الولايات والمدن المهمة تجري باستمرار خلف طلب وزيادة قوتها. وإن المقابر الكبيرة جداً التي تمت بناؤها وموت الملوك مع دفن حاشيتهم أحياء فيها، كل ذلك أعد الأرضية لأكبر ثورة في الذهنية والمعتقد ومهد السبيل أمام تراكمها. ولم يتم استخدام التقنية المتطورة والتي تؤدي إلى وفرة في الإنتاج وحسب، بل وضعت جانباً بسبب وجود العبيد. فمع تأسس علاقات السيطرة على كافة وسائل الإنتاج التي اخترعت في العصر االنيوليثي، تم الدخول في مرحلة محافظة وقلت من حرية الحرفيين بنسبة كبيرة، وهم في شروطهم الخاصة يعتبرون املاكاً للقصر أو للمعبد، حتى أن أيام الحرية السابقة أصبحت بعيدة المنال، ولم يعد بإمكان الحرفيون أن ينتجوا لأنفسهم، بينما كان عدد الذين لا علاقة لهم بالإنتاج يزداد شيئاً فشيئاً، فإن المنتجون كانوا محرومون من إنتاجهم، وهنا يشهد أتساعا وانتشاراً لثورة الذهنيات والتمردات على أساس طبقي، ومع مرور كل مرحلة هامة، بدأت حالة الضغط التي مورست ضدهم تعاني الصعوبات، ويزداد الشك بلوازم الإيمان، وقد لاقى الإيقاع المتنامي حول ضرورة ألا يكون الإله ظالماً، صدىً واسعاً في الروح والذهن، كما أصبحت

عواطف "التوسل" و التمرد" وأنين "الألم" أمراً لا يحتمل مع مرور الزمن. وإن ((أيوبيي)) النظام يزدادون. حيث يعد نبي الصبر والألم "أيوب"، نبي التغيير التاريخي في البنية الذهنية والروحية، وهو يمثل هذه المرحلة.

لقد ازدادت إمكانيات التمردات القادمة من الخارج والهجوم المضاد. فقد كان فرعين من القبائل السامية في شبه الجزيرة العربية هما الكنعانيين والعموريين من الشرق والغرب في حالة تدفق مستمر إلى هنا قبل التشكيل التام للحضارة في سومر ومصر. لقد أصبح بمقدور الآريين أن يدافعوا عن أنفسهم ويشنون هجوماً على الإمبريالية التي كانت تشن هجوماً مستمراً على الغابات والسهول الخصبة، وعلى الجبال الشمالية وذلك بما تعلموه منهم على الأسلحة والتي حصلوا عليها من مناجم المعادن المتوفرة بكثرة لديهم، ولعبوا دوراً كبيراً في تغيير السلالات الحاكمة عن طريق التحالفات الداخلية المكثفة، وانشؤوا سلالات حاكمة من بينهم. ويعتبر الأكاديون والـ الكوتيون **Guti** و الـ والقاسيتيون **kassit** والهكسوس أمثلة تركت لهذه التطورات أثراً في التاريخ، عموماً كان يتم في كل مكان تأسيس جبهة" فيدرالية قبلية" وتشهد المرحلة تزايد المقاومة ضد إمبريالية نظام الرق. وقد مهدت مرحلة المقاومة هذه السبل أمام إقامة العديد من الدويلات الجديدة، وبينما كان هذا الوضع يزيد من ضعف النظام، كان هذا النظام بدوره يزداد عدوانية من أجل الحفاظ على نفسه.

لقد أقحمت المرحلة البابلية وخاصة الآشورية التي تفتقد سارغون والتي بدأت مع حمورابي وانتهت بآشور بنيبال من عام "1900– 625 ق.م" خلال فترة الهجوم التي استمرت 1300عام، كافة البنى الأثنية في الشرق الأوسط في جو مرعب. وقد كانت البنى الأثنية التي لم يتم قلبها رأساً على عقب على وشك الفناء و تئن في كل مكان في جو من الرعب والألم، وفي الوقت الذي كان تتسع فيه أرضية اجتماعية للعصر الذهني مع عصر أكبر الاعتقاد في التاريخ، كانت مرحلة الأنبياء العظام الذين كانوا يشكلون طلائع المتمردين الروحيين وقادة لأنظمة الاعتقادات الكبيرة، والأديان التوحيدية تفرض نفسها شيئاً فشيئاً، وكانت فكرة المسيح "المنقذ" تسيطر على الأذهان كانتظار يزداد يوم بعد يوم، فالمسألة هنا ليست تغيير الاعتقاد وحسب، بل ان الذين عرفوا الآلهة ـ الملوك بشكل جيد وأدركوا بأنهم أناس مثلهم، لم يكتفوا بالميثولوجيا واللاهوت فانفصلوا عنها وبدؤوا يدخلون المرحلة التاريخية التي فرضت نفسها كفكر فلسفي.

1- ميلاد الأديان التوحيدية وموقعها في الحضارة

إن ولادة الأديان التوحيدية تعني الثورة في البنية الأخلاقية المعنوية والذهنية للإنسانية. إن تقزيم الموضوع إلى مناقشة "هل الله موجود أم لا..؟" هو مجرد تحريف تام، لأن أسلوب الطرح هذا يغطي جوهر الموضوع ويدفن دوره الهام في الظالمات، إذ لم يتجاوز ما يفعله علماء الدين التوحيدي والمؤمنين به، الدفاع الجاف عن أنفسهم، وهذا بعيد جداً عن الطرح الكافي للتحليل الاجتماعي العميق للولادة الدينية والأهم من ذلك التطور الذهني للإنسان والبنية المنطقية له، والابتعاد عن تحديد دوره بما فيه الكفاية في ظهور العلوم الفكرية والفلسفية، وفي الوقت الذي تعكس عملية ظهوره في أهم المراحل المتأزمة للتطور الاجتماعي ميزاته الثورية، فإن أهم المواضيع الأساسية الواجب تقديم الإجابة عنها هي، ما الذي يجب تجاوزه، ولأي الذهنيات والمؤسسات الجديدة أعدت الإمكانيات..؟. لقد اكتسبت خصوصيته في تشكل الطبقات والتحول السياسي أهمية كبرى.

لقد تطرقنا في أماكن عدة الأقسام السابقة لهذا الموضوع وسنعمل في الفصول اللاحقة تناول هذا الموضوع بعمق أكثر. هنا في هذا القسم سنعمل على تعريف المجتمع الطبقي العبودي والدور الذي لعبه في التطور الحضاري:

أ - توصل العلم في المرحلة الأخيرة إلى نقطة مشتركة تؤكد أن الحضارة السومرية هي مصدر المؤسسات الحضارية الأساسية.

فقد سلطت الميثولوجيا السومرية الضوء على مسألة آدم " أول من ظهر، أو الذي جاء من الفراغ" الذي يعد أول الأنبياء بشكل ملفت للانتباه، حتى أنها سلطت الضوء بطريقة موثقة على مسألة خلق حواء من ضلع آدم لأنه في الميثولوجية السومرية يوجد إلهاً لكل خاصية، وقد بينت هذه الميثولوجيا كيف تم ولادة مشافي للمريض من الإله الخالق "أنكي"، والأهم من كل ذلك، أن الميثولوجيا السومرية تحتوي على أشعار تشرح مسألة "الطرد من الجنة".

إن "الجنة" كمصطلح تحتاج لتحليل من أوجه عديدة، ولكن لا يمكن إنكار أن الجنة بالنسبة للشعب مرتبطة بحالة متطورة من الشوق والإسقاط الذهني للعصر النيوليثي "**Neolithic**" ، حيث لم يكن هناك حوادث عنف وشدة، إذ كانت المساواة تسيطر على العلاقات بين البشر الذين يعيشون كجزء من الطبيعة وكأصدقاء لها، أما بالنسبة لطبقة الأسياد المتصاعدة، فإنه لمن الواضح جداً بأن الجنة لديها هي حياة الدنيا التي تخلصوا فيها من العمل الإجباري ويوجد فيها عدد كبير من البشر يعملون تحت أمرتهم كخدم، التمايز الاجتماعي. فالجنة أثناء تنامي المجتمع الطبقي في سومر، كانت عبارة عن

مصطلح يوحّد بين الطبقات الدنيا الذين يحلمون بها والطبقات العليا الذين يعيشونها كحياة مذهلة. لقد بينت الولادة الميثولوجية دور الفرز الطبقي الأول في المجتمع بشكل حي وشاعري، فمن المؤكد أن القصور والمعابد المبنية في جزر خليج البصرة وعلى ضفاف دجلة والفرات كانت تشكل مصدراً لهذا الإلهام، ويمكن أن نفهم بسهولة أن الآلهة الخالقة الأربعة "آن وإنليل ونينهورساغ وإنكي" لعبت دوراً هاماً، ومن خلال قراءة النصوص الموجودة على الألواح سنجد أن هذه الآلهة تشكل المصدر الأساسي للأديان التوحيدية. لقد شرحت التفسيرات المتعلقة بالجنة التي أطلق عليها اسم ديلمون" **Dilmun**" بلغة شعرية المصطلحات الأساسية لتصورات الجنة التي جاءت لاحقاً. كما إن قصر إنكي الموجود في مدينة إريدو المسمى بقصر "أبزو " **Abzo** وهو "مصدر كلمة حوض وهو أول مثال عن القصر ذو الحوض" الذي يعبر عن خيال الجنة بصورة ملموسة، وهذا النموذج البدائي أصبح مصدر إلهام لحدائق بابل المعلقة ولكافة ثقافات القصور والحدائق المتقدمة والتي جاءت بعد ذلك.

إن الآلهة التي لعبت دور نينهورساغ وفيما بعد إنانا بأعلى المستويات في شرح الميثولوجيا السومرية، ستفقد أهميتها على مدى تاريخ الحضارة، وتصغر لدرجة مريم "أم النبي عيسى"، وتطور هذا الفقدان لشخصية حواء لدرجة ما، وكذلك تحول مسألة خلق نينهورساغ من ضلع إنكي المريضة، إلى أسطورة آدم وحواء، علماً بأنه عندما كانت نينهورساغ إلهة منطقة جبل زاغروس كانت تتمتع بمركز أعلى من مركز إنكي، (وباللغة السومرية تعني "نين" الإلهة، و "هور" جبل أو قمة، "صاغ " الجزء). يظهر هذا الشرح الميثولوجي بشكل مذهل الحقيقة التاريخية الموجودة في مصادر الميثولوجيا السومرية الممثلة بـ "ستار" في بنية اللغة الآرية قبل نزولها إلى سهول دجلة والفرات (وتصبح فيما بعد عشتار باللغة الأكادية)، والدور الرئيسي الذي لعبته المرأة في عهد الثورة الزراعية. ويشرح بشكل واضح كيف تعرضت قوة ثقافة الآلهة نتيجة الثورة الزراعية في العصر النيوليثي للتغيير من قبل السومريين.

إن المراحل التي تخلق فيها مؤسسة الآلهة السومرية (في اللغة اليونانية تحولت إلى "بانيتون" **Phanteon** الناس من الوحل ملفتة للنظر، ويتم في الفصول الخاصة من الميثولوجيا بطريقة شعرية مقدسة شرح كيف تعبت الآلهة من العمل وباتت بحاجة إلى الخدم، والآلهة تقرر خصائص الخدم، وانهم خططوا وخلقوا نظام "العبد الإلهي" بشكل مثالي، لهو أمر جلي. وهذا الموضوع أيضاً واضح جداً هنا، حيث تعبر هذه المرحلة عن تشكل فئة عليا من الكهنة والسياسيين والعسكريين وطبقة عليا من البيروقراطيين، وعندما كان الكهنة والفئات المثقفة الأخرى يقومون بوضع الإيديولوجية ونشرها، كانوا يعلمون جيداً بأنهم لن يفلحوا إذا قالوا: "تعالوا لنجعل منكم خدماً"، وكانوا يعلمون بأنه

بدلاً من الوحدة الإرغامية، فانهم لو تحكموا بشكل قاطع في البنية الروحية والذهنية للبشرية في ذاك الوقت لاستطاعوا تحقيق هيمنتهم، لأن التصورات الميثولوجية والدينية هي عملهم الأساسي، وعلى كل حال فنجاحا كهذه ليست أقل أهمية من حرب تأسيس الهيمنة التي تنفذ في الجامعات الأوروبية والأمريكية في يومنا هذا، بل على العكس، كانت أكثر ديمومة وعلمية ونجاحاً بالنسبة لتلك المرحلة. وعندما ترغب أي فئة مسيطرة أو طبقة أو نخبة الارتقاء، فإن أول عمل مضطرة للقيام به هو إقناع المعنيين وتوعيتهم، وإذا لم تنجح بذلك وأرادت أن تنفذ ما تريده عنوة وعن طريق الكذب، فإن التجارب الكثيرة قد أثبتت أنها لن تستطيع النجاح. بداية يجب خلق حرب الإيمان والتوعية ومن ثم خوضها.

لا نقصد هنا العلم الجاهز أو الإيمان الإيديولوجي القائم، وإن هذا عبارة عن مسألة تعليم بسيطة، ومثل مثال سومر، فإن الحاجة التي تقتضيها تأسيس الحضارة، أي تأسيس كافة البنى التحتية والفوقية للمجتمع الطبقي الجديد، والتي تفرض نفسها كحاجة ضرورية هي ميلاد ميثولوجيا كبرى خلاقة حسب تلك المرحلة، وهكذا نرى أن الكهنة السومريين قد انشغلوا بعمل تاريخي كبير ونجحوا لدرجة أنهم أثروا على تاريخ كافة الحضارات، أنهم لم يكونوا يحرزون هذا النجاح من أجل طبقة مستغلة مسيطرة متنامية فحسب، بل كانوا يحرزون هذه النجاحات أيضاً من أجل مجتمع طبقي بأكمله وبعبارة أخرى من أجل القوى التي تمثل تلك الحضارة وهنا تكمن أهميتهم. وليس صعباً علي هنا أن أوضح كيف قاموا بهذا العمل داعماً مزاعمي بالوثائق، ولكن لا مجال لذلك هنا، إلا أنه لا يمكن إنكار كونها تشكل موضوعاً هاماً ومثيراً من زاوية الشرح عن تبرئة تاريخ الشرق الأوسط من تأثير الدوغمائية.

إن قصة خلق آدم من الطين موجودة في كافة الكتب المقدسة. ولكن المصدر الأساسي لهذه القصة هو الميثولوجيا السومرية، أضف إلى أنها توضح بمقاطع شعرية في أي مكان يوجد هذا الطين وأي إله قام بهذا الخلق، طبعاً يمكن بسهولة فهم تعبير الدونية من هذه المقاطع وكأنهم يخلقونه من البراز، وذلك لأنهم تعاملوا مع الإنسان على أنه خادم.

إننا نشاهد أحياناً أنهم يدخلون بعض هؤلاء الخدم المفضلين في وحداتهم، ويجب هنا أن نتنبه إلى أن هذه النصوص هي أول شرح إلهي مكتوب للتغيرات الطبقية، وفي الوقت الذي يشرحون فيه أنهم خلقوا من السماء أو القمر أو الشمس أو الهواء أو من النار، نجد أنهم يخلقون الإنسان من طينة البراز. أجل.. فالطبقة المستغلة المهيمنة أوصلت تمايزها إلى هذه الدرجة بشكل عقلاني وملفت للانتباه.

كذلك يمكن تحليل مصطلح "الطرد من الجنة" الذي يحتل موقعه في

كافة الكتب المقدسة، بكل سهولة، وهذا مرتبط أشد الارتباط بالتمايز الذي كان موجوداً في المجتمع السومري؛ حيث تعبر هذه القصة عن انسلاخ الطبقة العليا المتمايزة عن أمثالها التي كانت في حالة وحدة النسب منذ القدم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تعبر عن إسقاطها الفئة التي أصبحت في موقع عباد الخدم بشكل مخفي من فعالية الطبقة العليا. وأما مصطلح "فاكهة الخطيئة" فإنه مرتبط بهجوم إيديولوجي آخر والذي يظهر على شكل اتهام تجاه حقيقة أنه لم يعد لهم مكان على المائدة التي في القصور، أي أنه لا مكان للإنسان الخادم في الأماكن التي يعيشون هم أو أمثالهم فيها كالجنة، إن هذا المصطلح يمثل ويعكس قيام الطبقة العليا بحجة التمايز الطبقي في تاريخ الحضارات برسم خط أحمر وحياكة ستار غليظ وبناء جدار لا يتهدم.

وكذلك أسطورة النبي نوح وحادثة الطوفان التي وردت في كافة الكتب المقدسة، تم تناولها في العديد من الأساطير السومرية وعلى رأسها ملحمة " كَلكَامش"، وقد أثبت العلم أن منسوب المياه في المحيط ارتفع عن مستواه عام"3000 "ق.م أدى الى تشكل بحر بصرى في الفترة السومرية على مستوىٍ قريب من السطح الترابي وأدى إلى حدوث العديد من الطوفانات في تلك الفترة الزمنية وأغرقت المياه المجمعات السكنية، هنا يوجد تقاطع بين الأسطورة والأرضية المادية والزمنية، وهذا الوضع كان سبباً لقيام السومريين بنقل تجمعاتهم السكنية إلى الشمال. وبقدر ما ترتبط هذه الأسباب التي أدت إلى الطوفان بلعنة الآلهة التي أصابت البشر، فمن المحتمل وبنفس الدرجة انه نقل إلى الميثولوجية كرد فعل حيال التزايد السكاني، ولذلك تم وضعه في رادء إيديولوجي كعملية عقاب.

وللتخلص من الطوفان، فإن السفينة التي كانت تحمل زوجاً من كل جنس رست على جبل "جودي" **Gudi**. ويؤكد صحة هذا الزعم أن جبل جودي هو أعلى الجبال وأقربها من بلاد ميزوبوتاميا الدنيا، وحتى الآن يتم الإشارة إلى هذه المنطقة كمكان لأسطورة نوح، وتعني كلمة نوح في اللغة الكردية الحديثة "الجديد" وكلمة جودي تعني "رأى المكان". نوح= جديد و **Gu** جو= مكان، و دي **Di** = رأى. إن هذه الكلمات الثلاث والتي جذرها الاصطلاحي قديم جداً، تشكل جذراً الكلمات في كافة اللغات الهند ـ الأوروبية، وتؤكد صحة تلك الجذور **deus- geo -new**. وهذه الجذور الثلاثة هي دليل جدي على حقيقة وجود علاقة ارتباط بين اللغة الآرية لغة الزراعة في العصر النيوليثي والتي تشكلت وحسب التوقعات أعوام عشرة آلاف قبل الميلاد والثورة التي تحققت في هذه المنطقة، وكون الهلال الخصيب هو مصدر لمصطلحات كلمات الجذور إبتداءً من الهند وحتى أوروبا، تؤكد صحة هذه الافتراضات، كما أن تطور المئات من لغات مجموعات الشعوب من اللغة الآرية هو دليل على عظمة العصر النيوليثي، وعن

بعده من الناحية الزمنية وبالتالي دليلاً على قوته.

إن أسطورة النبي أيوب هي نتاج للأزمة التي تمخضت عن عهود من الآلام العظيمة والأسى الذي عانى منها المجتمع السومري. ازدادت في الأعوام التي تلت 2000 ق.م الأزمات التي لم تستطع فيها الآلهة أو الطبقات المستغلة تقديم أجوبة مقنعة لتوسلات الإنسانية التي وقفت وجهاً لوجه أمام حقيقة الحياة اليائسة والأليمة، ومن المؤكد أن النبي أيوب الذي لا يزال قبره في مدينة أورفا من أصل سومري (كل الكلمات التي تبدأ بـ "أور" هي كلمات سومرية وتعني المجتمع السكاني المؤسّس فوق تلة مثل أور و أوروك). وتعد أورفا وما حولها التي تتشرف بأنها مدينة الأنبياء، المنطقة التي انتشرت فيها المستوطنات السومرية حوالي عام2000 ق.م، وفي الوقت ذاته انها تعد المنطقة التي تشكل مصدراً للتاريخ لوقوف ثقافتين تاريخيتين في تلك المرحلة وجهاً لوجه والاشتباك فيما بينهما وهما مجموعة العموريين الرعاة المتنقلين ذوي الأصول السامية (كانوا يتدفقون بشكل مستمر من الصحراء العربية نحو الشمال وباتجاه ميزوبوتاميا)، والهوريين "**Hurri**" الزراعيون الشماليون ذوو الأصول الآرية، وأكثر من ذلك فهي شهدت انشغال هؤلاء بالتجارة في المستوطنات السومرية.

إن التطور السهل للمعارضة التي قامت ضد النظام السومري مرتبط بهذه الحقيقة المادية. الثقافة العالية تعني الذهنية المتطورة. ولم يكن من الممكن مراقبتها لوجودها على الأطراف، والأهم في الأمر هو أن ذهنيات العبادة المترسخة كانت تواصل وجودها بعناد، وتوضح لنا أسطورة النبي إبراهيم أن أورفا ستزيد من عصيانها في مراحل الأزمات العامة ضد نمرودها، فكلمة نمرود بالسومرية تعني "الملك". يوجد أيضاً في أورفا العديد من الأماكن والأساطير النبوية، حيث تشير القصص التي تتحدث عن الاستيطان الإمبريالي السومري من الخارج وقصص الملوك الذين يمثلونه وأساطير الأنبياء الذين يعدّون أول المعارضين، إلى أن مدينة أورفا لعبت دوراً هاماً كونها كانت ساحة لنضال استمر طويلاً، وقد قوى هذا الاحتمال الوضع الجغرافي لمدينة أورفا وخصوبة أرضها ومناخها وهويتها الثقافية وتطورها التاريخي، وسنتطرق فيما بعد إلى هذه الأمور.

ستلعب فيما بعد منطقة القدس دوراً مشابهاً، فبينما كانت أورفا تلعب هذا الدور من خلال صراعها مع الإمبريالية السومرية، كانت منطقة القدس تلعب نفس الدور أثناء صراعها مع الإمبريالية العبودية في مصر، وكلتا المنطقتان كانتا مكمناً للأنبياء وكانتا في الوقت نفسه مركزاً للمعارضة. واعتباراً من عام 2000ق.م أصبحت القدس وضواحيها مركزاً للديانات التوحيدية في التاريخ، ويبدأ ذلك مع هجرة النبي إبراهيم إلى القدس وحتى انتفاضة النبي

عيسى. تحكي الروايات أن **Abgar** الذين كانوا يحكمون أورفا في تلك المرحلة قاموا بتوجيه الدعوة لـ عيسى للذهاب إلى مدينة أورفا. إن وجود ظاهرة الذهاب والإياب بكثرة بين هاتين المدينتين خلال الألفي عام الأخيرة يرجع الى وضعهما التاريخي، وقد كان هذين المركزين اللذين نضجت فيهما الديانات التوحيدية، يمثلان الوسط الثقافي الذي تبرعمت فيه أحلام الحرية التي وصلت إلى درجة القدسية في تلك المرحلة. إن هذا الوضع المقاوم للعبودية القاسية، شكل أساساً لقدسية هاتين المدنيتين حتى في أيامنا هذه، ولأن هذا الدور كان كبيراً فقد أخذ مساحة واسعة من الذاكرة الإنسانية وأصبح نسيانه ضرباً من ضروب المحال. إذا ما وضعنا جانباً الظاهرة النبوية وأخرجناها من خلف الستار الثقيل للدين وإذا حاولنا دراسة علاقاتها وصراعاتها مع حضارة الرق العتيقة، فإننا سنصل إلى تعريف أكثر قرباً من الحقيقة، ويمكننا تقييم الخصائص الأساسية لها على شكل أطروحة وكما يلي:

أ ـ على الأغلب انها تطورت في أحضان النظامين العبوديين القديمين؛ ولقد تأثرت بالمؤسسات الإيديولوجية التي تمخضت عن التمايز الاجتماعي من جهة، وبمرحلة الفوضى التي ظهرت في مرحلة الأزمة الثقيلة للنظام من جهة أخرى. وانها ظهرت على شكل تمرد وجداني قوي ضد القمع الذي كان يمارسه النظام على البنية الذهنية للإنسانية وعلى التشكل الوطني ـ القومي.

ب ـ بالإضافة للتكوين الإيديولوجي المستقل، كانت تجري محاولة للتكوين من جديد في موضوع المفهوم الديني الوجداني أو الميثولوجي السائد والتي تتناقض بشكل واضح مع الحقيقة. فلم تكن بالقوة التي تسمح لها بتجاوز المفهوم الرسمي ومؤسساته. وبالرغم من وجود جوانب ثورية لها، فقد كانت خصائصها السائدة تتصف بالإصلاحية. وهذا ما أدى إلى نتائج تهدف إلى تجديد النظام وجعله أكثر قبولاً.

ج ـ انها اعتمدت على الفئات الفقيرة للطبقات الاجتماعية المتمايزة وعلى الشرائح التي بقيت خارج الفئة الحاكمة للبنية الأثنية المتفككة. وكثيراً ما كان يشاهد بأنهم يملكون طبائع يجذبون نحوهم بسرعة الأفراد المنعزلين الذين انسلخوا عن المؤسسات الاجتماعية والذين وصلوا إلى قيادة القبائل المتصارعة مع النظام.

د ـ ورغم كونها قوة سياسية ومادية، فإنها تظهر على شكل قيادة إيديولوجية مفعمة بالمعنويات.

إن هذه النقاط التي يمكن أن نفصلها أكثر، تبين بشكل كاف خاصية عملية المأسسة. فإذا ما قيست بخصائص الأنبياء الثلاثة العظام، حينها ستزداد

وضوحاً. وإذا نظرنا إلى حركات الأنبياء الملموسة ضمن جغرافية الشرق الأوسط على أساس هذه الخصائص، حينها يمكن ترتيب التطورات التي أدت إليها هذه الحركات وكما يلي:

1 ـ لقد وضع إبراهيم ضمن المفهوم الديني أسس النظام الذي يعتمد على الإله الواحد تحت اسم الوحدانية، ويظهر إله إبراهيم خصائص هامة، فهو بداية انقطع عن وحدة آلهة سومر ومصر، بمعنى أنه أكتسب استقلالاً إلهياً، وهذا مرتبط عموماً بحرية الإنسان وخصوصاً بالبنية الأثنية، وغالباً ببقاء القبيلة حرة ويضع له رمزاً. إن الهوية الإلهية الجديدة تعني حسب البنية الدينية والميثولوجية للنظامين الأكثر قدماً خطوة على طريق التحرر بكل تأكيد.

2ـ الهوية الإلهية مختلفة كلياً عن الإنسان، وهي خالدة ولا يمكن أن تكون من نوع الأصنام. هناك حديث عن تجريد رفيع المستوى، إنها تتجاوز المفهوم الديني الطوطمي للقبيلة من جهة والمفهوم الديني الطبقي الذي يعكس الحكم الملكي للنظام العبودي من جهة أخرى، ويكمن في ذلك تطور ديني يأخذ درجة التطور الذهني الذي يخاطب البشر أساسا له.

3 ـ إنها بهذه الحالة، تمثل درجة متقدمة من المنطق في الذهنية البشرية. إن صياغة الطوطم وتعددية الآلهة على شكل مصطلحات، لهو تفكير طفولي ومتخلف من الناحية المنطقية، وإن جمعها في داخلها مستقبلاً، وكل شخص يصحو وجدانه وفكره مرتبط بهذه الخاصية،

4 ـ إنهم ناجحين اكثر في الأوساط التي تنطوي على الشخصيات الحرفية والشخصيات التي يمكن أن نعبر عنها بكلمة مجنون أو درويش، والقبائل ذات الجذور السامية والآرية التي تتناقض مع النظام ولم تتأقلم معه، ولم تتخلى عن عادة القيام بالحركات الحرة، وخاصة أن أزمة نظام الرق التي تفاقمت بعد أعوام 2000 ق.م، مهدت السبيل شيئاً فشيئاً أمام تنامي موجة النبوة، وشكلت أهم اتجاه في الحركة الاجتماعية.

5 ـ ان العديد من الدويلات الصغيرة التي تشكلت في المدن خارج الدولة المركزية لمصر وللسومريين، مرتبطة بشكل وثيق مع حركات النبوة هذه، وتعد المملكة العبرانية من أكثر الأمثلة المثيرة للانتباه.

6 ـ لقد زالت تماماً ثقافة المرأة والآلهة بسبب طابع النظام "نظام الرق المهيمن" من جهة، وبنية القبيلة البطريركية من جهة أخرى. وقد تأكدت هذه النقطة خاصة بعد إزالة السومريين من الساحة السياسية من قبل العموريين، وولادة مرحلة الإمبراطورية البابلية، وإن أسطورة الخلق البابلية "انوما إليش"، تعد التعبير الصارخ عن ذلك، واعتباراً من النبي إبراهيم، كان كل الأنبياء

ذكوراً ولا وجود للمرأة في أنظمتهم، وقد قربت مكانة المرأة من مكانة الشيطان. ان تأثير كل من بابل على النبي إبراهيم ومصر على النبي موسى، له دوراً مؤثراً في موضوع إبعاد المرأة، فقد بدأت المرأة تفقد مكانتها باستمرار بعد أعوام 2000 ق.م. ضمن التطور الاجتماعي وبالأحرى ضمن المرحلة الحضارية، فلقد بدأ التمييز بين الجنسين متزامناً مع الفرز الطبقي العام.

7 ـ فيما بعد ستتحول فكرة الإله الواحد إلى الفكرة الإيديولوجية الأكثر استخداماً في ترسيخ سلطة الملك، وستستخدم فكرة الإله الواحد التي تعادل الملك الواحد كصيغة وحيدة للنظام، علماً بأن هذه الفكرة كانت صفة ترفد المنطق المجرد مثلما لعبت دور الخطوة الهامة في التطور التحرري في مرحلة البدايات، فلقد جسدت الطبقة المهيمنة فكرة الإله الجديد وجعلتها ملائمة لها.

لاشك بان المؤسسة النبوية قد لعبت دوراً تاريخياً مميزاً في تليين نظام الرق العتيق. إن التيارات الدينية الجديدة المتطورة والمتمحورة حول كون الإله واحد وعظيم وانه يجب محاسبة الملوك أيضاً، هي ثاني حركة حضارية كبرى قامت في الشرق الأوسط تتجاوز الملوك الآلهة الذين يطبقون قوانين الطبيعة على الروح والذهن الإنساني. فمن الجلي ان قوانين الإله الواحد ورغم ترسخها في بنية المنطق الإنساني وإدارة الدولة، إلا أنها تعبر عن تقدم ما، خاصة وإن ربط القوانين الدينية بالبنية السياسية، أنهى تطبيق القوة المطلقة. لقد تزامن التغيير الجذري للبنية الفكرية مع مرحلة هامة في التطور المنطقي، وإن مرحلة الإلهيات ـ علم اللاهوت ـ التي تزامنت مع التميز الذي تحدث عنه الشاعر والفيلسوف الألماني "غوته" أثناء حديثه عن عصر الروحانيات، بأشكال الشعر واللاهوت والفلسفة والنثر، تتزامن مع عصر هيمنة دين الإله الواحد الذي عملت مؤسسة الأنبياء على تنميته بشكل طاغي، كما لعب النضال الذي قام باسم أديان الإله الواحد دوراً بارزاً في تجاوز الإمبراطوريات الثلاث (سومر ـ آشور ، وروما ومصر) التي عرفتها التاريخ على انها اكبر الإمبراطوريات وعاشت فترة طويلة.

2 ـ مقاومة البنى الأثنية، والحضارة العبودية

ثمة حركة تاريخية أخرى أضطر النظام العبودي إلى الدخول في صراع متواصل معها منذ ولادته وحتى انهياره، وهي الحركة الأثنية "القبلية العشائرية" التي اكتسبت الوعي. ويتم التعبير عن الوجود الأثني منذ العصر النيوليثي بمعنى يشبه طبقة العمال التي تعبر عن ذاتها بذاتها، ولم تكن تشعر بالحاجة لوعي نضالي كي تحافظ على استمرارية وجودها، لأنه لا يوجد أمامها عدو مهاجم، ولم تكن قد تكونت بعد الصراعات التي من شأنها أن تؤدي إلى

خلق الوعي الأثني. إن الوحدة والمقاومة الأثنية تحتاج لهدف، وإن ضرورات الصراع الذي سيؤدي إلى الوعي تحتاج لوجود هدف ذو منبت خارجي من جهة، وإلى توجيه هذا الهدف من قبل المجتمع الطبقي الذي يتجاوز البنية الأثنية، فالمجتمع السياسي الجديد الذي تطور في أحضانهم وإلى جانب منهم هو الذي يولد هذا التناقض، ففي الوقت الذي تنضم فيه الفئة العليا للبنية الأثنية إلى المجتمع الطبقي، فإن الفئة الدنيا ترى نفسها وجهاً لوجه أمام خطر متعدد الأوجه، بينما كانت وحدات المجتمع الطبقي في حالة جزر منفردة في محيط العصر النيوليثي الواسعة وكان الخطر ضعيفاً، وعندما توسعت الجزر الحضارية في جهاتها الأربع بدأت الجزر تشعر بأنها أصبحت جزراً صغيرة، وكي لا يتم ابتلاعها بالكامل لم يكن أمامها خيار سوى أن تكون يقظة جيداً وتقاوم، فهذا التطور التاريخي لا يزال حتى الآن مترسخاً في الوعي الاثني للشرق الاوسط والمناطق المشابهة.

إن وصول حضارة الرق إلى مرحلة الإمبريالية كان يعني من زاوية الكيانات الاثنية أنها وصلت إلى مرحلة "المجموعات الاثنية الواعية "، ومن الممكن تتبع هذه المرحلة من زاوية التطور التاريخي كما يلي:

أ ـ مهدت حركات الاستيطان المعتمدة على حضارة المدن حوالي عام 3000 ق.م، الطريق أمام ولادة وعي البنى الأثنية لتبني مصادر المواد الخام الموجودة في مناطقها والدفاع عن مصالحها التجارية، وعندما وضعت إدارة المستعمرات أيديها بالقوة على إمكانات ومقدرات الكيانات، تولد وعي المقاومة ليجلب معه مرحلة دموية جداً.

ب ـ عند ظهور المصالح المادية الهامة، بدأت مرحلة جديدة تتمثل بقيام البنى الاثنية بتنظيم نفسها من جديد تجاه القوى الداخلية والخارجية وخاصة من أجل امتلاك القدرة على الدفاع والهجوم. حيث أصبح لا مفر من تشكيل قيادة عسكرية تعتمد على تكنولوجيا الأسلحة التي امتلكوها في مرحلة الحرب الاستعمارية والإمبريالية. فقد أصبح بقاءهم والدفاع عن مصالحهم مرتبطاً بقوتهم العسكرية.

ج ـ في سبيل الوصول إلى توازن في القوة، كان لا مفر من عقد اتفاق مع الذين يواجهون تناقضات مشابهة، ويظهر أمامنا هذا الاتفاق في التاريخ على شكل " فيدرالية القبائل". إن اتحاد هذا الوضع مع التناقضات الموجودة في النظام وفتح الطريق أمام تغيير العديد من السلالات في الإدارات، مرتبط بشكل وثيق مع هذه والمرحلة والتي تتزامن في الوقت ذاته مع مرحلة العشيرة، التي نسميها "عصر البطولات".

د ـ الفيدراليات التي تأسست كانت تتوخى نتيجتين، فإما النجاح وبالتالي الوصول إلى مركزية أكبر وإلى تأسيس دولة ذات مدن مركزية أو الفشل، وبالتالي التشتت ومحاولة حماية الذات باللجوء إلى الجبال والصحارى، أو الوقوع في أسر مجتمع الطبقة المسيطرة والذوبان فيه، هكذا تدور عجلة التاريخ دائماً تجاه هذه الحقيقة ويستمر هذا حتى راهننا.

هـ ـ إن هذا النمط من الوعي العشائري يحمل في كنفه وعياً قومياً بدائياً "لا كشعب، أو كقومية". إن الوعي القومي يأتي بعد الوعي العشائري ويتطور بتجاوزه، ولا يمكن للوعي القومي أن يتطور بسهولة في البنى التي يتجذر فيها الوعي العشائري، ويتقدم البناء والوعي القومي خطوة جديدة تجاه المسائل أو في المراحل التي لا تكون فيها البنية العشائرية كافية أو عندما تشكل عائقاً، وعلى الأغلب تكون هذه الخطوات سياسية أو عسكرية. ونرى هذه التطورات بشكل ملموس على ضوء التحليلات التي تتم ضمن تاريخ وجغرافية الشرق الأوسط:

أولاً ـ لقد لعبت موجات القبائل السامية دوراً هاماً في ثلاث مراحل كبرى. وإن إسهاماتها في تشكل حضارتي مصر وسومر واضحة جداً. وفي المرحلة الثانية أظهرت المقاومة، وذلك غالباً ما كان مرتبطاً بالقيادات النبوية. ويشكل العموريون الذين خرجوا ضد السومريين في الشرق والكنعانيون والعبريون الذين قاوموا مصر أحياناً وشنوا هجوماً عليها احياناً أخرى في الغرب، المرحلة الثانية. أما المرحلة الأخيرة فهي مرحلة انتشار العرب السامين في العصر الإسلامي الإقطاعي، ومازال العرب يواصلون انتشارهم.

ثانياً ـ المجموعة الكبرى الثانية، هم ذوي الأصول الآرية، لقد أطلق على الآريين الذين نمى عندهم الوعي الأثني حوالي عام 3000 ق. م، أسماء مختلفة من قبل السومريين، فقد أطلق أسم "هوريت" **"horrit"** الذي يعني "قاطنو البلد العالي" على هذه الموجات كاسم عام. ان الكوتيين والقيسيتيين والميتانيين والأورارتو، وأخيراً الميديين الذين هم فروع من الهوريين يشكلون الجيل الأول. يستمد الوعي العشائري المترسخ في المنطقة قوته من تلك السنوات التي شهدت صراعات ومقاومة لا هوادة فيها. باتت العشائرية الوسيلة الوحيدة للبقاء والاستمرار في الوجود في زوايا الجبال المنعزلة.

ثالثاً ـ إن فروع الآريين الذين انتشروا في الهند وأوروبا "ليس الانتشار الفيزيائي، بل الانتشار الثقافي " بتحطيمهم البنى الباليولتية (العصر الحجري القديم، مرحلة التوحش)، يطورون الثورة الزراعية وبناء المؤسسات النيوليثية، لم يكن الهدف هو المجتمع الطبقي، بل البنى الاجتماعية البدائية المتخلفة. بدأت بين 2000 ـ 1000 ق.م التكوينات الحضارية المؤلفة من الصينيين والهنود

والأتراك والكلدانيين على أسس الثقافة الآرية ابتداءً بالمحيط الهادي وصولاً إلى المحيط الأطلسي، تظهر وتأخذ شكلها تحت تأثير الحضارات السومرية والمصرية، مما يعني ذلك مرحلة الموجة الثانية الكبيرة من الانتشار. والمجموعات الأثنية التي تنتمي إلى الآريين والتي تمثل الثورة والثقافة الزراعية، لعبت بحركتها الكبيرة دوراً في تكوين حضارات آسيا و أوروبا.

رابعاً ـ كانت الإمبراطورية البابلية الآشورية التي تمثل الطبقات الحاكمة للقبائل العمورية المتشكلة عن طريق الانتشار من ميزوبوتاميا الدنيا إلى الشمال والتي جسدت الثقافة السومرية وطورت اللغة الأكادية واعتبرتها لغة رسمية، هي القوة الأكبر على المستوى العالمي في هذه المرحلة. إن هذه المرحلة التي ابتدأت في أعوام 2000 ق.م، انتهت سياسياً في عام 550 ق.م بتأسيس الإمبراطورية البارثية، وتعرف هذه المرحلة وخاصة الإمبراطورية الآشورية ببسط هيمنتها على الشرق الأوسط بشكل دموي، ولأول مرة في التاريخ. تشرح الوثائق الآشورية بكل فخر تجربتها في أولى المجازر التي نفذت لتطهير البنى الأثنية.

لعبت كل من حركات الحرية ذات القيادة النبوية المعتمدة على المجموعات السامية على الأغلب وتطورت تحت أشكال الإله الواحد وتعتبر النبي إبراهيم جداً لها وحركات المقاومة للفيدرالية القبلية ذات الجذور الآرية المعتمدة بشكل مباشر على الوعي العشائري وعلى قيادته، دوراً بارزاً في التطور التاريخي.

ويمكن أن نصل إلى نتيجة مفادها، أن التطور السياسي ذو الشكل الفيدرالي القبلي والإيديولوجي الذي نشأ مع التشكل الديني التوحيدي والذي عاش وضعاً متداخلاً وتطور ضد إمبريالية الرق، لم يستطع القيام بهدم مراكز حضارة الرق التقليدية والوصول إلى بناء نظام الحضارة الإقطاعية، إلا أنه لعب دوراً بارزاً في زعزعتها وإكسابها أنماطاً جديدة. فالمؤكد هو ان لهذه المقاومات أثر بالغ في قيام النظام بالإصلاحات المرنة، وهكذا لا يمكن التقليل من أهمية هذه التحركات الكبرى في تطور معايير الحرية والتحرر في البنية الروحية والذهنية للبشر. فلقد بدأت مرحلة التحدث عن آلام كافة المجموعات المحكومة والمسحوقة التي أوصلت إلى حالة ظل أو لاشيء، واندلاع التمرد والبحث عن منقذ. فكانت هذه المرحلة هي مرحلة البحث الكبرى، وهي مرحلة ظهور البنى الصوفية في جغرافية الشرق الأوسط إلى جانب البنى الأثنية. وكان هذا نوع جديد ومختلف من التشكل الاجتماعي؛ إن قبول الناس لبعضهم كأخوة على أساس الطرائق الصوفية الباطنية دون النظر إلى البنية الأثنية هو عبارة عن تحول اجتماعي، وبالتالي فقد انضم إلى مسيرة الإنسانية نوع ثالث من الأنماط الاجتماعية مختلف

عن مجتمع الرق الطبقي والمجتمع الاثني. لقد تحول التاريخ بحركات هذه المجموعات الاجتماعية المختلفة إلى "تاريخ الأديان والمذاهب" الى درجة كبيرة. وان تاريخ الأديان الذي سيأخذ حالة التفسير أساساً فيما بعد هو نتاج لهذا التطور، وأصبح تاريخ الشرق الأوسط بكامله عبارة عن تاريخ للحروب الدينية والمذهبية الى درجة سيصل فيها إلى نقطة الذروة في القرون الوسطى في هذا الموضوع. وتعد هذه المجموعات بما مرت به من تحولات عبارة عن مجموعات ذات صفة فلسفية ونموذجاً أولياً لها. وتحولت الأبحاث رويداً رويداً من حقل الدين إلى حقل الفلسفة، ومثلما أظهر الدين وخاصة دين الإله الواحد تطوراً في كنف الميثولوجيا، كذلك بدأت التصورات الفلسفية بالظهور متأثرة بالتطورات ذات الأرضية المادية للحضارة وبالحركات الواعية لهذه المجموعات الباطنية. إن حاجة نظام الرق للإصلاح وتطور البنية الروحية و الذهنية للإنسانية اقتضت العبور إلى عصر الفلسفة بنمط فكري.

3- تطور الفكر الفلسفي والحضارة

"نبذة تاريخية عن التطور الروحي والذهني"

ترتبط تطورات البنية الذهنية للإنسان بالمستوى الاجتماعي، ولاشك بأن وصول الحنجرة إلى سوية فيزيولوجية هو شرط أولي للتطور الدماغي للإنسان باعتباره أحد الأعضاء، ولقد أثبتت التجارب أنه مهما تطور عضوي الصوت والتفكير فإنهما سيظلان في حالة خمول ولن يكونا أكثر من كائنات متطورة "**Piramit** " ما لم يتم التحول إلى كيان اجتماعي، وهكذا تطورت بكل تأكيد مسألة العبور من الفكر والصوت إلى اللسان بالعيش ضمن المجتمع ومن خلال مرورها بقفزات نوعية. لقد تزامنت بعض الانطباعات الفكرية المحدودة إلى جانب بعض الإيحاءات والإشارات باعتبارها أسلوباً تعبيرياً مع مستوى الكلان التي تعد نمطا ضيقاً للمجتمع البدائي. لقد اعتمد الشكل البدائي للغة على الإشارات، ولم تكن قد تحولت بعد الإيحاءات والرموز إلى المستوى الصوتي المتكون من الكلمة في ذاك العهد، ومن المعروف بأنه عندما يثبت عدم التخلي عن الحياة الاجتماعية والقوة التي هي نتاج لها، وانعكاس الممارسة العملية لهما في الدماغ، يكون التطور من الفكر باتجاه اللغة أكثر سرعة، ويوصف هذا التطور بأنه أول وأكبر ثورة في التاريخ الإنساني. وكلما أكتسب "الكيان الثقافي" الذي يمكن أن نعرفه بأنه يشمل كل شيء والذي يعد نتاجاً للتطور الاجتماعي

حتمية باعتباره الإدراك الرابع بعد العوامل الثلاثة، الجماد والنبات والحيوان، فإنه يكتسب معنى باعتباره نمطاً أساسياً وضرورياً للبنية المادية للفكر واللغة.

إن تطور الفكر واللغة في هذا التشكل ليس غير فعال، إذ أن استمرارية الحياة الاجتماعية كرابطة ديالكتيكية قوية جداً ستعتمد على هذه الثورة الأولى، وسيتم تحديد الديالكتيك الاجتماعي من خلال الاتصال القائم بين كيانه الثقافي وقوته الفكرية وسيعبر عن الحكم كقوانين التطور وسيواصل وجوده بتجديد نفسه بواسطة الممارسة، وما أن يظهر قوته هذه حتى يذوب ضمن القوة الاجتماعية الأقرب إلى تطبيق القانون والحكم. ويعد هذا قانون تطور عام لكافة المجتمعات ويوضع تحت أسم المذهب الديالكتيكي المادي التاريخي "المادية". ويشاهد ضمن هذا الإطار أن تطور الذهن الإنساني قد مر في بعض من مراحل التطور الهامة:

أ- إن أسلوب التفكير المعتمد على البنية الذهنية والذي استمر فترة طويلة جداً، هو المرحلة التي تخيل فيها البشر أن كل شيء حولهم عبارة عن موجودات تفكر مثلهم، إذ كان يظن بأن كل الأشياء التي في الطبيعة من جماد ونبات وحيوان، هي كائنات حية تستطيع التفكير، وقد انتشرت بشكل عام "الفتشية" عندما يكون موضوع الإيمان أشياء جامدة، و"الروحانية" عندما يشمل الاعتقاد موضوع كافة الكائنات، ونرى هذا الأسلوب من التفكير في كافة التجمعات البدائية، وبشكل جوهري فإن الطبيعة تفكر بشكل حي، وفي الحقيقة إن هذا الأسلوب من التفكير عند البدائيين ليس خطأ، ولكن بتعميمهم ما بذاتهم على كل شيء يقعون في خطأ فادح.

لا شك أن الحياة هي نتيجة للتطور الطبيعي الذي نتج عن التفاعلات المعقدة للمواد العضوية وبهذا المعنى فإن الإنسان هو مادة مفكرة. وربما كان قد أحتاج الكائن الحي إلى أن وصل إلى هذا الشكل، المليارات من سنين التطور فمن أصغر جزيئات المادية ذات الطاقة إلى النظام الكوني ومنه إلى المجرات ومن المجرات إلى النجوم ومن النجوم إلى الكواكب السيارة ومن الكواكب إلى تشكل الغلاف الجوي المناسب وأجزاء اليابسة والماء ومنها إلى وحيدات الخلية وإلى عالم النبات والحيوان وإلى تشكل المجتمع بعد تاريخ طويل من التطور وحتى الوصول إلى "الإنسان" الذي يعد كائناً مفكراً، وهذا آخر نتاج لهذه السلسلة الطويلة من التطور. وبهذا المعنى فإن الإنسان عبارة عن مادة وصلت إلى قوة الحياة والفكر، ولا يمكن أن نقول بأن الإنسان عبارة عن مادة بحتة، بل هو مادة مفكرة، وهذا يعني أن الإنسان الأول لم يكن يفكر خطأً؛ لأنه حي ويفكر ولذا فمبدأه هو أن يكون كل شيء مثله، في الحقيقة ان هذه المبدأ يغير شكله ويستمر ولا يزال هذا المبدأ الذي يمكن أن نسميه "مركزية الذات" مستمراً حتى الآن على شكل فئات مختلفة مثل "العشائرية والقبلية والأميرية والملكية

والدولتية مبدأ الملكية الخاصة والتعصب الديني وكل أنواع المذاهب الفردية".

لقد أنتج أسلوب التفكير هذا "الشامانية" والسحر، فالشامانية والسحر عبارة عن طقوس تعتمد على نماذج مصغرة للحوادث أو الوقائع التي يريدون التأثير فيها "نوع من العبادة أو الاحتفال" وتجارب لأجل إحضارها إلى الوضع الذي يريدونه. لقد أراد الشامانيون والسحرة من خلال تنظيمهم لعبة طوروها بطفولة ساذجة، تحقيق التغيير الذي حققه العلم بما يتناسب مع قوانين الأشياء. قد يظهر أن أشكال تطبيق هذا الأسلوب من التفكير كلام فارغ. ولكن إذا نظرنا إلى الموضوع من منظور ظهور إرادة التغيير، فإننا سنجدها مرحلة تطور متقدمة وعظيمة، فمن جهة يفكرون بالعلاقات التي تربط بين الوقائع ويتدخلون فيها ويؤمنون بأنهم سيحصلون على النتائج، وهناك نقطة أخرى وهي أنها عندما ننظر إلى الأشخاص الذين ظهروا كأصحاب تطور روحي وفكري عميق في مجموعات ومراحل تواجد فيها الشاماني والساحر، ففي الممارسة العملية ظهر من بينهم أشخاص أثبتوا وجودهم بالصيد والجمع، وسنفهم كم هي صعبة وهامة المهمة التي يواجهونها، ويمكننا أن نولي هؤلاء أهمية خاصة ليس حسب مجتمعنا، بل بالنسبة لتلك المرحلة، فكم هي هامة المهمة التي كانوا يقومون بها لإيقاف المجتمع على رجليه عن طريق خلق الأمل في تلك الظروف القاسية. لقد لعب هؤلاء بعبارة أخرى دور أول العلماء و المحترفين.

أما الخاصية الأخرى لهذا الأسلوب في التفكير، فهي أنه حتى تلك المرحلة لم يكن قد تم الوصول إلى الله وبالتالي إلى مرحلة الأديان، وبالأحرى إن هذا الأسلوب من التفكير يشكل البنية الفكرية أو العقائدية لأنظمة القبيلة أو العشيرة البدائية التي تشكل نسبة 98% من عمر الإنسانية حتى يومنا هذا، وبالتالي تشكل بنية الدين الأول. وبهذا المعنى يمكن تقيم الشامانية أو السحر على أنهما أول تأسيس أو تنظيم للتطور الفكري، وقد لعبا دور الريادة في تجديد هذه المؤسسات و استمر أريتها. وأكتسب الشامانيون الذين كانوا كعائلة في الصدارة ضمن المجتمع الذي يمثلونه شيئاً فشيئاً أهمية هائلة؛ وهذا الدور له أثر بارز في مرحلة العبور إلى أنظمة القبيلة الأمومة والبطريركية. لم تكن شروط الإنتاج ومستوى المساواة في المجتمع تسمح بإمكانية التمييز بين الرجل والمرأة. وأخذت من النباتات والحيوانات في حياتها رموزا لها وهي الأشياء التي لها علاقات معها، ويطلق لفظ طوطم على هذه التسميات التي تعتبر لقب للقبيلة أو هوية لها. إن الاحترام والإيمان الذي كان يقدم لهذا الطوطم في الحقيقة هو تعبير رمزي لوجودهم وأجدادهم ووصولهم إلى إدراك لهويتهم وقوتهم. وإن جوهر بنية الإيمان في هذه المرحلة الطويلة هو الاعتقاد بأن الحياة تكمن في سائر الأشياء، وفي الممارسة كانت تمنح القدسية للعلاقة الموجودة مع كافة الموضوعيات والأشياء والنباتات والحيوانات التي يهتمون بها، ونسمي هذا

السلوك بالـ "معنى"، ويصبح المعنى هو القيمة التي تمنح للموضوعات التي انشغلوا بها بجهدهم، وكانوا يرمزون إليها بالطوطم ويعبدونه، وفي المرحلة التاريخية التالية سيتم العبور من الطوطم إلى الأديان متعددة الآلهة.

ب ـ أدت الثورة الزراعية والترويض إلى قفزة فكرية أيضاً، وإن أكبر الموجودات التي برزت أمامهم هي التربة والمزروعات والأشجار المثمرة والحيوانات التي تم ترويضها، وأستفيد منها في العديد من الجوانب، وسيتجه انتباه الإنسان إلى هذه الموجودات التي تقدم له إمكانيات الاستمرارية في الحياة، وسيسعى للتعرف عليها وسيمنحها جهده ويقدسها ويؤمن بوجود خصائص فوق طبيعية لهذه الموجودات، ونظراً لتأثير الفصول والشمس والمطر وما يماثلها من ظواهر على الزراعة وتربية الحيوان وفهمهم على انها موجودات لا يمكن التخلي عنها، لذا فإنهم سيرتبطون بها وسيقدسونها. هذه هي الظواهر التي تهب المعنى لوجودهم الاجتماعي وتزيدهم غنىً، وبسبب أهمية هذه الموجودات الحيوية، ستمنحن أسماء خاصة وترفعن شيئا فشيئاً إلى مرتبة الآلهة. إن التحول من الطوطم إلى الرب مرتبط بشكل وثيق بالعصر النيوليثي الذي يعد مرحلة هامة في البنية الفكرية وفي بنية العقيدة، وهي المرحلة الأكثر خصوبة من حيث ذهنية الإنسان والمعرفة المباشرة للطبيعة عن قرب واستيعاب خصائصها، وباختصار تعتبر المرحلة الأهم في المعرفة.

إن المجموعات اللغوية الكبرى في التاريخ التي بقيت حتى يومنا هذا، هي من نتاج هذه المرحلة، وكانت مجموعة اللغات السامية في شمال أفريقيا والجزيرة العربية، ومجموعة لغات "الهندو أوربية" ذات الجذور الآرية المنتشرة من الهند إلى أوروبا وأمريكا ومجموعة أورال ـ آلتاي أو فين ـ أويغور المنتشرة في الخط الشمالي ومجموعة القوقاز والباسك والبحر المتوسط، هي مجموعات تكونت في تلك المرحلة. ولأن الثقافة الآرية هي التي قامت بالثورة الزراعية، فإنها صاحبة الأثر الكبير في هذا المجال، وبقدر ارتباط مصطلحات الفكر الأساسية بالحياة المعتمدة على التراب كجذر، فإنها اكتسبت الشهرة في مجموعة اللغة هذه، وتطبع المرأة التطور الفكري واللغوي بطابعها لاعتبارها كانت القوة السائدة في مرحلة الزراعة والترويض، ولا زالت حتى يومنا هذا تستخدم في العديد من اللغات كإضافة أولية أو ثانوية. ولأن الاعتناء بالزراعة وترويض الحيوانات غالباً ما كان مرتبط بفكر المرأة وممارستها، فقد أدى إلى إكسابها أهمية كآلهة أم التي أنجبت الجميع. ويتضح من التماثيل الأنثوية الموجودة في كل منطقة استقرار للعصر النيوليثي والمتبقية من تلك المرحلة، الأهمية التي اكتسبتها المرأة كآلهة حاكمة ومنتشرة جداً. إنها الآلهة الأم التي تنجب وتشبه التربة المعطاءة. إن المرأة تكتسب قدسية عظيمة، وتنحدر ديانة الطوطم القديمة إلى المرتبة الثانية، وتجعل ثقافتها مهيمنة؛ يتم تشبيهها بالقيم

السماوية كالشمس والقمر والنجوم. ففي اللغة الآرية كلمة ستارك "**stark**" تعني الإله والعظمة المقدسة والنجم في نفس الوقت، وحتى جعل "**stark**" مصطلحاً بمفرده، يعتبر توضيحاً هاماً من أجل التعرف على حقيقة الدين في تلك المرحلة، ولأن بعض الحيوانات مثل الثور والبقرة والعنزة والخنزير اكتسبت أهمية خاصة، فإنه لم تستخدم إلا نقوشها ورسومها في التحول الإلهي "العبادة". ويتم وضعها في المكان الذي توجد فيه الآلهة "الربات"، ويعد "الثور" العجل من اكبر آلهة المصريين، وكذلك العنزة والديك كائنات مقدسة، ولا زالت الحصانة قائمة للبقر في الهند.

كذلك يذكر أن النباتات مثل القمح والذرة، والأشجار مثل البلوط والكرمة كانت كنعمة من بين الموجودات التي تحمل القدسية ذات المصدر الإلهي، كما إن قوة المعنى التي كانت منتشرة في الديانات السابقة، يتم انتقالها إلى كائنات أقل عدداً ولكن تأتي أهميتها في المقدمة، وتم خفض الطوطم التي كانت عددها كثيرة إلى الآلهة التي أصبحت عددها محدودة، ولكن أعظم الكائنات هي الآلهة التي ترمز إلى قوة الإنجاب والتكاثر، وتبرز أسماء الآلهة على المستوى الإقليمي أيضاً، ولكن لا نستطيع العثور على هيكل واحد للرجل، فالرجل في أحضان الآلهة الأم وهو يمثل ابناً أو زوجاً لها، يكتسب معنى.

تمثل الثنائيات "عشتار ـ دوموزي، أسيس ـ أوزيريس، أفروديت ـ أدونيس، كيبالا ـ أتيس"، في الميثولوجيا، ثقافة الربة الأم الآتية من العصر النيوليثي، وهي ذات معنى من حيث تمثيلها أساس كافة الثقافات البشرية.

ان أهم نقطة يجب إدراكها هنا بشكل جيد هي حقيقة أن البشرية قد عاشت فترة طويلة من مرحلة ما قبل التاريخ، حيث كانت المرأة فيها مقدسة وقيادية، بينما الرجل يرتبط بها ويبدي تهذيب الطفولة.

ج ـ أدت ثورة المدينة إلى تغيرات جذرية انعكست على البنيتين الفكرية والاجتماعية، حيث أن أكبر تجديد حدث في تلك الفترة، هو إدراك عدم وجود تأثير مباشر بين القوانين في مجرى الأحداث الطبيعية والقوى الاجتماعية، فقد تم الوصول إلى مستوى ذهني فيما يتعلق بأن مجرى الأحداث الطبيعية لن يتأثر بالأعمال الفردية، وبذلك فقد الشامانيون والسحرة الأهمية التي كانوا يتمتعون بها سابقاً، وأصبح عنصر الدين الجديد هو المعبد الذي تم إنشاء المدينة حوله، والكاهن الذي يقيم فيه. وربما قد اجتمعت تأثيرات الشعوذة والسحر في شخص الكاهن، كما اقتضى المجتمع الذي ازدادت تعقيداته، وجود نظام جديد ومنضبط، كذلك أحتاج إلى مصدر جديد للقدسية لإضفاء الأهمية على النظام الذي أتصف بالقدسية دائماً. وجد الكاهن السومري هذا النظام في السماء الصافية لميزوبوتاميا والتي ذات حركة منتظمة فيها، حيث يستمر في السماء

نظام مذهل، ولان نظام السماء هو أقدس نظام، لذا يجب ترسيخه على الأرض أيضاً، والحركة المنتظمة للأجرام السماوية يجب أن تكون أساساً لحركة الإنسان ضمن المجتمع، ولا يمكن الاعتراض على ذلك مطلقاً، بل حتى لا يمكن التفكير في الاعتراض لأن هناك إيمان جاد وقوي لهذا المعتقد، أي أن عدد الآلهة سيقل قليلاً بما يواكب الكائنات الموجودة في السماء.

في الحقيقة تزامنت مع هذه الأحداث ولادة مرحلة تشكل المصطلحات في ذهنية الإنسان، وأكتسب الفكر الإنساني قوة جديدة، كما أدى أسلوب الإنتاج الجديد إلى تراكم السلع المنتجة بنسبة هامة، وأصبح بالإمكان منح حصة من هذه الزيادة إلى الأشخاص الذين يمضون وقتهم بالانشغال بالتصورات الذهنية، كما أن تخزين هذه السلع الزائدة في مستودعات المعبد قد جلبت الأمن والطمأنينة للكهنة والطبقة المحيطة بهم، الذين لعبوا دوراً ريادياً في هذه الثورة، وهذه الطبقة هي الطبقة التي قدر لها فيما بعد أن تحكم وأن تكون صاحبة هذا الملك؛ أما الانعكاسات الأيديولوجية لهذه الطبقة فهي أنها أصبحت ممثلة القدرة الإلهية السماوية على الأرض، وأصبحت الـ **ziggurat** أشبه ما تكون بالمقر الذي يجمع بين وحدة الآلهة وممثليها. كان الكهنة الذين في رأس الهرم ينشغلون بالأعمال الإلهية بشكل مستمر، وينظرون إلى الأجسام السماوية ويتوصلون إلى تكهنات "نبوءات جديدة"، بينما كانت الطبقة التي في المرحلة الثانية من الهرم تشرح للعباد الأحكام الإلهية التي توجب الطاعة المطلقة ويهيئون الأجواء الملائمة لقيام هؤلاء العباد بالعبادة. لقد نجحت ثورة الدين الجديدة في مقرها بشكل مذهل، حيث تم إقامة عالم نموذجي للآلهة والذي يدار المجتمع باسمه لتمثيل قوى الطبيعة.

بعد أن تم كتابة السيناريو قبل وجود الطبقة المهيمنة أو بالتعاون معها، وبعد أن تم نقش المسرحية على شكل عبادة مقدسة في الروح والذهن، أصبح بمقدور الطبقة الحاكمة أن تظهر لخدمها الذين استعبدتهم عن طريق التستر خلف الواجهة الإلهية الفخمة، وبقدر ما يكون ذلك بنفاق كبير، توالت هذه الآلية الفكرية والدينية الجديدة التي استولت على كافة الأذهان والأرواح وسيّرتها عن طريق عملية الأيمان والإقناع، بقوالب موسمية حتى وصلت إلى أيامنا هذه. لقد تم نقش حقيقة المعتقدات والأعراف الاجتماعية التي أوجدها هذا النظام في مورثات إنسان الشرق الأوسط، حتى أصبحت هذه الحقيقة تشكل حتى يومنا هذا أساس قوتنا بل وضعفنا أيضا، ومهما كان اسم الدين أو الفكر الذي يتحدث باسم هذه الحقيقة، فإن الذي تم إرساء أسسه بشكل سليم والذي يطحن أذهاننا وأرواحنا مثل رحى الطاحونة القديمة، هو عجلة معتقدات وأفكار هذا النظام.

إن الطراز الاعتقادي والفكري السومري هو نظام ذو قيمة بشرية

مازالت تأثيراته، وإن كانت بشكل غير مباشر على البنية الذهنية والروحية للإنسانية، قوية حتى ولو لم يتم الانتباه لذلك. لقد أجرى السومريون تغييراً على العديد من أشكال الأديان والأفكار، ووضعوا الفروقات بينها وذلك بتطبيقها بما يتلاءم معهم، ويعتبر ذلك حسب تلك المرحلة، المصدر الأساسي الذي بدأ بذلك التغيير الموجه بفعل العلاقة الديالكتيكية الأساسية للتحول الموجه من الفكرة الفلسفية إلى الفكرة العلمية.

لقد رسخ السومريون قواعد وقوانين قوية في البنية الفكرية والأخلاقية للإنسان، وبات قالب النظام على درجة من القوة التي تجعل الحضارة ممكنة بالنسبة للأنظمة السابقة، وحققت تفوقاً ساحقاً بكتابها وأدباءها على صعيد تأسيس مؤسساتها القوية، وهي صاحبة أسلوب استطاعت أن تعبر بقوة عن الانسجام بين الموسيقى والحياة استمرت حتى يومنا هذا، وذلك عن طريق إنشاء وحدة متآلفة باستخدام الفن وخاصة الموسيقى، كما أنها أول معين للموسيقى الدينية.

أما الجانب الأخطر لهذا الأسلوب الاعتقادي والفكري فهو تمتعه بالخاصية الدوغمائية **Dogmatik**، وقد احتلت هذه الخاصية مكانها في بنيان كافة المعتقدات والأفكار الدوغمائية التي مرت بتحولات مختلفة ووصلت حتى يومنا هذا. وكان من الصعب جداً الانتقال من المعرفة إلى العلم والفلسفة تحت تأثير هذا الأسلوب من التفكير والاعتقاد الذي لعب دوراً هاماً في استقرار وتمأسس العبودية وبعبارة أخرى تحت تأثير المفهوم الديني وممارساته. لقد عرف تاريخ الحضارة قانوناً عاماً مفاده: إن الثقافة التي تطور أسلوبا اجتماعياً اكثر، هي تلك الثقافة التي لا تتخلى عن جوهرها بسهولة وتقاوم التغيير بشدة، ولقد عانى الشرق الأوسط من هذه القاعدة كثيراً. ومثلما يكون الوصول إلى النتيجة القائلة بوجود علاقة بين فتح الطريق أمام النمو المذهل للحضارة الرأسمالية الأوروبية وعدم معايشتها لحضارة النمط الشرق أوسطي صحيحاً، وكذلك عكس هذا الكلام صحيح ايضاً. أي أن التأثير العميق لحضارة الرق على الذهن والروح تصعب تجسيد ذهن وروح الرأسمالية وبالتالي تصعب تحويلها إلى مؤسسات، وذلك أشبه ما يكون بالمثال التالي: ففي الوقت الذي يحتمل فيه أن يسمح الجذر الأساسي بتبرعم جديد، فإن هذا التبرعم يعيش على الجذر ولا يمكنه التخلي عنه. لقد ترك هذا الموضوع آثاراً عميقة فيما يخص الثقافة التي نتجت عن الثورة الزراعية في منطقة الهلال الخصيب. فهذه المنطقة لا تزال حتى الآن تعيش تحت تأثير ثقافة العصر النيوليثي القوية وعاداته وتقاليده.

ولكن مثلما لا يمكن أن تكون ثورة المدن ولا حضارة الرق لولا ثورة الزراعة ـ القرية، فمن المؤكد بأنه لا يمكن الوصول إلى أسلوب التفكير الفلسفي

لولا وجود حضارة الرق في البداية، ومن ثم المدن وحضارة المجتمع الطبقي والعناصر الإيديولوجية. الأبحاث الديالكتيكية تؤكد أن الأسلوب الفكري الذي سيتمخض عن نضال الأسلوب الفلسفي، هو أسلوب الرق، إن التناقض الفلسفي هنا ليس مع ثقافة العصر النيوليثي، بل مع ثقافة المجتمع الطبقي، كذلك يمكن أن تجد الفلسفة حاجتها من الرفاه وأوقات الفراغ المعتمد على الإنتاج الزائد الذي نتج عن المجتمع الطبقي ضمن نظام الرق، وسيتطور قطبها المضاد وقوتها المتناقضة بالصراع مع قيم وقوانين نظام الرق.

د ـ يمكن تعريف الفكر الفلسفي بأنه عبارة عن الجهود التي تبذل لتوضح حقائق الطبيعة والمجتمع دون الاعتماد على اعتقادات الدين والميثولوجيا، إن وصول ذهن الإنسان إلى هذا المستوى، هو نتاج للتطور الاجتماعي. وتعد جرأة الذهن الفردي على اقتحام الفكر الفلسفي أكبر خطوة حرة، لأن الإنسان ولأول مرة يقوم بتفسير وجوده بالاعتماد على نفسه، هذا الموقف نفسه هو مقدمة لتشتت الاعتقادات المستقرة. وكما قام الدين التوحيدي بفتح الطريق أمام التغييرات الجذرية في البنية الذهنية عن طريق تجاوز الأصنام الطوطمية ومؤسسة الآلهة، إلا أن الفكر الفلسفي قام بأكبر ثورة في تاريخ الفكر عن طريق برهنته على أنه يستطيع أن يعيش دون إله أو دون أن يسمح للإله بالتدخل في شؤونه. إن الذهنية الاجتماعية المعتمدة على الاعتقاد الديني أو الميثولوجي هي الاعتقاد الذي يشعر بأنه لا يستطيع العيش إلا بالاعتماد على عبوديته أو بالاعتماد المطلق على أحدهما. إن الابتعاد أو الإبعاد عن أسلوب العبادة والإيمان والاعتقاد في هذه البنية الذهنية، يعادل الموت أو الزوال، وهذا أكبر عقاب. ويكمن في أساس هذا الاعتقاد قوة الإيديولوجية وضعفها، حيث تربط الفرد بالمجتمع باعتباره تابعاً له دون محاكمة أو سؤال. وهكذا بمكنة المجتمع في هذه البنية الإيديولوجية أن يشعر بأنه قوي بواسطة القوة التي يؤمن بها والقيم والرموز المعطوفة عليها. وبما أنه لا توجد بنية ذهنية مستقلة تنتج البديل أثناء الأزمات فإن هذا المجتمع محكوم عليه بالزوال أو بالتحول إلى مجتمع متخلف أو سيتم استعباده من قبل قوة حاكمة أو أكثر تقدماً منه أو يتعرض على يدها للانصهار.

لقد عرضت البنية الذهنية الدوغمائية القوية السائدة في مجتمعات الشرق الأوسط أمامنا كل هذه النتائج، فمثلاً بالرغم من البنية غير العادية للمجتمع السومري، إلا أنها لم تستطع أن تنجو من الهزيمة خلال مرحلة الأزمة أمام قبائل الجبال والصحراء البسيطة. كما وتعرضت مصر للمصير عينه، وأيضاً بالرغم من أن الحضارة الإغريقية والرومانية تمتلكان الأساس الفلسفي الواضح، فقد سقطتا وتفككتا نتيجة حالة الأسرى التي مهدت السبيل لها ذهنية مجتمع الرق عموماً. لا شك أن علاقات ملكية الرق على أساس نمط الإنتاج،

تلعب دوراً بارزاً في ذلك، لكن البنية الإيديولوجية المهيمنة على بنية المجتمع، أعاقت بمقاومتها أمام انطلاقة تشكل أساساً لتدوين مرحلة جديدة. عدم الانطلاقة في البنية الإيديولوجية يعني اللاحل والتشتت، لهذا السبب تلعب البنية الدوغمائية المسيطرة على الفكر بالنسبة للمجتمعات دوراً كعائق إيديولوجي اكثر تعقيداً وجموداً. طول الفترة التي عاشها نظام الرق في العصور الأولى مرتبط بشكل وثيق بالسيطرة الفكرية "الدوغمائية" المؤسسة على البنية الإيديولوجية للمجتمع، كذلك لهذا السبب تكتسب الأنطلاقات النبوية قيمة كبيرة، وان سبب تعادل إحداها حملة ثورية هي الثغرات التي فتحتها في البنية الدوغمائية التي ظهرت ضدها.

وبسبب ارتباط ثورة النبي إبراهيم بتحطيمه الأصنام، وتحامل النبي محمد على أصنام الكعبة كهدف أول، وغضب النبي موسى الكبير على "عبدة العجل الذهبي"، فإنهم يكتسبون أهمية مميزة في المراحل التي عاشوا فيها. وان استهداف الدوغمائية وتشتتيها يعد ثورة من أجل تلك المراحل.

في الوقت الذي كانت الأزمة واللاتحليلية "الجمود" المعاشة في مركز ولادة حضارة الرق تمهد الطريق أمام الدويلات الموجودة على الأطراف والتي أصبحت أكثر مرونة وترسخ فيها الوعي الأثني، من جهة أخرى فقد كانت الجهود تبذل لإيجاد مخرج ضمن المخطط الإيديولوجي من خلال الأديان التوحيدية مع مساعي البحث السرية. إن الفلسفة وخاصة في المجموعات السرية تصبح مناسبة أكثر للتطور، حيث تزداد إمكانية التفكير الحر عند هذه المجموعات أو يزداد ما يمكن أن نسميه بالتجارب السرية لهذه المجموعات المناهضة للإيديولوجية الرسمية لنظام الرق. فبالإضافة لكونهم أصحاب اعتقادات واضحة فهم في مرحلة بحث واستقراء عن نظام قيم يرتبطون به من جديد ويجعلهم يتجاوزون خوفهم ويدخلون الطمأنينة إلى أذهانهم وأرواحهم. إنها عبارة عن طرائق نوعية في العهد البدائي.

أما العامل الهام الآخر الذي مهد السبيل أمام الفكر الفلسفي هو التطورات التي وصلت إليها وسائل الإنتاج، حيث علت الحضارات الأولى لنظام الرق أساساً على أكتاف العصر البرونزي. لقد قدمت الملكية المقامة على البرونز إلى طبقة مالكي الرقيق قوة عظيمة بسبب الأدوات الزراعية والصناعية والعسكرية التي تم تصنيعها من هذا المعدن، وإن شح هذه الأدوات التي قلما توجد خارج المركز أدى إلى ضعف البنى الأثنية؛ تمكنوا من الدفاع عن أنفسهم بواسطة ما يحصلون عليه من هذه الأدوات. ولكن تقنية الحديد التي انتشرت اعتباراً من عام 1000ق.م، مهدت السبيل لخلق تأثير ديمقراطي كبير، وازداد نفوذها حيث انتشرت بشكل واسع ووصلت إلى شريحة واسعة من الفقراء.

فوصل الإنتاج والدفاع إلى أبعاد متقدمة جداً باستخدام تقنية الحديد، وهذا كان يعني الوفرة من جهة والأمن من جهة أخرى. وقد أديا بدورهما الى الرفاه وزيادة أوقات الفراغ وتتخذ الفلسفة من أرضية اجتماعية كهذه شرطاً أولياً. إن ظهور الكلاسيكيات الكبيرة للفكر الفلسفي في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد لم يكن من تلقاء ذاتها، بل هي مرتبطة بتجزئة البنية الإيديولوجية لمجتمع الرق في العصر الأول، وبتحطيم احتكار أدوات الإنتاج الأساسية "الأدوات الحديدية والبرونزية". إن مصطلح "العصر الكلاسيكي" لنظام الرق يمكن أن نطلقه على المرحلة الأخيرة من العصر الأول، بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الخامس بعد الميلاد، كذلك يمكن في الوقت ذاته أن نطلق مصطلح عصر الفلسفة على المرحلة التي ظهر فيها كبار الفلاسفة الذين طوروا خلالها تعاليمهم ووضعوا أسسها.

وإذا ما تعرفنا عن قرب إلى هؤلاء الفلاسفة الذين خلفوا أثاراً وتركوا مدارس باسمهم في تلك المرحلة، حينها سنفهم ماذا تعني المرحلة الروحية والذهنية الجديدة للإنسانية.

أولاً - زرادشت والزرادشتية

مهما تم تقييم زرادشت على أنه نبي، فإن مواقفه تدل على أنه أقرب لأن يكون فيلسوفاً، ويعتقد بأنه عاش بين القرن العاشر والسادس قبل الميلاد. والمقبول أنه عاش في شمال غرب إيران الذي كان يشهد ثورة زراعية قوية، وكان مرتبطاً بالاقتصاد الزراعي لدرجة العشق. بمعنى أنه استطاع أن يؤسس علاقة بين شخصيته ووجوده وبين المؤثرات التي ولّدتها الثقافة النيوليثية. وقد اتخذ الجهد والإنتاج والكسب الحلال أساساً لفلسفته، ويضفي القدسية على الخضرة ويجعل من حماية الحيوانات مبدءاً له، ويمنع تقديمها على كقرابين واكتفى بالاستفادة من قوّتها في الزراعة والاستفادة من حليبها ودهونها.

وقد أنجز زرادشت إصلاحاً أساسياً في نظام العقيدة الآري. فهو نبي بقدر ما بدأ بمرحلة التحول من نظام الآلهة الثلاثة إلى نظام الإله الواحد، لأنه في ذلك مثل النبي إبراهيم وهو في مسعى بحثه للانتقال من الدين المتعدد الآلهة إلى دين الإله الواحد. ففي الوقت الذي طور فيه النبي إبراهيم دينه ضمن القبائل

السامية، قام زرادشت بنفس العمل ضمن القبائل الآرية. فقد حوّل الآلهة الأساسية الآرية في تلك المرحلة إندرا وميترا وفارونا إلى الإله أهورا مازدا (الله)؛ بمعنى أنه بدأ مرحلة باتجاه الدين التوحيدي في إيران وميديا والأناضول. وله دور هام في تشكيل العديد من المصطلحات مثل الجنة وجهنم والصراط والملائكة وطبقات السماوات ويوم الحشر والمحكمة العليا وميزان الحسنات والسيئات. ويقدر المرأة عالياً، كما اهتم بالنظافة والطهارة أو أنه بعبارة أخرى نبي الزراعة والكسب الحلال والأسرة العفيفة والبيت المرتب، وهو يعارض العنف باستثناء الدفاع عن النفس.

أما أساس زرادشت كفيلسوف فإنه يعتمد على الأخلاق العليا وعلى الصراع الدائم بين الظلمة والنور وبين الصالح والطالح، أي أنه يعتمد على مبدأ وحدة وصراع الأضداد الديالكتيكي. وهو أول من اعترف بحرية الإرادة الإنسانية. وهذا يعني أن الإنسان أصبح حسب هذا المعتقد صاحب طاقة خلاقة كانت حتى ذلك الوقت إحدى الصفات الخاصة للإله. إن عملية الإبداع الفردي التي تعد جوهر الفكر الغربي هي إحدى الجوانب الفلسفية الهامة لزرادشت. وإن اعتماد الإرادة الحرة أساساً تعني بداية الفلسفة ورفض مفهوم العبد. وتعد تعاليمه في هذا الإطار نقطة العبور بين الفلسفة والدين، تمثل الطريق الفاصل بين الفلسفة والدين. وتعد هذه الميزة تطوراً كبيراً. وتبين الدراسات أن الزرادشتية لعبت دوراً هاماً في تطور ذو فرعين ، تطور الفلسفة الشرقية "الهند، الصين" من جهة والفلسفة الغربية من جهة أخرى. ويمكن أن نستنتج أن هذا الدور المتعدد يحتوي في أعماقه على تركيب رفيع المستوى مؤلف من الثقافة السومرية والثقافة الآرية. وتعد ميديا أي البلد الذي تتلاقى فيه الوديان الخصبة لنظامي جبل طوروس وزاغروس، نقطة التلاقي بين ثورة المدينة السومرية وثورة الزراعة - القرية في العصر النيوليثي. وبقدر ما يعد زرادشت أحد مؤسسي هذا الميراث فإنه بإجرائه تحولاً واصلاحاً عليه في المستوى الرفيع، وكذلك بتليينه نظام الرق الذي كان سائداً في العصر الأول والبدء بمرحلة العصر الكلاسيكي الأقرب إلى المنطق، وكذلك بتحريره إرادة المجتمع الزراعي والتي لم تستعبد بعد، يمثل دور تمهيد طريق واضح أمام الفلسفة.

إن أفضل المواقف واقعية هي البحث عن تداخل الفلسفة المعتمدة على الإرادة الحرة مع نبوية الدين التوحيدي في كيان أعمق الثقافتين للتاريخ المتكامل في جغرافية مناسبة كهذه. وليست مصادفة أن يكون الفيلسوف الألماني الشهير "نيتشه" قد ركز البحث حول شخصية زرادشت، إذ أن التوجه نحو زرادشت أثناء البحث عن مصدر القيم المعنوية والإرادة المفقودة للشرق الأوسط

وميزوبوتاميا اكثر من يكون شغفاً بالعلم، هو من أجل الوصول إلى منبع مجتمع حر وإلى مفهوم الأخلاق الحية التي تشكل الجانب الأهم لهذه الفلسفة، وكل ذلك يعني اكتشاف ذات الفيلسوف في التاريخ من جديد ووضعها في جدول الأعمال وإحياءها.

ثانياً ـ البوذية

لعب بوذا دور المصلح الأكبر في دولة الكهنة الهندية "البراهما"، فقد كان أحد أمراء هذا النظام، ومن المحتمل أنه عاش أسلوب حياة مليئة بالآلام نتيجة هزيمة كبيرة ألمت به أو خسائر مني بها، وكأنه يسقط من الجنة إلى جهنم، مما دفعه إلى تركيز داخلي كبير. لقد بينت له هذه التجربة الجوانب الظالمة لعبودية البراهما والنتائج المذهلة والسلبية للفرز الطبقي القاسي. فلقد كان نظام "الكاست" الهندي ظالماً وقاسياً لدرجة أنه واصل التضحية بالإنسان "كقربان" حتى نهاية القرن الماضي ولا زال يحافظ على تمايز الثقافة بين الكاستيين، وتستمر العديد من خصائصه، وهو شكل خاص جداً وقاس للمجتمع الطبقي استمر مئات السنين.

لفهم بوذا، يجب تقييم انعكاس هذا المثال للمجتمع الطبقي على البنية الذهنية والروحية للإنسان. فمن جهة هناك الاحتشام والسفاهة التي لا مثيل لها ومن جهة أخرى هناك البشر من الطبقات الدنيا الذين يجري تربيتهم وبيعهم وشراءهم وتقديمهم قرابين كالحيوانات. فمن الواضح أن مثل هذا النظام يشكل مصدراً للمآسي والآلام الكبيرة حيث كان بوذا ثمرة لهذا النظام. ومثلما لا يوجد للرب مكان في فلسفته، فانه لا يتخذ من الطبيعة أساساً، ولا يهتم كثيراً بالخالق والمخلوق، فالقضية الأساسية التي يبحث عن حل لها، هي الواقع المؤلم للعالم وخصائص الحياة المؤلمة للمجتمع. تعد هذه التعاليم التي استمرت حتى يومنا هذا تحت اسم البوذية باعتبارها فلسفة الحياة لمجتمعات هامة في جنوب شرقي آسيا، فلسفة أخلاقية من زاوية خصائصها الاجتماعية الأساسية، واصلاح أخلاقي. لقد وضعت الصيغة الأساسية لهذه الفلسفة كما يلي:

أ ـ العالم والمجتمع مليئان بالآلام.

ب ـ أساس مصدر هذه الآلام هي الرغبات الجامحة والمخاوف والجهل.

ج ـ يمكن التخلص من هذه الآلام بالوصول إلى مرتبة نيرفانا "لحظة السعادة، الجنة، نوع من الإله".

د ـ السبيل إلى ذلك هو اليوغا "التنور بالعلم، التركيز الذاتي واتباع الأساليب والسبل المؤدية إلى ذلك".

ومن الجلي انهم يريدون تليين الهيمنة الصلبة جداً لنظام "الكاست" البراهمي العبودي، كما رأينا في النماذج الأولى الأخرى مثل مصر وسومر، على البنية الذهنية والروحية للإنسان. وهذا مرتبط بكون بوذا كان في حالة صراع مع البراهمة. وكان بوذا يمثل أحد حلقات مرحلة الإصلاح الاجتماعي التي شهدها القرنين السادس والخامس الميلاد، إبتداءً من الإغريق وحتى الصين. ومثلما تأثر بتقاليد زرادشت، فانه أثر كلا الجانبين الشرق والغرب. وهناك روابط وثيقة بين البوذية والتصوف. ووضع أنظمة مثل الزهد والانزواء والانقطاع عن الغرائز، وذلك لإدراك أنانية الطبقة الحاكمة المستغلة والحد منها، مثلما قامت هذه التجارب الحياتية بتربية النفس، كذلك مهدت بأنظمة الإلهام مثل نظرة العارفين والعودة إلى الوجدان الذي أعماه الثراء والنظرة الواقعية لتوازن الطبيعة، السبيل امام التعليم وخلقت راحة الضمير.

وكما حطمت تعاليم بوذا الهيمنة الإلهية للبراهمة في حضارة الرق في جنوب شرق آسيا، كذلك لعبت دوراً في تشكيل نظام أكثر منطقيةً، وفي الوقت الذي وضعت فيها حداً للدوغمائيات، فإنها زادت من نسبة الضمير والعقل، وفي الحقيقة فإنه لعب دوراً إصلاحياً عظيماً على الصعيد الأخلاقي في التاريخ البشري.

ثالثاً ـ كونفوشيوس

لعب كونفوشيوس في الصين نفس الدور الذي لعبه بوذا، ويعتقد بأنه عاش في نفس المرحلة بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، ولقد شهد الصين خلال هذين القرنين بعد انهيار ملكيته المطلقة حالة كبيرة من الفوضى. ولقد أدت ذكريات تلك المرحلة الفخمة، بين 1500 ـ 700 ق.م، إلى التفكير في أسباب هذا السقوط وهذا التشتت، وبدأ التحقق حول كيفية تشييد الطريقة الطبيعية "تاو"، وهنا يجب أن نوضح بأن الكلمات "تاو" في الصين و"دهارما" في الهند و "مي" في سومر و"ماءات" في مصر و"مويرا" عند الإغريق والتي كانت اكثر المصطلحات استخداماً "وتعني القانون، الطريق، الشريعة"، تعني بالأساس الخصائص الأساسية للحضارة، وحتماً يجب أن تكون الحياة ملائمة لهذه الخصائص الأساسية، فإن لم يحدث ذلك عندها يجب إزالته، وذلك كان الوضع السائد في تلك القرون، لقد شهدت تلك المرحلة وضعاً كهذا وأصبح لا بد من

إصلاح النظام السائد غير المنسجم مع القوانين الأساسية، وبعبارة أخرى الذي تجاوز النماذج "**Paradigme**" البدائية ولم يستطع أن يؤسس نماذج أخرى بديلة عنه، ولم يعد من الممكن تسيير النظام بواسطة اعتقادات دولة الكهنة، والأجوبة التي تقدمها كانت على شكل التشتت إلى دويلات صغيرة "تشبه الإقطاعيات التي تضم العبيد" وظهور مجموعات سرية وتعليمات فلسفية كبيرة.

وبات كونفوشيوس هو الاسم الواضح الذي كان من نصيب الصين، وللكونفوشيوس خمسة مبادئ أساسية هي:

أ ـ الإداري يجب عليه القيام بكامل متطلبات مسؤولياته.

ب ـ المرأة: عليها أن تحيا حسب المتطلبات الزوجية بشكل كامل

ج ـ الابن: يجب عليه تلبية كافة متطلبات الرابطة الأبوية.

د ـ الأخ الأصغر: يجب أن يؤدي كافة واجباته نحو أخيه الأكبر.

هـ ـ يجب على كل شخص أن يؤدي واجباته نحو أصدقائه.

وكانت هذه التعاليم أشبه ما تكون بتجديد أكثر من كونها إصلاحية، فليس هناك دين في الكونفوشوسية، بل هناك قضية المجتمع والنظام السياسي فقط، وكيفية إعادة بناء النظام الاجتماعي والسياسي الذي أصابه العطب؟. والجانب الذي تم التركيز عليه هو الانشغال بالأفراد أكثر من الانشغال بتأسيس العلاقات من جديد بين المؤسسات المختلفة، يعني أن المسألة الأخلاقية هي المسألة الأساسية في الكونفوشيوسية. وكان العمل يجري على ترسيخ النضال عن طريق التشييد بالنضال الأخلاقي، وقد قدمت توضيحات مفصلة تناولت أدق النقاط المتعلقة بما يجب أن تكون عليه قواعد الحياة بين الأفراد، وما زالت هذه الذهنية تمارس تأثيرها على المجتمع الصيني، وتقف خلف الطابع والاجتهاد الصيني، وان تعاليمها ذات طبيعة صوفية ولا يمكن إنكار دورها في الطرائق الصوفية ودوره في سير التطور العام للحضارة.

رابعاً- سقراط وعصر الفلسفة الاجتماعية

امتدت حضارة الرق الأولى التي كانت مركزها ميزوبوتاميا ومصر من الحدود الشرقية لآسيا وحتى الحدود الغربية، وبدأت مرحلة نهوض نظام الرق عند الإغريق والرومان اعتماداً على هذا الميراث الغني، وان الحديد كتقنية الآن الأساسي يساهم في انتشار الرفاه ويمهد السبيل لاتساع الطبقة الوسطى ويرتفع مستوى الاتصالات والقراءة والكتابة، وامتلك الناس الشروط التي

تشعرهم بالأمان، وكانت تقوم هناك رحلات بكل سهولة من مدينة **SARD** في الأناضول الغربية إلى عاصمة الامبراطورية الفارسية **Perepolis**. وكان باستطاعتهم أن يتلقوا من كهنة مصر وبابل التراكمات الإيديولوجية والثقافية للعصر الأول، وكان الشرق قبلة لتلقي الثقافة والعلم مثلما الغرب في أيامنا هذه، فقد كانت بابل ومصر مركزاً للعلم والثقافة الرفيعة، والذين نقلوا الإيديولوجية إلى الإغريق والرومان، هم مرشحو الكهنة والمتصوفون الذين تلقوا تعاليمهم في هذين المركزين الإغريق والرومان. فقد كان نمط الإنتاج الشرقي وإنتاجاته الإيديولوجية تشهد تطوراً مكثفاً في القرن العاشر قبل الميلاد، ويقدم تجاربه العملية ويعلم نظام الكتابة "الأبجدية"، باختصار لعبت شبه الجزيرتين الأوروبيتين القريبتين من آسيا، الإغريق وإيطاليا دور الجسر في نقل هذه القيم، فقد كانتا ساحتين مفتوحتين جديدتين على الحضارة.

ولم يكن باستطاعة الميثولوجية السومرية والمصرية وممارستهما الدينية التي وصلت إلى مستوى الإيديولوجية أن تقفا بعيدتين عن عملية النقل هذه، فقد واصلتا لعب دورهما الريادي، ويتطور اللاهوت الإغريقي كمشتق محرّف من الميثولوجيا السومرية، ونظراً لأنه كان تحت التأثير المستمر للنسخة المصرية والفينيقية والكريتية، لم يستطع التخلص من التقليد بشكل تام، ولكنه كان يمررها بمرحلة تصيّر مكثفة لأجل احتوائها، فقد كان الإله الإغريقي "زيوس" أشبه بنسخة عن الرب البابلي "مردوخ" وكان " كرونوس" تقليداً لـ" أنكي". طبعاً عندما يكون التنقيل من النقطة الأساسية، فإن ما هو بعده سيتواصل دون انقطاع، وكل شيء سيأتي متشابهاً، وتم تغيير كافة المصطلحات والأسماء الدينية والميثولوجية للمجتمع النيوليثي ومجتمع الطبقي العبودي، ومنحت مصطلحات وأسماء محلية، لم يكن يذكر في الميثولوجيا الإغريقية حتى اسم واحد حتى عام 1500 ق.م، إلا انه تم خلق أغنى ميثولوجيا مع هذه التغيرات، وأن التحكم بالقيم المعنوية والتي هي أهم من القيم المادية، لهو أمر مهم ويتم النجاح فيه.

إن الميثولوجيا الإغريقية التي يتم العمل لإقرارها بأنها أفخم ميثولوجيا مبدعة في العالم، يفهم يوماً بعد يوم بأنها ما هي إلا ثاني أو ثالث نسخة للميثولوجيا السومرية، هذه هي النتيجة التي توصلت إليها الأبحاث التي جرت في السنوات الأخيرة لإثبات ذلك. فإذا كان التاريخ عبارة عن نهر يجري، فقد تم في تلك السنين مد أحد فروعه إلى هنا، وكما تمت تغذية هذه التربة بذاك النهر الحيوي، فقد تم ربط الأنهار الصغيرة والبحيرات الموجودة هناك بالمجرى الرئيسي، ومثل الميثولوجيا الإغريقية، فإن التطور الفلسفي الذي خرج منها استفاد من التراكمات العلمية التي حملها نهر هذه الحضارة الى هنا وسيبدأ بعصره.

وعندما بدأ الفلاسفة الإغريق بعصر الفلسفة، فإنهم اعتمدوا على مصدر التراكم الكبير للمجتمع الطبقي ومصدر ثقافة العصر النيوليثي الذي كان يترسخ منذ عشرة آلاف سنة قبل الميلاد وينتشر موجة موجة. أما نظام الفكر الغربي فإنه يستصغر هذه الحقيقة إلى أبعد حدود، إذ يعتمد الوجه الإمبريالي للحضارة الغربية على مبدأ "التمركز حول الذات" الذي يتبعه في كل شيء من أجل خلق أساس شرعي له لا يمكن هزه، وعندما تظهر عظمة القيم الحضارية وثقافات الشعوب الأخرى، سيضطرون لقبول بأنهم قدموا إسهاما رياديا للنهر الحضاري الكبير خلال القرون الخمسة الماضية. ولقد كان الإغريق يظهرون هذا المفهوم الشوفيني منذ بداية العصر الكلاسيكي، لقد كانت كافة الشعوب التي تعيش خارج نطاق حضارة شبه الجزيرة هي عبارة عن شعوب بربرية ومتوحشة، علماً بأنهم كانوا كما بين التاريخ عبارة عن "الطفل الذي يطمح الى كل شيء"، حيث كانوا عبارة عن شبه رعاة بدائيين، ولم يكونوا قد شيدوا حتى كوخاً من الحجارة عندما أخذوا فن العمارة وثقافة المعابد من مصر وصناعة السفن من الفينيقين، ووسائل الإنتاج والزراعة من الهلال الذهبي، وصناعة الحديد من "**Frigya**" والميثولوجيا واللاهوت من السومريين، وكانت أوروبا وقتئذ في مرحلة المجتمع المتوحش. ويعد تحريف التاريخ سبباً أساسياً لكل الآراء وللمواقف الخاطئة ويؤدي إلى ظلم كبير، ان المفهوم الصحيح للتاريخ يعتبر أساس لا يمكن التخلي عنه من أجل تطوير نظام عالمي عادل، من شأنه تطوير مفهوم صحيح للتاريخ، وإذا كنا سنشعر بالثقة والقانون والعدالة الأوروبية، فيجب وقبل كل شيء أن يتم اسناد ذلك إلى مفهوم تاريخي يعطى حقه بشكل صحيح.

وبالرغم من هذه الحقيقة الحضارية، فمن المؤكد أن الإغريق طوروا حضارة عريقة ومبدعة، وعندما دخلت شبه الجزيرة الإغريقية وجيرانها الأقرب مثل غربي الأناضول وجنوب إيطاليا ومقدونيا في الشمال، في اكبر تجربة حضارية للتاريخ بعد ميزوبوتاميا، فإنهم لم يكتفوا بالمواقف الميثولوجية والإيديولوجية واللاهوتية التي كانت قد استلهمت من الأشكال السابقة، ان الإيديولوجية السومرية التي لعبت كظاهرة دوراً هاماً اكثر من الإقليم والجغرافيا في ذلك، اكتسبت بتجاوزها التقاليد الزرادشتية في ميديا وتقاليد بوذا في الهند أشكالاً أقرب إلى الفلسفة، إن فلاسفة شبه الجزيرة الأوائل تالس وفيثاغورث والذين امضوا سنين طويلة في مصر وميزوبوتاميا، وصلوا في القرن السادس قبل الميلاد الى مستوى ناضج واستطاعوا نقل تجديدات كثيرة ونشرها. كما يحدث في أيامنا هذه حين يعمل شباب الدول النامية على نشر أفكار الحضارة الأوروبية في بلدانهم، كان المرشحون الفلاسفة الأوائل يمضون معظم سنوات شبابهم وخاصة في بابل التي كانت تعد مركز الثقافة في تلك المرحلة، ويعودون

إلى بلادهم بعد تجارب عملية طويلة، ويتعلمون أسس العلوم المتطورة في تلك الفترة وفي مقدمتها الرياضيات والطب، وبعد أن يتعلموا الأسس الميثولوجية والتيولوجية "اللاهوتية" على أكمل وجه؛ كانوا يضعون أسس الفكر الإغريقي في العصر الكلاسيكي التاريخي.

هذه هي خصائص انتشار ديالكتيك الفكر في تلك المرحلة، دع جانباً بدء هذا الفكر من الصفر، فإنهم كانوا يوصلون هذه الأفكار في مرحلة ناضجة جداً وينقلونها بعدما يجرون عليها الإصلاحات؛ وبعبارة أحدث، كان يتم الاقتباس حسب الشروط المجسدة للبلد ويجري العمل من أجل جعلها أكثر ملاءمة ويطبقونها.

وإذا ما تناولنا المراحل الفكرية التي لعبت دوراً تنويرياً عند الإغريق وبشكل متسلسل سنجد ما يلي:

أ - إن المرحلة الأولى التي تقبل على انها بدأت مع "هوميروس وهيسيودوس"، كانت مرحلة شرح للاهوت والميثولوجية الإغريقية، ويعد هوميروس شاعر العصر الكلاسيكي الكبير بمعنى أنه كان يمثل مرحلة الشعر في القرن العاشر قبل الميلاد، حيث كان يعكس شعراً فخماً. إن هذه المرحلة التاريخية الأخيرة هي الأعوام التي طبعتها هذه الأعمال "**Veda** " في الهند، و"**Avesta** " في إيران، وأسطورة الخلق البابلي انوما اليش "**Ehumaelish** " في ميزوبوتاميا، و"يهوا والوهيم" في كنعان، وبقولٍ آخر " التوراة " بطابعها كتابياً وشفوياً، واللغة في جميعها هي لغة الشعر، حيث يشكل كل ذلك أساطير وملاحم تأسيس السلالات والكونفدراسيونات العشائرية والقبلية، ويمكن أن نطلق عليها أيضاً تسمية أساطير وملاحم البطولة التي تعكس رغبات وإرادة الطبقات والأشخاص الذين جعلوا من أنفسهم أنصاف الآلهة.

إن ما قدمه هوميروس من توضيحات هو سرد مقلد كان متبعاً في جغرافية الشرق الاوسط قبل ذلك بكثير، وتطبيق لامع للمرحلة البطولية الإغريقية؛ وهو سرد وقائع سقوط مدينة طروادة التي عاشت فيما بين 1800-1200 ق .م، ليتم فتح باب الأناضول أمام الغزوات البربرية المعاكسة للأكاديين والدوريين بلغة ملحمية، إن تاريخ مدينة طروادة التي تقع على ضفة الأناضول من مضيق "جناقلا" يحظى بأهمية تاريخية بالغة، إذ لعبت هذه المدينة منذ عام 4000 ق.م على الأقل دوراً هاماً باعتبارها البوابة الأساسية لنقل القيم الحضارية والثقافية لميزوبوتاميا والأناضول إلى شبه جزيرة الإغريق والبلقان، حيث تقوم بتغذية الإغريق والبلقان وتتحكم بهما، وبذلك تعيش طروادة عصرها الذهبي اللامع، ولهذا السبب فإن سقوط طروادة تسبب في قلب التاريخ الطويل المستمر رأساً على عقب "وإلياذة" هوميروس التي جاءت في المرتبة الثانية من

الأهمية بعد ملحمة كَلكَامش، تسرد عشر سنين من هذا التاريخ العظيم من خلال حرب وقعت بعد القرن الثاني عشر ق.م. ونظراً لأن الحرب ضد مقاومة الشعب والغزوات في تلك المرحلة أصبحت موضوعاً لكثير من الملاحم مما جعلت من الإلياذة قيمة كبيرة على المستوى العالمي، ويتم التحدث بمبالغة وتضخيم عن الدور غير العادي الذي يلعبه رؤساء القبائل في المرحلة البربرية أو بعبارة أخرى في اتحادات أنماط الفيدرالية التي كانت تسيّر بشكل صعب ومؤقت للوحدات الاثنية قبل أن تتحول إلى دولة، وهناك حاجة إلى ذلك، لانه لولا وجود هذه القوة الكثيفة لما سنحت لهم في مرحلة بعد ذلك الفرصة في إقامة مجتمعات طبقية أو التحول إلى دولة، وهذا السرد الملحمي القوي الذي لازال يحيا في أذهان كل الشعب يعكس اهمية وصعوبات الوصول الى قوة حضارية ويعبر عن التحول العصري التاريخي.

هذه هي القيمة التاريخية للإلياذة التي وصلت إلى يومنا بشكلها المدوّن. عندما يتحدث هوميروس عن حلم وحدة "هلين" للإغريق، كان يدرك تماماً القيمة الكبرى لما تم تحقيقه، فكما هو معلوم بعد سقوط مدينة طروادة اعتباراً من 1200 ق.م، بدأت مرحلة الانتشار المعاكس ابتداءً من الأناضول الغربية لما يسمى بـ "أقوام البحر"، وأثناء تحول الأناضول الغربية إلى "ايونيا"، انتشرت هذه الموجة إلى ميزوبوتاميا وشرق البحر المتوسط وجنوبه وجنوب إيطاليا إلى أن وصلت سواحل البحر الأسود، مقدونيا.

تعد الملحمة الثانية الكبيرة لهوميروس "الأوديسة"، سرداً لامعاً رائعاً للتوسع الذي حدث عن طريق البحر؛ وتحكي قصة الغزو والمغامرة البحرية، ونظراً لأنها تنقل إلينا توسعاً يجري عن طريق البحر لأول مرة في التاريخ كتابياً إلى يومنا هذا، فهي تحظى بأهمية بالغة من حيث نوعيتها الوثائقية، وعكسها اللغة الأدبية لميثولوجيا المرحلة، ولانها ذات تعبير يشبه جولة كَلكَامش في المياه الجوفية للبحث عن "عشب الخلود" وهذا ما يعطيها قيمة كبيرة على صعيد العلاقة بالتقاليد.

ان "تيولوجية" هيسيودوس أيضاً استلهمت من الميثولوجيا التي تم تكييفها حسب شروط المرحلة وكتبت في أعوام 800 ق.م. إن ما أخذ عبر الأناضول وخاصة على أساس نسخة الحثيين للميثولوجيا السومرية، تستخدم في تأليه مرحلة البطولة الإغريقية، لقد تم تحويل كافة العمليات البطولية لهذه المرحلة التاريخية وكذلك الجهود المبذولة التي توالت بعدها لخلق دولة قائمة على أساس السلالات الحاكمة باستلهامها الميثولوجيا السومرية والمصرية إلى حالة الدين أي قوالب الإيمان التي ترغم الجميع على طاعتها، وذلك عن طريق تحولها إلى أيديولوجية " فانيتون" وحدت آلهة صغيرة.

إن الجهود المبذولة لخلق دين يعتمد على مفهوم الرب الأكبر الذي سمي بـ "تشوب" عند الحثيين والهوريين و"بعل" عند الفينيقيين و"يهوا والوهيم" عند العبرانيين و"براهما" عند الهنود و"أهورا ـ مزدا"عند الإيرانيين، أدت مؤخراً عند الإغريقيين إلى تشكيل مجمع الإله " **Pantheon**" بقيادة "زيوس" ويطلق عليهم أسم آلهة "أوليمبيا". يقف وراء هذا التحول تأسيس البنية الفوقية الأيديولوجية للانتقال من وحدات العرق والبنية الاثنية للمجتمع الذي مر من مرحلة البطولة إلى وحدات سياسية للتحول إلى دولة. أي أن ضرورة الوحدة السياسية وخلقها بالعنف تستند الى المبرر الإيديولوجي. فخلق الإيديولوجية هو أمر ضروري لكل تنظيم سياسي جديد.

يمكننا رؤية هذه الفترة في كل مرحلة تاريخية ولدى كل مجتمع متطور. وتكمن في أساس كل ذلك الجهود المبذولة في سبيل تحقيق التحول إلى دولة والفرز الطبقي والتحول الاجتماعي، الذي تطور تقريباً فيما بين4000 ـ3000 ق.م في مرحلة البطولة السومرية. ونتيجة لهذه الجهود، فإن التقليد على شكل كسب الهوية للتصورات "آن" إله السماء و"إنليل" إله الهواء و "نينبورساغ وبعدها إنانا وعشتار" إلهة الجبل وثم "أنكي" الذي أصبح إلهاً للماء والأرض، والتي تعتمد أساساً على الابداعات الرائعة للكهنة السومريين. وهذه التجارب السومرية لعبت دوراً رئيساً في إكساب كافة "التيولوجيا" أشكالا وأصبحت أساسا لها حتى يومنا هذا. حيث تضيف كل منطقة إقليمية تقاليدها الثقافية الى هذه التجارب وتجري التحولات التي ترتأيها لتتناسب معها. وهيسيودوس قام بذلك بشكل يتناسب مع شبه الجزيرة الإغريقية. وان كافة الأبحاث الجارية حول هذا الموضوع استطاعت ان تبني في الفكر وبشكل علمي العلاقة بين "انكي" يساوي "كرونوس"، "إن" يساوي "أورانوس"، "مردوخ" يساوي " زيوس". تكتسب "تيولوجية" "لاهوت" هيسيودوس أهمية كبيرة، لأنها متناسقة وأصيلة ووصلت مكتوبة إلى يومنا هذا، وتحضير جزء مهم من تقاليد الثقافة البشرية على هذا الأساس لا يمكن استصغار شأنها، ولكن لا يمكن الوصول إلى نتائج صحيحة دون معرفة منبعها. إن وضع هذا التيار الثقافي التقليدي أمامنا والشروع بتحليله يحمل أهمية كبيرة خاصة أثناء دراسة تشكل الأديان التوحيدية.

ب ـ لقد كانت ملاحم البطولة والشروحات التيولوجية تظهر بشكل جيد عدم كفاءاتها اعتباراً من القرن السادس قبل الميلاد، وان القوالب الأيديولوجية في مرحلة الرق البدائية، لم تكن كافية من أجل استمرارية حضارة الرق التي كانت تشهد الأزمات ولم تجد لها مخرجاً، لقد وجدوا في تلك المرحلة أنهم بحاجة ماسة إلى انفجار إيديولوجي جديد وإلى مخرج روحي وذهني، ولقد ازدادت شيئاً فشيئاً الحاجة لتقديم تفسيرات جديدة عن الوقائع في الطبيعة والمجتمع من جهة، ولا يجاد حلول للفوضى الاجتماعية من جهة أخرى.

لقد تم تعميم الإصلاح الذي قام به كل من بوذا وزرادشت خاصة على المستوى الأخلاقي، وأصبح بحاجة لعكسه على العلاقات الاجتماعية وعلى كافة نواحي الطبيعة. وان وفرت المدن التي أنشأت حديثاً عند الإغريق وجنوب إيطاليا والأناضول الغربية، أجواءً مثاليةً لأجل ذلك التوجه، إن القمع الذي كانت تمارسه الدولة المركزية في سومر ومصر، والثقافة الدينية بعيدان هنا عن الترسيخ على أساس قوي. ومثلما تظهر العبودية الإغريقية الجديدة احتياجها إلى منظرين إيديولوجيين يخدمونها، فإنها لا تقحم في الضيق ولا تمارس أي ضغط أو قمع، ولهذا تعيش هذه المدن مرحلة عطاء، وإن الجهود الإيديولوجية المتسامية لا تشكل عقبة، بل تقدم الدعم، وتكمن هذه الحقيقة المادية وراء التنوير الإغريقي.

لقد توفرت في المنطقتين اللتان تطورت "إيونيا" في الأناضول الغربية و"إليا" في جنوب إيطاليا واللتين تطورت فيهما الفلسفة في البداية، نظراً لبعدهما عن الإغريق المركزي، أجواء أفضل للحرية، نرى إسهامات "تالس الميلتي" الذي يعتبر الفيلسوف الأول في تاريخ الفلسفة؛ إذ قام بتفسير الطبيعة اعتماداً على علاقاتها الذاتية الجوهرية دون أن يضم الله الى العمل، وبالرغم من أننا سنجد أنه لم يقدم أي شيء بمقاييس أيامنا هذه حين يقول: " خلق الكون من الماء"، ولكن عندما نأخذ قوله هذا في تلك الأيام دون أن يضع فكره تحت ظل الله وأن يقوله بكل حرية، فإننا سنرى أنه يمتاز بقيمة ثورية في تاريخ الفكر الإنساني. ولكن يجب أن لا ننسى أن وراء هذه الفكرة هي المقولة السومرية التي تقول: أن الله خلق الماء في البدء أو أن الإله خلق من الماء. و من المعلوم أن تالس تعلم في بابل ومصر. ويجعلون الفكرة القائلة ((إن كل مكان مليء بالآلهة)) ملكاً لـ تالس، وهنا نجد توجهاً نحو فلسفة الدين، حيث لم يتم الانفصال التام بين الطبيعة والله، مما يعني افتراض الاثنين معاً التي تأخذ الشكل الأول لمفهوم "وحدة الوجود".

ويقوم هيروقليطس بإلقاء الخطوة الثانية، حيث يقول: أن أساس الطبيعة عبارة عن حركة ذاتية، دون أن يتحدث عن الإله. ويقول بأن الطبيعة تتحرك بواسطة نظام قوانينها الداخلية الذاتية أو ما يمكن أن نقيمها كقانون "**LOGOS**"لها، وتتغير بشكل مستمر دون حاجتها لأي مؤشر إلهي خارجي؛ حيث يضع هذه الصيغة في المقولة التالية " لا يمكن أن تستحم في مياه نهر جاري مرتين". وبذلك ولأول مرة يضع وبكل وضوح أساساً لأسلوب التفكير الذي يأخذ المادة أساسا له، ويعد أسلوب التفكير هذا مصدراً رئيساً لنظرة المادية في تاريخ الفلسفة ولنظرة المادية التاريخية التي سيتم تطويرها فيما بعد.

في الجانب الأخر، في جنوب إيطاليا كان فيثاغورث يضع أسس

الفلسفة المثالية، وهو أيضاً كتالس يتلقى تعليمه في مدارس الكهنة في مصر وبابل لفترة طويلة من شبابه "25"، حيث تجول وشاهد ديار الحضارة، إن أهمية هذا الفيلسوف الذي عاش في القرنين السادس الخامس قبل الميلاد كونه طبق الرياضيات على علاقات الطبيعة، كما أضفى القدسية على الأرقام، ويؤمن بأنه يستطيع تفسير كل شيء بالاعتماد على خصائص الأرقام وأدعى بأنه يستطيع أن يسمع لغة الانسجام الموجودة في الكون بواسطة الموسيقى ودافع عن نظام **" ARMONIA"**. وأفترض بوجود الأسس الروحية في أساس كل شيء، وكان يرى أن حقيقة المادة والجسد تلعبان دور القفص فقط، لقد مارس فيثاغورث تعاليمه بطريقة صوفية، ويأخذ التعليم المكثف أساساً، وأعد النظام الفلسفي لمرحلة ما قبل أفلاطون في المجتمع الطبقي الذي كان يولد في الإغريق وجنوب إيطاليا. ومن الواضح أن ما قدمه عن أحياء المبادئ التي تشكل أساساً للأنظمة في مصر وسومر وقيامه بملاءمتها مع الشروط المحلية، أنه تأثر بشكل كبير بهذين المركزين. ولكن اعتماده على علاقة النسبة العددية مع كل صيغة وكل تشكل في الطبيعة، ونظرته إلى وجود هذه النسبة في كل شيء يعد إسهاماً كبير منه، ولهذه النسبة العددية التي أوجدها نصيب في تطويره كالطب وللفن المعماري والموسيقى. وهناك أهمية كبيرة للوصول إلى هذه النسبية، وإدخاله العدد والقياس والحدود إلى العلاقات يشكل تقدماً مهماً، وكل ذلك يلعب دوراً متقدماً لإدخال المنطق إلى البنية الروحية والذهنية للإنسان.

أما في مركز الإغريق، فقد كان يعيش فيلسوف مهم بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد وهو الفيلسوف بارمنيديس الذي يكتسب أهمية كبرى لافتراضه بأنه يكمن في أساس كل شيء المنطق والفهم وموهبة الدماغ. وادعى بأنه لا يمكن الوثوق بالأحاسيس ومدلولاتها، وأما التعلم عن طريق الأحاسيس قد تكون خاطئة بينما الاستعلام بالدماغ أو المخ هو الأساس وبهذه الطريقة يمكن الوصول إلى الحقيقة. بالأساس إن أهمية بارمنيدس تأتي من إيلائه الأهمية للعقل ومن اهتمامه الكبير بعقل الإنسان المتيقظ وتثمينه الكبير للمخ. فربما كان متطرفاً، وابتعاده عن المصادر الاستعلامية الملموسة، فتح باباً أمام الخطأ في الأسلوب والذي يستمر لألف سنة وبوصفه الأساسي للفكر المنطقي لدى الإنتاج واظهار أهميته، لعب دوراً كونياً.

لقد أدت الأوضاع الصعبة التي عاشتها دولة أثينا في مواجهة البارثيين والخسائر التي منيت بها والمنافسة مع إسبارطة والفروقات الطبقية التي بدأت بالازدياد، الى الدخول في مرحلة من الأزمات التي بدأت تتفاقم شيئاً فشيئاً اعتباراً من نهاية القرن الخامس قبل الميلاد. وبدأت القضايا الاجتماعية تفرض نفسها مع مرور الزمن، باختصار لقد نضجت الظروف لظهور السفسطائيين "الذين يدعون العلم، الأساتذة الذين يبيعون العلم". وهذا الوضع أدى إلى نوعين

من المؤثرات، فمن جهة بدأت الدوغمائيات الدينية تفقد مصداقيتها ويضعف الإيمان بالآلهة، ومن جهة أخرى بدأت المدارس الفلسفية المتناقضة تخلط الحابل بالنابل في ذهنية الإنتاج. وان السفسطائيون الذين استفادوا من هذا الوضع، فتحوا الطريق أمام وضع أقرب إلى الحرية الفردية تحت شعار " لكل شخص فكر خاص به"؛ ولكن بإخراجهم الفكر من قالبه الأساسي تسببوا في خلق السطحية في الفكر، وتدني في مستوى المعرفة والفكر الى درجة الانحطاط بين الأرجل مما أوصل الوضع إلى حالة من البلادة والاستغلال، ولم يبق أي مقياس لا في الفلسفة ولا في الدين. وأن يكون لكل شخص معاييره الخاصة، فإن هذا سيؤدي إلى سيطرة قانون الغاب وإلى الاستبداد في المجتمع وإلى سيطرة الدوغمائيات. وأدى ذلك إلى تآكل وتدني النوعية لكل القيم الاجتماعية وتزييفها وخرقها. وبات القول: قف لهذا التوجه أمر لا مفر منه.

جـ ـ سقراط : ظهر سقراط في هذه الأجواء التي أختلط فيها الحابل بالنابل، وعندما كان يبحث عن حل وتفسير للقضايا الاجتماعية المتثاقلة، أصبح كيف يجب ان يكون أسلوب ومضمون ذلك قضيته الأساسية، إذ لم يلعب السفسطائيين أي دور أكثر من إثارة الفوضى، فإنهم هزوا النظام ولكنهم ابتعدوا عن مسؤولية وضع البديل، وكان يتم فتح الطريق أمام جيل من الشبان عديمي المسؤولية ولا يشعرون بأنهم ملتزمون بأي إيمان أو قيمة، وهنا كانت تكمن عظمة الخطورة.

لعب سقراط في "470 ـ 399" ق.م، دوره التاريخي بوضع الأسس لتعاليم أخلاقية جذرية في مواجهة هذا الوضع، وإن السؤال الذي أراد سقراط أن يقدم الإجابة عليه هو: هناك الكمال في كل شيء وخاصة في كل عمل "مقاييس الكمال وقوانينه وتقاليده"، وإذا أردنا التوسع ، إن أول شيء يجب القيام به من أجل التحدث عن موضوع أو عن عمل ما، هو معرفة أسس هذا العمل أو هذا الموضوع. وهنا تظهر أمامنا كلمة السر الشهيرة المتمثلة بمبدأ " أعرف نفسك " ويجب على الذين ليس لديهم معلومات كافية عن الموضوع أو العمل، بل وأكثر من ذلك إن الذين لا يملكون معلومات على درجة من الكمال يجب ألا يتكلموا، وأن لا يتدخلوا بهذا العمل، لان الجهل هو مصدر الفوضى والخطأ وهو بالتالي مصدر كل الشرور، ويجب على الذي يريد فتح طريق الخير، وأن يكتسب المعرفة الخاصة به.

وتوجد لهذه المعرفة معايير عامة، إذ لا يمكن أن يكون لكل شخص معايير خاصة به، فلكل مهنة ولكل مؤسسة معايير وقوانين خاصة بها، وهذه المعايير والقوانين سارية المفعول أيضاً من أجل فروع هذه المهن والمؤسسات والتي ذات مستويات. وتوجد معايير كاملة معتمدة على المعرفة لكل المؤسسات

الاجتماعية من العسكرية وحتى السياسية والزراعية والحرفية والتدين، وعندما يتم التصرف بموجب هذه المقاييس، فإن هذه المؤسسة وهذه الحرفة ستقوم بدورها على أكمل وجه، لذا فإن الشيء الأكثر ضرورة من أجل ذلك، هو وجوب اعتماد كل جهد أصبح موضوع العمل والمهنة على المعرفة، وأما الشخص الذي لا يملك المعرفة، فإن كل عمل سيقوم به سينحرف ومؤدياً به في النهاية إلى طريق مسدود، وبذلك نجده قد نادى بوضع الأساس للمبدأ القائل" الممارسة السليمة، تعتمد على النظرية السليمة"، وإذا دققنا قليلاً، سندرك أن هذا الموقف هو الموقف ذاته الذي كان يبحث عنه كل من بوذا و كونفوشيوس وزرادشت.

لم يضع سقراط أفكاره حول مضمون أي موضوع ضمن سياق شامل أو في كتاب، فأكثر ما أنشغل به هو الأسلوب والإجابة عن سؤال " كيف نعيش..؟" وعندما لا يوجد منهج فإن كافة المعلومات التي ستتراكم، تصبح أشبه بكتب محملة على ظهر حمار، وربما تكون أخطر من ذلك، لان المعرفة التي سيستخدمها إنسان ما، باتباع منهجٍ خاطئٍ، ستكون أخطر بألف مرة مقارنة بالحمار الصامت، إذ أنها ستؤدي إلى وضع خطير، ويظهر سقراط أمامنا في هذه المسألة الأساسية، وهو محق في ذلك وذو موقف راديكالي جداً، فهمّه ليس الحصول على العلم بقدر كيفية الحصول عليه ولماذا، وإنه لا يؤمن بقيمة المعلومة التي لا سبب لظهورها وكيف وفي نفس الوقت عندما تتم الإجابة بشكل صحيح على سؤال: لماذا المعلومة، حينها ستظهر تلك المعلومة والعمل المرتبط بها بشكل صحيح، والتفكير الصحيح لدى سقراط يؤدي إلى الإنجاز الجيد، والعمل المنجز حينها سيكون عمل جميل، وقد شكل "المبدأ" التالي "فكر بشكل صحيح، أعمل بشكل جيد، وكن جميلاً " جوهر الأخلاق السقراطية، وقد تم صياغة هذا المبدأ عند زرادشت كما يلي: "التفكير الصحيح، الكلام الصحيح، العمل الصحيح"، في الحقيقة إن الجوانب المشتركة لهذين المبدأين متشابهين فيما بينهما، هو لإصلاح النظام الفاسد، وإن ما قام به المؤسسين الأوائل هو جعل هذه الضرورة هي المسيطرة.

طبعاً لم يرحب الذين لهم مصالح في الأزمات التي يشهدها المجتمع بهذا الموقف المبدئي والقاسي، فكما رأينا في كل المراحل إن الذين يعيشون على الربح غير المشروع الذي تخلفه الأزمات هم عبارة عن ملوك مستبدين وديكتاتوريين انسلخوا عن القانون وعن العدالة، وسلاحهم الأكبر في ذلك هو الديماغوجية "فن التضليل بواسطة الكلمات" والاستبداد، وان أساس محاكمة سقراط هو قيامه بإصلاح جذري لأخلاق الشباب والعمل على القيام بانقلاب في أفكارهم أعتماداً على المبادئ الصحيحة، وتتم محاكمته بالتهمة التالية: " إنكار مبادئ وحدة أثينا العظيمة وإنكار وجود الآلهة التي تحمي هذه المبادئ"، وأمام

ذلك اتخذ سقراط موقفاً وأعطى جواباً لا مثيل له، ولا يمكن للذاكرة البشرية أن تنساها، إن قبل إطاعة القوانين كنوع من الفضيلة، وعاش حسب مبدأ الفضيلة، وعندما عرض عليه تلامذته فكرة الهروب من السجن، اعتبر ذلك منافياً لمبدأ الفضيلة ويرفضه، ويتجرع كأس السم بكل شرف وتتصدر شهادته المرتبة الأولى في قائمة الخالدين.

د ـ أفلاطون وأرسطو:

يصل عصر الفلسفة الكلاسيكية مع أفلاطون وأرسطو تلميذا سقراط في فلسفة المجتمع إلى ذروته. كتب أفلاطون كتابه"الدولة" من أجل خلق النموذج الذي ينقذ دولة أثينا اعتمادا على مصطلحات "الصحيح، الجيد، الجمال" التزاما منه بذكرى معلمه سقراط، والمثالية هي الأساس في عالم أفلاطون، وأما العالم المادي فهو عبارة عن ذكرى ضعيفة لعالم المثاليات، فالجوهر يأتي أولاً أي توجد المثالية، ثم يجري التركيز لتكوين أنواع الماديات، ولا يمكن التفكير بوجود المادة بمفردها. هذا هو الشكل الأكثر تطوراً من مفهوم العقل لدى بايرميندیس. ويعد أفلاطون من أعظم فلاسفة المثالية، وله مكانة قريبة من النبوة، وانه من هذا الجانب يشبه زرادشت إلى حد ما، ومن الممكن التفكير بأن سقراط وأفلاطون مع بعضهما يشكلان جواباً يشبه تعاليم زرادشت، وأهم خصائص فلسفة أفلاطون هي إدارة الحكماء، والمظهر المتخصص، والفيزيائية النشيطة، ولو تمت تربية النخبة على هذا النمط فإنه سيمكن إدارة الدولة بشكل سليم، ويعتمد أفلاطون أسلوب الحوار كمعلمه سقراط، ولأنه أعطى أول دروسه التاريخية في مكان قريب من أثينا يدعى” **Akademia** أكاديميا"، يتم تذكر أفلاطون كلما ذكرت هذه الكلمة، وبالارتباط مع أسلوبه أصبح **Akademia** تقليداً ومؤسسةً. وهو فيلسوف المجتمع الطبقي، ولا يفكر بالمساواة بين كل البشر، ويفكر في الحضارة العبودية على أنها طبيعية ونظام مستمر، ودولة أثينا تشكل مثالاً قوياً لهذا النظام، وهذا التصور يمر في الحوار الذي يسمى"الدولة".

إن رؤية الإغريق بأن كل إنسان ليس بإغريقي هو أدنى منهم مرتبة، مرتبطة بهذا الطراز الفكري، وظهر بعده العديد من المفكرين المثاليين أرادوا تطوير الأفلاطونية بعدة أشكال وحاولوا تفسير الكثير من تعاليم مراحلها اعتماداً عليه. والأفلاطونية الجديدة تعني تطبيق الفكر الفلسفي بواسطة الفكر الديني بشكل عام وتطبيق هذا في الواقع المسيحي بشكل خاص، ولها تأثير عميق على الدين الإسلامي، والفلسفة الإسلامية، ويلعب هذا التأثير دوراً أساسياً في كل المفاهيم المثالية المعاصرة القريبة.

يعد أرسطو آخر مبدعي الفكر الفلسفي الكبار في العصر الكلاسيكي، وهو معلم اسكندر، ولم يكن أهل أثينا يحبونه كثيراً، وهو لا يتوافق مع القوالب الإغريقية بعض الشيء. انه عاش في فترة 386ـ320 ق.م، بحث وتعلم كافة الأفكار الدينية والفلسفية التي كانت موجودة في تلك الفترة بعقل أشبه ما يكون بالموسوعة، رصد الطبيعة بعمق وأعطى مكاناً متساوياً للعقل وللأحاسيس، وحاول تأسيس رابطة سليمة بين العقل والإدراك والحواس، ونظراً لشغفه الكبير بتعلم كل العلوم في مرحلته، يحاول جمعها دون تفريق بين المجتمع والطبيعة، وهذا ما خلق عنده المنهج الشمولي المتكامل، والذي يسمى بمنطق أرسطو، وهو عبارة عن الجهد الذي بذله لإنشاء الأسس العامة للمنطق من الأفكار والمعلومات المتراكمة، لهذا يمكن اعتبار أرسطو محصلة الذهن الإنساني كقوة عامة حتى تلك المرحلة، وإن تسميته بالرمز الذي في ذروة المعرفة والفكر المنسق، يعتبر إحدى نتائج هذه الخاصية، وإن تعبيرها وممارستها المجسدة هي تحقيق الاسكندر الكبير لإمبراطوريته العالمية الكبيرة. وهذا يعني التطبيق الكبير للفكر الكبير، والسلطة الكونية للفكر الكوني.

لا ينكر أرسطو وجود الله، ويعتبره السبب الأول ويعد المراحل التالية عبارة عن مبادرة، معتبراً أن الطبيعة طورت ذاتها بذاتها، ويضع مفهوم الكون ذي الهدف بقوله إن كل شيء في النهاية سيتحد مع السبب الأول، أي مع الله. وتعد مقولة "لكل شيء سبب وهدف" هي صيغة أرسطوية بمثابة الدستور، وبالتالي هي صيغة إلهية. ومن هذه الناحية مثلما كان لأرسطو تأثيراً كبيراً على الأديان التوحيدية، كان له تأثير كبير على فلاسفة الإسلام والمسيحية للعصور الوسطى أيضاً. وبالأحرى تم تطوير الفلسفة الإسلامية والمسيحية باستخدام الفكر الفلسفي عند أفلاطون وأرسطو.

حتى يومنا هذا لازالت الرؤية الأروسطية تهيمن على البنية المنطقية للإنسان الوسط. ولا زال المنطق الديالكتيكي بعيد عن الهيمنة عن ذهنية الإنسان وبسبب هذه الميزة، لا زال أرسطو يعيش بقوة في المنطق وفي فلسفة الإيمان لدى المؤمن، ولهذا لا يمكن استصغاره. بينما لا يمكن تعلم العلم وفهم نمط التفكير الصحيح في عصرنا ما لم نتجاوز أرسطو، وتقييمه على أنه حقق مرحلة متقدمة كبيرة في طراز الفكر الفلسفي؛ لكن تم تجاوزه منذ وقت طويل على المستوى المعرفي بسبب التقدم الكبير في ميادين علوم الفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء وعلم الاجتماع، وبات من المهم رؤيته على انه موقف محافظ في الاعتقاد والمنطق، والوقوف في هذا الموقف يعني الرجعية في يومنا هذا. لهذا فإن تجاوز أرسطو بات ضرورياً ويحظى ببالغ الأهمية من حيث متطلبات التحول والتقدم التي لا بد منها.

لقد تطورت فيما بعد ضمن البنى الفكرية الإغريقية العديد من المدارس المختلفة التي تعتمد على التفسيرات المختلفة لهؤلاء الفلاسفة العظام، إذ لعبوا دور المصدر بشكل مباشر أو غير مباشر حتى عصر النهضة، العصر القريب في تطوير فلسفة هؤلاء الفلاسفة وحتى العصر القريب ظهرت فلسفات دينية مختلفة كثيرة وفي مقدمتها الإسلام والمسيحية من جانب، بالإضافة إلى العديد من مدارس فلسفية أخرى خارج الدين من جانب آخر.

إن التدفق الفكري لتاريخ الحضارة يشبه النهر، وعندما يكون منبعه الأساسي هو سفوح جبال الهلال الخصيب، فإنه بالفروع التي استمدها من هناك شكل موجة هائلة متدفقة في سومر، وبالفروع التي استمدها من مصر والأناضول والهند والصين وإيران أصبح في حالة مصدر للطاقة كسدّ للفلسفة في مضيق الإغريق، ويكسب قوة التدفق مرة أخرى، ورغم العقبات المجففة للعصور الوسطى، وصل إلى قوة عظيمة في أوروبا في العصر القريب، بحيث أصبح كتدفق سيل يصعب الصمود أمامه في يومنا هذا.

ح ـ الذروة في الحضارة العبودية

عندما أجريت تحليلاتي بصدد الحضارة، عملت على لفت الانتباه إلى وجود الروابط بين المواضيع. وسبب موقفي هذا، هو أملي ونواياي بصدد تأسيس الرابطة بين العلم والأخلاق، التي انقطعت وأخذت شكل كارثة في يومنا هذا، من جديد وبشكل قوي، فالتعمق والتكرار نابع من خوضي هذا، حيث لا بد من التأكيد والتكرار باستمرار.

ولم أهمل هدفي الآتي عند تحليل الحضارة العبودية: القيام بتحليل الرأسمالية بمفردها والتوصل إلى نتائج لها كأسلوب، فإنه يتضمن نقصاً كبيراً، فالرأسمالية وحتى الاشتراكية المشيدة ـ بنسبة ما تحققت ـ تضمنتا في جوهرهما على مستوى البنية التحتية أو البنية الفوقية كثيراً من الخصائص الحضارية العبودية مع بعض الانفتاح والتعميم، وإبداعاتها التي حققتها جوهرها لازال كامناً فيها. ولربما أصبح التطور على أساس الكمالية والزيادة في الأشكال والمقاييس ملفت للانتباه، حتى أنه يمكن القول بأنه بلغ مستوى لا يمكن مقارنته، ولكن رغم ذلك، فان الشكل الأول للحضارة وجوهرها هو المصيري فيهما.

أن عدم قدرة علم الاجتماع على تطبيق المنهج الذي يطبقه العلم باستمرار يمكن تفسيره باستخدام مصطلح سيطرة الطبقة القوية جداً، ولا يمكن استخدام المصطلحات الموضوعية والبارزة والتي تتكرر باستمرار في علم الاجتماع بأي شكل من الأشكال، والسبب الأساسي لذلك هو إرادة الهيمنة

المطلقة علـى الوسط بمظـاهر إيديولوجيـة دعائيـة مدهشـة جداً، وخاصـة بقـدر تحجره بالمعنى الموضوعية والذاتي. إن ((الخاصية البارزة)) للعلم التي أريد الحديث عنها تعني إغفال لحظة الوصول إلى القانون أو القاعدة العامة؛ وهي النوعية المتطرفة المنقطعة وعدم شرحه أي شيء وحتى تحويله إلى أسلوب فقدان المعنى. إن تطبيق أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص هذا التحريف الكبير في مفاهيم العلوم الاجتماعية مرتبط بشكل وثيق بالحاجة إلى تحكم الإمبراطوريات بشكل متطرف، والتي تمثل الهيمنة الطبقية على المستوى العالمي. ونيتي إذا كان هناك جوهر يراد استيعابه تحت اسم "الاشتراكية العلمية"، فيجب إيصاله إلى المنهج الصحيح على الأقل، وربما لا يجد بعض "اليساريين" الصارمين معنى لذلك، ولكنني أزعم قائلاً؛ إذا لم يتم نقدها وإجراء التعديلات الصحيحة لها فإن "الماركسية" ستصبح أكثر تخلفاً من إيديولوجية الكهنة السومريين من الناحية الأخلاقية، وستتحول إلى لعبة غير مكلفة بيد الرأسمالية ولن تسفر عن أي نتيجة، ولن تكون "ديكتاتورية البروليتاريا" في النظرية والتطبيق أكثر من نموذج فج لسيطرة إمبريالية "سارغون"، ولن تكون أكثر من آلة تستخدم من قبل الرأسمالية. أن العنصر الهام الذي يقف وراء انهيار "الاشتراكية المشيدة" الذي لا يمكن توضيحه بأي نموذج نظري هو هذا الواقع المؤلم، ويقدم هذا الانهيار مثالاً واضحاً على ما أريد قوله، وحتى إن الأسئلة مثل: أين الخطأ وأين الخيانة وكيف حدث ومن قبل من ومتى..؟ مرتبطة أشد الارتباط بإيجاد الحلول للأسئلة التالية، أين ومتى ومن قبل من وأين يجب تطبيق الشيء الصحيح والحقيقي، هنا اكتفي بالقول إن فتح هذه المواضيع يشكل الجانب المهم في دفاعي ولا سيما ضد ازدواجية القرن العشرين.

1 ـ الحضارة الإغريقية

إن التعريف الصحيح لتشكل حضارتي الرق الإغريق ـ الرومانية، يعد أهم مسألة لعلم التاريخ، وعدم وضعه بشكل صحيح، يشكل أساس الأخطاء والتحريفات التي تمت فيما يتعلق بعلم التاريخ وعلم الاجتماع، التحريف الأساسي هو التضخيم المبالغ فيه واعتباره أساسا لانطلاق الحضارة، ويظهر هذا الموضوع أمامنا بإلحاح باعتباره الميزة الرئيسية لمفاهيم مركزية الحضارة الأوروبية ويتم محاولة فرضه علينا، وأما المفهوم المناهض لذلك تماماً فهو المفهوم الشرقي المعتمد على الرؤية الإسلامية بشكل خاص الذي يستصغر الحضارة لدرجة إيصالها إلى نوعية الكفر والذي يتميز بكثافة الدعاية ولا يحظى بأي قيمة علمية. وفي أساس كلا المفهومين تأثير لطراز الفكر الفلسفي الميثولوجي الإغريقي من جانب، والفكر الديني الشرق أوسطي الذي يصل إلى

درجة التطرف والإهمال والتمركز الذاتي من جانب آخر.

وأما إذا تم البحث في ضوء المعطيات العلمية، فإنه سيتبين بكل سهولة أن الحضارة الإغريقية الرومانية تغذت من منبعين رئيسيين وعهدين تاريخيين.

أ ـ الإغتذاء على العصر النيوليثي : يمكن البرهنة على أن موجة الثورة الزراعية في العصر النيوليثي التي حدثت في منطقة الهلال الخصيب قد وصلت إلى أوروبا عن طريق البلقان وجنوب روسيا في الألفية الخامسة قبل الميلاد. واعتباراً من عام 4000 ق.م تنشغل كل أوروبا بالثورة الزراعية التي تعرفت عليها. وهذا ما يسمى في التاريخ بالموجة "الهندو الأوروبية" ذات المنشأ الآري.

ولأجل تجنب الوقوع في خطأ الفهم منذ البداية، من الأهمية بمكان توضيح معنى كلمة "آري". والدور الذي لعبه السومريون في تحديد مصطلحات كثيرة والتي هي ذات جذور شرق أوسطية، يصبح الدور الأساسي في هذا المصطلح أيضاً. إن الجذر " **AR**"و " **ARD**"يعني في اللغة السومرية المحراث والأرض المحروثة والحقل. ولأن سفوح زاغروس وطوروس كانت مصدر ميلاد الثورة الزراعية فقد أطلق السومريون تسمية " **ARD**" على أول أرض تحولت إلى حقل، وربما هم أيضاً أخذوا هذه الكلمة من الهوريين الذين كانوا يمثلون التجمع القبلي الأول هناك. فمن المعروف تاريخياً أن السومريين استخدموا كلمة " **Horrit**"بمعنى "سكان البلاد المرتفعة"، ومن ذلك نرى أن علم المصطلحات يرى وجود علاقة قريبة بين " **AR** " و "**ARD**" والتي تعني المحراث. وبعد ذلك استخدم العرب كلمة أرض، ويستخدم الكرد في أيامنا هذه كلمة "أرد" بمعنى الأرض أو الحقل. وبذلك نرى أن مصطلح آري "**ARYEN**"يعني التجمع والشعب الذي يملك الأرض والتراب ويحرثها. وبالتالي نستطيع أن نستنتج أنه أطلق مصطلح آري على كل تجمعات الشعوب التي شهدت الثورة الزراعية، ويتبين لنا من هذا أن وجهات النظر المتأخرة والتي ترى أن "**ARI**" العظمة و"**AR**" تعني النار، هي وجهات نظر غير واقعية كثيراً. ولان هذه التجمعات كانت أكثر تقدماً حسب مرحلتها، فإنه من غير الصحيح استنتاج نتائج عرقية من تقييمها على انها آرية وعظيمة. وقيام الفاشية الألمانية بتحريف هذا المصطلح لا يمت إلى العلمية بصلة ويستهدف من ذلك الدعاية الإيديولوجية. وعندما نستخدم هذا المصطلح من الآن فصاعداً، فإنني أشعر بوجوب إظهار أهمية ضرورة فهمه بهذا المحتوى.

الأمر الذي أكده التاريخ هو نهضة أوروبا اعتماداً على الثورة الزراعية، فهي استفادت دائماً من المفاهيم والوسائل والإبداعات التي مصدرها الشرق الأوسط. ومواقف جودن تشيلدن وآراءه بهذا الصدد مقرونة بالإثباتات

العلمية والريادية. ففي تلك المرحلة، نرى تشكل مجتمعات تعتمد على انتشار الثورة الزراعية وتتخذ من ثقافة تلك الثورة أساساً لها دون ان تعتمد على القوة الفيزيائية المحضة في تحولها إلى شعوب وأقوام. وقد حدث ذلك في مجتمعات الشرق الأوسط في الألفية السادسة قبل الميلاد، حيث تشكلت المجموعات الأثنية المتميزة، بينما جاء ذلك متأخراً بألفي سنة مكرراً أو تم تكييفها في أوروبا، كما نشهد تطوراً مماثلاً في شمال أفريقيا والهند والصين في نفس الحقبة التاريخية تقريباً، وبذلك نكون أمام تموجات من الإغتذاء على المصدر الأم في كل حقبة من أحقاب التاريخ من حيث التموجات الثقافية، ويجب فهم التوسع الهند أوروبي ضمن هذا المضمار لأن ذلك يعني فهم التاريخ بشكله الصحيح.

وعندما نتوجه نحو أعوام الألف قبل الميلاد، فإننا نجد أن التجمعات الأثنية أو الشعبية التي رفدت "بالحديد" اكتسبت بعض التسميات الأساسية. ففي روسيا الحالية وجوارها نجد "السلاف " **Slaw** وفي أقصى شمال أوروبا نجد "نورمان " **Norman** و"توتون " **Toton** و"الجرمان "**German** في ألمانيا و "غوت " **Got** ، وإذا تعمقنا باتجاه الجنوب نجد "الكلت " **Kelt** و"اللاتين"**Latin**. وفي المرحلة الثانية، نجد أن هذه المجموعات الأثنية ستتحول إلى تشكيلات لتأخذ اشكالاً متمايزة والتي نقول عنها مجموعات شعبية وقوميات أو أمم في جغرافيات ضيقة. وتعد التشكيلات القومية مثل "الهلين " **Hilin**في شبه الجزيرة الإغريقية و"اللاتين "**Letin** في إيطاليا مفتوح هذه المرحلة. يشاهد أن هذه الأمم تكثفت تحت هذه الأسماء العامة في نهاية العصر النيوليثي.

ب - الإغتذاء على العصر الحضاري: تعد الحضارة السومرية والمصرية وحضارة نظام الرق في كافة أنحاء الشرق الأوسط والتي تأتي في المرتبة الثانية من حيث التأثير، أقرب مصدر مؤثر في أساس تشكيل الحضارة الإغريقية. إذ أغتذت الحضارة الإغريقية من هذا المصدر بشكل مباشر عبر أربعة فروع أساسية بشكل كثيف اعتبارا من الألفية الثانية قبل الميلاد، وبخلطها القوى الحضارية التي أخذتها عبر الأناضول ومن المصارد: طروادة و شرق البحر الأبيض المتوسط والفينيقيين والمصريين والكريت مع القيم النيوليثية التي كانت قد أخذتها من قبل وجسدتها، وصلت إلى تركيب غني جداً. ويتم التفكير سواء فيما قبل الحضارة أو قبل العصر النيوليثي بوجود تجمعات بدائية متوحشة متوسطية "نسبة للبحر المتوسط" في شبه الجزيرة الإغريقية، ولكن في الوقت ذاته يعتقد أنها تم تجسيدها من قبل موجات العصر النيوليثي. وكون اللغة الإغريقية لغة تتضمن بعض الخصائص الآرية هو دليل على ذلك. بينما مجموعة اللغة للبحر الأبيض (القوقاز_ باسك) التي تشكلت قبل العصر النيوليثي ابتداءً من القوقاز إلى الباسك في مرحلة القبائل البدائية المشاعية فيما

بين 25000 - 20000 ق.م تحظى ببنية لغوية مختلفة. كما وحدث تطور مماثل في شبه الجزيرة الإيطالية أيضاً.

لا شك أن خصائص الجغرافيا الإغريقية ألقت بتأثيرها الخاص على شكل الحضارة المتكونة هناك، وهذه هي القاعدة السارية على كل ساحة، ولكنها لا تلعب دوراً خاصاً مصيرياً بالنسبة للإغريق، فتطور الحضارة الإغريقية بشكل غني جداً مرتبط عن قرب بالمصادر التي أغتذت عليها، والتفسير الواقعي لهذا التجديد والغنى هو أنها وحدت كافة انحازت العصر النيوليثي مع الإنجازات التي أغتذت عليها من الفروع الأربعة التي تمثل التطور الأكبر للحضارة، وجعلتها في نقطة التقاطع بين آسيا وأفريقيا وأوروبا في جغرافيتها تركيباً وأصالةً، ومثلما يتم قياس الغنى بالقيم التي أغتذت عليها، فإن الحضارة الإغريقية تأخذ شكلها حسب المصادر التي أغتذت عليها أيضاً ولتأخذ دورها التاريخي على أعلى المستويات وتظهر تركيباً غنياً، ومساهمتها هي تحقيقها هذا التركيب بنجاح. فعندما تتوفر المواد الأولية لأجل العاشوراء "نوع من الحلوى" بمكنتنا صنع أفضل أشكالها. ولا يمكن استصغار هذا الدور، كما لا يمكن تقييمه كدور يقوم بالإنجاب من المصدر الأساسي المبتدع والجديد أيضاً. وقد تطرقنا إلى هذا الجانب جزئياً، وحتى لا نقع في التكرار يمكننا أن نقول ما يلي بخطوط رئيسية:

1 - ان ميثولوجية الحضارة الإغريقية هي بالأساس مختلسة من سومر ومصر بشكل محدود، وعندما يأخذ السومر مصدره عبر الأناضول والفينيقيين، فإن مصر يأخذ مصدره عبر الكريت، والقول لهذا، بأنه نقل من اليد الثاني، هو الأقرب إلى الحقيقة، لأن السومرية تتعرض للتمازج من ما هو محلي أولاً في كل من الأناضول والفينيقيين، ومن ثم يجري نقلها إلى شبه الجزيرة، وان الحضارة المصرية بعدما يتم تجسيدها في الكريت تعيش نفس الوضع، وإن الميكانيون كقوة حضارية سابقة ليسوا بتلك القوة لإنجاب ميثولوجية حضارة شبه الجزيرة، ويتضح هذا الواقع بشكل جلي من حدوث ولادة "زيوس" في كريت، وثقافة ميثولوجيا "زيوس" التي نشهدها في أعوام 1500 ق.م تقريباً هو المثال البارز الذي يدل على كيفية الانتقال إلى شبه الجزيرة، ومن حيث الأثيمولوجية "علم بنية اللغة" فإن كلمة "زيوس" اشتقت من كلمة " **DIV**" ذات الأصل الآري، وإن كلمة " **DiV**" هي لدى كل المجموعات الآرية وتعني الأكبر والكائن الأكبر "هو الكائن الإلهي"، وعند انتقال "**DEV**" إلى السومريين لعبت نفس الدور تماماً، وريادة مصطلح الرب في الشرق الأوسط بالشكل الأولي والبدائي هو مصطلح تم استخدامه لدى المجتمعات الآرية النيوليثية وهو الدليل على هويتها، وقد مر هذا المصطلح في مراحل مختلفة ليصل إلى مصطلح الرب الأكبر والإله وأخيراً "الله".

عندما كانت ثقافة " الكبلا" كأقدم ثقافة للآلهة في الأناضول تلعب دور مصدر هام كآلهة "آرتميس"، تم تجسيد "تارهوزا" إله الفواكه والنبيذ كـ" ديونيسوس"، فكما هو معلوم أن إله الفواكه وخاصة العنب والنبيذ تارهوزا الذي يشاهد في معابد " اللوويين **Luwi** " وهم الشعب الأقدم الذي كان يعيش في الأناضول قبل أن تتحول إلى هلينية والذي تحول إلى ديونيسوس هو مثال بارز آخر على التغذية من المنشأ. كما أن ولادة أفروديت من زبد البحر على سواحل قبرص توضح كيفية تطور الارتباط الميثولوجي أي يدله على طريق العبور، وأيضاً الإله آبولو الذي يكتسب تفوقاً على الآلهة المرأة وخاصة عند الحثيين والهوريين يتم نقله من الأناضول إلى الإغريق على شكل " **tilipinu** تلبينو" و"تيشوب **teshop** " باعتبارهما الآلهة الذكور المهيمنون، وكذلك من المواضيع التي تم تعليلها هو مرور الآلهة المصرية "إيسيس، إيو وأوسيريس" بنفس التأثير وتاثيرهما في ديميتير وابنته "برسيفون".

ليست هناك ضرورة لسرد مزيد من التفاصيل حول الانتقال الميثولوجي، ولكن يمكننا أن نبين بسهولة ان "هيسودوس" قد كتب اللاهوت مستقياً معلوماته من مصادر ميثولوجية عديدة في تلك المرحلة وعلى رأسها أسطورة الخلق البابلية "أنوما إليش". لقد كانت المجموعة الثقافية في تلك المرحلة تمتلك تيولوجيات مشابهة لـ"اللاهوت"، إن وجهات النظر وأشكال الوعي التي تعتمد في جوهرها على السومريين، كانت تعكس بلا شك مستوى إيديولوجياً تقدمياً قياساً بمستوى المصطلحات في العصر النيوليثي، إن هذه التيولوجية "اللاهوت" باعتبارها الغلاف الإيديولوجي الأساسي لنظام الرق موجودة في أساس كافة علوم اللاهوت التي أتت فيما بعد. ويجب ألا ننسى أنه لولا وجود هذه لما كان بالإمكان الوصول إلى وجهات النظر الفلسفية والعلمية، لأن وجود العلاقة الديالكتيكية التاريخية بينها قطعية وواضحة.

2 ـ الموضوع الهام الآخر هو أن الفينيقيين قد أخذوا الأبجدية المستخدمة حالياً في كافة دول أوروبا من السومريين وبعد تطويرها قاموا بنقلها إلى الإغريق فيما بين أعوام 1000ـ700 ق.م، وقد امتلك الإغريق التاريخ بفضل هذه الأبجدية. وكذلك بشكل مشابه لذلك، تم أخذ الرياضيات والهندسة من المصريين والسومريين، والأسلوب الأدبي سواءً على المستوى اللغوي أو المضمون اعتمد على تلك الثقافات أساساً، والبنية الروحية والذهنية التي تكونت عند الإغريق مدينة لمصادرها كما حدث ضمن شمولية المرحلة، بالإضافة إلى ذلك فقد قدموا مساهماتهم بمنتهى المهارة، وهنا تكمن الأهمية الأساسية. إذ لم تتم عملية الأخذ والنقل بشكل مستنسخ، بل على شكل تجسيد وتبني ذلك والوصول به إلى مستوى البنية الذهنية والروحية الأكثر غنىً، وفي هذا الإطار لعب الإغريق دور المساهم المهم في تاريخ الحضارة. والأمر الخاطئ هو تحريف

الحقائق واعتبار هذه المساهمة عبارة عن مصدرٍ وعملية ولادة؛ فقد أوصل الإغريق وبعدهم الحضارة الأوروبية هذا التحريف إلى درجة متطرفة تصل حد الشوفينية. فقد تحول اعتبار كل شخص ليس إغريقياً هو بربري إلى نوع من العرف والتقليد، بيد أنهم قبل أن يصبحوا قوة حضارية كانوا يعيشون ضمن أنظمة قبلية بدائية، بينما كانت الحضارة قد تكونت في مصادرها الأصلية منذ زمن بعيد.

3 ـ عندما أطلقوا اسم "الهلينية" على أنفسهم، كانت ميزوبوتاميا العليا تكتشف الحديد كوسيلة للتحضر وبعد ذلك تم نقله إلى الجزيرة عن طريق قبائل " **Frig**". كما تم نقل أدوات الإنتاج البرونزية عن طريق طروادة، ولم يتحول الهلينيون إلى قوة مهاجمة إلا بعد أن تراكمت الأسلحة المصنوعة من الحديد والبرونز لديهم اعتباراً من أعوام 1000 ق.م. لقد انفتحت أبواب الأناضول أمامهم بعد سقوط طروادة أعوام 1200 ق.م . في البداية يتم تحويل الأناضول الغربية إلى بلاد "إيونية"، وبعد ذلك شهد الأناضول حتى حدود الفرات فترة هلينية، ويتم إزالة أقوام "اللوبين والفريديين والليديين"، ولكن المجموعات الاثنية والتي يقال عنها ممالك " كوماغينس" الذين يعتبرون أجداداً للأرمن والكرد الحاليين فأنهم يحافظون على وجودهم. ويصل هذا الانتشار المضاد للثقافة الهلينية إلى ذروته مع اسكندر بعد أن شهدت مراحل هبوط وصعود في العام 1000 ق.م إلى أن وصلت في بداية القرن العشرين إلى نهاية تراجيدية بطردهم من الأناضول من قبل الأتراك.

يتواصل الانتشار في الغرب، حيث ينتهي عهد استقلال كريت اعتبارا من أعوام 1500 ق.م. وعاشت قبرص المرحلة نفسها، وتحقق الانفتاح على مقدونيا، لتبدأ في هذه الأثناء مرحلة استعمار قوية، وإقامة مستعمرة "بونتوس" على سواحل البحر الأسود كما انتشرت المستعمرات الهلينية القوية على كافة سواحل البحر الأبيض المتوسط تقريباً، وتنفتح أمامه أبواب شبه الجزيرة الإيطالية لتكون مركزاً سكانياً كثيفاً، ويتم تحويل كافة الجنوب تقريباً إلى منطقة هلينية.

4 ـ تولد بين القرن السابع والسادس قبل الميلاد بنية دولة عبودية مركزية في شبه الجزيرة الإغريقية تعتمد على الأساس الطبقي من الفيدراليات ذات البنية الأثنية. إن الجانب المميز لتشكل الدولة العبودية هذه هو كونها وضعت طابع الكاهن في المرتبة الثانية ليتصدر فيها الجانب السياسي، والأهم من ذلك كله أنها حققت بعد فترة قصيرة من النظام الملكي والذي لربما لم يعش أول شكل لما يمكن أن نسميه بالنظام الجمهوري العبودي. فبينما كانت طبقة الكهنة تلعب دوراً أساسياً في سومر ومصر وفي كافة بنى الدول العبودية الشرق

أوسطية، لعبت السلالات الحاكمة الدور ذاته، ويتصدر النظام الجمهوري كنظام حكم عند الإغريق والإيطاليين، لا شك أن هذا الوضع ناجم عن العمل بالعقلانية في الإيديولوجية إلى جانب ارتباطها بزيادة أهمية التجارة إلى جانب الزراعة، خاصة وإن التجارة جلبت معها تطوراً اجتماعياً للطبقة البرجوازية، وفي الأساس إنها كطبقة وسطى أقرب إلى العلمانية تأخذ دائماً موقعاً بعيداً عن أسلوب النظام الذي يعتمد على الكهنة والسلالات الحاكمة وذلك ما تقتضيه مصالحهم.

لقد باتت التجارة عن طريق البحر مناسبة أكثر قياساً بالتجارة البرية، وهذا ما يشكل الشرط المادي للتفوق الإغريقي. فلقد شكل الثراء والرفاهية اللذين نتجا عن التجارة أرضية مادية لأسلوب التفكير الفلسفي، وبالإضافة للتطور المتميز من الناحية الاقتصادية، فقد أكتسب تطبيق تقسيم العمل المعتمد على التجارة أهمية كبيرة. إن تقسيم العمل هذا ضمن شروط تلك الأيام، جلب معه تخصص جعل التجارة هامة بين شمال وجنوب وبين شرق وغرب عالم الحضارة، مما تسبب في ظهور انتشار حرفي جديد، ويمكن القول بأنه توفرت الإمكانية لحركة تجارة السلع بدءاً من المحيط الأطلسي وحتى المحيط الهندي، وبهذا المعنى تشكلت أول عولمة هامة في التاريخ.

بالطبع تم تبادل الأفكار والمعتقدات المشتركة على الطرق التجارية بنفس الشكل. ولا عجب في أن الجمهورية وتعبيرها الأكثر تطوراً الذي يتمثل في الديمقراطية هي البنية المناسبة لأسلوب التطور الاقتصادي والاجتماعي والإيديولوجي. إن التطور الطبقي الذي يعتمد على الشروط المادية الثرية والمركبة سيجبر البنية الأكثر ملائمة له في المخطط السياسي وتحقيقها. في هذه النقطة تكمن الأهمية التاريخية "لديمقراطية أثينا" بما يماثل أهميتها في مساهمتها الحضارية. لاشك بأن هذه الديمقراطية عبارة عن ديمقراطية الطبقة الاستعبادية ولكنها مع ذلك فهي تمثل تجديد هام، وإن بعدها عن احتكار الكهنة والسلالات الحاكمة جعلها تلعب دوراً هاماً في احتضان الحضارة الغربية.

5 ـ لا شك أن أهم تجديد واسهام قدمته حضارة الإغريق في التاريخ هو تطوير الأسلوب. إن اعتبار الفلسفة التي تعني "حب المعرفة" قد ولدت بكاملها في شبه الجزيرة الإغريقية هو موقف مبالغ ويتضمن نواقص كبيرة. فمن المعلوم أن "تالس الميلتي وفيثاغورث " وكلاهما من الجزر اللذين هما أول من بدأا بتوثيق وتدوين أسلوب الفكر الفلسفي، تعلما وأمضيا سنين طويلة من عمرهما في مصر وبابل. وقبل أن يظهر أسلوب التفكير الفلسفي، نرى أن كل رواد المعنويات تلقوا تعليمهم في مصر وبابل في مدارس الرهبان، ولم تكن في تلك الفترة أية مدرسة خاصة في شبه الجزيرة، غير أنه يعتقد أن القرنين الثامن

والسابع قبل الميلاد شهدا موجة من الرحالة الشعراء مثل "هوميروس وأورفيوس". دعك من أنه لم يكن موجود لديهم معابد بالمستوى الموجود في مصر وبابل في تلك الأعوام، فلم يكن قد توفرت بعد أرضية قوية لتشكل ثقافة معابد محلية، فقد تم استيراد الإيديولوجية بشكل مكثف من الشرق، وحتى "هوميروس" هو شاعر ينتمي إلى الأناضول الغربية.

وكما أن هذه الحقيقة لا تلغي الأهمية الكبرى لتصدر الفكر الفلسفي، فأنها تظهر بوجوب التفكير بها كنتاج مشترك للحضارة. إن الفكر الفلسفي كديالكتيك هو نتاج وسطٍ باتت فيه التفسيرات الميثولوجية ذات الأصل الشرقي غير كافية ولم تعد تشبع ذهن الإنسان بل وأصبح مضحكاً، إن القصور التي وقعت فيه الميثولوجية والمواقف الدينية المعتمدة عليها باعتبارها أصبحت ستار إيديولوجي وقوة للتشحيم ستدفع البنية الذهنية والروحية للمجتمع إلى الدخول في بحث جديد. إن ضعف الاعتقاد الديني للمجتمع الإغريقي بالمقارنة مع مجتمع مصر وبابل، وعدم تحجر العقائد الموجودة، وميلان النظام السياسي نحو الديمقراطية والجمهورية، وإعطاء الأرضية المادية إمكانية الرفاه وخلق أوقات الفراغ، كل ذلك جعل الخصائص الأساسية لأجواء الفكر الجديد ملائمة. ان إظهار حاجة النظام السياسي والثروة المادية للنقاشات، يجلب معه إمكانيات الأمن والتحرر، فمثلما تم تجاوز عصر الخوف من الآلهة، أصبحت دولة المدن المعقدة بحاجة إلى الأفكار المعتمدة على العقل والأكثر واقعية. يقف وراء كل هذا مؤثر فعال: ففي الوقت الذي كانت حضارة الرق على وشك أن تترك وراءها ثلاثة آلاف سنة، فإنها بعد تطورها الطبيعي ووصولها إلى مرحلة النضوج بدأت تمر بمرحلة تآكل حتمية جادة، فالنظام بدأ يقترب من نهايته، والذروة والانهيار قريبان، وفي الأساس فإن الحضارة الإغريقية الرومانية هي اعتراف بهذه الحقيقة.

إن كل هذه الشروط تشير إلى أن عهد الإيمان بالميثولوجيا قد ولّى وأن وقت استخدام العقل قد حان. لقد ازدادت التراكمات الثقافية للإنسانية خلال عهود طويلة، وأصبحت المعرفة باعتبارها ثمرة للجهد والممارسة حول الأشياء تلعب دوراً تنويرياً فيما يخص عالم الطبيعة والحيوانات والنباتات، وأصبحت علاقة السبب والنتيجة تعبر عن نفسها دون اللجوء إلى الأرواح والآلهة. فـ للطبيعة نظام عمل مستقل عن إرادة الإنسان والإله، وبدأ هذا الأمر يلقى قبولاً في عالم الذهن، وقد بدأ عالم الاعتقاد الساذج يتغذى بالشكوك يوماً أثر يوم، وأمتلك الجرأة على الخروج من عالم الخيالات الطفولية إلى عالم الحقائق، ووراء كل هذه الظواهر يرقد الواقع الإغريقي الذي أصبحت فيه التجارة تجري وراء كل الأبواب والذي أصبح يتلذذ بكشف مزيد من الأسرار ويرى في ذلك مصالحه، فالتجار الإغريق كانوا مصممين على مواصلة الطريق الذي لم يستطع

السومريون تحقيقه، وهم في ذلك يماثلون البرجوازية الصناعية التي لا تعترف بالحدود في سبيل أرباحها. لقد انحسرت كثيراً قوانين الرب وأضحت قوة العقل الخالص وقوة الفرد مضطرة للتفكير السريع في عالم تجاري متغير، والميثولوجيا التي كانت كافية من أجل البنية السكنية للزراعة الموسمية لم تعد تلبي حاجة عالم التجارة والحرف في المدن، لا بل أصبحت مضحكة، وهكذا اضطرت معها الطبقة الحاكمة للمجتمع لخلق فكر مسيطر خاص بها في إطار علاقات الرق، فالتغيير في البنية الطبقية سيخلق تغييراً في البنية الفوقية.

يمكن الوقوف أكثر عند الشروط الذاتية والموضوعية للثورة الفلسفية في الفكر، ولكن هذه التوضيحات كافية للتوصل إلى تعريف صحيح وجوهرها هو:

مثلما هناك علاقة ديالكتيكية وتسلسلية للتطور الحضاري في البنية التحتية كذلك هناك وسائل التنقيل والتصور الإيديولوجي التي تعد مؤسسة أساسية للبنية الفوقية وهي أيضاً ضمن علاقة ديالكتيكية وتسلسلية وتحقق التكامل أيضاً. وهذه لا يمكن أن تتحقق من تلقاء ذاتها ودون الاعتماد على الخبرة أو بدهاء مزاجي لبعض الأشخاص، وحدوث ذلك بهذا الشكل، لا يتضمن أي تقليل لدور المفكرين الفلاسفة، بل على العكس، وذلك يوضح في أي شروط أنتجوا وأي شكل من الحضارة أبدعوا، وبمنح هؤلاء حقوقهم يمكننا استنباط النتائج الصحيحة، ومن الملاحظ أنه بعد الانسلاخ الميثولوجي في عصر الفلاسفة تم الدخول في مرحلة فكرية تتضمن تناقضين أساسيين وهما:

أ - النمط الذي يعتمد الأحاسيس أساساً ويمارس ذلك عملياً بكثرة، يعترف بالوجود الموضوعي للطبيعة ويستوعب الأسباب والنتائج الموجودة فيما بين الأحداث، كما يعترف بوجود قوانين مستقلة عن عمل ورغبات الإنسان، وهو الشكل الأولي في اكتساب المعرفة الذي يعتمد على التجربة والمراقبة، ويسعى للوصول إلى أسلوب تفسير الطبيعة دون الاعتماد على الدوغمائيات الدينية والميثولوجية، وبذلك يعبّد الطريق المؤدي إلى العلم بشكل سليم.

ب - نمط التفكير العقلي الذي يمهد السبيل لتأثير يقظ وساحر، يرزح تحت تأثير الدوغمائيات الماضية، ولا زال العقل بعيد جداً عن الإعلان عن استقلاله، ولكنه رغم ذلك يمتلك الجرأة على السير في غابة عذراء بعيدة عن ظل الآلهة؛ أي أنه يتقدم خطوة - وإن كانت محدودة - على طريق التفكير المستقل. فكل شيء موجود يتحقق في الفكر، ويرى أن العالم الموضوعي هو عبارة عن خيال مخادع. الفكر الذي مصدره العقل هو القيمة العظيمة، ولا شك أن في هذا تأثير كبير لنهوض الفكر بقوته الجوهرية، وإنه مسحور لدرجة أنه لا يولي أهمية تذكر لوجود الواقع خارجه، وكما كانت آثار الأولين مذهلة، كذلك

هذا التطور الكبير للتاريخ ما كان ليتحقق لولا التوجه نحو التطرف.

ولن نكرر لأننا وضعنا مقدمة قصيرة متعلقة بممثلي هذين الفرعين الرئيسيين في تطور الفكر الفلسفي. ولكن يجب أن نبين أن كلا الفرعين قد تركا بتأثيرهما حتى يومنا هذا بما يماثل الميثولوجيا السومرية على الأقل، فكما تلعب الميثولوجيا السومرية دوراً في أساس عالمنا الاعتقادي، كذلك تلعب الأفكار التي تدفقت من هذين الفرعين الرئيسيين دوراً هاماً في أساس تفكيرنا الفلسفي العلمي. إن ممثلي هذين الفرعين بمثابة رسل للفلسفة، فلكافة الحلقات الهامة لسلسلة المدارس التي أسسوها هؤلاء بأنفسهم وعلى رأسهم تالس وفيثاغورث وبارمنيدس وهرقليطس وسقراط وأفلاطون وأرسطو والمدارس المتتالية التي تأسست باسمهم، دور في تكوين قوتنا الفكرية يماثل دور الأنبياء على الأقل في عالم اعتقادنا، وهم شخصيات تشكل مصدراً لا بد منه على صعيد إظهار قوة الفرد. فبينما كانت الميثولوجيا والدين يبشران بالقدسية الاجتماعية وبالموقع، كانت الفلسفة تبشر الفرد الذي يستيقظ ويلهث خلف حريته.

في الحقيقة إذا كان الدين والفلسفة مؤسستان لا يمكن الاستغناء عنهما في التطور الحضاري ولهما جذور ميثولوجية مشتركة، فإنه من الصحيح أيضاً أنهما اختلفا وتناقضا واشتبكا رغم أنهما توحدا في التركيبة من حين لآخر. وقانون وحدة وصراع الأضداد الموجود بين العالمين الفكري والعقائدي وبهذه النوعية فهو ساري المفعول، وسيطبق هذا القانون ويخلق التقدم، وهذا القانون الذي سيتحول فيما بعد إلى قانون بين هذين الفرعين من الفلسفة، سيتواصل تقدم الفكر الفلسفي على شكل صراع ومواجهات والوصول إلى تركيبات ليصل إلى يومنا هذا، وعندما يقوم بتطوير العلم، فإنه يتغذى منه أيضاً.

6 - إن لإسهامات الإغريق في الحضارة تأثير كبير وباق على البنية المعنوية والفنون، فقد استطاعت أن تشهد أصالة في المجال الموسيقي وان كان قد أصبح للسومريين تأثير فيه، وحققت تقدماً في تدريب الحواس، وقد شهد تطور على صعيد الغناء الفردي والمعبدي، وقد فسر فيثاغورث الموسيقى على أنها نوع من اللغة الكونية ونرصد عند السومريين الرأي نفسه. فالحياة لا تكتفي بالتفسيرات التي تقدم بلغة الميثولوجيا أو الأدب أو بلغة الفلاسفة ويصلون إلى نتيجة مفادها لا غنى عن التفسير بلغة الموسيقى.إن أثر المصريين في فن العمارة واضح، وربما استطاع الإغريق أن يلقوا الخطوة الثانية الأهم على صعيد الفن المعماري بعد المصريين، ويمكن أن نشاهد الآثار المعمارية التي تركتها الثقافة الهلينية في كل المناطق التي انتشرت فيها، واما إسهاماتهم في فن الهياكل فهي واضحة جداً ولها صفة المدرسة في هذا المجال. فلقد استطاعوا أن يبدعوا تصويراً حياً استطاع أن يتسابق مع جمال الطبيعة. لقد أظهرت المحلية

الإغريقية على صعيد الفنون أن تنتقل بسرعة إلى المجال العالمي، وتظهر أمامنا كإنتاج تركيبي يحمل صفة الإسهام المتفوق.

يمكن أن نشهد نفس التطور في المجال المعنوي "الأخلاقي"، وخاصة مفهوم "الفضيلة" الذي تطور على يد سقراط والذي يوضح "المسؤولية الاجتماعية للفرد" ويتم رؤية تأمين التطور على المستوى المعرفي العام من أجل جميع الأفراد بشكل مسبق، وكلمة السر في ذلك هي عبارة "أعرف نفسك". إذا قيمنا الفضيلة على أنها الوصول بأي عمل إلى الكمال، حينها فالذي يقع على عاتق الفرد هو الوصول المطلق إلى المعرفة الضرورية في موضوع العمل الذي سيؤديه وبذلك يتم الوصول إلى حياة فاضلة، وهكذا فالسلوك المسؤول للفرد يصبح معياراً للأخلاق الحميدة، وأن مفهوم سلوك أخلاقي كهذا والذي نجد بعضاً من أسسه عند الزرادشتية هام جداً، وإنه يفكر بالحرية وإن كانت محدودة، ويمكن أن يتضمن هذا المفهوم الأخلاقي فكرة "حق تقرير المصير للفرد"، علماً بأنه في المفاهيم التقليدية السابقة، كان على الفرد أن يتصرف حسب القواعد المقدسة التي حددتها القيم المقدسة مسبقاً، ولا يمكن التفكير بأي تطور غير هذا، لأن الآلهة في النظام الاعتقادي هي التي تحدد كل شيء بالمطلق، ولا يمكن للفرد أن يكون حتى مجرد موجود على مستوى الظل، وهنا يكمن جوهر فلسفة الرقيق والعبد، ومن المذهل فعلاً أن هذه الفلسفة أسرت الفرد والمجتمع في شخصيته. لقد تحول السلوك الأخلاقي الذي تغذى من الاعتقاد الديني والميثولوجي مع خصائص التقاليد القديمة إلى السيطرة المطلقة على سلوك الفرد.

كان هناك التزام ايديولوجي اكثر تخلفاً بكثير من تصرفات الفرد في العصر النيوليثي والتي كانت حرة بالرغم من انها كانت جماعية، وذلك على شكل الالتزام بالروابط الذهنية والروحية التي تسمى بـ "القدر"، ويمكن ان تمتد على شكل سلسلة إلى ما لا نهاية، لعب هذا المفهوم الأخلاقي الذي تم إدخاله إلى المجتمع على يد الكاهن في الحضارة العبودية دوراً هاماً في استمرارية النظام، وهذا هو المفهوم الأخلاقي الذي تم مهاجمته من قبل زرادشت وبوذا وسقراط، وأصبح هدفاً لتعاليمهم حتى تعرض للتمزق جزئياً، ومن هنا ينبع سبب تسمية هؤلاء "مصلحي الإرادة العظمى" وربما لم يهاجموا "الرب" بشكل مكشوف أي لا يحدث تمرد على الحضارة العبودية التي أصبحت رمزاً ولكن الطريق الذي سلكوه كان يهدف إلى فتح ثغرة لتشتيت النظام لصالح الحرية، أما عن الأساليب الإيديولوجية والبرغماتية "التخيلات" التي اتبعوها ستبقى في الدرجة الثانية من الأهمية، وهذه الخطوات التي استهدفت الحرية تسارعت مع القرن الخامس قبل الميلاد، وأصبحت أقوى لتمهد الطريق أمام المفاهيم الأخلاقية والتصرفات القوية في يومنا هذا.

إن هذه المشكلة التي تعد موضوعاً أساسياً يجب النظر إليه في الفصول القادمة، وخاصة كموضوع أساسي للنقد في عصرنا هذا، تحمل أهمية كبيرة.

إن مفهوم "الفردية وحرية الأخلاق" الذي تطور في أساسه ضد مفهوم الأخلاق لدى النظام الذي يضم العبد والرقيق والذي بقي لحقبة طويلة ومازالت تأثيراته ممتدة إلى يومنا هذا، بدلاً من أن يقوم بدوره فإنه ينهض بدور معاكس ويعبر بشكل ملموس عن خطر وضع الفرد تحت سيطرته، وهذا المفهوم الأخلاقي الذي وصل إلى الذروة وخاصة في الحضارة الأوروبية تجعل التقييم من جوانب متعددة والبحث عن البديل أمراً مصيرياً. فإذا لم يتم تحليل مفهوم "الأخلاق الفردية" التي تغذت بلا حدود على العلم والتقنية فأنه سيؤدي إلى كوارث كبيرة تتجاوز حدود الحروب المجنونة التي يتم خوضها في القرن العشرين ولن تكتفي بجعل البيئة غير قابلة للعيش وحسب، بل إنه يحمل في مكنوناته أخطاراً ضد الإنسانية والتي يمكن ان تحيي تشوشاً ونظاماً وحشياً يتجاوز في أبعادها النظام الوحشي البدائي بكثير، وسيتصرف في تسييرها بشكل متهور .

بلا ريب، إن دور الحضارة اليونانية في هذا الانشطار المعنوي يتمثل في تطويرها للأخلاق الفردية، والتي ستتطور على يد روما حتى تصل إلى القمة على يد الحضارة الأوروبية. وأما الجانب الآخر من هذا الانشطار فأن الذي سيوضحه هو" ثقافة السلوك الشرقي" أو أخلاقه، فبينما كان الإله عند الإغريق يتحول إلى إنسان ويندرج شيئاً فشيئاً إلى قوة الفرد، كان الشرق يعيش في مرحلة تطور يتم فيها تأليه الفرد في البنية الأخلاقية والفكرية وتقديس النظام الذي أنشأه على أنه نظام إلهي، وبينما كان يتم شطر هذين المفهومين وميل الإرادة اللذين لهما جذر واحد لدى السومريين على يد زرادشت، كان يجري الفصل التاريخي بين الغرب والشرق باعتبارهما خطان حضاريان عريقان يستمران حتى يومنا هذا دون أن يفقدا أهميتهما عن طريق الصراع والمواجهة والوصول إلى تركيبات عليا.

إن هذه البنية المتناقضة للحضارة تتطلب تقييماً شاملاً حتى يتحقق الانفتاح للمرحلة المقبلة. هناك إجماع عام على أن المقولة الليبرالية الرأسمالية والمقولة الماركسية للاشتراكية التي تم تطويرهما حتى الآن، أتاحتا إمكانيات تحليل محدود وبقيتا سطحيتين، ولكن لم تستطع الليبرالية والاشتراكية المشيدة تحقيق الجنة التي وعدتا بها، وربما يكون الخطأ في مفهوم الجنة ذاته، وفي الوقت الذي نترك فيه التقييمات المتعلقة بذلك إلى الفصول الأخيرة، ففي الحقيقة أن موقفنا التاريخي ينطلق من عملية تسليط الأضواء على هذا الموضوع، إذ لم نكن قادرين على أن نكون قوة الحل لهذه القضية، وهذا أمر واضح ومهم.

لا شك ان أسس تفوق النهج الغربي الذي تبلور في الانشطار والذي تعمق في أساس حضارة الإغريق، متمثل باتخاذه الإنسان كأساس، ومحاولته فهم وتحليل الطبيعة والمجتمع باستخدام مواهبه ووضع مصلحة الفرد في المقام الأول وبتطوير المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي. وبينما كانت إيديولوجية هذه الحضارة تصل إلى ذروتها على يد أرسطو، برهنت حملة الانتشار باتجاه الشرق على يد الاسكندر الكبير عن هذا التفوق في كافة مناطق الحضارة، وبفترة قصيرة وصلت إلى حدود الهند، لقد تمكن الطالب الذي تم تعلميه على الفكر الجديد، أن يحقق نجاحاً باهراً في مهمته.

أما أسلوب التفكير الشرقي وخاصة في بابل فقد فقدت قدرتها الخلاقة القديمة بمناقشات الكهنة الذي دفن بداخلها، غير أن المهتمين بنسخ النصوص القديمة أشبه بمن غرق في مستنقع ضحل. وأما في مصر فقد كان الوضع أكثر تخلفاً، والبراهمة الهندية فقد كانت منشغلة بتكرار النظام الملكي والكهني المصري والسومري القديم، وتشجيع زرادشت للإرادة لم يكن كافياً لإيقاف هذا التوجه نحو الانحطاط. فبينما كان تطوير الأديان التوحيدية يفتح الطريق أمام تقدم محدود من جهة، فإنه لم يكن يستطع تجاوز مفهوم دولة الكهنة المرصوصة بشكل قوي، وكان نظام الهوية الجديد للمجتمع المنسوج حول المعبد يأخذ مقولة مفادها أن الدولة هي التعبير الأرضي لنظام كوني لا يتغير، وكان يتم تجديد كافة الإيديولوجيات والأخلاقيات بناءً على هذا الأساس ليتحول إلى أدب ونسج للمجتمع، وكان يتم فقدان أساس الفرد لدرجة لم يبق له أثراً، وكان "الكاست **Kast** "الذي لا يعترف حتى بإمكانية أن يكون الفرد ظلاً وهذا ما يجعل النظام الإلهي مهيمناً، كان هنالك هيمنة لمفهوم وأخلاق يقران فقط بعمل ما يقال، وهكذا نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام "النهج الشرقي" المتأصل الذي يؤمن بأن الموت من أجل الملك أو السيد أو المعلم هو فضيلة مقدسة، وحتى لو وصلت الانطلاقة الحضارية العكسية لزرادشت المعتمدة على حملة الإرادة الحرة إلى أبواب أثينا، فإنها منيت بالهزيمة أمام الاسكندر الطالب ذو الخمس والعشرين عاماً وذلك بسبب انغمارها في المفهوم الشرقي، وبذلك تفوق الغرب، علماً بأن الشرق يملك قوة مادية كبيرة وكذلك قوة العسكرية، ولكن المفهوم الشرقي الذي يحيل كل شيء إلى الإله، ويجعل ملوكه في مكان الآلهة لا يملك أية قيمة إنتاجية أمام عصر العقل والعقلانية التي أوصلها أرسطو إلى الذروة، ولكنه لن يستطيع إنقاذ نفسه من الهزيمة. إن المسؤول عن خسارة الحرب هو "النمط الشرقي".

لقد جنت الصين والهند اللتان اتبعتا نفس السبيل، نفس النتيجة، وكذلك تجربة الإصلاح التي تم إحياءها بولادة الإسلام في العصور الوسطى تعثرت بـ" الطراز الشرقي" ولم يتمكن من حماية نفسه أمام "الطراز الغربي" بالرغم من فخامتها واستمراريتها لوقت طويل. وإذا ما أمعنا النظر أكثر وخاصة في

الفصول اللاحقة التي سنشرح فيها بأسلوب أكثر شمولية، أن الذي يحدد الازدهار والانهيار هي القوالب السلوكية الأخلاقية والبنية المنطقية التي تكمن في أساس الأنظمة؛ الذي يوجه هذا هو الأسلوب الفكري وقوة الإرادة. ميلاد الحضارات وصعودها وتغييرها وانهيارها تعتمد على القيم المعنوية والذهنية التي تلعب دوراً مصيرياً، وثبت في المثال الإغريقي بشكل ملفت للانتباه على ان القيم المادية تحظى بالأهمية وتطورها وافتقادها مرتبطاً بذلك.

2 ـ مرحلة روما في الحضارة العبودية

واصلت كونفدرالية "أتروسك" المعتمدة على أثني عشرة منطقة في الشمال تطورها ضمن الشروط التي هيأت لازدهار روما، ويمكن الحديث عن تسرب الثقافة النيوليثية في المناطق الأكثر عمقاً، وعن انتشار الشعب ذو الأصل اللاتيني الذي أصبح أكثر قوة باعتماده على تقنية الحديد اعتباراً من عام 1000 ق.م ووضع بصماته على البنية اللاتينية لشبه الجزيرة. لقد نقل الأتروسكيون القيم الحضارية لميزوبوتاميا عبر الأناضول، ولعبوا دوراً ريادياً حتى مرحلة ازدهار روما، ويعد الأتروسكيون أهم مصدر يغذي روما، وإن مستوطنة هلين في الجنوب تكاد تخلق وضعاً مشابهاً لغرب الأناضول، وتكوّنت دويلات المدن الصغيرة، وكانت السيطرة التجارية والثقافية والإيديولوجية في مرحلة تطور مستمر. وإذا ما توغلنا جنوباً نجد مملكة "سيراكوزا" وحضارة "قرطاجة" ذات الأصول الفينيقية في شمال أفريقيا تمر في مرحلة ساطعة من الحضارة. كانت المؤثرات الحضارية للشرق الأوسط تقوي بنيان روما عن طريق هذه الأقنية. وبعد ذلك نرى روما في عام 750 ق.م قد اكتسبت صفة دولة مدينة ملكية، وتطبع المجموعات الأثنية ذات الأصول اللاتينية بصمتها على المرحلة رغم التأثير العميق للأتروسكيين. ونحو عام 500 ق.م تبدأ روما مرحلة الازدهار كجمهورية ذات جذور لاتينية، وكان يتم السعي لتنظيم الصراع الطبقي العنيف بين باطريسي التي تمثل طبقة النبلاء المعتمدة على البنية الأثنية بشكل خاص و"البلب" التي تمثل طبقة الفقراء الدنيا من خلال مؤسسات الجمهورية المعتمدة على المساومة والتي يمهد هذا الصراع السبيل أمامها. وتم تشكيل مجلس الشيوخ ومجلس الشعب بشكل أقوى وأرسخ عما كان في أثينا، وتم الفصل بين السلطة التنفيذية " **Magistra**" والسلطة القضائية " **Preator**" كما تظهر مؤسسات مشابهة عندما تدعو الحاجة.

اكتسبت المواطنية في روما أهمية كبيرة، وعندما أصبح حق المواطنة

الذي كان مقصوراً في البداية على شعب روما فقط، شاملاً يضم كل سكان شبه الجزيرة، أسفر عن زيادة في مشاكل الجمهورية، وبعد تجاوز تهديد قرطاجة خلال أعوام 264 - 146 ق.م، بدأت مرحلة السيطرة على العالم الهليني تدريجياً، ومع الدخول في القرن الأخير قبل الميلاد كانت الحملات التي قام بها القيصر سزار على وشك الانتهاء، من فتح غاليا "فرنسا" وجنوب ألمانيا وجنوب الجزيرة البريطانية وأسبانيا وشرق بحر الأبيض المتوسط مع الأناضول. وسقطت مصر وتحولت إلى ولاية تابعة وأصبحت بمثابة قلاع الحضارة الأساسية، والعديد من الأراضي العذراء تحت السيطرة الرومانية، وتم الوصول إلى العصر الذهبي للشاعر فيرجيليوس. وحان الوقت لبدء مرحلة الامبراطورية بدلاً عن الجمهورية، وبدء زمن الأباطرة والقادرين، فكانت مرحلة المواطنين من الدرجة الأولى.

إن حكم التاريخ قاطع حول ازدهار الحضارة العبودية في روما وانتشارها وتشكيلها أكبر قوة في تلك المرحلة، ولكنه مازال بعيداً عن شرح العوامل التي أثرت في هذه الفترة باتباع المعايير الموضوعية. ونفس المواقف الميثولوجية المتعصبة والمتطرفة أثناء ولادة الحضارة الإغريقية سارية المفعول بالنسبة للحضارة الرومانية. فما زال طراز "المركزية الذاتية" الذي كان وما زالت الحضارات تتبعه يواصل ادعاءاته هنا أيضاً. وأما الذي يقع على عاتق التاريخ العلمي هو أن يضع المقاييس في مكانها ويقوم بالتفسير الصحيح. وليس صدفة أن يرى الشاعر الكبير فيرجيليوس في ملحمته "**Aines** "، وتأسيس روما في مقاومة طروادة ويعود بها إلى عودة " **Aines**" الذي جاء بعدها إلى إيطاليا. وبذلك يعود بروما إلى جذور الثقافة التي أولدتها. وتأثرت روما بشدة بالثقافة الإغريقية لدرجة أنها تشكل امتدادا لها، لهي حقيقة لا يمكن إنكارها. وفي هذه الحالة فأن تأثرها بالأناضول والفينيقيين والمصريين يكون من الدرجة الثانية. إن الحديث هنا عن إغتذاء غير مباشر عن طريق الحضارة الإغريقية، وحتى إذا كان الوضع كذلك، أنه إذا ألقينا نظرة على الأثر الذي تركه السومريون على الأتروسكيين نجد أن تشكل الحضارة الغربية اكبر حلقة من الانتشار الذي انطلق من منبع الشرق الأوسط لهو أمر صحيح بقدر ذلك. وكما تشكل الامبراطورية الصينية التي تتكئ على المحيط الهندي الحلقة الكبرى في الشرق كذلك تشكل الامبراطورية الرومانية التي تتكئ على المحيط الأطلسي الحلقة الأخيرة في الغرب. وبذلك نجد أن الحضارة الرومانية هي ثالث وآخر اكبر حلقة من الانتشار الذي انطلق من الهلال الذهبي "الخصيب" الذي انجب الحضارة. ولغة تطور وانتشارا الحضارات هي هكذا غالباً.

من المفيد جداً أثناء تحليل الحضارة الرومانية إجراء مقارنة بينها وبين الحضارة السومرية. فعندما كان السومريون أصل البنية الاجتماعية العبودية،

فإن روما هي بمثابة القوة المتممة وأصبحت مناسبة لها، بينما كان السومريون يعدون كافة البنى الفوقية والتحتية لأنظمتهم بفكر ميثولوجي يعتمد على تمثيل النظام السماوي على الأرض وبثقافة المعابد المقدسة للكهنة، تسلحت روما بالثقافة الإغريقية وجسدت جمهورية علمانية وعقلانية، ووضعت الإمبراطور الإله مكان الملك الإله، وكما يعد الإمبراطور سارغون الموديل الأول لجميع الأباطرة، فإنه يعد مصدر الإلهام لأباطرة روما والطابع الأساسي لهم. وبينما كانت الميثولوجيا السومرية أصيلة فأن الميثولوجيا الرومانية نسخة من الدرجة الثالثة عن السومرية. وتحولت ملحمة كلكامش إلى ملحمة **Aines**، ومن الممكن العثور على نقاط تشابه كثيرة للمقارنة، والروابط التي بينها قطعية ومتشابهة، وأما الفروقات والاختلافات فهي ليست في الجوهر، بل عائد لشكل مهد الزمان والمكان السبيل أمامه بشكل طبيعي، وإذا أردنا إجراء تشبيهٍ فظٍ فإن القيم الحضارية التي تدحرجت من سفوح طوروس وزاغروس ككرة ثلجية والتي تدعي الإلهة عشتار "اينانا " بأنها هي "ماءاتها وقوانينها" لتصل إلى سهول ميزوبوتاميا ثم إلى وادي النيل لتكبر وتتعاظم وتتجه إلى الأناضول وعموم الشرق الأوسط ثم إلى شبه الجزيرة الإغريقية لتتعاظم أكثر لتصل إلى شبه الجزيرة الإيطالية لتصل إلى روما عبر جبال الألب الشمالية متعقبة الأثر الذي تعرفه وتعود إلى سابقيها وتستقر في تلال روما بعد أن أصبحت كرة ثلجية هائلة، وبهذا المعنى نجد ان الحضارة تشبه كرة الثلج تكتسب قيماً جديدة في كل مكان تقع فيه وتكبر، وانهيار ثلجي لا يمكن الوقوف أمامه. طبعاً نحن لا نفكر بالتقليل من عظمة الحضارة الرومانية أو التشكيك في جوانبها العريقة، بل على العكس نريد معرفة قيمها أكثر من خلال معرفة الينابيع التي ارتوت منها وذلك بشكل موزون وصحيح. فليس من الممكن أن نقرر بشيء أو نجري تقييم له ما لم نعرفه بشكل صحيح.

لا شك بأن الحضارة الرومانية أصّلت قيماً حضارية هامة وأعطتها هيكليتها العامة وطابعها الخاص، وإذا حاولنا تتبع هذه الخطوط فإننا نجد:

1 ـ لا توجد أصالة على مستوى كبير في البنية الميثولوجية. حيث نرى أن جوبيتر حل محل مردوخ الإله البابلي وزيوس كبير آلهة الإغريق وفي الوقت الذي أخذ ليبرتي مكان ديونيسوس تحولت أفروديت إلى فينوس. وقد تم حمل آلهة الأناضول كيبالا مع كامل معبدها إلى روما. وتتوالى السلسلة وهي تفقد أهميتها، إن الموضوع الذي يجب الإشارة إليه هنا هو أن ميثولوجيا الخلق السومرية الرئيسية بعد عمليات التأصيل والدمج في الزمان والمكان، مع وصولها إلى روما انطفأت أصالتها وعراقتها وفقدت مصداقيتها، وأصبحت الأشكال الجديدة التي اتخذتها عبارة عن قيم رمزية منفصلة يتم احترامها.

وبمعنى آخر بات دين روما عبارة عن خليط ديني أو دين مصطنع، كما في الولايات المتحدة الأمريكية اليوم، حيث تراكم الدين الأساسي في السياسة، واكتسبت السياسة قدسية مثل الدين تماماً. فالمؤسسة التي اكتسبت السمو والمجد ليست هي بدين بالمعنى الكلاسيكي بل هي السياسة، إذ لم تشعر أيديولوجية روما بحاجة للستار الديني، فقد وجدت التعبير عن نفسها بالقيم السياسية بشكل أفضل، وتم وضع خطوة أساسية في اتجاه التحول من الدولة المقدسة إلى الدولة العلمانية وكسب الأرضية اللازمة لذلك.

3- إن الأهم من كل ذلك هو إسهامات تطور المؤسسات السياسية في روما في الحضارة. فبالقدر الذي كانت فيه لأثينا مكانة عريقة في الديمقراطية الطبقية كذلك كان إسهام روما في ترسيخ نظام الجمهورية كشكل نظام اكتسب قيمة القانون الفعال. وفي الأساس فأن كل ديمقراطية ليست بنظام جمهوري ولا كل جمهورية بنظام ديمقراطي، ولا يمكن أن يتم المساواة بينهما. لقد تم إثبات على أمثلة أول مجلس أو بمعنى آخر أهم مؤسسة للديمقراطية الطبقية عند السومريين، ولكن الإسهام الحضاري للرومانيين في هذا المجال يتمثل في كون النظام الروماني عبارة عن نظام حكم يمتلك مؤسسات وقوانين متطورة "ذات مضمون طبقي"، وهو نظام أكثر ديمومة عرف بالانتخابات واعتمد على مضمون طبقي محدود، إنه الشكل الأكثر تطوراً للهيمنة الطبقية. ويمكن أن نقيم ديمقراطية أثنيا بأنها ديمقراطية تقليدية متطورة نوعا ما، واستمرت لفترة قصيرة، وإن الطابع العلماني للجمهورية الرومانية أيضاً تشكل إحدى الخصائص الهامة، فكما لم يشعر الحكام بالحاجة للتستر خلف قناع ديني، كذلك تركوا بينهم وبين كل الأديان مسافة واضحة ونجحوا في تكوين نظام حكم متدين يتمثل في أنهم كانوا يتوافقون مع الدين وحتى أنهم كانوا يمثلونه ما لم يتضارب مع مصالحهم، ويمكن الحديث عن الدين السومري أو المصري أو الأثيني، ولكن من الصعوبة الحديث عن دين روماني.

في هذه النقطة كانت روما أشبه بالولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد الأوربي في يومنا هذا، حيث وصلت إلى التعددية الموجودة في المناطق الحضارية المتطورة. ولكن كلا المثالين مذهلين جداً من زاوية المفهوم الديني والمرحلة السياسية الرومانية. فقد كاد دين ميترا "**mitra**" ذو الأصول"الهندية الآرية" والذي اسهم في تطور الطبقة العسكرية وصل إلى مستوى الدين الرسمي قبل المسيحية ولهذا السبب سمح لمعابد ميترا أن تمتد إلى داخل أوروبا. أما المسيحية فقد استهدف ونكل بها وذلك لانه تضعف البنية العسكرية. ولكن تم تبنيها كدين رسمي في مرحلة الانهيار لأنهم رأوا أنها ستلعب دوراً توحيدياً، ومن المعلوم أنه دائماً يتم أخذ المنفعة الموجودة في علاقات الدولة مع الدين كأساس تاركين الجوهر المبدئي.

3ـ إن أهم إسهام مؤسساتي لروما في التطور الحضاري كان في المجال الحقوقي"القانوني". وكان قانون الأعراف الأكثر تداولاً حتى تلك المرحلة، وكذلك كان قانون المؤسسات والأشخاص الذين في الحكم والذين يعتبرون أنفسهم يمثلون الإرادة الإلهية أو أنهم يمثلونها بشكل فعّال في المجال القانوني، ولم يكن يوجد شيء يدعى "علم القانون" ولم تكن المؤسسات تضع قانوناً، وبمجيء الجمهورية الرومانية أخذت على عاتقها جعل الإدارة الطبقية اكثر فعالية وذلك بالإعلان عن نظام قوانين مكتوبة بشكل رسمي وتطبيقها، فلقد اقتدى الصراع الذي استمر قروناً بين طبقة النبلاء وطبقة الفقراء، إلى الفوضى الاجتماعية المتطورة والمعقدة وإلى ضرورة إيجاد نظام حقوقي، وربما كان هذا قدر روما. ففي البداية اضطرت مدينة روما لهذا التنظيم وبعد ذلك كان لا بد من تعميم هذا النظام على سائر الإمبراطورية، أي أصبح لا بد من العبور بمرحلة تكون فيها القواعد الحقوقية سارية بشكل رسمي، وإن سلام روما "باكس رومانا" التاريخي الشهير يعني بالمعنى الضيق هيمنة النظام الرسمي الذي يعتمد على حقوق وقوانين روما.

يعد القانون الروماني أحد أهم المصادر الأساسية للقانون الحديث. ولا زالت مبادئه سارية بنسبة كبيرة في أيامنا هذه. وسبب ذلك هو أنه قام بمهام اجتماعية هامة جداً. كانت القيمة الحضارية للمجتمعات التي طورت القانون سامية وأكثر ديمومة. فالمجتمع عندما يتطور يصبح في حالة لا يمكن إدارته بالقوانين الدينية والأعراف فقط فلا يكفي نظام الأوامر من قبل الإدارة السياسية من أجل تأسيس النظام وحمايته، الوصول إلى نتيجة جوهرية. ففي حين تكون السياسة بحاجة لصياغة القوانين والأشراف اليومي عليها، فإن الحقوق هي عبارة عن مؤسسة باردة وطويلة الأمد، وتشمل كافة المواطنين والمؤسسات، إنها مؤسسة اكتسبت الديمومة وعليها تم تحقيق الوفاق الأساسي، ويمكن أن نعبر عنها بأنها سياسة أساسية تراكمية ذات قوة تنفيذية، وبهذا المعنى تكون القيمة الحقوقية للجمهورية الرومانية عالية وحضارية.

4 ـ لا ريب في أن روما كانت أكبر قوة من الناحية العسكرية في تلك الفترة، ونكون واقعيين اكثر فيما إذا عبرنا عن أصالتها كقوة وصلت إلى مرحلة حكم ذاتي محدد، بالإضافة لكونها تجاوزت ما حققه البابليون والآشوريون والفرس والمصريون، بمقابل الطبقة السياسية نرى أن الجناح العسكري الذاتي الذي بدأ بشكل خاص مع القيصر سزار بدأ بمحاولة تشكيل ثقل على السياسة. لا شك أنه في مرحلة الكونفدرالية جمع الذين على رأس السلطة المادية والقوة العسكرية "عموماً الرئيس ،الملك أو الإمبراطور" في شخصهم الصفات السياسية والعسكرية والحقوقية وحتى الدينية. إن تاريخ الحضارة بأحد معانيه هو تاريخ تطور هذه المؤسسات وفرزها وحصولها على استقلاليتها الذاتية. إن أكثر

عملية فصل "فرز" تمت في الجمهورية الرومانية "وفيما بعد في الامبراطورية" هي تمايز مراكز الثقل العسكرية والسياسية، وأما الفرز الأساسي في سومر ومصر فقد كان بين الكهنة والملوك، وكلا الشكلين من الفرز حدثا نتيجة لصراع استغرق وقتاً طويلاً وأخذا شكلهما النهائي حسب قوة وأهمية كل مركز. وكل دولة تأسست اتخذت من هذا الفرز أو الوحدة أساساً لها، وبذلك رسخت النظام العملي، أي لم تقم بإبداعه أو خلقه. فالإبداع أو الخلق يعني اختراع الجوهر لأجل تلبية متطلبات مرحلة تاريخية وحاجة اجتماعية، وهذا ما نسميه بعملية الخلق حيث يكمن خلفها صراع طبقي وروحي وذهني متعدد الجوانب.

إن اعتماد روما المركزية وتأسيس فيالق محلية أساساً لها في تنظيم الجيش أكثر من اعتمادها على التكنيك والتقنية العسكرية، يحظى بأهمية كبيرة. كانت العسكرية مهنة دائمة وأصيلة، ولا زال تأثير هذه الميزة مستمر حتى يومنا هذا. إن اكتساب المؤسسة العسكرية تفوقاً في مواجهة القوة الاجتماعية والسياسية مرتبط بشكل وثيق بالبنية الذهنية والروحية لدى روما وتقاليدها في التمأسس. بمعنى أنه كلما أراد عسكري أو جنرال أن يكون بارزاً وحاول أن يضع ثقله على السياسة، كان قريباً من تقاليد روما.

إن أول مثال لهذا الطراز هو سارغون الأكادي وآخر مثال ساطع على ذلك هو "نابليون بونابرت"، ولكن في أيامنا هذه تواصل هذه التقاليد تأثيرها على السياسة كميل قوي وخاصة أنها تستطيع أن تتبنى أدوار وظيفية في مراحل الأزمات، ويطلق بشكل عام على هذا الشكل من الميول السياسية "القيصرية أو البونابارتية ".

5- كذلك لروما دور هام في تحديد مواقع الطبقات الاجتماعية وخاصة في شمول الحقوق لكل طبقة وسريان القوانين عليها، وتوضيح العلائق الموجودة بين المواطنة والطبقية، وحتى في ترتيب الحقوق والمهام بشكل مفصل. لقد أكتسب مصطلح الطبقية موقعه الرسمي بشكل قاطع حتى أنه تم في المرحلة الأخيرة من الامبراطورية إخضاع كل مهنة وطبقة لأنظمة حقوقية مفصلة، ورغم أن الحديث عن حقوق المواطنة ممكن جداً، لكن من الصعوبة الحديث عن اعتراف روما بحقوق الإنسان الأساسية أو تبني هذه الحقوق بشكل رسمي. هيمنت اللغة اللاتينية وأصبحت الإغريقية هي اللغة الثانية، ولا نرصد أي أصالة جديدة فيما يخص التعليم والصحة. وفي ميدان الفكر الفلسفي، رغم أنها حققت تقدماً في مجال الفكر السياسي وفن الخطابة، إلا أنها بقيت مرتبطة أساساً بالفلسفة اليونانية في هذا المجال، حيث حقق كل من الميلين الرواقية **"Stoa "** وأبوقريطسية اللذين تمأسسا، تطوراً واصبح لهما تأثيراً كبيراً، ولكن بالمقارنة مع تأسيس المدارس والإبداع لدى فلاسفة اليونان، نرى أن روما بعيدة جداً عن

الإبداع، والأصح هو أن الإغريق قد لعبوا دورهم ولم يبق لروما إلا أن تلعب دور التلميذ، فقد حافظت الثقافة الهلينية على أهميتها ولعبت دور المصدر الذي يغذي النظام. لقد احتاجت الامبراطورية طوال تاريخها للوفاق والتوازن المتبادل بين التفوق العسكري والسياسي لروما والتفوق الفكري والثقافي للهلينية وتم تطبيق هذا الوفاق وهذا التوازن، ولهذا السبب يكون اطلاق اسم النظام الإغريقي الروماني أكثر واقعية وقرباً للحقيقة.

لقد لعبت المؤسسات والأفكار وأشكال العلاقة القائمة بين القوتين الحضارتين دوراً مشتركاً وطورتا النظام وتقاسمتا الموقع حسب قوة كل منهما، ومن حين لآخر حاولتا تصفية بعضهما البعض، وهذين النظامين الأساسيين يتخذان شكلهما اعتماداً على تقاسم الأدوار بينهما، ويعتبران تغذية بعضهما البعض اساساً.

6- أكسبت المجال الاقتصادي عمقاً واتساعاً، وأكسبت قسماً من أوروبا اقتصادا يعتمد على الأسلوب العبودي، وجعلتها متحضرة، وانتشر استخدام الحديد في الزراعة على نطاق واسع، وكانت الزراعة تعتبر مجالاً للأنشطة الاقتصادية السليمة باعتبارها المهنة الأساسية للطبقة الأرستقراطية. حيث ساد نظام المزارع "**Letifundie**" وتطورت قنوات الري وأحزمتها. أما التجارة والحرف فقد كانت تأتي في المرتبة الثانية وكان ينظر إليها باعتبارها مهن تفتقد للأصالة ولم تكن تتمتع بقيمة عالية، وكان هناك نظام طرق متطور جداً، ونعرف ذلك من المقولة التي تؤكد " كل الطرق تؤدي إلى روما" فلقد لعبت شبكة المواصلات المتطورة - رغم ارتباطها بالأمور العسكرية - دوراً بارزاً في تطوير التجارة. واستمر البحر الأبيض محافظاً على أهميته على الصعيد التجاري كبحيرة تابعة لروما، فصناعة السفن المتطورة أصبحت حرفة متطورة، ورغم ذلك نرى أن مساهمة حضارة روما من الجانب الاقتصادي في الحضارة تبقى محدودة بالمقارنة مع سومر ومصر، فهي لم تحقق تقدماً كبيراً يتعدى قيامها بالتماسسات لما تحقق سابقاً وتنظيمها على صعيد التمأسس، وهي تلعب دور الوسيط في الاقتصاد وإيصال طبقة العبيد الزراعية "**latifundia**" إلى شمولية كبيرة، حيث وصل جهد العبيد إلى الذروة. أما في المدن فقد تشكلت طبقة اجتماعية تشبه الطبقة العاملة والتي يقال عنها البروليتاريا لأول مرة. وفي الحقيقة فإن كل من أثينا وروما تشكلان نموذجين من التمدن المعاصر اللذين تكونا على أساس النظام الرأسمالي، حيث لهما أسواق ومتاجر ومسارح وحلبات وأكاديميات ومعابد وقصور المجالس وتقدمتا في هذا المجال وفق ترتيبات سومر ومصر. وتمتاز هذه المدن التي اعتمدت على فن معماري رائع حتى إذا نظرنا إلى الأطلال المتبقية منها إلى يومنا هذا بتأثير ساحر. فمثلما تعد سومر أول من أسست دولة المدينة، فإن المدينة نفسها هي عبارة عن نظام استقرار مؤسساتي

خاص لدى أثينا وروما. أما في النماذج الأولى للمصريين والسومريين، فإننا نجد المعابد وقصور الملوك ومن حولها المقرات والإدارات ومراكز العبادة حسب تقسيم العمل لتقوم بأدوارها وتضم الحرفيين والعبيد بمقدار ما تحتاجها هذه المراكز، فالمراكز التي يتجاوز عدد سكانها العشر آلاف ضئيل جداً، وهذا الوضع مرتبط بعدم تطور الطبقة الوسطى وعدم استقلاليتها، بينما المدينة في الأساس يجب أن تتطور كمركز سكاني للحرفيين والتجار.

تأسست المدينة في أعوام 3000 - 2000 ق.م، وانتشرت في 2000 - 1000 ق.م، ونموذج المدينة "الإغريقية الرومانية " تظهر في هذه المرحلة، وبعدها تكبر وتتمأسس وتكسب أهمية بعد الألفية الأولى قبل الميلاد، وتحقق التفوق على النظام القروي السكاني المعتمد على الزراعة في المرحلة الإغريقية الرومانية. فحتى أعوام الألفين قبل الميلاد كان العالم يحيا في بحر من القرى والتجمعات ضمن نظام متمدن تكوّن من بعض الجزر. أما مرحلة تفوق المدن فتبدأ اعتبارا من 500 ق.م لتكسب الهيمنة الساحقة في يومنا هذا، وإن كان الاسم الآخر للحضارة هي المدنية بالعربية: نظام المدينة، فإن المدينة والمدنية تعدان من منطلق المشاكل الأساسية التي مهدتا السبيل أمامها، المصدر الأساسي لحياة النظام الذي شكل أكبر تهديد للحضارة، وفي الوقت نفسه مصدراً أساسياً للمجتمع، وإن أصبحت المدينة اسما ورمزاً للحضارة، ألا انها أصبحت في الوقت ذاته مصدراً لتآكل أساس الحضارة، فأكثر من ان تكون تمركزاً سكانياً كبيراً هي قضية اجتماعية تتطلب إجراء تحليل عميق لها، والاحتمال الأكبر أنها تحولت إلى منبع قوي للأمراض ليس على صعيد تلوث البيئة وحسب، بل لكل الأشكال التي تتناقض مع مجرى الحياة الطبيعية التي تأتي ترابطاً مع التمدن. ففي التقييمات التي أجريت بشكل عام تم اتخاذ المدينة مقياساً للتقدم، وسيتم تناول ذلك بشكل أوسع في الفصل المتعلق بها، ولكنني أستطيع أن أوضح بهذه المناسبة بأن التمدن هي قضية يجب تحليلها مع الحضارة.

7- مساهمة حضارة روما في مجال الفنون والعلم بقيت محدودة في عدة مجالات، وخاصة انها شهدت اكبر تطوراً في فن العمارة بعد مصر. ومن الممكن هنا أن نتحدث عن فن الهندسة وفن العمارة. ولن نغالي ان قلنا أن هذا الفن وصل إلى مرحلة عظيمة، بعد أن أعتمد على الطراز المصري والإغريقي، وهي مدينة في ذلك لطبقة العبيد، فبدون الجهد الذي بذله العبيد لما تم إنجاز الأهرامات المصرية ولا الإنجازات "الإغريقية الرومانية " التي تمثل قيماً معماريةً راقية. إذ مارست أقسى الممارسات اللا إنسانية من قبل فئة على شريحة من بني الإنسان، حيث ظهرت هذه الممارسة في تحقيق هذه الإنجازات المعمارية الشامخة على الأغلب.

إن المسارح والحلبة والمعبد والآغورة وقصور الإداريين الهامين والأبنية الأخرى التي تأخذ مكانها في مركز معمارية المدينة، تشكل دلائل حية على التاريخ المعاش، وإننا مدينون للفن المعماري في تلك الفترة، هذا الفن الذي يأخذ أحاسيسنا تحت تأثيره وكأن تلك الأوابد موجودات حية لا يمكن الوصول إليها، ومن الصعوبة بمكان أن يكون لأي شيء نفس التأثير الذي تتركه هذه الأوابد المعمارية المتبقية من المرحلة العبودية، وأمام هذه الحقيقة الساحرة أعتقد بأنه بقدر ما قام العبيد بإنجاز هذه الأعمال بشكل جماعي وبلا حدود، فإنه تم استخدام عمله بلا أدنى رحمة، إن الذي يخلق هذا الإحساس بالفخامة والقشعريرة هو هذا الكد والأسلوب الذي تم في استخدام هذا الجهد، ومن الممكن رؤية هذه الفخامة في الجسور والقناطر والمقابر والقلاع والأسوار ايضاً، لقد كانت الحضارة الرومانية فعلاً في ذروة ازدهارها وهي تبدع عمارتها العريقة التي وصلت إلى التركيب القوي المعتمد على دراسة كل هذه النماذج المعمارية التي أنجزت في مرحلة العبودية، إن كل ما يمكن أن يعطى للعبيد الحقوق "طبعاً لا يوجد حق للعبيد، ولكننا نستخدم تعبيره" قامت روما بواجبها حول هذه الحقوق، وفي العمارة كما في كل المؤسسات فإن هذه النقطة ذات تعبير واضح لذلك.

أما في فن النحت فقد كانوا أشبه ما يكونون امتدادا للإغريق، ومن الصعوبة أن نتحدث عن أصالة متميزة، وأما في الموسيقى فقد كان لهم خصوصيتهم على صعيد الأناشيد العسكرية وأغاني النصر، ومن الممكن أن نتحدث عن موديل زي خاص بروما، فقد كانت أصالة روما تتبختر حتى من خلال ارتداء الزي، ولكن من الواضح أنهم أخذوا عن الشرقيين كل شيء في هذا المجال. إن أثر الهلينية واضح في الفنون الأدبية، فقد تأثر الشاعر "فيرجيليوس" بملحمة الإلياذة لهوميروس، وكتب ملحمة **Aieneas** التي تروي تأسيس روما لذكر أغسطس الكبير، ومع ذلك فهي من الكلاسيكيات الأدبية القيمة، كما تطور فن المسرح، واكتسبت الخطابة أهمية عظيمة وتمأسست، وأنا على قناعة بأن أسلوب التعبير المسيطر والمذهل للغة الإيطالية في أيامنا هذه مرتبط بقوة الخطابة في تلك الفترة، طبعاً توجد وراء هذه الخطابة إرادة قوة مسيطرة على العالم، وعندما يصل أقوى المهيمنين إلى أقوى وأبلغ لغة فسيكون نصيب العبيد لغة "إيزوب" **IZOP** الملعونة وغير المفهومة، عندما أفكر بالعلاقة القوية بين القوة والحرية من جهة والسيطرة اللغوية والحديث الجميل من جهة أخرى، فإن أول ما يخطر ببالي هو الأحاديث الخطابية للطبقة المهيمنة في روما، ويأتي العرب والأسبان والإيرانيون في الدرجة الثانية من حيث تطويرهم للغة، ويجب أن ندرك أن فيرجيليوس سواء من حيث الطابع أو من حيث اللغة هو تعبير لهذه الفخامة والأصالة، رغم أن حضارة روما لم تشهد أي اكتشاف في المجال العلمي، الا انها أعطت اهمية لتطبيق أعظمي لما هو معلوم.

إن النتيجة الأساسية التي يمكن استخلاصها من هذه التقييمات التي أخذت طابع التعريف هي: كان موقع روما الكلاسيكي في تاريخ حضارة العبيد في الذروة التي تسبق الانهيار. لقد كانت روما تدرس كافة القيم الجوهرية الموجودة ضمن نظام العبيد حسب أهمية كل منها، وتجمعها وتحولها إلى مؤسسات دولة بشكل أعظمي، وكانت تدرك تماماً إنه في الوقت الذي كانت المجتمعات النيوليثية مشحونة بالصعوبات الجمة، فإلى جانبها كانت تتبرعم القيم الحضارية التي تستند الى تغذية ميراث عبودي يمتد الى ثلاثة آلاف عام على الأقل، وهذا يعني أن هذا "العصر الذهبي" كان حلماً بالنسبة للتجمعات الأثنية اللاتينية، فقد كانت ثقافة وقوة العديد من الحضارات الكبيرة والصغيرة من سومر إلى مصر ومن البارثيين إلى الإغريق تتوجه نحو تركيبية باسم "الحضارة الرومانية"، وكانت تقف وجهاً لوجه أمام تمأسس وتأصيل على أعلى المستويات، ويعد هذا في الوقت ذاته من حسن طالع روما.

تتولد فرص تاريخية كهذه في التاريخ، فإن تم استغلالها بشكل جيد فأنها ستؤدي إلى تطورات من شأنها أن تدون في التاريخ، ففرصة السومريين تتمثل في ثورة القرية التي تطورت عند منابع دجلة والفرات، وأما إسهامهم الذاتي فقد تمثل في خلق ثورة المدن ونظام الحضارة، ونفس الفرصة تتوفر للمصريين في وادي النيل وتوفر الفرصة للصينيين في وادي النهر الأصفر وللحضارة الهندية في وادي البنجاب والهندوس ليمثل كل ذلك حلقات كبيرة في سلسلة الفرص، فيا ليت الفرصة تتوفر للتحدث عنها، لنفكر فقط بهؤلاء، فبأي جهد ساحر للأبطال المجهولين وأي جهود عظيمة بذلها الإنسان تقف وراء هذه الإنجازات التي أتت على شكل فرص..؟ ليتنا استطعنا فهم ذلك..! كيف أسست تلك الميثولوجيات الفخمة وكيف تأسست تلك الجنان على الأرض اعتماداً على هذه الجهود..؟ لو أعطيت تلك الجهود حقها..! ولو تشرح الآلام التي خلقت مصطلح جهنم كما خلقت دنيا الأحلام الكبيرة، لربما تحققت العدالة بعض الشيء ولو على صعيد النطق بالحقيقة.

يعد الإغريق أول قوم غربي أدركوا فرصة الحضارة من أربعة فروع مبكراً، فجسدوا بشهية كبيرة كل الذي كان يأتيهم من الشرق ومثلوه، وبتطويره على أعلى المستويات أصبحوا قوة للحضارة ليحققوا ميلادهم، ومن الممكن تتبع ذلك بشوق عظيم من خلال حوار الأرباب الذي تطور بجانب زيوس كبير الآلهة، إن ما يريدون إيضاحه في هذه الميثولوجيا هي قصة وصول النبلاء الذين انشقوا عن المجموعات الأثنية الإغريقية إلى طبقة مهيمنة وتجسيدهم للقيم الحضارية ذات المصدر الشرق الأوسطي، تم سرد هذه القصة شعراً وأصبحت ملحمة، وبات اسم الإلياذة والأوديسة، وسميت علم الآلهة بـ تيولوجيا، وتحركت القوى العقلية لديهم معتمدة على هذا الأساس لتصل إلى الفلسفة.

لقد لعب الإغريق دور المهد العريق بالنسبة للحضارة الأوروبية بشكل جيد، وربوا طفلهم بطريقة صحيحة، ومن أينما نظرنا إلى الموضوع سنجد أن التزاوج مع الشرق كان خصبا ومثمراً والطفل الذي ولد من هذا التزاوج أخذ شكل "اسكندر" الذي لم يأت زواجه من "سمير أميس" في بابل عبثاً، إن هذا الزواج كان رمزياً وحقيقياً يماثل تزاوج الحضارتين حيث أسفر عن مولود سمي "الهلينية"، وهذا يمثل أول تمازج بين الغرب والشرق، ويقال بأن اسكندر قد قام بتزويج عشرين ألف من جنوده مع النساء المحليات في ميزوبوتاميا، وهكذا تتمازج الثقافات وتولد تركيبتها، ونعرف جيداً أنه عندما قام إله السومريين الماكر أي الممثل الرمزي لطبقة النبلاء" أنكي" بنفس الزواج المثيولوجي مع ربة الجبل "نينهورساغ" فكان المولود هو الحضارة السومرية، ونعرف أيضاً أن ملكة الجبل إنانة عندما قالت أعد إلي "ماءاتي المقدسة" كانت المرأة مبدعة الثورة الزراعية في العصر النيوليثي تطالب بحقها وقيمها الخلاقة وأدوات الحضارة التي سلبت منها، وكما نستطيع أن نكتب التاريخ بشكل صحيح إذا ما قمنا بالتحليل الصحيح للغة الميثولوجية، فإذا شعرنا بشكل جيد بجوهره الشاعري الساحر فأننا سنتعلم آلامه وسروره فيه، وعندما ينبت التاريخ على هذا النحو بعد فرض التعتيم عليه لآلاف السنين فإننا سنرى بجانبنا شجرة لها جذور سليمة ومستمرة في عطاءها المثمر.

عندما أنتهزت روما هذه الفرصة عاشت خصوبة شجرة الحضارة وأصبحت تنتظر ثمارها. وراحت روما بكل غضب تجني الثمار من خلال ضرب الشجرة حتى تصدعت شجرتنا من جزعها وانهارت ولم تورق بعد ذلك.

بقدر النجاح الكبير لحضارة روما، يجب ألا نندهش كثيراً أمام الحقيقة الأساسية - إذا استطعنا ان نحلل النظام مثلما نريد ان نجعله مفهوماً بهذه المقاييس الفظة - التي تقبع خلف هذا الانهيار بشكل غير منتظر، وكما في الطبيعة فإن كل موجود في المجتمع سيستخدم كل طاقاته حسب قانون الديالكتيك كي يجعل حياته ممكنة، وحسب هذه القاعدة التي وضعت بصيغة وحدة الأضداد تستمر الجوانب المتناقضة بالصراع حتى تتولد نتيجة بواسطة تركيب عالي المستوى. إن ما عالجته روما هو سريانها على كل مجتمع هام متخلف قياساً بالنظام وتغييره، لقد تميزت علاقات الهيمنة التي أقامها نظام العبيد مع الجوانب الاجتماعية المتخلفة بتصفية هذه الجوانب في النظام ومواصلة حياتها تحت قوالب جديدة عن طريق تمأسسها حسب قوالب فكرية وروحية جديدة، ويمكن أن نشبه روما بهذا المعنى بطاحونة ضخمة، وضعت كل المجتمعات الإنسانية التي استطاعت الوصول إليها وحولتها بتمريرها من هذه الطاحونة إلى أشباه لها، وهذا ما يشبه ظاهرة العولمة التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية في يومنا هذا.

من المعلوم لا شيء يفنى في الطبيعة، فإن كل شيء ما يحدث هو تحول وتبدل، والنظرة الميتافيزيقية هي أما أن ترى هذا المسار مستحيلاً أو تفهمه على أنه شكل من أشكال الفناء، وهذه البنية المنطقية خطيرة إلى أبعد حد، فأثناء تقييم الحضارات يجب أن نأخذ قانون التحول والتبدل هذا بعين الاعتبار دائماً. إن عملية تبدل وتحول روما لا تسير على بنى العصر النيوليثي لأوروبا التي تم إدخالها إلى النظام لأول مرة فحسب، بل تواصل تأثيرها على البنى القديمة التي تم احتواءها في الحضارة من قبل والتي لم تستنفذ طاقاتها، وهنا تكمن عظمتها وشموليتها. لقد استطاع السومريون والمصريون والحثيون والإغريق وكثير من الحضارات الأدنى، أن يحققوا ميلادهم وتطورهم في ساحاتهم، واستطاعوا أن ينتشروا عبر موجات محدودة، ولهذا بقيت مساهماتهم ضيقة ولم تحقق ميلاداً عميقاً وبقوا محدودين بعصور تطورهم. والوقت كان مبكراً للانهيار، حيث كان سيتم وضع العديد من التطورات الجديدة في السنين القادمة.

لا شك بأن كل الحضارات ابتداءً من المدن الأولى وحتى التجمعات الأكثر كوزموبوليتية تمتاز بجانب كوني على صعيد الطموح، ولكن إنجازاتها التي تحققت بقيت محدودة، وربما يعتقد سارغون نفسه إلهاً للكون، ولكن الخطوات التي أقدم عليها بقيت محدودة، في حين أن البابليين والآشوريين خطو خطوات كبيرة، إلا أنهم لم يستطيعوا التحكم في جغرافية الشرق الأوسط بالكامل، ولم يستطيعوا أبداً أن يتجاوزوا عراقة السومريين من ناحية المضمون. وكثير من الدويلات الأخرى لم تستطع تجاوز أداء دور إمارة تقع في أقصى النظام. تعد تجربة الاسكندر في التركيب الشرقي ـ الغربي تجربةً أكثر عالمية، وكانت مساهماتها عميقة وأكثر ديمومة. وأما نظام حضارة روما، ففي الوقت الذي كانت يزهر فيه بواسطة تجسيده لكل هذه الخطوات الحضارية التي سبقته، استولى على الأراضي الأوروبية العذراء ونجح في تشكيل النموذج الأقرب للإمبراطورية الكونية في عصره. فكما يتم اليوم التحدث عن الآثار الثقافية الحياتية للولايات المتحدة الأمريكية، فإن إمبراطورية روما عاشت هذا الوضع وجسدته على مدى قرون طويلة، وكل القوى المهيمنة في النظام العبودي تعتبر العيش وفق نموذج روما من ضرورات الأصالة والحضارة، وعدا الصين والهند اللتين بقيتا على شكل جزيرتين منغلقتين على نفسيهما ولا زالتا كذلك، فإن باكس رومانا (أي نظام سلام روما) أصبح نظاماً عالمياً. لقد استطاعت الحضارة الرومانية خلال عمرها الذي استمر 1000عام أن تتحول إلى مؤسسات كأحسن ما يستطيع أن يقوم به أي نظام سياسي أو اجتماعي وذلك في إطار منطقها وضمن نطاق القيم التي كانت قائمة عليها، واستطاعت أن تنجز فتوحات كأحسن ما تستطيع أن تنجزه، وعاشت كأحسن ما تستطيع أن تعيش، إنها حقيقة تاريخية

لا مثيل لها بعد.

هذه الحقيقة بقيت اسمها كـ روما، وأن الأباطرة الذين انحدروا من التجمعات الأثنية في مراحلها الأخيرة والمكاسب الكبيرة التي حققتها المناطق وتجارب التشتت في مرحلة كان يعتقد بأنها مرحلة الوحدة وكلها كانت مؤشرات على انتقال الصراع الداخلي إلى أعلى مستوى. إن وضع قوة إقناع فن الحياة التي في مستوى متقدم كانت وراء فخامتها وعظمتها وعمرها المديد، فهي لم تكن شوفينية بل كوزموبوليتية، وإن كل قوة كانت ترغب بالعيش في الطبقة العليا النبيلة وبوعي ان هذا العيش يكون مثالياً في نظام روما فقط، وتزيد من اهتمامها به وهكذا تقدم المساهمة لقوتها وعمرها. بينما كان دور الإرغام والعنف بعيداً عن أن يكون بارزاً بعكس ما يعتقد. بينما الآشوريون والفرس طبقوا مبدأ الإكراه بشكل منتظم، ولكنهم لم يستطيعوا إظهار نفس الديمومة والتأثير ولم يتجاوزوا المحلية كثيراً، والسلالات الحاكمة شكلت العمود الفقري لتمأسس أنظمتهم وهذا ما سبب الضيق لهم منذ البداية، بينما مؤسسات روما لم تتأسس حسب السلالة أو الدين أو الاختلافات الأثنية منذ البداية بل حسب قوة المساهمة في النظام، وهذا يمثل مؤسسات تتغذى على الواقعية والجهود الخلاقة والخبرات والقوة، فإذا منحت الأشخاص والمؤسسات حقوقهم الكاملة فإن النظام سيتعزز ويطول عمره، وإذا فقدت هذه المزايا فإن أرضيته التي تشبه الموزاييك بطبيعتها ستؤدي إلى تعطيل التوازن القائم بين مؤسساته وتتسبب في التمزق والتشتت.

وبالنتيجة نرى أن الأسرار الكامنة في حضارة روما وعظمتها وطول عمرها هي عصرية مؤسساتها وانفتاحها على كل أشكال التطور وامتلاكها الفلسفة تمنح أوسع أشكال الحكم الذاتي لكل الكيانات الاجتماعية السابقة لها بنسبة التكامل معها، وإيصالها لهذه الذهنية والتمأسس الى تعبير قانوني قطعي واتخاذها دوراً في النظام وسموها، وربط كل ذلك بقوة انتصار الحرب والجهود. وعندما ننظر إلى أسباب تآكل وانهيار النظام الروماني، فإن تعريف دور الامبراطورية البارثية في الطرف الآخر للنظام وتقييمها بشمولية سيكون افضل عبرة للتعليم.

3 ـ ظهور ميديا ـ الفرس، ومفترق الطرق بين الشرق والغرب

ستظهر إنتاجية القوس "مركز الهلال الخصيب" الذي يلتقي فيه سلسلة زاغروس ـ طوروس والذي أدى الى نشوء الحضارة، هذه المرة في نقل مركز الحضارة إلى خارج ميزوبوتاميا، وكان مركز الحضارة في مراحل سومر ـ

بابل ـ آشور التي تطورت على التوالي، بين دجلة والفرات دائماً، وإذا أضفنا إلى ذلك نضج ثورة العصر النيوليثي ومرحلة التمأسس فإننا سنجد ان القيم التي وجهت الحضارة اعتبارا من 6000 ق .م وحتى سقوط آشور مع نهاية 600 ق.م قد خرجت من المنطقة، لذا ليس من العبث القول بأن هذه المنطقة هي مهد ميلاد الإنسانية.

يتم دراسة تاريخ الإنسانية عبر ثلاثة مراحل: عصر الزراعة ـ القرية "10000ـ 3000 " ق.م. عصر الحضر ـ المدينة "3000ق .م - 1950 "م. ومرحلتنا الراهنة التي لم يتم تسميتها بعد، فالبعض يسميها بعصر الذرة، والبعض الآخر بعصر الإلكترون، وآخرون يسمونها بعصر الانترنيت، وآخرون بعصر المعلوماتية والاتصالات، وبعضهم يسمونها بعصر ما بعد الحداثة، وآخرون يصفونها بعصر ما بعد الحضارة.

لعبت ميزوبوتاميا في هذا التقسيم الفج للمراحل دوراً ريادياً في الإبداع استمر حوالي 10000سنة. لقد جرى التاريخ الذي يشبه تدفق النهر في خمس أو ست مناطق، وهناك قناعة علمية يمكن إثباتها وهي أن العوامل التي أعطت منحاً للتاريخ مثل الفكر والعقائد والاختراعات وما نجم عنها من تراكم علمي، جعل من هذه المنطقة خزينة في تلك المرحلة.

يتم التعبير في أيامنا هذه عن عدم الاعتراف بهذا الدور الكبير لثقافة المنطقة وهذا الدور العظيم الذي لعبته، ومهما مد نظام ما جذوره ومهما عاش من السنين فأنه بشكل عام لن يسمح لتكوينات نظام مضاد له بالنمو فوق هذه الجذور، إذ سينمو النظام الجديد في تربة عذراء، وتوجد العديد من الأدلة في التاريخ تثبت صحة هذه القاعدة، فعندما تكونت الحضارة "الإغريقية الرومانية" كانت الجغرافيا والثقافة تعيشان في مرحلة عذراء، وقد تحققت الحضارة الرأسمالية في مراكز أوروبا الوسطى وعلى شواطئ الأطلسي التي لم تكد تمسها يد الحضارة، حتى ان ما بعد الحداثة أيضاً لم تتطور في أوروبا بل تطورت في العالم الجديد في الولايات المتحدة الأمريكية، وثمة قانون رئيسي كهذا في التطور الحضاري، وهو موضوع يستحق التحليل بطريقة أكثر عمقاً، وإن المراكز الأقدم في العالم "الهلال الخصيب ـ سومر ـ مصر" تعد الآن المناطق الأكثر تألماً في العالم فلا تستطيع التلاؤم مع جذورها التاريخية، ودخلت في دوامة الصراعات العقيمة، ولا يستطع التاريخ المعاصر تطعيم الجذر بأي شكل من الأشكال، إن صانعي التاريخ في أيامنا هذه عقيمون لا قوة لهم وليست لهم آمال سوى الهجرة، كما جعلوا من أنفسهم كارثة، وتعتبر هذه من المواضيع الأساسية التي تحتاج لتحليل حضاري أساسي.

إن انزلاق مراكز الحضارة إلى خارج ميزوبوتاميا يعطي أهمية كبيرة

لموقف يساهم في التناول الصحيح للمشاكل التي تحتاج للحل العاجل في أيامنا هذه، مثل مشاكل المراكز والبيئة التي أصبحت قضية عملية على المستوى العالمي. إذ لا يمكن اقتصار قضية العولمة والمناهضين لها على بعض القوانين الاقتصادية البسيطة، فإذا لم يقم نظام العولمة القائم بوضع أرضية للتدفق الثقافي والتاريخي فإن عاقبته ستكون كعاقبة الاشتراكية المشيدة، ولن يتم وضع مواقف واقعية نحو الأسباب الأساسية التي أدت إلى العجز التطبيقي للاشتراكية العلمية التي كانت تعتمد على ميراث مائتي سنة، كما لن يتم تجاوز الجمود القائم.

بدأت علاقات الأطراف للحضارة السومرية بإعطاء منتجاتها المضادة اعتبارا من عام 2000 ق.م. فبينما كانت الحضارة المصرية التي تشبه المستوطنات المنفصلة تتأصل كنتيجة للجغرافيا البيئية المناسبة وتواصل سيرها على طريقها، تأسست في الشرق حضارة هارابا وموهانجادارو في وادي الهندوس والبنجاب، ومن الملاحظ أن هاتين الحضارتين لا تحققان الاستمرارية التي تحققت في مصر، فالخطورة الحقيقية التي عانت منها الحضارة السومرية سواء على مستوى المركز أو على مستوى المستوطنات كانت نابعة من قبائل العموريين في الصحراء العربية في الغرب، والهوريين "سكان البلاد المرتفعة" من الشمال والشرق، ومن المعروف إن الهوريين كانوا مزارعين ـ فلاحين، بينما العموريين فقد كانوا رعاة و بدو رحل، وفي الوقت الذي كان فيه السومريون يطورون أنظمتهم الدفاعية حول المدن ضد هجوم وتهديد القبائل من جانب، كانوا يستخدمون الأيدي الرخيصة والعبيد لتأسيس البنية التحتية والاقتصادية من جانب آخر، حيث جعلوا من ذلك سياسة لهم، ومع تطور الاستيطان تحقق تطور كثيف على صعيد التجارة وهذا أمر مهم. فمنذ البداية لعبت العلاقات التجارية دوراً مهماً، كما ان تزايد الحاجات المتبادلة جلبت معها اللجوء إلى القوة والعنف بنسبة متزايدة وهذا هو الجانب الذي يجب علينا معرفته أيضاً. وبالاقتراب من الألفية الثانية ق.م تكاثفت الهجمات القادمة من الأطراف، وبالمقابل تم العبور إلى نظام سياسي إمبريالي بدأت بسارغون الأكادي بشكل خاص، ولأول مرة في تاريخ الحضارة تصبح سياسة العنف المنظم والمخطط له والتي تعني الاحتلال والنهب، وسيلة للدولة لا يمكن الاستغناء عنها، وعندما تمكن خصوم هذه الإمبريالية من الحصول على التفوق التقني الذي كانت تستخدمه، بدأت مرحلة جديدة من الدفاع والهجوم المتبادل، ومن المؤكد أنه بهذه الطريقة تم وضع الأساس التاريخي لاستعمال الأسلحة ضد الإمبريالية نفسها. وكان هذا في الوقت نفسه بداية لمرحلة من الألم والمجازر والسلب والاحتلال وإراقة الدماء، وما كان يجب البدء بها في تاريخ الإنسانية.

مع اكتساب علاقة المركز ـ الأطراف لهذه الخاصية فانه نتج عن التمايز الطبقي الذي أدى شيئاً فشيئاً إلى تصعيد القوة والعنف في البنية الداخلية

للمجتمع المركزي، وضغط البنى الأثنية الخارجية وتطور الوعي الأثني. وبينما يبدأ العنف والقمع المنظم الذي في الداخل بمرحلة الصراع الطبقي، يأخذ النضال التحرري للمجتمع الأثني ضد الإمبريالية والاستعمار في الخارج مكانة في التاريخ باعتباره ميزة متناقضة لا يمكن للحضارة الاستغناء عنها، وبهذا المعنى تتحول قوانين المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية إلى قوانين لتقدم المجتمع، وتعد هذه القوانين هي الأساس الذي انطلقت منه الماركسية لتحليل مرحلة الحضارة الرأسمالية. برأيي انه خطأ في الأسلوب وبقدر نقصه سيؤدي إلى نتائج وأخطاء وخيمة، ولأنه لم يتم تحليل الحقيقة في الزمان والمكان الذي تكونت فيه وبخصائص طابعها، لذا فإن تتبعها لخطى الحقيقة الإيديولوجية - التطبيقية المهيمنة التي تكونت بشكل قوي عبر التاريخ من كلا الناحيتين النظرية - الإيديولوجية والممارسة - السياسية، كان هو الاحتمال الأرجح. فلو تطورت تحليلات الحضارة عن طريق أخذ مبادئها وأسسها من المجتمع الذي تكون في البداية بالإضافة إلى آخر مجتمع تم تكوينه، ولو تم الحصول على النتائج بعد عقد مقارنة متبادلة لكانت اقتربت من الحل بطريقة أكثر واقعية، ولا شك ان التراكم الفلسفي والمعلوماتي كان ضحلاً في مرحلة الولادة الاشتراكية العلمية لذا كان لابد من إخضاع الماركسية لترتيب محكم جديد وذلك بالاعتماد على النتائج الغنية للتراكم المعلوماتي والفلسفي وعلى الممارسة السياسية والاجتماعية واعتبار كل ذلك من متطلبات المسؤولية. وخاصة إذا نظرنا الى الواقع الذي عاشته الاشتراكية المشيدة وإلى النظام الرأسمالي الذي تجذرت في أعماقه مأزق العولمة، فإنه يتيح لهم فرص هامة لتثمين مواقفهم الانتقادية ويكونوا واقعيين في تحليلاتهم.

ويشاهد اعتباراً من نهاية 2000 ق.م ضغط الأطراف بشكل مكثف على مراكز الحضارة السومرية والمصرية. ونشهد الآن في القرن العشرين وفي الألفية الثانية الظواهر ذاتها حول مراكز الحضارة الرأسمالية سواء أكانت على شكل حركات تحرر وطنية أو على شكل هجرات إلى تلك المراكز.

في الوقت الذي كانت فيه المجموعات الأثنية ذات الأصل السامي تلعب دوراً تاريخياً تحت راية الأديان التوحيدية عن طريق التحولات المركزية المكثفة، فقد فتحت المجموعات الأثنية ذات الأصل الآري الطريق أمام الانشطار الحضاري الذي أدى الى الفصل بين الشرق والغرب، والمجموعات التي تجمعت تحت اسم الهوريين، اكتسبت حركة انتشار تاريخية داخل المركز وخارجه. أما المجموعات الآرية الأكثر اتساعاً التي تعود للعصر النيوليثي والمعتمدة على هؤلاء، فقد فتحت الطريق إلى أعمق وأوسع التحركات في التاريخ وهو ما نسميه "التحضر الهندو أوروبي".

كانت سلسلة زاغروس ـ طوروس هي الجغرافيا الأصلية التي تعمقت فيها هذه التحركات من جديد، وتحقق فيها هذا انشطار والتفرع، ولكن الانتشار يشهد تطورات هامة في اتجاهه ومضمونه. ففي الوقت الذي كانت فيه العلاقات المكثفة مع السومريين تفتح الطريق أمام منطق العنف الإمبريالي الاستعماري من جهة، من جهة أخرى كانت المقاومة ضد هذه الظاهرة تجبر على التبدل الذي يعتمد على تبني واستخدام أسلحة الحضارة، وكما أنه لولا التحضر لما كان باستطاعة القديم في تلك المرحلة التاريخية أن يشهد النجاح ببناه الأثنية، كذلك لم يكن بالإمكان النجاة من تهديد الفناء. إن استخدام الهوريين وبشكل أوسع كافة المجموعات الآرية بشكل عام للفرصة التاريخية وحفاظهم على وجودهم، مرتبط أشد الارتباط بعملية التحضر، أي بالأجوبة التي قدموها لظاهرة المجتمع الطبقي وذلك عن طريق فك الروابط الأثنية.

وأما الأجوبة التي قدمها العموريون ـ الساميون فقد تمثلت بالإمبراطوريات التاريخية الأكادية والبابلية والآشورية التي تأسست في المراكز السومرية، والأجوبة التي قدمها العبريون والكنعانيون الموجودون في الغرب والذين يعتمدون على لهجة سامية أخرى فقد كانت دويلات مدن صغيرة مثل فينيقيا وعبراني وممالك الأوغاريت.

فمن جهتها قدمت المجموعات الآرية الموجودة في الأناضول جواباً متمثلاً بإمبراطورية الحثيين التي تصاعدت في أعوام 2000 ق.م، ولقد لعبت دويلة طروادة الموجودة في أقصى غرب هذه الامبراطورية دوراً هاماً في عملية نقل الحضارة إلى أوروبا، وإن المعنى الآخر للتشكل اللاتيني المعتمد (ليس المعتمد على الأثنية بل على تأثيرات نقل الحضارة) على الهلينية في شبه الجزيرة الإغريقية والاتروسك في شبه الجزيرة الإيطالية، هو خروج المجتمع من البنية الأثنية وانتقاله إلى البنية الطبقية للمجتمع والذي هو عبارة عن عملية التحول إلى الحضارة الإغريقية الرومانية. ومن أجل استيعاب ومعرفة خاصية هذا التحول لابد من فهم عملية التفرع التي حدثت في سلسلة زاغروس ـ طوروس، لكن من الصعوبة إحراز أي تقدم في هذا الموضوع دون تصحيح أسلوب هذا الموقف التاريخي السائد، والذي يقول: " لقد أنطلق الآريون ذوو اللون الأشقر والعيون الزرقاء من هضاب جنوب روسيا وأوربا ثم تدفقوا إلى النجود الشمالية لإيران عام 2000 ق.م ومنها إلى الهند وميديا والأناضول" إن هذه المقارنة خاطئة كلياً وهي عبارة عن نظرة عرقية تم إعدادها بهدف استخدامها كآلة للآمال الفاشية الألمانية بالانتشار. والحقيقة عكس ذلك وخلافها تماماً، فقبل كل شيء ليست هناك هجرة جماعية بهذا الكم في التاريخ، حتى ولو كانت هناك هجرة فهي ليست بالكم الذي يسفر عن هكذا نتيجة، ويصح الشيء نفسه بالنسبة للهجرات التي توصف بأنها كبيرة، والأصح هو أن الانتشار تحقق

اعتماداً على ظاهرة تراكم الثقافات القوية أكثر من أن تكون بالهجرات الفيزيائية. تظهر الظواهر الثقافية التي تتضمن غنىً وتفوقاً بالنسبة لثقافات الأطراف الموجودة في بنيتها، خاصية الانتشار بشكل مستمر، ويمكن أن تشن المجموعات الاجتماعية ذات الثقافات الواهنة من حيث المضمون هجوماً على المراكز المتطورة، وربما تحقق بعض النجاحات بالمعنى "الفيزيائي"، لكنها في النهاية لن تستطيع التخلص من الانصهار والهزيمة.

لقد تطرقنا وبشكل جزئي إلى الصحيح من قصة هجرة الآريين، وما يجب إدراكه قبل كل شيء هو أن مصطلح الآريين هو الاسم العام الذي أطلق على أولى المجموعات الأثنية التي قامت بتطوير ثقافة الفلاحة والزراعة وتربية الحيوان في مرحلة الثورة الزراعية، أكثر من أن تكون تسمية لمجموعة أثنية أو عرقية، والحقيقة العلمية تفيد بأنهم ظهروا على مسرح التاريخ لأول مرة في سفوح القوس الداخلي لسلسلة زاغروس وطوروس حيث ينبعان ويتوسعان فيها نهرا دجلة والفرات. وتسميتهم جاءت من النظام السومري. فمجموعة الحارثين (المحراث = **AR**) هم الآريين، ومجموعة مربي الحيوانات (الثور= **Gud**) هم الكوتين، ومجموعة سكان البلاد العالية (التلة = **Ur**) هم الهوريين، وهكذا نرى أن جميعهم يعبرون عن الجغرافيا والثقافة نفسها. ولا ريب بأننا لا نستطيع الادعاء أن إحدى هذه المجموعات الأثنية قد ظهرت قبل الأخرى، لأن معرفة ذلك مستحيل. لكن تاريخ هذه الثقافة وجغرافيتها وحقب انتشارها معروفة ضمن أطوار محددة، وبالتالي إن كان لا بد من الحديث عن انتشار ما فإن الشيء الذي يجب التحدث عنه هو الانتشار ذو المضمون الثقافي الذي أتجه من المركز إلى المناطق الصالحة، وهذه النظرية المؤكدة بالإثباتات التاريخية وبالتالي الأسلوب الصحيح يجعل من ذلك أساساً له.

بقدر أهمية الحضارة السومرية التي تحققت في السهول الدنيا من السفوح الداخلية للهلال الخصيب، فإن التفرع الحضاري الذي تحقق في الأقواس الخارجية للهضاب العليا من سلسلة زاغروس وطوروس أي حيث تحقق الانفصال الشرقي والغربي لأول مرة مهم بنفس الدرجة، حيث بينها رابطة ديالكتيكية وحدث تاريخي، ومن الأهمية البالغة إجراء تحليل للنهج الحضاري في ميديا وفارس انطلاقا من ذلك.

ولا شك بأن جذور الخطوات التي أطلقت على نفسها تاريخياً اسم حضارة ميديا ـ الفرس موغلة في القدم، ولكن كما وضحنا سابقاً أنها ظاهرة داخلية موجودة ضمن رابطة جدلية "ديالكتيكية" مع التكوين السومري، ويجب ألا تضللنا التسميات التي ظهرت في العهود المختلفة، فالتشكيلات الموجودة لدى كلاهما كانت منذ البداية في حالة تقابل، والعلاقة في حالة تطور مستمر، وحتى

في أيامنا هذه لم تفقد شيئاً من سرعتها. يجب أخذ منهاج التحليل الصحيح لتاريخ تلك الميزة بعين الاعتبار فأنه كما تتشكل علاقة ما في اساسها التاريخي تبقى مستمرة ومعاصرة؛ من المعاصرة إلى التاريخ ومن التاريخ إلى المعاصرة، إذا نظرنا إلى هذا الموضوع من هذه الزاوية فسيكون من الممكن الوصول إلى العديد من النتائج الأقرب إلى الحقيقة.

قامت علاقات السومريين وصراعاتهم في العصر الأول مع المجموعات الأثنية التي تعيش في زاغروس تحت اسم العيلاميين والكوتيين، وتستخدم بشكل مستمر في السياسة السومرية، وأحياناً كان يسود الوفاق بينهما وأحياناً أخرى تسود العداوة، فقد كانت المجزرة التي قام بها سارغون ضد عيلام وحشية جداً، ولكن الاتفاق الذي ساد بين الكوتيين والسومريين استطاع أن يقضي على سلالة سارغون، وظل الكوتيون يشكلون قوة إدارية لفترة طويلة، وكان للكاسيين علاقة مشابهة مع البابليين. إذا استطاع الحثيون أن يطوروا حضارة على أنقاض الهوريين في الألفية الثانية قبل الميلاد، وتعد هذه إحدى الأمثلة الهامة على الانتشار من المركز إلى الأطراف، وهناك أدلة تؤكد على مرورهم من مصفاة الهوريين كحلقة وصل، حيث بدأت بين الأناضول وميزوبوتاميا مرحلة علاقات وصراعات قوية ذات جوهر جدلي "ديالكتيكي" استمرت حتى يومنا هذا. وهكذا يكون قد وضع أول خطوة هامة ومد أول ذراع من شأنه أن يخلق الحضارة الغربية الإغريقية الرومانية، وأكثر من ذلك فان هذه الخطوة قد تحققت استناداً على الحلقة الثقافية في طوروس، وأما على خط زاغروس، فقد تطورت حضارة أورارتو التي تمكنت لأول مرة في بداية عام 1000 ق.م من أن تكوّن قوة ومركزاً في البلد الذي نسميه بـ "ميديا" والذي من المحتمل أن يكون الآشوريون هم أول من أطلق عليه هذا اسم في منطقة شمال غرب إيران الحالية أو في مناطق بحيرة وان وأورمية وزاب باعتبارها تعتمد على التراكم الحضاري للعيلاميين والكوتيين والكاسيين. ينتسب الأورارتيون إلى ثقافات الهوريين والميتانيين من 2000 - 1250 ق.م اللتان كانتا تشهدان طور التحضر على شكل كونفدراليات عشائرية بمستوى متقدم في الثقافة والجغرافيا ذاتها، والتي يمكننا تسميتها أيضاً بمسودة التحول إلى الدولة، فنقلت الحضارة مكاسبها إلى شمال غرب إيران أي باتجاه ميديا، وأغلب الاحتمال أن مجموعات أثنية ميدية جاءت من هذه المناطق إلى المناطق الأغنى من الناحية الحضارية واستوطنت بين نهري دجلة والفرات.

بالإضافة إلى أن شعب أورارتو يعتمد على نفس البنى الجغرافية والثقافية الأثنية، فهو صاحب إرث من المقاومة التي دامت طويلاً، ومن المتفق عليه أن هذا الشعب تبنى حضارة السومريين في الشخصية الآشورية؛ إن الطبقة العليا منهم استخدمت اللغة الآشورية في الاتصالات والكتابة، بينما بقيت الشرائح

الشعبية تواصل حياتها بطريقة مختلفة بثقافتها واستخدامها لغتها الأم في الاتصال، وفي أيامنا الحالية هناك العديد من الأمثلة تؤكد هذا الواقع، فبينما تستخدم الطبقات الحاكمة في الهند اللغة الإنكليزية، تواصل الفئات الشعبية استخدام لغاتها الأم، وقد استطاعوا حديثاً إيصالها إلى مستوى اللغة القومية، وفي الوقت الذي كانت فيه لغة المستعمر الفرنسي هي لغة النظام في الجزائر، كانت لغة الشعب الثقافية هي اللغة العربية والبربرية وعدد من اللهجات المختلفة، وفي الوقت الذي كانت فيه اللغة العثمانية لغة مختلطة، استخدمت الشعوب التي كانت تابعة لها لهجاتها الأثنية وشيئاً فشيئاً وصلت بها إلى مستوى اللغة القومية. وهناك العديد من الأدلة المتعلقة بكون العصور القديمة والوسطى قد شهدت نفس المرحلة.

إن كلمة أورارتو كمصطلح لا تدل على مجموعة أثنية ما، لكن يمكن إعطاء تعريف جغرافي لمعناها بالسومرية حيث تعني "المكان المرتفع". فالتطور المتميز الذي تم بعد مراحل الهوريين والميتانيين هو التمكن من تجاوز الكونفدرالية العشائرية والوصول إلى مركزية الطبقة العبودية. كما أدى وجود مصادر المعادن وخشب البناء وتربية الخيول إلى استهدافهم بشكل أساسي من قبل الحثيين والسومريين والأكاديين والبابليين والآشوريين، وجرت محاولة لإكساب المقاومة صفة الديمومة بواسطة الحضارة نفسها الموجودة في شخصية الأورارتو، أي بواسطة قوة الدولة المركزية، وإن كان بالإمبراطوريات التوصل إلى وفاق متوازن يتسم بالمساواة. ولكن سياسة الآشوريين التي اعتمدت على السلب والاحتلال والمجازر وإجبار المتبقين على الهجرة وحتى لم تعط فرصة لتحقيق ذلك، وعلى العكس مما فعله الرومان فلم يعط الآشوريون فرصة الحياة للشعوب التي ارضخوها لهيمنتهم، بل اعتمدوا سلطة بلا حدود ولا قوانين لها ومزاجية. حقيقة إن نهايتها غير المنتظرة مرتبطة بهذه السياسة، كما إن نهاية كافة الأنظمة السياسية التي تعتمد على العنف المجرد تؤدي إلى نهاية مماثلة، فهذه السياسة الإمبريالية التي أخذت إرثها من سارغون وتكاملت مع حمورابي البابلي والتي نفذت من قبل الآشوريين بلا رحمة كانت تعني جهنماً بالنسبة لشعوب الشرق الأوسط وأنظمة إمارات العبيد.

إن تعرض شعوب الشرق الأوسط وثقافاتهم لسياسة القمع والترحال والتي لم يعرف لها مثيل في أي مرحلة تاريخية، ترك آثاراً عميقة في البنية الذهنية والروحية للإنسانية بالقدر الذي مهدت السبيل أمام أزمة عميقة، وهذا ما بدا واضحاً في نهاية الهيمنة الآشورية حيث أخذت الروح تشتاق إلى التحرر والبحث عن نظام بديل. ففي حين مهدت هذه الجهود الموجهة الطريق أمام الأديان التوحيدية التي تبشر بالشفاعة والتحرر وأمام المجموعات الصوفية من جهة، جلبت معها من جهة أخرى تباين الشرق ـ الغرب في مواقفها الحضارية.

فديار ميديا التي لاقى الآشوريون صعوبة في إخضاعها، طورت الأنظمة والطرق التي من شأنها ان تنقذها من القهر وذلك بالاستناد الى قوة بنيان التراث الخاص بشعب الاورارتو، وبهذا المعنى يتضمن تقييم مجموعات الميديين باعتبارهم قوم جاؤوا من شمال شرق إيران ـ ما وراء الخزر ـ خطأ كبير، بل على العكس، يعتبر الميديون من المجموعات الآرية صاحبة الثقافة النواة في الهلال الخصيب، وظهروا على مسرح التاريخ باكتسابهم اسماً جديداً في عصر الآشوريين وجوهراً إيديولوجياً خاصاً قائماً على الإرادة القوية التي ولدتها المقاومة التي استمرت فترة طويلة. للإمبراطورية انبعاثاً جديداً وانتشاراً وذلك اعتباراً من 1000 ق.م، كرد فعل على الظلم الآشوري.

اتحدت القبائل العبرية لأول مرة ووصلت إلى بناء مملكة في عهود "شاوول، داوود، سليمان". كما انتصر الهلينيون على طروادة ووضعوا أساس حضارة جديدة على شكل دولة مدينة أثينا. وأدى سحق المقاومات القائمة على أساس الإمارات الأثنية وتطوير الناس المشردين لعقائد وعادات سرية خارجة عن الخصائص الأثنية، إلى الدخول في مرحلة تشكل الطرائق. فمفهوم البحث عن إنقاذ الذات لدى كل شخص وكل مجموعة يدفع دائماً إلى تشكل النسيج الاجتماعي لهذا النموذج من الميول الصوفية.

ويعد البحث الذي يقوم به الكهنة الذين أطلق عليهم اسم المغان "Mag" في ميديا جزءاً من هذه النزعة العامة. فقد كان الكهنة المغان يمثلون إيديولوجية التحرر والتكتل. أما جوانب التجديد عند المغان فقد كانت تتمثل في كونهم قاموا بتركيب المفاهيم الدينية الآرية مع الميثولوجية السومرية، واتخذوا موقفاً ذا نزعة تحررية وأكثر قرباً من الإنسان. وهكذا فأن الولادة الميثولوجية ضرورية جداً وتحظى بالأولوية في كل تطور حضاري جاد، إذ لا يمكن حدوث انطلاقة حضارية جديدة دون تجاوز ميثولوجيا النظام السائد ومفاهيمه الدينية، وسيتم تطوير حركة اجتماعية وسياسية جديدة بعد مرحلة العطاء التي امتازت بتفوق الجانب المثيولوجي والتي استمرت فترة طويلة، فهي تكاد تلعب دور الوقود والتشحيم الضروريان. وربما تكون الجغرافيا المترامية الأطراف لميديا وثقافة المقاومة المديدة قد شكلتا مصدر إلهام إيديولوجي للرهبان المغان. فبالإضافة لكونهم تأثروا بالسومريين وبالمفاهيم الدينية الطبيعية للآريين فقد قاموا بتأمين انسجام بين الجديد والمحلي، مقدمين بذلك رداً عليهم عن طريق إجراء عملية تبني جديدة. ومن الممكن تقييم مقاومة "كاوا الحداد" أيضاً باعتبارها الجانب التطبيقي الملحمي لهذه النزعة مثلها مثل "داؤود الحداد" لدى العبرانيين في نفس المرحلة، وكذلك يلعب "أخيليوس" نفس الدور البطولي لدى الهلينيين. من الممكن هنا الحديث عن تشابه مذهل إلى أبعد حد، لكن في هذه المرحلة تعد الجبهة الإيديولوجية هي الجانب الأقوى ويمثلها الكهنة، وفي الفترة نفسها نجد أن

الكهنة البراهمانيين في الهند يمثلون هذه النزعة بشكل قوي، وأما كهنة المغان الميديين فإنهم يقومون بتمثيل هذه النزعة التاريخية في ساحة استراتيجية اعتباراً من 1000 ق.م. ولكن رغم الوصول إلى قوة سلطة أقرب إلى مستوى الإمارة التي تدعى "كاوي مير" Kavi-Mir في البنية الأثنية، إلا أنه لا يمكن رؤية تشكل مجتمع طبقي وتكون دولة؛ فمادامت العشائر تحافظ على وجودها لا يمكن ممارسة سياسة تتجاوز الطراز الأميري، وأكثر ما كان يمكن القيام به هو إقامة كونفدراليات عشائرية، وغالباً ما كانت المكانة السياسية والاجتماعية لقبائل الميد في ميديا ولقبائل الفرس في جنوب غرب إيران ووسطها في عام 1000 ق.م، بهذا الشكل السياسي والاجتماعي مثل العديد من القبائل الأخرى. فقد كان يشاهد في البنى الميثولوجية والدينية نظام في أعلى الهرم مكون من ثلاثة أرباب، وعلى العموم كانت هذه الأنظمة الثلاثية تعتمد على تمجيد ثقافة الأب والأم والولد القوي باعتبارها دين ذكوري، وبالرغم من كل التباينات في التمثيل والرموز فإنه يمكن رصد تطور ديني له نفس الاتجاه لدى التكتلات الموجودة في هذه المناطق القريبة والموجودة ضمن حضارة هذه المرحلة، حيث كان يطلق اسم إندرا ـ ميترا ـ فارونا، على هذا النظام الثلاثي الموجود لدى المجموعات الآرية ـ الهندية التي لم تتفرع بعد في أعوام 1500 ق.م. وفي الألواح الموقعة والعائدة للدولة الميتانية والحثية كان يتم القسم باسم هذه الآلهة الثلاثة.

كلما تعرضت الثقافة المشتركة في المناطق المحلية لعملية تحول، يزداد التمايز الميثولوجي، وتعبر هذه الميزة عن نفسها بالتسميات التي تطلق على الإله، وسيقدم زرادشت اعظم إسهام للإصلاح الميثولوجي في ميديا، وتتجلى الأهمية العظيمة لشخصية زرادشت الذي عاش على أغلب الظن في عام 600ق.م، في أن الإصلاح الذي أنجزه كان الأقوى والأقدم من الإصلاح الأخلاقي الكبير الذي قام به كل من كونفوشيوس في الصين وبوذا في الهند وسقراط عند الإغريق. وبسبب مفهوم العباد والعبيد المطلق الذي مثلوه في الميثولوجية السومرية والمصرية وفي المفاهيم التي تستند عليها، فإن الإنسان العبد العاجز والمسلوب الإرادة هو الأساس، ولا يمكن أن يكون للإنسان حتى ظلاً خاصاً به، فكل شيء يأتي من الرب، هذا يعني أن إرادة طبقة الأسياد الصاعدة مطلقة ومقدسة، ولا يمكن أن يمتلك الإنسان ظلاً دون إذن، كانت هذه الأيديولوجية مهيمنة على البنية الذهنية والروحية لتلك المرحلة، وكانت النتيجة السياسة لهذه الأيديولوجية هي نظام الرب ـ الملك، ونظام الأمر الذي لا حدود له، فكل كلمة يقولها الملك لها قيمة قانونية، وهكذا فان زرادشت كان الأسبق من بين جميع المصلحين في تصديع هذه القوالب الأيديولوجية المهيمنة.

يسود **Gatha** زرادشت (كلام زرادشت؛ **gotin** = الكلمة بالكردية)

أسلوب توسل وكأنه يستجوب الآلهة، وفي الحقيقة كان يحاكم الأيديولوجية التي كانت سائدة في تلك الفترة. إنه يقوم بذلك بإرادة متمردة وبوضوح وبجرأة لا مثيل لها، فلا توجد أوامر إلهية أحادية الجانب، بل إننا نقف وجهاً لوجه أمام طابع ذو ارادة تحاكم ولا تتخلى عن نيل الجواب، حتى ذلك العهد لم يقم احد من بني البشر ومن ضمنهم الملك باستجواب الإله، وأول من حقق ذلك هو زرادشت، في الحقيقة إنه يضع هذه "الأولوية" ضد دين الطبيعة البدائي من جهة، وضد التقليد الديني السومري ذو الإله المطلق الحاكم من جهة أخرى. لقد فهم الفيلسوف الألماني الشهير نيتشه معنى هذه الانطلاقة التاريخية واستوعبها بعمق ولم يطلق عبثاً عنوان " هكذا تكلم زرادشت " على أثره الشهير، ليمهد الطريق أمام إرادة الإنسان السامية عن طريق خرق الأيديولوجية التي تحتضن النظام بأكمله والسائدة خلال مراحل تدفق الحضارة وهو عبارة عن إحدى أكبر الثورات الإيديولوجية، فتعنيف الإله بقوله " أنا موجود، وأقول لك، رد علي " عبارة عن خطوة كبرى على مفترق الطريق ضمن إرادة وذهنية الإنسانية التي لم يكن يحق لها أن تكون حتى صاحبة لظلها لغاية تلك المرحلة، إنها أول صيحة تطالب بالحرية الفردية ضمن النظام السياسي والاجتماعي، وإنها زعزعة عصر الآلهة المطلقة المهيمنة وضد نظام الرق غير المحدود الذي يمثل هذه الآلهة وقسرها على القيام بعملية إصلاح.

انقسمت الحضارة الى فرعين في ميديا ـ البلد الذي عاش فيه زرادشت ـ بين تأليه نظام السلطة المطلقة لنفسها في كل من الهند والصين ومصر وفي العديد من الدويلات، وبين السياسة والإله المحدد بشكل جزئي بالجمهورية وبالعقل والذي كان سائداً في النظام الإغريقي ـ الروماني. إذ تكمن الانطلاقة الإصلاحية التي لعب زرادشت الدور الأكبر فيها لأول مرة وراء تطور هذين الفرعين الكبيرين للحضارة أو وراء ما أسميناه التمايز الشرقي ـ الغربي، وهي على الأقل تعتبر الخطوة التاريخية الكبرى الثانية التي تتحقق في دولة ميديا بقسرها على التغيير المتفرع لدرجة ولادة الحضارة. يضع زرادشت المصطلحات الموجودة في أيديولوجيته مثل النور ـ الظلام، والخير ـ الشر، والجنة ـ الجحيم، والجمال ـ القبح، والاستقامة ـ الانحراف، في مكانها المناسب، وقبل كل شيء لقد تم الوصول إلى مبدأ فلسفي أساسي: وهو مبدأ وجود الأضداد الذي لا يمكن أن يتم التطور بدونه، هذا المبدأ الذي أكدت العلوم المعاصرة صحته ويعبر عن القانون الذي يحرك كافة التطورات في الطبيعة وفي المجتمع، وهذا ما نطلق عليه مصطلح التبدل. فليس من السهل إخراج هذا التبدل من مجتمع يعيش تحت تأثير الإله المتفرد، غير مبدع، الذي لا يتحرك، وصاحب الذهنية المطلقة والذي يتصرف دائماً بسلوك أحادي الجانب.

إن البنى الروحية التي تمتلك ذهنية يمتد عمرها ثلاثة آلاف عام،

وتعتمد على قوانين الطبيعة الخاصة بالزواحف للعصر النيوليثي وعلى قوانين الآلهة للحضارة العبودية التي يتم فرضها بحيث لا يمكن للإنسان حتى من تبني ظله، تغدو ثورة أخلاقية وذهنية ضعيفة جداً وذلك عندما يقول: " انهض وتبنى إرادتك وذهنيتك وكن محترماً ". وهذه هي مساهمة زرادشت في الحضارة التي تحققت وباتت تدرك أهميتها بشكل افضل مع الزمن.

إن وجود مصطلح إله الخير " أهورا ـ مازدا " ومصطلح إله الشر " أهريمان " في اعتقادات زرادشت، يعني إكساب هذه الحقيقة تعبيراً دينياً، الا ان هذا لا يشكل النقطة الأساسية في الأمر، ولأن المقولات الإيديولوجية لتلك المرحلة كانت تقتضي وجود مثل هذه القوالب، فإن زرادشت يلجأ الى استخدام نفس المصطلحات، وبهذا فما حققه يعد في جوهره عبارة عن ثورة فلسفية، وما حققه في المجتمع كان عبارة عن ثورة أخلاقية كبيرة. نعرف جيداً بعض النتائج التطبيقية لذلك، فقد كان يريد إنهاء تقليد التضحية بالحيوانات الذي كان سائداً والمتبقي من دين الطبيعة البدائي، حيث كان يحب الحيوانات كثيراً ويقول: علينا ألا نضحي بهذه الحيوانات التي تقدم لنا فوائد كثيرة في حياتنا. وفي الوقت ذاته يعد نبي الزراعة، فقد كان يولي أهمية كبيرة للزراعة، أي كان مولعاً بالزراعة. كما يعد العيش مع زوجة صاحبة صفات الكمال، امتلاكاً لأقوى تعبير أخلاقي للحياة. ويعتبر العيش المشترك مع زوجة تمتلك إرادتها الحرة وحسب مقاييس المساواة لهي أهم سعادة للإنسان، حيث لا نجد هذا المفهوم القيم للزوجة في أي نظام في عصره. كما ان له صلة وثيقة بالجهد، ولعله يعتبر أقوى ممثل لمفهوم السعادة المعتمدة على عرق الجبين، وكان متيماً بالنور والضياء، ومدركاً لجمال المرأة، كما جعل من مواجهة الظلام والبرد الميزة الأساسية لفلسفته.

لاشك بأن تحليل كلام **"gatha"** زرادشت وتحليل عقائده الدينية الخاصة به عمل يحتاج لخبير في هذا الموضوع، ولكن لا يوجد أدنى شك بأن الخطوط العريضة لفلسفته هي كما أوردناها سابقاً. من المعلوم أن مواقفه الفكرية والأخلاقية لم تكتمل، فإذا أخذنا بعين الاعتبار أنها لم تطبق بشكل كامل، وأنها لم تأخذ شكل النظام الاجتماعي، فإننا سندرك جيداً عظمة فكر زرادشت الذي يعتمد على الوصول إلى تركيب عن طريق صراع الأضداد، وعلى الدفاع عن حقوق الفرد الحر. و يجب أن نوضح أيضاً وباهتمام أن تأثيره لا زال قوياً جداً على تلك المجتمعات التي عاش فيها أو التي اثر عليها، ولم يتأخر زرادشت وأتباعه الذين يمثلون الزرادشتية من بعده في خلق النتائج السياسية.

عندما نقوم بتقييم الظروف السياسية والثقافية التي أعتمد عليها الميديون والفرس في انطلاقتهم، نجد بان تبني المعلومات الصحيحة بخطوطها العريضة هامة بقدر اهمية تخطي المفاهيم وأخطاء الأسلوب، وبعكس ذلك لن

نستطيع فهم القيمة التحليلية لهذه الانطلاقة التي تمثل وضع المفتاح في الشرق الأوسط وتمثل مفترق الشرق والغرب بشكل صحيح. في الوقت الذي تفتح هذه الانطلاقة مرحلة جديدة، يتسارع تطور الحضارة الإغريقية الرومانية في الغرب، بينما في الشرق نرى أن الحضارة العبودية في الهند والصين لا تختنق مثل ما حدث لحضارة هارابا العبودية التي سبقتها بل على العكس انها تلعب دوراً رئيسياً أثناء دخولها في مرحلة النضج، حيث لعب ذلك التمايز دوراً أساسياً فيها.

إن الرأي الذي يلقى قبولاً بشكل عام يفيد بأنه لولا وجود هذه الحلقة لما كان للحضارة التي ازدهرت في الشرق والغرب أن تتحقق أو لكانت أتبعت مساراً مختلفاً تماماً. فهذه الميزة لا تأتي من الموقع الجغرافي وحسب، بل مرتبطة بالجوهر عن كثب والتقليد الزرادشتي الذي قمنا بتعريفه كإصلاح إيديولوجي وأخلاقي، هدف إلى توجيه عملية التباين الشرقي ـ الغربي وإلى تحقيقه أكثر مما يعتقد. إن أنظمة الرق السومرية والمصرية والخطوات الحضارية المغلقة نسبياً والتي اعتمدت على هذين النظامين، عملت على تأسيس دولة متجاوزة بذلك نظام الرق المطلق الذي طبق على البنية الروحية والذهنية للإنسانية طوال ثلاثة آلاف عام ونفذوا كل أنواع السيطرة المعتمدة على هذه الدولة. فمن ناحية الحرية تم وضع البشرية في وضع مختلف عما كان موجوداً في العصور النيوليثية بدرجة كبيرة، إذ لجأ صانعوا هذا الوضع إلى كل أشكال الحيلة والاستبداد وجعلوها قناعاً إيديولوجياً مذهلاً لممارساتهم بشكل لم تشهدها العلاقات الاجتماعية حتى ذلك اليوم، وجعلوا من ذلك إيديولوجية القدر باسم (النظام السماوي وعالم الآلهة التي توجهه) وقد تحقق ذلك على حساب انحطاط كبير في مستوى الحرية الإنسانية؛ فمن جهة هناك أصحاب النظام العبودي الذين يعتبرون كل كلمة ينطقون بها تمثل إرادة الرب التي يجب فهمها وإطاعتها مطلقاً، ومن الجانب الآخر هناك نظام العباد والعبيد الذين لا يملكون ظلهم وليس لهم مكان سوى أن يكونوا وسيلة للإنتاج.

لا شك أنه حدثت مقاومة مستمرة ضد هذا النظام، وعلى عكس ما دونته الكتب السماوية لم يعمل هذا النظام بإرادة الآلهة العظيمة. فمع كل خطوة تطور فيها الظلم والكذب والاستغلال، قوبلت بالمقاومة ونضال الصواب والحق، وهنا ايضاً نفذ التطور قانون وحدة الأضداد بلا أدنى رحمة. لكن قد يكون انتصار انطلاقة الميد ـ الفرس، بمثابة فتح نهج للتاريخ لأول مرة. وفي النهاية اضطرت هذه الانطلاقة للسقوط في منطق النظام المسيطر وتطبيقاته، فلم يتم هدم النظام السياسي والاجتماعي السائد ولم يتم تأسيس نظام جديد مكانه، إذ لعب نمط الإنتاج المميز دوراً أساسياً في ذلك، ولكن لا يوجد أدنى شك من انها حملة تاريخية وفرت الظروف المناسبة للدخول في نظام رق اكثر مرونة بواسطة

تطبيقات إصلاحية تنفس عن الإنسانية بعض الشيء، وذلك عن طريق نظام الرق الذي استمر ثلاثة آلاف عام، ترك خلالها الشرق الأوسط وبالتالي الإنسانية في حالة ذهول نتيجة الممارسات الغادرة والتي تستأصل الجذور، متمثلاً ذلك في الآشوريين. ولا يوجد أدنى شك أيضاً من أنه تمت بلورة مرحلة جديدة في التاريخ من خلال تمهيد السبيل امام مفترق طرق كبير، بتفعيل قانون وحدة الأضداد في مرحلة حضارية أكثر تقدماً من المراحل السابقة. وإنني على يقين إن ما قدمناه هو التعبير الأكثر واقعية في تعريف الدور الذي لعبته انطلاقة الميد ـ الفرس في التاريخ.

هناك رأي متفق عليه يفيد بأن التنظيم الميدي باتجاه تطور تاريخي ملموس يشكل مرحلة الكونفدرالية العشائرية، ويلاحظ بأن هذا التنظيم يحاول أن يكون مركزياً في همذان "**EKBATAN**" ، وقد تم ظهورهم على مسرح التاريخ ولمرات عدة بفضل التحالفات التي أقاموها بنجاح مع الكوتيين والكاسيين. كما أن التحالف البابلي الميدي الذي كان في نزاع وتنافس دائم مع الآشوريين، استطاع إحراق وهدم عاصمتهم "نينوى" في عام 612 ق.م. وبينما كان الطريق ينفتح أمام بابل باعتبارها تعتمد على المفهوم المركزي السومري من جهة، ومن جهة أخرى فقد سنحت فرصة تاريخية لازدهار حضاري في شرق زاغروس ولتشكل مرحلة جديدة وأهم تطور في التاريخ، ومن الواضح أن هذا الازدهار اعتمد على قاعدة تاريخية تغذت من إرث المقاومة الشعبية مثل " كاوا الحداد" الذي أعتمد في مقاومته على التقاليد المتوارثة من الحضارة السومرية وبعدها من العيلاميين والكوتيين والكاسيين والهوريين والميتانيين والأورارتو، وهو الذي احتل لنفسه مكانة في الذاكرة الشعبية كنوع من أنواع الأساطير وأجرى تركيباً مع ثورة الإرادة ـ الأخلاق الزرادشتية، وما تبقى من تفاصيل فهو من عمل البحوث التاريخية التي تعتمد على الوثائق.

وأما البعد الآخر والأهم لهذه الحقيقة فيتمثل بظاهرة الفرس الذين ظهروا على مسرح التاريخ باسمهم لأول مرة، وأواصر قرابة الفرس مع الميديين معلومة، بالإضافة إلى أن الميديون ومن سبقوهم، وبتعريف عام الهوريون ذوو الجذور الآرية يمثلون أجداد الكرد في يومنا هذا، حيث يمكن إثبات انتماء الكرد إليهم بسهولة، أما الشعوب الأخرى كالكوتيون والكاسيتيون والميتانيون والأورارتو هم الذين أخذوا أسمائهم المختلفة في العصور التاريخية المختلفة ولكنهم ينطقون بنفس اللغة ويحملون نفس الثقافة وهذا هو الرأي الذي يلقى قبولاً عاماً. وظهور الفرس الذين لم يثبتوا اسمهم حتى مرحلة تنظيم الميديين على المسرح التاريخي، يصبح مفهوماً من خلال قاعدة انتشار الحضارة، ووضع القرابة الوثيقة بين اللغة والثقافة قائم حتى يومنا في جغرافية

إيران حيث تتجاور ولايات الفرس مع ولاية كردستان التابعتين لإيران، ويبدو واضحاً أنه لم يحصل انفصال كبير في المراحل التاريخية السابقة، بل كانوا ضمن نظام مشترك، وكذلك الأمر بالنسبة للمجموعات الآرية التي هاجرت فيما بعد إلى الهند والمناطق الشرقية الأخرى، حيث نرى أن الانفصال الأساسي قد حدث في أعوام 1500 ق.م، ونتيجة لانفصال هذه التجمعات سمي القاطنون في شمال غرب إيران بـ "الماديين" والقاطنون في الشمال الشرقي بـ "البايديين"، والقاطنون في الوسط والجنوب الغربي بـ "البارسيين" والقاطنون في الجنوب الشرقي بـ "البلوجيين"، وهذه حقيقة تاريخية ثابتة، وهجرات الآريين التي حدثت إلى أفغانستان والهند هي بمثابة امتداد لهذه التجمعات الرئيسية، وبهذا الانفصال فإن الماديون هم الأقرب إلى المراكز الحضارية للسومريين وللحضارة النيوليثية، وبناء عليه فإن العشائر والسلالات المادية استمدت القوة واضطرت لان تتصدى للتوسعات السومرية والآكادية والبابلية والآشورية نظراً لموقعها الجغرافي، وانهيار الامبراطورية الآشورية يدل على أن واقع الماديين لا يمثل أمراً اعتيادياً بل له ارتباط بالتكوين التاريخي لعصور طويلة، وكل الدلائل التاريخية تشير إلى هذا الواقع.

إن عدم تشرم الفرس خلال هذه الفترة التاريخية الطويلة وازدياد قوتهم عن طريق الميديين باستمرار هي حقيقة تاريخية مفهومة. والأهم من ذلك هو أن تخطي الميديين لمرحلة كونفيدرالياتهم العشائرية وتأسيسهم لحضارة مركزية أدى إلى خلل في التوازن بينهما. ومن الإثباتات التاريخية أنه عندما اتجهت الكونفدرالية الميدية التي انضم إليها الفرس ايضاً ونجحوا في تشكيل دولة مركزية، قد قوبلت بانقلاب مضاد من قبل العشائر الفارسية. حقيقة عندما تم الإطاحة بـ"استياغ" زعيم الكونفدرالية الميدية الفارسية الأخيرة بانقلاب من داخل القصر من قبل ابن أخيه كيروس" كورش"، انتقلت السلطة إلى سلالة الأخامينيشيين الفارسية المهيمنة. وبالرغم من أن العديد من المؤرخين يعتبرون ذلك هزيمة للميديين وانتصاراً للفرس، لكن يمكن بسهولة واعتماداً على المنهاج إثبات أن هذا الرأي ليس واقعياً، إذ ان ما حدث هو عبارة عن تغيير في السلالة لدولة تشكلت حديثاً، وإنه لمن الخطأ الفادح تقديم هذا التغيير على أنه هزيمة لكيان أثني، انها لنظرة خاطئة. ففي نظام لاحق يحتل الميديون والفرس مكانة طليعية في نفس المستوى، وحتى هيرودوت نفسه الذي عاش في نفس المرحلة يشرح هذا الترتيب داخل الدولة بشكل واضح. كما ان إعطاء المراتب للميديين والفرس مع بعضهما يشير إلى غلبة البنية الأثنية الموحدة في الامبراطورية الفارسية التي كانت تتألف من أثنا وعشرون مركز ولاية" **satrap**" . وأما الصراع فقد كان بين بعض زعماء الميديين وبين الكهنة المغان الميديين أيضاً، وغالباً ما كان هذا الوضع يؤدي إلى الكثير من التمردات والمجازر. وباختصار

إن النظر بهذا الشكل إلى جدلية العلاقات بين الميديين والفرس تؤدي بنا إلى التوصل لنتائج سليمة.

يبدأ تاريخ سيطرة سلالة أخامينيش الفارسية مع كيروس "كورش" حوالي عام 550 ق. م، وفي وقت قصير يحقق انفتاحاً كبيراً حيث يتم ضم بابل في عام 1539 ق.م، لينتقل مركز الحضارة إلى خارج ميزوبوتاميا لأول مرة في برسا بوليس، وفي نهاية القرن تم الاستيلاء على مصر والأناضول في أقصى الغرب، وتم الوصول إلى أبواب أثينا، ولأول مرة يتم تشكيل مراكز ولايات أرمنية في القوقاز، ويتم الوصول إلى البحر الأسود وبحر الخزر ويتم الدخول إلى بارتيا وأفغانستان والهند في أقصى الشرق، وهكذا تم تحقيق أكبر تنظيم سياسي في التاريخ حتى ذلك الوقت. لقد ساهم النظام العقلاني الأكثر مرونة، مقارنة بالإمبراطورية الآشورية، في تطور التاريخ الكبير والسريع بنفس الدرجة التي ساهمت بها الأرضية التاريخية والثقافية القوية التي اعتمدوا عليها. فناهيك من أن الآشوريين لم يتركوا أي متنفس للبنى الأثنية المحلية، فقد قاموا بتهجير هؤلاء من أوطانهم ووضع الذين قبلوا أن يكونوا عبيداً مكانهم، أما الفرس فعلى العكس من ذلك لم يكتفوا بإبقاء هؤلاء في أوطانهم، بل منحوهم فرصة إقامة حكم ذاتي على مستوى الإمارة، وتم تشكيل مركز ولاية باسم كل مجموعة أثنية أو قومية وتركوهم أحراراً باستثناء فرض بعض الضرائب والواجبات العسكرية.

لا شك بأنه كانت للإمبراطورية خصائص أخرى، فقد كان الإشراف الذي يعتمد على شبكة مواصلات وأخبار جيدة مؤثراً جداً. فقد تم إنشاء شبكة طرق ممتازة ابتداء من سواحل بحر إيجة ومن مدينة سارد المشهورة تاريخياً وحتى برس بوليس، وكان باستطاعة مجموعة من الفرسان المستعدة بشكل يومي أن توصل الأخبار التي تتلقاها كل مجموعة إلى الأخرى من مدينة سارد وحتى برس بوليس خلال تسعين يوماً، وتعتبر هذه أقصى سرعة في ذلك العصر، كما تطورت التشكيلات البيروقراطية، وأهم تجديد تم القيام به هو تجاوز الميثولوجية السومرية وترسيخ مزدا الإله الكبير حسب تقاليد زرادشت، ولأنهم الغوا عمليات النفي في بابل فقد تأثر العبريون الذين احترموا الفرس كثيراً بعقيدة مزدا بنسبة كبيرة واستخدموها، فتطوير ثقافة الدين الواحد بدرجة أنه تم تشكيل حزب الفرس العبري القوي الذي كان مناصراً للفرس وحتى يومنا هذا تمتد جذور هذا الحزب لدى الإسرائيليين.

في الحقيقة هناك بعض الأدلة "الأتيمولوجية" تشير إلى أن النبي إبراهيم الذي يعد من أوائل مؤسسي الثقافة العبرية لم يكن زعيماً قبلياً للعبريين وحسب، بل كانت له علاقات وثيقة مع الهوريين "المجموعات الأثنية المسيطرة

على أورفا" وأن هذه الثقافة قد أثرت على العبريين على شكل تقاليد للنبي إبراهيم، إن مكانة الثقافات الهورية والفارسية هامة جداً والبحث فيها عمل ضروري لابد منه. وفقد منحت الامبراطورية الفارسية متنفساً واسعاً لكافة الكيانات الأثنية والسياسية في الشرق الأوسط، وتلعب هذه المرحلة دوراً هاماً في الاحتفال بعيد النيروز "نوروز" باعتباره عيداً للحرية وتوفرت إمكانيات التقدم والتطور لكل الثقافات الموجودة، وتم الاعتراف بشرعية الإمارات في الثقافة السياسية كما اكتسب النظام الأميري وضوحاً في هذه المراحل، ولم يجر تجاوز نظام العبيد بأكمله لكنه اكتسب بعض المرونة، وجرت العديد من الإصلاحات التي تضمنت الكثير من التجديد. لقد كان النظام يستمد قوته الأساسية من هذه التبدلات السياسية بالإضافة إلى أنه لم يواجه كثيراً من المعارضة. بل لجأ إليه كثير من التكوينات المستجدة وبحثت عن دعمه ومساندته. والأمثلة على ذلك كثيرة وموثقة، فعدم حدوث تمرادت داخلية عدا نزاع السلالات الميدية الحاكمة يؤكد هذا الأمر.

إن النزاع الأساسي للفرس كان في شبه الجزيرة الإغريقية، إذ كانت تتقدم باتجاه الهند والصين في الشرق باعتبارها ذات دور تقدمي، كما واصلت التقدم ذاته في مراكز السومريين والمصريين القديمة، وكانت في وضع متقدم أيضاً، فقد تطورت العديد من الثقافات الأثنية والمحلية وأجريت تغييرات سياسية واجتماعية مما تشكل تقدماً مهماً. في الوقت الذي كانت فيه هذه الميزة التطويرية تفتح الطريق أمام تعاظم قوة الإمبراطورية، كانت من جهة أخرى تؤدي إلى الخلل في توازنها وتتسبب في تحجرها، وشيئاً فشيئاً تجعلها أكثر تعصباً، أي أنها كانت تخلق معارضتها، لقد كان النظام تقدمياً مقارنة بالآشوريين ولكنه كان متخلفاً بالنسبة للنظام الموجود في الأناضول الغربية وفي شبه الجزيرة الإغريقية، فكما كان الكهنة المغان الميديون وإصلاحات زرادشت تشكل العجينة الإيديولوجية للازدهار الميدي ـ الفارسي، كان البحث الإيديولوجي الفلسفي الذي ابتدأ بتالس الميليتي في أرضية الأناضول يشكل عجينة ازدهار الحضارة الإغريقية، وسجلت الفلسفة باعتبارها أسلوب التفكير الأكثر عقلانية مقارنة بالفرس تطوراً كبيراً، وفي الحقيقة فإن الاستفادة من الآثار الميثولوجية البابلية من جهة ومن الإصلاحات الأخلاقية لزرادشت من جهة أخرى، لعبت دوراً كبيراً في هذا التطور، إذ أقام كافة الفلاسفة الهلينيون مدة طويلة في هذه المراكز وتعلموا فيها، وما قاموا به هو عبارة عن قفزة فكرية رفيعة المستوى بالاعتماد على هذه التراكمات الغنية، إنها حملة حرية في السلوك الإنساني أي على صعيد الأخلاق والإرادة، حيث يمكننا رؤية التأثير ورد الفعل بشكل كثيف في النصوص الأدبية الإغريقية بشكل بارز، وأصبح ذلك موضوعاً واسما للكثير من المنجزات الأدبية التي تطرقت إلى هذه العلائق والتناقضات. فقد بدأت حملة

إيديولوجية مكثفة ضد هجمات الفرس ورغم أن كتاب التاريخ لهيروديت يأخذ موقعه في القطب المقابل فإنه يتناول هذا الأمر بشمولية ويعكس ثقله. إن تفوق الفرس السياسي والعسكري أمر مؤكد حتى ان إنقاذ أثينا ذاتها من السقوط كان بالغ الصعوبة، ولكن هذا الوضع الخطير الذي شهدته هذه المرحلة أدى إلى تحقيق الكثير من التطورات التي لم تكن قد تحققت حتى ذلك الوقت حتى ان إمكانية تحقيقها آنذاك لم يجر التفكير بها، فقد تحققت الوحدة بين إسبارطة وأثينا، وحدث توسع في الشمال وصل إلى مقدونيا في عهد الملك فيليبوس، ولا شك أن عظمة الأخطار كانت السبب الأساسي في هذا التوجه، ولكن الازدهار الإيديولوجي كان السبب الآخر الكبير، والصراع الفارسي الإغريقي الذي استمر لمدة طويلة له علاقة وثيقة بحقيقة تفرع الحضارات.

إن ابتعاد الفرس عن الجوهر الذي شكل نقلة نوعية على مستوى الفرد الحر صاحب الإرادة الذي فتح طريق الغرب في البداية، وتأليههم لأنفسهم باعتبارهم الإرادة المطلقة، أدى في الوقت ذاته إلى بروز الأسباب الإيديولوجية لخسارتهم، إنه طغيان يشبه الملكيات المستبدة السومرية والمصرية، ولم يكن له أن ينجح أمام الديمقراطية التي حققها الإغريق في أثينا، إذ أن الصراع في الأساس كان بين استبداد بيرس بوليس وديمقراطية أثينا، وإذا ما نظرنا إلى الموضوع من زاوية أكثر اتساعاً، نجد أنه الصراع الجدي الأول للتفرع الحضاري بين الطريق الشرقي والغربي الذي تم فتحه مجدداً، وبالرغم من ضعف الثقافة الهلينية عددياً، وكقوة سياسية وعسكرية فأن ريادتها الإيديولوجية وتفوقها في التكتيكات السياسية والعسكرية سيظهران تأثيرهما خلال فترة وجيزة على يد الاسكندر الكبير، وستواصل الثقافة الهلينية انتصاراتها بسرعة البرق حتى حدود الهند، لقد كان الاسكندر شاباً يافعاً ولكن كان يقف خلفه أرسطو الذي يعد خزينة للقوة العقلية، وكما أوضح نابليون أن الذي يحدد النجاح هو العقل الجديد وقوة الإرادة والتكتيكات التي تعتمد عليها، وقد أظهر نابليون نفسه هذا النوع من التطور السريع في مرحلة انتشار الثورة البرجوازية.

أن بنى الامبراطورية الفارسية كانت عبارة عن مؤسسات وثقيلة وبطيئة الحركة ومحافظة، ولم تكن في وضع يسمح لهم بأجراء أي تجديد في الطراز الإغريقي، حتى لم تكن هناك رغبة في ذلك، وان فقدان الجوهر أضاع هذه الفرصة من البداية، وهذا الموجز الذي عرضناه، يكفي لنستنتج أن تطور النظام الإغريقي عن طريق أسلوب التأثير والتأثر مرتبط بنسبة كبيرة بالواقع الفارسي، وهناك علاقة جدلية ديالكتيكية مستمرة بين الغالب والمغلوب، ولولاها لما كان للانتصار أو للهزيمة أي معنى، ولا يمكن أبداً أن تتبع أسباب الهزيمة أو الانتصار من طرف واحد بمفرده، فاستمرارية الفرس والإغريق على شكل الشرق والغرب هو حكم هذا القانون ضمن مسيرة التاريخ الكبرى.

ومهما تم الحديث بشكل مبالغ فيه فان الجانب الذي طغى على مسيرة الاسكندر كان ثقافياً اكثر من الجانب العسكري والسياسي قوة، فالأدوات العسكرية والسياسية تلعب دور جسر بسيط، أنهما شرطان أوليان، ولكن الثقافة هي العنصر الذي يتمتع بتأثير مصيري ودائم وهي العامل الذي يحدد المسار، تتمتع الثقافة الهلينية بمكانة متقدمة لما تحمله من أفكار فلسفية، وكانت فرصة المؤسسات المتبقية من السومريين والمصريين تكاد تكون معدومة للتجاوب مع هذه التطورات، وكذلك الإصلاحات الميدية الفارسية المحدودة كانت بعيدة عن سد حاجة هذه التطورات، لذا يعد عصر الثقافة الهلينية الذي بدأ على يد الاسكندر الكبير في الشرق الأوسط خلال العهود الإغريقية الرومانية، مرحلة جديدة امتدت من 300 ق.م - 300 م. وهو أول تركيب كبير للشرق والغرب، والمراكز التي تركت أثراً دائماً لهذه الثقافة هي الإسكندرية في مصر وبرغاما الأناضول وإكتيسيتون في دجلة بالإضافة الى العديد من الوحدات المدينية الصغيرة والكبيرة إذ فتحت هذه المراكز الطريق امام تجديدات تاريخية، وإن مدينة "زيوغما"الفرات، التي ظهرت كموضوع حي هي مدينة متبقية من تلك الفترة، ويمكن القول إن الشرق الأوسط تعرف على المصطلحات المدنية مثل الحمام والمسرح والسوق والمدرسة خلال هذه الفترة، فقد تشكلت سوق نشطة امتدت من روما حتى الهند والصين، وشهدت طبقة التجار مزيداً من الاستقلال والتطور، وحصلت العديد من الفروع الحرفية على استقلاليتها كما تشكلت أسواق سلعية ضخمة وعلى رأسها أسواق النخاسة، وتخلص العالم إيديولوجياً من الدوغمائية وتعاظمت الأفكار والمذاهب كالكرة الثلجية وتم تجاوز النظام المعنوي والاجتماعي القديمين المعتمد على الدوغمائيات والبنى الأثنية إلى بنية اجتماعية جديدة. وظهرت تيارات صوفية تتخذ البنية الفكرية والعقيدة أساساً لها.

وبينما كان يتم تعلم القديم تولد كثير من التجديد، هذا هو العالم الجديد الذي نتج عن التركيب الشرقي ـ الغربي، لا شك أن تأثيرات الفرس وخاصة في المرحلة الأولى ونفوذ الثقافة الهلينية إلى الثقافة المحلية وما نتج عنها من تجديدات يشكل أساساً لذلك، ولم يكن الصعود الجديد لإيران في "250 - 216" ق.م الذي تحقق فيما بعد في بارتيا في الشرق أيام المرحلة الرومانية أن يصمد أمام هذا التطور الثقافي بل على العكس في خدمته، فمن المؤكد أنه شهد تشكلاً متقلباً أوصل نظام العبيد في المسيرة الفارسية الإغريقية الرومانية إلى الذروة، لم تستمر أو تترسخ خلال تاريخ الإنسانية أية مرحلة كما استمرت وترسخت هذه المرحلة، لقد فقدوا التجديد الإصلاحي في واقع الحضارة الرومانية سرعته بشكل عام اعتباراً من أعوام 300 م. ووصل إلى مرحلة تعصب عمياء، وبينما كان دين "عيسى" السيد المسيح يشكل النسيج الاعتقادي والاجتماعي المناهض لهذه المرحلة، لم يتأخر دين محمد (ص) بانقلاباته السياسية والعسكرية الثقيلة

ليحاول دفن هذه المرحلة في أعماق التاريخ.

ك ـ انهيار الحضارة العبودية

إن تقسيم المجتمع بشكل عام والمجتمع الطبقي بشكل خاص إلى مراحل تتضمن تكاملاً منتظماً داخل هذا المجتمع، رغم كونه ضرورياً لما يقتضيه الجوهر، فأنه يجلب معه محذورات هامة، وهناك جدل يتعلق بالنهج الذي يتم فيه تناول هذه الظواهر، وجدل حول المعايير الأساسية الواجب الاعتماد عليها أثناء إجراء هذا التقسيم، إذ من الممكن أن يؤدي الاعتماد على العوامل المختلفة إلى أجراء تقسيمات متنوعة بل ومتناقضة فيما بينها، ولكن يظهر أمامنا من جديد أن قانون الديالكتيك "الطرح والطرح المضاد والتركيب" الذي يقر بأن كل شيء في الطبيعة مترابط وعلى ان هذا النهج التحليلي الذي لا بد من تطبيقه على نظام المجتمع مع تناول جوهر المجتمع بشكل حساس جداً.

هناك جدال كبير حول الآراء المتعلقة بولادة الحضارة العبودية، إذ أن هناك اختلافات كثيرة في وجهات النظر حول درجة ضرورتها كمرحلة تطور اجتماعي، وإذا كانت هناك حاجة إلى ذلك أم لا..؟ وكذلك حول كيفية تشكلها.

فما الذي حدث كي يبدل سكان العصر النيوليثي النظام المبدع الذي كان يتضمن المساواة الاجتماعية ومستوى متقدماً من الحرية ويبشر بالتطور، بنظام المصالح العبودية..؟! إن علم الاجتماع رغم كل التراكمات المعرفية ما زال بعيداً عن إعطاء جواب كاف ووافٍ لهذا السؤال الأساسي، وإن الموقف الطبقي الفظ الذي يعتمد على الاستغلال يقول: " ان المهيمنون قد خلقوا العلاقات العبودية بالعنف والتحايل ". لكن تجد نفسها عاجزة أمام السؤال الذي يطرح نفسه ألا وهو: "حسناً ولكن كيف ظهرت الطبقة المهيمنة..؟" وأما موقف الطبقة الاستغلالية الحاكمة الأخرى فأنها تتجه نحو العموميات قائلة: "إن تشكل الطبقات كان شرطاً لأجل التطور الحضاري" لكنها تجد نفسها ثانية عاجزة أمام سؤال جديد يطرح نفسه ألا وهو: "كيف لنظام يتجه نحو الحضارة أن يسمح لنفسه بحدوث تطورات ستسفر عن نتائج تسحقها..؟!".

حتى إذ لم يتم الاعتراف بإفلاس هذين الموقفين وكل وجهات النظر والإطروحات العلمية المعتمدة عليها فإنه بالتأكيد قد وصل الى طريق مسدود، ومن المؤكد أن القيم التحليلية للمناهج ذات المزاعم العلمية القوية الخاصة بالرأسمالية والتي تستند الى الليبرالية الفردية، ولمنهاج الاشتراكية التي تأخذ المجتمع أساساً لها، قد شهدت قصوراً شديداً بمواجهة المشاكل المتفاقمة في واقع المجتمع، ومها قيل: "أن التطورات العلمية أيضاً في حالة صراع وفي وضع

إشكالي". فأنه لا يمكن تفسير الأخطار والأمراض التي تتضمنها الأزمة القائمة إلا بالقول بأن الإنسان أخطر "وحش" وهذا بدوره يعني بأننا نتنكر لإنسانيتنا.

من أجل معرفة جذور هذه النزعة الخطيرة يمكننا أن نتناول مراحل تشكل المجتمع بل وكافة علاقات الطبيعة لأجل توضيحها، خاصة أن مواقف التطور الحضاري التي تعتمد على تعمق الفرز الطبقي، فقد أتوا بتفسيرات ميثولوجية طفولية، وذات طابع ديني جاد أو فلسفية وحتى علمية وهي ليست على مستوى الإقناع بالصراعات الكبيرة التي تشهدها الإنسانية، فلا يمكن للإنسانية التي تعتبر نفسها صاحبة عقل وضمير أن تنظر إلى هذه الصراعات باعتبارها مراحل طبيعية وضرورية ويجب معايشتها، إن هذه التقييمات التي تعبر عن هذا التوجه تعني إنكار مستوى الوعي والحرية لدى المجتمع بدرجة أن الإنسانية في وضعها الحالي لا تسمح بذلك، ولو تم تقديمها في أي مرحلة إنسانية تحت اسم القدسية والسمو أو ادعاء العلمية التامة، فإن مثل هذه الآراء والمعتقدات والدوغمائيات الإيديولوجية في نظرياتها لن تستسلم وربما يكون ذلك هو التعبير الصحيح الوحيد عن الحقيقة. وتعريف الوضع بهذا الشكل عموماً ربما يكون التعبير الأقرب إلى الصحة.

وفي النهاية إن ما أحاول التأكيد عليه هو: أن الإنسانية وواقعها المجتمعي لا يزالان بعيدين عن الوصول إلى تعريف مقبول ضمن أبعاد العدالة والمحبة، إيجاد تعريف لهذين البعدين ضروري في كل وقت، وهذه الضرورة في أيامنا هذه تنتظر التحليل دون أن تفقد شيئاً من أهميتها، فهذا التحليل هو مهمة علمية لا يمكن التراجع عنها، وتتضمن موقفاً أخلاقياً ضرورياً. سأحاول الاستمرار في محاكمة هذا الموقف الازدواجي؛ أي القيمة العلمية ارتباطاً مع الموقف الأخلاقي اللذين يشكلان وحدة كاملة، لأنني لا يمكن أن أتخلى عن هذا الأمر لانه ذو قيمة مبدئية لديّ، وهذا هو الأسلوب الأساسي الذي يملك أهمية علمية.

1- هل كان الطراز العبودي للحضارة ضرورة لابد منه ؟.

إن التناقض الأساسي للإنسانية سواء أكان مع ذاتها أو مع الطبيعة هي العلاقة بين الحرية والضرورة، "ما هي الحرية، وإلى أي مدى..؟ " ما هي الحرية وما هي الضرورة وكيف يمكن الالتزام بهما..؟ " لا شك أن التناقض القائم بينهما سيبقى مستمراً باستمرار الحياة، وكما لا يمكن ان تستمر الحرية في طبيعة الإنسانية، كذلك لا يمكن أن تكون دائماً عاجزة ومحكومة بالقدر، إن حالة الحرية المستمرة هي خيال الجنة المزيف للأشخاص والطبقات المتطفلة

والمنسلخة عن العمل والجهد، أما الأسر المستمر فهو العالم الملعون للعبيد الذين ارتضوا بالهزيمة وانسلخوا عن النضال، انه عالم "عذاب الجحيم"، ورغم وجود علاقة وثيقة بين هذين العالمين فإن تاريخ الإنسانية والحياة نفسها تمتلك منطقاً وطابعاً أساسياً معقداً، وهاتين النقطتين المتباعدتين تملكان حقيقة تفتح الطريق للعديد من المواقف الدوغمائية، وكذلك للكثير من وجهات النظر المرتبطة بالمعرفة والعلم.

من الواضح أن بنية الحضارة المتطورة عبر التحول الطبقي تواصل حياتها بجوهر يقوي من حدة هذه الصراعات، ويحاول التشكيل الطبقي أن يكسب ثباتاً عبر الكفاح الذي يسببه، وما تحتويه من الصراعات فقد أدت الحرب التي تعبر عن الوضع الكفاحي الذي وصل إلى مستوى استخدام العنف إلى ضرورة الوصول الى مستوى جديد من الثبات، وأما الوضع الذي يليق بالهدوء والسلام فإنه يعبر عن مستوى الثبات القائم على التوازن، إن الهدوء المستمر أو عكسه ـ أي الحرب المستمرة ـ يعنيان أما أن يفنى المجتمع بأكمله عن طريق المواجهات العنيفة وتحوله إلى ظواهر مختلفة تماماً أو تعفنه في جو من الكسل والعطالة العميقة.

يمكن أن يكون النقد الأساسي الذي سيوجه للنظام العبودي ذو معنى أكثر بالجواب على الأسئلة التالية: ما هو الثمن الذي تم دفعه لتحقيق مرحلة الميلاد؟. ماذا قدمت للإنسانية وماذا خسرته الإنسانية من هذا البناء.. ؟. النقد المسؤول الذي سيتطور من دون إغفال الخصائص النابعة من أسلوب الحياة وعلاقات النظام العبودي التي تواصلت الى ان وصلت إلينا، وكذلك الأجوبة الواقعية حول ذلك، سيؤمن إسهامات هامة من شأنها أن تساعدنا على الفهم الصحيح لهذا النظام، وعدم قبول ذلك يعني الوقوع المستمر في هذه المغالطات الخطيرة، تمثل ضرورة الوصول الى المواقف العلمية ومتطلباتها ونتائجها، إن قيام الأطراف الطبقية في المجتمع والتناقضات الديالكتيكية الأخرى الموجودة ضمن إبعاد هذه الأطراف بتحويل أنفسهم إلى مثاليين أوقعهم في خرافات على شكل اعتقادات "دوغمائيات"، فاعتبار الطبقة المهيمنة والمستغلة الأقرب إلى حالة العطالة هي الوحيدة المسؤولة عما تحقق، يؤدي إلى الوقوع في انحياز وحيد الجانب إذ لا يمكن إهمال الطابع الأقرب إلى الدوغمائية "العقائدية" للفئات المستغَلة التي في الأسفل أيضاً وذلك لسببين: أولهما أن الفئة التي في الأعلى ومن موقع وجودها في الأعلى وسيطرتها الإيديولوجية فإنها دائماً تغذي الأثر المستمر الذي تتركه دوغمائياتها على دنيا خيال الذين في الأسفل عن طريق التضليل الواعي، والسبب الثاني هو أن صعوبات عمل وحياة الذين في الأسفل التي لا تمنح لهم الفرصة لالتقاط أنفاسهم، ولا تسمح بسهولة دخول الإيديولوجيات المعتمدة على مصالحهم الجوهرية.

على ضوء هذا الموقف المنهجي يمكن تقديم أجوبة أكثر واقعية عن السؤال الأساسي: "ما هي الظروف الملموسة التي فتحت الباب أمام الطراز العبودي للعلاقات في المجتمع"؟.

لقد فتح مجتمع الزراعي النيوليثي في مرحلة نضوجه الطويلة وخاصة خلال الأعوام 6000 - 4000 ق.م، الطريق أمام تكديس الإنتاج والتقنية اللازمة لخلق أسلوب إنتاج أكثر إنتاجية وعطاءً، لقد توصلت الثقافة في هذه المرحلة إلى مستوى من النضج أهلّها للدخول إلى الحضارة، مثل اكتشاف البرونز والتقنيات التي اعتمدت عليه كالمحراث ودواليب الفخار وآلات الحياكة والاستفادة من طاقة الحيوانات، وتوفر المعلومات حول العديد من الأنواع النباتية والحيوانية، والعجلة وعمارة البيوت والأختام وتطور المثيولوجيا المعتمدة على تعدد الآلهة، لقد مكنتهم هذه الثقافات والمكتشفات من الوصول إلى مرحلة ظهور الإنتاج الزائد والهامة عن طريق التنظيمات المجتمعية التي كان من شأنها أن تتجاوز البنى القبلية الموجودة على ضفاف الأنهار الخصبة، وقد استطاع المجتمع الجديد الذي حاولنا تعريفه في مصر وسومر، النجاح النسبي في بناء مثل هذه التنظيمات حول المعابد التي أنشؤوها، وعندما يتم الحديث عن المعبد يتبادر إلى الذهن أهمية الأيمان، وهنا تكمن أهمية القفزة التي تحققت من السحر والشامانية إلى الكهنوتية، كان النظام الذي طوره الكاهن يتضمن بعدين اثنين، الأفكار الدينية المتمثلة بالطوطمية التي تعتمد على النظام الذكوري أو على النظام الأمومي، في الحقيقة عندما كانت هذه الأعراف تبدل موقعها مع مفهومٍ دينيٍ أساسيٍ يتناسب مع العقل، كانت البشرية تشهد ثورة إيديولوجية، ولقد تم تجاوز قلة الإنتاج التي نتجت عن العوز المعتمد على علاقات القرابة في البنى الأثنية عن طريق قوة العمل الجماعي للمشاعة المقامة حول المعبد، لقد أدى عمل المشاعة الجماعي إلى إنتاجية غير عادية. قد مهد تراكم الإنتاج الزائد الى ولادة مزارع جماعية أكبر وفي النهاية أدى ذلك إلى انفجار إنتاجي، وعندما تجمعت ملكية الحرفيين اللازمة لذلك بيد المعبد وصل المجتمع الجديد إلى تكوين نواة للبنية الفوقية والتحتية.

المعبد هو قلب المجتمع الجديد، وبلغة أدق بات الرحم الأساسي في كنف المعبد، وهكذا تشكل أسلوب الإنتاج العبودي اعتماداً على تقسيم العمل الجديد وعلى البنية الفوقية الإيديولوجية، أما المرحلة التالية فقد اقتصرت على النمو الأعظمي لهذا النموذج وتكرار نفسه، فإذا دققنا النظر قليلاً فأننا سنرى أن هذا المجتمع لم يكن شكلاً لمجتمع تم تحقيقه بالقسر والقوة، إنه عبارة عن مجتمع أعتمد الميثولوجية القادرة على الإقناع، وعلى شكل الإنتاج الذي أثبت نفسه بالوفرة والإنتاجية. أما القسر والقوة فأنه أسلوب سيتدخل بشكل كثيف في المراحل اللاحقة، فالإنسانية لم تدخل طوعاً في هذا المجتمع الجديد، ولم تكن في

بداية الأمر تعلم أنه مجتمع يعتمد على الأسلوب العبودي الذي لا يرحم ولن تستطيع بالتالي أن تخرج منه بعد ذلك أبداً، ويصعب القول بأن الكهنة كانوا يعلمون ماهية هذا المجتمع، و بأنهم استخدموا دهاءهم ومكرهم من أجل إقناع الناس به فهم كانوا يبرهنون بالممارسة العملية على أنهم في مرحلة اكثر تقدماً من المجتمع القديم وقادرون على إقناع من حولهم، يمكن التأكيد لدرجة كبيرة بأن جوهر هذه المرحلة قد تم على هذا الشكل، وحقيقة لا يمكن إقامة شكل مجتمع اكثر تطوراً باستخدام القوة والحيلة، ولا يمكن إقامة شكل متطور للمجتمع أو الاستمرار في هذا التطور باستخدام القوة دون البرهنة على تفوقه، والأهم من ذلك كله أنه لا يمكن للقوة أن تلعب دوراً إلا من أجل الأشكال التي فقدت مفعولها، فيتم هدم القديم وولادة الشكل الجديد مكانه.

لكن بعد أن تتطور المرحلة وتزداد انتشاراً يظهر طابعها المتناقض الذي لم يكن واضحاً في البداية، وإذا تذكرنا النموذج السومري فأننا نجد أن فئة الإداريين العليا والمشرفين كانت تشهد مرحلة تمايز، فبينما كانت مجموعة الكهنة تفقد أهميتها، بدأت القيادة السياسية أولاً ومن ثم القيادة العسكرية تكسب أهمية كبيرة، وبعد مرحلة "الكهنة ـ الملوك" تظهر مرحلة الملوك السياسيين غالباً. يمكن رؤية آثار مواجهات قاسية تنعكس في البنية اللغوية والأدبية، وبتزايد الصراع "التناقض" الموجود بين مجموعة الآلهة "البانتيون" الذي هو مجلس الآلهة الذي يقوم بوظيفة إيديولوجية عظيمة، ويعبر عن ميثولوجية الفئة العليا يظهر التمايز والصراع بين الآلهة، فإذا لم ينقلب التوازن القائم بين السياسيين والكهنة رأساً على عقب فإن وحدة الآلهة ستستمر في وجودها، وكانت المرأة لا تزال تحتفظ بتأثيرها المجتمعي في البانتيون، لكن ومع ازدياد ضغط النخبة السياسية على المجتمع ظهر تغيير وتبدل مذهل في تقسيم عمل الآلهة وفي أهمية موقعها.

أظهرت المرأة على أنها صاحبة أثر قوي في التشكل المجتمعي البدائي، في هوية الآلهة إنانا "في حاضرة أوروك" التي تعد من أولى مراكز هذا التشكل، إذ تأخذ إنانا موقعها القوي في المجتمع السومري من مواصلتها بعناد لدورها المتفوق في المجتمع النيوليثي، وينتهي هذا الدور مع تطور المجتمع العبودي، سيغدو "إنليل" الإله القوي الذي كان منذ البداية الرب الحامي لـ "نيبور" التي تعد مركزاً أدبياً وتعليمياً ممثل هوية الكاهن. في الحقيقة لقد كانت هوية الإله أنكي الذي ظهر باعتباره الخالق الأكبر والرب المنظم للعمل، تمثل الطبقة السياسية الحاكمة، وبعد ذلك سيقع على عاتق أنكي مهمة المعلم الذهني للعديد من الآلهة أثناء تشكلها، وكان انعكاساً مذهلاً لأهمية الانتشار المتزايدة للقوة السياسية في ذلك المجتمع، وإن عدم تورطه بالعنف بشكل واضح مرتبط أشد الارتباط بهذه الميزة السياسية التي كان يتمتع بها، وإن جرأة أنكي على

توجيه إنليل كان تعبيراً واضحاً على تصاعد أهمية الطبقة السياسية في مواجهة مجموعة الكهنة، يأخذ مردوخ إله بابل مكان والده أنكي، وأن توجه مردوخ إلى أمه الإلهة تيامات "الربة الأم" بشدة ودحره لها وللذين يقومون بدور الابن والزوج لها وجلس مكان أنكي الذي ترك المكان لولده وهذا يرمز إلى التوجه نحو العنف وقيام الأب بتتويج أنكي في مكانه بلباقة يدل على زيادة دور القيادة العسكرية وبداية لحكم الفرد والملكية والإمبراطور حيث يرمز ذلك العبور إلى مرحلة ديكتاتورية الشخص الواحد، وبهذا كان أسلوب الإدارة في بابل قد بدأ بتنظيم جديد للمؤسسة الدينية ويمنح دوراً متزايداً للملك ويعتمد على العنف، زيادة ثقة العبودية بنفسها وتطورها المؤسساتي يعكس النظام السماوي كما هو. وبدأ يلوح في الأفق "سمة الإله الواحد" وبعد فترة قصيرة سيقوم النبي "إبراهيم" بتطوير نمط الكهنة التقليدي الذي فقد قوته نتيجة عدم قدرته وتقادمه وبدأ يعاني من الضعف، وتتطور المؤسسة النبوية على نقد النظام وبذلك يفتح الباب أمام إصلاحات هامة في النظام.

2ـ أثبت النموذج السومري أن الأيديولوجية قد لعبت دوراً اكبر من العنف في تشكيل المجتمع الطبقي، ويصح الكلام ذاته عند المصريين، وبذلك نكون قد أثبتنا الحقيقة التالية: لقد لعب المجتمع الطبقي في البدء دوراً تقدمياً، إذ أظهر زيادة لا تقبل المقايسة من حيث التفوق الإيديولوجي، والإنتاج الزائد ولهذا لا يمكننا أن نتهم البشرية لأنها قبلت نظام الرق لأن سؤالاً كهذا لا يمكن أن يكون سوى نقد يحمل في طياته قيمة أدبية. وجود طبقة الحكام التي تضخمت كالورم، وأصبح حقيقة واقعة، وصار التعالي الاجتماعي السبب الأساسي المجتمعي لتطور العدوانية، إن التورم هو الجزء غير الضروري من التشكل الطبقي، ولم تتخلف الفئة التي باتت تفقد وظيفتها مع زيادة كسلها وشراستها، في أن تصبح مصدر استبداد واستغلال النظام الذي ازداد كثيراً، وهذا الوضع سيؤدي بشكل مواز لنمو طبقة الحكام التي أخذت مكاناً في تقسيم العمل، إلى سياسة الاحتلال والسلب وذلك عن طريق التوجه نحو الخارج أي نحو الإمبريالية، أو إلى فتح الطريق أمام تعصب نظام الرق، وشيئاً فشيئاً إلى فقدانه معنى وجوده.

من المهم هنا وبشكل رئيسي أن تتم دراسة طبيعة الإنسان وخصائصه النفسية الأساسية مع الانعكاسات الدينية للهوية السياسية التي نتجت عن كيفية " تأليه" البنية الذهنية والروحية لنفسها في شخص الملك، تلك البنية التي ولدتها حياة المجتمع في العصر الميثولوجي، ومن المؤكد أن صفات الإله "الشديد العقاب" التي لم تكن واضحة في البدء، ستعكس الطبيعة التعصبية والمحافظة لنظام الرق، وكذلك ستعكس قيام الحكام بإكساب نظام القمع وظيفة مؤسساتية ضد ردود الفعل المتزايدة. إن تحليل اللغة الموجودة بين نظام الآلهة والأنظمة

السياسية والاجتماعية هي إحدى المهام التحليلية لعلم الاجتماع، وإن تناول هذه اللغة بصمت وبساطة وعدم إعطائها الأهمية اللازمة، يمكن تفسير ذلك بتأثيرات مفاهيم الطبقة الحاكمة، فان تحليل القيم المعنوية كالدين والإله لا تقل في أهميتها عن تحليل القيم المادية كالنقد، وأكتفي هنا بالقول: بأنني سأتناول هذا الموضوع في الفصول القادمة بعمق أكثر، ولكن من الواضح أن دراسة المجتمع السومري وباعتباره النموذج الأول لهذه التحليلات الموجهة، أعطت نتائج مذهلة ومثمرة، وبهذا المعنى نجد أن تاريخ الحضارة هو في الحقيقة استمرارية المجتمع السومري الذي كبر وتفرّع وشيئاً فشيئاً تمايز وتنوع.

أما الوضع الذي تجسد في صعود الحضارة البابلية في أعوام "2000" ق.م، فقد كان عبارة عن تحايل عن دراية وتحريف للكهنة وزيادة الاستبداد الذي كان في النظام العبودي، وما تجسد في شخصية حمورابي يدل على أن النظام لا يمكن أن يستمر إلا بطابع الاستبداد؛ وبالتالي فقد كان لهذه المرحلة صفة الشمولية، وهي عبارة عن ثنائية وضعت على جدول الأعمال، إما الانهيار أو الإصلاح، أما التطورات اللاحقة فقد كانت إما هي محاولات لأجل إيقاف الانهيار بصعوبة وإما بالانطلاقات النبوية التي لم تنقطع لتحقيق مرونة في المجتمع ليصبح قابلاً للحياة.

3ـ كنا تطرقنا في الفصول السابقة إلى أن ظهور سيدنا إبراهيم جد الأنبياء، يمثل بداية ومرحلة هامة في تاريخ الأديان، فشخصية سيدنا إبراهيم والميول التي يمثلها والمرحلة التي عاش فيها لها علاقة وثيقة جداً بانهيار القوة السياسية للسومريين في بابل، وبداية عصر النمروديين حيث كانت شخصية حمورابي ذو الانتماء العموري تمثلها جيداً، هذه الفترة تمثل مرحلة ممارسة العنف باعتى أشكاله وبشكل منظم في العبودية، حيث تقوم السلالات الآشورية فيما بعد بتصعيد ذلك إلى الذروة، وتعيش مصر وضعاً مماثلاً. والجواب على ذلك جاء على شكل حروب السلالات في الداخل، والحركات التحررية ذات الجذور الإثنية ضد الإمبريالية في الخارج، وبينما يحدث تغيير السلالات والإنطلاقات النبوية لدى الساميين، تحدث تطورات سياسية من قبيل الفيدراليات والإمارات القبلية التي لم تتطور فيها الطبقية بعد بل تغلب عليها صفة الجذور الإثنية لدى الآريين. تلك التطورات الجديدة التي تمثل الحلقات الأولية للانتشار، تساهم في الوقت ذاته في إطالة عمر النظام العبودي، بينما اتساع الأراضي العذراء تدل على أن النظام سينتشر وسيطول عمره أيضاً.

كانت بحيرات العبودية تمتلك إمكانيات التوسع بين المحيطين، ويصل النظام المعتمد على انحطاط الكهنة في المراكز الرئيسية إلى الهند والصين وأوروبا على شكل موجات ثانية كبيرة اعتباراً من الألفية الأولى قبل الميلاد

ليصل إلى الذروة بعد أن حقق مرونة وانتشاراً في الشرق الأوسط كأولى حلقات التوسع، وبعد استخدام الحديد بكثرة يدخل النظام في مرحلة يمكن أن نطلق عليها مرحلة التحول الديمقراطي، ولكن بالرغم من احتضان هذه المرحلة للعديد من التجديدات والإصلاحات فإنه لم ينجح في إخفاء مؤشرات الانهيار.

وبعد أن تشاهد فترة ازدهار رائعة في الهند والصين وشمال أوروبا، اعتباراً من 1000 ق.م وحتى 500 م. بدأ الانهيار يطرح نفسه في كل ميدان، وأهم التطورات في هذه المرحلة هي ظهور القوى السياسية لحضارة الميديين ـ الفرس التي تحققت في نجود إيران، حيث كانت تفتح الطريق أمام تمايز جذري بين الشرق والغرب.

بينما كان التقليد الزرادشتي باعتباره يمثل ثورة الأخلاق والإرادة التي وصلت لدرجة محاكمة الإله يشكل أرضية إيديولوجية للتفرع والتمايز، وكانت الإمبراطورية الفارسية تلعب دوراً تاريخياً عن طريق نقل النظام العبودي عبر المسار الشرقي إلى الهند والصين من جهة، ومن جهة أخرى تسرع ولادة الإمبراطورية الإغريقية ـ الرومانية ضمن المسار الغربي، إن هذا الدور الذي لعبته الإمبراطورية الميدية ـ الفارسية وقيامها بجعل النظام العبودي أكثر عدلاً ومرونة في منطقتها، أطال عمر النظام لألف سنة تقريباً، وما عاشته الهند والصين ضمن المسار الشرقي لم يكن في الحقيقة إلا عبارة عن تكرار متأخر بحوالي ألفي عام لما تم في الحضارتين المصرية والسومرية. وأما الحضارة الإغريقية ـ الرومانية التي تطورت ضمن المسار الغربي ووصلت إلى الذروة فقد لعبت بنجاح دوراً أساسياً في عجن العجينة الأولى للحضارة الغربية التي وصلت إلى مرحلة التفوق في أيامنا المعاصرة، وذلك عبر تجاوز النمط المثيولوجي والأفكار الدينية وفتح الطريق أمام الفكر الفلسفي. سنتجنب التكرار لأننا تطرقنا إلى هذا الموضوع بشكل جزئي ولكن أكثر ما يلزمنا معرفته هو متى ظهرت مؤشرات انحلال وانهيار هذا النظام وأين تم ذلك..؟ وما هي التطورات الإيديولوجية والعملية التي حمّلت النظام أهمية كبرى من أجل رؤية الأسباب التي أدت إلى ذلك، ومن هم الذين لعبوا دوراً في ذلك..؟.

أ ـ من الممكن تفسير انحلال النظام في مرحلة النظام العبودي من الاتجاهين النظري والعملي، فمن الناحية النظرية إن انحلال نظام المجتمع يتطلب أن يبرز هذا النظام القوة القادرة على ذلك تماماً من داخله، فإذا كان النظام يملك القدرة على الحياة حسب ظروفه الموضوعية، عليه أن يثبت ذلك، فمن الممكن أن يعمل الطراز القديم على عرقلة مرحلة هذا الانهيار أو يؤخرها أو يقمعها بالعنف، ولكن إذا كانت الشروط مناسبة فلا بد لهذه المرحلة أن تظهر نفسها، والسبب المهم هو القدرة الحياتية للنظام الجديد، فكلما تصاعد الوعي

والإرادة لا يمكن ظهور أية قوة عنيفة أو نظام متحايل يمكن أن يعرقل دخول النظام الجديد إلى الممارسة العملية.

على ضوء هذه القاعدة العامة، نجد أن النظام العبودي حسب مقاييس منطق العلاقات الاجتماعية الأساسية قد نجح في أن يكون النظام الأطول عمراً من حيث العمق والاتساع، وسر ذلك يرتبط بالنظام القائم على امتلاك الإنسان. ففي المجتمع السابق كان الطراز الأساسي هو ملكية المجتمع الجماعية لوسائل الإنتاج، وكانت هناك ملكية محدودة على القيم الاستهلاكية وكان يسود مفهوم الإنسان ـ الإله، كانت الآلهة تلك الموجودات التي يتم عبادتها باعتبارها هوية مجردة تعيش مع الإنسان ومع الكيانات التي كان هذا الإنسان يعيش فيها جنباً إلى جنب بشكل متداخل، ويربط بينها علاقات قرابة، فلم يكن الموضوع متعلق بكون الآلهة قد خلقت الإنسان، وأنها تمتلكه، بل كان يسود عكس ذلك، إذ كانت توجد آلهة يملكها الإنسان والمجتمع، إن هذا التصور يحمل في داخله تقديس الإنسان لنفسه باعتباره قوة المجتمع، وهذا يعني أنه وصل إلى هويته، وأدرك نفسه، اما الوضع الذي_أعقب ذلك فهو انعكاس للتحول المجتمعي، فعندما أصبح الإنسان نفسه موضوع ملكية، أكتسب هوية كان فيها عبداً للإله واعتبرت هذه أهم انعكاس للمجتمع العبودي، وبهذا تم الوصول إلى مفهوم الإله الذي يجعل الإنسان عبداً له، أي ان المرور بتحول ديني جذري يعني في نفس الوقت المرور بتحول مجتمعي جذري، وكان ذلك نتيجة كفاح مكثف شهدته هذه المرحلة.

باختصار تعتمد العبودية للإله وخدمته في تاريخ الأديان على تشكل طبقي وقوي، يتمتع التشكل المادي للطبقة كانعكاس ايديولوجي بأثر حاسم في التطور الديني، ويمكن أن نتعلم الكثير من هذه المرحلة في المجتمع السومري، ويجب الوقوف عندها باهتمام لأنها الانعكاس الأصيل لما نتحدث عنه، وتعتبر نينهورساغ وإنانا وعشتار وأن وإنليل وأنكي ومردوخ تصورات توثق التحول الذي حدث في المجتمع السومري واكتسبت هويتها باعتبارها آلهة في شكل إنساني، إن التحليل الصحيح لهذه الآلهة التي اكتسبت قيمتها الوثائقية من كونها كتبت على شكل أساطير، يقدم معطيات هامة تفتح الطريق أمام الفهم الصحيح لتطور علاقات المجتمع العبودي، لم تكن لغة العلم هي المتداولة في البنية الروحية والذهنية للإنسان في تلك المرحلة، بل لغة الأساطير أي اللغة الشعرية لأساطير هذه الآلهة، وقد استخدمت هذه اللغة باعتبارها وسيلة لتقوية الإيديولوجية، ولهذا السبب فأن تحليل اللغة الميثولوجية من أهم واجبات العلم.

إن هذا التقييم الموجز حول ولادة العلاقات العبودية يكفي لان نفهم؛ بأن تحويل الإنسان إلى وسيلة أساسية للإنتاج يمثل الميزة الأساسية لهذا المجتمع

وتـأتي أدوات الإنتـاج الأخـرى التـي تسـتخدم تقنيـات البرونـز وتقنيـات الإنتـاج الأخرى في المرتبة الثانية من حيث دورها بعد العبيد، وتتكاثف كل الجهود حول العلاقات العبودية وحول تحويل الإنسان إلى مَلْك، وينشؤون نظاماً قائماً على العبيد بالوسائل المقنعة والترهيبية للكاهن أي السيكولوجية "النفسية"، وبالتنظيم والأشراف السياسي وبقوانين الحاكم، لدرجة أنه يتشكل وضع لا يمكن أن يطلق عليه سوى اسم نظام الأرباب العظيم، وهذا ما حدث فعلاً، فتقديس الأديان إلى هذه الدرجة بحيث لا يمكن التفكير بالاعتراض عليها ووضعها أمام الإنسان كقوة مقدسة لها هيبتها هو من المزايا الأساسية للنظام الطبقي العبودي والجانب الإستراتيجي في العلاقة العبودية، هو ربط النظام بالمطلق وقوانينه في الحياة، فالمطلقية هي أساس النظام.

لقد أدى تحويل الإنسان إلى ملكية وسوقه إلى الإنتاج، إلى فائض في الإنتاج، ولم يتم استخدام جهد العبيد في الأعمال الزراعية وحسب، بل أيضاً تم استخدام جهده في الأعمال التجارية والحرف، كان جهد العبيد أساسياً في كافة الخدمات الخاصة المتعلقة للطبقة الحاكمة، ويشاهد استخدام واسع في الخدمات التي تصل لدرجة تشغيل حتى الوزراء في منزلة الرقيق، وقد مهد التمايز بين الجنسين الطريق أمام تعميق استعباد المرأة، وتطور الاستعباد الاجتماعي واستعباد المرأة باعتبارها جنساً ثانوياً بشكل متداخل.

ان تجاوز نظام العبيد كان ممكناً بعد تحول الإنسان في هذا النمط من العلاقات إلى حالة غير مثمرة وغير منتجة، فانحلال هذا النظام من تلقاء نفسه أو بقوة قسرية غير ممكن طالما ان علاقات العبودية مستمرة في العطاء، اما في الجبهة الإيديولوجية فالسيطرة على البنية الروحية والذهنية لكافة البشر، قوامها إما التخويف من الإله ومن عقابه، أو اعتبار هذا الإنسان عبداً محبوباً من قبل الإله جزاء للخدمة الجيدة التي يقدمها، ولقد كانت العقوبات التطبيقية مرعبة للغاية، فالصلب هو أحد اختراعات الحضارة الرومانية التي كانت تمتلك قوة تسير باتجاه الذروة، والجلوس على الخازوق، وسلخ الجلد هي من اختراعات الآشوريين، ولقد أثبتت المقابر الملكية في سومر ومصر والهند والصين أنه عندما كان يموت الملك كان يتم دفن كل حاشيته وخدمه ونسائه أحياءاً، وخاصة في بداية هذه المرحلة، فلم يكن لروح العبيد أية أهمية، إنه عضو من أعضاء الملك أو السيد، إنه جزء منه، وكانوا يرون بأنه من الطبيعي أن تدفن كل الأعضاء مع صاحبها عندما يموت، والأسوأ من ذلك أن العبيد والخدم كانوا مؤمنين بأنهم كذلك، لقد تم تحويلهم إلى أعضاء أو أجزاء إضافية مرتبطة بصاحبها لدرجة لا يمكن خلالها التفكير بأي تمرد، إن أهرامات مصر ومعابد ومقابر السومريين والهنود والصينيين والآستيك وكافة الآثار المعمارية الرومانية، كلها كانت نتاجاً لجهد العبيد التي تشبه حبات الرمل المتحدة.

لم ولن يمتلك أي نظام باستثناء النظام العبودي القدرة على استخدام الإنسان كأداة، والشكل غير المثمر لهذه العلاقات تعد أساس انحلال هذا النظام، وشيئاً فشيئاً ازدادت كلفة العبيد، لقد كان لانتشار استخدام الحديد اعتباراً من عام 1000ق.م في الزراعة والحرف والجيش الأثر الكبير في ذلك، لقد لعب الحديد دوراً حاسماً في توسع الأراضي الزراعية وجعلها أكثر عطاءً من جهة، وفي استقلالية أصحاب الحرف باعتبارهم يشكلون طبقةً من جهة أخرى، ووصل كسلاح إلى أيدي العديد من المجموعات، والبرونز فقد كان مقتصراً على الأسياد، ولذلك كانت ملكيته حكراً على الأسياد والحكام، غير أن وفرة الحديد قضى على احتكاره، وهذه الحقيقة جعلت مادة الحديد تترسخ بشكل أسطوري في وعي المجتمع.

من جهة أخرى يظهر أمامنا هنا التآكل والتفسخ الذي يحدث في كل نظام نتيجة الاستخدام الطويل، فبينما كان النظام يفقد قدسيته وعطاءه الذي كان موجوداً في البدء، بدأ يظهر في وعي الإنسان مدى ظلم هذا النظام ورعبه، وازدادت الآمال المتعلقة بإمكانية إيجاد البديل الأكثر عطاءً. لعبت العلاقات التي تشكلت حول وسائل الإنتاج الجديدة وخاصة حول الحديد دوراً رئيسياً في ذلك، ففي الوقت الذي أظهرت فيه الفلسفة الإغريقية أن الآلهة الميثولوجية اصطناعية، كانت الزرادشتية الميدية تدافع عن إرادة الإنسان ضد الآلهة وتقديسها. لقد ظهر بشكل جلي حتى في المرحلة التي كان النظام في ذروته، تحول جذري في بنية الوعي والروح والفكر والأخلاق، وبينما كان يتم توحيد الآلهة وإرسالهم إلى ما وراء السماء وجعلها غير مرئية، أظهر الإنسان الذي ازدادت أهميته وأصبح أكثر جرأة وإرادة، نفسه في شخصية الأنبياء والفلاسفة، لقد ولد ضمن علاقات العبودية إنسان جديد مع أساسه الإنتاجية والاجتماعية، وقوة فكره وإرادته، ويخرج من كونه العبد الذي اعتمد عليه النظام، ويتطور إلى قوة تحليلية مذهلة مضطربة وعاقلة.

ب - يمكن مشاهدة انحلال النظام العبودي عملياً في كافة مؤسسات البنية التحتية والفوقية للمجتمع.

1- من الواضح أن الأولويات التي تظهر نفسها في انحلال وتفسخ أي نظام تكون متداخلة فيما بينها، فأنها في الوقت ذاته تمتلك أثراً فاعلاً في تحديد نتيجة تطورات البنية المادية، بالرغم من تكدس كافة وسائل الإنتاج وعلى رأسها العبيد التي كان يمتلكها النظام في البداية، فإن علاقات ملكية العبيد لم تسمح بالاستخدام المتكافئ لهذه الوسائل، لأنها لم تجد ذلك مناسباً لمصالحها، إذ باتت علاقة الملكية وخصوصاً الوضع العبودي يشكل عائقاً أمام ذلك، لقد ملأت الحملات العسكرية الأسواق بالعبيد، كما أسهمت الاستيلاء المستمر على المساحات

القروية الحرة، في ازدياد عدد الرقيق والطبقة البروليتارية، وفي الوقت الذي بدأت فيه الزيادة في عدد العبيد والعاطلين عن العمل بشكل لم تعد يستطيع استيعابهم أرهق النظام وظهر فيه الاختناق والإرهاق. كانت أدوات الإنتاج التي بات من الممكن الحصول عليها بسهولة وعلى رأسها الحديد، تفتح الباب أمام البحث عن نمط الإنتاج الذي يعتمد على علاقات الإنتاج الإقطاعية "الأقنان" في المناطق الريفية وحصلت القروية على إمكانية تطور جديدة، وراحت تنتظر التعديل الذي يعتمد على ذلك.

بات بإمكان نظام القروية الذي تطور باستمرار على حساب العبودية، الوقوف على قدميه معتمداً على قوة التحويل الديمقراطي للحديد، وأن يتحول بواسطة أدوات الإنتاج المتطورة إلى الطبقة الأساسية للعصور الوسطى، وأصبح القروي إما شخصاً حراً، أو مرتبطاً مع سيده الجديد بنظام علاقات يعتمد على أنماط شراكة، متجاوزاً بذلك علاقات الملكية معتمداً على ملكية الأرض. لقد فتح نظام العلاقات هذا، الطريق أمام زيادة الاهتمام بأدوات الإنتاج والاهتمام بالإنتاج عن قرب، وأمام احتضان الحياة أكثر، وتم الاعتراف بحقه في أن يمتلك بيتاً خاصاً به. يتميز هذا الوضع بأنه أكثر تطوراً وتقدماً قياساً بالعبودية، حيث لم يهتم بأدوات الإنتاج بل كان يكتفي بإعطاء نفس القدر الأدنى من الاهتمام الذي يضمن استمرارية وجوده الفيزيائي، إن أساس انحلال العبودية في المجال الريفي هو كون الأخير يؤمّن الوفرة ويحقق التطور.

إن تأثير الشروط التي أدت إلى انحلال النظام على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي، وإلى بناء نظام اقتصادي واجتماعي جديد، تفرض نفسها بشكل متزايد ومتسارع. إن ظهور هذه الحقيقة على الصعيد المادي، يعد دليلاً على إمكانية ظهور البديل، وهذا هو السبب الأساسي للانحلال والانهيار.

بالإضافة إلى أن هذه التطورات الموجهة كانت عامة، فقد كان لها مكانة مميّزة في النظام القديم وفي مراكزه، لقد امتلكت أوروبة بأراضيها العذراء المناسبة للزراعة، الشروط المناسبة لنشوء النظام الجديد، إن عدم معايشة علاقات العبودية بعمق حملت بداخلها الخصائص التي من شأنها أن تفتح الطريق أمام ثورة زراعية جديدة، وأصبحت أوروبة تمثل المركز الجديد والقوي والمنتج للنظام الإقطاعي، وكان سيتم تنظيم أراضي الشرق الأوسط التي كانت مستخدمة منذ العصر النيوليثي من جديد على أساس علاقات " الأقنان"، لأن الأساس الزراعي القوي جداً سيزداد حيوية مع علاقات الإنتاج الإقطاعية، وسيصل إلى حالة سيلعب فيها من جديد دوراً أشبه ما يكون بالثورة الزراعية الثانية، وكان لا بد من المرور بثورة إقطاعية عميقة نظراً لأن الظروف الموضوعية كانت متوفرة جداً، إن تأثيرات العبودية العميقة جداً واستمرارها

تضفي قدسية ثانية على طراز الإنتاج والعلاقات الإقطاعية بحيث أصبحت تظهر ان المنطقة لن تتخلى عن دورها الطليعي بسهولة.

نجد الأثر الكبير الثاني للحديد على الاقتصاد العبودي والبنية الاجتماعية في المدن من حيث تأزمها وانحلالها بعد عام 1000ق.م يتجلى عند طبقة حرفيي المدن، إذ أن غلاء المعادن السابقة واحتكارها من قبل الفئة السياسية الحاكمة على الأغلب، كان يفتح الطريق أمام ظهور تبعية من نوع ما ضمن نمط العلاقات العبودية، وعندما انتقلت ملكية المعادن وعلى رأسها الحديد إلى أيدي الحرفيين بشكل رخيص ووفير، دفع بها لأن تكون طبقة جديدة مناهضة للنظام، وخرجت المدن من كونها مراكزاً للنظام العبودي لتتحول إلى بنى اجتماعية تلعب دوراً مناهضاً للنظام، وأثرت هذه التطورات على كل الشرائح الاجتماعية وعلى رأسهم التجار، وبدأ العديد من المهنيين مثل النساجين والزجاجيين والخزافين والطحانين والكتّاب وكثير من أصحاب المهن الأخرى بالاستقلال، وأخذوا موقفاً ضد علاقات العبودية، وباتت المدينة تلعب دور حفار القبور ضد الملكية العبودية التي فتحت الطريق أمام ثورة المدينة، وفي الوقت الذي فتح فيه انحلال علاقات الملكية السائدة في النظام العبودي والأزمة المتفاقمة في المدن، كما في الريف، الطريق أمام انخفاض كبير لسكان المدن بشكل خاص، كان يجري فيه وضع أسس التمدن الجديد، وفعلاً ما أن تم الوصول إلى القرن الخامس الميلادي حتى كانت مدن النظام العبودي المسيطرة على وشك أن تصبح مجرد أنقاض، وبات من الممكن في هذه الفترة الحديث عن تراجع كبير، فعندما كان النظام يمر في نقطة الذروة، كان الانهيار غير العادي للتمدن في النمط الإغريقي ـ الروماني بشكل خاص، يظهر نفسه باعتباره خسارة كبيرة، ولن يتم التوصل إلى هذا الفن المعماري الذي لا يزال مثيراً للإعجاب. كان دور مدن النظام الإقطاعي يظل ثانوياً رغم أن النظام الإقطاعي سيأخذ مكانه القوي على مسرح التاريخ باعتباره يمثل ثورة زراعية ثانية،س ولم يكن باستطاعة النظام العبودي الوصول إلى قوة المدينة وإلى فنها المعماري وإلى ثرائها، وأكثر من ذلك فقد كانت تشهد مكانة أشبه بالمدن التي صغرت أو القرى التي كبرت، باعتبارها مقراً للنظام الجديد، ومقابل الصغر والاضمحلال الذي حصل في المراكز، اكتسبت القرى أهمية بعددها وزيادة سكانها.

لقد تفسخ أسلوب العلاقات في النظام العبودي ضمن الشروط الاقتصادية والاجتماعية، لأنها ضاقت على البنية الإنتاجية والفكرية والمعنوية للإنسان الذي بدأ ينمو باعتباره كلاً متكاملاً، ويمكن أن نرى بكل وضوح أن التناقض المتزايد بين النمو الكمي والكيفي للقوة الإنتاجية للإنسان المشابه للنمو الذي شهدته أدوات الإنتاج، وبين طراز ملكية وسائل الإنتاج في النظام العبودي وذهنيته ونمط حياته، شكّل السبب الحقيقي لتفسخ النظام العبودي، فكما لعب

التنظيم الأكثر عطاءً والبنية الفكرية والمعنوية العالية دوراً مصيرياًً، ولعب أسلوب القسر والحيلة المرتبط بهما دوراً ثانويا أثناء التأسيس. لعبت الأسباب نفسها دوراً أساسياً في الانهيار مثل عدم القدرة على تركيب وسائل الإنتاج لتعمل بشكل مثمر، وتركها عاطلة عن العمل، والتخلف الفكري والانهيار في المعنويات.

2ـ لقد حققت العناصر السياسية والعسكرية للنظام العبودي التطورات القصوى في الشكل الذي وصل إلى الذروة مع الإمبريالية الرومانية، وقد اعتبر حكم الفرد الواحد "المونارشية" والطغمة الحاكمة "الأوليغارشية" والديمقراطية عبارة عن أشكال للحكم السياسي، مع انتقال روما المعتمدة على نظام الحكم الجمهوري الأوليغارشي إلى النظام الإمبراطوري القوي أصبحت من أكثر الأنظمة التي طورت نظام العنف في الداخل والخارج واتبعته لفترات طويلة، ولكن نشهد أيضاً تفسخاً غير منتظر في الامبراطورية الرومانية، ويعد هذا التطور دليلاً هاماً على أن العنف السياسي والعسكري لا يمكن أن يكون أساساً مصيرياً في تحولات المجتمع والنظام، واعتباراً من أعوام 300م بدأ انهيار قلعة النظام من كل الاتجاهات، ولهذا السبب كانت فعالية وتأثير القبائل البربرية التي انحدرت من الشمال مرتبطاً بتفسخ النظام من الداخل، وهذه الحقيقة تظهر أن هذه الموجات أصبحت فعالة في هذه الفترة رغم انها لم تكن كذلك من قبل، وبالرغم من وجودها منذ تأسيسه، وبالرغم من تحوّل الدولة بأكملها إلى مؤسسة جماعية لم تستطع إيقاف الانحلال حيث تمت ممارسة شكل من الفاشية العبودية، ورغم أنه تم ربط كل شيء بالتعليمات وتحول النظام إلى الاستبداد والقمع لم يتوقف الانحلال، ولا يمكن تقديم أي تفسير لذلك سوى أن النظام قد انتهى عمره.

يبين هذا المثال أن العنف وحده لا يلعب دوراً مصيرياً في تأسيس وانحلال المؤسسات العسكرية والسياسية المتطورة، بل ان الدور الأساسي يرتبط بالتطور الاجتماعي والاقتصادي، ولا شك بأنه في هذه المرحلة كان يتم تصعيد القمع والظلم بأبعاد كبيرة، وكان يمارس الإرهاب ضد الجماهير، حيث كانت تنظم في الحلبات مشاهد مذهلة، وكان يتم أيضاً تقديم المعارضين للأسود كي تقطعهم إرباً إرباً، وكانت تمارس كافة أنواع التعذيب والحيل والكسب غير المشروع وتحدث الانقلابات المتكررة، ولكن كل ذلك لا يمكن أن يعكس مسار التطورات وإنما قد تؤجله أو تسرعه، أي لا تعود الإدارة قادرة على المقاومة، والنظام الجديد يفرض نفسه.

وفي الشرق كانت الإمبراطورية الفارسية ـ الساسانية التي تأسست في عام 216م، تمر في وضع مشابه لإمبراطورية روما ولم تعد قادرة على تقديم

أية مساهمة للتاريخ وتحاول أن تكون نسخة لما أسسه الآخامينيون، بالإضافة لكونها لم تكن صاحبة قيم أخلاقية وإيديولوجية جديدة، فقد جلبت معها ضيقاً سياسياً بسبب خاصية الإمبراطورية التي كانت تعتمد على نظام السلالات الحاكمة فهي لن تصمد أمام الغزوات العربية الإسلامية التي ستبدأ قريباً ونظراً لتثاقلها أمام هذه الغزوات فهي ستواجه نفس المصير الذي وصل إليه الآخمينيون أمام الاسكندر والنتيجة التي نتوصل إليها هنا هي أن النظام المتفسخ من الداخل لا يمكن أن يستمر بالعنف، ورغم وجود قوة عسكرية هائلة لم تستطع الإيديولوجية والمعنويات الحاكمة أن تتفوق على الإيديولوجيات الجديدة، وتلعب الثقافة الإسلامية في هذا النظام دور العناصر المطورة التي كانت موجودة في الثقافة الهلينية، ولم يستطع العنف الشديد الموجود عند الأولى أن يتماسك أمام العنف المحدود الموجود عند الثانية، فبالرغم من أنه شهد عدة هزائم في الماضي فقد استطاع التنظيم السياسي والعسكري الجديد المعتمد على دروس الماضي أن يحقق الانتصار، وشهد التاريخ عدداً لا محدوداً من التطورات المشابهة لهذه، فما عاشه السومريون أمام الأكاديين والبابليين والآشوريين، وكذلك ما عاشه المصريون أمام الفرس والإغريق والرومان هي أدلة على هذه الحقيقة، فعندما تزداد فظاظة النظام ويحتضر فإن القوة الجديدة القادمة من الداخل أو من الخارج ستقوض عاجلاً أم آجلاً القوة القديمة بالرغم من التباين في القوات. كان وضع الصين والهند أكثر تأخراً، ولكن عندما كان الوضع هنا يعيش تشتتاً وتفسخاً داخلياً، لعب العنف دوراً قاصراً ومثيراً للفوضى.

من المفيد جداً تحليل العنف الذي مارسته مؤسسات النظام العبودية السياسية والعسكرية، إن النظام الذي تجرأ لأول مرة في التاريخ على سحق بني جلدته بعنف وبشكل منظم، والذي ظهر إلى الحياة بأساليب لم يعرف التاريخ لها مثيل، مسؤول عن كتابة التاريخ بأحرف من دم، فلم يظهر أي حيوان هذه النزعة العدوانية الموجهة ضد أبناء جنسه، وبالتالي فمن الخطأ وصف العنف السياسي أو العسكري المعتمد على الفروقات الطبقية أو الثقافية أو الجنسية أو الاثنية بأنه ممارسة حيوانية بل على العكس هو ممارسة إنسانية وليست حيوانية، فهذا العنف هو حقيقة للمجتمع الطبقي الملعون، وهذه الميزة للتشكل الأول للعنف في النظام العبودي تقتضي أجراء تحليل دقيق، إن أهم ـ ومن الناحية الأخلاقية أخطر ـ تطور خلقته الطبقة العليا والحكام الذين لجؤوا إلى القدرة السحرية للعنف، هو جنون تأليه الذات، فعندما كان النظام يعلن عن طابعه الإلهي ويقوم بدعاية مكثفة لذلك، كان الباب مفتوحاً على مصراعيه أمام تخلف مظلم، ويشهد التاريخ بأمثلته المذهلة بأن أخطر الأنظمة هي التي قدست نفسها باسم الآلهة، إن طابع دولة العبيد المعجونة بالعجينة الإيديولوجية والمليئة بالعنف والمعقدة جداً لدرجة لا يمكن لتحليل طبقي فج وسطحي أن يصل إلى حقيقتها، هو الطابع

الأساسي لكافة الدول التي استمرت حتى يومنا هذا، لا تستثنى دولة الاشتراكية المشيدة من هذا الطابع، وبالإضافة إلى أن الشخصية الطبقية التي تدافع عن مبدأ العلمانية لم تستطع تحليل هذه الحقيقة بشكل تام، فهي لم تفعل أكثر من إدخال الظاهرة السياسية إلى منظومتها اللاهوتية، فالطابع العلماني للدولة المعتمدة على الثورة البرجوازية الفرنسية هو طابع سطحي لأنها لم تقترب من جوهر المشكلة ولم تلعب المواقف الإصلاحية أي دور أبعد من جعل المشكلة أكثر تفاقماً.

3ـ تحمل الانعكاسات الإيديولوجية للحضارة العبودية سواء في مرحلة النشوء أو في مرحلة الانحلال أهمية عظمى، يتم تحليل التاريخ من خلال تحليل اللغة الإيديولوجية، ولا يمكن الوصول إلى مفهوم صحيح للتاريخ إلا عن طريق ربط التطورات الميثولوجية والدينية والفلسفية الموجودة في كنف المجتمع الطبقي مع عناصرها المادية، وتتضمن كتابة تاريخ الميثولوجية والأديان والفلسفة بشكل مجرد ومنسلخ مخاطر كبيرة، لأن هذه المواقف تقدم نصف المعلومات عن الحقيقة وهذا أخطر بكثير من الجهل، إن ترك كتاب التاريخ الذي من الواجب أن يكون كتاب الإنسانية المقدس، مليئاً بالفراغات كما هو مليء بالتحريفات المذهلة، يجعل الإنسانية تعيش دون كتاب مقدس، فالعيش بدون التاريخ يعني العمى والتاريخ الخاطئ أسوأ من العمى، وعدم تحليل القوالب الذهنية والروحية الأساسية للمراحل الإيديولوجية للنظام العبودي هو الأساس الذي يكمن وراء هذه الحقيقة، إن منطلقنا الأساسي في هذا التقييم المتعلق بتعريف النظام العبودي، هو القدرة على النظر إلى التاريخ على أنه مقدس ولو بألوان خافتة بعض الشيء، أوضح هذا عبر الوصول إلى إدراك بأنه لا يوجد أي عمل أو أي شيء نابع عن التاريخ له تأثير مجدب للعقل والقلب.

يشاهد أنه مع تحطم البنية الإيديولوجية للنظام العبودي المعتمد على ميثولوجية عظيمة من ثلاث جبهات هامة، كان يتم العمل على تطوير الطرق المؤدية إلى الخلاص والحرية.

أ ـ مثلت الانطلاقة العبرية أول تجربة هامة للطريق الهام الأول، في الحقيقة أن تاريخ الديانات التوحيدية الثلاثة الكبرى عبارة عن فروع مرحلية لتقليد واحد، حتى لو أظهر كل واحد منها أنها تمثل الطريق الصحيح الوحيد. فمع تطور الوعي التاريخي تأكد أنه جرى تبادل في التأثر والتأثير بين هذه الأديان، فالشروط الموضوعية كامنة في أساس هذه الأنطلاقات، ولذلك فهي ليست إنطلاقات ذات مصدر إلهي، بل ظهرت نتيجة تطورات داخلية ذاتية.

ـ عندما أنشأ السومريون والمصريون المراكز الحضارية كانت القبائل ذات الجذور السامية والتي يقال لها العموريون عند السومريين والعبرانيي، والعموريت **Amorit**، وقبائل الصحراء الغربية و **Abiru** القبائل المغبرة

الشرقية عند المصريين تنتقل بين المركزين بشكل مستمر، وكانوا ينضمون إلى النظام كقوة عمل متجددة، أو أحياناً يقومون بغزوات وبأعمال السلب والسرقة، يبدأ هذا المسار مع نشوء الحضارة منذ 3000 ق.م، حيث تظهر باعتبارها مصدراً للتناقضات التاريخية الهامة. في شمال شبه الجزيرة العربية، لم تكن تملك قدرة المنافسة مع النظام، ولكنها كانت تمتلك إمكانيات الدفاع الجيد في عمق الصحراء، إذ كانت مؤسسة شيوخ القبائل التي تمثل زعامة القبيلة، قد تجاوزت دور الساحر والشامان، وكانت تمثل من قبل شيخ بمنزلة الشخص العارف الأكثر سناً، وكانت القبيلة تحكم بتقاليد بطريركية قاسية، فالشيخ هو ممثل النظام والقوة التطويرية فيه، من المؤكد أن التأثير كان نابعاً من كلا المركزين، وكان التغيير المالي والفكري يواصل مسيرته كأقدم تقليد في التاريخ، لقد أدركت القبائل وبشكل مبكر أهمية التجارة وراحت تمارسها، وكانت كل من مصر وميزوبوتاميا عادة بمكانة الحلقة المتممة، فنشوء السلالة الأكادية مع سارغون 2350 ق.م باعتبارها تعتمد على علاقات وثيقة مع هذه القبائل، يبرهن على قوتها المتزايدة، ونشاهد أن قبيلة إبراهيم حاولت الاستقرار في مصر حوالي 1700 ق.م، فالذهاب من حران "أورفا" إلى مصر والاستقرار فيها يعكس مستوى تطور التجارة والتنقلات، ويفهم بسهولة من خلال الكتب الدينية المقدسة أن قبيلة إبراهيم لم تستطع أن تتخلص من استمرارية نظامها الشبه عبودي، مع أنها عاشت هذا التناحر الموجه، وبالرغم من أنها لم تنل سوى بعض الوظائف المحدودة داخل المركز، فلا يصعب القيام بشرح كيفية تعرف هذه القبيلة على الأوهام الإيديولوجية المصرية والسومرية، وعلى البنية الفكرية الميثولوجية، وكيف أنها تأثرت بها بشكل مكثف، ومفهوم أيضاً أنه لم يكن بإمكانها التخلي بسهولة عن الأديان البطريركية "الأبوية"، بسبب الكيانات القبلية، ويمكن "والوضع كذلك" انتظار أن تؤدي هذه العلاقات والصراعات الشديدة إلى ظهور إنطلاقات مكثفة اعتماداً على البنى القبلية.

إن مؤسسة النبوة تعني التبليغ، وهي عبارة عن وحي من مصدر ما، فإن كان معناها قد فتح الطريق أمام تطور مذهل، فإنه يتم الاتفاق على وصفها بالانطلاقة النبوية ويأتي بمعنى "الشيخ الخالق". إن التنقلات الكثيفة للقبائل موضوع من شأنه أن يوضح إسناد أهمية للأشخاص الذين يقومون بمهمة قيادة الأنطلاقات التي تفتح الطريق أمام تأثر دائم وإلى التغذي من النظام، فإذا تمكنت بدورها تمهيد الطريق أمام أفكار وتنقلات من شأنها أن تؤدي إلى تطورات جديدة، فإن إطلاق اسم نبي على قائد القبيلة أو الكيان يعبر عن جوهر المؤسسة الجديدة، وفي هذه الحالة يمكن تعريف النبوة بأنها الشخص أو المؤسسة التي فتحت الطريق أمام بنية ميثولوجية أو دينية جديدة عن طريق دمج الأفكار التي استلهمتها من المراكز المصرية والسومرية ومن الذين جاؤوا من بعدهم، مع

المفهوم التقليدي والديني البطريركي للقبيلة، وإذا أضفنا إلى ذلك الجهود الرامية للحيلولة دون افتقاد القبيلة لكامل حريتها، فإن إنطلاقات النبوة تكون عبارة عن حركات تحريرية للقبائل ضد النظام القديم، وذلك تحت ستار ديني جديد، ولأن هذه الحركات لا تمتلك القدرة الكافية على تجاوز النظام القديم، فلا يمكن أن ننتظر منها أكثر من إجبار النظام على إجراء بعض الإصلاحات، والأهم من ذلك كله هو أن هذه الحركات ستقوم بتطوير منتظر، وهو أن ينتقل أثرها شيئاً فشيئاً من هذين المركزين إلى جغرافية واسعة باعتبارها طريق ثالث. فظهور الأديان الكبرى بقيادة النبي إبراهيم والتي ستؤدي إلى نتائج كبيرة في التاريخ، هو التعبير الواقعي لهذه التنقلات القبلية، ستلعب نزعة تطوير وتطويع النظام والإصلاحات التي بدأ بها هذا التقليد دوراً أساسيا سواء في انتشار النظام العبودي أو في تجاوزه. مع قدوم النبي عيسى سيلعب دوراً بارزاً، كحركة إيديولوجية واجتماعية في دخول النظام العبودي إلى مرحلة التفسخ.

وبشكل أكثر واقعية وتجسيداً يمكن شرح هذا التطور الذي يمكن أن نسميه بالمسار العبري، باعتباره قصة تحول الميثولوجية المصرية والسومرية بعد أن تصلبت أكثر إلى أديان توحيدية، ويمكن البدء بهذه القصة استناداً على انعكاساتها التاريخية ومن لحظة خروج النبي إبراهيم من مركز المستعمرات الواقعة تحت سيطرة السلالات البابلية والآشورية الموجودة في أورفا وضواحيها. إن أسطورة قيام النبي إبراهيم بتحطيم الأصنام تعني عدم اعترافه بالأعراف وبالميثولوجيا التي تدعمها والانتفاض ضدها، لقد انتشر في تلك الفترة أسلوب الحياة المتصارعة الناجم عن رغبة العديد من القبائل بالقيام بحركات تحررية من هذا النوع، وكانت دولة المدن في خندق واحد مع إيديولوجيتها الرسمية وثقافة عبادتها، وأصبحت ظاهرة توسع المجتمع الطبقي تهدد المساواة بين القبائل. فتناول منطقة أورفا ضمن العملية التاريخية لكونها أقدم منطقة أساسية للمجتمع النيوليثي، يمكن أن يكون قد جعلها مركزاً للحركات الاجتماعية التي انتشرت في هذه الفترة "بعد 2000 ق.م". ووجود مزارات النبي ومعتقداته التي مازالت تحتفظ بقوتها في المنطقة، تؤكد صحة هذه الظاهرة، وتعد هذه المنطقة بمكانة المركز المعارض لتحولات المجتمع الطبقي ذو الجذور البابلية الآشورية، ويعد التصدي للأصنام وتحطيمها بمثابة التعبير الرمزي والإيديولوجي عن هذه المرحلة. ومن الطبيعي جداً أن يتم النظر إلى النبي إبراهيم على أنه الجد الإيديولوجي لهذه المنطقة ورمز هذه البلاد، ومن الطبيعي معرفته للسيطرة البابلية والآشورية وبالتالي معرفته للهويات الوسائل الإيديولوجية.

ومن جهة أخرى كان هناك توجه للحفاظ على زعامة القبيلة والتقاليد البطريركية، وولادة تركيب رفيع من هاتين الثقافتين حتى تلك المرحلة من

التاريخ يحمل قوة كامنة مهمة لأجل التطوير، وتظهر المرحلة التاريخية أن هذا التركيب يعبر عن رمز إيديولوجي تحقق ضمن مرحلة كان يتم فيها الانتقال من الأديان المتعددة الآلهة إلى الديانات التوحيدية، ويمكن أن تلعب دوراً تقدمياً لأنها اكتسبت واقعية ضمن طابع تجاوز كلتا الثقافتين، في هذا الوضع يكون مصطلح الإله قد تضمن تجديداً هاماً وذلك بخروجه من كونه صنماً وصعوده من الأرض إلى السماء. إن استهدافه الدين المتعدد الآلهة وتمثيل هذه الآلهة بأصنام في التقاليد السومرية، يعني أنه يتخذ موقفاً ضد النظام السائد، أي ضد النظام العبودي، من جهة أخرى سيتوجب تجاوز الطوطمية ـ بصفتها الصنمية ـ باعتبارها إحدى بقايا الدين القبلي المتفسخ، وهذا الموضوع بدوره سيجبر على الخروج من نطاق القبائل الصغيرة الضيقة إلى اتحاد القبائل الرحب، وهكذا يظهر مصطلح الإله الواحد نفسه باعتباره نمط اعتقادي يقدم حلاً لهدفين؛ يظهر مفهوم الإله الذي تخلص من الضعف الواقعي للصنم الذي نسبت إليه قوة مبالغة فيها، والارتقاء إلى مستوى الخالق الذي يعطي الأوامر من السماء، ولذلك تطابق مع الواقع الاجتماعي، وقدم أجوبة وافية وكافية للقيام بالمقاومة والإنعتاق وتلبية متطلبات الوحدة، ومن الواضح أن البحث عن جواب كهذا للتغييرات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة لتلك المرحلة قد أخذ تصوراً تاريخياً، إذ أن جواب الإنعتاق والوحدة يملك طابعاً جذاباً ومقوياً ومجدداً. إنه التعبير المذهل للتصور التاريخي عن قيام المجتمع المصري والسومري بالدفاع عن نفسه وعن أصالته ولو بشكل محدود أمام مؤسسات البنية التحتية والفوقية للمجتمع التي بدأت منذ فترة بإظهار مؤشرات عن تفسخها، وكذلك عن الانفراج على شكل إقامة حياة جديدة، إن هذا التأثير القوي للأديان التوحيدية مستمر حتى يومنا هذا بسبب أهميته الكبرى لسد هذه الحاجة التاريخية.

إن الحركة الإبراهيمية التي نستطيع التعبير عن جوهرها على هذا النحو هي عبارة عن تركيب متداخل للثقافات الآرية ـ الهورية والسامية العمورية، الموجودة في المنطقة وهذا هو الجانب الآخر الذي يضفي عليها صفة الكونية في تلك المرحلة، لقد خلقت الأرضية الثقافية التي استندت عليها بمواجهة النظام العبودي والأهداف التي وضعها في الحرية والوحدة، سمواً عظيماً لإيديولوجية الدين الواحد، الذي أخذ على عاتقه مهمة إنتاج ميثولوجيا بنفس المستوى الذي كان يقوم به الكهنة السومريون والمصريون، ومع تجسيد هذه المهمة بمصطلح نبي ـ رسول، تحتم التفريق بين الإله والإنسان بشكل حاسم، هذا ما مهد السبيل أمام إصلاح كبير في المفهوم الديني بتحويله حقيقة عدم تأليه الإنسان إلى مبدأ أساسي. إن إدراك عدم استطاعة الإنسان بأن يكون إلهاً يعد ثورة كبرى، فقد كان يسيطر على كافة الاعتقادات السابقة نظام الآلهة ذو الشكل الإنساني، وانطلاقاً من هذه الاعتقادات يمكن للإنسان أن يعلن نفسه إلهاً، أو

يظهر نفسه بقوة الإله؛ علماً بأن آلهة ملوك سومر ومصر قد لعبوا دوراً تاريخياً كأنماط مذهلة ومتطرفة لهذا الاعتقاد، وبذلك فان مبدأ عدم تأليه الإنسان سدد ضربة كبيرة لهذا النمط من أنظمة العبيد، وبذلك نرى أن حركة إيديولوجية واجتماعية كهذه تحمل صفة الانطلاقة والممارسة القوية من شأنها أن تحلل النظام العبودي القديم. إن كل ما حصل في التاريخ وخاصة في الشرق الأوسط يعد التعبير القصصي لهذه الحقيقة، إنه الشرح الذي يقدم على شكل أساطير أو تاريخ أديان.

إن قصة هجرة النبي إبراهيم الى أرض كنعان ومن هناك إلى مصر تشير إلى اتجاه حركة تقاليد أكثر مما تشير إلى اتجاه حركته الشخصية، إنها أيضاً تتحدث عن حركة تبادل المال والفكر التي أخذت تتطور تدريجياً بين حوض دجلة والفرات وحوض النيل، وكانت الأجواء تقدم إمكانات كثيرة لهذه التحركات الموجهة، وتعكس انضمام قوافل المنطقة إلى قافلة التاريخ. إنها تتحدث عن الكثير من القبائل وعن العديد من الإبراهيميين، وإظهار هذا التقليد على أنه تيار واحد يوضح الطريق أمام وضع الشريعة الجديدة "القانون"، هذا التيار الذي ساد فيما بين 1700 - 1300 ق.م تقريباً حقق قفزةً جديدةً بخروج موسى من مصر، ولكن مرحلة إبراهيم تشهد تمركزاً وتحولاً في القدس وجوارها، وكانت هذه التوجهات تجري بانتشار حضارة الفينيقيين من الساحل إلى الداخل، لتصبح كل من القدس وأورفا مراكز تحويل وتغيير من الدرجة الثانية، ويظهر التأثر في هذه المرحلة في شخصية إبراهيم ويعبر هذا عن التغيير في نوعية الإله، وتحول الإله من رب للعائلة إلى رب لكافة القبائل، وبنفس الوقت عن كونه فعالاً في المنطقة ومستمراً ومكتسباً للقوة على شكل إمارة والاعتراف بها.

إن دفاع القبائل العبرية عن هويتها أمام السكان المحليين، فتح الطريق أمام تحولها إلى قوة نصف عسكرية وسياسية. وإنقاذ إسماعيل من تقديمه قرباناً للإله، كان تعبيراً عن التصدي للعادة التي كانت منتشرة في المنطقة والمتمثلة بالتضحية بالأبناء للإله "بعل" أي الإله المحلي الأكبر، وكان بذلك يخلق اختلافاً دينياً بموقفه الرافض وغير المطيع لأعراف وتقاليد الآلهة المتعددة ذات المظهر الإنساني، وتعد هذه الحادثة حلقة أخرى من حلقات هذا التحول، فكانت القبائل اعتماداً على هذا التباين تحمي نفسها من الانصهار في بوتقة السكان المحليين، وأما قصة "هاجر" فإنها تحكي عن هذا الانصهار بشكل جزئي، وإن رحلة يوسف وأبيه يعقوب إلى مصر تعكس تحركات القبيلة، وأيضاً يمكن فهم أن الجواري كانت موضوعاً للتجارة من قصة "سارة"، وحصولهم على بعض الوظائف الخدمية الصغيرة في بلاط مصر لم يمكنهم من تجاوز موقعهم كأنصاف عبيد، ربما بسبب وقوفهم مع الجانب المغلوب في مواجهات جرت بين

السلالات، ثم قاموا بإنجاز خروجهم بقيادة موسى خوفاً من عقوبة شديدة، ولشغفهم المستمر للحياة القبلية المستقلة، يحمل خروج موسى الذي يعتقد بأنه كان يضم خمسة وعشرين ألف شخص مؤلفة من اثني عشر ة قبيلة، نفس الأهمية التي يحملها خروج إبراهيم من أورفا، إن إدارة هذا العدد الضخم من البشر في الصحراء يحتاج تنظيماً عملياً وقدرة إيديولوجية على الإقناع، فالذي خلق موسى هو هذا المسيرة الصحراوية، ويستمر هذا النزوح الإلهي بالإجابة على اختلافات كبيرة بواسطة "الوصايا العشرة"، وبينما قام إبراهيم سابقاً بتحويل الـ " أل " أحد الآلهة العامة للمدن الكنعانية إلى "ألوهيم"، قام موسى بتحويله إلى إله قومي وأعطاه اسم "يهوا" أي هو الله، وعن طريق هذا التزاوج يكتسب هوية جديدة، باعتباره رب قوم تشكل من اتحاد قبائل إسرائيل "إسرائيل = الذي قابل الرب"، وكان التكلم مع الإله في الجبل من أحد بقايا التقاليد الشامانية القديمة التي كانت منتشرة جداً، وقد اتبع العديد من الأنبياء هذا التقليد، وهدفت الوصايا العشر إلى تحويل التنظيم الاجتماعي والإيديولوجي الجديد، وقاد موسى إلى شكل قانون ـ شريعة، وستعرف القبائل العبرية المتطورة بالخصائص السياسية والقومية عبر التاريخ وكقومية تمتلك شريعة وقوانين وتوراةً تبدأ بالوصايا العشرة.

بعد مسيرة موسى التي يعتقد أنها جرت حوالي عام 1250ق.م، تأتي مرحلة الكوادر القيادية "الحكام" ذات المستوى الأدنى، وأول من بدأ هذه المرحلة هو " يشوع " القائد الشهير لموسى الذي أمّن توطين قومه في فلسطين الحالية، ويبدأ الكهنة الذين يقومون بمهام الكهنوتية طليعة التوجه نحو الملكية في محاولة لخلق طراز صغير يماثل الطراز السومري المصري، وحتى إن كان عبارة عن تحوّل إلى استقرار جزئي، فإنه بالتأكيد كان يعكس طراز سومر ومصر. فعندما كان الكاهن الذي يدعى صموئيل يسعى لإنشاء دويلة كهنة حوالي عام 1000ق.م، كان يعيش في حالة صراع مع " شاؤول " ممثل الفئة السياسية ويبرز شخص من الوسط ذو شخصية ذكية وصاحبة تجربة، كان في الأصل راعياً وحداداً يدعى داود، ويقوم بإنشاء أول مملكة إسرائيلية في عام 1010ق.م، وبذلك تبدأ مرحلة الممالك التي تصل الى مرحلة الازدهار مع سليمان، ثم تتقهقر بعد ذلك لتدخل تحت السيطرة الآشورية في حوالي عام 700ق.م، وفي عهد الملك البابلي نبوخذنصر تم أسر العديد من الكهنة والأنبياء وسيقوا إلى بابل عام " 585ق.م ". وبعد فترة من هذه المرحلة دخلت بابل تحت السيطرة الفارسية، وهنا استفاد اليهود من السياسة التي كان يتبعها الفرس والمبنية على احترام كافة الثقافات، وبدأت مرحلة القدس من جديد، لقد كان تعلم القراءة والكتابة والعمل في القصور البابلية مفيداً جداً في هذه الفترة، ويلعب شخص يدعى عزرا، الذي أجهد نفسه كثيرا ككاتب، دوراً مميزاً في هذه

المرحلة، ونقل الكتاب المقدّس لأول مرة إلى المرحلة الكتابية، وتكتسب هذه المرحلة أهمية كبيرة مع تأسيس أول مجلس سياسي يدعى هاغادول "**hagadol**" ويتم التأثر بالفرس وخاصة بالتقاليد الزرادشتية، ويتشكل حزب مؤيد للفرس يدعى "فارس"، وبذلك يكون قد بدأ أول انقسام سياسي وكان يتضمن انقساماً طبقياً أيضاً.

بعد مرحلة الاسكندر تتم المواجهة مع السيطرة الإغريقية، وفي هذه المرحلة التي تسمى" **antiok** " يخضعون للتأثير الإغريقي ويتشكل حزب "مذهب" جديد عميل ومؤيد للإغريق يدعى "**saduki**" أي الصدوقيين ويحمل الصفة الأرستقراطية، ويصبح الذين يربطون اعتقاداتهم بالنظام الإغريقي فئة ضعيفة جداً، ويبدأ عهد الكتاب المقدس الثاني بالإغريقية باسم سبتواغانين، "**Septuaganin**" ويتم اختيار نخبة من "72" قبيلة لتستقر إلى جانب الملك الإغريقي في الإسكندرية لاستمداد القوة، لتبدأ شريحة تسمى بالمكابيين بمرحلة من المقاومة في أعوام 200 ق .م، هذه الاشتباكات العنيفة تسفر عن اكتساب هوية قومية وتحقيق الاستقلال، وفي مرحلة تفوق روما اللاحقة في عام 63 ق.م، يتم تنظيمهم كولاية رومانية متواطئة على شكل ملكية يهودية، وبينما كانت الطبقة العليا عميلة لروما تطورت حركة الأسانيين التي تمثل الفقراء والمعدمين، وبقتل واعظ هام من هذه الحركة يدعى "يحيى" تبدأ مرحلة التمردات في زمن عيسى، هذه الانطلاقة التي تشكل نقطة الصفر في التاريخ ملفتة للنظر حقاً، وتجعل الموقف العلمي منها مهماً جداً.

إذا تمت مقارنة هذه الحركة بوجوده كشخص فإنها مرتبطة عموماً بالوسط الثقافي العبري، وهي الحركة التي نظمت باسم "عيسى" فتحت الطريق أمام تعاظم تأثيرها في التاريخ شيئاً فشيئاً، وأما من حيث الجوهر فإنها تعبر عن حركة جماعية منفتحة على جميع الفقراء والمعدمين، وفي الحقيقة إن النزعة التاريخية قد وجدت لها قناة باسم "عيسى"، الذي لم يتخذ أي موقف خاص معاد لوالي روما "بلاتوس"، حتى أنه يتحدث عن السلطة الدنيوية بأنها من "حق القيصر"، لقد تصدى بشدة للمؤسسة الكهنوتية اليهودية الرسمية، وكان واثقاً من أن الكهنوتية قد فقدت جوهرها الإيجابي منذ زمن بعيد، وأدرك الصراع الموجود بين روابط المصالح المادية وبين عالم الفقراء وتبنى موقفاً تجاه ذلك، والأهم من ذلك كله إن اعتبار الدين التوحيدي بنظرته الشوفينية خاصاً باليهود فقط، يشير إلى تناقض واضح مع عالم الإنسانية الجديد الذي يجيش حوله، إن مفهوم التفوق القومي والقبلي منع نقل هذه التطورات إلى خارج الجذور الأثنية، وما يظهر هو مفهوم الانتساب إلى مجموعات اجتماعية أظهرتها نفس الظروف المادية، وليس الانتساب إلى الجذور الأثنية المشابهة، إن الأسينيين الذين استلهم منهم أفكاره كانوا مجموعة بهذا الشكل، فالتمزق العميق الموجود في الأساس

الطبقي للمجتمع اليهودي سيؤدي إلى تمزق الإيديولوجية اليهودية.

وفي الوقت الذي كان فيه النبيان إبراهيم وموسى يوليان أهمية عظمى لوحدة الأقوام والقبائل وحسب ذلك يشكلون الإيديولوجية والممارسة، وضع عيسى تقاليد وحدة الأقوام بالدرجة الثانية، بل وعارضها واضعاً مبدأً مناقضاً، وبذلك أضفى الصفة الكونية على إلهه، فلا وجود عنده للحديث اليهودي بل الأساس عنده هو إنقاذ الناس الذين يعيشون الألم والمعاناة، وبذلك يشبه بوذا بجانبه هذا إلى حد بعيد، وبالإضافة لذلك إن رغبته في فتح طريق السلطة أمام الفئة الفقيرة من العبريين هي حقيقة موضوعية، ولم ينشر حركته بالسبل السياسة العسكرية بل نشرها كحركة اجتماعية على أسس الإيمان والأخلاق حتى عندما تم اعتقاله عارض بشدة بيتروس عندما أراد هذا استخدام سيفه، إن أهم ادعاءاته هو إقناع الناس بأن الكهنة خانوا تقاليد النبوة، وبأنه هو المسيح "المنقذ المنتظر"، علماً بأنه كان يوجد في القدس مؤسسة كهنوتية غنية وقوية جداً، أسندت ظهرها إلى والي روما، أي أن الكهنوتية كانت منذ زمن عبارة عن قوة دنيوية مادية وسياسية وقد خرج الكهنة من كونهم موظفين خالصين للدين.

يمكن مشاهدة الأثر السومري باعتباره مفهوماً دينياً، وما ثالوث الأب والابن والروح القدس في الحقيقة إلا من مخلفات مفاهيم الآلهة الثلاثية، ويمكن إعادة هذا المفهوم إلى الماضي في تقاليد أنكي ـ تيامات ـ ماردوخ، فالأم مريم هي انعكاس ضعيف لثقافة الإلهة تيامات "عشتار سابقاً"، ولكنها تلد ابنها عن طريق نفخ روح الإله فيها "تعتمد مصطلحات الإله الأب والإلهة الأم والإله الابن على الثقافة السابقة الممثلة بالإلهة ـ الابن ـ الزوج"، من الواضح أن الحديث هنا يدور حول مزيج بين المثيولوجيا القديمة والاعتقاد بـ يهوا تم باسم عيسى، والأهم من ذلك اختلافه عن التيارات الدينية السابقة له، إذ يولي أهمية كبيرة لمعاناة الإنسان، وهنا تلعب الشروط المادية لوصول النظام العبودي الروماني إلى نقطة الذروة دوراً أساسياً، فتمرد سبارتاكوس في أعوام 70 ق.م جاء بمثابة دليل على إمكانية تحول المعاناة إلى تمرد، إنه يمتلك كافة الشروط التي تجعله قائداً لفترة كهذه من زاوية الولاية اليهودية والتراكم الثقافي وإرث التمردات.

لا يمكن القول بأن عيسى كان منظماً أو مخططاً ممتازاً، بل كان إنساناً مؤمناً ذو أخلاق حميدة، وكان صادقاً بإيمانه نذر كامل حياته من أجل ذلك، ومقاومته حتى النهاية ضد اللعنة التي حلّت بالبشرية هي ضرورة لا تنفصل عن كونها "كلام الله"، ولم يكن في وضع يسمح له بأن يفكر بالسياسة والتكتيك أو أن يطبق ذلك، وفي الحقيقة إن هذا الجانب الذي يبدو ضعيفاً في شخصه هو الجانب الأقوى الذي سيفتح أمامه أبواب التاريخ.

حقيقة كان عيسى بهذه الميزة يمثل القيادة، والتي لم يكن هو ممثلها لكان على المرحلة أن تخلقها، ولهذا السبب فإن عيسى هو قائد ـ نبي أوجدته المرحلة وأنشأته، أكثر من كونه أنشأ نفسه ليكون قائداً ونبياً، ويتم تحويله إلى منقذ أخذ على عاتقه تطلعات كافة الذين يعانون من الألم والفقر واللعنة للخلاص، بالإضافة إلى غضب الملعونين يصبح المسيح المنتظر منقذاً، فلا يمكن لأية شخصية أن تتحمل مسؤولية القيادة بمهاراتها الخاصة، دون توفر الشروط المادية والتراكمات التاريخية، ويسري هذا الحكم على كافة القيادات المعروفة، إن الحقيقة على الأغلب تقول: إن الصلب هو الذي خلق عيسى الحقيقي، فلولا الصلب لانطفأت العيسوية وانتهت كإحدى الطرق الصوفية التي كانت منتشرة بكثرة في تلك المرحلة من التاريخ.

وفي هذه الحالة تكون البنية الثقافية الخاصة بالوسط ومرحلة الطرق الصوفية الخاصة بالفقراء وعالم الحقائق الاجتماعية المادية التي أنضجها النظام العبودي في روما، خلقت نبيها العظيم في شخصية عيسى ومن مجموعة صغيرة "بصعوبة بالغة اجتمع أثنى عشر حوارياً بينهم خائن" ولدت حركة إنسانية عظيمة، لا شك بأن الثقافة العبرية والثقافة الإغريقية أثرتا في ذلك بشكل عميق، ولا شك بأن ثقافات ساهمت وقد قدمت شيئاً ما، فقد اتحدت الأخلاق الزرادشتية وحياة ومعتقدات الطبيعة للستاوين "**Sto**" مع الجوهر النبوي السليم للثقافة العبرية، وفتحتا الطريق أمام العيسوية وبهذا المعنى يمكن أن نعتبرها كتركيبة جديدة، أعظم حركة ضد النظام العبودي بتركيبتها الطبقية والأخلاقية والعقائدية، وانتشارها السريع بين كل الأقوام مرتبط بهذه الميزة الكونية بشكل وثيق، فالايمان الغني والقوي والجوهر الأخلاقي يفتح الطريق أمام حركة اجتماعية قوية جداً، وإذا عرفنا المسيحية بهذا الشكل نكون قد اقتربنا جداً من الحقيقة.

إن قصة المقاومة السرية التي استمرت300 سنة لهذه الحركة هي في الوقت ذاته قصة تفسخ شجرة الحضارة الرومانية، لقد ضحى عدد لا محدود من القديسين والقديسات بأرواحهم، ولكنهم تمكنوا من القضاء على أكبر ممثل للنظام العبودي، ولعب الدفاع عن معاناة الإنسان وأسلوب العمل المسالم ونظام حياة الدير الجماعية دوراً هاماً في امتلاك الإنسانية لأقوى بنية أخلاقية أصيلة، لقد كانت الميثولوجيا المسيحية في البداية ثانوية، ولكن بعد ذلك وفي مرحلة السكولاسية "المدرسية" وبعد ان تحولت إلى قوة سياسية ومادية، حولتها البابوية إلى قوة أساسية، فعند عيسى لم تكن العقيدة هي الأساس بل الموقف أخلاقي، ولم تكن القوة المادية عنده أساساً بل القوة المعنوية.

وبعد ذلك عندما أصبحت المسيحية هي الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت في الحقيقة بداية مرحلة الانحلال، إن استخدامها كوسيلة

إيديولوجية أثناء الصراع على السلطة أدى إلى انقسامات كبرى، وبعد انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية تحولت المسيحية إلى إمبراطورية "البابوات"، ولأن العصور الوسطى كانت مسرحاً للمؤسسين والمدافعين، لذلك يجب الوقوف عند التطورات التي جرت في هذه المرحلة لأهميتها البالغة.

لقد رأينا أن ولادة وتطور المسيحية كانت نتيجة لتفسخ وانهيار النظام العبودي من جهة وعامل تسريع لهذا الانهيار من جهة أخرى، وبتمهيد التقاليد العبرية الطريق أمام الأسينيين وأمام عيسى أصبح لها تأثير قوي في العصور الوسطى، وأما اليهودية القومية ستشتت اليهود مرة أخرى عام 70 م إلى أنحاء العالم وستكتسب المجموعات اليهودية مهارة خاصة يؤهلها لتلعب دوراً هاماً في فرض الانهيار على الأنظمة وتأسيس أنظمة جديدة بديلة، وسيتعلمون كيف يكونون فعالين في ذلك حتى يومنا هذا، إن القبلية اليهودية التي تعاظمت بالتجارة في البداية تحولت إلى قومية فيما بعد وعززت هذا التقليد، ولم تصبح التجارة مقتصرة على تبادل السلع بل أصبحت وسيلة أساسية لتبادل الأفكار أيضاً، ويواصلون تطوير أنفسهم كممثلين لهاتين التجارتين، وفي الوقت الذي كانت فيه الثقافة اليهودية التي راحت تزداد خبرة في هذا العمل كانت تتسبب في خلق المصاعب لقومها، فهي اكتسبت خبرة بهذه التجارب كي تصبح قوة عميلة وسيطة لكل الحضارات، فلقد استوعبت سومر وبابل وآشور وفتحت الطريق أمام سيدنا إبراهيم وديانته، وحلت مصر، ودافعت عن حملة موسى التحررية ودينه، وبهذه التجارب أصبحوا أفضل قوم يدركون معنى وأهمية الدين، وكما استفادوا من النظام العبودي في سومر ومصر من الناحية التجارية بالقدر الذي كان متطوراً فيهما، كذلك استطاعوا أن ينجحوا في تبنيهم لأفكارهم ومعتقداتهم وتعلموا القراءة والكتابة من البابليين والفرس، واستطاعوا أن يكونوا أصحاباً لأول كتاب مقدس مكتوب، وأن يرفعوا مستوى ثقافتهم التي تعلموها من الفينيقيين قبل الإغريق والرومان.

طبعاً إن هذا النقل التجاري والفكري يأتي بمعنى جمع وتوزيع التناقضات الكبيرة أيضاً، وبالتالي فقد جروا على أنفسهم أكبر الكوارث، ففي الوقت الذي كانوا يحضرون فيه لانهيار روما بفتحهم الطريق أمام عيسى، تشتتوا في كافة أنحاء الأرض، وفي الوقت الذي كانوا يسعون فيه لتعليم العالم في كل مكان كانوا يعرضون أنفسهم للمجازر بسبب شوفينية الشعب المتفوق، وبينما كانوا يلعبون دوراً ثقافياً أساسياً أثناء ولادة الإسلام ومحمد في الجزيرة العربية، تلقوا الضربة القاسية من الإسلام ذاته، وبينما كانوا من القوى الخلاقة في العصور الوسطى؛ أوقعوا أنفسهم في موقع تعرضوا فيه لكل أنواع المجازر، وبينما كانوا يأخذون مواقعهم على رأس القوى الطبقية والمثقفة التي لعبت دوراً أساسياً في فكر وقوة رأس المال الأساسي الذي وضع الأسس لعصر الرأسمالية

لم يستطيعوا أن ينقذوا أنفسهم من المجازر والضربات التي تلقوها من الرأسمالية ومن الماركسية فيما بعد، هؤلاء هم العبريون أصل القوة والقومية والثقافة.

ب ـ لا يمكن إهمال تقاليد وأعراف الكهنة المغان الذين اكتسبوا أهمية اعتباراً من عام 1000 ق.م، ولعبوا دوراً في انحلال النظام العبودي في القوس الخارجي لسلسلة زاغروس ـ طوروس، وفي نجود ميديا ـ فارس، إن لهذه النزعة التي أظهرت نفسها باعتبارها النضوج الأخلاقي لمجتمع الزراعة وذلك خارج التقاليد الميثولوجية السومرية، إسهاما كبيراً في أحياء إرادة الإنسان التي خلقت من جديد، كما إن هذه النزعة التي تميزت بالجانب الأخلاقي ضمن المجموعات الآرية، والتي جعلت تأليه الإنسان موضوعاً ثانوياً، وأدت إلى ازدهار الحضارة الميدية ـ الفارسية بعد أن عرضتها للإصلاحات أيام زرا دشت قبل سقراط وبوذا وعيسى بكثير، أسقطت الإمبراطوريتين البابلية والآشورية اللتان كانتا تعيشان أثقل أشكال النظام العبودي، لقد شكل التقليد الزرادشتي الذي نسج البنية المعنوية والعقائدية السامية ضد العبودية القديمة، الأرضية الأساسية التي أثرت في بوذا وسقراط ومن بعدهما النبي عيسى، فقد لعبت فلسفة الإرادة الزرادشتية دوراً مصيرياً في تمزيق النظام المعتمد على التفريق بين الإنسان الذي لا يملك حتى ظله، وبين الإنسان الذي وضع نفسه مكان أقوى الآلهة، ذي المكانة القوية، وإن محاكمته لإلهه أهورا مازدا الذي لم يدرك ذلك، تزيد من قيمته كثيراً، فإسقاط العبودية القديمة على هذا الأساس، لعب دوراً في ازدهار الحضارة الإغريقية الرومانية من الناحية المادية والإيديولوجية وبشكل مباشر، وبالرغم من انهيار البرسيين فإن البارتيين ومن بعدهم الساسانيين الذين يعتبرون استمراراً لهم، وصلوا إلى قوة كبيرة تفرض الضرائب على روما فيما بين عام 250 ق.م إلى 650 م. لقد خلقت الأرضية الإيديولوجية والمعنوية لهذه الحضارة أيضاً في التقاليد الزرادشتية، وكذلك هناك المانوية "مؤسسها ماني 215 ـ 275 م" التي أجرت تركيباً خاصاً بين الزرادشتية والمسيحية، وهناك وجهة نظر موحدة لولا مجازر الكهنة الساسانيين الرجعيين لانتشرت هذه الحركة كما انتشرت المسيحية، إذ من المعروف أنها وصلت حتى أوروبا على شكل طرق صوفية، وأثرت على العصر الوسيط، واستطاعت أن تصل إلى مستوى الدين الرسمي لأتراك الأويغور في الشرق.

كانت الطرق الصوفية في جغرافية الشرق الأوسط في تلك المراحل تظهر تطوراً كبيراً باعتبارها نوعاً من المجموعات العقائدية والاجتماعية الخاصة. إن أهمية هذه الطرق تكمن في كونها تشكل مرحلة هامة لتطور الإرادة والفكر المستقل لدى الفرد، كما لعبت هذه المجموعات الصغيرة لوحدها دوراً هاماً في انهيار النسيج الأخلاقي والعقائدي الرسمي للنظام العبودي، عن طريق انسلاخها عن البنية العقائدية والأخلاقية الرسمية، ويعد **ESSEN** الذين ينتمي

إليهم النبي عيسى والحنفيون الذين تأثر بهم محمد، مجموعتين من هذه المجموعات السرية العقائدية الصوفية، وبالقدر الذي عمل فيه مجتمع النظام العبودي ومؤسساته السياسية ببنيتها القاسية على خنق الإنسانية، لعبت هذه المجموعات دوراً هاماً في تشكل النظام الذي يفسح المجال أمام نزعة الحرية. باختصار مع تزايد رجعية روما في الغرب ورجعية الساسانيين في الشرق التي ازدادت شيئاً فشيئاً، هرب الناس من أجواء الاشتباك بينهما التي استمرت مئات السنين، وتأثروا بالمدارس الفلسفية الإغريقية وبالتقاليد المحلية القديمة "التقارب الموجود بين الإنسان والآلهة في المرحلة النيوليثية"، ودخلوا في مرحلة تشكيل طرق صوفية واصلت تواجدها حتى أيامنا هذه، لقد تشكلت تنظيمات على شكل مذاهب وطرق مختلفة ضد استبداد النظام العبودي الكلاسيكي في مرحلة ما بعد آشور، بما يماثل المجموعات اليمينية واليسارية في يومنا هذا، ولعبت هذه الطرق والمذاهب أدواراً هامة، فهم الأبطال المجهولون وصانعوا التاريخ، أنهم أبطال المقاومة في أنظمة العشائر والقبائل ضد النظام العبودي في العهود القديمة، هؤلاء الأبطال الذين لم يدون التاريخ بطولاتهم وربما نكون أقرب الحقيقة أكثر إذا قلنا: إن التاريخ هو تاريخ البطولات التي لم تدون.

ج ـ تتجلى نقطة التصدع الثالثة المهمة التي تعرض لها النظام العبودي القديم، المعتمد على المثيولوجيا ذات الجوهر الإيديولوجي، في التطورات الفلسفية باعتبارها الجهود الأولى التي لا تعتمد على إدارة الله لتغيير الطبيعة، لقد استندت الحضارة في ولادتها وتطورها على المثيولوجيا، وقامت بالدعاية لوجهة النظر الميثولوجية التي أحاطت بكل البنى الفكرية والروحية للبشرية على مدى آلاف السنين فما دامت الآلهة قد قررت كل شيء مسبقاً، لا حاجة للتفكير والحركة، وكل ما هو مقدر سيعاش، وكان النظام يستمد قوته الكبرى من هذا الإيمان الأعمى بالقدر، وإذا ما أضيف إلى هذا القدر قوة الملوك ـ الآلهة تكون قد فتحت الأبواب على مصراعيها أمام ممارسة عبودية لا حدود لها.

تلقى النظام ضربة إيديولوجية قاسية وهامة عندما أرسى النبي إبراهيم أسس الإيمان في الدين التوحيدي الذي لا يعترف بتأليه الإنسان، وعندما طبقت التقاليد الزرادشتية التي لا تربط التصرفات الإرادية للإنسان بالرب وتعتبرها تفعيل للأخلاق الحرة ووضع ذلك في صيغة سياسية، أدت إلى عدم قدرة العبودية القديمة من طراز مصر وسومر على الصمود، وإذا أمعنا النظر سنجد أن أحدهما فتح الطريق أمام ثورة المعتقدات والآخر فتح الطريق أمام ثورة الإرادة والأخلاق.

أما الثورة الفلسفية التي تنامت في أحضان النظام العبودي الإغريقي والروماني التقليدي فأنها ستوجه الضربة الإيديولوجية القاضية، وستدخل

المؤسسات وطراز الحياة العبودية موضوعياً تحت تأثير القوة العقلية، ومع البدء في التفكير العقلي المستقل المنفصل عن الله والدوغمائيات الدينية، سيتوجه نحو تركيبة جديدة، ويحاول الفكر الفلسفي وخاصة عند أفلاطون وأرسطو إنقاذ دولة مدينة أثينا والوصول بها إلى الكمال، وتصب كافة الجهود التي بذلها سقراط الذي يعتبر أباً للفلاسفة البرهنة على إمكانية خلق المواطن العالم، وبذلك أكد إمكانية إنقاذ دولة أثينا بواسطة مفهوم المواطن الواعي، ولهذا الهدف كان يريد أن ينجز كل عمل بالاعتماد على المعرفة الكاملة أولاً، كان هذا هو جوهر فلسفته، وأما أفلاطون فقد جعل من تحويل هذا المفهوم أو هذا الموقف الأخلاقي إلى دولة هدفاً أساسياً، وكانت الدولة المثالية عند أفلاطون هي التي يحكمها الفلاسفة، وأما أرسطو فإنه يعتمد على أن الطريق العملي والأفضل يمر عبر الإدارة الأرستقراطية، وبالتالي فأنه يعتمد على تعليم هذه الطبقة، لكن رغم ذلك حدث العكس، لقد انهارت دولة وديمقراطية أثينا، وأدى طراز الفكر الفلسفي موضوعياً لسقوطها، لأنه لا مكان لعقل الإنسان وإرادته في طبيعة النظام العبودي، حيث يكون الإنسان ـ العبد عبارة عن وسيلة إنتاج لا يمتلك أي حق، في الوقت الذي يتم فيه تأليه مالكي العبيد، لقد رأى الفكر الفلسفي نفسه في بداية عهد السفسطائيين في حالة من الصراع وعدم الوفاق، إذ كان السفسطائيون يقولون بصراحة أن القوانين لا تمثل بنية الإله بل تمثل بنية الإنسان، وكانوا يتحدثون عن حق كل إنسان في التصرف حسب فكره وعقله، حتى أنهم بدؤوا أول مرحلة للنقد العقلي، لقد تم الدخول إلى هذا المسار منذ أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، فتصاعد الحضارة الإغريقية وانحلالها مرتبط بهذه الحقيقة، ولا يمكن التفكير بعمر طويل للدوغمائيات في مكان يبدأ فيه العقل بالتفكير الحر، ولذلك كان لا مفر من انحلال النظام العبودي المعتمد على الدوغمائيات أمام قوة العقل، ولأن دولة أثينا أدركت هذه الحقيقة فقد قامت بنفسها بتقديم السم الى سقراط الذي أراد إنقاذها، وطردت أفلاطون وأرسلت أرسطو إلى منفاه طوعاً، وقامت بوضع نهاية مؤلمة لكثير من الفلاسفة تماماً كما حدث في العهود الأولى للمسيحية، فلقد انقسمت كافة المدارس الفلسفية إلى مجموعات شبه سرية، وبدأت مرحلة نوعية من الفلسفة الباطنية تلاحق، واستمرت ملاحقة الفلسفة حتى عام 500 م. وأغلقت آخر مدرسة فلسفية خلال هذه الفترة، ليتم الرد بثورة عقلية مضادة مع الدخول إلى العصور الوسطى.

ان قبول روما الفلسفة "الستوائية" كنظرة رسمية على نطاق واسع، كان بسبب حاجتها لإيديولوجية تخاطب بها كل الناس بصفتها إمبراطورية كونية، لقد كان "الستوائيون" يشعرون أن الإمبراطورية هي قدرهم، فحسب مفاهيمهم الطبيعية إن أفضل أسلوب للحركة هو العيش بانسجام مع النظام تماماً كحالة الانسجام الموجودة في الطبيعة، لقد حولوا الفلسفة إلى نوع من الدين

للإمبراطورية، ومع الإعلان عن المسيحية كدين رسمي كونوا بنية مفصلية تضم كافة المدارس الفلسفية، وتبنتها الدولة كوجهة نظر رسمية ووضعتها في خدمتها، والستوائيون هم أفضل من مثل ذلك، لكن رغم ذلك لم تصمد الإمبراطورية الرومانية التي تعتمد على الانقسام إلى عبيد لا يملكون أي حق، وإلى إمبراطور يملك القوة المطلقة، أمام التطور الذي أيقظه العقل والذي يقر بأن الإنسان يستطيع فقط ان يكون عبد الله المحبوب.

إن الذي حل وأركع وهدم الإمبراطورية الرومانية، أقوى نظام للعبيد، ليس البرابرة الذين قاموا بغزوات مستمرة من الشمال على مدى مئات السنين، بل هي الحركات الفكرية والاجتماعية التي تنامت في أحضان النظام على مدى عدة قرون، ومزقت البنية الإيديولوجية بقوة العقل والعقيدة. إن هذه الحركات كانت عبارة عن تطورات صغيرة من حيث الحجم، لكنها كانت مصيرية من حيث الأثر الذي تركته، وهناك قصة تروى حتى الآن في أورفا تقول: بأن نمرود "ملك آشور أو أحد ممثليه" لم يقتل بالسيف بل البعوضة التي دخلت إلى دماغه هي التي قتلته، ومن الواضح أن هذه البعوضة تعبر عن الأفكار والمعتقدات الجديدة، والأكثر وضوحاً من ذلك هو كما رأينا سابقاً أن ما أدى إلى انهيار كافة الأنظمة الدوغمائية بما فيها النظام العبودي هو البعوضة التي دخلت إلى عقله، بمعنى أن سبب الانهيار هو الأنماط الفكرية والعقائدية الجديدة الموجهة إلى البنية المعنوية والعقائدية للنظام، إذا كان العنف الفظ قد نجح سواء في الداخل أو الخارج فما هو سوى توجيه ضربات قوية من أجل إكمال عملية الانحلال الموجودة، إن إمبراطورية روما الأسطورية هي إحدى الأمثلة البارزة التي تؤكد هذه الحقيقة.

4ـ علاقة النظام العبودي بالزمان والمكان: ثمة موضوع آخر يجب تعريفه وهو الزمن التاريخي للأنظمة وعلاقاتها بالظروف الجغرافية، فاستيعاب علاقة كل نظام مجتمعي بما نسميه بروح الزمان وبالقوالب الروحية والذهنية الأساسية للمرحلة أو العصر الذي جاءت فيه يحظى بأهمية على صعيد نيل المعلومات الصحيحة، فمن الصعوبة بمكان إسناد التشكل الذهني والروحي لعصرنا إلى علاقات النظام العبودي، ولا يمكن ذلك إلا بعملية تحول لبنية المجتمع التي تحملها شخصية الإنسان عن طريق تحريف كبير وتخريب للوعي، والذي يقابل ذلك هو وعي وإدراك الحرية ومستوى مقاومة الإرادة والنزعة العامة للعصر، إن الأبعاد التي ستحمل هذه المواقف وتطبيقاتها أكبر من ذلك بكثير، إذ لا نصيب لأي تطبيق مناقض لطبيعة العصر بالتقدم إلا في الحالات الخاصة" حروب، تمردات" لأن حالة الاتصال الموجودة والقوانين الكونية ومستويات الوحدة السياسية لا تعطي لتطبيقات كهذه فرصة الديمومة لفترة طويلة.

ولهذا السبب فإن لأسلوب العلاقات العبودية علاقة وثيقة مع المراحل التي يتم فيها الاعتراف بحقوق الإنسان حتى الآن، وببقاء الاتصال ضعيفاً وعدم تشكل المؤسسات السياسية الداخلية والخارجية التي تقوم بالمحاسبة، فالهيمنة المطلقة للسلطة السياسية والدينية "هناك تداخل بين السياسة والدين" على أعضاء المجتمع هي الميزة الأساسية للنظام، لم تكن مؤسسات طبقة المالكين في النظام العبودي تجبر الفرد على الارتباط بالعلاقات التي تعتمد على الإشباع وحسب، بل عليه أن يؤقلم ذهنه وروحه وكل حياته وفق هذه العلاقة، وكانت الرابطة الزمنية للعبودية في العصور البدائية مرتبطة مع الإنسان بهذا النمط من العلاقات، لقد تم هنا إنشاء رابطة ديالكتيكية كاملة بين تشكل المجتمع وبين الزمن، وهذا ليس اختياراً طوعياً، لأنه حسب الفيزيائي أنيشتاين، فإن الزمن باعتباره بعداً نسبياً يقيد النظام، إنه بمثابة قوة كاملة، ومثلما لا يمكن أن يوجد النظام العبودي دون زمن، فلا يمكن أيضاً الحديث عن تشكل مجتمع لا يعيش مع الزمن، ولا يكفي قياس الزمن بحوادث الطبيعة على أنه مؤثر فقط، فالأهم من ذلك الوصول إلى مقياس المجتمع مع الزمن، فالزمان في العلوم الاجتماعية لم يستوعب بعد ولم يتم إبراز تأثيره، وأي علم اجتماعي صحيح تتوقف درجة صحته على تعيين مقياس الزمن وإضافة البعد الزمني على كافة العلاقات والتناقضات وتكوين الحركة الاجتماعية، وبناء عليه يمكن تحديد مراحل رئيسية إذا وضعنا ترتيباً زمنياً تاريخياً للحضارة العبودية.

1 ـ ولادتها وتطورها: من المحتمل أن هذه المرحلة استمرت في الفترة بين العامين 3500 - 2500 ق.م، حيث تم إنشاء الدولة، وتمت البرهنة على قدرة النظام على الاستمرار، فهو مناسب للتوسع والاستيطان، ويمكن لهذا النظام أن يعطي طابع السلالة أو المجموعة السياسية التي تتمتع بالسلطة المطلقة للكهنة ــ الملوك الذين تستروا خلف الوضع الذهني والروحي للإنسان، وخلف المثيولوجيا التي أخذت شكل مجمع الآلهة "بانتيون"، وفي الوقت الذي كانت فيه الهيمنة الإيديولوجية هي الأساس، فإن الإدارة السياسية الحديثة العهد كانت تأتي في المرتبة الثانية، وكانت السلطات المهيمنة التي أقامت الدولة تنظر إلى كافة العلاقات على انهما ملكيتهم المطلقة، ويمكن تسمية هذه المرحلة بنظام الملوك ـ الآلهة، فلقد تشكل جوهرها في الحضارة السومرية وأكثر ما تأثر بها هي حضارة المصريين وحضارة الهارابا في البنجاب والمهنجدارو ويعتقد أن مصر شهدت هذه المرحلة في الفترة بين 3000 - 2350 ق.م، وأما الحضارات الأخرى فقد شهدتها بين أعوام 2500 - 2000 ق.م.

كانت الميثولوجيا هي الشكل الأساسي للفكر في هذا الوقت، لغتها شعرية، إذ كانت لغة الشعر مسيطرة على كافة أشكال الأفكار الميثولوجية في الأزمنة الأولى، وكان الشعر هو المعبر الحقيقي عن صفاء الحياة وسكونها،

واللغة الشعرية هي رياضيات الحياة، والعلاقات التي تتمزق فيها الشاعرية هي علاقات تنم عن الانحطاط والاغتراب، والتظاهر الشعري للحياة يعتبر تجاوباً صحيحاً مع جوهرها، والابتعاد عن الشاعرية له علاقة بفقدان الحياة عن قرب.

عند تناول هذا الموضوع يجب إلا نقع في الخطأ التالي؛ لا يمكن لمقاييس الأوزان، ترتيب المقاطع، الطول والقصر أن توضح حقيقة الشعر، وهي مجرد تفصيلات، فالامر الحاسم والأساسي والمحدد في لغة الشعر هو الجوهر الذي تتناوله وليس الجمل الموزونة والشكليات المختلفة الأخرى، وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه المرحلة تتضح من خلال مؤسسة الكتابة، وهناك علاقة أكيدة بين ولادة الحضارة وبين نظام الكتابة، وطبعاً عندما يقال ذلك لا يقصد به إشارات الأحرف والأرقام وحسب، بل والإشارات التي تعكس الفكرة، وبهذا فإن مرحلة فكرية وصلت الى هذا المستوى قادرة على خلق الحضارة. ظهر أيضاً فن عمارة المعابد والقصور باعتبارها إحدى المؤسسات الأساسية، فلا يمكن الحديث عن مرحلة عبودية لا تمتلك معابد وقصور، فقد تم إنجاز كافة القصور والمعابد في بداية مراحل النشوء واستمر التطور فيما بعد على هذا الشكل في المراحل اللاحقة، وكان نظام الملكية يمثل شكل العلاقات الدنيوية التي تسيطر عليها الآلهة، وكانت الملكية الجماعية هي الشكل السائد فالأرض هي ملك للجماعة، والادارة مصدرها إلهي، وما على العبيد إلا أن يقوموا بوظائف الخدمة.

كانت المدينة مكان الاستقرار الأساسي، وهي المؤسسة التي تحدد روح المرحلة وذهنيتها، ولبدء الحضارة علاقة كبيرة مع دولة المدينة، فالمدينة لا تمثل شكل الاستيطان الفيزيائي فقط، بل كانت مركز المجتمع السياسي والاجتماعي الذي يخلق الروح والذهنية الجديدين، وتطورت وتكاثفت الحرف لكنها لم تكن مستقلة بعد، وتحكمها العلاقات العبودية كجزء من القصر والمعبد، وأساسها يعتمد على امتلاك الإنسان، وتحظى بشكل العلاقات المشابه للتجارة النامية، ويصعب الحديث عن الطبقة الوسطى وتكون شخصياتها، فقد كانت علاقة الحاكم والمحكوم، والإداري والمدار؛ المطلقة، علاقة من يملك كل شيء من جهة ومن لا يملك من جهة أخرى هي السائدة في كل المواضيع، ولا يمكن الحديث عن أية هوية أو إرادة أو حرية للطبقة الوسطى.

كانت أدوات الإنتاج بشكل عام من إبداعات المجتمع النيوليثي، وبدخول إدارة المدينة الجديدة إلى الملكية الجماعية ظهر نمط جديد للعلاقات، ولا يصادف في هذا العهد أي إبداع بصنع أدوات خاصة به، ويصح هذا أيضاً على الأرض التي نظمت، فالري الصناعي والطبيعي كانا من أكثر الظواهر التي تم الارتباط بها، وتركت المجموعة الاثنية مكانها للمجتمع الطبقي،

وتطورت ثقافة السلالات الحاكمة، وإن فهم المؤسسات المادية والبنية الروحية ـ الذهنية لتلك الشريحة الزمنية وتحليلها، هو من مسائل ومهام علم التاريخ الأساسية.

2 ـ مرحلة النضوج والانتشار: تشمل هذه المرحلة الفترة الممتدة بين 2500 ـ 500 ق.م، واختلفت من مركز لآخر، وأهم ميزات هذه المرحلة أن النظام أصبح أكثر رسوخاً وانتشاراً، ويترك المجتمع السومري في هذه المرحلة مكانه للبابليين والآشوريين في حوالي2000 ق.م، وتطورت مرحلة السيطرة البابلية والآشورية بشكل متداخل، لأنها جرت بشكل متداخل ومتناقض ورغم ذلك تتكاملان مع بعضهما البعض، وشهدت الأعوام من 2000 ـ 1600 ق.م، مرحلة الولادة والتطور ومن 1600 ـ 1000 ق.م مرحلة النضج المتوسط ومن 1000 ق.م ـ 100 م مرحلة الذروة والانهيار وأما الحضارة المصرية فقد مرت بمرحلة الولادة والتطور بين الأعوام 3000 ـ 2350 ق.م، وبمرحلة النضج المتوسط ما بين 2000- 1800 ق.م، وبمرحلة الذروة والانهيار 1500 ق.م إلى صفر، في حين ان حضارة الهارابا لم تتمكن من الاستمرار وزالت في أعوام 2000 ق.م، وأما التسلسل الزمني في الصين فكان على الشكل التالي: 1500 ـ 1000 ق.م، مرحلة الولادة والتطور، وما بين 1000 ـ 500 ق.م مرحلة النضج المتوسط، ومن 500 ق.م ـ 500 م مرحلة الذروة والانهيار، وفي الهند ما بين 1000 ـ 500 ق.م مرحلة الولادة والتطور ومن 500 ق.م ـ 500 م مرحلة النضج المتوسط، وما بين 500 ـ 1000م مرحلة الذروة والانهيار، والحضارة الإغريقية الرومانية هي عموماً نتاج لمرحلة نضج وتفسخ، أما بالنسبة للحضارات التي في مستوى أدنى مثل حضارات الحثيين والميتانيين والفينيقيين والعبريين والكريت، فقد كانت تشبه النموذج الرئيسي، وتحاول أن تعيش بشكل كلي أو جزئي ضمن نفس المراحل.

إن الميزة الأكثر وضوحاً لهذه المرحلة هي النمو والانتشار عن طريق التوسع، لقد ارتفعت العديد من مستوطنات المرحلة السابقة والمدن التابعة لها إلى مستوى دويلات المدن، وولدت مراكز رئيسية جديدة، توزع المدن في جغرافية الشرق الأوسط كان أشبه بخريطة توزع النجوم، وأصبح الطابع الكهنوتي لنظام الدولة في المرتبة الثانية، وباتت أكثر ما تكون عبارة عن مؤسسة تقوم بمهمة إيديولوجية، وشعرت السلطة السياسية بأنها تمتلك قوة قريبة من الله ومارست هذا الشعور بحيث تعاظمت وكثرت المعابد والقصور وأزداد تأثير المؤسسة الملكية.

وعلى صعيد التطور الاجتماعي، كان ميلاد الطبقة الوسطى واكتسابها شخصية خاصة، الميزة الأساسية للمرحلة، وشكلت فئة التجار والحرفيين نواة

لتضخم المدن، ولعبت دور القوة المحركة في التطور الاقتصادي والاجتماعي وفي العلاقات القائمة بين المدن وبين المدينة والريف، ونال الحرفيون استقلاليتهم، وغدا للتجار تأثير يماثل تأثير دويلات المدن الصغيرة، لقد شكلت طابع شخصية التاجر والحرفي أساساً للآشوريين في البداية، وللفينيقيين والكريت والقرطاجة والعبرانيين والعديد من الدويلات الصغيرة في سواحل الأناضول، ويعد هؤلاء من أهم الطبقات الاجتماعية التي تأتي في الدرجة الثانية بعد مؤسسات الكهنة والملوك والتي ستلعب دوراً هاماً.

وعلى الصعيد الاقتصادي فقد تطورت السلع وتزايدت المواد التي أصبحت موضوعاً للتجارة باستمرار وتطورت تجارة الرقيق وظهرت ورش تشبه المصانع، وكانت الكثير من الأعمال الاقتصادية تتابع تطورها خارج إشراف الدولة خاصة وأن الحضارة العبودية شهدت حوالي عام 1500 ق.م مرحلة "عولمة" يمكن أن يطلق عليها عولمة عصر البرونز، لقد بدأ النظام يعيش سعادة مرحلة النضج، ولأول مرة دخلت مؤسسة دبلوماسية غزيرة الهدايا الى العمل، وبهذا فان حضارة الشرق الأوسط كانت تعيش في عصر الثقة بالنفس بشكل لا يتزعزع.

وتعرضت مثيولوجيا العصور الأولى للانكسار ليتطور الدين التوحيدي الذي ينطلق من عدم إمكانية تحول الإنسان إلى إله وعدم إمكانية تجسيد الإله في صنم، وهذا ما قاد عملية الانكسار الذي حدث، والتكامل بين الاقتصاد والتعبير الذهني عن التجارة المتمثل بالمصطلح الجديد "الإله الواحد" كان تدفع اكثر بهذا الاتجاه،كمثل حجر الأساس للبنى الإيديولوجية التي تخاطب كل البشرية، فبينما يتم تجاوز مرحلة الآلهة التي تحمي المدينة أو القبيلة، يبدأ الله وهو يحتضن البشرية جميعاً، ويمثل تقليد الإله الواحد ليلعب دوره التاريخي، ومن الواقعية أن نتحدث عن الانعكاسات المعنوية ودورها التاريخي الذي لا يقل عن دور الظروف المادية.

يعد استخدام قوة الحصان في جر عربات الحرب واحدة من التطورات الهامة لهذه المرحلة، فلقد ازدهرت المؤسسة العسكرية لأول مرة بفضل استخدام العربات التي تجرها الخيول لذا كادت ان تصل مكانتها إلى السماء، نعم لقد بدأت أهم قوة مسرعة للتاريخ. إن هذه التقنية الموجودة تحت سيطرة الطبقة العليا بالإضافة إلى الأسلحة البرونزية، كانت تبشر عن عصر القيادات العسكرية القوية، ولقد وصلت هذه السيطرة بشخص حمورابي ملك بابل إلى أقوى تعبير لها.

3 ـ المرحلة التقليدية للحضارة أو عصر الذروة والانهيار: جرت هذه المرحلة في الفترة الزمنية ما بين 500 ق.م ـ 500م، ففي الوقت الذي تركت

فيها ميزوبوتاميا موقعها المركزي في الحضارة للإمبراطورية الميدية ـ الفارسية في الشرق، تركت مصر والأناضول موقعها المركزي للحضارة الإغريقية ـ الرومانية في الغرب، لقد تجاوزت إمبراطورية ميديا ـ الفرس التزمت والتطرف البابلي والآشوري لتمثل مرحلة تتميز بالعدل والسلام، وتركت خلفها مرحلة الفراعنة والنمروديين الذين خلقوا خيالاً لا يتزعزع، وبشرت بزمن لم تعد فيه العبودية قَدَراً، وأن الحرية والخلاص أمور ممكنة وكان ذلك بمثابة تعبير عن إمكانية تحطيم السلاسل العبودية التي التفت حول البشرية حتى أعناقها، وفي الوقت الذي كان فيه الإغريق والرومان في الغرب، يسندون بظهرهم إلى قوة العقل والفلسفة ليوصلوا نظامهم إلى الذروة، كانوا يزرعون كل عناصر الانحطاط في داخلهم، فبينما كانت جمهورية روما العبودية وديمقراطية أثينا تؤكدان قوة الفلسفة، كانت تعترف أيضاً بعدم مواكبة النظام لها، ولا يمكن أن تبقى السلطة التي أوصلت نفسها إلى مرتبة الإله والتي تمثل الخاصية الأساسية للحضارة العبودية أن تبقى في حيز واحد مع الاعتقاد المتحرر والإرادة والفكر لفترة طويلة من الزمن، فصعود أي نظام إلى الذروة ناجم عن وجود التناقضات السابقة لمرحلة الانحلال مثلما تكون هذه التناقضات سبباً لانحطاطها وانهيارها أيضاً، نظراً لأنها تفعل فعلها في القطب المضاد، فعندما يقوم التناقض بتطوير أحد أطرافها تتسبب في سقوط الطرف الآخر، وبذلك يكون النظام قد دخل في أسرع مراحله، فالتسارع ينم عن زيادة دور الزمن، حيث تكون السرعة هادمة وبانية في نفس الوقت، والتسارع في أية بنية يعني توفر عناصر الانهيار والتأسيس وتحريكها من جديد، وبهذا المعنى يكون التاريخ قد دخل في مرحلة التسارع ابتداءً من أعوام 500 ق.م، وبدأت مرحلة الانتقال من الطرف الشرقي للحضارة إلى طرفها الغربي على ظهر الحصان في أسرع وقت، ودخلت الحركة التجارية السلعية والفكرية في قطع نفس المسافة ودورانها بنفس السرعة، ففي حين كانت عملية التمايز بين الشرق ـ الغرب في مرحلة تطور، كانت الحركة بين هذين القطبين مستمرة على كافة المستويات، وترك النزاع الفارسي الإغريقي مكانه للصراع الروماني الساساني، ودبلوماسية التوازن جلبت معها تكوينات جديدة وكثيرة.

شهدت هذه المرحلة بالإضافة إلى طاقة الحيوانات حالة تطور تسمح بالاستفادة من طاقة الريح والماء بشكل اكبر، وبدء باستخدام النقود، وتطورت مهن الزجاج والكتاب في هذه المرحلة، وتطور فن عمارة المدن التقليدية بشكل لا مثيل له وتعمقت جذور العلمانية وواصلت الطبقة الوسطى تطورها الكمي والنوعي، وكانت مسيحية عيسى باعتبارها دين الإنسانية الكوني في حالة تشكل، كأقوى حركة أخلاقية عقائدية لتمثل أقوى حزب اجتماعي، وكانت الطرق الصوفية وعلى رأسها المانوية تتطور وتكبر ككرة ثلجية، والمدارس الفلسفية

وعلى رأسها الستوائية استمرت في الانتشار، وراحت الحضارة مع روما العالمية تفرض عولمتها على كافة الصعد، ولم تعد هناك أية مؤسسة في النظام العبودي تمتلك قوة من شأنها أن توقف الإنسانية التي تحركت على مستوى النظرية والتطبيق، لقد حان وقت الولادة الجديدة، فيزداد تسارع زمن النظام العبودي الذي تباطأ لفترة طويلة، وتلد القرون الوسطى من أجل خلق زمن أقوى وأسرع للحضارة.

رغم أن علاقة الحضارة بالجغرافيا هي علاقة ميكانيكية، إلا أنها تتضمن في جوهرها معنى ديالكتيكياً، فلولا الهلال الخصيب لما كانت هناك حضارة سومرية أو مصرية، ولو لا الحضارتين السومرية والمصرية لما وجد الشرق الأوسط، ولولا وجود الشرق الأوسط لما تطورت الحضارة الهندية والصينية في الشرق، والحضارة الإغريقية الرومانية في الغرب، ولو لم تكن الحضارة الإغريقية والرومانية لما وجدت الحضارة الأوروبية الراهنة، هناك سلسلة مكانية مرتبطة بشدة الارتباط بالسلسلة التاريخية كارتباط البعد الزمني، يجب عدم تناول الرابطة الموجودة بين التاريخ والجغرافيا باعتبارها رابطة فيزيائية بحتة أو باعتبارها أجزاء طبيعية مناسبة، فهناك علاقة وثيقة بين تشكل المجتمع النيوليثي والمناخ الجغرافي والغطاء النباتي والحيواني، ومنح التاريخ والطبيعة هذه الفرصة لجغرافية الهلال الخصيب، إن الذين فتحوا هذه الجغرافيا والثورة الزراعية العظيمة هم بمثابة الأبطال الحقيقيين الذين فتحوا الطريق أمام ولادة التاريخ في رحم أمه وفي مهد البشرية، وهم بمثابة الآلهة المجهولين في التاريخ وأبطال الجهد، فقد بدأ التاريخ على هذا الأساس ولكنه كُتب كذباً ونفاقاً، فالطفل قد نشأ هنا ولكن الآخرين قاموا بتسميته، وتم خلق كل مقومات الحضارة هنا ولكن الآخرين استولوا عليها، ولازال هؤلاء يغذون الحضارة ولكن الآخرون يعيشون، فإذا لم يتم الاعتراف بعطاءات الهلال الخصيب للتاريخ ولم يتم إعطاءه حقه فلن يستطيع التاريخ إنقاذ نفسه من كونه تاريخاً للأكاذيب ويفتقر إلى الجذور.

لقد أكد هيرودوت في زمنه أن مصر هي هبة النيل، وبينما كان الإندوس والبنجاب ينجبان الحضارة الهندية كان النهر الأصفر ينجب الصين، كما أن ميزة الري الطبيعي في الأناضول أنجبت كل الحضارات التي تغذت منها، وكذلك أنجبت التجارة التي تسارعت عن تشكل المراكز الحضارية، الجزر الحضارية المتلاحقة وفي النقاط الجغرافية المتلاحقة، ويمتاز البحر الأبيض المتوسط بأنه أقدم وأكبر بحر حضاري سواء كان بمياهه أو بسواحله، فبنيته الترابية والمناخية المناسبة حولت كل أوروبا إلى أكبر مركز للحضارة، لذا من المهم دراسة كل جغرافية من الزاوية الاجتماعية والتاريخية، فالجغرافيا بجوانبها السلبية والإيجابية ذات تأثير أساسي ومستمر على الحضارة، وعلى

بنية المجتمع وتطوره بشكل عام، فإذا تم وصف مشاكل البيئة في أيامنا هذه بالكارثة، فإن هذه الكارثة مرتبطة أشد الارتباط بانعدام وعي عصرنا، وهذا الموضوع له علاقة وثيقة بالعلاقات العمياء التي تسود المجتمع والجغرافية في عصرنا الذي يدعي العلمية، والجوانب الحضارية التي تتناقض مع الطبيعة. إن الجغرافية تلعب دور المهد في واقع المجتمع ولا يمكن للبشرية أن تبقى على قيد الحياة بدونه لذا عليها ألا تقوم بتخريب مهدها، وهذه هي نتيجة من أهم النتائج التي يمكن أن نستنبطها من تحليل الحضارة.

4 ـ ميراث الحضارة العبودية : إن العبور إلى المجتمع الطبقي جاء نتيجة لعدم تمكن المجتمع النيوليثي من حل تناقضاته، فبات مشلولاً لأنه لم يستطع تنظيم وسائل الإنتاج المتراكمة والمستوى العالي للمعلومات، ومن جهة ثانية كان التزايد السكاني مهماً، وتم الوصول إلى نهاية اقتسام الأراضي الواسعة وانتشر المجتمع القروي ونفذت إمكانياته لحل قضاياه.

عند الوصول إلى عام 4000 ق.م شمل المجتمع الزراعي كافة الأراضي الخصبة في أوروبا وآسيا، ابتداءً من المحيط الأطلسي وصولاً إلى المحيط الهادي، وتمركزت كثافة سكانية في محيط البحر الأبيض المتوسط، وعندما وصل مجتمع القرية إلى الحدود القصوى للتطور، كان يتحتم عليه أن يبحث عن مخرج لنظام جديد أو أن يتفسخ في وسط من المواجهات العقيمة التي انتشرت في المراحل الأخيرة بسبب النزاع حول الأرض وكان على المجتمع أن يجد حلاً لمشكلة المستوى التقني والازدياد السكاني في تغيير النظام، لقد حاولنا متابعة طراز الحل الذي قدمه المجتمع الطبقي العبودي عن قرب، ورأينا أن الذي حدث هو ثورة المدن التي يستند جوهرها إلى التنظيم الجماعي لعمل الإنسان الذي ينتج أكثر بكثير مما يستهلك، وذلك باستخدام التقنيات الموجودة بين يديه، إن حالة التعبئة التي بدأت في وديان دجلة والفرات والنيل رفعت نسبة السكان فيها من أجل سقاية الأراضي، كانت تخلق العجائب بما يشبه وادي السيليكون في يومنا هذا، إن بناء مراكز الإنتاج الجديدة هي من إحدى العجائب والأحلام. التي ستفعل فعلها في البنية الفكرية للإنسانية، ولا شك بأن انطلاقة من هذا النوع للخروج من رتابة مجتمع القرية النيوليثي الذي استمر آلاف السنين، شكل تقدماً كبيراً، ولم يكن الوضع مناسباً للاستدلال على التناقضات الكبيرة التي يحتويها النظام الجديد، فقد كان كل شيء عالماً من الخيالات يمتاز بالشاعرية والجاذبية، حتى العامل بات يشبع بشكل أفضل من السابق ويحيى في أمان، والنظام الذي أبتدأ بتأسيس مدن مثل أريدو وأوروا لدى السومريين في أعوام 3500 ق.م، استطاع حماية جوهره لثلاثة آلاف عام وفتح الطريق أمام مؤسسات متسلسلة ليتعاظم وينتشر بدون انقطاع وكأنه يفتح كل الساحات التي تكونت مع المجتمع الزراعي، ونجح في تحويلها إلى ساحات للحضارة.

يصعب علينا حتى في أيامنا هذه الحديث عن القدرة على تحليل الحضارة التي تم إنشاؤها بكافة اتجاهاتها. لقد شكلت هذه الحضارة مصدراً لكافة المؤسسات والعلاقات الأساسية المتداولة في أيامنا هذه، إذ ترسخ ما أبدعته هذه الحضارة في ذاكرتنا، على شكل شيفرات مجتمعية وراحت توجه سلوكنا، إن المؤسسات الأساسية لكافة المدن والطبقات الاجتماعية، وجذور الثقافة الاجتماعية تمتد إلى ذلك المنبع، لقد أنجزوا في هذه المدن الصغيرة في بداية الأمر المعابد والقصور والمسارح والأسواق والمجالس والشوارع والمشاغل والمدارس والبيوت العامة والخاصة، فإن الإداريون والموظفون والملكية والمدير، والتنظيمات الاستشارية والقيادات العسكرية كلها مصطلحات من مخلفات تلك المرحلة، تعد الكتابة والميثولوجية والرسم والموسيقى والمسرح والفلكلور والطقوس الدينية كلها من اختراعات المعبد وإبداعاته.

لقد أدرك السومريون أهمية هذا النوع من المؤسسات واعتبروها قوانين سامية وراحوا ينادونها بـ "ماءاتنا؛ ارتبطاً بـ **ME** " ويتصرفون بمنتهى الاحترام معها، لقد تطورت هذه المؤسسات وكذلك الذهنية التي وجهتها في المراحل الحضارية اللاحقة، مما يعني توسعاً وانتشاراً لها. وعندما وصلت التناقضات إلى أبعاد لا يمكن تحملها لجؤوا إلى الأديان التي صنعوها للآلهة الجديدة ولممثليها الرئيسيين، وعندما ازدادت صعوباتها زودوا أرادتهم بالشجاعة وانفتحوا على عوالم الحرية الجديدة، وإذا تطلب الأمر فهم يلجؤون إلى عقولهم دون مراجعة الآلهة، ويحاولون الوصول إلى العلوم والقوانين الجوهرية الموجودة في طبيعة كل شيء، ولم يكتفوا بأكل ما كانوا يجنونه من الطبيعة سابقاً وبدءوا بزراعته وجنيه فيما بعد ليقوموا بتغييرها وإعطائها شكلاً جديداً لتحقيق المزيد من الغنى، ولم يضعوا القوانين للمجتمع فحسب، بل وضعوا القوانين للدولة أيضاً، وخلقوا الحقوق ووجدت الإنسانية نفسها وجهاً لوجه أمام ثورة المدينة التي كانت وسيلة لحل تناقضات المجتمع القروي، هذه الثورة التي وجدت نفسها أمام تناقضات أكبر وأعظم، فكل حل يفتح الباب أمام تناقض جديد، وهذا ما نسميه بتسارع الزمان الاجتماعي مع الحضارة، وسواء أسميناه قدراً أو مسيرة للحرية فإن طراز وجود الإنسان هو الذي يقرر وهو الذي يسير.

إن التناقضات المتصاعدة داخل حضارة النظام العبودي ليست من النوع الذي يمكن حله بواسطة آليات النظام الجوهرية، وقبل كل شيء فان الوضع الذهني والروحي العام للمجتمع قد دخل مع نمط حياة النظام العبودي في حالة صراع، واستيقظت الذهنية والإرادة وبدأت بالتحرك للبحث عن سبل جديدة، ولا شك أن التناقضات المادية كانت تلعب دوراً هاماً في هذه التطورات. إن علاقات الملكية القائمة على ملكية وسائل الإنتاج وعلى رأسها امتلاك العبيد، أدت إلى الاهتمام بالبطالة وبأدوات الإنتاج، ولم يتم استخدام الكثير من

الاختراعات مثل الطاحونة المائية أو نواعير المياه بسبب وجود عمل العبيد الرخيص، فقامت علاقات الملكية في النظام العبودي والبنية الذهنية المرتبطة بها باستخدام كافة أدوات الإنتاج الهامة ضمن الحد الأدنى من قدرتها وعطائها مما أدى إلى مردود أدنى مما كان يتطلع إليه الرأسماليون، وكانت تنمو شيئاً فشيئاً جيوش من العبيد بسبب الحروب المتلاحقة، اما نظام تشغيل العبيد الذي أدى إلى خلق الوفرة والثراء في بداية نشوء النظام العبودي تحول الآن إلى نظام ليس له مردود وظهرت العصابات العسكرية والتي لعبت دوراً متقدماً في انحلال البنى السياسية والاجتماعية القديمة المتخلفة، وفتحت الطريق في المراحل الأخيرة أمام نفقات دون مقابل غير التخريب والهدم، ولم يبق للعصابات العسكرية أي جانب جذاب، وفقد حرفيو وتجار الطبقة الوسطى في المدن حيويتهم السابقة، ولم تشهد هذه المرحلة جهوداً علمية أو فلسفية جديدة، وبذلك كان يتم نسيان ما تم حفظه وتسود مرحلة من الظلام. وتم الوصول إلى مرحلة فقد فيها الأمن الاجتماعي والقانون والأعراف سيادتها وسقطت الإيديولوجيات والممارسات الدينية الرسمية إلى أدنى مستوى من التزمت، وفي الوقت الذي كان فيه المركز يتشتت بسبب حروب السلالات الدموية، برزت بؤر القوة المحلية، وكلما كانت تعمل الدولة على تثبيت أقدامها كانت تفتح الطريق أمام تمزق أكبر وأعمى، وهكذا كانت تتطور الحقائق التي طفت إلى السطح بكل وضوح في كافة الحضارات من الصين حتى روما ابتداءً من سنة 300م.

ولم يعد النظام يتسع لكافة العلاقات والمؤسسات والقوى الممثلة لها التي خلقها وطورها، وهكذا أجبرت على التشتت، ولم تعد عمليات السلب أو إعدام البشر بتقديمهم طعاماً للأسود كافية لوقف الصحوة الجديدة للقوى الوجدانية والذهنية للبشرية، التي كانت تركض وراء نظام إنساني جديد مستفيدة من الدروس التي تلقتها من الحضارة ومن مسيرة الإرادة والعقل الخالص، وكان الشرق الأوسط الذي يعتبر منطقة المقدسات يشهد مرحلة ولادة مقدسات جديدة مرة أخرى، وقف عيسى قائد ثورة الوجدان العظيمة ضد أسوأ عملاء بابل وروما في القدس من ملوك وكهنة، وجلس على عرش المملكة المعنوية في الأرض والسماء باعتباره "روح القدس"، واستطاع أن يركع روما من الداخل بحرب أخلاقية ووجدانية بمساعدة حفنة من الحواري المؤمنين، وكان الحزب المسيحي الذي مثل الحركة الاجتماعية لمدة 300 عام، على وشك أن يستلم الإمبراطورية.

وفي الشرق كان ماني على وشك إعادة خلق تقاليد زرادشت التي تحولت إلى قوة إرادة تلمع كالبرق وتهجم كالأسد في نجود ميديا، ولولا وجود الكهنة الساسانيين الرجعيين، ولو لم يقتلوا ماني لكان باستطاعته أن ينشأ حضارة ذات جذور عميقة راسخة في ميزوبوتاميا تفوق الحضارة الأوروبية، وكانت

الإمبراطورية الساسانية التي غدت رجعية بسرعة والسلالة الاخمينية التي انهارت امام عدة هجمات من الاسكندر ستكون قادرة على الاستمرار بمواجهة القوى الإسلامية، ولم يتمكن هؤلاء من أجراء تحولات كما فعل البيزنطيون، فلم تتوفر لهم فرصة تجديد نظامهم، وبعد الصراعات الداخلية الكبيرة التي شهدتها الحضارتان الهندية والصينية في الشرق تحولت إلى مرحلة الإقطاعية مع سلالة جانداغوبتا الكبيرة الجديدة في أعوام 300 م.

إن تاريخ القداسة في الشرق الأوسط وصل إلى مرحلة تحقيق الميلاد الثالث الكبير، ففي أعوام 300 ق.م - 300 م انتشرت حركة الوحدات المقدسة بشدة على هذه الأرض وأصبحت تمثل تحزباً سرياً ونصف مشروع، ونظراً لعدم وجود طبقات راسخة، فكان لابد من وجود هذه الأشكال من اجل محاكمة مشروعية النظام، إن هذه التيارات التي يمكن أن نطلق عليها اسم العارفين "**gnostik**" أو المجموعات الصوفية، انسلخت عن الدين الرسمي من جهة وعن التيارات الفلسفية الرسمية من جهة ثانية، وكانت في جوهرها عبارة عن تيارات تحاكم النظام، وأدى قتل سقراط وعيسى وماني في عهود متقاربة إلى ضرورة وجود هذه الحركات العرفانية والصوفية، فالدروس المستنبطة من حياة قادتهم تجعل من ذلك ضرورة لا بد منها، لقد عبروا عن حركة معنوية وإيديولوجية استمرت أكثر من ستة قرون لمناهضة الحضارة العبودية في الجغرافيا المقدسة، فالتعقيد الموجود للظروف المادية انعكس على العالم الذهني والروحي ومهد السبيل أمام عصر المرشدين العظام والطرق الصوفية، وتسمية المرحلة الممتدة من 500 ق.م - 500م بعصر الكلاسيكيات العظيمة لا يأتي من فراغ، فهي مرتبطة عن قرب بوصول النظام إلى مراحله الأخيرة، فالارتباط الأخلاقي بالقواعد الخمسة العظيمة لكونفوشيوس وتعاليم التخلص من الآلام لبوذا وأخلاق الإنسان صاحب الإرادة لزرادشت وأخلاق معرفة الذات لسقراط كلها تعتبر بدايات لعصر الكلاسيكيات العظيمة، وكل هؤلاء عاشوا في أعوام 500 ق.م تقريباً، والثورات الأخلاقية والذهنية التي فتحوا المجال أمامها كانت في جوهرها مناهضة للحضارة العبودية بالإضافة إلى كونها جواباً ضد الأعراف الضيقة للبنى الأثنية، كل الأفكار التي تطورت باسم الفلسفة والدين كانت تستهدف تأسيس حضارة جديدة من خلال حركات إصلاحية عظيمة تعتمد على العقل والضمير، فتلك القرون العشرة فتحت المجال أمام الذهنية المشتركة وشيوع الضمير.

لا يمكن للتناقضات الموجودة ضمن الظروف المادية بمفردها أن تؤدي إلى تغيير النظام الحضاري، ولكن التشكيلات الذهنية والوجدانية التي حدثت ضمن مجريات هذه الظروف، من شأنها أن تفتح الطريق أمام نظام جديد، ومن شأنها أيضاً أن تخلق النمط الروحي والفكري للعصر الجديد، إن النشاطات

الاجتماعية التي كبرت كالكرة الثلجية فوق الأرض المقدسة للشرق الأوسط في تلك القرون، تعني أنها شكلت الرحم الأساسي للنظام الجديد وبواقعية أكثر، وعندما تناحرت الحضارة المعتمدة على ثورة المدن، مع التناقضات المستعصية النابعة من المدينة، فإن التطور الذي يمكن انتظاره، هو البحث عن الحل ضمن الريف، وعندما دخل النظام في مرحلة أضحى فيها يعاني صعوبة في إطعام الرقيق، راح يرسلهم إلى الريف أو تم الدخول في مرحلة حروب الرقيق الذي لا يمكن الحد منها، وهنا أيضاً نجد أنه في مرحلة التفسخ كما في مرحلة النشوء، ان العامل الذي لعب دوراً حاسماً هو شروط الإنتاج وليس العنف والقوة، إنه وضع وفرة الإنتاج أو قلته المعتمد على جهد العبيد وعملهم، ويتم تفعيل القانون الأساسي للمجتمع عندما تدخل علاقات الإنتاج "شكل الملكية وطبقة الحكام" وقوى الإنتاج في مرحلة تناحر لا يمكن إيجاد حل له، حينها لا بد من التمزق الفكري ومن تفعيل نشاطهم تحت شكل إنتاجي جديد.

يصنف المؤرخون هذا التحول والتبدل تحت أسماء مختلفة، ويمكن أن يقال بأنها مرحلة نهاية العصر الكلاسيكي وبداية القرون الوسطى، وبتعبير أكثر شمولية مرحلة الانتقال من نظام الحضارة العبودية إلى النظام الإقطاعي، ويتم التقسيم الزمني على الشكل التالي: حوالي عام 325 م تم إعلان المسيحية ديناً رسمياً وانقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية عام 395 م، وأخيراً تم استيلاء الغوتيون على روما الغربية وأسسوا سلالتهم الحاكمة عام 495 م. أما في الصين والهند والشرق الأوسط وفي مراكزها الحضارية حدثت تطورات مشابهة في الجوهر ولكنها مختلفة في الشكل والتاريخ فرغم تعب البشرية يشهد التاريخ في الوطن الأم للحضارة النيوليثية صعود حضارة مختلفة بروح وذهنية جديدة على أعلى المستويات وبوسائل إنتاجية أكثر تطوراً للدخول في عصر حضارة عظيمة وتتقدم بخطوات هادئة وواثقة لتحقق مزيداً من التقدم.

الفصل الثاني

عصر الحضارة الإقطاعية

إن تحليل هذا النظام الذي تحول إلى مصطلح مرحلة حضارة العصور الوسطى والذي عرف بحضارة الإقطاع في التاريخ العام للحضارات، فيه دوت "نداءات الله ـ الرب"، وما زال يحافظ على أهميته المصيرية بالنسبة لمجتمعات الشرق الأوسط بشكل خاص، ولا يمكننا تجاوز هذه المرحلة التي وصلت عقدتها إلى حالة مستعصية وأزمة حقيقية من خلال إقحامها في مآزق ومواجهات أدت إلى مآس وبحار من الدماء، وأنماط إدارات متسلطة وأنظمة جمهورية متردية ومتفسخة، وتخلف اقتصادي واجتماعي، دون تحليل شكل هذا المجتمع وواقع حضارته التي يسمو بها. لقد تأكد أن أساس التطور لا يكمن في النقد والتقنية، فتردي أحوال العرب واستمرارهم في مفهوم أنظمة العصور الوسطى رغم امتلاكهم للنقد والتقنية كأية دولة أوروبية، يؤكد هذه الحقيقة، كذلك فإن مشاهدة نفس الوضع عند الكثير من القوى الإقليمية المشابهة يفرض البحث عن مصدر القضية في مكان آخر. فالاستخدام المجرد للنقد والتقنية والمعلوماتية لا تثمر عن نفس النتائج التي أثمرت مع أنظمة الحضارة الغربية، إذاً فمصدر الأزمة والمأزق هو إيديولوجي، واستمرار العقلية الإقطاعية وتأثير قوالب الحياة تؤكد صحة هذه الفرضية. وبهذا المعنى لا يمكن للمجتمع حل الأزمة والعقدة والقفز إلى تركيبة ذات مستوى أعلى دون تحليل البنية الفوقية الإيديولوجية والقيام

بإعادة بناء إيديولوجي بديل يستجيب لمتطلبات المرحلة.

لقد حقق نظام الحضارة الرأسمالي في أوروبا تفوقه بفضل حل وتحليل النظام الإقطاعي، ولم يتم ذلك بالعلم والتقنية كما يعتقد، لأن الثورة الحقيقية التي تؤدي إلى التغيير هي التي تمتلك أولوياته في الساحة الإيديولوجية. إن الثورة الفكرية التي حققت نصراً في مواجهة الكنيسة هي جوهر جميع التطورات، ولا شك أن للعلم والتقنية المتطورة والغنى المادي دوراً في ذلك، إلا أنه غير حاسم، فالغنى العلمي والتقني والمادي متقدم في الصين أكثر منه في أوروبا، وتشهد الدول الإسلامية وضعاً مشابهاً أيضاً، وكان الغنى العلمي والتقني والمادي بين القرنين الثامن والثاني عشر في الدول الإسلامية متقدماً أكثر منه في أوروبا بكثير، وإن تخلف الأولى مع مرور الزمن ومشاهدة الثانية لتحولات كبيرة يؤكد أن السبب هو إيديولوجي.

السؤال الآخر الهام في تحليل عصر الحضارة الإقطاعية يتعلق بكيفية ومكان بدء العصر. إن محاولة كتابة التاريخ بالجوهر الأوروبي قد ترك بصمته على تدوين التاريخ، وهذا ما قامت به معظم الأنظمة الحاكمة. فالادعاء بأن هذا العصر قد بدأ من ساحاتها وبسقوط روما هو تحريف كبير للتاريخ ويرتبط ذلك عن قرب بمفهوم التفوق الذي يتضمن الكثير من الأخطاء الكبيرة. لقد شهدت الحضارة الإقطاعية مراحل الولادة والنضوج والانحلال كما حدث للعصر النيوليثي والعصر العبودي كحصيلة للوسط الثقافي للشرق الأوسط، ولا يزال النظام الحضاري الأكثر تأثيراً حتى اليوم.

يكتسب هذا التحليل أهمية كبيرة من أجل فهم المنطق التسلسلي للتاريخ كي لا يفقد هذا المنطق أهميته، فالحضارات لا تولد بشكل عبثي، كذلك فإن انحلالها لا يكون بسهولة، ويمكن أن نرى أن علوم التاريخ تشهد فوضى على هذا الصعيد، ولقد أظهرت السلطات السياسية حاجة للشرح على أساس المركزية الذاتية في العلوم التاريخية أكثر من أي موضوع آخر، ويصعب القول أن الموضوعية قد سادت في كثير من ساحات التاريخ، على الرغم من أنه قد تحقق ذلك في كثير من مجالات العلم.

عندما ننظر عن كثب سنرى أن هناك روابط قوية بين النظام العبودي والإقطاعي، فتناقض الرأسمالية مع الإقطاعية شديد جداً، ويتضمن الاشتباك والانقطاع الشامل وهذه ضرورة طبيعية، لذا استوجب تحطيم الهيمنة بوحشية وتمزيق جميع الروابط الإقطاعية، وينبع جوهرها الثوري من هنا. لكن انحلال النظام العبودي قد تحقق بوفاق هادئ مع الإقطاعية كما شهدنا ذلك في مثال روما، لقد كان الأمر على هذه الشاكلة، فبدلاً من الانسلاخ والصراع القوي جاء على هيئة استلام وتسليم داخلية، السقوط الذاتي التلقائي والتصاعد بمنطق

تطوري معين، هكذا كان الانتقال من النظام العبودي لروما الغربية إلى الإقطاعية البيزنطية لروما الشرقية، وحالة الصين والهند تشبه ذلك، وطبعاً هنا يكون طابع التناقض ذو أهمية مصيرية، ويتطلب التمييز بين مستوى التبعية لعلاقات النظام العبودي ومستوى التبعية للنظام الإقطاعي تحليلاً عميقاً، فالتحليلات المحدودة تجعل الأنظمة متقاربة وتشخص الإنسلاخات الجذرية على شكل مواجهات قصيرة الأمد أو بنمط ثوري، ويصبح التحول بطريقة التطور التدريجي ساري المفعول.

إن أحد أهم وظائف التاريخ هي: التقيد بالواقعية في تحديد زمان ومكان التحول التطوري على صعيد الحضارات، والشيء المفقود هو عدم تمكن العلوم التاريخية من وضع تسلسل يستند إلى زمان ومسار تاريخي صحيح، والسبب الرئيسي في ذلك هو نظرة الحضارة الغربية إلى الحضارة الشرقية ولا سيما إلى حضارة الشرق الأوسط بعقلية استغلالية استشراقية، ورؤيتها كخطر كبير عليها، ويحاول بعض الباحثين تجاوز هذا الخطأ وتبيان عدم عدالته من خلال طرح فرضيات متعددة مجدداً، ونظراً لأن الحضارة الإقطاعية تنبع من الشرق الأوسط فإن تسليط الضوء على كثير من الأمور المهمة يعد مساهمة كبيرة، إذ أنه وقبل كل شيء سيسلط الضوء على التناقض الغربي - الشرقي بشكل أقرب إلى الحقيقة، وثانياً سيمهد الطريق أمام تحليلات صائبة للإيديولوجية الدينية ذات الإله الواحد، إذ ما زال التحليل الإيديولوجي الديني ينتظر الاهتمام كمهمة فكرية هامة، وثالثاً سيقدم هذا التحليل مساهمة كبيرة في تعريف ثقافة الشرق الأوسط والموقف العلمي المتعلق بدوره التاريخي بشكل صحيح، وذلك سيقدم بدوره مساهمة كبيرة لتدوين صحيح لعلم التاريخ، رابعاً ستؤدي التحليلات الصحيحة إلى التشخيص والحل الصحيح للتخلف والأزمات والمشاكل التي تعاني منها المجتمعات في الشرق الأوسط وكذلك المشاكل المشابهة في العالم.

إن الصراع العربي - الإسرائيلي قد شغل العالم أكثر من الصراع الرأسمالي - الاشتراكي إلى حد كبير، واستمراره بوحشية حتى الآن له علاقة وثيقة بجذوره التاريخية، ولهذا الصراع أهمية كبرى من خلال إظهار ما وصلت إليه الأبعاد المتناقضة للعصر في واقع الشرق الأوسط وتحولها إلى عقدة كأداء. ويتصارع التاريخ وتتنازع المجتمعات المتقمصة للأديان وتتواجه الأنظمة الحضارية مع بعضها البعض على أساس هذا التناقض والذي يشبه حرب القبائل في مظهره، إلا انه أشبه بحرب عالمية من حيث الأساليب العسكرية والدبلوماسية والتمركز، واحتوائه على محصلة الصراعات الشمولية للعصر واستمرارية التاريخ، واضطرار القوى العالمية الرئيسة إلى للاهتمام بهذا الصراع يثبت صحة هذه الفرضية، وذلك يستند إلى قوة الواقع الحضاري للشرق الأوسط، فقد عقد العالم اجتماعات متعددة، واتخذت الأمم المتحدة مجلدات من

القرارات، ولكنها لم تحقق أي تقدم ولو قيد أنملة على صعيد حل القضية، وهذا دليل على ارتكاب أخطاء كبيرة، ويدل على أنه لم يتم بعد بلورة كيفية تناول المشكلة، فالحرب العالمية الثانية أصبحت عبارة عن ذكرى رغم فظاعتها، إلا أن الصراع العربي - الإسرائيلي في الشرق الأوسط لا يزال مستمراً في تأججه، هذا بأجراء إلى عدة جبهات للصراع ليس أحسن منها حالاً، لكن استمرار هذا الصراع يعبر عن خاصية رسوخ ومتانة الواقع الحضاري للشرق الأوسط وقوته الهائلة، وهذا ما يجب معرفته بشكل صحيح.

لم تستطع أوروبا تجاوز هذا العصر إلا بمرحلة تنويرية شاملة، رغم انها عاشت النظام الإقطاعي بشكل محدود، ولم تعش عصراً عبودياً طويلاً، وما كان من الممكن ظهور أوروبا الحالية لولا التنوير " **Renaissance** " الذي انبعث في القرن الخامس عشر والسادس عشر، ان عدم معايشة الشرق الأوسط للتنوير رغم مروره بهذه العصور بشكل عميق وطويل من حيث الزمان والمكان، هو السبب الأساسي للمأزق الذي يشهده اليوم. هذا سؤال يفرض نفسه وهو صائب ويتطلب جواباً شاملاً.

يعتبر ظهور الإسلام النمط الأقوى والأخير لحضارات الشرق الأوسط، ويمكننا القول أن الإسلام ثورة إقطاعية كبيرة، وهو أكبر وآخر قفزة حققها الشرق الأوسط. ولا تتفوق الإقطاعية الأوروبية بأي شيء على الإقطاعية الشرقية المتمثلة في الإسلام. بل أن الإقطاعية الأوروبية قد اعتمدت على الإقطاعية الشرقية لتنال من قوة وتفوق الشرق مثلما لاحظنا ذلك في الحملات الصليبية، وقد أدى تمثيل الإسلام من قبل الأتراك العثمانيين إلى جعل الإقطاعية الأوروبية في موقع الدفاع. إذ لم تتخلص أوروبا من موقعها هذا إلا بعد ظهور الرأسمالية، وأدى ذلك - أي ظهور الرأسمالية (المترجم) - إلى تفوق وهيمنة الحضارة الغربية على الحضارة الشرقية مع مرور الزمن ودون انقطاع، وقد دخلت منطقة الشرق والشرق الأوسط مرحلة الدفاع المستمرة والأزمات واللاحل والتضييق عليها من خلال هذا التفوق وهذه الهيمنة، إن إيضاح ذلك عبر تحليلات إمبريالية واستعمارية بمواقف هشة ليس كافياً، والأنكى من ذلك فإن هذه التحليلات تنبع من الاشتراكية المشيدة أكثر من أن تكون نابعة من أحد فروع المفاهيم التاريخية الغربية، حيث لم يجر تحليل انهيار الاشتراكية المشيدة نفسها حتى الآن، ولهذا لا يمكن التفكير في أن تتضمن هذه التحليلات مواقف صحيحة وعالية القيمة، فلقد تعرض الشرق والشرق الأوسط في هذه المرحلة إلى خسارة كبيرة في الفكر والعقلية، وإلى صدمة لم يصح منها حتى الآن. ولم يستطع التفكير بحركة التنوير **Renaissance** ويبقى كل شيء مرهوناً بإمكانية قيام حملة تنويرية محتملة للشرق الأوسط. إن النفط اللامحدود والاقتباس التقني، والتنوير ذو المركز الغربي لا يقدم حلولاً، فمشكلة التزايد السكاني الهائل

والبطالة، وهدر المصادر، و خيانة التاريخ، وعدم نجاح التقليد "عدم الوصول حتى إلى مستوى اليابان" وعدم إدراك معاني حقوق الإنسان والديمقراطية، والتحريفات التي تفوق العصر السومري في رجعيتها. والتطرف الديني الأعمى الذي يشكل خطراً كبيراً، والقيم المعنوية التي آلت إلى ما تحت الصفر، واللجوء إلى البدائية الأكثر رجعية من المجتمع القبلي في حل التناقضات، وسوء التفاهم، هي دلائل واضحة على المأزق الروحي والذهني الذي آلت إليه الأوضاع.

وبدون تجاوز كل ذلك لا يمكن الخلاص حتى بالموت الملعون في المدينة المقدسة القدس، وعلى نطاق أوسع فبدون تجاوز هذه الذهنية لا تستطيع أرض الشرق الأوسط المقدسة إنقاذ نفسها من أن تحيا هذه اللعنة الأكبر، ولن يستطيع إنسان الشرق الأوسط أن يعفو عن نفسه من الجريمة الكبيرة التي ارتكبها بحق التاريخ، ويمكن القيام بكل ذلك من خلال حملة تنويرية على صعيد الشرق الأوسط للوصول إلى القدسية مرة أخرى، حيث يتم استعادة القوة للأذهان من جديد وتنبعث الروحانيات من جديد، وبذلك فقط يمكن الالتقاء مع التاريخ واحتضان العصر للدخول في مرحلة تاريخية أسمى. وتعتبر الأنظمة الحضارية ذات المنشأ الشرق أوسطي جوهراً للثورة الذهنية التي نحتاج إليها في الأولويات، آخذين بعين الاعتبار أنه لا يمكن تجاوز التشتت الذهني المتفشي إلى حد كبير في البنية الاجتماعية للشرق الأوسط إلا بثورة إيديولوجية، وبإمكاننا أن نكون جواباً على الأزمة المتجذرة والقضايا المعقدة بمقدار التحليل الصحيح للحضارة الإقطاعية لتشكيل ثورة عقلية وحياة روحية من جديد.

أ ـ الهوية الإيديولوجية للعصر الإقطاعي

إن الهوية الإيديولوجية التي تعبر عن المستوى الفكري للمجتمع وتصوراته هي ظاهرة لا يمكن الاستغناء عنها ابتداءً من أكثر المجتمعات محدودية إلى أكثرها تطوراً. وتتضمن التعريفات ذات الثقل الاقتصادي للمجتمع نقصاً كبيراً بهذا الصدد، ومازالت العلوم الاجتماعية بعيدة عن أن تكون قد حللت دور الهوية الإيديولوجية. لقد أظهرت المراقبة الشاملة للتاريخ أن تكوين هوية إيديولوجية جديدة والتخلص من الهوية القديمة يلعب دوراً حاسماً في تشكل وانحلال الوحدات الاجتماعية، وتلعب الهويات الأيديولوجية دور الدفاع بالنسبة للمجتمع سواء كانت من حيث تشكيلها الذاكرة الاجتماعية للماضي أو التصورات الخيالية "اليوتوبيا" للمستقبل. وبتشبيه فظ مثلما تلعب اليدان والرجلان دوراً بارزاً في الاقتصاد ولهما علاقة وثيقة به، فإن العقل يقوم بوظيفة التصورات الذهنية بحيث يبقى العقل الموجه الأساسي لكل عضو حي ويمثل قوة الحياة، إذ إن الأعضاء الأخرى تمثل القوة العاملة في الحياة على الأغلب. وعندما تتشكل

المجتمعات ككائن حي ـ حتى لو كان بشكل مغاير ـ فإنه تظهر هنا مشكلة الدماغ ونكون قد قمنا بتسمية صحيحة إذا عرفنا ذلك باكتساب الوجود الإيديولوجي. وعندما نقيِّم التركيبة الذهنية كبنية فوقية في التركيبة الاجتماعي، نكون قد قيّمنا التمأسس الاقتصادي الذي تلعب فيه وسائل الإنتاج دوراً أساسياً في البنية التحتية كاليدين والرجلين ولهذا السبب تكون البنية الفوقية الإيديولوجية في الأولويات وهي الحاكمة، ولا شك أن هذا التقييم ينبع من المفهوم الفلسفي القائل إن النظام الطبيعي يسري على المجتمعات أيضاً. و يقدم علم الاجتماع ذات المستوى التحليلي المتطور دلائل قوية تؤكد صحة هذا المفهوم.

لقد أولينا مكانة هامة للمثال السومري عند تقييمنا لحضارة الرق كنمط أولي وأكثر تطوراً للمجتمع الطبقي على مسار هذا المفهوم الأساسي للأسلوب. ويجب أخذ المجتمع السومري كأساس للتحليلات لأنه أول مثال في التاريخ، هذا بالإضافة إلى أنه قد ترك كثيراً من الوثائق المدونة وراءه. و عدم التخلي عن الحضارة السومرية ليس أمراً إرادياً بل ينبع من السبب المذكور، ولكونه في مستوى كوني من التأثير في تمأسس البنى الفوقية والتحتية لكثير من ميلاد الحضارات. وتكمن خصوصية سومر وتأثيرها في أسس مجمل الحضارات من خلال التغطية الميثولوجية التي خلقتها كهوية إيديولوجية أساسية للمجتمع الطبقي. وظهور أمثلة أخرى لا يفسد الصفات الكونية لها، بل على العكس تؤكد بأن هذا الطراز يشكل قيمة أساسية وكبيرة في الحضارة الكونية. مثلما لا يمكن شرح المجتمع الرأسمالي بشكل كامل دون تحليل تراكم رأس المال، لا يمكن تقديم شرح علمي لمؤسسات البنية الفوقية وفي مقدمتها الهوية الإيديولوجية لجميع الحضارات دون تحليل ميثولوجيا الإيديولوجية السومرية، وهنا يكمن سبب عدم إمكانية التخلي عنها، وإذا لم نحلل الأصل لا يمكن ان نصل إلى نتيجة سليمة بتحليل اللقيط "المسخ". فمن خلال الانطلاق من الأصل يمكننا تعريف نتاجه الذي تعرض للتحول أو البلادة أو المسخ، وهكذا يصعب إيجاد الأصل بالسير وفق الطريق المعاكس، وطريق كهذا مليء بالأفخاخ ويدفعنا إلى الخطأ، وعالم الفلسفة والآداب مليء بالأمثلة التي تعرضت للتحول والمسخ بدون حدود وكأن الأصول غير موجودة أو يجري نسيانها أو ليس هناك حتى حاجة إلى تحليلها. إن هذا الوضع وخيم جداً على صعيد تاريخ الأديان، فكل الأديان الكبيرة تعود بجذورها إلى مصدر الميثولوجيا السومرية ورغم ذلك تكيل الشتائم لهذه الإيديولوجية وتتنكر لها وبذلك تكون قد ارتكبت تحريفاً إيديولوجياً فظيعاً.

لقد تم تقديم هذه التحريفات والتقديسات التاريخية كسلعة إيديولوجية تحت اسم أوامر إلهية، وقد تحققت أرباح غير مستحقة من خلالها، وبهذا المعنى يمكننا التحدث عن أكبر استغلال إيديولوجي في التاريخ.

ثبت أن السومريين أخذوا إيديولوجيتهم واختلسوها من إيديولوجية العصر النيوليثي بشكل مجزأ، والشيء الهام هنا هو تقييم الصراع بين الإيديولوجيات بطريقة صحيحة وواقعية. إذ لا يوجد أي نظام إلا وقد أخذ من الأنظمة الأخرى وأعطاها. ومهمة المؤرخ هي القيام بإظهار الواقع والحقيقة، فمن الذي أخذ ممَن..؟ و ماذا أخذ..؟ وكيف ولأي هدف..؟ وكيف جرى استخدامه؟. وأن يحاول الوصول إلى أجوبة صحيحة لهذه الأسئلة الأساسية، إذ يصعب جداً القول بأن هذا قد حدث عند تدوين التاريخ بشكل كافٍ وأن تاريخ الإيديولوجيات قد وصل إلى التعبير العلمي اللازم، فالمهمة الأساسية لعلم التاريخ هي القيام بواجبه ضمن هذا الإطار لأهميته العظيمة. وحتى نتمكن من تعريف ميلاد الحضارة الإقطاعية يجب إعطاء الأولوية للإطار الإيديولوجي، ويفهم من هذا التقييم القصير أن ذلك يصبح أمراً صحيحاً، فالالتزام بهذه الأولوية في هذا الموضوع المعقد يمدنا بتسهيلات كبيرة في التطبيق والالتزام بالأسلوب الصحيح.

إن صدى أسماء الله وموسى وعيسى ومحمد في آذان الذين يصغون لنداء العصور الوسطى في التاريخ، يشترط تحليل نوعية الهوية الإيديولوجية لهذه المصطلحات، ما هو الله ..؟ ما معنى موسى وعيسى ومحمد الذين كانوا من أعظم الأنبياء المرسلين؟. وما هي الأمور التي واجهوها بالإقناع في المنطق الاجتماعي؟ إن شرح التاريخ دون إدراك معاني بعض الأسماء والمصطلحات، كان ومازال الأسلوب المتبع حتى الآن. فالجنان التي يتم العيش فيها باسم الدين تؤكد أن التحليلات وإن تم إجراؤها فهي ما تزال ناقصة، وتعبر عن أن العمل لم يجر وفق متطلباته، وبدون إجراء ذلك فإننا لن نستطيع تحقيق أي تقدم في موضوع العلمانية التي هي قضية كبيرة في كثير من الدول، والأحداث الوخيمة الكثيرة تؤكد صحة هذا الطرح، وهذا هو السبب الذي يدفعنا إلى التحدث عن مرحلة التنوير **Renaissance** في الشرق الأوسط.

كي لا نقع في التكرار علينا التوضيح، إذ كانت الإيديولوجية الاجتماعية الموجودة في التشكيلات الاجتماعية العشائرية الأولى **Klan** تستند إلى قوة ذات معنى كالروحانية والتابوية ذات الطابع المقدس على الأغلب، والتي كان من الصعب فهمها لكنها تعتمد على قوة (مانا) **Mana gucu** محسوسة، وكانت القوة والطاقة التي تظهر عن تحول المجتمع إلى واقع، موجه هام لإيجاد معنى له، إلا أن العقلية البدائية لم تستطع شرح ذلك إلا بتصورات روحانية تابوية، والواقع الذي ظهر كان هاماً جداً لأنه أصبح الشرط المطلق للارتباط بالحياة و يمكن الشعور بذلك. لكن كان يجب أن تمر آلاف السنين ليتم شرح ذلك بطريقة علمية. فأسهل طريقة للتطور في المرحلة الطفولية للإنسان هي الاعتقاد بكل كائن وكأنه حي وله عواطف وشعور، تماماً كما يفكر ويحلم الأطفال. وكان

المجتمع البدائي الأول يملك عقلية وروحاً كالطفل حيث يرى علم النفس تشابهاً كبيراً بين المجتمع الأول والطفل، وتمكن علم الوراثة وعلم الاجتماع من إيضاح عدة نقاط في هذا المجال، ويمكننا فهم خلق الإيديولوجية العشائرية **"Klan "** للمفهوم الروحاني والتابوي وكيف تم تحويل الواقع الاجتماعي إلى مصطلح وهوية مثل الكائنات الحية.

لقد أصبح الطوطم رمزاً لهوية العشيرة (**Klan**)، وهوية الطوطم هي رمز الشعور المعنوي والعقلي للمجتمع الذي يحس بقوتها، وهي بموقع مسودة المعبد والإله التي ستتطور فيما بعد، لأن القبيلة تجد قوة في الطوطم وتشعرها بوجودها، وكما لا يمكن للكائن إلا أن يكون له أسم فإن القبيلة أيضاً يجب أن يكون لها تسمية، وهو مصطلح متشابك أكثر من أن يكون مجرد تسمية لأنه يتناسب مع تعريف كل شيء. فالطوطم في الأصل هو التعبير عن ظاهرة اجتماعية، وهو كنيته، واحترام الطوطم أو الالتزام به يعني احترام أعضاء العشيرة والتزامهم ببعضهم وبأنفسهم، وبذلك يكون الدين البدائي هو التعبير الإيديولوجي الأساسي للمجتمع، وتتم تقوية المجتمع الذي ينتمي إليه والسمو به عندما تكتسب الأشياء والحيوانات صفة الحصانة والقدسية، فالإيديولوجية في هوية الطوطم هي القوة التي توقف المجتمع على قدميه. ولاشك أن التجارب و الخبرات المكتسبة للـ (**Klan**) التي تواصل حياتها في ظروف قاسية، تكتسب معنىً كقيم ضمنية تظهر على شكل قدسية تابوية " **Tabu** " فآلام وأفراح وصعوبات وجهود الماضي كلها تكمن في كيان الطوطم، أي أنه يعبر عن كل ماضي المجتمع وآماله المستقبلية، وحسب هذا التعريف فإن ميلاد الدين كان كتصور معنوي للقبيلة، وكتشكل إيديولوجي أولي يمثل التجربة الأولى لتشكل الذهنية والروحية. أي أن الدين هو أول شكل لانعكاس الكيان المادي للمجتمع على الساحة المعنوية، وينبع احتلاله في الصدارة لأطول مدة في تاريخ المجتمعات من الخاصية التي ذكرناها سابقاً.

إن مصطلح الدين الإلهي هو نمط أكثر تطوراً من مفهوم الدين الطوطمي، وتتناسب القفزة إلى المصطلح الإلهي مع واقع اجتماعي أكثر تطوراً. لقد حول المجتمع الذي توسع وازداد قوة وثقة بنفسه، التعبير الرمزي والمصطلحي إلى شكل هوية" الرب "، وعبَر عن كل شيء أكتسبه بمصطلح "الرب" هذا المصطلح الذي يعني كل ما ناله المجتمع من الطبيعة ومن تجاربه خلال تطوره، ثم أصبح كائناً، وتم تحميله كل قوة الطبيعة والمجتمع. بمعنى أنه مصطلح أو تصور مصطنع. إذا تفحصنا صفات هذا المصطلح أكثر فإننا سنجد فيه جميع أسرار الطبيعة وقوانينها وشعور المجتمع الأولي تجاهها. لقد قامت الفلسفة بشرح الطبيعة فيما بعد و بشكل منفصل عن الفكر الديني إلا أن العلاقات القائمة بينهما مهمة، لأن مصطلحات الإله هي شروحات للطبيعة والمجتمع. لقد

رأت الفلسفة أن نمط التفكير الإلهي هو نمط محدود غير مستمر، ولا يناسب فهماً مجتمعياً تجاوز مرحلة الطفولة، مع العلم أن ذلك التفكير الإلهي يرتبط بمرحلة الطفولة للمجتمع. وإن الكيان العام للطبيعة الذي تم رده إلى " الله " سيحمل معان جديدة مع تطور وتمايز المجتمع، كما أن قوة المجتمع العامة والجهات المتنفذة فيه ستكسب قوة من خلال تقمصها بالإله والتاريخ، فالإله يكبر لأنه لن يتم الاكتفاء بالتعبير العام للطبيعة عن طريق تعريف محصلة قواه، و بالتالي فلابد من امتلاك هويته الجديدة كقوة اجتماعية عليا متمايزة.

إنه انعكاس لجميع القوى الطبيعية والاجتماعية، وجميع الأشياء والوقائع كالتراب والنباتات والحيوانات والأشجار والمياه والرياح والسحاب والمناخ، التي اكتسبت أهمية في مجتمع العصر النيوليثي والتي كانت مرتبطة بروابط لا يمكن التخلي عنها في الإنتاج والحياة، دخل في البناء الديني للعصر النيوليثي، حيث تم تأليه كل هذه الوقائع لأنها ظواهر حاسمة في حياة المجتمع والاجتماعية، فالآلهة أصبحت ملموسة أكثر وأصبحت رموزاً وأشياءً تعبر عن الحاجة، وكأنه أول علم كان يظهر بنمط هذا التفكير، وبشكل أدق بدأ ميلاد العلوم الإلهية، ونظراً لأن مرحلة الطوطم كانت محدودة جداً فهي لا تتجاوز شكل عبادة بسيطة في الإيديولوجية في وقت لم تتطور فيه الميثولوجيا بعد، حيث ستتكون العلوم الإلهية فيما بعد، لقد كان واقع الدين الإلهي الصديق للإنسان في العصر النيوليثي يعكس الصفات الأساسية لذلك المجتمع، طبيعة المجتمع غير المتصارعة والاستفادة من الطبيعة جعلت إمكانيات الجنة متوفرة مقارنة بالوحشية القديمة، مما دفع إلى تمثيل الآلهة برموز معطاءة وصديقة للإنسان دائماً، فهي متداخلة مع البشر لأنها متداخلة مع الظواهر التي تمثل المجتمع. والأهم من ذلك أن كل الآلهة كانت على شكل نساء، لأن المرأة كانت القوة الأساسية التي بدأت بالثورة الزراعية في العصر النيوليثي، بالإضافة إلى أنها تملك قوة الإنجاب للنسل البشري، وكذلك كانت الآلهة في عصر السومريين والمصريين والهنود تنسب إلى المرأة أيضاً، ولم يذكر الجانب الذكوري إلا بعد مرحلة بعيدة. وكانت جميع الهياكل التي صنعت في العصر النيوليثي على شكل امرأة ولم يكن هناك هياكل ذكورية إلا نادراً، وكان الإله والإنسان متداخلاً ولم يكن قد تطور بعد مفهوم إلهي منقطع عن الإنسان ومختلف عنه ولذلك لم يكن قد تطور واقع ديني هكذا أيضاً، وكانت كل الآلهة الكبيرة المعروفة كعشتار وإنانة وإسيس وديميتر وكيبلا وإندرا من هذه المرحلة، فدين هذا العصر يشكل تعبيراً إيديولوجياً للقبيلة والوحدات المتطورة في المجتمع. وكان لكل قبيلة آلهة تزداد حسب العوامل الأساسية التي تلعب دوراً في حياتها. ويتم فهم الآلهة والتوصل إليها حسب درجة الشعور معها بالقوة الأساسية وتوقع ضررها وفائدتها، ويتم تسيير نمط التفكير ونظام المصطلحات بتعبيرات الآلهة ويصنف ذلك حسب

درجة الإلهة.

علينا ألا نستغرب من تأليه " القوة الساحرة للمصطلحات"، لأن هذه المراحل هي مراحل الظهور. وكل مصطلح جديد هي إمكانية جديدة وإله جديد بنفس الوقت، التأثير الحاسم للأم في الإنتاج وقدرتها على الإنجاب أدى إلى ان تكتسب أهمية خارقة مما فتح الطريق إلى عصر الإلهات (الآلهة الإناث) لأن المرأة تكتشف وتخترع كثيراً. والاحتمال الكبير هو أن المرأة هي التي كشفت النباتات المفيدة والأشجار المثمرة وقامت بترويض الحيوانات وعملت في الأرض وبنت البيت وغذت الأطفال واخترعت الطاحونة اليدوية الأولى وربما العربة الأولى، إي أن عصر الإلهة الأنثى يأتي بعد هذه التطورات المذهلة ليرمز إلى الدور العظيم لها.

لقد كنا قد شرحنا أن المرأة حققت الثورة الزراعية في منطقة قوس زاغروس ـ طوروس، وأن السومريين كانوا أول مثال للمجتمع الطبقي الذي ورث هذه الثقافة. والدور المميز للكهنة في الإيديولوجية السومرية كان مذهلاً، وبتعبير آخر؛ إن سبق الميلاد الإيديولوجي واضح، ويعتبر الكهنة مركز تكوين المجتمع الطبقي والقيادة الإيديولوجية له، ويعتبر المعبد أول مركز للطبقية وإدارتها، ثم تتطور الإيديولوجيات وأنماط العبادة المرافقة لها كالهوية الاجتماعية الجديدة. حيث أضحى المجتمع الطبقي مثالاً وتم تحويله إلى مصطلح يخطو إلى الأمام ويسمو إلى السماء ويتحول إلى نظام كالنظام السماوي. فالكاهن عرف معنى الإنتاج الكبير جيداً عند خلقه للمجتمع الطبقي، وشعر بضرورة تحويل النظام الذي خلق إنتاجا غزيراً إلى إيديولوجيا ووسيلة للوصول إلى آلهته، وإن على الهويات الإلهية الجديدة أن تتحول إلى مصطلح بكل قدسيتها، وأن تجلس على عرشها. ويتم بناء الزقورات لتستقر الآلهة في أعلى طوابقها وتفتح أبواب الطوابق الدنيا لعباده وزيارة العبيد الآخرين.

إن النقاش حول ما إذا كان الاقتصاد هو الأول أم الإيديولوجية، يتطلب مساءلة دقيقة في المثال السومري، فجميع المؤشرات تثبت أن المعابد كمقر للكهنة هي مركز الإنتاج المادي والإبداع المعنوي وقد تشكلت الحضارة والدولة والمدينة على هذا الأساس، ولا يوجد أي مثال يشير إلى أن الإنتاج قد حقق نفسه قبل أن يكون الكاهن مركزاً للمعبد، وبهذا يتأكد ما يلي : إن القوة الإيديولوجية للمجتمع وآلهته ودينه هي مؤسسات لا يمكن للإنتاج أن يتخلى عنها، وهذا الشيء مؤكد في مرحلة الميلاد على الأقل. وإن عدم الحاجة للنمط الأول لا يعني أن الأدوار قد انتهت، وإنما تركت مكانها لأشكال جديدة، وشخصية آلهة سومر ذات الشخصية الأم تعتبر استمراراً للنيوليثية، ولهذا فهي لا زالت تأخذ شكل الإنسان وقريبة منه تأكل وتشرب وتتزوج كالإنسان، وشكلها كالمرأة أو الرجل

وتحقق التوازن بينهما ولكن الصراع والمنافسة تحتدم تدريجياً.

يتزامن طرد آدم و حواء من الجنة وجعلهم خدماً مع مرحلة انقسام المجتمع إلى طبقات، حيث يجري تمايز جدي بين البشر، إذ تم خلق العبيد كخدم من جديد في الوقت الذي تم فيه جعل الآلهة السومريين خلاّقين. إن التناحر والخلق في مثيولوجيات أنكي وننهارساغ وإنانة يعبران عن تراجع الدور الخلاّق للمرأة إلى المرتبة الثانية بعد أن كان متصدراً في الماضي. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد رمزت هذه المثيولوجيات إلى تشكل الإنسان العبد والخادم، وقد لعب هذا الدور التصوري للكهنة السومريين دوراً في ثنائية الرب ـ العبد التي جاءت فيما بعد، ورغم أن إثبات هذه المسألة هام جداً، فقد تهربت جميع الكتب الدينية من ذلك، لحاجتها الماسة لعدم الكشف عن وجهها الحقيقي وعن سرية مصالحها، إن تصورات المجتمع السومري للهويات الإلهية هي انعكاس جديد للقوى الطبيعية والاجتماعية وكأنها تموقع لها، وإلى جانب البعد الطبيعي نرى بروزاً للبعد الاجتماعي، فالثقة بالمرأة بدأ يخف، ونرى أن التطور على صعيد فصل الإنسان العبد والخادم يأخذ بالبروز، والقوة السياسية المتزايدة للمجتمع تدفع ببعض الآلهة إلى مزيد من الحدة، وبعض الهويات تتعرض للزوال أو تتعرض لتغيير كبير في شكلها. لقد أدت قوة المونارشية المطلقة في عصر بابل إلى تصاعد الإله ماردوخ. وتُظْهِر هذه المرحلة الأخيرة للميثولوجيا السومرية الوصول إلى عتبة ظهور الأديان التوحيدية.

لقد تصاعدت حروب الآلهة في الميثولوجيا بعد توحد قبائل الصحراء ذات الأصول السامية والتي اكتسبت قوة حياتها الروتينية والأبوية مع الحضارة السومرية. وتحول الإرث القبلي الأبوي الصحراوي إلى استبداد وملكية مطلقة بعد أن وصل إلى القوة السياسية، وتمت إزالة آثار سومر والمرأة لتتجسد مفاهيم تقاليد القبائل الصحراوية في شخص حمورابي وتشكل جذور الملكية التي تقول "أنا القانون". إن ازدياد التناقضات داخل القبائل وفيما بينها ستؤدي إلى معارضة على شكل النبي إبراهيم، ضد القوة السياسية المركزية التي شحنت نفسها بالله، وستؤدي النبوة إلى انفصال جذري في واقع الدين السومري، ليتم العبور إلى مفهوم إنساني مضاد لمرحلة الإله ذو الملامح الإنسانية بحيث لا يمكن فيه أن يصبح الإنسان إلهاً.

يتطلب مضمون هذا المفهوم تحليلاً هاماً. ففيه فكرة عدم تأليه الإنسان والتمرد واتخاذ الموقف ضد عبادة الملك ـ الرب وأخرج الإله من احتمال أن يكون على شكل إنسان من جهة، وكل ذلك أدى إلى الدخول في نظام أكثر مرونة على شكل وكيل له مرسل إلى نظام القبيلة من جهة أخرى. لقد تقمصت الهويات الإلهية التي كانت على شكل الإنسان والصديق له في العصر النيوليثي،

بنمط التمايز على شكل الإله ـ العبد الخادم في الحضارة العبودية، وأصبح إلهاً حاكماً قهاراً شديد العقاب، ونشهد تحولاً مصطلحياً جدياً، وطبعاً فقد احتلت القوة السياسية للمجتمع الطبقي مركزها، واكتسبت الميثولوجيا صفات وتحليلات جديدة على هذا الأساس.

لقد خطى الانفصال القبلي وأشكال المقاومة الإيديولوجية خطوة إلى الأمام، وبرزت الهوية الإلهية التي توزع الرحمة والمنقذة ولاسيما لصالح الطبقة المضطهدَة والقريبة للمستغلين على عكس الإله ـ الملك. هذا هو إرث النبي إبراهيم في الأساس، أي لا يمكن للإنسان أن يكون إلهاً، لكن يمكنه أن يكون رسولاً أو وكيلاً للرب، فالآلهة لا تقهر وتعاقب فقط بل إنها رحيمة ومنقذة أيضاً. لكنها تعاقب عندما يكون الذنب كبيراً، مع العلم أنه بإمكان الإنسان أن يعبد الله و يحصل على المغفرة، هذا هو جوهر الأديان التوحيدية الذي يعبر عن تجريد على مستوى الطبيعة والقوة الاجتماعية. ويعتبر هذا انطلاقة مضادة لمفهوم الدين العبودي الذي يتخذ عبادة الإله ـ الملك مركزاً له، وهو على شكل غطاء إيديولوجي لمستوى النضال الطبقي والاجتماعي لتلك المرحلة، ومهما كانت هذه الانطلاقة قد بدأت من الميثولوجية العبودية السومرية ودينها، فان الجانب المضاد بدأ يظهر بالتدريج، ليتضمن موقفاً جذرياً مضاداً لحضارة الرق، ولذلك فإن ظهور الأديان التوحيدية التي رفضت إلهاً على شكل إنسان، تمثل ريادة إيديولوجية ضد العبودية.

إن مصطلح التوحيد منفتح على الكونية، ويميل إلى تمزيق الخناق القبلي في كل لحظة، لأن القبائل تحتاج إلى الاتحاد، والإله الواحد سوف يجمعها، لذا ستضطر القبائل ذات الوضع المتشابه إلى تجاوز القبلية القديمة وطوطمها وأصنامها التي تحول دون اتحادها، وإلى مفهوم الإله المنقذ والرحيم الذي يرمز إلى وحدة الجميع في مرحلة تطور بعد أن عانى الجميع من آلام الإله الملك، وأخذ هذا المفهوم يسمو مع ازدياد التناقضات والحاجة للاتحاد، وتم جعله الوحيد الواحد الذي لا مثيل له بإعطائه صفات جديدة. وفي الوقت الذي تم فيه التعبير في الماضي عن كل خاصية بإله، فإن جميع الصفات تمثلت في الإله الواحد في الدين الجديد. وإن صفات الله الـ 99 ـ قد وجدت معنى وصدى لها في تقاليد وقوانين الحضارة السومرية على شكل " **ME** "

إن التجديد الذي أحدثه موسى للدين التوحيدي كان على شكل سلخ القبائل العبرية بشكل راديكالي عن مفاهيم القبيلة القديمة، وجعل الدين قومياً للقوم الواحد، ويمثل "ياهوفا" كإله قومي لمرحلة متقدمة من خلال بنيته التي جعلت القبائل العبرية مرتبطة به وملتزمة بالوصايا العشرة التي أوحى بها في البداية. كما يملك صفة تحررية، كتعبير عن مناهضة الفراعنة المصريين، وكان

يتم تصور هوية إيديولوجية تساعد على توحيد القبائل المناهضة للملكية المطلقة في بابل ومصر، وكان التأثير والتأثير المضاد متداخلان لأن الصراع قائم ضد مركزين قويين للعبودية، مع وجود الحاجة الدائمة لهما أيضاً، وقاموا بدمج الخبرة التي اكتسبوها من كلا المركزين مع مزاياهم، لإعطاء شكل لأيديولوجية جديدة، وتكمن هذه الإيديولوجية في الأساس التاريخي للواقع العبري أو الإسرائيلي، إن مناهضة الرق والافتقار إلى القوة اللازمة للتخلص منه، قد أجبر العبرانيين على التجديد الدائم عبر تاريخهم، وذلك يمثل مساراً في التطور الحضاري.

كان عيسى قطباً مضاداً رغم خروجه إلى الميدان من تقاليد يهوذا، فمثلما نشأ إبراهيم ضد تقاليد النمروديين البابليين ثم توجه إلى دين مناهض له، فإن عيسى يعبر عن الانفصال عن يهودية الكهنة الرسمية التي ابتعدت عن عالم الفقراء، وتكاملت مع روما العبودية، وإن موقعه هذا قد دفعه لاختراق نظام الأقوام بنفس الوقت. لقد شكل بناء روما ـ التي أسست نظاماً كونياً ـ أرضية مادية ولعبت دوراً ملموساً في هذا الأمر، مما دفع الطبقات العليا للأقوام والقبائل للتطلع إلى المتواطئ مع روما وتقليدها، لتضطر الشرائح الفقيرة إلى البحث عن حل لمشاكلها، أي أن هناك أرضية على شكل أممية، حيث يظهر عيسى على شكل ضمير عالم العبودية في الإمبراطورية، كما هو حال الاشتراكيين الذين ظهروا بنظرية تعبر عن مصالح طبقة العمال ضد الرأسمالية.

إن عيسى يعبر عن تمرد إيديولوجي واجتماعي ضد النظام العبودي على الأرجح، في الوقت الذي لم يختزل فيه بعد مفهوم الإله الثلاثي إلى مستوى إله واحد، ويحمل تأثير السومريين والمصريين القدامى وحتى العصر النيوليثي، بهذا الشكل فقط يمكن أن يتجاوز "يهوا" كإله للقوم، فالكهنة اليهود كانوا قد أغلقوا هذا الباب منذ وقت بعيد. إن دين عيسى هو دين إنقاذ، إذ كانت العبودية الرومانية تمارس القمع ضد وجدان الإنسانية إلى درجة اكتسب فيها الإيمان بالمسيح" المنقذ " المنتظر دوماً أرضية إيديولوجية قبل ولادته، وكانت مسألة مجيئه حية دائماً. لقد كانت مصادر وأرضية الأديان الثلاثة في الشرق الأوسط تجتمع في بوتقة واحدة في القدس، فقد كان الإرث اليهودي متجذراً، كما كان الإرث الهليني قد خلق شريحة اجتماعية قومية بين اليهود والإغريق، وأما التقاليد الزرادشتية البرسية فقد نثرت بذورها منذ القديم في هذه الساحة، والمرحلة هي مرحلة الطرق الصوفية تماماً، وهي حركة وجدانية منذ بدايتها، أما النظام الكوني لروما فقد شكل ضغطاً على النظام الكوني للمسحوقين، فبينما قامت روما بتمزيق النظام القبلي والملكيات الصغيرة وربطتها بنفسها، لكنها بقيت كتلاً إنسانية كبيرة في عالمها الخاص، بدأت البشرية تبحث عن صاحبها الجديد وربها الجديد، وهوية عيسى تنحدر من هذا الأساس، إذ أن مواهبه

الشخصية لا تشكل أهمية كبيرة فتطلعات المرحلة إلى ولادة المسيح ترفعه إلى مرتبة المتحدث باسمها، وهذه الانطلاقة الإيديولوجية التي سميت بالمسيحية واكتسبت صفة كونية ستضم روما من داخلها لتكون الضمير الإنساني الجديد ضد اللاوجدانية الكبيرة. وربما يتطور حزب بشري كوني لأول مرة، وهذا الحزب سينجح بفتح روما من الداخل بعد 300 سنة، وما جرى كان ثورة بيضاء، وبشكل أصح فقد خلقت الحضارة الإقطاعية نتيجة لمسيرة التطور، وتحولت حرب المعتقدات التي استمرت في البداية، إلى تمايز اجتماعي ثم إلى قوة سياسية بعد ذلك.

كانت روما قد شهدت تغيرات هامة بصيغتها الحضارية بعد إعلان المسيحية ديناً رسمياً في عام 325 م. وتم الانسحاب إلى الريف في الوقت الذي كانت تنهار فيه المدن العبودية، وبدأت تتشكل المؤسسات التي تتضمن روابط عبودية أكثر مرونة كنمط جديد للعلاقات الإنسانية، فالثورة التي شهدتها الزراعة لا تعني الرجوع إلى العصر النيوليثي، وحياة الإنسانية التي ارتقت على أساس تقنية الحديد هي عبارة عن تشكل حضاري جديد يحقق مزيداً من ترابط الإنسان بالحياة، وكان ملوك روما قد تخلوا عن صفة الملك ـ الرب في المراحل الأخيرة، ولا شك أن الدعاية للدين التوحيدي الذي يرفض أن يكون فيه الإنسان إلهاً قد لعبت دوراً هاماً في ذلك، وصعد الإله إلى السماء الأبعد تحت ستار من المفاهيم الدينية والفلسفية بهدف تضييق مكان الحاكم والإمبراطور المطلق، لأن الإنسان يكون حراً بقدر ما يبتعد الإله عنه.

كان الصوفيون والأدريون يلجؤون إلى مصطلح الله الذي كان صديقاً للإنسان في العصر النيوليثي. بينما كان يتم التعامل مع الإله الرسمي من الجانب الآخر. إن مفهوم "أنا الحق" قد توحد مع الله، إذاً أنا الله" هو لجوء الطبقة السفلية المسحوقة بشكل غير رسمي إلى تقاليدها الدينية القديمة ضد التمثيل السياسي الرسمي. وبدلاً من الإله الغريب عن الإنسان الذي يحكمه ويعاقبه، ظهر مفهوم توحيد الذات مع الله الذي ابتدأ بعيسى الذي جعل من نفسه "ابن الله" واستمر بعد ذلك وهذا في حقيقته يمثل أحد الطرق الصوفية، لكن هذا المفهوم قد تغير تحت تأثير فلسفة أرسطو وأفلاطون. ويبقى الشيء المهم هنا هو تحقيق تحرر محدود عن طريق تمهيد الطريق أمام حضارة ذات مستوى أعلى، وذلك بنقل كل ميول الفقراء إلى بوتقة واحدة بنمط عالمي في شخص عيسى.

ومن المؤكد أن المسيحية قد لعبت دوراً تاريخياً في تشكل الحضارة الإقطاعية وفتحت طريقاً عميقاً في مصير البشرية على صعيد الأخلاق والعقائد، وأعدت العصور الوسطى عن طريق تقديم تضحيات كبيرة، قاومت وعانت كثيراً في سبيل تجاوز العصر العبودي. لقد بقيت المسيحية بعيدة عن لغة

السياسة والعنف فترة طويلة، وتحركت على أساس تيار إيديولوجي بريء، ولعبت حياة الكنيسة والدير التي كانت مستندة إلى الروح الجماعية والعذاب نفس دور أنظمة معابد الكهنة السومريين التي ولدت العبودية. وما لبث أن بدأ المجتمع الجديد بالتشكل في هذه البنى والمدارس، وتعد الحياة البديلة نفسها للسلطة. وكانت الكنائس والأديرة أماكن لتعليم إدارة المجتمع أكثر من كونها أماكن للعبادة، وهي استمرارية للنمط السومري، كما وأنهم قد تأثروا بلا شك بروما لأنهم كانوا يعيشون تحت سيادتها، لقد فقدوا براءتهم وحسن نيتهم التي كانت في البداية وباتوا يتشبهون بروما. فالتأثير والتأثر جرى بشكل متبادل والناتج كان تركيبة مختلطة.

ونجد تطور حركة مشابهة لحركة عيسى في المقر الشرقي للحضارة العبودية في شخصية "ماني" الذي ينتمي إلى ميزوبوتاميا، ومن المعروف أنه قد قطع شوطاً لا بأس به، إذ كان يريد الوصول إلى تركيبة متقدمة لثقافات المسيحية والزرادشتية والهلينية، ولو استطاعت الحركة الإيديولوجية لماني التي ظهرت في عهد طبقة الكهنة الأعيان الساسانية المتخلفة في عام 216 م تجاوز حركة الكهنة المتخلفين، ربما انعكست الإمبراطورية الساسانية بتأثيراتها على روما أيضاً. لقد كان بإمكان الحركة المانوية تشكيل تيار مشابه لحركة التنوير الأوروبية بشكل متميز عن العقائد والأديان التوحيدية، وربما فتح ذلك الأبواب أمام خطوة حضارية من طراز أوروبا مبكراً في الشرق الأوسط، ولكن الميلاد المبكر، وتقاليد الدولة العبودية القوية، والرجعية المتمثلة في الكهنة اليهود، وتعنت الكهنة الزرادشتيين الرسميين، لم تفسح المجال أمامها، وقضوا على فرصة تحولها إلى سلطة، ومارسوا ضدها أساليب لا ترحم فهذا التصلب الإيديولوجي في الإمبراطورية قضى على إمكانيات صمودها أمام البيزنطيين والإسلام الذي ظهر فيما بعد. فالبنية الإيديولوجية المتخلفة قد جعلت أقوى إمبراطورية في حالة لا حول لها ولا قوة، وتركتها تتفسخ بنفسها لقدر الموت بعد تلقي عدة ضربات موجعة.

نرى أن للهويات الإيديولوجية التي تشكلت في أحضان العبودية دوراً محرضاً على محاربة النظام، ويحمل العصيان الفكري والوجداني على النظام لعب دوراً ريادياً، ويزداد احتمال خلقه للجديد كلما توسعت قاعدته الجماهيرية. فالأنظمة التي واجهت الحروب الريادية إما أنها قد انهارت أو أنها أجرت تحولاً فيها، لكن الإسلام يظهر قبل أن تتمكن المسيحية من تنظيف كل ترسبات النظام العبودي. فربما أن المسيحية وحدها لم تكن كافية، لأن التحولات الجذرية تحتاج إلى قيادة إيديولوجية وعملية جذرية. والإسلام دين توحيدي مثل المسيحية ولكنه جاء بشكل متأخر، وبتأثير من الكهنة ذوي الجذور النسطورية وتحت تأثير القبائل اليهودية، ليشكل انفجاراً كبيراً للعرب البدو، وخلق آخر رسول بشخص

محمد ليلعب دور أحد أهم وأكبر عظماء التاريخ.

إن تحليل الإيديولوجية الإسلامية يملك أهمية ليس فقط من ناحية المعنى التاريخي، بل من زاوية تحليل المجتمعات الإسلامية في يومنا. ولم يتم فهم الشخصية التي خلقها الإسلام بعد، حيث يتم شرحه كدين نجح في الممارسة ذات الطابع العسكري على الأغلب، ولكن الجانب الإيديولوجي والهوية الاجتماعية لازالت في الظلام، ومهما كانت الادعاءات العكسية فإن الإسلام لازال لغزاً من حيث الدين والسياسة، ولم يجر تحليل وجهه الداخلي بعد، فالجوانب المظلمة والمضيئة لازالت متداخلة كثيراً، وحقاً تأتي حقيقة آخر الرسل لتواكب نهاية عصر الأديان التوحيدية من حيث المعنى، وبعكس الادعاءات فإن النوعية الدينية والتوحيدية له، تشكل غطاءً إيديولوجياً واهياً، بينما الجانب العسكري والسياسي هو الذي يأخذ شكلاً ملموساً لواقع الإسلام.

فالإسلام هو إيديولوجية المرحلة الثالثة من تحول الميثولوجيا السومرية ويمتلك خصائص عدة متدرجة. لقد بقيت محاولات تقمص الميثولوجيا المذكورة ومرحلة الديانتين اللتين أدتا إلى هوية مختلفة، محدودة رغم الجهود الكبيرة التي بذلها سيدنا محمد، ولكن لا يمكن إنكار نجاحه في تحقيق تحولات لا يمكن استصغارها.

إن متابعة الدين التوحيدي كرائد إيديولوجي لعصر الإقطاع ومصطلح الله وتحليل معناه الاجتماعي، يكتسب أهمية بمقدار المرحلة التي ظهر فيها. ويجب تفكيك التحجر الأسمنتي واستخدام الخامات بطريقة صحيحة من أجل تنوير الشرق الأوسط وتحقيق الميلاد الجديد.

ب ـ الإسلام ـ القوة الثورية في العصر الإقطاعي

الإسلام هو أحد المواضيع الأساسية للنقاشات في التطورات العملية والنظرية على صعيد التاريخ والحاضر. ويعود سبب ذلك إلى عدم تحليل الواقع الذي عبر عنه الإسلام وعدم وضع هوية إيديولوجية بديلة كافية، أو عدم قيامه بتحويله اللازم مع تحول العصر، ولا يمكن القول أن الإسلام قد وجد المعنى الكافي عند ظهوره، إن النبي محمد أعلن نضاله الذي أحاول فهمه عن قرب "ضد الجهل"، والجهل الذي قصده هو إيديولوجية القبلية الأبوية وهذه مسألة هامة جداً، ففي الوقت الذي طور فيه موسى الدين التوحيدي ليوحد القبائل العبرية،

حاول النبي محمد حلها، وما هذه إلا محاولة لتجاوز المجتمع القبلي، لأن القبائلية كانت العامل الأساسي الذي يعيق التحضر والقوة. لقد كانت في الكعبة هويات إيديولوجية مختلفة تتمثل بـ 360 صنماً صغيراً، ومن ثلاثة أو أربعة كبيرة، ولم يكن من الممكن إحراز أي تقدم دون تجاوز هذا الواقع الذي رمى بثقله على الذهنية. أما الواقع الآخر فهو الهام؛ إذ أن مكة كانت مركزاً تجارياً هاماً وحتى أن وجود المدينة كان مرتبطاً بالتجارة. ويمكننا القول أنه كما كانت الحضارة المصرية والسومرية مدينتين لهبة النيل ودجلة والفرات فإن الإسلام كان هبة التجارة التي كان مركزها مكة في شبه الجزيرة العربية. والإرث العبري هو ثمار تجارة تطورت بين المراكز الحضارية في الأساس، وعندما نأخذ بعين الاعتبار الهيمنة اليهودية على التجارة والتمويل العالمي يمكننا فهم دور التجارة العظيم في التطور الحضاري بشكل أفضل.

يشكل الدور الحضاري للتجارة والتوتر البدائي للتعصب القبلي الأرضية الاجتماعية المادية الأساسية في انطلاقة سيدنا محمد، ففي الوقت الذي كان فيه أحد الأطراف يضغط من اجل التحضر والتقدم كان الآخر يلعب دوراً معاكساً، وينحدر إلى التخلف والتعفن عبر الصراع القبلي المستمر. فكان سيدنا محمد يدرك أهمية المراكز الحضارية الكبرى الثلاث: ففي الشمال كانت روما الشرقية المزدهرة حيث النهضة البيزنطية، وفي الشرق كان الساسانيون الأقوياء، أما في أفريقيا الشرقية فكانت بلاد الحبشة التي كانت مصدراً لا ينضب للإلهام. لقد سافر محمد كثيراً مع القوافل التجارية بين مكة و بلاد الشام والقدس، وتعلم خلالها أموراً جمة من الكهنة المسيحيين ولا سيما الآشوريين - النسطوريين، وكانت القبائل اليهودية بجواره، حيث تعرف على عقيدة هذا القبائل "يهوا" عن كثب، وكان الصابئون ذوي الجذور الحنفية يقومون بالدعاية للدين التوحيدي كطرق صوفية وأدرية حتى في مكة، وكما تأثر عيسى بطرائق الأسينيين، فإن محمد تأثر بالحنفيين. ولم يكن صعباً سماعه بمصطلحات الزرادشتية في تقاليد وأعراف الكهنة الساسانيين. إن المسيحية واليهودية والزرادشتية هي بمثابة الإيديولوجية الرسمية في ظهور سيدنا محمد، فثلاثتها هويات إيديولوجية وصلت إلى درجة الهيمنة، وكانت آلهة الكعبة الموجودة إلى جانبه تمثل الهويات المعنوية المشروعة للقبائل. وأدى الحصار الإيديولوجي من الأطراف الأربعة إلى اقترابه من الاتجاه الحنفي الصوفي. وهكذا فان اتجاهه الذي سيتشكل هو تيار يعترف بالله "أدرياً، والذي كان له مثيل في جغرافية الشرق الأوسط منذ القرن الخامس قبل الميلاد بشكل واسع. إن الأدرية هو اسم كان يطلق على الطريقة التي تقر بحرية الوجدان، وتعد انفصالاً صغيراً عن الدين والإيديولوجية العبودية.

كانت المرحلة التاريخية مرحلة انتقالية تسارع فيها تحول العبودية إلى

إقطاعية بنفس طريقة تحول الإقطاعية الأوروبية إلى رأسمالية، وكانت القبائل العربية الصحراوية تعيش على تقاليد الاستيلاء على الحضارات الزاهرة المجاورة في مراحلها الضعيفة عن طريق الاختبار والتجربة حيث كانوا ماهرين في ذلك، وكانت القبائل السامية القادمة من نفس الجذور قد اتجهت بموجات نحو مراكز الحضارة السومرية والمصرية بهدف النهب أحياناً وللعمل كأنصاف عبيد في أحايين أخرى، وكان الأكاديون المثال الأول في سومر، وتوجهت القبائل العبرية ذات الأصول السامية إلى مصر، وكان العرب "بمعنى جميل" الساميون أيضاً على وشك القيام بحملة تاريخية حيث كانت هذه هي اللحظة التي قال فيها التاريخ "سر تنتصر".

إن تحليل مصطلح "الله" الذي قام به سيدنا محمد كان أكبر حملة تاريخية عظيمة باسمه، حيث أن هذه المشكلة كانت بمثابة القفل، ورغم أن تحديد الأرضية المادية يتمتع بأهمية كبيرة إلا أن الأصعب في ذلك هو تحليل المصطلح الإيديولوجي الأساسي أي "الله "، ولا توجد قيمة علمية كبيرة لمحاولات تعريف الله من قبل التيارات اللاهوتية والفلسفية، ولم يتم إجراء التحليل الاجتماعي للمصطلح بعد.

إن " أل" = الروح هو إله تعود جذوره إلى السامية، وهو مصطلح إله رغم المعطيات المحدودة الموجودة بين أيدينا. وأعتقد أنه تصور بمعنى "إله السماء العالي" وقد طورته القبائل بعد مرحلة الدين الطوطمي وتحت تأثير الحضارة على الأغلب، ويلفظ ذلك في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية بشكل مختلف وبلهجات مختلفة، ويمكن أن يكون قد تم تحويله إلى مصطلح كهوية إيديولوجية أساسية بشكل يوازي "القبيلة = الشيخ" و "الطبيعة = أل"، وإن التفكير به كمالك شامل للنظام الطبيعي يتزامن مع تطور القبائل، وكما هو الشيخ صاحب القبيلة فإن صاحب الطبيعة هو أل "الله"، إن الشيخ هو في موقع الزعيم السياسي والمعنوي للقبيلة في الوقت نفسه، إذ تكمن قوة القبيلة وتعاظمها في مسؤوليات وقوة الشيخ، إنه شكل بدائي من الملكية، والتفكير الناجم عن هذا الوضع لدى الشيخ أسفر عن تنصيب نفسه على رأس القبيلة، أي أنه صاحبها، وهكذا يكون الله فوق الطبيعة كلها وصاحبها، لقد تطور كلا المفهومين وأوليا الأهمية، وبذلك فقد تم وضع "أل" مقابل " العالي"، وفي المرحلة التي تحررت فيها القبيلة من الخنوع والارتباط الكلي بشروط الطبيعة، وحصلت على مقومات العيش الحر والآمن، ومع حدوث التمايز تشكلت العلاقات الفوقية والتحتية، ومثلما لعب الصاحب العالي دور المهيمن فانه في نفس المرحلة ضعفت العقائد الطوطمية، وبتشابه مماثل حدث الانفصال في الطبيعة إلى أرض وسماء، مع تصورهم أن "أل" هو حاكم السموات والأرض "كما يحكم شيخ القبيلة قبيلته ورعاياه"، وبذلك تم وضع مصطلح الإله، إن مصطلح الله يعبر عن الملكية إلى

جانب السمو، وهذه صفة مهمة كمالك وحاكم، إن المالك والملك مشتقة من مصدر "الملك"، وتتفاعل علاقة الملكية في جميع اللغات السامية وتكتسب معنى عند القبيلة يصل إلى الملك، وتتقي الملكية والسمو في القبيلة مقابلها على شكل حاكم السموات والأرض أي الله، في علاقة الأرض والطبيعة والسماء.

إن التفكير بـ "أل" كإله واحد منذ البداية له علاقة مع طبيعة الصحراء الرتيبة بشكل وثيق. فعلاقة الله السامي بالأرض والسماء هي انعكاس لعلاقة الشيخ بالقبيلة على الأرض، ويتصف هذا المصطلح المتكافئ بصفة توضيحية، ومن المؤكد أن هناك علاقة وثيقة بينهما. لقد كان تعدد الآلهة أساساً في التطورات الاجتماعية لمصر وسومر والإغريق والهند والتي تواجد فيها قوى متعددة تحكم الحياة، وتم الوصول الى مفهوم الإله الواحد بعد فترة زمنية طويلة مع الوصول إلى مرحلة مركزية السلطة السياسية وإن لهذه الملاحظة قيمة توضيحية عالية.

لقد وجد الله كتصور لشبه الجزيرة العربية له مكان في عقلية جميع القبائل السامية، وكهوية إيديولوجية منذ الألفية الثانية قبل الميلاد تقريباً، إن ارتقاء وانتشار هذه الهوية المستندة إلى التمايز داخل القبيلة ونظام الطبيعة الرتيب يعكس مستوى تطور القبائل. ومن المفيد جداً رؤية الله كمصطلح أساسي في جغرافية الشرق الأوسط وفي جميع الدول الإسلامية عن كثب. ويجب أن نعرف جيداً قوة المصطلحات فقد تتضمن المصطلحات الجديدة معنى مذهلاً وكأنها الواقع نفسه في المرحلة الطفولية الإنسانية، ويكون بالإمكان وضع المصطلح مكان الواقع، حتى أن فيلسوفاً كأفلاطون يضع الأولوية في عالم من المثاليات، ويجد العالم المادي معناه وقيمته بسيطة كقيمة الظل، ولا شك أن السبب الأساسي في ذلك هو تطور قوة المصطلح والمنطق عند الإنسان. فقوة الفهم بهذا المستوى هي ظاهرة جديدة وخارقة للعادة ، لقد بدأ عصر المعرفة وبدأ العقل يثمر. وأوصل الدين التوحيدي بتصوراته طراز الفكر الفلسفي إلى الذروة بقوة المعنى، وبذلك تكون البشرية قد دخلت مرحلة الشباب. ويكون المصطلح القابل للشرح والتوحيد والتفسير أرضية لمعنى إلهي أو لمدرسة فلسفية. إن إنتاج المصطلحات وترويضها بحيث تلائم الممارسة العملية هو أهم عمل مقدس وأساسي للكهنة والفلاسفة الجدد. والمصطلح الذي يؤدي إلى توحيد وتقوية المجتمع هو أثمن سلعة ووسيلة تقوم بوظيفة التغيير.

لقد بدأت الإنسانية تعيش العصر الأكثر ازدهاراً لتحويل اللغة إلى مصطلح وتطور العقل بتأثير أكثر من التحضر. فالحضارة بإحدى معانيها هي تمايز المصطلحات الأساسية، وقدرتها على توضيح الظواهر، والواقع الذي تعكسه وتمركزه في العقل الاجتماعي، وبشكل عام يتحقق التطور الاجتماعي

بتطور مستوى اللغة والمصطلحات بشكل متوازٍ، إن الواقع اللحظي بين العقل واللسان هو حدث يعني قدرة المجتمع على السمو بنفسه الى الإدراك، والوعي والإنتاج من جديد، فالمجتمع لن يكون قادراً على الإنتاج من جديد دون عقل وذاكرة، ولا يتجاوز وضع الحيوان في مستوى التكاثر بغرائزه، إن التطور والتحول إلى مجتمع ممكن باللغة والعقل، والمجتمع الذي يفقد لسانه وعقله هو مجتمع منتهٍ أو أنه شيء آخر، ولذلك فإن الشيء الأساسي للمجتمع هو التطور العقلي الذي يؤدي إلى الذاكرة الاجتماعية والتقاليد والدين والفلسفة والعلم، فلا يمكن الاستمرار بالوجود المادي فقط كالحيوان. ويعتبر الدين والمصطلح الحجر الأساسي للتطور العقلي والذاكرة الاجتماعية، ولا يمكن تحقيق أي فاعلية اجتماعية دون امتلاكهما، وجميع المؤسسات الاقتصادية والسياسية تعتمد في سيرها على اللغة والمصطلح والقوة الفكرية المستندة عليها. والقوة الفكرية هذه هي القيم والقوانين الأولى التي اكتسبت كياناً كمؤسسة أساسية على شكل تقاليد وذاكرة اجتماعية وأخلاق، وتكتسب التصورات "اليوتوبيا" المتعلقة بالمستقبل قيماً على شكل آمال. وهذه تمثل اليوتوبيا الأساسية كونها تتضمن الذاكرة القديمة والأخلاق والتقاليد والدين الاجتماعي، ولهذا السبب يأخذ موقعه كمؤسسة اجتماعية أساسية منذ البداية، وهكذا نرى بأن هناك علاقة ديالكتيكية وثيقة ومصيرية بين الدين والمجتمع.

وعندما نقيم الاصطلاحات الدينية بهذا المضمون، سيظهر أنها تمثل قوة الفهم للمجتمع، فإنزال المسألة الى مفهوم مادي فظ على شكل "الدين سفسطة"، ولا يوجد الله "سيشكل مسألة خطرة سفسطائية وغير علمية سفسطائية مثل القول "الرب هناك أو أنه هكذا". والشيء الصحيح يبقى: ما هو الدور الذي يقوم به الدين في الواقع الاجتماعي وما هي القوة أو المؤسسة التي يشكلها؟. أما السؤال الذي تم تطويره فيما بعد والذي يقول: من الذي يسيّر الكون؟. فهو موضوع يتعلق بالفلسفة والفلسفة الدينية. وعندما نصل إلى المرحلة العلمية تكون أجوبة هذه الأسئلة مصاغة على شكل قوانين علم، وهي مراحل تولد بعضها البعض، فهذا التطور في المفاهيم سيستمر إلى ما لا نهاية، أما التخلف والتعصب والسفسطائية فتعني قبول صحة ومستوى المعنى في هذه المرحلة والتعميم المطلق ومحاولة فرضها على الجميع، ومثلما ظهرت الدوغمائية الدينية فإن التعميم أيضاً هو نتيجة طبيعية لهذه المفاهيم، والإنكار الفظ لظاهرة الدين لدى المجتمع هو الرد الذي يغذّي هذه النماذج المرحلية ويسفر عن أطراف مضادة سلبياً، ولا يمكن لعلم الاجتماع الارتقاء إلى مرتبة العلم دون تناوله الواقع الاجتماعي في هذا الإطار والإجابة على كيفية ظهور المعاني والتمأسسات ونوع القوة التي تمتلكها.

إن مصطلح الله هو أحد المؤسسات الدينية الاجتماعية الأساسية التي

ظهرت ضمن هذا الإطار، تتطور وتتقوى بشكل دائم. لقد اقترب السومريون والمصريون من هذا المصطلح بهذا الشكل كما نرى تطوراً مشابهاً لدى الزرادشتية، ومع تصاعد التحول المركزي للقوى لدى المجتمع فإننا نرى تقدماً باتجاه توحيد الإله في المصطلحات الدينية كنمط تفكير أساسي، ونرى التطور في المصطلحات ينتهي بنتيجة الإله الواحد، ونصل إلى صيغة الملك في الأرض والله في السماء.

يحتوي توحيد مصطلح الله في شبه الجزيرة العربية على عدة تطورات اجتماعية هامة في الأصل، مع أن معين هذا المصطلح ينبع من تقاليد السومريين والمصريين إلى حد كبير. وإن له جانب مضاد وأصيل إذ كان في الثقافة السومرية والمصرية تركيبة الإنسان - الرب، وقد أعلن النماريد والفراعنة أنفسهم ملوكاً - أرباباً غالباً، وأداروا المرحلة العبودية حتى القرون الوسطى كملوك - أرباب، وأثبت من خلال الاكتشافات التي ظهرت في قبور الفراعنة في الأهرامات وقبور السومريين أن عبيد الملوك هم ملحقين بهم، وعندما يموت الملك يعتبرون أنفسهم أمواتاً ويتم دفنهم مع أسيادهم وهم أحياء، أنه وضع يبعث على الرعب، وإيجاد حل لهذا الواقع هي المهمة الأساسية للبشرية، وربما تصاعد أطول نضال مقدس عبر التاريخ ضد الملوك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم آلهة عظيمة مقدسة في حرب إيديولوجية طويلة، وفي هذه النقطة بالذات تكمن عظمة سيدنا إبراهيم واعتباره جداً لكل الديانات المقدسة انطلاقاً من هذه الخصوصية، فقيام إبراهيم بتحطيم الأصنام يعني توجيه أكبر ضربة قاتلة لمصطلح الإله - الملك، ولهذا السبب يتم تقديسه باستمرار. لأنه وبدون نجاح هذا الموقف الذي قام به النبي إبراهيم لما كان هناك حائل يمنع دفن الإنسان حياً، ومازال القول في مناطق مدينة أورفا إنه إذا قام الرجل بفعلة ما فإنها تعد نزوة، أما إذا ما نظرت الفتاة بعيون راغبة، فإن إصدار فرمان الموت سيكون بانتظارها، ويعتبر ذلك من آخر مخلفات القوانين النمرودية. إن العادات والتقاليد الموجودة منذ خمسة آلاف سنة مازالت تنفذ واقع الملك الرب، وتعاقب على تصرفات الإنسان الأكثر طبيعية بالموت، وهذا يؤكد أن النبي إبراهيم لم يولد في هذه الأرض عبثاً، وربما أن الواقع السومري والمصري العبودي الأخطر والأسوأ بقوانينها هي التي خلقته.

إن سمو الله الذي أكتمل بالنبي إبراهيم مرتبط بشكل قطعي بإلغاء هذا القوانين، والميزة الأولى هي قاعدة "لا يمكن للإنسان أن يكون الله"، لقد جرت محاولات لتحليل العلاقة بين البنية الاجتماعية المتمايزة للقبائل في هذه الجغرافية التي عاشت فيها تقاليد الديانة الإبراهيمية وبين مصطلح الله. لكن معناها الحقيقي وجانبها الأصيل يكمن في مناهضتها لمفاهيم الديانة السومرية والمصرية ولآلهتها. فعندما يقول أن الإنسان لا يمكن أن يكون إلهاً. يعني ذلك أن فرعون

ونمرود لا يمكن أن يكونا آلهة. ولهذا قيمة إيديولوجية عالية وقيام النبي إبراهيم بتحطيم الأصنام كانت بداية ثورته، تحمل أكبر معنى في مضمونها، إنه يصرخ بأن عهد مساواة نمرود وفرعون بالآلهة قد ولى، إن الله الذي تعالى في نزعة إبراهيم وجه ضربة قاضية للعبودية المطلقة، وهو أمر تقدمي ودافع إلى الحرية، وسيتطور ذلك أكثر عند النبي موسى. إذ دكت نداءات الله التي انتشرت في كافة الأصقاع كإله عام لجميع القبائل، أنظمة الملك ـ الإله من جهة، ولمرحلة الطوطمية المتعصبة للقبائل من جهة أخرى. حيث مزقتها وتجاوزتها، وهنا يكمن جوهرها الثوري، ولذلك فإنها تحتل مكانة هامة في التاريخ. صحيح إن الذي رُفِعَ وسما هو الله، لكن المجتمع أيضاً تقوى وارتفع مستوى الحرية فيه. إن الحروب والعمليات التي نفذت باسم "الله" على مدى قرون كانت تقوم بمهمة وظيفية مع شعار ثوري هام، إلى أن تجاوزت مرحلة التخلف والتعصب، فنداءات "يالله، الله أحد"، في مرحلة المجتمع الإقطاعي والعبودي تعبر عن نفس معنى شعارات، "لتحيا الليبرالية ـ لتحيا الاشتراكية" التي كانت شعارات للمرحلة الرأسمالية. ونظرة علمية اعتيادية تكفي للاستدلال على هذه الحقيقة.

ويمكننا التمييز بين ثلاثة مراحل لإعلاء الله. المرحلة الأولى تأثرت بالمثيولوجيا السومرية والمصرية وهي مرحلة التكوين التي جاءت بعد طوطم القبائل، حيث أدت العلاقات التجارية والاستيطانية الكثيفة بين مركزي الحضارتين، إلى تحول الهوية الإيديولوجية إلى شيء ضروري. وبدأ إله القبائل ((أل)) يكتسب أهمية مع مرور الزمن ويقوم بحملة تاريخية مع النبي إبراهيم، أما المرحلة الثانية فقد بدأت مع ظهور عيسى. حيث أن الانفجار الأساسي لثورة إبراهيم بدأ مع عيسى رغم المرور بمرحلة موسى التي أنتجت إلهاً وديناً للقوم تطور إلى ملكية عبرية في اليهودية. وكما وجدت العبودية المصرية والسومرية جواباً مضاداً لها عند إبراهيم وموسى، فإن العبودية الإغريقية والرومانية قد وجدت ضدها عند عيسى، وفي الوقت الذي قام فيه موسى وإبراهيم بإعلان الله كحاكم لقوميتهما، فإن عيسى قام بشرح تعاليمه إلى جميع المضطهدين الرومان. إن رب عيسى هو بمثابة أبيه، ومن الواضح أنه قد تأثر بالتقليد السومري كثيراً في هذا الجانب، فقد كان إله بابل ماردوخ هو ابن أنكي إله أريدو العلامة والماكر، ونرى هنا استمرارية للتقاليد. لقد اكتسبت السلطة السومرية ما يقابلها في بابل كهوية إيديولوجية بشخصية ماردوخ، (إن عيسى هو ممثل للقدس وممثل لعالم المضطهدين في هذا التقليد)، وإذا ما أخذنا الإرث السومري كأساس للمرحلة الثالثة، فإنه في عصر تعدد الآلهة كان فيه جميع الآلهة القدماء هم آلهة لمدينة أو لقوم أو لمنطقة. أما العالمية التي نتجت عن روما كدولة على مستوى الكرة الأرضية فقد أثرت بتغيير مفهوم الإله إلى حد كبير وبالتالي فقد سمي رب عيسى كإله جميع البشر (رب = سيد) الأرض والسموات، وأدى

انعكاس الظروف المادية على الساحة المعنوية إلى مرحلة تاريخية هامة مرة أخرى.

يشكل عيسى جواباً لإرث الله على الضغوطات التي كانت تمارسها السيادة الرومانية على ذهن الإنسان وروحه. وهذا الإرث الذي يسيطر عليه الجانب الوجداني والأخلاقي يمثل مرحلة جديدة ويخاطب جميع المسحوقين، ويمثل أيضاً التخلي عن دين التعصب والإله الخاص بقوم اليهود، ويرتبط تأثيره القوي بهذه البنى التي يهدفها وينبع منها. لقد تحول الوجدان الإنساني الذي حاولت روما خنقه إلى إمكانية عصيان وتحرر وانسلاخ تاريخي عن طريق اتخاذ عيسى ووالده الرب موقفاً راديكالياً ضد الكهنة اليهود، وسموه إلههم، واحتل مكانه في التاريخ كأكبر وأحدث هوية إيديولوجية للميلاد الذي به بدأ تاريخاً جديداً.

يهدف رب عيسى إلى الملكية الروحية والأخلاقية وليس الملكية السياسية بسبب الشرائح الاجتماعية والمرحلة التي يستند إليها، ولعدم وجود القوة ولا الاستعداد من أجل السلطة السياسية، إذ كان الوسط ملائماً من أجل الملكية الوجدانية ولا مفر من التوجه إلى ذلك. وهناك عدة مؤشرات تدل على أن عيسى كان يتطلع إلى ملكية القدس. وعندما وجه بالصلب تحولت الحركة إلى حركة عقائدية طويلة المدى، واضطرت إلى التوجه نحو جماعة اجتماعية أخلاقية. وفي الحقيقة كان يوجد وقتها عصيان وتمرد ضد الكهنة اليهود الرسميين، فقد أدت عمالة الكهنة لروما والبلادة السائدة إلى حدوث هذا التمرد، ففي البداية أعتقد هؤلاء بأنهم سيدافعون عن القدس بمساندة الجماهير، لكن خيانة يهودا الاسقريوطي الذي كان أحد الحواريين الأثني عشر قد أدت إلى القبض عليه بسهولة، وفي الحقيقة إن الوالي الروماني كان يرغب في إطلاق سراحه، لكن الكهنة أصروا على صلبه لأنهم رأوا فيه خطراً على مصالحهم. وكأنهم أصبحوا ملكيين أكثر من الملك، بينما لو لم يتم مثل هذا العقاب فإن هذا التمرد كان سيبقى اعتيادياً مثله مثل التمردات الأخرى الكثيرة، لكن الظروف الموضوعية الناضجة والانفعال الناتج عن الصلب أديا إلى ظهور أقوى حركة دينية في التاريخ، ونرى في التاريخ عدة أوضاع مشابهة تؤدي شرارة صغيرة فيها إلى إشعال حريق كبير في موقع تتكوم فيه الأعشاب اليابسة، لقد لعب صلب عيسى هذا الدور بجدارة.

تحولت الحالة البريئة للمسيحية في البداية إلى عالم لاهوتي تحت تأثير الفلسفة الإغريقية ولاسيما فلسفة أفلاطون، وسيؤدي مفهوم الثالوث الإلهي إلى عدة تفسيرات وتحليلات نجد صداها في الميثولوجيا السومرية. إن مشاهدة الأب - الرب والأم الربة - والابن - الرب الأقوى في ميثولوجيا أنكي ماردوخ بابل هي

مسألة أساسية ذات صلة، كما يكمن وراء ذلك ثالوث أقدم؛ الجد والحفيد الذي يمثل الإرث والمرحلة والابن. لقد طور هيغل تفسيراً فلسفياً معاصراً، أعتمد على مبدأٍ الطرح والطرح المضاد - التركيبة يعبر عن القاعدة الديالكتيكية وللقانون الأساسي لنشوء الكون. وفي الحقيقة فإن هذا القانون يجري حكمه في جميع تكوينات الطبيعة، أما الثنائية الموجودة لدى زرادشت فهي الشكل الأدبي لهذه النظرة، ففي زرادشت لم تصل ثنائية الطرح والطرح المضاد إلى تركيبة جديدة، وسيتم تطوير ذلك في الفلسفة الإغريقية عن طريق هرقليطس، وستصل إلى معناها الأكثر عصرية مع هيغل.

إن الدور الذي منح لمريم الأم في المسيحية فيما بعد ملفت للنظر، لقد ابتعدت مريم كثيراً عن الأم - الربة إنانة وستار. وقد لعب تلقي الربة - الأم تيامات الضربة القاتلة في عهد ماردوخ في الملحمة البابلية، وسجنها في البيت في عهد موسى حيث زالت آثارها بعد ذلك من التاريخ تماماً، دوراً مهماً.

ترتبط هذه المرحلة لدرجة كبيرة بتناقض القواعد الصلبة للمجتمع الذكري المعتمد على الرجل الذي كان في الإرث السامي، مع القواعد الأمومة لثقافة عشتار التي كانت ربة الزراعة والجبل في العصر النيوليثي "بنفس مرتبة إنانة وستار"، وتم تجاوز البقايا الأخيرة لثقل الربة بالثقافة السومرية في المرحلة البابلية، وبعد هذه المرحلة فان الربة القديمة أصبحت المرأة العفيفة والمطيعة في بيتها، فناهيك عن مساواتها مع الآلهة أصبحت لا تستطيع إسماع صوتها ولا حتى الكشف عن وجهها. لفت بالعباءة وأصبحت سجينة وغدت الحرم المطلق للرجل القوي، لقد طوّر موسى ذلك في إرث إبراهيم أكثر، وعمق عبودية المرأة في الجزيرة العربية يرتبط بهذا التطور التاريخي.

إن مريم أم عيسى هي ربة في أقدم نمط، للإرث..؟. لكن فقدان المرأة لموقعها بشكل مستمر وصل في مرحلة ولادة عيسى إلى أن تكون وسيلة للإنجاب فقط، وهكذا كانت الأوضاع عموماً، إن تاريخ المرأة ما بين 2000 ق.م - 2000م. هو تاريخ لأدنى طبقة اجتماعية وتحول لصالح الرجل إلى سلطة سياسية باستخدام الاستغلال والعنف والتحايل، وأصبحت المرأة تحت حكم العبودية بسبب الخاصية الجنسية، إلى جانب عبودية الرجل، أي أنها تعرضت لعبودية مضاعفة، فبعد أن كانت الربة الأم تيامات تحارب نداً للند في مرحلة بابل، حتى انه في مرحلة موسى عاش اشتباكاً شديداً مع قريبته ماريام التي لم تخضع لموسى بسهولة.

أما بالنسبة لمريم أم عيسى فلا يوجد لها أية فاعلية. لقد نفخ الرب فيها، وهي أنجبت، وهذا يعني السيادة المطلقة للرجل، فالنفخ يرمز الى هيمنة الذكر والى أن دور المرأة لم يتجاوز تنشئة الطفل في أحضانها. أما المسألة الأخرى

الهامة فهي انه ما أطلق على النفخ المذكور اسم الروح القدس من أجل تحريف القوة الإلهية التي يجب أن تتمثل بالمرأة، لقد سرق ذلك النفخ من قبل المرأة بشخص مريم. ونرى نفس الأثر عند السومريين لدى الأم الربة، وفي الحقيقة توجد أهمية إيديولوجية كبيرة لهذا الموقع، وهذه الأهمية ذات دور وتحديداً في فقدان المرأة لفعاليتها التي ستزول بشكل كبير في المرحلة الإقطاعية. ومنذ ذلك اليوم بقيت المريمات ممسوخات يبكين أطفالهن في صمت مرتبطات بأزواجهن وكأنهن أسيرات إلى الأبد. وليس لهذا الوضع أية علاقة بطبيعة المرأة إطلاقا، مثلما لها علاقة بالهيمنة السياسية الكبيرة للرجل. فإذا كانت الأمهات الربات حاكمات مهيمنات في إحدى المراحل فإن هيمنة الآلهة الرجال أصبحت مسيطرة في الدولة الطبقية في التاريخ، إن هذا الواقع الذي ترك في ظلمات التاريخ وتمت تغطيته بمفهوم الشرف والكرامة بطريقة مزدوجة من قبل الرجل، لا يمكن أن يظهر للوجود ويكون له معنى موازٍ لمستوى الحرية الاجتماعية العام الذي يحققه النضال التحرري، من المؤكد أن المسيحية تحولت إلى هوية إيديولوجية قوية للعصر الإقطاعي بعد ان اكتسبت معنىً فلسفياً. وأنشأت ثيولوجيتها منذ القرن الخامس بعد الميلاد على يد باباوات الكنيسة، ويعبر تحولها إلى إيديولوجية دولة منذ تلك المرحلة عن الاعتراف بدورها كقوة إيديولوجية خلقت العصر الإقطاعي من جهة وعن الوفاق الذي تحقق مع روما العبودية اثر مرحلة نضال طويلة بعد ابتعادها عن جوهرها من جهة أخرى، ولم تبق الإمبراطورية الرومانية تلك الإمبراطورية العبودية القديمة ولم يبق الدين المسيحي ذاك الدين الذي تتحقق فيه المساواة والدين المقدس لعيسى وتلاميذه.

لقد بدأ عصر هيمنة الدوغمائيات الدينية على عالم الفكر مع المسيحية، فمنذ القرن الخامس الميلادي وحتى القرن الخامس عشر أي على مدى ألف سنة، أصبح أسلوب التفكير الديني هو المسيطر، بينما نرى غلبة الفلسفة الكلاسيكية في الألفية الممتدة بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الخامس بعد الميلاد، فمن الواضح أنه قد حدث التراجع والسبب الرئيسي لذلك هو انحلال مجتمع المدينة واكتساب اقتصاد الريف أهميته مرة أخرى، فالمدينة تعبر عن مجتمع كبير متداخل يتطلب تقسيماً للعمل وإدارة أكثر تطوراً، وتدفع إلى الفكر الواقعي، بينما المجتمع الريفي هو مجتمع محدود ورتيب، وأكثر انفتاحاً على الدوغمائية، إذ ان الإدارة الفردية والاقتصاد لا يحتاجان إلى اقتسام العمل، وهذه الخصائص البنيوية تجعل هذا المجتمع منفتحاً على الدوغمائيات الدينية، وهذا هو السبب الذي أدى الى تسمية العصور الوسطى بعصر الظلمات، لقد ترك العصر الكلاسيكي أثراً لا يمحى في تاريخ الإنسانية وهو أساس لظهور العصر الحديث ويمثل أكبر يقظة لعقل وإرادة الإنسان. أما عصر سيادة الدوغمائية الدينية فإنه ذات أهمية كونه سبب تراجع العبودية وتمهيد الأرضية للعصر

الحديث. إن الانكسار الذي خلفه التقدم الكبير لمجتمع المدينة هو نتيجة أدت إلى التسرع وعدم المقاومة وكان الوضع مختلفاً حتى لو كان من حيث الشكل تراجع نحو العصر النيوليثي أحياناً، لأنه قد تم تجاوز العصر النيوليثي الذي خلف العبودية تماماً، وكان جوهر المجتمع الجديد أكثر تقدمية من المجتمع العبودي حتى لو كان المجتمع الجديد ريفياً غالباً. لقد اكتسبت الإنسانية ملامح شخصية لا يمكن تقييدها بسلاسل العبودية، فقد تحققت بنية فكرية ومعنوية جديدة.

إن الإنسان الذي دخل القرون الوسطى لم يكن هو نفسه في عهد سومر ومصر. ولا يمكن أن يكون عبداً إلا للإله الذي في السماء وإن كان تحت سيطرة العقائد الدينية، واعتبر العبودية للملك ـ الإله أكبر كفر. لقد دربت الأديان الإنسان ضد العبودية وأنضجته بما فيه الكفاية، وكان عيش التخلف يتم في انهيار المدن والوهن الفكري السليم، وفي هذه المجالات يعبر وجود مدن متقدمة في العصر النيوليثي، وإنشاء المدن الجديدة، ومرحلة كانت فيها كتب الفكر الصحيح مخبأة في المكاتب، وعند النظر عن كثب يمكننا أن نفهم أنه لا يمكن الدخول إلى العصر الحديث دون المرور بعصر تربية المعتقدات.

وبهذا الشكل يمكننا التعرف إلى المرحلة والعالم الذي تكونت فيه الإيديولوجية الإسلامية باعتبارها لب الموضوع كما تحدثنا سابقاً. إن المسيحية وحتى ولو قدمت تنازلات من جوهرها قد حلت الإمبراطورية الرومانية من الداخل واكتسبت منزلة اجتماعية لدى الإيديولوجية الرسمية في روما الشرقية "البيزنطية"، وحققت تفوقاً على الإمبراطورية البرسية ـ الساسانية، ودخل هذا الدين الجديد مرحلة انتشار جديدة في أوروبا. واستطاع تحقيق التقارب الشرقي ـ الغربي حتى لو كان على أساس الإيمان. فإذاً ماذا سيكون دور الإسلام؟. هل هو تجديد للتاريخ أم تكرار له ؟. وما هو الفراغ الذي سيملأه ..؟ وإلى أية موجة حضارية جديدة سيؤدي..؟ هل سيجد قوته من ظهوره الجديد أم بإحيائه بعض التقاليد..؟ هل سيملأ فراغاً جغرافياً فقط أم سيمثل قوة تحوّل الحضارة القديمة..؟ إن الإجابة على تلك الأسئلة المصيرية والحيوية تحمل أهمية كبرى من زاوية تعريف الإسلام.

إن انطلاقة الإسلام في التاريخ يمكن ربطها بالميول الثورية المتطرفة لعصر الحضارة الإقطاعية، وهذا يبدو أكثر واقعية، وإذا كانت المسيحية هي المسار التطوري والإصلاحي للإقطاع فإن الإسلام هو المسار الثوري الراديكالي له، ومن الواضح أنهما قد انبعثا من نفس الجذور الإيديولوجية. إن الإنجيل والقرآن هما الدليل الأكبر على مصدرهما. فلا يمكن التفكير بالقرآن والإنجيل دون العهد القديم، ولا يمكن تصور التوراة والعهد القديم بدون الميثولوجيا السومرية والمصرية أيضاً. وأعتقد أن تقييماتنا المتعلقة بالحضارة قد

أوضحت هذا الواقع بشكل كاف.

من الخطأ التفكير بالإسلام على أنه مجرد اقتباس أو تحليل بسيط للكتاب المقدس "العهد القديم والجديد"، وعلينا أن نؤكد بأن التعبير التحولي للإسلام قد كون خصوصية عصره بمقدار تأثره بالماضي. إن وصف النبي محمد كشخصية ثورية تليق بالعصور هي مسألة لا تقبل النقاش. وعند مقارنته بالأنبياء الثلاثة الهامين إبراهيم، موسى، عيسى. نرى أنه استطاع عرض منطقه وإرادته بشكل أقوى وطبقه ونظمه على أرض الواقع، وهو الشخصية التي استطاعت تنظيم مسارها بشكل ناجح وتحولت بجهودها الكبيرة إلى وضع القوة الحاكمة في الجزيرة العربية وهي على قيد الحياة، وعلى هذا الصعيد يمكن مقارنتها بشخصيات نادرة في التاريخ مثل الاسكندر ولينين. وعند مقارنتنا للمفهوم التاريخي والاجتماعي سنرى النبي محمد علمياً ليس بالدوغمائية الدينية وإنما كمعلم إيديولوجي ورجل سياسة وعملياتي ولا حاجة للنظر إلى النبي محمد وتقييمه من خلال اكساءه درع من القدسية. لأن العلم سيعطيه حقه لأنه من الشخصيات التي تأتي في المقدمة تاريخياً، فالتطور العقائدي للإسلام لم يسم بمحمد كما يعتقد، بل تم إظهاره بهوية شخص منهمك بالعقيدة الدينية وهو لا يستحق ذلك.

إن إنشاء محمد من أيدي العقائديين المتسلطين بالتاريخ والحاضر، هو أحد أهم الأعمال الأساسية التي يجب أن نقوم بها في ثورة الخلق الجديد "النهضة" للشرق الأوسط. وإن هذا التاريخ هو التاريخ الذي يظهر العقائد والممارسات التي تتناقض مع شخصيته، ويظهر ما جرى مع أهل البيت، وبقاء جثمان محمد على الأرض مدة ثلاثة أيام دون دفنه، على مدى جرأة وكيفية مسار الخيانة منذ اليوم الأول. إن حادثة كربلاء ليست فقط مأساة تاريخية، بل هي أبكر انفجار للخيانة في أحضان الإسلام وواقعها القوي. وتقدم هذه الخيانة التي اعتدت على أقدس القيم، مثالاً للتطرف والوحشية التي ستظهر بها عبر مراحل التاريخ القادمة، إن أبسط يقظة علمية تشترط تحليل واقع وتاريخ الإسلام بأدق تفاصيله. إذ لا يمكن تكوين فرد عصري دون إزالة الرواسب المتكلسة التي تحيط بذهنية الدول الإسلامية والشرق الأوسط كاملاً. وسيكتسب العلماني أو المجدد الإسلامي الحقيقي معنى مفيداً له عندما يدرك دوره ويقوم بما يجب القيام به أمام هذا الواقع. إن الاحترام والفهم الحقيقي لشخصية النبي محمد غير ممكن أن يكون ممكناً إلا بتجاوز الاستبداديين والعقائديين الذين لا يمكنهم رؤية هذه الحقيقة، فهم يصبون الإسمنت على العقل باستمرار ويكرسون القمع كفراعنة ونماريد معاصرين.

سنحاول تقديم مساهماتنا للجهود التي حاولت تحليل الإسلام كضرورة للالتزام واحترام الذين بذلوا جهوداً بهذا الاتجاه حتى الآن:

1 ـ إن التوحيد يعني وحدة الله، وهو المصطلح الأساسي الذي يجب تسليط الضوء عليه. إن فهم وجود الله ووحدته واعتبار النبي محمد كآخر رسول له بشكل كلي له أهمية كبرى. التوحيد والوجود ضد من ولماذا..؟ لماذا آخر رسول..؟ لقد بقي اللاهوتيون الإسلام يبحثون عن جواب في الإطار الديني، ولم تستطع التحليلات العلمية التي تم إجراؤها تجاوز الشروحات المحدودة، لأنها ليست على دراية بالميثولوجيا السومرية. ولم تستطع الحضارة الأوروبية تجاوز مركزيتها الأنانية ولهذا بقيت تفسيراتها محدودة، والشرق الأوسط في تنوره لا يستطيع التهرب من مسؤوليات القيام بذلك اعتماداً على مواهبه الذاتية، ولا يمكن أن ينجز مهمته هذه بنجاح إلا بعد تمزيق المحذورات المفروضة على ذلك.

تؤكد الوثائق الموجودة بين أيدينا أن الحضارة السومرية والمصرية قد شهدتا قفزة وتحولاً هاماً في مرحلة تطور الأديان المعتمدة على آلهة متعددة وفي العصر النيوليثي الذي كانت المرأة فيه ذات ثقل مهم. وعندما أثبتت البنية الاجتماعية المستندة إلى التمايز الطبقي والتفرقة الجنسية نفسها في غزارة الإنتاج، ازدادت الثقة بالمثيولوجيا التي طورها الكهنة. وإن لهذا دوراً كبيراً في اتخاذ معابد الكهنة كمراكز إنتاج. لقد أدى ظهور الأديان السماوية في مرحلتها الأولى إلى تحولات جذرية في المعتقدات الدينية، وتم اتخاذ الاستقرار وعدم التغيير في النظام السماوي مثالاً للاعتقاد الأساسي. وإن لاستقرار النظام السماوي المذكور تأثير في تطور التعصب العقائدي في الشرق الأوسط. إن المصطلحات مثل عدم التغيير والأبدية الأزلية مرتبطة بهذا التأثير، وإن أكبر فائدة لفكرة عدم التغيير والتي قدمتها للبنية العقلية الإنسانية وتطورها هي تركيبتها المنفتحة على فكرة القانون الدائم، وبذلك يتم البحث عن تطبيق النظام السماوي في الأرض وستبحث المعتقدات الدينية الجديدة عن ذلك دائماً، وستحاول جعل ذلك مسيطراً على العالم الذهني، ورغم المحافظة على بنية تعدد الآلهة فإن عددها يتناقص مع مرور الزمن وتبرز بعض الآلهة الكبيرة التي تمثل ظواهر الأرض والسماء والهواء والماء والعواصف، ورغم أنها تواصل في أن تكون على شكل الإنسان فهي تحاول القيام بمهمة خلق الإنسانية على شكل الإله السيد والعبد الخادم كنتيجة للتمايز الطبقي. إن الإله أنكي العلامة والماكر هو المعلم الذي أوجد السيد ـ العبد، وهو أستاذ الآلهة الآخرين في هذا الموضوع ويقنعهم بقبول الفكرة، لكن تم خفض دور الإلهة ننهارساغ "إله الجبال" وشكله الأخير إنانة إلى أدنى المستويات وكأنه بذلك تم إنشاء النظام الأرضي كترجمة لمجلس الآلهة الذي خلقه بوفاق هادئ والذي رفض عبده، والذي كان ذكراً على الأغلب. إن طرد آدم وحواء من الجنة والحكم عليهما بالخدمة الأبدية رسم كقدر للإنسانية. لقد وضع الكهنة السومريون حجر الأساس للتطور الديني في الشرق الأوسط وحتى في العالم من خلال إسناد بنية المجتمع الطبقي المستند إلى تمييز

السيد والعبد إلى القواعد الدينية والميثولوجية. ويجب على تاريخ الأديان أن يقبل هذه الحقيقة، ولا يمكن لأي تحليل ديني أن يستند إلى أساس تاريخي صحيح وشرح واقعي دون القبول بذلك، ولن يتخلص من النواقص وكثرة المعاني الخاطئة. ولا يمكن إنكار أن الأديان السماوية في اساسها مدينة لتصورات الكهنة السومريين. لقد قامت معابد الكهنة بمهمة الرحم الأساسية للإنتاج المادي والإبداع الإيديولوجي بنفس الوقت. ولعبت الحضارة التي تم خلقها هنا الدور الأساسي في تطور الإنسانية وبداية التاريخ.

إن أهم مساهمة قام بها الكهنة السومريون بالنسبة لمفهوم الإله هي رفعه إلى السماء وتحميله القوة الأساسية للطبيعة وجعل البشر بموقع العبيد في الوقت الذي يتم فيه تسامي صفات السيد - المالك في المجتمع، وبالتالي فقد تشكلت الأسس الإيديولوجية للسلطة السياسية. لقد تم تطوير الإله وحاجة المجتمع للعيش بنفس السوية في اللاهوت السومري، وبقول آخر إن الانعكاس أو المقابل الإيديولوجي للسلطة السياسية التي كانت واقعاً مادياً هو الله الذي خلق البشر خدماً له، ومن خلال ذلك فقد تماثل مصطلح الإله مع العامل السياسي وبذلك أصبح الجواب الإيديولوجي للساسة، وبدون خلق المقابل الإيديولوجي لا يمكن تسيير أي نظام سياسي، فالممارسة السياسية تمت دائماً تحت ظل الآلهة، وتداخلت السياسة ذاتها مع الدوغمائية الإيديولوجية في الأذهان مثل تلاحم الظفر باللحم، وبدون تحليل القوة السياسية التقليدية لن تتحقق العلمانية مطلقاً نظراً لهذا الوضع.

لقد تطور التوحيد الذي تم ربطه بجده النبي إبراهيم بشكل مماثل لحاجة القبائل للتوحد ورتابة الجغرافيا كما شرحنا سابقاً، ونرى هنا أن مفهوم الرب بعد مرحلة الطوطمية لدى أنظمة القبائل في الجزيرة العربية جاء بعد مفهوم الإله "أل" الذي تم تقديسه لدى السومريين الذي عملت القبائل على اتباعه، ولكن لا زال لكل قبيلة "أل" خاص بها، وهذا الوضع يفتح المجال أمام الفوضى مما يفرض مزيداً من الحاجة إلى الاتحاد، والأصح هو رؤية مبدأ التوحيد في هذه الحاجة الماسة إلى الوحدة حسب علم الاجتماع. فلماذا لا يحدث التفكير في توحيد "أل" في وقت آخر، بل عندما تشعر القبائل القريبة من بعضها بالحاجة إلى الوحدة والتقارب..؟، أن العهد القديم يشرح الحاجة الماسة للتوحد ضمن القبائل ذات صلة القربى لإبراهيم، ولا يمكن تحقيق الوحدة بوجود عدة "أل" مختلفة في القبائل المتجاورة، وكان على إبراهيم توحيد "أل" ات القبائل المتبقية من مرحلة الآلهة المتعددة حتى يقوم بتحقيق مهمته، إن تحقيق ذلك ضمن القبائل القريبة منه على الأقل وإعلان نفسه كرسول لـ "أل " الوحيد هو العنصر الأساسي في التكوين الإيديولوجي. وقد خصص بهذه العملية إيديولوجية "أل" وحقق القفزة المطلوبة من خلال إعلان نفسه رسولاً لـ" أل"، ويمكننا تسمية ذلك بالتحول

والانعطاف الكبير الثاني في تاريخ الأديان، وبذلك أصبحت الهوية الإلهية الجديدة واحدة من خلال التوحيد وأدخلت الإنسان في مرحلة الرسول لأنها أكدت أن الإنسان لا يمكن أن يكون إلهاً.

إن المعنى السياسي والاجتماعي لذلك هو الوصول إلى مأسسة الشيخ في الأرستقراطية القبلية، ولا يمكن للشيخ أن يكون إلهاً ـ ملكاً كما كان الحال عند السومريين، لأن القبائل لم تشهد الفرز الطبقي تماماً، فالشيخ لا زال ينتمي إلى القبيلة ويحيا حياته اليومية بشكل متداخل مع الآخرين، ولم يحدث انفصال بينه وبين المجتمع، وليس في وضع يمكنه أن يكون إلهاً، إن التأليه كخاصية تعود إلى الملوك فقط وأخذت مكانها في ثقافة المرحلة، لقد تم التحقيق والتنفيذ الإيديولوجي لذلك منذ زمن طويل في المجتمع السومري والمصري. إن الذي كان شيخاً يرمز للعصيان والتمرد ضد الإله ـ نمرود، أما جذوره الإيديولوجية فقد اعتمدت على أنه لا يمكن للإنسان أن يكون إلهاً وحاول تحديد الهوية الجديدة للإله من خلال إيديولوجيته المعتمدة على أساس رفض الإنسان الإله، وحقق مرحلة كبيرة في تاريخ الأديان من خلال نضاله الإيديولوجي الذي أعتمد على توحيد الآلهة، وعلى الرسول الذي يكون الأقرب إلى الله، وبذلك تم تحقيق تحول إنساني مرن بالنسبة للعبودية، لقد تكون تركيب جديد من خلال صراع تأثيرات المثيولوجيا السومرية والمصرية مع طوطمية القبائل، أي من خلال الطرح والطرح المضاد للتوصل إلى تركيبة جديدة، هذه هي حقيقة التوحيد التي تتزامن مع توحد القبائل والأقوام ذوي القربى التي اضطرت إلى التوحد من الناحية الاجتماعية، أما من الناحية السياسية فتعني تحديداً لسلطة الشيخ، إن التوحيد هو الهوية الإيديولوجية الكبيرة للقبائل التي توحدت تحت سلطة الله والشيخ، وأصبح الله كاللقب ومصدر قوة للقوم. فنداء: يا الله يعني " امنحني القوة وأنجدني "، وأصبح ذلك شعاراً للحياة وشكلاً من الوحدة. وصدى شعار "ياالله" الذي دوى على مدى قرون أصبح مفتاحاً سحرياً لمعادلة : "لنتوحد، ونستمد القوة، لننتصر".

عندما ننظر إلى التطور التاريخي، نرى بوضوح أن عبادة الله تهدف إلى التوحد والقوة. لكن المصطلحات كالتي تفيد بذهاب العبد المحبوب إلى الجنة هو الجانب الكمالي الأدبي لفنتزة المسألة. إن جوهر المسألة هو الحاجة لسلطة قوية عن طريق التوحد الاجتماعي والسياسي. يجب أن نرى التمييز بين القسم الأدبي الذي تلجأ له الإيديولوجيات من أجل أن تكون مقنعة لذهنية المرحلة غير المتطورة، وبين جوهرها الأساسي الذي يلبي الاحتياجات السياسية والاجتماعية، وإلا لا يمكن التخلص من الدوغمائية التي يتم الوقوع فيها قصداً في التاريخ، وهناك واقع سياسي واجتماعي تحت كل غطاء إيديولوجي، وتحت هذا الغطاء الإيديولوجي كتحليل نهائي، التمايز الاقتصادي والمصالح. إن عدم التحليل بشكل

شمولي وحصره في مكان معين يؤدي إلى الوقوع في خطأ منهجي مقصوداً كان أو عفوياً في نشاطات علم الاجتماع.

لقد تطور هذا التحول الإيديولوجي الكبير الذي تم اعتبار النبي إبراهيم جده في مرحلة موسى وعيسى، وهما قريبان لبعضهما من حيث الجوهر. إضافة إلى ذلك فقد عاش 124000 نبي في مرحلة ألف سنة حتى عيسى حسب الكتب المقدسة، ونفهم من ذلك أنه كان يتم إعطاء قيمة وصفة نبوية إلى كل الأشخاص المثقفين والذين يمتلكون ضميراً في كل المجتمعات السابقة، كانت مهمتهم الأساسية هي جعل الماضي والإرث المرتبط به حياً إضافة إلى أحياء آمال يوم التحرر والخلاص والجنة والبلد الذي تم الوعد به. وبرز البعض منهم أي الذين اكتسبوا أهمية في بعض المراحل كموسى وداود وسليمان ويحيا وعيسى ويرميا عزرا... والذين كانوا كالمربين وهم من نفس حلقات السلسلة، إن النبوة كعبادة الأجداد هي تقليد اجتماعي اكتسبت صفة إلهية ولها ممثلون في كل وقت، ولا توجد أية مرحلة بدون نبي، وتتم الحاجة إلى النبوة في مراحل الأزمات الكبيرة منذ عهد إبراهيم، وأطلق على الذين يحملون الكتاب بالدرجة الثانية حاخام في اليهودية وبطريرك في المسيحية وشيخ الإسلام في الإسلام وهؤلاء أغلبهم كتاب مفسرون للكتاب وسنة الأنبياء.

لقد انفجر عصر النبي محمد الإسلامي في هذه الظروف كالبركان، وأننا لن نكون واقعيين إذا فسرنا تطور الإسلام وانتشاره بشكل سريع على أنه حدث بمجرد قوة السيف، إذ لا يمكن لأي قوة أن تؤدي إلى تطورات اجتماعية دون نضوج الظروف، وحتى إن تم تطبيقها فإنها يمكن أن تؤدي إلى نتائج تخريبية. إن عنف الإسلام لا يعني إلا إزالة حواجز هشة شبيهة بالكثبان الرملية المسيجة للانهيار والتي تتجرف وتنهار بسهولة إثر تلقيها عدة ضربات فقط، ويضاف إلى جريان نهر الحضارة الإقطاعية القوي عدة روافد نهرية وبذلك يتحول إلى سيل لا يمكن الوقوف أمامه. وستصبح الإنسانية بهذه الحملة الثورية الكبيرة شكلاً وقوة جديدة لتاريخ الحضارة في المراكز الأساسية لها من خلال التغيير الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي الجديد.

في الوقت الذي نعرّف هذا التطور التاريخي الكبير بهذا الشكل، فإن رؤية خصائص ومساهمة النبي محمد عن كثب ينطوي على أهمية كبيرة. كما تشير المصادر فإن الظروف التي ولد ونشأ فيها النبي محمد هي ظروف مثلث مكة والمدينة والطائف والتي تعتبر المناطق الداخلية لشبه الجزيرة العربية الموجودة في نقطة تقاطع الإمبراطوريات الثلاث التي تشكل القوى الأساسية لذلك العصر وهي الإمبراطوريات البيزنطية والساسانية والحبشية. لقد تم إنشاء هذه المدن اعتماداً على التجارة التي شهدت تطوراً كبيراً بين الإمبراطوريات الثلاث.

فالتمدن يعني التطور والغنى والازدهار بالنسبة للنظام القبلي الصحرواي، فالتمدن في اللغة العربية يعني التحول إلى المدينة ويعني التحضر، واسم المدينة مأخوذ من هذا الفعل، وهذه المدن التي بناها العرب الأثرياء الساميون على الطرق التجارية مكنتهم من التحضر.

يشكل الإرث العبري الذي بدأ بالنبي إبراهيم الهوية الإيديولوجية للشرق الأوسط، ومرحلة تاريخية هامة جذبت القبائل الصحراوية الواسعة إلى مرحلة التحضر. لقد تجاوز الحضارة العبرية والسومرية رغم اعتماده على تراكماتها، وإن هذا الإرث هو الراية الإيديولوجية للموجة الحضارية الثانية والكبرى، ويعتبر الذهنية المتطورة للتحرك الاجتماعي الكبير وتشكلها مجدداً من الناحية الروحية، لقد تم تحطيم الأصنام الطوطمية التي كانت تمثل تخلف القبيلة البدائية من جهة، ومن جهة أخرى تم التمرد والعصيان على تعدد الآلهة الشبيهة بالإنسان وعلى الأنظمة المصرية والسومرية التي قدمت نفسها مثل الملك الإله، إن تحول "أل" إلى الله هو السلاح الإيديولوجي الأساسي للتطور التاريخي، ويعتبر شعار " الله أكبر، محمد رسول الله"، لهو أكبر قوة دعائية للمؤمنين الذين تجمعوا حوله، وعندما تم الوصول إلى عهد النبي محمد هدأت البنى السياسية مقابل تطور الظروف الاقتصادية والاجتماعية، وأصبحت الإيديولوجيات الرسمية متخلفة وعدوانية، وكان يتم تجاوز العبودية بسرعة من خلال التمأسسات الاقتصادية والاجتماعية، وكانت أشكال الدول الحاكمة تشهد إصرارا كبيراً على التعصب وباتت متخلفة أكثر من الملكيات المطلقة في سومر ومصر وكانت بعيدة عن تأمين العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي خلقت مجدداً، وأصبحت عائقاً أساسياً أمام البنية السياسية والنمط الجديد للإنتاج وعلاقات القوى الاجتماعية، ولا سيما الإمبراطورية البيزنطية والساسانية اللتان كانتا قد زالتا منذ زمن طويل وفقدتا حيويتهما، وكانتا تشكلان سداً أمام الحملة الحضارية الجديدة ولا بد من تجاوزهما لانهما لا تمثلان سوى مخلفات أجهزة دولة عبودية.

التطلعات المتصاعدة للحياة الجديدة والخيالات الإنسانية تصطدم بهذه السدود وتقف عندها، وكان التطور الذي شهدته الإمبراطورية البيزنطية عن طريق المسيحية يتحول إلى تعصب أدى إلى ممارسة القمع والظلم مع مرور الزمن، وخرجت المسيحية التي هي أمل تحرر المضطهدين بشخصية عيسى البريئة عن أن تكون دين الوجدان والأخلاق. وتم تحويلها إلى أداة لألاعيب السلطة وتم تحريف المسيحية الرسمية في مرحلة سمو النبي محمد عن جوهرها، كأداة توسع وضغط لأصحاب السلطة، وتم استبعادها عن أن تكون أمل الجماهير، واستخدمت كوسيلة لتخدير البشر، والتقليد العقائدي الذي ينتظر المسيح "المنقذ" بدأ يبحث عن مسيحه الجديد أي نبيه الذي تحدث عنه العهد

المقدس. وبدأت الإشارات المتعلقة بزمان ومكان ظهور النبي الجديد تزداد يوماً بعد يوم. وكانت النقاشات تدور حول هذه المسألة والعلامات.

تم إيقاف التصاعد "المانوي" في الإمبراطورية الساسانية على يد مجموعة من الكهنة الذين جعلوا الزرادشتية متعصبة "275 م" عن طريق المجازر. وبقيت الإمبراطورية بعدها بلا متنفس أمام التجديد ولم يبق للزرادشتية أي دور سوى أن تكون وسيلة للتعصب، وكانت الحضارتان الصينية والهندية تشهدان صراعات داخلية كبيرة. وكان تطور الإقطاعية فيهما يشهد مرحلة مضطربة. وهكذا فان الإنسانية كانت تبحث عن الخلاص عبر الجماعات الصوفية والطرق السرية التي انتشرت بكثيرة كما كان الحال في المرحلة الأخيرة للإمبراطورية الآشورية. وبقيت هذه القنوات الصوفية التي كانت شبه دينية وشبه فلسفية، السبيل الوحيد المفتوح للحرية الإنسانية، لكنها لم تستطع أن تكون التيار الأساسي للتحرر، حيث لم يتم فتح الطريق أمام الجداول والبحيرات الصغيرة لترفد تيار النهر الرئيسي.

ان وجود تلك المدن بجوار الإمبراطوريات الثلاثة يعد ميزة بارزة لها. ولم تتمكن أية إمبراطورية ضم المدن المذكورة إلى حدودها بشكل كامل، وكأن الصحراء كانت تلعب دور بحر من الدفاع الطبيعي. ولم تستطع أي قوة مقاومة القبائل العربية التي كانت تمتلك الحديد وقوة السيف والخيول، وإن الخيول والسيوف تلعب دوراً استراتيجياً هنا، ونضجت الظروف الأساسية لمرحلة تاريخية استراتيجية عند توحد الدور الذي تلعبه الجمال (سفن الصحراء) في التجارة مع السيف والخيول التي توحدت مع قوة الدفاع الطبيعية للصحراء. ولم تتخلص جيوش الإمبراطوريات الثلاثة من تكبد الخسائر والانسحاب رغم قيامها بعدة حملات على مكة، إذ ليس هناك ما تقوم به الجيوش النظامية في هذه الظروف، إن قصة تشتت الجيش الحبشي من خلال الحجارة التي أمطرتها طيور الأبابيل "أية في القرآن" هي الشرح الديني لمحاربة الفرق القبلية بواسطة السيف والخيول، وفي الوقت الذي أدت فيه التجارة بين الإمبراطوريات الثلاثة إلى غنى غير طبيعي وظهرت قوة الخيول والسيف فان حرب الكريلا حسب ظروف الصحراء جلبت معها إمكانيات نجاح كبيرة، ولكن يصعب الاعتماد على حرب الكريلا الصحراوية في كل مرحلة تاريخية وكل حرب بما فيها تلك التي قامت ضد الأنظمة في الصحراء الغربية والمغرب والجزائر والسودان، وهناك قيام كريلا مشابه لكريلا الصحراء من صحاري منغوليا وتركمانستان، أدت إلى أقوى حملات توسع في التاريخ. وكذلك كانت طرق الكر والفر عند الآريين تعتمد على أنظمة جبال زاغروس ـ طوروس، بينما اعتمد الالمغان والسلاف على غابات وسهوب الشمال ضد المراكز الحضارية في ظروف مشابهة، وبنفس المنطق. ومن المعروف أيضاً أنه تشكلت ظروف مشابهة في المراكز

الحضارية التي تطورت في وديان النيل ودجلة والفرات ابتداءً من الألفية الثالثة قبل الميلاد في شبه الجزيرة العربية. لقد أدى وجود القرى ذات الإنتاج الغزير في العصر النيوليثي، والظروف التجارية التي ظهرت مبكراً بين مراكز مدن النيل والفرات ودجلة إلى تحول للقبائل السامية، وهذا ما جعلها قوة دفاعية وهجومية في آن معاً، وكانت تقوم بالنهب بشكل متتابع، وتعيش حياة مستقرة عندما تحصل على القوة، وتهرب إلى أعماق الصحراء عندما لا تتمكن من امتلاك القوة.

إن النسب إلى إبراهيم كجد، قد رفع هذا الإرث إلى أعلى المستويات وأكسبه شخصية وحوّله إلى حضارة أصيلة مع مرور الزمن، وأصبح هذا التأثير فعالاً عن طريق قوة الجمل وذلك في المرحلة التي لم يمتلك فيها الخيول والحديد قط. وازداد التأثير بعد عام ألف قبل الميلاد بعد دخول السلاح الحديدي، وتم تشكيل أول ملكية عبرية في التاريخ، إن اعتداء المصريين والسومريين ومن ثم الآشوريين والساسانيين والرومانيين على مراكز الحضارة الجديدة والبطش بها بلا رحمة وإزالتها أحياناً لم يكن عن عبث، وكانت الاعتداءات المنطلقة من الصحراء تضغط على هذه المراكز وكان لها قابلية لتشكيل البديل أيضاً. لقد لعب الإرث القبلي دوراً أساسياً في انهيار سومر ومصر وحتى روما المزدهرة، ويشكل عهد النبي محمد مرحلة الذروة التي أعدت التصاعد المزدهر إلى حضارة جديدة انفجرت كالبركان تحت الظروف الجديدة لهذا الإرث والتي مازال تأثيرها مستمراً حتى الآن أي مرحلة الإقطاعية.

2 ـ إن شخصية محمد تظهر تطوراً متناقضاً للغاية ضمن ظروف المرحلة التي تحدثنا عنها. وكانت الثقافات المنتشرة للإمبراطوريات الكبرى الثلاث متقدمة مقارنة مع ثقافة القبائل العربية. وتفصل بينها هوة كبيرة. وكانت طواطم القبائل المتراكمة في الكعبة ميتة، و لم يبق لها أي خاصية تلهم بالقوة، حتى لو كان بعضها كاللات ومناة والعزة لا تزال تلقى بالاحترام، ورغم تمثيلها من لدن_القوية ظلت بعيدة عن إعطاء الإلهام لحضارة جديدة، بل تم منع الأفكار الجديدة والطرق الصوفية وكانت العقلية والمؤسسات التي تعتمد على التعصب القبلي تحكم البنية الفوقية، والكل يفتخر بقبيلته، وكان يتم النظر إلى المرأة بازدراء إلى درجة وأدهن.

تعتبر الرحلات التجارية بين مكة والشام ذات أهمية أساسية في النضوج الفكري للنبي محمد، ومن المعروف أنه أستمع إلى الكهنة النسطوريين المسيحيين وناقشهم كثيراً، وإن الزواج والثقة والحب من خديجة له دور كبير في تبلور أفكار إيجابية بحق النساء، ويتضح أنه ما أمكن لمحمد أن يكون نبياً دون خديجة، وتأثير خديجة أكثر من مريم وحتى لو كان بشكل مبطن، وتمثل ثقافة

المرأة الربة. يعود سبب عدم إبلاء التاريخ الإسلامي لخديجة الدور الذي تستحقه إلى سيطرة البنية الاجتماعية الذكورية، فمن الواضح أن خديجة هي أول من أيدت محمد في مجتمع مكة، وكانت تكبره سناً، وكانت غنية وقوية لدرجة يمكنها من امتلاك أكبر قافلة تجارية، ومن الواضح أن خديجة تشكل تناقضاً جدياً في مجتمع مكة ذي الهيمنة الذكورية التي تصل إلى درجة ترك الفتيات للموت وهن على قيد الحياة "وأد البنات"، وإلى درجة الازدراء. ولذلك فإن علاقات خديجة وزواجها من محمد تعني من ضمن ما تعني أنها لا تستطيع مقاومة المجتمع المتوحش بمفردها، وإن عدم زواج محمد بامرأة أخرى حتى وفاة خديجة مرتبط بالقوة المادية والمعنوية لخديجة أكثر من أن يكون احتراماً لها، وتظهر تأييدها لنبوة محمد كأول تأييد نصيبها في التكوين، كان علي أبن عمه وزيد الذي كان بموقع عبده هما من أوائل الذين آمنوا بنبوته، وتظهر هذه الصورة الصفة الثورية للمجموعة، لقد حطم الروابط القبلية في شخص عليًّ، وفي شخص زيد يعتق العبودية ويزيلها بالثورة، لقد تحققت ثلاث ثورات بهذا الثلاثي الأول حتى لو كان بطريقة بدائية، إذ قام بثورة نسائية بعلاقته مع خديجة وبثورة قبلية مع علي وبثورة ضد العبودية مع زيد. كان يحكم علاقتهم نمط ثوري، فقد شكلوا حياة جماعية ومع توسع المجموعة أضحى لا مفر من وضع المانيفيستو الإيديولوجي. إن انزواء محمد في غار حرّاء قبل أن يصبح نبياً يعد مرحلة التركيز الإيديولوجي وقد شهدت جميع النبوات مراحل مماثلة لهذه المرحلة، ويشرح العهد القديم أن موسى قد عاش مرحلة طويلة في جبل سيناء.

يمثل نزول الوحي على محمد في سن الأربعين إعلان التركيز الثوري الجديد والدخول في مرحلة النضال العلني، وهو بيان واضح يعطي الشرعية للسيادة على مكة، وخطا خطوة من التركيز الإيديولوجي إلى السياسية. وكان الوعي في هذه المرحلة يتعلق بأسس الإيمان والأخلاق، وكان يتم الأعداد النظري للثورة وتحديد مبادئها. وعندما كبر الخطر تحرك المجتمع الرسمي لمكة، وكان قتله متوقفاً على لحظات.

هاجر محمد الذي لم يختر الطائف التي أصبحت مزدهرة بالتجارة، إلى المدينة التي رآها كخيار وحيد في عام 622 بعد الميلاد وهو في الثانية والخمسين من العمر. يؤكد التاريخ بأنه ما كان للمسيحية أن تكون اكثر من مجموعة صوفية بسيطة لولا صلب المسيح، ويمكن ان يقال قول نفس الشيء بالنسبة لهجرة محمد إلى المدينة، وكان من الممكن أن يبقى الإسلام مجموعة أدرية لولا الإجبار على الهجرة ولولا إظهار التعصب الشديد، لكن الظروف وفاعلية قانون الفعل ورد الفعل يؤدي إلى حملات تاريخية كبيرة على أيدت مجموعة صغيرة، وهذا ما أثبته التاريخ في الماضي. كانت مرحلة المدينة هي مرحلة التسييس وتشكيل الجيوش وتتمحور آيات هذه المرحلة على الأغلب في كيفية

تكوين النظام السياسي، وكانت تتشكل في المدينة معاهدات اجتماعية جديدة لتكوين الدولة المدينة، لكن المرحلة لم تكن مرحلة ظهور حضارة سومرية ومصرية، لأنه كان في الجوار مراكز إمبراطوريات مختلفة وتجارة متطورة وكان لا مفر من التحول إلى دولة والتوسع على حساب الدول الأخرى، ويعتبر ذلك مرحلة الوجود واللا وجود، هذا الانفتاح أثار شهية القبائل الصحراوية على المراكز الحضارية المحيطة بها، فوضع القبائل الفقيرة جعل من إيديولوجية محمد واتفاق المدينة جذابة فوق العادة، وأدت إلى سرايان مفهوم الحكم الذي يقول: " أمشي يا عبدي دربك ممهد" مرة أخرى.

قبيل وفاة النبي محمد كان قد تشكل نظام الدولة، وإن معرفة الخصائص الإيديولوجية والسياسية والعسكرية والاجتماعية بشكل جيد للتشكيل الذي تأسس خلال فترة قصيرة والذي أثر وما يزال على التاريخ، لها أهمية كبيرة .

أ: ما تم تحقيقه على مستوى الهوية الإيديولوجية هو الترجمة الكبيرة الثالثة للميثولوجية السومرية بالشكل الذي شهد تحولاً. لقد توضح من خلال تحليل اللوحات الأخيرة أن المصدر هو الميثولوجيا السومرية. إذ كان التحول الأول في بابل والثاني عند العبريين وتم الحصول على نمط أكثر اكتمالا بالتحول الثالث بيد العرب الجيل الأخير للإرث. لقد قمنا بشروحات كافية عن المصدر والتحول الأول والثاني ويتطلب فهم التحول الثالث بشكل جيد مع الأخذ بعين الاعتبار المصدر والتحولات بشكل دائم، اننا لا نهدف هنا إلى التقليل من شأن القرآن أو إظهار الدوغمائية التي أدت الى تحجر القيم المعنوية والذهنية ككابوس على أنه تطور ديني عادي، بل على العكس نهدف الى تناول القرآن ضمن الإطار الصحيح لعلم الاجتماع، وكشف النقاب عن نوعية المصالح الملعونة التي تقوم باستخدام الإسلام قناعاً كبيراً لها، وهي مهمة علمية أساسية لنا، ويجب أن لا ننسى أنه لا يمكن معرفة القوى الحضارية الموجودة بشكل صحيح أو تنفيذ متطلبات الدور الذي يمكن لعبه بنجاح من أجل التحضر دون تسليط الضوء على الظلام المخيم آنذاك.

إن البدء بسؤال "هل تؤمنون بوجود الله وبوحدته.. ؟"، في النقاش الإيديولوجي المتعلق بالإسلام، هو موقف انتهازي "تحريفي"، يعني استخدام جميع أساليب الكلاسيكيين والسفسطائيين في القرون الوسطى، ومع الأسف فقد انجرت الفلسفة واللاهوت إلى هكذا نقاش سفسطائي فارغ لمئات السنين، عذب الناس وزجوا في السجون، وفي النهاية لم يتم الوصول إلى أية نتيجة، وبينما كان الحال على هذا المنوال أدرك سقراط في أولى حواراته مع السفسطائيين بخطورة هذا النمط من النقاش، وضحى بحياته من أجل منع هذه الخطورة، وقال دائماً: "اعرف الجوهر..!" المهم ليس النقاش الفارغ بل محاولة فهم ما يتعلق

بالجوهر، فبدلاً من النقاش هل النجار موجود أم لا ..؟، أو هل هو جيد أم سيئ؟. يجب سؤال كيف يمكن ممارسة النجارة بشكل مثالي وجيد..؟. وإيجاد الجواب لهذا السؤال هو الأهم، فالطراز الأول هو طراز السفسطائيين والانتهازيين، بينما الطراز الثاني هو طراز وأسلوب الفلاسفة الحقيقيين والعارفين والعلماء.

إذاً ما هو المقصود بوجود الله ووحدانيته الذي يعد العامل الأساسي لبروز الإسلام؟. ما هو التطور الاجتماعي والتاريخي الذي سبب ذلك..؟ وما هي الأهداف العملية لذلك..؟ هذه هي الأسئلة الأساسية التي يجب إيضاحها وإلقاء الضوء عليها.

يجب أن أؤكد قبل تحليل وإظهار تطور مصطلح الله مرة أخرى، على أن التعريفات التي تتبناها الفلسفة واللاهوت والتي تقول بأنه السبب الأول للكون ومنشؤه وصاحبه، لا معنى له البتة. وهي أقرب إلى السفسطة. وأرى من موقعنا ان النقاشات والأفكار التي تدور حول وجود الله ووحدانيته أم لا، والتي تفيد بأنه السبب الأول للكون وصاحبه، ليست مسألة مهمة وذات معنى. أريد أن أؤكد على مسألة ألا وهي أن التخلف الذي نشهده في حاضرنا يعود إلى استخدام الدين ضد التنوير في سبيل المصالح السياسية، وهذا ما كان عليه الأمر عبر التاريخ، والوصول إلى نتيجة من خلال الأساليب السفسطائية الماكرة، ونرى الرجعيين في تركيا والدول الإسلامية مازالوا يستخدمون هذه السبل بكثرة، ويحصلون على مصالح هامة من خلالها. ويتم استثمار واستغلال كبير في هذا الإطار، وأؤكد هنا على أنهم سيستغلون تقييماتي هذه في المستقبل، فمصطلح الله الذي يواصل تطوره مع المجتمع بشكل دائم سيواصل وجوده في مجتمع العلم، ويجب أن يواصل وجوده. ولكنه لم يكن إلا اسماً للقانون الوحيد للكون والمجتمع، وبمقدار معرفتنا الصائبة لهذا القانون سنتعرف على اسمه وعلى الله بتلك الدرجة من الصحة والفهم، وفيما عدا ذلك فإن كل النقاشات والتعريفات ستظل سفسطائية، وتعني في أساسها الدفاع عن الرجعية والتستر على الظلام وحماية نظام الاستغلال والرعب وعالم الكسب غير المشروع.

سنحاول تحليل مصطلح الله على ضوء هذا الموقف اعتماداً على وسائل علم الاجتماع، وليس اعتماداً على المدارس الفلسفية أو اللاهوتية، وسنحاول تعريف وشرح ماهية الحاجة الاجتماعية التي أدت إلى ظهور الهوية الدينية.

تؤكد جميع الدلائل المتعلقة بحياة النبي محمد، أنه ركز على مصطلح الله أكثر من غيره، وشرح وجود الله وهوية وحدانيته والتي هي من أهم المشاكل التي واجهت النبي محمد، ولم تكن هذه المشكلة مصطنعة بل كان جادة من خلال بحثه عن الجواب عبر الجهود التي بذلها لوصفه بـ 99 صفة، كمحاولة لتحقيق

قفزة في الكم، وكأنه يملأ مصطلح الله بطاقة مركزة تحت أشكال جديدة ومستمرة. إن مقارنة ذلك مع القيم التي تم تضمينها لمصطلحات الليبرالية والاشتراكية، ستساهم في فهم هذه الدراسة بشكل أفضل. ففي الوقت الذي يتم فيه تطوير الهوية الإيديولوجية عن طريق التحولات الاجتماعية يتم إغناء المصطلحات الرئيسية بقيم هامة لأجل تقويتها.

من المعروف إن القبائل الموجودة في شبه الجزيرة العربية كانت تحاول منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد، قبول" أل" كقوة إلهية، تعني "أل" في الأتمولوجيا السامية "السمو" كهوية إيديولوجية لها. لقد ولد وتطور المصطلح من خلال تغييرات البنية الداخلية للقبائل وعلاقاتها مع المجموعات الأخرى في الخارج، ولا سيما علاقاتها مع الحضارة السومرية والمصرية، لقد تجسد "أل" الذي يتجول في السماء والذي كان مجرّداً أكثر من غيره في العقول، بعد أن غدا الطوطم الذي كان يشبه وجوداً إلهياً للعهد الرجعي للقبيلة في هذه المرحلة لا يستجيب للتغييرات الجديدة. ولا شك أن مفهوم الإله العالي والذي لا يتغير والمستند للنظام السماوي للكهنة المصريين والسومريين، لعب دوراً مصيرياً في ذلك. وكانت البنية الأحادية والمجردة للقبائل ورتابة الجغرافيا والعلاقة والصراع مع مراكز الحضارة، قد أجبرت "أل" على التطور كمصطلح أحادي وموحد، لقد تمت محاولة شرح ذلك كخاصية أساسية لإرث إبراهيم بشكل كامل.

لقد أحرز التحميل الذي قام به موسى للمصطلح خطوة جديدة للأمام، وكأنه جعل "أل" قوة قومية، "فإسرائيل" تعني من حيث المعنى القبائل العبرية التي تتصارع مع "أل"، وعند الرغبة في تأسيس تقارب شديد فإن كلمة إسرائيل لوحدها تشكل أهم الأدلة. وأصبح "أل" أول قوة مركزية رسمية بعد أن أصبح داوود وابنه سليمان ملكاً بمساعدة الكاهن صاموئيل، وتحول اسم "أل" إلى العبرية وأصبح ألوهيم "**Elohimm**"، ومن الواضح أن ألوهيم هو التعبير الجدي لكيان المجتمع الإسرائيلي الذي تسيس وتحول إلى ملكية. وهو التعبير المجرد لعقلية المجتمع المتحول وهويته الإيديولوجية التي تحولت إلى مصطلح، ونحن الآن أمام مثال لاستمداد القوة من المصطلح وخلق تاريخي مذهل للوصول إلى مصطلحات جديدة من القوة، وإذا شاهدنا ما أدى إليه إله إسرائيل هذا من حروب واختراعات وتجديدات وأفكار يمكننا عندئذٍ فهم المدى المدهش لهذا التصور.

لقد ظهر الإرث المسيحي الذي تطور مع عيسى كتعبير للانسلاخ باسم الطبقات الفقيرة عن الإرث العبري الرسمي، ويعبر ذلك عن اكتساب التمايز الاجتماعي كياناً كهوية اجتماعية جديدة "العهد الجديد" واتخاذه دور أمل المرحلة وإرادة التحرر والعقائد وطراز الأخلاق. لقد غير عيسى اسم ألوهيم

الذي كان اسماً آشورياً وأصبح "الرب" باللغة الآرامية التي كانت سائدة آنذاك ومعناها المصطلحي هو "السيد"، وأصبح معنى مصطلح الإله "السيد" بعد السومريين ومن جاء بعدهم، ومن الواضح أنه يمثل الطبقة المتصاعدة، وأطلق على البشر الذين تم وضعهم بموقع الخدم اسم "العبد" ومن الواضح أنه يقصد بذلك الطبقة المسحوقة.

من المعروف أن عيسى قد حمّل مصطلح الله الرحمة والخلاص واللطف والعناية والمحبة والأخوة والسلام والعدالة والأخلاق باسم المضطهدين. لقد تمت تقوية الرب بتلك المصطلحات كهوية إيديولوجية جديدة للمجموعات المسحوقة، وكوّن المسيحيون وفي مقدمتهم عيسى مجتمعاً تم تقديسهم فيه مجدداً كأولاد الرب، وكان ربهم سيحميهم في أصعب الظروف ولن يبخل عليهم بالمساعدة، وسيكون الدعاء للرب بعد الآن، وسيكون معهم حتى تحقيق آمالهم. ونحن مجدداً أمام مثال تاريخي مذهل يتلخص برفع المجتمعات لراية المصطلحات المجردة وتقوية وتطوير تحويل الذات من خلالها. إن ذلك هو أحد الأمثلة التي تحدد العصر والتي تثبت عدم إمكانية فصل القوة الإيديولوجية عن التطور الاقتصادي والاجتماعي واستحالة تحقيق التطور دون أيديولوجيا وجود الآخر، وقيام الإيديولوجية بدور ريادي في تحديد المسار في بعض الأحيان. ويمكننا متابعة التاريخ ومعايشة التطورات والتغيرات والتحولات خطوة خطوة ابتداءً من مساهمة "باول" حتى الإصلاحات البروتستانتية باسم المسيحية، وابتداءً من دورها في تكوين العصر الإقطاعي حتى تأثيرها ورد فعلها على خلق وتطور المجتمع الرأسمالي.

أريد التأكيد على أهمية ما يلي: إذا تم الالتزام بالآمال والإيمان والأفكار التي يتم تحميلها للمصطلحات، وإذا تم عيشها بشكل مناسب مع حاجاتها، وتم تطبيق ما تنص عليها على أرض الواقع، وإذا لم تتناقض مع العصر والواقع بل تطوره. يؤدي كل ذلك إلى تطورات عظيمة، وعكس ذلك لا تخدم سوى الجمود والتخلف والانهيار، ولذلك يتمتع تحليل لغة المصطلحات الكبيرة جوهرياً أهمية كبرى بسبب تلك التطورات، وينبع دور وأهمية المنظرين والمؤمنين الكبار من هذا الواقع.

إن المعاني التي حملها النبي محمد للرب ـ وحتى لا يحدث الاختلاط فإن كلمة رب هي مصطلح ذو جذور آشورية سريانية، أما كلمة الله فهي مصطلح ذو جذور عبرية أيضاً، ويحمل المصطلحان نفس المعنى ـ تحمل أهمية كبرى. تم استيعاب وتجسيد المصطلحات التي حملها الإرث العبري والسرياني إلى درجة كبيرة. ويجب ألا ننسى أن الكيان السومري والمصري، والآري ـ وان بشكل أقل ـ يقف وراء تلك المصطلحات. لكن الأهم من ذلك قيام النبي محمد بإعداد وتطوير

نفسه ليكون جواباً على التغير الفكري والروحي الذي نتج عن الاقتصاد الإقطاعي والعلاقات الاجتماعية منذ القرن الخامس قبل الميلاد، ويعبر النبي محمد عن التركيز غير الطبيعي والخارق كأكبر ذهنية متطورة للعصر الجديد والمتصاعد، إن ارتعاشه وتعرّقه عند كل آية ينطق بها، يظهر مدى الجهد الذي كان يبذله من أجل التركيز. ويعني مفهوم النبي محمد من بدايته حتى نهايته عند الوضع الذي ذكرناه، اكتسابه شكلاً كهوية إيديولوجية جديدة، وتكامل السلوك الأخلاقي ككيان اجتماعي ملموس. إن اكبر ثورة قام بها هي إدخال المصطلحات الجديدة في البنية الذهنية والروحية والإرادة وتحقيق ذلك في ذاته، ويجب تقييم شرح الآية والسنة بالدرجة الأولى والثانية حسب أهميتها كخلق الإنسان والمجتمع الجديد.

قام جميع الأنبياء بتنفيذ أعمالهم المتعلقة بالله كمصطلح أساسي، بالاستناد إليه وبتلقي القوة منه مقابل تحميله المصطلحات الأساسية. وتكتسب التجارة التي تعتبر من أهم الخصائص الأساسية للمجتمع منطقاً إلهياً تماماً، وتتحول إلى صيغة وقاعدة إلهية بمقولة: "بقدر ما تعطي الله ـ وذلك يعني الدعاء والعبادة والقرابين ـ تأخذ ثمن ذلك كاملاً"، إنها صيغة تحولت إلى قاعدة دينية. يجب ألا ننسى أن الأديان التوحيدية والتي تستند بشكل عام إلى الجد؛ النبي إبراهيم، لها علاقة وثيقة مع المجتمع التجاري، فالتجارة تقوم بدفع المجتمع الزراعي إلى مراحل اجتماعية أكثر تقدماً، وبذلك تؤدي إلى مجتمع المدينة ومن ثم إلى الدولة. عندما نستطيع إقامة علاقة صحيحة بين ميلاد الدولة وتسامي الآلهة، يمكننا فهم سبب تزامنها مع الحالات المتقدمة من المراحل الذهنية. إن تبني هذا الإرث ولا سيما من قبل المجموعات العبرية التي توحدت مع هذا التقليد كان يزيد من قوتها بمقدار تقويتها لله وبذلك تم إيجاد صيغة مكملة وتامة وهي: "أنت قوي بمقدار قوة ربك. إذا قضيت على ربك ستنتهي، حيّر ربك تصبح محتاراً ". إن المجتمع السومري وإلهه الذكر والذكي أنكي قد أخذ من ربة سومر إنانة قيمها الجوهرية وجميع القيم التي خلقها العصر النيوليثي وبذلك يكون أنكي قد أخذ كل ما تملكه النساء في المجتمع، لن يكون صدفة الملحمة التي تتحدث عن رحلة أنكي الناجحة من "أورك" إلى "أريدو" ورجوعه إلى "أوروك" مصطحباً معه "104" قوانين "مي". إن ذلك هو شرح ميثولوجي ولاهوتي وأدبي لصراع نتج عن العلاقة والتناقضات الموجودة بين الآلهة والربات كانعكاس لما يعيشه المجتمع، ولا يمكننا إلا أن نقف مذهولين أمام هذا العمل القيّم للأدباء السومريين، وفي الحقيقة هذا هو جوهر الآداب.

لقد أضاف النبي محمد إلى مصطلح الله مع ظهور الإسلام صفات تدل على الصفات السياسية والعسكرية للثورة على الأغلب. لقد أضاف موسى إلى الصفات ما يتعلق بالتربية الاجتماعية والنظام، وأضاف عيسى إلى مصطلح الله

صفة المنقذ والحب والعدالة والأخلاق. أما صفة القهّار والحاكم والمالك فهي خصائص عسكرية وسياسية تمت إضافتها مع ظهور الإسلام. لكن صفة الأزلي والسرمدي، ولم يلد ولم ويولد، وقربه إلى الإنسان أكثر من الوريد فهي مصطلحات لاهوتية تعكس تأثيرات الفكر الفلسفي الإغريقي ولا سيما فلسفة أفلاطون وأرسطو. ويوجد تأثير كبير للفلسفة على ظهور الإسلام، ويمكننا ربط انعكاس الفلسفة على الإسلام منذ ظهوره مقارنة مع المسيحية، بعلاقة الكهنة النسطوريين الذين حصلوا على كلاسيكيات الفلسفة الإغريقية باكراً مع محمد. إن انتشار الفكر الفلسفي في الشرق الأوسط كأساس مادي مع مستوى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية المتشابكة لمجتمع تلك المرحلة قد أثر في تضمّن القرآن آيات عديدة تأوي الفكر الفلسفي، إضافة إلى الآيات المتعلقة بالإيمان والأخلاق، وتحمل البنية الفكرية ذات المضمون الفلسفي للقرآن مقابل مضمون الإيمان والأخلاق للعهد القديم والجديد على الأغلب بعداً هاماً.

إن إعلان النبي محمد نفسه آخر رسول لله مسألة يجب الوقوف عندها باهتمام، ويعتبر ذلك أهم صفة إصلاحية من ناحية الدين. فقد قام بنفسه بإنهاء عهد النبوة، ويشبه هذا الوضع حالة إنهاء ماركس لعصر الحضارة ذات الدولة مع مجيء الاشتراكية. فمثلما نضجت الإدارة دون الحاجة للدولة وكما يتطلب مستوى علاقات المجتمعات التي تخلصت من الطبقات اللا معنى لها، تعتبر المجتمعات اللانبوية قد وصلت إلى مستوى نضج وحرية مشابهة لذلك، ينص ذلك على عدم حاجة المجتمعات والإنسانية التي حصلت على قوة نظامها بإرادتها الحرة للأنبياء، إن الإسلام بمعناه هذا ينهي عصر الدين، وفي الحقيقة يكون نمطاً لآخر دين كوني لمرحلة العبور من الدين إلى الفلسفة.

إن التمسك الزائد بفكرة وجود شيء ما، يحمل في داخله الشك دائماً، ويشير إلى الجنوح وارتكاب الأخطاء. واعتماد الإيمان بالله على الفكر الفلسفي إلى حد كبير عند الإسلام يؤدي إلى الوقوع بالشك بنفسه، ولذلك بذل النبي محمد جهوداً كبيرة لم يسبق لها مثيل عند أي نبي آخر حول مسألة وجود ووحدانية الله، لقد ركّز على الله وحاول تعريفه ابتداءً من تعداد صفاته وإلى نمط عيشه وعمله وحتى خلقه لكل شيء، وهنا لابد من أن يخطر على بال الإنسان السؤال التالي: لماذا هذا الله الذي يعرف كل شيء والذي خلق الكون وهو حاكم كل شيء..؟! لماذا لا يحاول إقناع عبده بنفسه، ويحاول القيام بذلك عن طريق آخر نبي له؟. الجواب المطلوب هو: إن الشيء الذي يراد شرحه هو المجتمع الطبقي الجديد وعصر الحضارة، وإن الصعوبة تأتي من البنية المتشابكة للشكل الذي سيأخذه المجتمع الجديد والحضارة، ولا سيما البنية السياسية والقانونية، وهي من المشاكل الأساسية التي تنتظر الحل. فمن الواضح أن النبي محمد كان سيواجه صعوبات كثيرة أمام هذه المؤسسة التي من الصعب لثقافة قبائل الصحراء أن

تستجيب لها، وكان مصطلح الله الذي تم تعريفه هو الهوية الإيديولوجية أو رمز هذا العصر في أرفع مستوياته. وكان النبي محمد يعرف بأنه سيبني وسيدير المجتمع والدولة والعصر الجديد بسهولة بقدر تحميل مصطلح الله صفات ذات معنى، وتكوينه قواعد وقوانين وقوة أمر مع المصطلح.

اننا نتحدث عن وضع مشابه للمرحلة التي خلق بها الكهنة السومريون مجتمع المدينة أو الدولة. فقد أضطر الكهنة أمام الإنتاج المثمر للمجتمع الذي أعادوا بناءه والذي كان سبباً ونتيجة لهوية إيديولوجية تتطلب القوة والكمال، إلى نتاج ميثولوجيا ودين في المعابد، وكانوا على ثقة بأن المجتمع الجديد سيحصل على الثقة بقدر درجة نجاحهم بذلك، لذا فإن خلق ونشر الإيديولوجية مرتبط بالإنتاج مثل ارتباط الظفر باللحم. وهناك علاقة بين البنية الإيديولوجية كواقعة مجتمعية أساسية والإنتاج، وهذه العلاقة لا يمكن أن تنقطع في جميع المجتمعات تاريخاً وحاضراً.

إن قيام النبي محمد بالتحميل الهائل لمصطلح الله، نابع من كونه على وعي بما حققه هذا المصطلح على مدى التاريخ من جهة، ويدرك مدى القوة التي سيستمدها المجتمع والعصر من ذلك من جهة أخرى. وبذلك كان تفكيره اجتماعياً، وأنا أركز على هذا الأمر بأهمية، فقد كان النبي محمد يعيش حالة تناقض لأنه كان على معرفة بأن الدين لا يكفي للمجتمع الجديد عندما تتدخل الفلسفة في الأمر، وتبرز الذهنية الواقعية مع مرور الزمن. لأنه لا يمكن للدين أن يتواجد بسهولة في المكان الذي تتواجد فيه الفلسفة، ولا يمكن للفلسفة أن تتواجد في المكان الذي يتواجد فيه الدين، ولا مفر من الاشتباك وسيتغلب أحد الطرفين. ومن المعروف أن الفلسفة قد برزت في تجربة روما والإغريق، وكان الساسانيون والمانيون يريدون إبراز الفلسفة لكنهم لم يتمكنوا من ذلك، لأن الكهنة المتطرفين دينياً كانوا ذوي التأثير النهائي، وشاهد الدين الإسلامي هذه الخطورة منذ البداية، وكان تدخل الدين في الفلسفة السبب الأساسي للشخصية المتشككة للنبي محمد، ومحاولته إثبات وجود وحدة الله التي لا نرى لها مثيل في أي كتاب ديني، كانت نابعة من تفكيره بأسئلة مثل: هل كان سيدير النظام الاجتماعي الذي كان سيخلق بقوانين تنسجم مع العقل أم بقوانين وأحكام دينية سهلة التأثير ومنسجمة مع البنية الذهنية لمجتمع العصر القديم، وكان واضحاً أن التركيز والارتباط بمصطلح الله إلى هذه الدرجة ليس ناتجاً عن إشباع فكري بسيط وذلك من خلال تجربته التي عاشها.

يمكن فهم ذلك بشكل أفضل من خلال تحديد أمثلة حديثة،مثل السؤال أية اشتراكية؟ رغم مناقشة هذا السؤال منذ قرون فإنه لا يتم إيجاد أفضل اشتراكية ولا تطبيقها، والوضع هو نفسه بالنسبة إلى الليبرالية.

يجب التأكيد على أن النبي محمد كان مؤمناً وواثقاً من صدق ما قام به بالفعل عند تكوينه البنية الإيديولوجية "لا يمكن التحد ث هنا عن صوفية مزيفة"، لقد أسس النظام الإسلامي عن معرفة بأنه كان في عصر لا يمكنه الهروب فيه من الشرح المنطقي والفلسفي، بمقدار تقبله لجميع القيم الدينية التي يمكنه الدفاع عنها، إن التداخل الديني والفلسفي هو تركيب صعب جداً لكنه من الخصائص الأساسية للنبي محمد، إن شعوره بالعلوم الاجتماعية، بمعنى شعوره بالعلم وتصرفه بعلمية حسب المرحلة عند إنشائه نظامه، هو من الخصائص الملفتة للنظر عند النبي محمد، وبذلك يمكننا أن نفهم كيف أعلنت الشخصية الدينية والفلسفية والعلمية عن نهاية النبوة في شخصه، إن الإيمان بوصول عقل الإنسان إلى الفكر الفلسفي ومن ثم العلمي يتطلب شخصية داهية، لكن مع الأسف الشديد فالتناقض الكبير غدا بلية أكبر من التخلف الديني هددت نظامه باكراً، والتصقت بالبنية العقلية والروحية لأمته، قال ماركس عندما شاهد المناقشات التي تدور حول الماركسية في فرنسا في عهده: "أنا لست ماركسياً"، وإنني أؤمن تماماً أنه لو نهض النبي محمد وشهد التناقضات التي تعيشها أمته مع العصر لقال "أنا لست مسلماً" وبلغة أكثر صرامة.

يمكن تطوير تقييمات أكثر شمولية حول تحليل الهوية الإيديولوجية للإسلام، ولكن المهم أن تكون واقعية، وهذه مهمة لا مفر منها، ليس فقط من أجل فهم التاريخ بشكل صحيح بل من أجل التنوير في الشرق الأوسط في الحاضر، وما يتم القيام به باسم محمد في يومنا هذا لا يتصف بالعدل، فكيف نقيم الشخصية الإسلامية والمجتمع الإسلامي الذي عجز حتى عن تعريف نفسه بمحمد، في الوقت الذي قام فيه محمد نفسه بالتركيز على التطورات الدينية والفلسفية والعلمية للمرحلة على أعلى مستوى في ذاته، وطوّر بنية المجتمع المنتج والدولة، وخطى خطوات جبارة في حياته هزت العالم، من الواضح أنه يجب علينا القيام بحركة تحطيم أصنام مشابهة للتي قام بها النبي إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد على صعيد جميع البنى الذهنية والروحية في حاضرنا، ومن ثم القيام بذلك في مؤسسات المجتمع التحتية والفوقية.

ب ـ لقد تطور الإسلام متداخلاً بهويته الإيديولوجية المكثفة وكثورة عسكرية سياسية منذ البداية، وهجم على من حوله ببنيته الإيديولوجية كالأسد الجائع المتحرر من سلاسله، إن هجوم الإسلام على محيطه يشبه هجوم الغوتيين في مرحلة البربرية في أوروبا والهون" الأتراك" على مراكز الحضارة الرومانية، ففي الوقت الذي كانت تسيطر فيه الإمبراطوريات البيزنطية والساسانية والحبشية ببنيتها المتخلفة على المناطق ذات الاقتصاد المثمر المنتج، لعب التناقض والاختلاف بين الظروف الحياتية للقبائل العربية وتزايدها السكاني دوراً أساسياً في تلك الغزوات، وكانت المراكز الحضارية جذابة كخيال الجنة

بالنسبة لهم، وكانت هذه القبائل تعرف نعم الحضارة من خلال تجارتها وغزواتها المستمرة منذ المراحل الأولى للسومريين والمصريين، وفي الوقت الذي كانت فيه الصحراء تذيقهم عذاب جهنم كانت حياة الحضارة مصدراً لمفهوم الجنة. لقد جعل ازدهار الإسلام خيال الخلاص من جهنم والحصول على الجنة مقنعاً، إذ أدت الروح الجديدة وخلق الخيال إلى إيمان لا مثيل له حتى تلك المرحلة، وشجاعة لا حدود لها أدت إلى تفعيل التضحية والعمليات، أي إذا استشهدوا فسيذهبون إلى الجنة التي وعد بها المؤمنون في عالم الآخرة، وإذا بقوا أحياءً سيحصلون على جنة لأرض، وهنا تكمن مهارة النبي محمد، فمن السهل القيام بالتنظيم والتخطيط بعد خلق هذا المستوى من الإيمان.

إن التواجد في مرحلة تتوفر فيها السيوف والخيول بغزارة من الناحية التقنية، وخصائص الصحراء المثالية من أجل الكر والفر على نمط حرب الكريلا، قد فتح الباب على مصراعيه أمام الفتوحات الإسلامية، وكان التوسع الهائل للجيش وانفجاره كالبركان يتطور وكأنه قدر التاريخ من خلال قوانين الفتح المقدسة في الدنيا والآخرة، ولأنها تتيح إمكانيات مادية هائلة لمن لا يمتلكون أي شيء، فمن الواضح أن التاريخ كان يتعرف على حركة ثورية منظمة، وكانت البنية الإيديولوجية والعسكرية مستعدة لفتح العالم بأسرها، وكانت الإمبراطوريات التي تواجهها تشهد مرحلة جمود هائلة لاستنادها إلى علاقات عبودية كنظام للدولة، ولم يعد لها أي دور تقدمي يمكن أن تقوم به من الناحية السياسية، فكانت هذه الإمبراطوريات قد تحولت إلى حواجز أمام شعوبها التي كانت تتطور من مجموعات أثنية نحو بنية قومية إثر مرحلة تطور طويلة، وكانت تلك الشعوب تأمل الخلاص من البنى المتعفنة التي تشكل حاجزاً أمامها، وذلك عن طريق الذهنية الجديدة التي تشكلت من خلال الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي تجاوزت العبودية، ولم يبق ضبط الشعوب سهلاً كما كان في الماضي البعيد، وكانت حادثة ظهور المسيح المنتظر تتكرر من جديد وليس من الصعب خلق إلهام الخلاص ليس من أجل قبائل الصحراء فحسب، بل من أجل جميع شعوب الإمبراطوريات، إن القليل من العدل واحترام ثقافة الشعوب ـ عدا المتخلفة منها ـ يكفي هذه الشعوب لتتقبل الإسلام، وشخصية عمر العادلة تنبع من هذه الضرورة التاريخية، ويؤدي التفوق الإيديولوجي إلى التخلي بسهولة عن الهويات الإيديولوجية المتخلفة وربما يلعب دوراً أساسياً في نجاح حملات الفتح.

رغم وجود بعض الجوانب الصحيحة لتقييم الإسلام كدين السيف لكنه من الواضح أنه لا يمكن القيام بكل شيء بالسيف دون أخذ التفوق الإيديولوجي بعين الاعتبار، فلا شك أن السيوف والخيول كانت موجودة منذ فترة طويلة لكنها لم تؤد إلى أية خطوة إلى الأمام، فكما تطورت المسيحية في بداياتها كحركة إيمان وسلام وروح اجتماعية فقد تطور الإسلام كحركة سيف وحركة سياسية

على الأغلب، لقد تركز الجانب الإيديولوجي والعسكري والسياسي للإسلام بشكل متداخل، وكان يفتح ويهيمن كسلسلة عوامل ثورية تجري بسرعة بينما كانت المسيحية مسحوقة تعيش تحت سيادة الآخرين رغم تطورها في الساحة الاجتماعية.

كانت الحملات العسكرية للإسلام على شكل حرب كَريلا ضد الجيش النظامي، وكانت تنسحب في حال عدم النجاح ويعاد التنظيم من جديد، بحيث لم يكن شن هجوم جديد صعباً، إذ كان من السهل الهجوم على جيش نظامي من أربعة أطراف وتشتيته، وكان لا يتم الدخول في حرب اعتماداً على مواجهة واحدة فقط، إنما كانت هناك استراتيجية طويلة الأمد، مقابل ذلك كانت كلفة الجيوش النظامية كبيرة، وتتحرك ببطئ وخمول وتنتشر حسب نظام حرب المواجهة الواحدة ولا تستطيع لم شملها في حال تشتتها، وكانت في موقع لم يبق لها أية ميزة متفوقة أمام الفن العسكري الإسلامي، وكانت الجيوش الإسلامية تتفوق على الجيش النظامي من الناحية النفسية، وعندما نضجت ظروف القوى الجديدة والقوى التي تريد المحافظة على إرثها القديم شهدت هذه المرحلة التاريخية أمجاداً كبيرة باسم القوى الجديدة.

كان إنشاء النظام السياسي للإسلام يتم بعد تحقيق الأمجاد العسكرية، وكان يتم أحياء نظام الولايات الذي بقي من البرسيين كهوية إيديولوجية جديدة، لقد استخدم الإسلام عرب الصحراء الذين لم يشاركوا بالحضارة والشعوب الأخرى المشابهة لهم كدم طازج لحضارة قديمة، وجددها تحت هويته الإيديولوجية أكثر من أن يفتح ساحات حضارية جديدة، إن أهم خاصية لهذا التجديد هو تحويل البنى الذهنية والمؤسساتية للدولة المستندة إلى النظام العبودي وفق نظام العلاقات الإقطاعية، ويعتبر ذلك خطوة تقدمية في مرحلتها، التجديد في ربط علاقة وذهنية النظام العبودي الذي تمتد جذوره إلى آلاف السنين الماضية إلى كيان مجرد كعبادة الله فقط، أدى إلى ارتياح معنوي كبير، وقيم معنوية مناسبة عند مقارنة ذلك بأنهم كانوا عبيداً للملك الإله وأصبحوا عباد الله المحبوبين،ويملكون الثقة والمعنويات المرتفعة والشرف الكبير. إن أساس التفوق النفسي هنا يكمن في تحطيم الذهنية العبودية وبنيتها المعنوية التي تقلل من احترام وقيمة الإنسان، ووضع هوية جديدة تحقق للإنسان الشرف والاحترام والعدل كبديل لها.

في الوقت الذي قامت المسيحية فيه بنشاطات على مستوى القاعدة وحاولت فتح البنية السياسية من خلال خلق ساحات اجتماعية لها مع البقاء بعيدة عن البناء العسكري والسياسي، قام الإسلام بتطوير البنية السياسية من القمة عن طريق الفتوحات العسكرية وأعطاها شكلاً حسب هويته الإيديولوجية، أي كان

أحدهما يتجه إلى الثورة الاجتماعية من خلال الثورة السياسية والعسكرية بينما يقوم الآخر بالاتجاه إلى الثورة السياسية من خلال الثورة الاجتماعية.

وكأن ذلك يشبه العلاقة الموجودة في التجربة البلشفية التي اتبعت أسلوب النزول من القمة إلى الأسفل، ومع النهج الديمقراطي الاجتماعي الذي ينطلق من القاعدة، ويذكرنا ذلك بالسؤال الذي يقول: أيهما افضل الوصول إلى الهدف بطريق التطور أم عن طريق الثورة ؟.

لا شك أن الإسلام هو الذي بدأ بالمهام العسكرية والسياسية المذهلة للثورة الإقطاعية، وأن دور الإسلام واضح في قيام المسيحية بفتح أوروبا، ويجب أن نؤكد على أن المسيحية هي جزء من ثقافة الشرق الأوسط، وإذا كنا نتحدث عن المساهمة، فأننا نقول إن الشرق الأوسط مازال يغذّي أوروبا حضارياً، وقد بدأت هذه التغذية منذ عشرة آلاف عام قبل الميلاد واستمرت حتى أصبحت المسيحية ثانوية أمام حركة التنوير الأوروبية، وإذا تناولنا تاريخ الحضارة نرى أن التطورات الاجتماعية ذات الجذور الشرق أوسطية تغذي أوروبا منذ 8000 سنة، بما في ذلك العصر النيوليثي الذي استمر أربعة آلاف سنة، وكانت تقدم بعض القيم الحضارية المحدودة لكنها لم تنج من التيبس حتى النخاع باستمرار، وسنحاول مقارنة حضارة الشرق والغرب بشكل شامل عندما يتطلب بحثنا ذلك.

إن نظرية السياسة في الفكر الإسلامي تقدم موضوعاً متميزاً، إذ ينشر مصطلح الله الموجود في الهوية الإسلامية كل ظله كما هو عندما طرح التمأسس السياسي، إن وصف السلاطين وأصحاب الحكم انهم ظل الله يشير إلى مصطلح آخر هام جداً، والصفات التي تم تحميلها لمصطلح الله كالقهار والحكيم والجبار والستار والعادل والقادر هي صفات ذات طبيعة سياسية ستظهر أمامنا فيما بعد كصفات لأصحاب السلطة، يجب أن لا نبسط ذلك بالقول أنها عبارة عن لعبة إيديولوجية، فهناك عدة مصطلحات تم تضمينها للاشتراكية كأيديولوجية علمية وتم عرضها كنظام سياسي فيما بعد، وتشهد جميع التمأسسات الإيديولوجية والسياسية نظام علاقات مشابهة لذلك، وهذا الوضع لا يخص الإسلام فقط، وكنا قد حاولنا شرح كيف قام الكهنة السومريين بنفس النمط من النظام سابقاً.

سيلعب إضافة صفات سياسية إلى مصطلح الله دوراً كبيراً كأساس إيديولوجي للحكم المطلق، ولذلك لابد من أن يؤدي إلى مفهوم نظام أكثر تصلباً من المسيحية، ويتميز عن النظام العبودي بفارق واحد هو طرح صيغة الرب وظله الملك بدلاً من صيغة الإله الملك، يتحول الملك إلى إله في أحد الصيغ لكنه يقترب في النظام الإسلامي إلى صلاحيات الله من خلال ظل الله، وامتلاكه جميع صفات الله بشكل مبطن ولا سيما المتعلقة بالسياسية منها. تنبع خطورة النظرية

السياسية للإسلام من بنيته الإيديولوجية، وعدم القيام بالتمييز الكامل بين الفلسفة والدين هو تقصير يولد نتائج هامة، ولن تتردد السلطة بالقيام بأعمال غادرة اكثر من النظام العبودي كلما ترديت أوضاعها، ولم يكن الملك والرب متطورين لأن آلهة المجتمع العبودي لم تكن متطورة، ولكن تم تطوير رب الإسلام إلى درجة كبيرة بتعدد صفاته السياسية بشكل خاص من حيث التنوع والقوة، وعندما يتقاسم أصحاب السلطة الذين هم ظلال الله صفاته عندها تحل الكارثة. لقد محا هذا الجانب عدة خصائص إيجابية في الإسلام، ولم تظهر هذه الحقيقة في البنى السياسية المفتوحة للاجتهاد في المرحلة التقدمية للإسلام حتى القرن العاشر بعد الميلاد. لكن النظام السياسي شهد صلابة جامدة بعد أن تم قطع الطريق أمام الاجتهاد والنقاش عن طريق فتاوى شيخ الإسلام بطريقة عمياء، وحسب التقاليد والإرث. وبعد دخول النظام الإسلامي مرحلة التخلف والتعصب، لم يستطع أن يكون جواباً للواقع لا من الخارج ولا من الداخل. ففي الوقت الذي غيّرت الحضارة الأوروبية جوهرها وشكلها عبر حركة التنوير منذ القرن الخامس عشر بعد الميلاد، وتصاعدت على أساس الرأسمالية، كانت المؤسسات السياسية المتسلطة للإسلام ستترك بصمتها على المرحلة الأكثر تخلفاً في تاريخ الشرق الأوسط، وكان المجتمع والتاريخ الذي تطور بشكل تصاعدي منذ 15 ألف سنة، سيتدحرج بعد الآن في مرحلة الظلمة التي لا تليق به والتي لا يستحقها، ولم يستطع العثور على طريق للخروج من هذه الظلمة حتى يومنا هذا.

ج ـ لقد لعبت المرحلة المزدهرة للتجارة دوراً مصيرياً في المضمون الاقتصادي والاجتماعي لانطلاقة الإسلام. إن التغير هو الذي شكل الأساس المادي للتجارة في انطلاقة الأديان ذات الجذور العبرية، والتطوير الذي جرى مع البحث عن الهوية الإيديولوجية الجديدة هو تطور مهم. ويجب أخذ هذا الإثبات بعين الاعتبار بشكل دائم ومهم من زاوية القيام بتقييمات علمية لتاريخ الأديان. فكما ترك الفلاح الحر، والقروي، والتطور الذهني والروحي المستند إليها والمرتبط بالثورة الزراعية بصمته على العصر النيوليثي، فإن ثورة المدينة والحرف شكلت أساس البنية الذهنية للمجتمع العبودي. ورغم ظهور التجارة بهاتين المرحليتين التاريخيين الهامتين، فإنها لم تستطع أن تكون قوة طبقية مستقلة، إذ كان القصر يبذل جهوداً كتابع للمعبد والقرية، وكان تطور فائض الإنتاج وتغييره سيلعب دوراً في أن تكوّن التجارة هي العامل الأساسي في التاريخ مع مرور الزمن. في الوقت الذي أدت فيه الحياة القروية والمدينة الروتينية إلى ميثولوجيا متجمدة وبنية آلهة كسولة، كان التغير والتحول الدائم للتجارة سيساهم في تغيّر المصطلحات في المجال الذهني من حيث مضمونها وتجّردها، وكانت الاتجاهات الدينية الجديدة في مؤسسات البنية الفوقية ستظهر بالاستناد إلى ذلك، وستؤدي إلى تصور آلهة ذات صفات متطورة وأكثر تحركاً.

وهناك تجرد في جوهر التجارة نابع من تغير جوهرها. تعتبر قابلية التجرد في التطور الذهني والمنطقي مرحلة مهمة وتمتلك مساهمة أساسية في غنى اللغة والفكر. بدأت مرحلة تطور مرتبطة بهذا التغير ابتداءً من الميثولوجيا المستندة إلى آلهة جامدة غير وظيفية حتى تطور الأديان ذات الإله المنطقي والفاعل على الأغلب، وكانت التجارة تحتاج إلى آلهة مرتبطة بالقوانين وعاقلة، وتبعث على الثقة، وجاهزة وموجودة في كل مكان وليست لآلهة تتحرك حسب مزاجها.

وعند القيام بتحليل مصطلح الله عند النبي محمد، فإن بناء العلاقة مع التجار الذين تحولوا إلى طبقة لا يمكن الاستغناء عنها وإرسائها لجذورها في المجتمع يحظى بأهمية بالغة. إن النبي محمد هو نتاج الوحدة بين حياة مضت في الطرق التجارية مع امرأة تاجرة. حيث كان الأمن مشكلة أساسية للتجارة في تلك المرحلة، وكان إيقاف قطّاع الطرق من قبائل الصحراء مشكلة منذ آلاف السنين. وكان إبراهيم أيضاً رئيساً لقبيلة تجار، وكان أمن الطرق الذي بدأ ظهوره في عام 1700 ق.م تقريباً يتطلب قوة. ويظهر الكيان الاجتماعي في شبه الجزيرة العربية تطوراً يرتبط بشدة مع التطور الحضاري في الأناضول وميزوبوتاميا في الشمال ومصر والحبشة في الغرب وإيران في الشرق وقد ارتبطوا بالمجتمعات الزراعية الموجودة في هذه الساحات سابقاً، وكان دورهم القيام بالتجارة والمواصلات بين هذه المراكز، وكان القطاع الأرستقراطي لقبائل الصحراء هو الذي يدير تغيير جميع القيم المادية والمعنوية والتجارة التي أظهرتها المراكز الحضارية الأولى. وكان الجمل هو الوسيلة الأساسية للمواصلات كسفينة صحراء، وإن وجود أكثر من مائة اسم للجمل يعود إلى عدم إمكانية التخلي عنه كوسيلة نقل.

لم تكن التجارة تعتمد على السلع وحسب، بل أن الميثولوجيا والأديان والمسائل الفكرية الأخرى أيضاً كانت من مواضيعها، وهناك عدة دلائل على بيع هياكل الآلهة في الأسواق مثلما تباع سلعة. وطورت الحضارة الإغريقية ذلك في ظروف البحر، لأنها شغلت مكان الصحراء، وأخذت السفن الشراعية مكان الجمل، وكان يتم الإبحار بالآلهة والأديان مع تجارة السلع عبر الصحراء والبحر، وكان سبب تحول مهنة بناء الهياكل إلى مهنة مهمة يرجع إلى الحاجة للمنتجات الإلهية وقيمتها العالية. لقد تطور الفكر الفلسفي بواسطة الطرق التجارية بمقدار ما حصل تغيير في الدين، وتحققت مرحلة النهضة البابلية والآشورية وبناء إمبراطوريتهما بفضل تطور أهمية التجارة وكيانها، إن التجار السومريين والبابليين والآشوريين هم أول من أضاء شرارات بدء الحضارة في الهند والصين وآسيا الوسطى وإيران، وان عمليات القرصنة على الطرق تطلبت إنشاء مخافر قوية للدولة، ومن المعروف أنه تم إنشاء مستوطنات تجارية حول المخافر ومن ثم مراكز حضارية وعدة دول مستندة إلى ذلك.

ومن المعروف أيضاً أن مكة هي إحدى أهم الحلقات لهذه المرحلة التاريخية، وكما كانت سومر ومصر هي نتاج للفرات ودجلة والنيل فأن مكة وأطرافها هي نتاج للتجارة، ومن الواضح أنه لا يمكن بناء خيمة واحدة في مكان مكة لولا وجود التجارة، كما كانت الكعبة سوق أصنام والنبي محمد أكد ذلك في أحاديثه وهي موثقة أيضاً في الآيات القرآنية.

إن هذا التقييم القصير يظهر علاقة الإسلام بمفهوم التجارة من ناحية الهوية الإيديولوجية والتمأسس العسكري والسياسي أيضاً، فظهور الإسلام وصعوده يمثل قوة وهيبة التاجر وذكاءه والتزامه بالقواعد وتعتبر أول عملية للأسرة التجارية تخلق قوة ضاربة كبيرة ودولة وحضارة جديدة بهوية إيديولوجية مستقلة، وهي انفجار كالبركان لتراكم تجاري تحقق عبر آلاف السنين في شبه الجزيرة العربية وأدى إلى التأثير على جميع أنحاء العالم بعد التجربة الملكية للقبائل العبرية في القدس، وذلك يمثل حملة دينية وعسكرية وسياسية واقتصادية كبيرة مستندة إلى تجارة القبائل العربية لتحولها إلى دولة أساسية وقوة حضارية، وتظهر سنة محمد وعدة آيات قرآنية المديح للتجارة وتقدسها كقيمة إلهية، بينما نرى أن الغذاء النباتي والفواكه والحيوانات الأليفة كانت مقدسة في العصر النيوليثي وفي المجتمع السومري الذي كان يعتمد على الزراعة، والمصري الذي كان يعتمد على العبودية، إن كلمة مقدس "كاووتا" بالسومرية تعني الغذاء، وإن طبقة التجار هي القوة الاجتماعية الكبيرة الثانية التي اعتمدت عليها الحضارة بعد الطبقة الزراعية القروية، وانتشرت العبودية بين تلك الطبقتين، ويأتي الحرفيون المرتبطون بالتجارة بعد التجار على الأغلب، ويطلق على هذه الطبقة اسم طبقة التجار المرابين في الشرق الأوسط، وهؤلاء رواد تطور الفائدة والربا كمؤسسة تتصدر التجارة الدور الأول في تطور النقد والعمليات الحسابية والرياضيات، ويظهر التفكير المجرد وحمل الكلمات لمعاني مختلفة تطوراً يعبر عن انعكاس لتغيير الحياة الاقتصادية والتجارة.

كانت التجارة محدودة التطور والتجار طبقة غير مستقلة في الاقتصاد الزراعي في المرحلة النيوليثية وفي العصر العبودي، لكن ظهر وضع مختلف في عصر الإقطاع، فقد قامت المدن كمراكز تجارية مستقلة وحققت تبعية الزراعة لها، والدولة الإسلامية في مكة والمدينة هي من الأمثلة الأولى لهذا التحول التاريخي.

كانت البنية الاجتماعية للحضارة تشهد تغييراً هاماً، وهذا كان يتطلب تنظيم الاقتصاد مجدداً حول التجارة، وازداد الاهتمام بالمنتجات التجارية أكثر من غيرها، ودخل النقد قيد الاستخدام كوحدة تبادل اقتصادي، وكأن الإسلام قد ظهر كقوة تجار للعالم الحضاري، وذلك شبيه بالعولمة في يومنا هذا، فكما تلعب

قوة أمريكا دوراً بارزاً في تخلص السوق الحر من جميع الحواجز، لعبت الدولة الإسلامية أيضاً كقوة في تلك المرحلة دوراً مشابهاً في تطور التجارة بطريقة حرة وآمنة، لقد تركزت الدولة ذات الثقة بين مراكز الإنتاج الكبيرة ووصلت إلى موقع لا يمكنها التخلي عنه في التطور الحضاري ابتداءً من المحيط الأطلسي وحتى المحيط الهادي مروراً بالمحيط الهندي حتى سيبيريا.

د ـ إن تقييم تأثير الإسلام على الحركة الإنسانية والفرد مسألة مهمة، ومن المؤكد أن المسيحية قد تجاوزت التعصب القومي والطبقي، وهي أهم خطوة في خلق دين إنساني "حركة إنسانية" من جميع الشعوب والشرائح الاجتماعية، وهكذا تجد الإنسانية معنى لها كمصطلح لأول مرة، وإذا كنا من قبائل وأثنيات وطبقات اجتماعية مختلفة فإن ذلك لا يشكل عائقاً أمام الأخوة، ويمكننا رؤية بدء الإسلام كحركة كونية عند مقارنته مع المجتمع والدين اليهودي، ومازالت المسيحية تواصل الموقع الريادي لها حتى يومنا هذا، كدين متقدم على هذا الصعيد، لكن اليهودية هي عكس ذلك وهي تأتي على رأس الأديان التي تحافظ على خصائصها القومية المتطرفة منذ ظهورها وحتى الآن، كما بقيت عدة ظواهر دينية في إطار الحدود القومية والإقليمية، ويقف الإسلام ما بين هذا وذاك على هذا الصعيد، ويجب أن نؤكد على أن الإسلام لم يتجاوز الصفة القومية كثيراً حتى قال النبي محمد " لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى".

لقد جعلت شخصية الطبقة الفوقية لليهود من القومية العرقية المتطرفة أمراً ضرورياً، وإن مواصلتها لموقعها المميز مرتبط بمحافظتها على خاصيتها هذه، كما جعلت اليهودية من القومية شيئاً ضرورياً لأجل أن تكون طبقة فوقية ويبقى الشعب المختار في السلطة، إن قول الرب يهوا: "أنت قومي المميز، لقد زوجتك مع نفسي" يظهر الصفة الشوفينية للغيرة، إن لعب اليهود دوراً هاماً عبر التاريخ وتعرضهم لمآسي أليمة لا تحصى له علاقة وثيقة بالتزمت الإيديولوجي، فمفهوم شعب الله المختار يرغمهم على التفكير بأمور كبيرة، والقيام بأهم الأعمال من خلال عدم المساواة والحسد والحقد والعدوانية التي يبثونها في الجوار، إن الفاشية الهتلرية هي آخر حلقة في سلسلة هذا المسار، وتأخذ المأساة الفلسطينية الإسرائيلية جذورها من هذه المخلفات التاريخية.

لقد ساهم طرح المسيحية لمفاهيم معاكسة، مساهمة مهمة في أخوة البشر والسلام. ويعتبر تناولها لجميع الجذور العرقية والقومية والأفكار المختلفة بمساواة وسلام، وعيشها لأولى الممارسات الجديدة للاشتراكية البدائية، خطوة كبيرة في الوعي الإنساني لدى البشرية، وعدم تفريقها بين الجنسين جعل قيمتها تسمو أكثر. ومن الصواب أن نقول أنها أول حركة كونية كبيرة للاشتراكية

البدائية. إن تردي المسيحية الذي جاء فيما بعد لا يمثل تطورها الجوهري الذي حدث في المراحل الأولى. ومن المؤكد أن المسيحية تحتاج إلى تجدد على أساس العودة إلى الجوهر.

يقف الإسلام في الوسط بهذا الصدد، ويعود ذلك إلى شخصيته الطبقية، فهو لم يكن قومياً بمقدار اليهودية، ولم يكن اممياً بمقدار المسيحية لأن طبقة التجار تشكل القوة الاجتماعية الأساسية للبناء الاجتماعي السياسي لهويته الإيديولوجية، ولا شك انه لعب دوراً كبيراً في تطوير القومية العربية بسبب اضطراره لتوحيد قبائل الصحراء.

لم يقم الإسلام بعمل قومي عن معرفة، فالله هو إله جميع البشر، يتصرف بمساواة أكثر مع جميع القوميات والجذور العرقية بالمقارنة مع الإله ياهوفا، لم يقم بالتفرقة العرقية، وبالتأكيد لم يكن اشتراكياً أيضاً، ولكننا نرى في القرآن والسنة أنه يقوم بالتفرقة الطبقية والجنسية بشكل مرن في البداية، ونرى أن رب الإسلام مرن إلى درجة كبيرة مقارنة بالبراهما"**brahma**" الهندي، وتم الوصول إلى المفهوم الإنساني للبشرية. كما أن الإسلام يرى الأديان التوحيدية الأخرى مشروعة، ويمكن لأي شخص منهم أن يأخذ مكانه ضمن النظام بعد أن يدفع الجزية، ويتم الإعلان عن أن الذين يعتدون على الإسلام هم كفرة، وإن محاربتهم حتى النهاية عبادة كبيرة، ويوضع ذلك أمام الأمة كمهمة جهادية، إن الأمة هي الأمة الإسلامية بالذات. وتقابل في يومنا هذا موقع الطبقة الليبرالية. وبذلك تكون اليهودية دين الطبقة العليا والمسيحية دين الطبقة الدنيا والإسلام دين الطبقة الوسطى، ومحافظة الأديان الثلاثة على كيانها حتى يومنا هذا له علاقة بمواقعها الاجتماعية والإنسانية.

يكون دور الإسلام إيجابياً في التحول القومي للعصور الوسطى إلى حين توحيده للقبائل، لقد لعب الإسلام دوراً هاماً في تكوين الأمة والقوم مثلما أدت الرأسمالية إلى تشكل القومية والأمة. لقد لعب الأشخاص الموجودين في السلطة والذين كانوا من أقوام مختلفة دوراً ناجحاً في تطوير أقوامهم. وإن أكثر الذين بقوا في السلطة هم من القومية العربية والفارسية والتركية، ولهذا حصة كبيرة في أن يكون العرب والفرس والأتراك هم القوميات الإسلامية البارزة في يومنا هذا، حتى لو لم يتم ذلك عن معرفة، ومن الواضح أن مصيرها كان سيصبح مختلفاً لولا وجود الإسلام. ومن المفيد تحليل العلاقة الموجودة بين الوطنية والطبقية بعمق، إذا لم يجر التركيز على هذه المسألة كما يجب. إن الوصول إلى الأممية والإسلامية المنفتحة على الأخوة والسلام وتجاوز الشوفينية القومية والدينية بهذا الصدد، سيلعب دوراً بناءً في تجاوز كثير من القضايا. إن في جوهر الإسلام كما المسيحية مفاهيماً إنسانية تتيح إمكانية كبيرة للعدالة

والسلام ، وهناك وظائف هامة يجب أن يقوم بها كالتوجه للأممية.

يرى الإسلام أن الإنسان بمفهومه الفردي أشرف المخلوقات. ولا يمكننا إنكار وجود مفهوم إنساني في عمق ذلك، ويمكننا أن نقول أن الإسلام قد سما بهذا المصطلح ضد العبودية. ويريد الإسلام أن يسمو بالإنسان الذي حطت العبودية من شأنه إلى الشرف. ومن المؤكد أنه يمتلك مفهوماً فردياً تقدمياً. يجب أن نرى سمو الإنسان الذي بقي في قيد العبودية منذ آلاف السنين في الشرق الأوسط كأكبر تطور للعصر. وربما يتم الاقتراب إلى حرية فردية متقدمة أكثر من مستوى حرية المجتمع. يجب أن نفهم تحطيم البنية الذهنية والروحية للعبودية، والإعلان بأنه لا يمكن للإنسان أن يكون عبداً إلا لرب مجرد كثورة لحرية الفرد التي لم تدرك قيمتها حتى الآن. إن عودة الإنسان الذي أصبح غريباً عن جوهره عن طريق البنى الذهنية والروحية وعبر علاقات العبودية الصارمة في الشرق الأوسط والتي بقيت من السومريين والمصريين إلى جوهره، حتى لو كان ذلك بشكل محدود هو من أهم مكاسب الإسلام، وسنكون واقعيين إذا وجدنا هنا أحد الأسباب الرئيسية لتأثيره.

لقد فهمت إنسانية المرحلة هذا الجانب من الإسلام بعمق، وأظهرت التزامها به دون تردد، وذلك يظهر قابلية الإدراك الصحيح لخطوات التاريخ. هذه أكبر نتيجة لثورة الإسلام على مستوى الفرد، إنه لم يقض على العبودية بشكل كامل، ولم يحقق الجو المناسب للحرية الفردية التي حققتها الرأسمالية، لكن الإسلام لعب دوراً هاماً ومصيرياً في إلغاء العبودية تماماً، وفي المساهمة التي قامت بها الرأسمالية على مستوى الحرية الفردية. وإننا لن نكون موضوعيين إذا فكرنا بإلغاء العبودية بعيداً عن الإسلام. لقد استطاع الإسلام تجاوز العبودية بخطوات راديكالية أكثر من المسيحية، ونقل عمليته الراديكالية إلى جميع ساحات الحضارة بسرعة، ونقل عدة قبائل وبنى عرقية إلى مواقع متقدمة عن طريق قفزها طبقياً دون الوقوع في العبودية. وإن القول أن الإسلام بجانبه هذا هو النظام الحضاري الذي أعد العالم أكثر من غيره للأممية الرأسمالية سيكون تقييماً أكثر موضوعية.

ج ـ تمأسس وانتشار الحضارة الإقطاعية

لم يكن هناك مفر من الدخول إلى مرحلة التمأسس وانتشار الإقطاعية، بعد أن تأكد إمكانية تجاوز البنى الذهنية والمعنوية التي خلقتها العبودية ومؤسساتها السياسية عن طريق انطلاقة المسيحية والإسلام التي استندت إلى تقاليد النبي إبراهيم، أي كان لابد من الدخول إلى مرحلة التوسع والانتشار الإقطاعي، ولم يواجه تمأسس وانتشار الأشكال الجديدة للحضارة صعوبات مع إزالة الأنظمة العبودية الشرقية والغربية، إذ قامت المسيحية بتحطيمها عن طريق التطوير والتحول من القاعدة وقيام الإسلام بتحطيمها من الأعلى بطريق الثورة.

المراحل الإيديولوجية تخلق الشخصيات التي ستتطور حولها التشكيلات الاجتماعية الجديدة. وهذا يعتبر شكلاً من البرمجة وأنشطة لبناء الكوادر للنظام الجديد، أما الدعاية الجماهيرية فهي نشاطات تجعل المجتمع القديم يفقد مفعوله، وتسمى هذه المرحلة بمرحلة الثورة بشكل عام، لقد استمرت سنوات المرحلة الإيديولوجية والثورة طويلاً في المسيحية، فتصريحات عيسى وحواريه الأوليين تشكل برنامجه والشخصية الأساسية لكوادره، أما السنوات التي مرت حتى إعلان المسيحية ديناً رسمياً، فقد كانت للممارسة العملية الدعائية الجماهيرية التي استغرقت ثلاثمائة سنة تقريباً دوراً كبيراً فيها. ولقد حطم الإيمان القوي والسلام والأخوة؛ العلاقات والمعتقدات الاجتماعية القديمة رغم التعذيب المخيف، وتم إنشاء علاقات وإيمان جديدين، وبذلك تحققت النجاحات الكبيرة الأولى، لقد وجد الإسلام الشخصية الطليعية في شخص محمد، الذي كون برنامجه وكوادره اعتماداً على مجموعة مكة الصغيرة، ومع التصريحات الأولى تكوّن الكادر والبرنامج لمجموعة مكة الصغيرة صاحبة الإيمان الراسخ، وتم الدخول إلى مرحلة الثورة التي يغلب عليها طابع الممارسة مبكراً، حيث استغرقت الثورة أربعين سنة تقريباً، تتضمن مرحلة سيدنا محمد والخلفاء الراشدين الأربعة، حيث وصلت الثورة إلى النصر في هذه الفترة الزمنية.

تعيش كل ثورة مهمة مراحل متشابهة، ففي الوقت الذي تصل فيه الثورات إلى المرحلة الأولى من أهدافها في فترة قصيرة، فإن هذه المرحلة تكون طويلة إذا تحققت بالتطور، أما الفرق بينهما فهو ناتج عن نمط الممارسة العملية على الأغلب، لكن المرحلة التالية تكون مختلفة، ومن الأنسب تسمية هذه

المرحلة بمرحلة التمأسس والانتشار، إن مبادئ الثورة وعلاقات النموذج الأول التي أثبتت نفسها، تظهر احتياجاً إلى تمأسس طويل الأمد وانتشاراً عميقاً وواسعاً، وفي النهاية فإن النظام الذي صعد إلى الذروة، يبدأ مرحلة الانهيار ويترك مكانه لتشكيلات جديدة.

1ـ كانت مرحلة تمأسس المسيحية بين عامي 500 ـ 1000م، على شكل توسع وانتشار دائمين، وتوجهت إلى تمأسسات علنية داخل الإمبراطورية الرومانية متخذة الطابع الرسمي، وأظهرت هذه التمأسسات على أساس الكنيسة تطوراً كبيراً بالنسبة لنظام الأديرة، وكما تأسست مدن ودول حول المعابد السومرية. فقد شهدت المرحلة الإقطاعية أوضاعاً مشابهة أيضاً، فقد شيدت مدن العصور الوسطى مجدداً بنمط معماري متطور حول مؤسسة الكنيسة، وكانت تشكل نواة الدول التي ستتأسس مجدداً، وفي الحقيقة إن مؤسسة الكنيسة هي التي أعدت أوروبا للحضارة، وكانت الكنيسة تفتح جامعة حولها أينما حلت، وأخذت مدن جديدة تقام مع تزايد السكان، وأنشئت إدارات أميرية أو بلديات، وتعتبر هذه خطوة نحو إنشاء الدولة المعاصرة، والأهم من ذلك هو قيامها بتعليم البنية الذهنية والروحية للشعب حسب إرادة الرب لتضع بذلك أسس دولة العصور الوسطى وتعززها، ومثلما انحلت الإمبراطورية الرومانية التي فقدت قيمها المعنوية والعقائدية، فإن روما المقدسة في بنيتها المعنوية والعقائدية الجديدة ستضع أسس الإمبراطوريتين الجرمانية والفرنكَية، فلولا وصول الكنيسة إلى كل أنحاء أوروبا وتعليم برابرتها، لما توفرت الإمكانيات للتحدث عن الحضارة الأوروبية فيما بعد، لأنه لم تتوفر إيديولوجية تدفع البرابرة إلى التحضر، إذ لا يمكن أن تقام حضارة بدون إيديولوجية، والمسيحية كنظام قيم معنوية وعقائدية للشرق الأوسط، استطاعت فتح أوروبا قاطبة عام 1000 م، لتفتح أبوابها على مصراعيها للحضارة.

لا يمكن غض الطرف عن الدور التاريخي للمسيحية بحجة الرجعية ومرحلة الانهيار، إن الحضارة الأوروبية هي من منجزات المسيحية، لقد تم تكوين ملامح الإنسان الحضاري عن طريق حقن قيم الإيمان والمعنويات التي تقطرت للروح البربرية المتبقية من المرحلة المتوحشة لأوروبا منذ آلاف السنين في أمبيق الحضارة. لقد تشكل مجتمع المدينة والقرية الجديدين حول طراز الإنسان الجديد، وقد تم إنشاء الدولة المقدسة للعصور الوسطى استناداً إلى المدن والقرى المذكورة، هذه هي المراحل التي فيها تم نقل حضارة الشرق الأوسط بشكل مباشر أو غير مباشر، كما يتم نقل قيم الحضارة الأوروبية إلى جميع أنحاء العالم في الوقت الراهن، إن الشيء الذي تم نقله إلى أوروبا والعالم هو كل تراكمات الحضارة الكبرى للشرق الأوسط.

لقد سيطرت الكنيسة على السياسة بشكل تام بعد عام 1000 م، وكانت الكنيسة هي الدولة بالذات، دفعت بالمجموعات الأثنية المتشابهة التي كانت تدور في فلكها إلى تشكيل وحدات قومية واسعة، لقد ساهم التركيز السياسي حول الكنيسة في وصول الأثنية إلى التكاثف القومي ومصطلح الوطن بشكل لا بأس به، إن العصور الوسطى الأوروبية مدينة للكنيسة بهذا الصدد حول تكوين القوميات، وقد ساهمت الكنيسة بشكل خاص في تطوير لغة وثقافة مشتركة وقامت بدور مصيري في ذلك، ولقنت القيم المتراكمة لديها في مجال الثقافة الإنسانية، وجعلت أوروبا تقرأ وتكتب وتملك ثقافة، ونشرت لأول مرة الفكر اللاهوتي والفلسفي وإن كان الدين طاغياً عليه، وأدت بذلك إلى قفزة في العقل والذهنية على مستوى متقدم، ووضعت حجر الأساس لعصر العلم والتنوير الذي جاء فيما بعد عن طريق القيام بدور ريادي في التشكيلات الروحية الجديدة، وأظهرت قوة تطور في جميع أطراف القارة حتى جبال الأورال مع تطورها في العمق مقابل ذلك.

إن تمأسس وانتشار المسيحية باتجاه الشرق لم يظهر بنفس النجاح، فقد شكلت الإمبراطورية الساسانية عائقاً أمام ذلك في البداية ومن ثم كان الإسلام، كما لعب الآشوريون والسريان في الشرق دور الإغريق في نقل المسيحية للغرب والمذهب النسطوري له دور في انتشار الكنيسة في الشرق، كما يملك هذا المذهب مكانة تعليمية وتراكمية في تطوير اللاهوت المسيحي اعتماداً على كلاسيكيات الفلسفة الإغريقية، وتم نقلها إلى الإسلام فيما بعد، فالنشاط المكثف للكهنة النسطوريين يحظى بقيمة عظيمة جداً، فهؤلاء هم أحد المتنورين الذين بقوا وصمدوا في العصور الوسطى، ولا شك أن التراكم الثقافي البابلي الموروث من السومريين القدماء كان له دور كبير في ذلك.

لابد للإنسان أن يتساءل على النحو الآتي: كيف كان التاريخ سيتطور لو تمأسست وسيطرت الكنيسة والمسيحية الأكثر تنوراً على آسيا بدلاً من أوربا؟، وهذا يلفت الانتباه إلى فقدان ميزوبوتاميا لأشياء كثيرة مثل فقدان فرصة التنوير والتحضر من جديد التي بدأها ماني عام 300 م، ومن ثم الكهنة السريان، ويخطر على بال الإنسان التفكير بأن سلاطين الأمويين والعباسيين الذين كانوا يمتلكون قوة إسلامية من شأنها أن تخلق حضارة كبيرة، لم يستطيعوا خلق حضارة كبيرة تليق بالمنطقة، وظلوا غير أكفاء من جميع الجوانب، وفقدوا أشياء كثيرة لأنهم انغمسوا في ملذات الحياة باكراً. لقد لعب الصراع الإسلامي - المسيحي الذي بدأ في وقت مبكر دوراً تخريبياً أدى إلى مآسٍ كثيرة في التاريخ، وإذا ما قارنا ذلك بالصراع الديني في أوروبا، وتناولنا التاريخ بنظرة انتقادية واستنبطنا الدروس منه، في الوقت الذي يدور فيه نقاش حول الدين والعلمانية، نجد بانها مهمة يجب القيام بها ولا يجوز الانتقاص من أهميتها.

2- لقد تطور التمأسس والانتشار بعد الثورة الإسلامية وبعد استيلاء سلالة الأمويين على السلطة من خلال ثورة مضادة، فرغم اعتماد النبي محمد على الهاشميين الذين كانوا من قبيلة قريش، كان عثمان ومعاوية من بني أمية، وكان نظام مكة بيد بني أمية على الأغلب، وبالمعنى الضيق فقد أخذ النبي محمد السلطة من يد هذه القبيلة وحولها إلى دولة بالثورة الجديدة، وذلك يعتبر عملاً ثورياً، وكان يمتلك أفقاً تقدمياً كبيراً، لذلك قام ببناء مؤسسات سياسية وعسكرية تتجاوز المفهوم القبلي وتطور ذلك إلى هوية إيديولوجية جديدة بالاعتماد على الآيات والسنة.

اعتنق الأمويون الإسلام بعد نجاح الثورة، وكان اعتناقهم هذا لا يستند إلى قناعة، بل على أسس من المصلحة، وكانوا يضمرون الحقد على المسلمين، أسرعوا استعداداتهم بعد وفاة النبي محمد، فولاية معاوية على الشام شكلت مركز الجناح المضاد للثورة، إذ كان معاوية من ذوي الخبرة في فن الحكم، حيث كان قد تعلم جميع مكائد الحكم البيزنطي في الشام، وكان أحفاد البرامكة من المقربين إليه والذين كانوا ممثلين أقوياء لإرث الحكم الإيراني، وكان أهل البيت يتمثلون بشخص علي، الذي يتصف بالاستقامة، شريفاً محقاًَ ويؤيد مواصلة الثورة على أساس جوهرها، لكنه يفتقد للخبرة في فن الحكم، كان بريئاً جداً نتيجة نقائه وصفاء نيته، ولم يكن يمتلك تجربة لمأسسة جادة للدولة رغم أنه كان مبدئياً، لقد كان ناجحاً كمناضل في الثورة الإسلامية إلا أنه لم يكن يمتلك كفاءات مثل معاوية في تحويل القوة إلى تمأسس ودولة، وكان يعتقد أنهم قد ارتبطوا بالإسلام بصدق لكنه أخطأ في هذا الصدد.

ربما أن ما قامت به السلالة الأموية هي إحدى أكبر الثورات المضادة التي تحققت في التاريخ، فهم لم يكونوا صادقين مع الإسلام، وقد خطا الوجهاء من سلالة الأمويين الذين يحقدون على الإسلام والذين تبنوا نجاحاته على أساس مصالحهم خطوة إلى الأمام في عصر الخليفة عثمان، واستولوا على السلطة بعد قتل علي واستشهاد الحسين في كربلاء بطريقة وحشية، والأمة الإسلامية تعاني منذ 1400 سنة من آلام الثورة المضادة الظالمة التي حدثت بين عامي 640 – 681 م، وما تم القيام به هو بعث للقبلية وحكم السلالات وإنشاؤها مجدداً من خلال الاستفادة من التأثيرات القوية للثورة الإسلامية، لقد غذّت هذه الخطوة، عبر التاريخ الرجعية أكثر مما يعتقد، أضافت قوة كبيرة للطابع القمعي والاستغلالي للمجتمع، ولم يبق من الإسلام إلا الشكل، ويعتبر ذلك خيانة لجوهر الإسلام.

لقد أراد الأئمة الأثني عشرة ومن ثم الشيعة وبعض الحركات الباطنية البحث عن الجوهر والمحافظة عليه، لكن من الصعب القول أن الحركات التي

بذلت جهوداً كبيرة قد حققت نجاحاً، وبذلك فإن القول بأن تاريخ الإسلام هو تاريخ الثورة المضادة قول صحيح بقدر ما يعبر عن الحقائق عبر فرز الإسلام الثوري والإسلام المضاد للثورة.

يعبر كتابة التاريخ الإسلامي من جانب واحد بالتستر على الخيانة وتاريخ الثورة المضادة، عمى كبيرة لكل المجتمعات التي تظن نفسها مسلمة، ولا يمكن شرح تاريخ إسلامي سليم دون القيام بتحليل صحيح لكل نتائج مصطلح الثورة المضادة، وان عدم حصول ذلك هو أحد الأسباب الأساسية لحالة عدم الإنتاج والفراغ المستمر منذ مئات السنين لدى المجتمعات الإسلامية ومثقفيها، إن كربلاء ليست لحظة فاجعة فحسب، بل هي التاريخ الملعون والمستمر، وهي إحياء لأكبر فاجعة في التاريخ باسم الإسلام. إن ما يجري في إيران والجزائر وعدة دول إسلامية حتى الآن، له علاقة وثيقة مع هذه الحقيقة الملعونة، وتأكد بأنه لانتشرت تجاوز الثورة المضادة بتأثيرات آنية، والأهم من ذلك أنها تظهر أيضاً التحليل الحديث المعاصر لثورة تعرضت للخيانة، وكيف انها ما تزال مشكلة حية لم تنتهِ بعد .

من المعروف أن الكثير من الثورات شهدت مراحل مشابهة، ولا يزال تأثير الثورات المضادة للثورات الفرنسية والروسية مستمراً، لكن عندما ننظر إلى عظمة وكونية الثورة الإسلامية وتاريخها، تدعو الضرورة إلى أن تكون هذه النقاشات أصيلة وجواباً للحضارة، وهذه تكتسب أهمية كبرى. ومن الضروري أيضاً تحليل البنية المأساوية والمتأزمة والمتخلفة للمجتمعات الإسلامية المرتبطة بهذا التاريخ عن كثب.

رغم هذا النقد فإن تمأسس وانتشار الإسلام قد حدث بسرعة كبيرة في عصر الأمويين، ولعبت واقعية معاوية وأتباعه دوراً في هذه التطورات، وتحقق الانتشار من المحيط الأطلسي إلى الهند، ووصل إلى القوقاز شمالاً، وإلى أعماق أفريقيا جنوباً، فالتمأسس السياسي أي التحول إلى دولة من الإرث البيزنطي والساساني، وتم تسليم البرامكة وعدة أسر ذات أصول بيروقراطية بعض الأجهزة التي تشكلت حديثاً في الدولة، وقامت هذه بدعم وتقوية بعض أفراد الطبقات العليا للمجتمعات وذلك بقدر ارتباطهم بالدولة المركزية.

لقد تم اتخاذ نموذج الإمبراطورية البرسية مثالاً إلى حد ما، وتم الوفاق بشكل مبكر مع المؤسسات السياسية للمرحلة العبودية، وهنا نجد ممارسة عملية أكثر قوة تشبه الوفاق الذي تقوم به الثورة المضادة مع المؤسسات الحاكمة للنظام القديم، إن سيادة السلالة الأموية التي استمرت مائة عام، كانت كافية لبناء إمبراطورية قوية باسم الإسلام، وقد تصرف الأمويون عند الفتح والاحتلال وحركات النهب، بعنجهية وغدر لا يمكن معها أن تسمح بظهور ردود أفعال،

وفـي الحقيقـة كانـت تتواجد تيـارات معارضـة فـي كـل مكـان، وقـد تأسسـت عـدة حركات باطنية في هذه المرحلة منها الخوارج وحركة الأئمة الأثني عشر.

لقد تطـورت أول حركـة مقاومـة ناجحـة فـي منطقـة خراسـان الإيرانيـة التـي تمثل إرثاً تاريخياً طـويلاً، كـان البـارتيون"**part**" قد تمـردوا ضـد الاحـتلال الهليني في هذه المنطقة وانتهى ذلك بحكم سلالة الارساكيين التـي استمرت 500 عـام، إن البـارتيين هـم مجموعـة إقليميـة تنحـدر مـن أصـل آري وتختلـف بعـض الشـيء عـن البرسـيين والميـديين، ولهـم تـاريخ عريـق فـي التمـرد، ويتخـذون مـن خراسان مركزاً لهم، ممارسات الأمويين قد أدت إلـى رد فعل أهل البيت "أسـرة النبي" وجميع الشعوب الأخرى عدا العميلـة لهم، وكانـت عدة قبائل ـ رغم أنهـا مـن القوميـة الحاكمـة ـ ولا سيما القطاعـات الاجتماعيـة الفقيـرة منهـا قـد بـدأت بحركـات تمـرد علـى شكل الخـوارج منذ وقت طويل، إن أتبـاع علـي كـالعلويين والشيعة قد اكتسبوا وجودهم كاتجاه متمرد لـيس بين العـرب فقط، بـل بـين جميـع الشعوب التي دخلت الإسلام بالإكراه.

تمتلك إيران تقاليد التصدي بنجـاح لجميـع الهجمـات التـي جـاءت مـن الغـرب منذ عصر السومريين، وقد أدى تحطم الامبراطورية الساسانية المتفسـخة بعـدة ضـربات إلـى تحـرك هـذا التقليـد مجـددا، وتطـورت حركـة مقاومـة كانـت مركزهاً بارتيا ـ خراسان، بقيادة أبو مسلم مثل التمـرد الـذي حصـل فـي "بارتيـا" ضـد البرسـيين، وقـد نجحـت المقاومـة التـي شـاركت فيهـا عـدة مجموعـات فـي مقـدمتها الفـرس والكـرد والأذريـين، والتـي تعاظمـت بمـا يشـبه الكـرة الثلجيـة المتدحرجة في عـام 750 م إلـى أن نجحـت فـي إسقاط الأمويين، وربمـا تـوفرت إمكانية تجديد الإسلام بهذه الحركة، لأن ذكريات الثورة كانت لا تزال حيـة، لكـن العباسيين الذين كانوا مـن سـلالة أخـرى لـم يختلفـوا عـن الأمـويين، إذ لـم يسـتغلوا هذه الفرصـة بشكل صـحيح، فقتلـوا زعيم وقائد التمـرد أبـا مسلم بمنتهـى الـدناءة، وقد لعب قتل أبا مسلم دوراً سلبياً بمقدار قتل الإمام علي على الأقل، وإن رجعيـة الإقطاعية بشكل مبكر له علاقـة قريبـة بهـاتين الجريمتين، كـان علـي وأبـو مسلم يمثلان تيار العدالة المرتبط بمبادئ الإسلام، والذي يحمي الفقراء، والذي لم يكـن فيـه تعصـب قـومي، ويمـثلان كـوادر هـذا التوجـه ولعـدم تحـولهم إلـى مؤسسـات وتمسكهم بالحـدود الضـيقة للطرائـق وحـركتهم السـرية علـى الأغلـب، جلـب معـه كثيراً من النتائج غير السليمة.

هناك أمثلة كثيرة تشهد أن تحول الميول الثورية إلى مذاهب، يؤدي إلـى التخلف بمقدار وصـول الثـورة المضـادة إلـى السـلطة، ولا شـك أن المذهبيـة تجلـب معهـا الانحـلال. إن عـدم نجـاح الميـول الثوريـة هـو مـن أحـد أسـباب التحـول إلـى مذهب، والمذهبية هي تـراكم لفشـل الثـورات غيـر الناجحـة، وهـو تكلـس لأخطـاء

ونواقص الثورة، وحتى لو ادعوا أنهم ملتزمون بالذكرى الثورية، إلا أنهم لن يتخلصوا من تحويل ذلك إلى مسألة استغلال، إن تحول المعارضة الثورية إلى مذاهب رجعية هو المصدر الأساسي الذي يغذّي سلطة الثورة المضادة في التاريخ. ويظهر وضع تحول الثورة الاشتراكية والثورات الديمقراطية الوطنية، إلى مذاهب أمام حكم الثورة المضادة في الظروف المعاصرة، أن تلك الحقيقة مفهوم سائد في كل زمان، وأن ما حدث مع كثير من الميول الثورية في تركيا، هو مثال بارز آخر يتعلق بشمولية هذه الظاهرة.

يمثل العصر العباسي مرحلة النضج في تاريخ الإسلام، وقد أظهر دعم التفسير الديني للإسلام بالفلسفة تطوراً كبيراً في هذه المرحلة، وتمت ترجمة الكلاسيكيات الإغريقية وفي مقدمتها مؤلفات أفلاطون وأرسطو إلى اللغة العربية قبل أوروبا. وشهد العلم والفلسفة مرحلة من الانبعاث والتنوير، وكان الشرق ناجحاً في كل الميادين، وكانت أعوام 800 ــ 1200 م هي العصر الذهبي للإسلام، وكان نموذج الدولة المركزية يتخمر في داخل كل إمارة، وعلى وشك أن تؤدي إلى دول جديدة كثيرة، ومن المؤكد أنها كانت مركزاً للحضارة الإقطاعية على المستوى العالمي. وأمتد تأثير الإسلام من أواسط أسبانيا إلى الصين ومن سيبيريا إلى أعماق أفريقيا، وتم إنشاء شبكة أمنية واسعة ومؤسسات البنية التحتية والطرق والخانات من أجل التجارة، وكانت التجارة تشهد انفجاراً كاملاً، وكانت تشهد تفوقاً على المسيحية في كل الميادين، ولم يتم إيقاف الفتح الإسلامي لأوروبا إلا بصعوبة، ولم تفقد أي شيء من قوتها المؤثرة في أوربا في مجالات الفلسفة والعلم ومفهوم الحكم، إذ كان الشرق بالنسبة لأوروبا هو وطن الأحلام، وكانت قيم الحضارة الشرقية تزين عالم خيالها، وقد تمت ترجمة الكثير من الكتب إلى اللاتينية واللغات الأخرى.

أما في الشرق فقد تم الدخول إلى الهند، وقد دخلت الحضارة الهندية مرحلة جديدة مع الإسلام الذي شهد انتشاراً واسعاً فيها. كما وصل الإسلام إلى الصين، والقبائل الأثنية التركية في آسيا الوسطى اعتنقت الإسلام بسرعة، وكانت القبائل التركية والمنغولية التي ستهز التاريخ فيما بعد على وشك التحرك انطلاقاً من الأرضية والتمأسس الذي أحدثه الإسلام، الذي كان الإسلام في هذه المرحلة أكبر قوة حضارية في العالم، بدءاً من الإيديولوجية إلى السياسة والجيش، ومن الاقتصاد إلى العلم والفلسفة وفي سائر الميادين الأخرى، فكان الشرق الأوسط يشهد نهوضاً، كموقع رائد للحضارة المستمرة منذ السومريين من ناحية الاتساع الجغرافي والعمق، ومن ناحية بنية تمأسسه وذهنيته، وكان هذا الدور يلعب اللعبة النهائية مع الحياة التي كانت تشبه أحلام ألف ليلة وليلة في قصور بغداد، كقوة خلّاقة رائدة لجميع العصور الحضارية التي ابتدأت منذ الألفية العاشرة قبل الميلاد، إن هذا المسار الحضاري الذي وَلدَ التاريخ وأحتضنه

وتحمل كل رهانات شبابه ونضوجه، يتوجه إلى الانحدار بعد هذه الرقصة الخيالية " الرقص والراقصة هما من الصفات الخارقة لتلك المرحلة"، وبعد فترة تتجه نحو الزوال.

3ـ تمثل الحضارة الإقطاعية سواء بشكلها الإسلامي أو المسيحي مفهوماً كونياً، وحتى لو كانت الحضارة الإقطاعية قد أظهرت تطوراً في الصين، فإنها لم تمتلك معنى أصيلاً أكثر من أن تعيش حتى مرحلة متأخرة على المستوى المحلي في الهند والصين واليابان. في الوقت الذي كانت فيه التطورات في القارة الأمريكية تعيش المرحلة النيوليثية بعمق، كانت تتعرف على النظام العبودي حديثاً، أما أفريقيا واستراليا فقد كانتا تعيشان عصر القبائل المتوحشة، ان الإسلام والمسيحية ذوي الجذور الثقافية الشرق الأوسطية، يمثلان الإنسانية على مستوى الكوني، ولم يكن لليهودية والطرق الصوفية الأخرى إلا أن تعيش حالة من التهميش.

ولأول مرة كانت تتم المحاولات من أجل إدارة الإنسانية بالإسلام والمسيحية اللتان اعتمدتا مفهوماً لا تضعان نفسهما في مكان الله، وإنما تعتبران نفسيهما ظل الله أو رسوله أو صوته. إن هذه الخصوصية للإقطاعية هي الجانب الذي يميزها عن العبودية والأشكال الاجتماعية المتخلفة وتعبر عن تفوقها الاجتماعي. إن نظام الملك ـ الإله، المميز للحضارة العبودية قد انتهى بعبودية الإنسان المطلقة، ولأول مرة يتعرض التاريخ البشري للأسر إلى هذه الدرجة. لقد ظهر وضع مختلف لحياة الإنسان عما كان عليه في العصر النيوليثي وحتى الباليوليتي تماماً، وقد أظهر عدة خصائص مدهشة، إن دفن الملك مع رجاله الأحياء وكأنه وضع طبيعي، وكذلك الصلب، والخازوق، وتقديم الإنسان طعاماً للأسود الجائعة، كلها من الأمثلة المدهشة الرهيبة لذلك العصر، ومن الأمثلة المذهلة الأخرى بناء الأهرامات، وقبور الملوك، وأقنية الري، وعمارة المدن..الخ، وتشمل الأمثلة عن المظاهر الوحشية في الحروب وظروف عمل العبيد، ويجب أن نرى تأثير هذه الحقائق الموضوعية على البنية الذهنية والروحية للإنسان، وذلك من أجل تعريف الحضارة الإقطاعية بشكل صحيح، وإن العمل الصحيح والتدقيق يتطلب القيام بالمقارنة مع النظام العبودي، وليس بالرأسمالية والاشتراكية، مشاهدة الروابط القريبة الموجودة بين ظهور المثيولوجيا والأديان التوحيدية مع هذا النظام هو شرط أساسي لمفهوم تاريخي صحيح.

لقد تم خلق الآلهة من طرف كهنة النظام في الميثولوجيا بعناية فائقة، لأجل تحقيق الاستمرارية للعلاقات العبودية التي تحققت في المجتمع الطبقي وإضفاء صفة الأبدية على هذا الوضع وجعله قوياً، إن مفهوم النظام الذي لا

يتغير وجعل الأبدية والأزلية من خصوصياته الأساسية هو من صفة نظام الآلهة، وهو انعكاس رهيب للنظام العبودي، إن هذا الأمر واضح لدى السومريين إلى درجة إن قيام البشرية كلها بشكر الأباء السومريين يبقى قليلاً أمام ما فعلوا، حيث يصعب الحصول على كتاب يفسرون كيف يمكن صنع الآلهة وجعلها تاجاً على رؤوسهم بهذا الشكل البديع، إذ تفهم الإنسانية نوعية هذه التيجان من التاريخ المكتوب بشكل أفضل مع مرور كل يوم، وحتى الدولة ذاتها هي تاج إلهي متوارث منذ تلك المرحلة، ولو أخذنا ذلك بعين الاعتبار فإننا نستطيع فهم القوة المادية الأساسية التي تم خلقها باسم العبودية بشكل أفضل، ونستطيع أن نفهم ما تخدمه العلاقات المقامة فيما بينها بشكل أفضل، إن مؤسسي الدين التوحيدي والذين يسمون بالأنبياء قيّمون جداً، لأنهم طوروا الذهنية في النظام أولاً، ثم قاموا بتطوير العقل والإيمان القادر على زعزعة وتغيير المؤسسات السياسية والاجتماعية للنظام القديم ليقوموا برفع ذلك الثقل القائم على روح وذهن الإنسان كالكابوس منذ آلاف السنين واحتاج ذلك إلى إيمان راسخ وعقل راجح ومنتهى الجرأة وقوة مقاومة كبيرة.

لا تزال علوم التاريخ بعيدة عن تعريف قوة الدين والإيديولوجية بشكل عام بطريقة صحيحة، كما تتبنى أقاويل جافة وكأنها عاشت الأحداث خارج البشرية، ولذلك لم ينظر إليها بجدية بمقدار الدين، وإذا كان الناس يتمسكون بإيديولوجيات الأنبياء بشكل مستميت حتى الآن، فإن ذلك يعود إلى عيشهم في ظل الأنظمة الفرعونية والنمرودية بأشكال مختلفة، ومن الواضح أن هناك فوضى في جميع المواضيع، ويجب أن نفهم أنه لا يمكن تجاوز ذلك دون حركة تنويرية ثقافية في الشرق الأوسط، ويجب أن أشير إلى أن حركة التنوير الأوروبية تمتلك معنىً سطحياً وجزئياً، وسنشرح ذلك بشكل أفضل في موقعه، ولا مفر من ذلك الوضع نظراً لأرضيته التي يعتمد عليها، إذ يجب أن تكون حركة التنوير في الشرق الأوسط أكثر شمولاً وعمومية نظراً لكونية ثقافتها.

إن إيديولوجيات الأديان التوحيدية هي إيديولوجيات سياسية منذ بدايتها وحتى نهايتها، تتضمن أفكاراً سياسية أكثر تطوراً، كما وتتضمن معانٍ سياسية أعمق مما هو قائم في يومنا. إذ أن المقولة الدينية ومصطلح الله والنبي والملائكة هي الأب السياسي لتلك المرحلة، وكانت المصطلحات المذكورة تستخدم لأن السياسة كانت تتم بهذه المفاهيم الغنية في تلك المرحلة، والأهم من ذلك أنها كانت تستخدم هذه المصطلحات لأن ذهنية الإنسان كانت قد اعتادت على التفكير بالنمط الديني، مع العلم أن الشيء الذي يتم القيام به هو نضال سياسي دون هوادة، وإن ازدراء الوضع لعدم وجود لغة علمية، أو تقييمه وكأنه بعيد عن واقعنا السياسي خطأ كبير وخداع للذات.

هناك حاجة شديدة لترجمة التقاليد النبوية إلى اللغة السياسية ليومنا، ولا يمكن للنضال العلماني أن يكون ذو معنى، وأن يحقق نتيجة ناجحة دون تحقيق التنوير على هذا الأساس.

يجب تقييم الثورة الإقطاعية وتمأسسها السياسي وتحقيقها لحرية محدودة بواقعية. لكن ذلك يجب أن يكون من خلال المقارنة بالنظام العبودي على الأغلب. فالحقيقة الكامنة وراء ذكر النبي إبراهيم كشخصية مقدسة حتى الآن، هي قبوله رمزاً لجميع الشخصيات والممارسات التي فتحت أول شرخ في نظام الإله ـ الملك لنمرود، وإن الإنسانية تعرف لمن تعطي القيمة. لكن المشكوك به وفي أمره هو أن المثقف المختنق في الأحاديث اليومية قد فهم ذلك، وإذا كان موسى لا يزال يذكر كاسم كبير، فلأنه تمرد على نظام الإله فرعون، ولأنه أحد الأسماء التي قامت بإنطلاقات عظيمة. وأكبر قيمة يرمز لها عيسى هي مقاومة نظام روما القائم على أساس الظلم المرعب، وعلى عملية النظام الكهني، الذي استخدم الأنبياء من اجل أقذر المصالح الخاصة بهم، كما ضحى بنفسه وبمفرده في سبيل شخصية وذهنية وروح الإنسانية، وفضل الوجدان والكرامة الكبيرة للإنسانية في مواجهة جميع القيم المادية للحياة وقاوم حتى الموت ضد النظام العبودي السائد، رغم تعرضه لأشد أنواع التعذيب، وبقي ملتزماً بصوت الضمير ليقول "إن ذلك هو صوت الله" دون التفكير بتكتيك أو استراتيجية، ولذلك فإن ثلث الإنسانية تحيا ذكراه بعواطف مقدسة، ولا يمكن أن تكون أكبر سياسة هكذا من حيث الإيمان والمعنويات الكونية.

أما النبي محمد فهو صاحب خطوة سياسية كبيرة وناجحة، وشخصية مقدسة أعطت مكاناً للعقل أكثر مما يعتقد، واستطاع دفن مفاهيم الإله الكلاسيكي، ولو ترك الأمر له لكان قد جعل الرب "يوتوبيا" الله القرآن العالي والعادل والخالق أكثر قيمة، وكان يعرف ما يقوم به عندما دفن العبودية، وكان على إدراك تام بالبعد غير الطبيعي لمحبة الإنسان، والحرية المحدودة التي تحققت في ظروف تلك المرحلة لا تقزم عظمة هذه الخطوات.

يجب أن نؤكد ما يلي: إن العصور الوسطى التي تطورت بقيادة الإسلام والمسيحية قد نراها مظلمة بسبب مراحلها الأخيرة إذا نظرنا إليها بمنظار العصور الحديثة، ولكن لا يمكننا إنكار أنها كانت عصوراً تنويرية كبيرة بالنسبة لعالم العبودية الذي استمر لآلاف السنين، ربما يمكن انتقادها لأنها غطت على الثقافة الإغريقية والرومانية، ولكن عند مقارنتها بالعبودية التي مارستها الإمبراطورية الرومانية والتي تعتبر آخر ممثل للنظام العبودي عبر الإنسانية، فإنه لا يمكن استصغار حصة تقاليد عيسى ومحمد في المساهمة بالعصور الوسطى، لأن العصور الوسطى تمثل تقدماً بالنسبة للعالم، وربما لم يبنوا مدناً

فخمة ولم ينشئوا آثاراً فنية، لكن لا يمكن إنكار قيامهم باقتلاع العبودية من ذهنية وروح البشرية وهي المكتسبات الثمينة التي دفعت تحرير الإنسان خطوة إلى الأمام حتى ولو كانت محدودة، هذا الإنجاز أثمن وأفضل من الكفاءات المادية، وعندما نقيّم العصور الوسطى على أنها أرضية الإعداد للعصور الحديثة، سنرى في المستقبل أنها تمتلك حصة كبيرة في بناء المدن الكبيرة والآثار الفنية، وستظهر الأهمية الكبرى لدور العصور الوسطى بشكل أفضل عند محاولة فهم التطور التاريخي من خلال الترابط الديالكتيكي.

د ـ الذروة والانهيار في الحضارة الإقطاعية

تمثل المرحلة بين سنة 1000 ـ1250م. مرحلة الوصول إلى الذروة، بالنسبة للإسلام والمسيحية، وكان الاثنان يعيشان مرحلة العصر الذهبي، والثقة بالنفس، والوصول إلى الحكم في جزء كبير من العالم الحضاري. فقد وصلت الامبراطورية السماوية للأديان التوحيدية إلى هدفها المقدس، وكأنه لم يبق لها شغل شاغل سوى الاحتفال بذكرى الأمجاد الكبيرة وتقديسها، ولم يبق الكثير من الأماكن في العالم بحاجة إلى الفتح. إذ ليس هناك أي معنى لدخولها في حروب لإيذاء بعضها البعض، لأنهما متشابهان، فالنقاشات الفلسفية هي التي ستكمل التفوق، ومن الطبيعي تقييم هذه المرحلة على إنها مرحلة الوصول إلى الذروة والهدف، بالنسبة لكل قوة حضارية متفوقة، وتعيش كل منظمة تصل إلى مرحلة تطبيق برنامجها نفس الشعور والعواطف، وتكون الخطوة التالية السقوط وليس الازدهار، لأنه لم يبق أية وسيلة في المستودع الإيديولوجي للنظام من أجل إلقاء أية خطوة جديدة نحو الازدهار، وإذا شبهّنا ذلك بسباق المارثون الطويل، فقد تم اجتياز مسافة أربعين كيلومتراً، ولم يبق سوى الوقوف والانتهاء. وحتى إن لم يشبه هذا المثال المراحل الطبيعية تماماً، فإن التاريخ قد علمنا أن المراحل الاجتماعية مرتبطة بنفس القواعد المنطقية.

وتجري نقاشات حميمة في الفلسفة لدى كلتا الحضارتين وكأنها تأكيد لهذه المرحلة، إذ ان منطق أرسطو وبنيته الفكرية تطبع هذه النقاشات بطابعها، بينما أفكار أفلاطون هي الحاكمة لديهما خلال مراحل الميلاد والتطور، و"عالم المثاليات" الذي سما به أفلاطون كان له أثراً بالغاً على الحضارتين المسيحية والإسلامية أكثر مما يعتقد، فالمفهوم المجرد للإله هو أكثر المصطلحات تطوراً، وهو من ثمار عالم مثاليات أفلاطون، وليس هناك أي فيلسوف أو نبي وصل إلى المعنى وسمو العقل والفكر مثل أفلاطون، وغالباً فإن القول مثلما قال اسكندر أنه نبي هو وصف في مكانه، والقيام بتحميل صفات غنية كثيرة على مصطلح الرب هو نتاج فلسفة أفلاطون، وكانت المصطلحات المتعلقة بالجمال والإحسان

والاستقامة موضوعاً للتقييم كما القدسية في هذه الفلسفة. إن مصطلح "مي" " **ME** " الذي أطلق على خصائص الحضارة السومرية يعني القانون والفكر الأساسي أيضاً، وتطور ال" **EN** "عند أفلاطون إلى إدعاء "**idea** " وتعني الأفكار، أما عيسى فقد تناول هذه المصطلحات على شكل " روح القدس" "كلام الرب"، وكان يتم تكوين النظام الديني أو الفلسفي بالاعتماد على هذه المصطلحات الأساسية. والنبي محمد أطلق على هذا المصطلح اسم " وجود الله ووحدانيته"، ويتحدث عن وجود "99" صفة للإله، وهذه الصفات موجودة لدى السومريين بعدد مشابه، لقد طوّر أفلاطون هذا التجريد بطريقة أكثر انتظاماً.

هذه المراحل كانت جاذبة للإنسانية بشكل غير طبيعي، ويعود تطور المعنى إلى القدسية الإلهية، سبب قوة الله عند النبي محمد يعود إلى تحميل تراكم كل المعاني والأفكار في كائن واحد،أي توحيدها في " الله الواحد الموجود دائماً"، وكأنه يعطي فكرة الله طاقة ذرية، لقد أظهرت الحملات التي حدثت باسم الله تأثيراً كتأثير القنبلة الذرية، وعندما تم إثبات تأثير هذه المصطلحات على أرض الواقع، بنتائجها المذهلة تم إعطاء قيمة عالية للفلسفة وتطبيق الفلسفة على الدين، وتمتلك الأفلاطونية الجديدة التي قدمت تفسيراً للفكر الديني بمساعدة فلسفة أفلاطون، تأثيراً هاماً في خلق وتطوير وإعداد الأرضية التي غَذّت المسيحية والإسلام.

لقد أظهرت المسيحية التي كانت تمتلك مضموناً إيديولوجياً بسيطاً على شكل دوغمائيات عقائدية وقواعد أخلاقية في البداية، احتياجاً لتفسير فلسفي بتأثير من الأستواوية "**Stoacilik** "التي كانت الاتجاه الفلسفي القوي في تلك المرحلة. لقد طورت المدارس الفلسفية فكر الإنسان في ساحات تواجدها، ولأن الإنسان لا تَشْبع حاجاته بالعقيدة فقط، يلبي سانت أغوستينوس **Saint Augustinus**" هذه الحاجة بالأفلاطونية الجديدة، حيث تدعمت المسيحية أكثر من الماضي بعد حصولها على اللاهوت. ليس من الخطأ تقييم النبي محمد والإسلام على أنه ممثل قوي للأفلاطونية الجديدة منذ البداية. إن نسبة الذهنية الكونية وصفات الله القوية في الإسلام هي من أمتن إثباتات الأفلاطونية الجديدة.

كانت النقاشات الفلسفية التي أجريت في مرحلة الذروة للحضارة الإقطاعية، قد استندت إلى أرسطو. وأرسطو هو نتاج مرحلة حضارية أكثر تطوراً، مثلما نرى في دولة المدن لدى أثينا كان الفيلسوف هو الذي يفسر وجود البنى الكبيرة، وهو الذي يبحث عن كيفية المحافظة على بقائها، أي أنه كان منظّراً لمراحل الذروة وعرقلة الانهيار، وليس لمرحلة التشكيل والتطور، ومن المعروف أنه قد ركز جهوده من أجل إنقاذ الحضارة الإغريقية وأثينا التي كانت زهرة الحضارة. وكان سيتم استخدام هذه الخصوصية للفلسفة السياسية كأداة

نقاش أكثر من غيرها في مرحلة الذروة وانهيار الحضارة الإقطاعية. لقد أظهر تشابك النظام باعتباره قد وصل إلى الذروة، وبدء بوادر الانحلال بالظهور، الحاجة إلى نظرية سياسية متطورة. لقد وجدت أفكار أرسطو في هذه المرحلة قيمة واهتماماً بمقدار الكتب المقدسة في الإسلام والمسيحية، لأن أرسطو كان الوسيلة الفلسفية الأنسب من غيره، وكانت أفكاره التي ينظر إليها بعين الخطورة قد أصبحت أفكاراً منقذة، وكانت تتم المحاولة من أجل تقبلها كالمسلمات القوية للاهوت والصحيح المطلق، وكانِ توماس الاكويني رائد ذلك في المسيحية، أما ابن سينا وابن رشد فقد تناولاها بشكل أشمل في الإسلام.

يكتسب عمل المفكرين الأكثر تطوراً في مرحلة اللاهوت، أهمية من ناحية عكسه للمستوى الذهني للعصر الذي كانوا فيه، وكان المجتمع الإقطاعي قد نضج وتشابك، وتراكمت لديه كثير من المؤسسات والأفكار الجديدة، وقام بتعليم المنتمين إليه، وكان مستوى العقيدة والفكر في مرحلة الميلاد والتطور لا يلبي حاجة الوضع الجديد، وكان الناس يتساءلون حول أسباب ونتائج الأمور وماهيتها، وتم التفكير بالتفسيرات الفلسفية كمخرج للمشاكل الأساسية لهذه المرحلة الأخيرة من التطور، وكان ذلك يظهر كآخر حملة دفاعية يجب القيام بها من قبل الدول في مرحلة التفسخ والانهيار والسقوط، وكان سيتم الدخول الى عصر الرجعية والتعصب المميز لمرحلة الانحلال والسقوط بعد قيامها بدورها في هذه المرحلة، وكانت الفلسفة ستترك مكانها للدوغمائية المتعصبة والرجعية، وسيسود الإكراه والتعذيب من أجل القبول بالعقيدة، وترتبط الأنشطة والنقاشات الإيديولوجية المكثفة في مراحل بداية ونهاية أي تاريخ مع التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية التي تظهر، وتواجه مشاكلاً في الاستمرارية، وكان يتم عيش التطورات بهذا الاتجاه بشكل متداخل، لأنها كانت تبشر عبر الأفكار والمعتقدات الجديدة التي تسامت بقوة وعقيدة كبيرتين في البداية بالنظام الجديد الذي كان في طور الميلاد، ويمكننا تقييم ذلك على أنها جهود تبذل لأجل الولادة، وهو بمثابة البرنامج للنظام الجديد وتحديداً للمبادئ الأساسية التي توجهها، وكانت تجري المحاولة أيضاً من أجل تقديسه عبر مفهوم إلهي، ابتداءً من تسميته بمصطلحات جديدة ووصولاً إلى جوهره، وكان يتم نقش الكتاب المقدس الجديد بأقوال مؤسسه وتصرفاته والعبادات الموضوعة والمعابد التي تعبر عن الهوية الإيديولوجية، بدعاية مكثفة في الأذهان والأرواح كغذاء أساسي.

كانت المشاكل التي ظهرت بعد تمأسس وتنظيم النظام الاجتماعي الجديد، متعلقة بالتطورات المتجسدة في بنيته الداخلية والخارجية لمواصلة النظام. كيف سيتجاوز النظام هذه المشاكل، وكيف سيواصل بقاءه؟، كان هذا هو السؤال الأساسي الذي يهم كل النظام، ومن الضروري مناقشته على أعلى المستويات وبشكل شامل، لأنه إذا لم تتم مواجهة المعارضة المتصاعدة ضد

النظام بأفكار جديدة مقنعة ومشبعة، فإن خطر الانحلال سيظهر، حينها لا مفر من نقاشات عنيفة فالتجانس والوحدة التي كانت موجودة في البداية سيتركان مكانهما للازدواجية والمعارضة ويجب تقبل هذا الأمر بشكل طبيعي، فالازدواجية في المعارضة ليست سيئة لكن الأمر المهم هنا هو وضع الطرح والطرح المضاد بشكل سليم مثلما يتم التحليل حسب المادية الجدلية، فعندما تنتهي الولادات المبكرة بالموت والإجهاض لا يبقى الوليد حياً، وبهذا فان وقوع الأفكار الجديدة والمعارضة في مواقع مشابهة هي الظروف المادية التي لم تنضج بما فيها الكفاية، وهي مسألة نراها كثيراً. إن التاريخ مليء بأحداث وأمثلة من هذا النوع، ويؤدي الوضع العكسي إلى وضع سيئ يزيد التفسخ، وعندما يصل النظام الاجتماعي والاقتصادي لأسباب خارجية وداخلية إلى وضع لا يستطيع الاستمرار ببنيته التحتية والفوقية، ولا يتطور فيه الطرح المضاد الذي يعبر عن الأفكار الجديدة من طرف المعارضة، ولم يحدث وضع الازدواجية، عندها لا يمكن التخلص من التأزم والتفسخ، وتسمى هذه المرحلة تاريخياً بمرحلة التأزم والانهيار، وهذه أمثلة يمكن رؤيتها في كل نظام.

يرتبط تفوق الحضارة الغربية عن كثب بحلها لهذه الروابط الديالكتيكية وعكسها على جميع الأنشطة الاجتماعية، حيث يتم طرح المشاكل بطرق علمية، وتقديم حلول آنية لها من أجل التعرض لأقل الخسائر والآلام في سبيل الوصول إلى النتائج دون الشعور بالحاجة إلى التوجه نحو العنف المتطرف أو الحروب والخنوع أو التواطؤ الرخيص الذي يتصف بالخيانة، بل إن هنالك محاولة للوصول إلى النتائج حسب قواعد الديالكتيك أي الوصول من الطرح المضاد إلى تركيبة معينة، فالحدث الأكثر فائدة هو العلاقة والظاهرة وتحقيق النظام، تاريخياً يجب الإيمان بأن نظام الحضارة الديمقراطية هو أنسب ما يحقق ذلك.

يعود سبب النقاشات الفلسفية المكثفة التي شهدها العالم الإسلامي والمسيحي في أعوام 1200م للمشاكل الداخلية والخارجية التي شهدتها، وكانت أنظمة هذا العالم تواجه تمردات ومعارضة تزداد يوما بعد يوم، إذ لم تعد قادرة على إقناع الناس بالإيضاحات القديمة، لقد نما المجتمع وكبر، وازدادت المشاكل وتطورت الأذهان وازداد التمحيص والمساءلة، واستمرت الاعتداءات الخارجية أيضاً، وكان الكر والفر والاعتداء المضاد والدفاع يستدعي بعضه البعض. بدت الاعتداءات الخارجية مؤثرة بعد ازدياد المشاكل الداخلية للنظام، كازدياد السكان وتردي الأوضاع الاقتصادية وتطور الانهيار الطبيعي. وسيجد كل هذا الوضع انعكاساته على الأذهان، وسيحاول تطوير حلول عملية، ويجب أن تكون هذه النقاشات الفكرية والحلول العملية شاملة وذات نتيجة عندما يكون الأمر متعلقاً بمصير النظام.

نجد عدة أمثلة في التاريخ حول محاولة تجاوز هذه المراحل بطريقتين:

أـ تجديد النظام بالإصلاحات : ويجب أن نضيف الترميم إلى هذه المرحلة، إلا أن الترميم لا يعني الإصلاح، بل يشبه إنشاء بناء جديد على نفس الأساس وبنفس الشكل، مع تغيير الحجارة والطين، أما الإصلاح فهو يعبر عن تغيير الأساس والمواد المستخدمة ـ بشرط عدم التخلي عن المبادئ الأساسية ـ وإعادة البناء على أساس جديد، وتقوم كثير من الأنظمة بإطالة عمرها بهذه الطريقة وقد تتمكن من الديمومة الصحيحة عن طريق تعميق التحول.

ب ـ النهج المتعصب الذي يهدف إلى إبقاء النظام عنوة: نرى استخدام هذا النهج كثيراً في التاريخ. ويستخدم هذا النهج عندما يصل النظام إلى وضع التفسخ والفراغ الكامل من حيث الجوهر من داخله، وفي حالة الاعتقاد بوجود تهديدات خارجية لدرجة لا يمكن معها الوصول إلى وفاق بشأنها. حيث تبدأ مقاومة عنيفة من طرف النظام لأجل خنق كل شيء وعدم إعطاء الفرصة لأي تجديد انطلاقاً من مفهوم" إما النصر أو الموت"، وعندما يفقد النظام قدرته على التحول يلجأ إلى كل أشكال البطش والاستبداد وسائر أساليب القمع لأجل بقاءه ويرى في ذلك حلاً له، وفي مثل هذه الأوضاع لا مفر من هدمه بالثورة، فالشخصيات المحطمة والمؤسسات التي بقيت من النظام كلها تدخل مرحلة الاستسلام، فالابتعاد عن الهويات القديمة حتمي وهنا يبدأ كل شيء بتبني الهوية الجديدة حسب النظام الحاكم، وفي الأماكن التي تتحكم بها الذهنية الدوغمائية والمتخلفة حيث التعصب المتطرف في العلاقات الاجتماعية والمؤسسات يكون سبباً في الآلام والدماء ومآسي تاريخية، وستتخلى الإنسانية عن هذا الأسلوب بعد أن تدرك بأن التغيير والتحول هما الحقيقة الوحيدة المتبقية للطبيعة والإنسانية. ويمكن القيام بالصحيح والجيد والجميل بأحداث التغيير والتحول في حينه، وليس بالرجعية والذهنية المتعصبة والتصرفات التي لا معنى لها، والطريق إلى ذلك يمر عبر إدراك هذه الحقيقة.

لقد أظهر كل من الإسلام والمسيحية، كقوتين كونيتين لحضارة القرون الوسطى، شجاعة في التفكير الفلسفي خلال هذه الأزمة التاريخية. وسبب مناقشتهم للفلسفة ولهويتهم الإيديولوجية يختلف عن تناولهم للموضوع في مرحلة البداية والتطور كما تم تأكيده سابقاً. هناك مسألة يجب ألا ننساها وهي أن الفكر الفلسفي كان متواجداً في ظهور المتدينين ذوي الهويات المتداخلة بالدين والفلسفة، وكان يجب أن تكون المفاهيم الدينية هكذا في هذا العصر. ونرى في الفكر الهندي والإيراني والإغريقي والروماني وفي التفسيرات الدينية للقرون الوسطى، تطورات فلسفية غزيرة، وبتعبير آخر فان الإسلام والمسيحية كانتا تركيبة استندت في ظهورها إلى الميثولوجية التي تعتبر أيديولوجية النظام الحاكم

العبودي والى الفلسفة التي تطورت كرد فعل عليها، ويقدمها كهويته الجوهرية بعد إجراء التغيير الضروري لها، وتحويلها، ودمجها، وهنا لا نجد الأصالة السومرية، لا نرى وضعاً مشابهاً أثناء ميلاد الفلسفة الإغريقية وهذه هي أهم خصائص إيديولوجيات الأنبياء.

إن النقاش الفلسفي لكلا النظامين، هو ضعف الإيمان الناتج عن زعزعة النظام وفساده، وظهور الاختلافات ويرجع سبب تمسكها بأرسطو إلى قوة بنيته المنطقية. وما زال فكر أرسطو وبنية منطقه، هي أكبر السلطات التي لم يتم تجاوزها بعد. وتكمن قيمة أرسطو الكبيرة في تنظيمه وشرحه المستوى الفكري الذي هو ناتج لواقع المجتمع الإنساني، ويمثل القابلية الذهنية وقوة الفكر في الذروة. ويعود كل شخصية وكل نظام يريد العمل بالمصطلحات والأفكار إلى أرسطو بسبب نوعيته المذكورة، وكأنه كومبيوتر العصور الأولى والكلاسيكية والوسطى.

لذلك كان "توماس الاكويني" وابن سينا وابن رشد وأمثالهم من الذين جعلوا الفلسفة تهرول لنجدة الدين عند هبوطه من الذروة إلى الانهيار، مفسرين لأرسطو، وقد أوصل هؤلاء اللاهوت إلى أكبر تشابك، وبذلوا جهوداً كبيرة من أجل إثبات فكر الله بالمنطق، وعلى عكس مما يعتقد فإن المحاولة هنا أتت لإثبات ديمومة النظام أكثر من ديمومة الله.

من الواضح أن محاولة إثبات وجود الله بالمنطق يهدف إلى إنقاذ النظام في الجوهر، كقيام أرسطو بتطوير الفكر السياسي من أجل إنقاذ دولة المدينة "أثينا". وعندما يقوم علماء اللاهوت في تلك المرحلة بإثبات وحدانية الله من جديد، فإنهم يقومون في الأصل بتثبيت دعائم الدولة والنظام الذي هو ظل الله على الأرض، ونظام الدولة المسيحية والإسلامية الذي أصبح في خطر، ويقدسونهما ويضمنون ديمومتهما، وهذا هو نموذج النشاط الذي يهدف إلى تقوية الهوية. إن وجود الله أو عدم وجوده هو سؤال مجرد وليس له أي معنى، وحتى لو بذل علماء اللاهوت جهوداً حقيقية كبيرة، آمنوا بما يقومون به حتى النهاية، فإن ما يحصل من الناحية الاجتماعية هو مجرد نقاش، ويبقى النظام الحاكم موجوداً وهو الذي يجب أن يكون نظاماً واحداً أولا يكون. إن هناك هدف من أجل تأمين هوية جدية للنظام الحاكم، ويجب تحليل أسباب ووقوف اللاهوتيين في العصور الوسطى، عند مصطلح الله من الناحية الاجتماعية.

ويشرح العهد القديم وبشكل مذهل، قيام النبيان إبراهيم وموسى بجعل "أل" الذي يعني الإله السماوي، والذي كان إلهاً لكل قبائل شبه الجزيرة العربية، أقرب إلى قبائلهم العبرية رمزاً لهويتهم الاجتماعية، وما يعكس ذلك هو أن القبائل العبرية قد توحدت وأخذت شكلها الجديد، وأطلقت عليه اسم "ألوهيم،

يهوا" وجعلته مناسباً للشكل الجديد. لقد تقوى يهوا مع قوة الكيان الاجتماعي، ومثلما ستجد جميع الخصائص الجديدة التي اكتسبها المجتمع انعكاسها في الرب، سيكون الرب يهوا مصدراً دائماً للثقة بالذات وترسيخ عقيدته.

نجد انعكاس خصائص مختلفة عند رب عيسى، فرب عيسى ليس رب اليهود فقط، بل هو رب البشرية، الذي يتصرف بالمساواة مع الجميع، وغدا أملاً لإنقاذ المضطهدين. ويجد الفرز الطبقي الاجتماعي انعكاسه في تمايز صفات الرب، وكأنه يصل إلى حالة تمثيل التمايز الطبقي. ينعكس الصراع القائم بين عيسى ونظام الكهنة العميل على وجود الرب الذي ينفصل عن يهوا الرسمي ويتحول إلى رب جميع الإنسانية. وتتكون صيغة إيديولوجية كما يحدث في النضال الاجتماعي لتصبح مانيفستو المجتمع الجديد المستهدف ومصدراً للإلهام.

نرى هذه المرحلة أكثر تركيزاً عند النبي محمد. فمصطلح الله الواحد المدعّم والأكثر تأثراً بفلسفة أفلاطون، والأسس الاجتماعية الأكثر قوة، يحمل خصائص النظام الاجتماعي الذي أراد إنشاءه بالخصائص الاجتماعية التي عارضها النبي محمد، وتمت تقويته من خلال "99" صفة. إن الله ذو الـ "99" صفة، هو نوع من "اليوتوبيا" ومانيفستو في نفس الوقت ويهدف إلى إقناع المؤمنين بذلك للارتباط بهدف المانيفيستو. إن الإيمان بالله هو الإيمان بالمجتمع الجديد الذي تم رسم إطاره. وإن المجتمع الجديد سيتطور ويحكم بشكل منسجم مع الصفات الإلهية المذكورة أو كما نقوله في يومنا هذا سيتم تنفيذ البرنامج بنجاح ليصل إلى قوة السلطة.

من الواضح إن هذه الخطوط الأساسية للتحليل الاجتماعي لنمط التفكير، والتشكل المعنوي الذي يتخذ من الله محوراً له في العصور الوسطى ـ ومع الأسف الشديد ـ فإنه لم يبد أي لاهوتي الشجاعة وقوة النطق بهذه الحقيقة البسيطة، والأسوأ في الأمر هو أنه لا يتم تدريس تحليل على هذا المسار باسم العلم وعلم الاجتماع في الكليات الشرعية والاجتماعية ولازال النقاش يدور بين الميثولوجية التي تسأل" هل الرب موجود أم لا.. ؟" وبين الإنكار المادي الفظ لعلم الاجتماع، بينما الأمر الذي يجب القيام به هو الوصول إلى الحقيقة الاجتماعية الكامنة في أساس النقاش، وبهذا الشكل نتخلص من لعبة الاختباء، كما يجب أن لا ننسى بأن أكبر سلاح في حرب الآلهة هو تتبع الذات وتقديم النفس بقناع مختلف، وهذه هي اللعبة الأساسية التي تمارسها كل الأنظمة الإلهية بدون استثناء على العبيد، وما دامت هذه اللعبة مستمرة بنجاح، فذلك يعني أن النظام الذي يمنحونه القوة ويمثلونه في أمان، وعندما تتعطل اللعبة ويسقط القناع عندها يتم الكشف عن النظام على حقيقته، وتلك هي أصعب مرحلة للنظام للمحافظة على ديمومته، كما يجب أن لا ننسى مطلقاً أنه عندما تسقط الأقنعة

الإيديولوجية للأنظمة لا توجد أية قوة تستطيع حمايتها وأنه قد حان اليوم المنتظر.

لقد حقق لاهوت توما الاكويني خطوة جريئة للمسيحية، وفتح الطريق أمام مذهب البروتستانتية لإصلاح المسيحية، ويعتبر ذلك تطوراً هاماً جداً، أما الفرع الآخر المتعصب والمتخلف في المسيحية، فإنه سيحاول إنقاذ نفسه من السقوط عبر المحاكم الدينية، إذ قام بممارسات ضد رجال الكنيسة المؤيدين للإصلاح ورجال العلم والفلاسفة العلمانيين أفظع من تلك التي مورست ضد عيسى. لقد تم حرق جوردان برونو حياً، أما جاليلو فقد أنقذ نفسه من نفس العقوبة بعد أن تراجع عما قاله، بينما تم إحراق الكاهن"جينهاس"، و تم حرق الآلاف من أرباب الطرق الصوفية والسحرة، ومن الذين شكلوا تيارات كنائسية جديدة، وعملت المحاكم الدينية الكاثوليكية كأكبر آلة قتل في التاريخ، وتم القيام بكل ذلك تحت ما يسمى باسم الله، لكن في الحقيقة تم القيام بكل ذلك من أجل المحافظة على سيادة الكنيسة وإنقاذها ضد الناس الأحرار المنتفضين، والشعوب التي بدأت بالوصول إلى المعرفة القومية. إن الآلهة لا تحتاج إلى الدفاع عنها أو إنقاذها أبداً، بل إن النظام الحاكم هو الذي يحتاج إلى الدفاع والإنقاذ، وهو الذي يصنع قناع الإله كلما واجه ضغوطات ووصل إلى حالة مقرفة. لقد شهدت أوروبا حروب المصالح تحت القناع المذكور، وبطريقة لا هوادة فيها، ولا سيما في أعوام 1000– 1800م. ونظراً لأن هذه اللعبة تتم ممارستها في الشرق الأوسط منذ القدم، فإن قواعدها باتت مكشوفة، لكن أوربا لم تستطع رؤية الحقيقة إلا بعد حروب دامية و طويلة، لأنها تواجه لأول مرة هذا النمط من الحروب ويرجع استخلاص أوربا المبدأ العلماني من الحرب الكنائسية إلى الظروف الصعبة التي كان يصعب الخروج منها. إذ تم الخروج منها بطريقتين :

أ: إن إصلاح المسيحية يعني تأميم الكنيسة وبدأ ذلك يحقق نجاحاً ابتداءً من عام 1500م، مما أسفر عن دولة حقوقية ديمقراطية معاصرة، ومن الواضح أن استناد الإصلاحات إلى البرجوازية كطبقة اجتماعية جديدة، هو تحول إيديولوجي يعتبر خطوة إلى الأمام، والتي نشاهد عدة أمثلة مشابهة لها في التاريخ، وهي أحد الخطوات الأساسية التي أنهت الحضارة الإقطاعية في أوربا.

ب: تمثل الانطلاقة العلمانية طريق التفكير العلمي، الذي قطع جميع روابطه مع الكنيسة، وسيحاول الفرد الذي يعتمد على العلم رسم قدره بحرية دون الرجوع للإله، و كان يحاول أن يصبح ديناً جديداً مع مرور الزمن، وأن يرسم طريقاً يمكننا تسميته بالدين العلمي الذي يتضمن أخطاراً كثيرة، وهذا هو الذي تحول إلى تيار ليستمد منه عصرنا أشكالها.

كان الفرد سيفيض بالقومية والعلمية التي كانت ستتطور عن طريق

اللغة القومية والثقافة والآداب، وكان المجتمع الألوهي المتطرف سيتحول إلى مجتمع لا ألوهي متطرف، وسيؤدي إلى مصدر خطر مختلف عن طريق الفرد الذي أله نفسه أو أنه سيقع في الخطر.

وكانت الكنيسة المزدهرة المغلوبة على أمرها، ستواجه هذه التطورات بغضب، وستحاول الانسجام مع التطورات المتجسدة لتواصل التزامها بذكريات الكهنة والراهبات، ومواصلة بذل جهودها من أجل أن تكون الضمير الحي لمجتمع فقد ضميره.

لقد حصل المجتمع الإسلامي على علومه الكلاسيكية في عصر الإمبراطورية العباسية. وهذا النمط الذي يستند إلى التفسير السني للإسلام، هو المجتمع الذي أخذ شكلاً رسمياً وتحول إلى دولة، وانسجاماً مع جوهر الإيديولوجية الإسلامية انزلقت الدولة بسرعة إلى المونارشية" الملكية المطلقة". فالنتيجة الطبيعية لمصطلح الله عند النبي محمد السلطة المقتدرة. إن جميع الإيديولوجيات الاجتماعية الطبقية تعد مسرح السلطة السياسية حسب مصطلح الله الذي تكونه، ويتم القيام بأكبر تحريف في التاريخ بأقنعة الآلهة، ولا تهدف جميع النشاطات التأليهية أو تركيزها الذهني، إيجاد الحقيقة السامية كما يعتقد، وحتى لو تم الاعتقاد بذلك فإن لم يجبر إدراكها، فإنه يتم أعداد الأرضية للنظام من أجل المجتمع الطبقي، ويتم خلق القوة المعنوية للسلطة. لم تقبل الإنسانية السلطة السياسية الجافة كما هي دون الاستناد إلى بنية معنوية قوية، وسلطة ذهنية، ليتم تغليفها وتقديمها وتقدم من ثم للمجتمع، ويتم فتح الطرق أمام الحكم بتقمص الأشكال الإلهية.

كان العمل الأساسي للكهنة السومريين والمصريين هو خلق الأقنعة الإلهية للحكم السياسي المتصاعد، ويتم شرح ذلك بوضوح عبر الميثولوجيا. فبينما كان الحثيون والإغريق ينقلون النسخة الثانية من ذلك باتجاه الغرب، كانت الهند المخرج والمقدم البارع لخلق الأقنعة الخاصة بالشرق، بعد أن تصبغها بآلاف الألوان، وكان خلق الميثولوجيا وتكوين الآلهة والقيام بالأعياد وحفلات الذكريات السنوية مرتبطاً بها، ويشغل مكاناً هاماً لدى سلطة النظام العبودي، وكانت قوة طبقة الكهنة تكمن في القيام بهذه المهمة بنجاح، ويرجع سبب تأثيرهم في التاريخ لهذه الدرجة، إلى دورهم الذي لا يمكن التخلي عنه في تحقيق مفهوم السلطة وديمومتها. إن ترك هذه الأدوار الأساسية جانباً والاتجاه نحو تقديس الإله المجرد ونقاشه وصراعه كحقيقة، هو من اكبر المغالطات الأساسية. ولا يمكن لأي حكم أو قوة أو سلطة مادية سياسية أن تواصل وجودها بطريقة عادية دون وجود ذلك التحريف. إن اعتقاد الملك ـ الرب، الذي يعتبر القناع الأساسي للنظام العبودي لا يمكن أن يكون إلا بالبنية الذهنية لمرحلة الطفولة البشرية،

وكانت أقنعة الآلهة تتمزق وتسقط كلما تطور الإنتاج وكلما تقدم المجتمع الطبقي، وكلما اتضحت علاقة النظام بالاستغلال، عندها ستظهر الحاجة إلى أشكال وأقنعة جديدة. لم يكن إنتاج كل هذه الأقنعة من أجل تحريف وخداع الإنسان بقصد وعن علم، إنها ثقافة معتقدات وكانت تكتسب قوة تحميلها للعقل كحقيقة كبيرة، لأنها كانت تتقمص خصائص تابو قوية. ويجب أن نعرف جيداً أن الإنسانية كانت مؤهلة لذلك من الناحية الذهنية في المراحل الأولى للمجتمع الطبقي، ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار بأنه تم القمع والاستغلال السياسي عبر تقديمه كأكبر حقيقة لأكبر كذبة، وكقاعدة للمجتمع الطبقي .

لا يمكن للعصر الإقطاعي أن يسير بالآلهة التي تمثل الأقنعة الخاصة بمرحلة الطفولة، وكان الإدعاء الأساسي للأنبياء والفلاسفة هو أنه لا يمكن أن يكون الله إنساناً، إن كشف أقنعة الإله بهذه الطريقة مهم جداً، وحدث ذلك لأن تطور الوعي لدى الإنسان ومستواه الذهني بات يستوعب اللعبة جيداً، وكانت هناك حاجة لتفسيرات طبيعية لمصطلح الإله الجديد. وخفض الأنبياء مصطلح الإله الذي لم يكن إنساناً، لتوحيد وتعميم القوى الاجتماعية والطبيعية، وإرجاعها إلى الواحد، لذا نقلوه إلى ما بعد السماء، إلى مكان لا يمكن معرفته أو مشاهدته، وهنا يوجد وضع تاريخي يرافق تجاوز مرحلة النمط النمرودي والفرعوني المطلق، وتحاول الإنسانية الابتعاد خطوة عن مصيبة الإنسان الإله والإله - الملك، وتهدف الدموع والحب ومظاهر العبادة أمام كائن يبث الخوف كثيراً، إلى التخلص من هذه المصيبة على الأغلب، وتلعب هذه المفاهيم دوراً كالتعبير عن الشكر في العصر النيوليثي لكونه لا يوجد استغلال فيه. إن الفلاسفة أما اعتبروا الله السبب الأول، أو انه كائن في كل ذرة وبهذا يكون امتداداً للطبيعة، وبذلك دفعوا فكر الإنسان خطوة إلى الأمام ويخلصون الإنسان من مخافة الله. وفي كلا الوضعين فإن تطور المجتمع الطبقي يلعب دوراً في إنقاذ الذهنية من مرحلة الطفولة، وبهذا تدعو الحاجة إلى إله ودين جديدين ومصطلحات فلسفية جديدة، وبهذا الشكل يستمر ويتطور الإرث التاريخي بهذا الشكل.

بديهي ان يشمل مصطلح الله عند النبي محمد هذه المرحلة التاريخية، فتعريف الإله، لا يشمل مصطلحات الإله الميثولوجي السومري والمصري، ومصطلحات الفلسفة الإغريقية والرومانية، والتي لم تكن تخدم المجتمع الإقطاعي، وكان محمد يشهد صعوبات إيديولوجية كبيرة لإدراكه العميق لهذه الحقيقة، لدرجة كان يغمى عليه ويتصبب عرقاً كما هو معروف. إذ ان المجتمع الإقطاعي يمر بمرحلة متقدمة من الكونية والتعمق ويجب أن تكون هويته الإيديولوجية مواكبة لذلك، بحيث يكون مصطلح الله بشكل خاص مقنع ومؤثر وموجود في كل مكان ومراقب وأقرب الى الإنسان من حبل الوريد، وبذلك يتم فتح الطريق المعنوي للسلطنة أو ملكية السلطة الإقطاعية المحتملة، ويتحقق

ميلاد الفكر والإيديولوجية كأحد دقائق فن الإدارة الطبقية، وكانعكاس لها، يطلق وصف أكبر قوة على الله، بينما تسمى السلطة الإقطاعية بظل الله، حيث يتم قلب الوضع رأساً على عقب، لتصبح السلطنة الحقيقية للخلافة، بينما انعكاسها هو الله، وبذلك يتحقق التوازن في الهوية الاجتماعية، وينفتح الطريق أمام نقاش دوغمائي حول الله على مدى قرون طويلة، وبهذا الموقف العلمي نستطيع فهم أبعاد دوغمائيات تلك المرحلة بشكل أفضل.

إننا لم نقصد هنا التقليل من مصطلح الله، بل إعطاءه معناه الحقيقي. إن المصطلحات هي وقائع مثلها مثل الكيان الاجتماعي، ولها تأثير بمقدار الاقتصاد على الأقل، ولا يمكن أن نستصغر تطوير النبي محمد لمصطلح الله. فأخطاء الماديين الفظين في هذا الخصوص سلبية بمقدار ما يقوم به المثاليون على الأقل، ويؤدي إنكار الماديين للرب إلى نفس نتيجة ادعاءات المثاليين الذين يرون الله حقيقة مطلقة، هذا يعني تحريف المعنى الحقيقي لكيان اجتماعي من خلال نظرة علمية اجتماعية صحيحة.

إن الإبداع الإيديولوجي للمجتمع الإقطاعي، هو عمل يتطلب مهارة أكثر من الإبداع العملي وأكثر صعوبة، ويشبه ذلك الفرق بين ولادة طفل بصحة كاملة وبين نشأته العادية. إن تقنيع ذلك في المجتمع الإغريقي بقربه إلى الإنسان وتشابهه معه، وعدم قدرته على الخلق الكبير، وبما يتماشى والفيدرالية العشائرية، قد أثر على التحول إلى دولة وديمقراطية أثينا فيما بعد. لقد أدى مفهوم الله المتميز عن الإنسان، والمتسم بالقوة الخارقة في الأديان التوحيدية إلى المجتمع السلطوي، وسلطنة السلالات، وتلعب الهوية الإيديولوجية دوراً أساسياً في تشكل المجتمع بشكل عام، وفي تكوين السلطة السياسية بشكل خاص، وذلك يشكل جواباً على السؤال التالي: لماذا لم تتطور الديمقراطية والجمهورية في المجتمع الإسلامي؟، وهذا يعني أنه لا يمكن للمجتمع الإسلامي، الذي أخذ طابعه من البنية الإيديولوجية الموجودة، أن يتحول إلى مجتمع ديمقراطي دون تجاوز هذه الهوية الاجتماعية. أي دون أن يعيش علمانية منسجمة، فتحقيق العلمانية الحقيقية عن طريق تحليل وتجاوز الهوية الإيديولوجية التقليدية عبر التاريخ، والمتجذرة في أعماق المجتمع حتى ذراته، وتحقيق الجمهورية العلمانية والمجتمع والسياسة الديمقراطية مرتبط بذلك.

رغم ذلك فإن الدور الأولي لمصطلح الله عند النبي محمد، هو تقدمي وخلّاق ومعطاء وقوي، ويدفع إلى الممارسة، ويحقق سمواً على الصعيد الذهني، وقد لعب دوره التاريخي بنجاح، ولكن ستبدأ البنى الثقافية المتعددة بالضغط على المصطلح عندما يصل هذا الأخير إلى مرحلة النضج. وتواصل المجموعات العرقية المحلية، والقوميات، تغطية المصطلحات الموجودة في ثقافتها بستار الله،

وبذلك تم الدخول في مرحلة الخداع في مواجهة الله، فأصبح لكل مجموعة مصطلحها الخاص بالله الذي يواكب مستوى مصالحها، فإلى جانب السنة الرسمية تتعدد وتنتشر المجموعات الإسلامية غير الرسمية كالباطنية والصوفية،

كانت المجموعات المعارضة ولاسيما الفاطميون والقرامطة، تعارض النظام، وكان يتم تبني معتقدات غريبة يتطور فيها التصوف، ومع الوصول إلى مرحلة الذروة للمجتمع والدولة الإسلامية، أصبح الفلاسفة الإسلاميون أمام مهمة إنقاذ المجتمع والدولة الإسلامية، مثلما ظهر أرسطو كأكبر فيلسوف من أجل إنقاذ مجتمع المدينة والدولة الإغريقية.

لقد شهدت المرحلة ما بين القرن العاشر والثاني عشر بعد الميلاد، تطورات سياسية كبيرة في هذا الاتجاه، وكان تشابك التطورات الاجتماعية والسياسية تنعكس على البنية الإيديولوجية الفوقية، مما دفع الكندي والفارابي وأبن سينا وأبن رشد الى إضفاء الفلسفة على الإسلام، أي انهم مثلوا دور أرسطو ورفاقه للمجتمع الإسلامي، وذلك بهدف إنقاذ المجتمع والدولة اللتان بدت تلوح فيهما بوادر الانهيار، وليس لإثبات مصطلح الله. وتدل النقاشات الواسعة على تعاظم الأزمة، وكيفية الخروج منها بطريقة صحيحة؛ إن جوهر هذه النقاشات متشابه في كل مرحلة مشابهة، وإن ما يجب إنقاذه هنا هو الدولة والمجتمع وليس الله المجرد. ويكتسب مصطلح الله تفوقاً إيديولوجياً إلى درجة أضحى منطقياً، ولذلك فإنه يكون قد قدم خدمة كبيرة من أجل بقاء المجتمع وديمومة الدولة، وكان الفلاسفة يؤدون الخدمة التي كان يؤديها الكهنة. لقد خلق الإسلام فكراً فلسفياً لاهوتياً أكثر تطوراً من المسيحية. فلابن سينا أثر يماثل أرسطو. وحينها كان الفكر العلمي وتراكماته متفوق على أوربا، إذ كانت أوربا تترجم المراجع الفلسفية والعلمية الشرقية في تلك المرحلة مثلما نقوم بترجمتها اليوم عن أوروبا، كما لم يستطيع الفكر العلمي الذي حقق تفوقاً لدى المسيحية إظهار ذلك التفوق في الشرق، لان نمط التفكير الإسلامي المتعصب قيّم المكتسبات العلمية والفلسفية الموجودة بالكفر.

لقد انتهت مرحلة الفكر الفلسفي بالإمام الغزالي والأشعري. ويعتبر القرن الثاني عشر الميلادي بداية عصر التعصب الذي هيمنت فيه الدوغمائية الصلبة على الإسلام، وانعدمت الثقة بالعلم وظل الطريق "العلمي" الوحيد هو الالتزام بالقرآن والسنة، وعلى مستوى الكلام فقط، ولقد شهدت المسيحية تطوراً مشابهاً لذلك نحو التعصب، إلا أنه تم فتح طريق امام الإصلاح وتطوير الذهنية المستقلة أكثر من غيرها، بينما دخل الإسلام إلى مرحلة تاريخية مظلمة لعدم تطويره طريقاً خاصاً به للإصلاح والعقل بشكل مستقل عن الدين، وعند تقييمنا التطور التاريخي نرى أن ثقافة الشرق الأوسط التي لعبت دوراً طليعياً منذ ولادة

الإنسانية، أي من العصر النيوليثي10000 ق.م - 1200 م، قد تركت دورها للحضارة الرأسمالية الأوروبية بعد ذلك التاريخ، وفي الحقيقة فإن أكبر مهمة تاريخية هي البحث عن أسباب هذا التغيير في الأدوار من جوانب متعددة، وحتى الآن لم يقم أحد بهذه المهمة، ولكن بعض المؤرخين الغربيين مثل "غوردن تشايلد"، "اس. ن. كارمر"، حاولوا بجهودهم الخاصة تصحيح هذا التطور التاريخي، فالدفاع بالسبل الدينية الجافة لن يكون ناجحاً على الإطلاق، والدفاع عن التفوق القديم لا يعني أي شيء، بينما الأمر الأهم هو معرفة أسباب التراجع التاريخي وإظهار هذه المرحلة بكل أبعادها.

إن كشف النقاب عن بدء مرحلة التعصب والتراجع، التي تم دخولها بها باسم الإسلام عن طريق المجال الإيديولوجي سيؤدي بنا إلى الأسلوب الصحيح، كان الشرق الأوسط في تلك القرون يتفوق على أوروبا من حيث الغنى المادي والتطور الاجتماعي والعمراني، ولم يكن في هذه الساحة ما يشير الى التخلف، إذ كان الشرق الأوسط جذاباً بالنسبة للأوربيين، بغناه وجماله الخارق يمثل تفوق المستوى المعيشي الذي كان أهم أسباب الحملات الصليبية، ولذا لا بد من البحث عن أسباب التعصب والتردي في المجال الإيديولوجي. لقد خطت أوروبا خطوات هامة في مجال العلم في القرن الثالث عشر، وبدأت مرحلة الإصلاح الديني في القرن الرابع عشر، وكان القرن الخامس عشر هو بدء عصر التنوير، أما المجتمع الإسلامي في تلك المرحلة فقد تعرض لتطورات معاكسة تماماً، لدرجة اتهام المدارس الفلسفية بالزندقة، وأوصدت أبواب الاجتهاد، ومورس التعذيب ضد الذين طرحوا أفكاراً مميزة، وتم سلخ جلود الذين يبدعون أفكاراً فلسفية جديدة، مثل السهر وردى عام 1190م، الى حد اعتبار عدم الثقة بالعلم والعقل من الواجبات الأساسية للإيمان، وتم تلحيد الفلاسفة والعلماء كابن سينا والفارابي، واستند هذا العصر على المعلومات المقتبسة، والروايات الضيقة الأفق، وتم اعتبار حفظ القرآن والسنة علماً بحد ذاته، وتم اعتبار التفكير الحر للعقل من أعمال الشيطان، وأغلقت جميع الأبواب أمام المعلومات العلمية. وبدأ عصر سفسطائي اعتبر فيه التعصب العقلي المتشدد والمخيف، والذي لم يشهد الشرق الأوسط له مثيلاً في التاريخ ذات ميزة وقيمة، إن هذه المرحلة السفسطائية لا تليق بالشرق الأوسط، كما أنها السبب الأساسي لفقدان التاريخ المزدهر وفقدان الذاكرة، إنها بداية لفقدان التاريخ والتراجع.

سيكون من الصواب تقييم هذه المرحلة كفاجعة كبيرة للشرق الأوسط والمجتمع الإسلامي. إن هذه المرحلة خانت أكبر ثقافة رائدة للبشرية. وكانت سبباً في إنجازات كبيرة وفتح عصور جديدة على مدى15000 عام تقريباً، وتقوم الآن بالتنكر لعظمتها وتدفنها في القبر، فالقبور المصرية والسومرية الباهرة ليست هي المهمة فقط، إذ تم قبر الثقافة الباهرة الدائمة في الشرق

الأوسط وسط آلام كبيرة، هذه المقابر لا نعلم ما تحتويه حتى يومنا هذا.

عندما ننظر من زاوية عامة لتاريخ الشرق الأوسط، نجد أن الإسلام يمتلك دوراً تقدمياً محدوداً، ولا يملك قيمة إبداعية كبيرة، ويمكننا تفسيره على أنه المشتق الثالث للسومريين من حيث الهوية الإيديولوجية، ولا يمكن التنكر للدور الذي لعبه على صعيد الانتقال من تعدد الآلهة إلى الإله الواحد، ومن الميثولوجيا إلى الدين، ومن الزراعة إلى التجارة، ومن القبلية إلى السمو القومي، ومن العبودية إلى العبودية المرنة وصولاً إلى التقدم الحضاري. لكن كل هذه الظواهر كانت تحقق تطوراً ذاتياً ولا يوجد أي شيء جديد تم خلقه، و كان" وجود الله ووحدانيته والرسل الأنبياء " مفهوماً تم تمأسسه وتحويله إلى مصطلح، مسيطراً على التقاليد والذهنية الاجتماعية منذ زمن طويل، وما قام به الإسلام هو دفع المجتمع الإقطاعي الذي أتخذ من الفرد القن مركزاً له إلى الأمام، ومن المؤكد أن الإسلام قد لعب دوراً في تسريع الإقطاعية وتكاثفها، وتحويلها إلى مؤسسات قوية ونشرها عالمياً وهو القوة الخارجية المجددة لتحريك تطور الحضارة الإقطاعية حتى في أوروبا والهند والصين، وبتعبير عام فإن الإسلام هو من أفضل المصدرين للإقطاعية، كونه دين التجار، والمهنيين والفلاحين والمزارعين، إن إجلاله وتكريمه لمفهوم الجهاد، وتقديس طريق الفتح الذي لا يعني سوى الاحتلال، وفي حال الموت أي الاستشهاد يذهب إلى الجنة مباشرة، وفي حال البقاء على قيد الحياة تكون الحصة الكبيرة من الغنيمة بانتظاره، كل ذلك له علاقة بتصدير الإقطاعية عن كثب.

إذا قيمنا المرحلة منذ الانطلاقة حتى عصر النضج، من القرن السابع حتى القرن العاشر الميلادي بانتشار الثورة الإقطاعية، نرى أن كل المراحل التي جاءت بعد هذه لا تتضمن أي دور تقدمي حيث سادت الحروب العمياء بين الإمارات والسلالات على المصالح والغنائم والنهب. إي تحولت هذه المرحلة إلى فاجعة بعد القرن الثاني عشر، واستخدم الدين كأتفه وسيلة شخصية للسلالات والإمارات بعد أن كان سامياً في البداية، وبينما أصبح المذهب السني المذهب المتعصب الرسمي، تطور المذهب العلوي على شكل اتجاه ديني مقاوم يمثل الكادحين والمسحوقين، لم يقطع روابطه بالقيم الثقافية للشعوب، وظهرت الكثير من المذاهب الباطنية ضد الظلم والكذب، واكتسبت الصوفية والتصوف القوة من جديد، مع أن الصوفية كانت طريقة منذ القرون الأولى تمثل رد الفعل في الأديان الرسمية، حيث يبدأ الانكماش الداخلي، وبدلاً من التمسك بالسلطة المادية يتم اللجوء إلى السلطة المعنوية تحت اسم الآخرة، وذلك يعني ربط الآمال بها وجعل ذلك مثالياً، وما ذلك الا تعبيراً عن الانهزامية والضعف مما أدى إلى ظهور وتطور التيارات السلبية بما يشبه التجمعات اليسارية في يومنا هذا.

رغم وصول العلوية إلى السلطة على شكل الشيعة في إيران والفاطمية في مصر، وتأسيسها للدولة بقيت بعيدة عن القيام بإصلاح إسلامي صادق وتحقيق إصلاحية إسلامية صادقة، وعلى صعيد الأسس الإيديولوجية لم تستطع تجاوز "تبعية أهل البيت"، ولم تمتلك فلسفة متطورة ولا برنامجاً سياسياً، كما أن طموحاتها لم تتطور لإقامة قاعدة اجتماعية جديدة وتمثيلها، فلا يمكن تحقيق إصلاحات بالقول: "لقد تعرض أهل البيت للظلم"، حيث لا يمكن تحليل الأسباب السياسية والاجتماعية لهذا الظلم الواقع على أهل البيت بهذا القول فقط، وبناءً عليه فرغم اعتمادها على أرضية المظلومين العادلة، إلا أن العلوية لم تصل إلى مستوى الإصلاحات التي قامت بها المسيحية، وتفتقر إلى الشمولية التي تدفعها إلى لعب دور متقدم ينتظر منها، مليئة بالعاطفة ولكنها تبقى ملتزمة بنفس القوالب الاجتماعية الاقتصادية عندما تغدو نفسها السلطة، فهي لا تنطوي على أي اختلاف سياسي، وإنما ميولها تتجه نحو اليسار بعض الشيء.

لم تؤد الحروب المذهبية (التقاتل الأعمى) التي استمرت مئات السنين إلا إلى مآزق وانقسامات، واستنفاذ بشكل متبادل. ولم يبق الإسلام محصوراً بتخلفه فقط، حيث وصل إلى حالة التشتت من الناحية السياسية. وبالنتيجة لم يتطور الاقتصاد ولا المهن اليدوية بسبب الفوضى، وبينما كانت التجارة في أوربا تتجه نحو التجارة الحرة من أجل خلق الطبقة البرجوازية، اصبح التجار في المجتمع الإسلامي متربصين بالربا، كطبقة تتخلف يوماً بعد يوم. لقد منعت الأنظمة الصغيرة الأميرية التي تم إنشاؤها على الأراضي الخصبة من التحول إلى الإقطاعية بشكل طبيعي، وخنقت البرجوازية المدينية منذ البداية بالحفاظ على قوة الإقطاعية المركزية، وبالتالي لا مفر من التخلف لعدم تطور طبقة برجوازية تخلق توازناً مستقلاً كما جرى، إن المركزية المعتمدة على الفتوحات تصبح متخلفة، وتدافع عن الماضي في الشرق الأوسط والمجتمعات الإسلامية، كمؤسسة لا داع لها، وليس لها معنى، وذلك عندما تصل إلى نهاية عهد الفتوحات، وستبقى السلطنة ككتلة سرطانية في أحضان كل المجتمعات، تلك الكتلة السرطانية التي تقضم الجسم وتعرضه للتفسخ! ولم يبق أي التزام بإيديولوجية ومبدأ الإسلام، وهناك مرحلة مختلفة عن الطراز البيزنطي، حيث يتم القيام بكل شيء وبالمكائد لأجل السلطة. فقد كانت المرحلة ما بين القرن 12-15 بعد الميلاد هي مرحلة الانهيار من الذروة.

أما المرحلة ما بين القرن 15- 20 بعد الميلاد، فتقيم على أنها مرحلة الظلام الدامس في تاريخ المجتمعات الإسلامية، ولا تملك أي مؤشر للتطور، وكافة الأدلة دلت على الانتقال من الذروة إلى الانهيار. وكانت اللعنة التي يتم ذكرها في الكتب المقدسة، قد شملت كل الذهنيات والمؤسسات من رأسها إلى أخمص قدميها. وظهر أكبر تناقض مأساوي إلى الميدان، فنفي النفي المضاد

دخل مرحلة الآلام والاستهلاك، فالنفي الكبير لتجاوز البنى المترسخة وإمكانية ولادة الجديد التي حكمت المجتمع والإنسان منذ آلاف السنين والتي تمثل الطرح، تتعرض الآن لنفي القوى التابعة للطرح المضاد، التي تلحق هزيمة بالجانب الآخر لتهيمن مرحلة من الاستهلاك وفراغ المضمون.

إن التفكير بأن الإسلام وحده هو الذي خلق هذا العصر في تاريخ الشرق الأوسط، يتضمن نقصاً كبيراً، ويجب أن نربط ذلك بأسباب أعمق، فبمقدار ما تتجذر ثقافة أو حضارة في ساحة ما وتتعمق، فإن ظهور الجديد المضاد لها يكون صعباً، حيث لابد من توفر دماء وأراضي جديدة من أجل التجديد، والمثال على ذلك هي المرحلة التي تطور فيها الصيد والتجميع أكثر من أي وقت آخر، والتي تسمى بثقافة ما جدليان **magdelian** التي سادت حتى أعوام 10000 ق.م لازالت تشاهد في المناطق التي نسميها اليوم بفرنسا وأسبانيا، ولم تدخل العصر النيوليثي رغم مرورها بالمرحلة العليا للعصر الباليوليتي والسبب الهام هو ان ثقافة العصر الباليوليتي الأعلى لا تملك ظروف إنكار نفسها، وكانت ديناميكيتها الداخلية والمحيط المقرب لها، يفتقر إلى الخصائص التي قد تؤدي إلى تجاوز تلك المرحلة وكان لا مفر من تجاوز ذلك عن طريق التأثيرات الخارجية، مثلما يكون الشخص المتعود على نفسه، مغرماً بنفسه، ويرى نفسه متفوقاً على غيره، ولا يرضى تغيير نفسه بغيره. إن القوة والثقافة التي ستغير وتضغط على الثقافة المتمركزة حول ذاتها والتي تعيش نفسها بعمق، إلى درجة لا تفكر بوجود غيرها، يجب أن تكون خارجية، والانحلال والتجدد سيكونان أثراً للديناميكيات الخارجية.

ترتبط حياة الشرق الأوسط للعصر النيوليثي بعمق بالجغرافيا والمناخ والثقافة النباتية والحيوانية عن كثب، وتعتبر أنهار دجلة والفرات والنيل، كجيل جغرافي ثان هام، ظروفاً يمكنها من تطوير المجتمع العبودي كبديل للعصر النيوليثي، ويعتبر ذلك فرصة تاريخيةً لتحيا عصرين تاريخيين جنباً إلى جنب، وتقومان بتغذية بعضهما البعض لفترة طويلة، والجانب الذي يجب ملاحظته هو أن أحدهما لا ينبثق من الآخر ولم تكن التفسيرات الديالكتيكية المعاصرة صحيحة، والتي تقول بأن الأنظمة تنبثق من قلب بعضها، لأن الآراء تشير إلى أن هذا التطور يجري من الخارج على أساس التأثير غالبا، و لم يتطور المجتمع العبودي السومري في مركز العصر النيوليثي. بل تطور في منطقة المستنقعات التي تعيش فيها القبائل المتخلفة رغم التأثير الشديد بينهما، ولم تعش هذه المنطقة المسماة ميزوبوتاميا السفلى العصر النيوليثي إطلاقاً، ولعبت دور الأراضي العذراء كساحات لم تتجاوز ثقافة القبيلة .

لقد ظهر النظام الاجتماعي الجديد عن طريق توحيد قيم الثقافة

النيوليثية مع الأراضي المناسبة للري، وتشكيل ميزوبوتاميا العليا والدنيا أرضية لثقافتين تاريخيتين، لم يكن إلا نتيجة لفرصة تاريخية تجعل هذه المنطقة أغنى حضارتين تاريخيتين في التاريخ وتخلق التاريخ، أما الحضارة الإقطاعية فقد ظهرت في ساحة خارجية، في مكان تقاطع الطرق، أي في إحدى مراكز المدن الصحراوية التي كانت نتاجاً للتجارة، وما كان بالإمكان للحضارة الإقطاعية أن تتطور حول النيل والفرات، لأنه لا يمكن لهذه الثقافة ونمط حياتها والمتعودة على مؤسساتها، أن تخلق النظام الجديد من أحشائها، قد تتعرض للتطور، لكن بشرط أن تظل ضمن النظام نفسه، أما النظام الجديد المختلف فسيتطور في الخارج وسيؤثر ويتأثر أيضاً، وهذا منسجم مع قانون نفي النفي الذي يعتبر أحد قوانين التطور التاريخي، فظهور النظام الجديد يجعل كل الأنظمة السابقة وما قبلها لا حول لها ولا قوة في المنطقة التي يقوم فيها، وكأنه قوة تقنية جديدة، أو قوة متفوقة لامتلاكها سلاحاً، وسيتعرض القديم لهجوم الجديد من الساحة الخارجية التي أنشأ فيها، وسيتفوق عليه ويتجاوزه.

بعد أن لعب الإسلام دوره كانطلاقة كبيرة ثالثة في الشرق الأوسط، سيتعرض للنسيان أو بمقولة أخرى بسبب تعرضه للخيانة واللعنة، إنها هي نتيجة محزنة لكنها مفهومة. إن تكهن النبي محمد بأنه أخر نبي وسينبعث يوم القيامة ليشفع لامته أمر متعلق بهذا الموضوع يحمل معنى كبيراً.

حتى الأرض التي نحبها كثيراً تدعو الضرورة الى تركها بوراً في بعض الأحيان، ويجب غرس شجرة جديدة عوضاً عن الشجرة المتفسخة، والشيء الذي يطول استخدامه يصبح قديماً، ولا يبقى أي شيء يمكن إنتاجه بعد الانفجار الذي جرى في الصحراء. لقد أنجبت جميع معطيات الحضارة وامتصت كل قوة الأرض القابلة للامتصاص، وأصبحت الأم مسنة، ولن تستطيع در الحليب بعد، ولا تستطيع أن تقدم إنتاجاً جديداً من خلال عملية تطعيم جديدة أو زواج آخر. لقد أنجبت ما أمكنها من الأطفال، وغذّتهم بحليبها وحان الوقت للرجوع إلى الأرض. لقد أنتجت "الأم الأرض " ما تتطلبه الإنسانية ونشرته إلى أطراف العالم الأربعة. أصبح هابيل وقابيل أولاد أدم و حواء، أحدهم راعٍ والأخر مزارع وولد لنوح أربع أبناء انتشروا في الأطراف الأربعة في العالمِ ليكونوا أربعة أعراق ومهدوا للعالم السبيل امام الحضارة، وخلقوا ما تحتاجه الإنسانية من نباتات زراعية، وحيوانات أليفة، والقرية والمدينة والطبقة والدولة والإله وكل المهن والكتب المقدسة، والأنبياء والأدب والفنون والموسيقى والعمارة والسلاح والطريق...الخ، وغذوها وأهدوها إلى كل العالم، وإن كل ذلك متعب. أنسحب الشرق الأوسط الذي كان الثقافة الأم الخلاقة ومهد الإنسانية، إلى ما وراء الستار وربما إلى القبر، وربما ينسحب من أجل أن يخلق حضارة حية وجديدة ومتعددة الألوان، لينام ويستيقظ من جديد، ليحقق نهضته التنويرية التي

تليق بواقعه.

تظهر هذه الحقائق عدم صحة تحميل كل أسباب التخلف والتعفن على الإسلام، فقد تركت المجتمعات مهزومة ومتعفنة تحت الشكل الإسلامي ليتم سحقها والاستهتار بشرفها وإذلالها. إن الكهنة الذين خلقوا الميثولوجيا، والأنبياء الذين خلقوا الأديان، وسارغون وأمثاله الكبار الذين بنوا الإمبراطوريات، وجميع الربات اللواتي عرفهن التاريخ، وكل الذين خلقوا أولى الملاحم وكتبوا الشعر وأعطوا الموسيقى حقها. وكل الذين كانوا غدارين حتى النهاية، وأصحاب الضمائر الكبيرة، كلهم ولدوا في هذه الأرض، وعاشوا وماتوا وولدوا من جديد بشكل أقوى وأغنى وأكثر ألواناً وأصواتاً، فلماذا لا ينبتون مرة أخرى؟.

إذا كان التاريخ مليئاً بالدروس فإن ما يجب القيام به هو شرح أسباب اللعنة والتعفن، وإذا كانت هناك شكوك بمرض ما، فالشيء الذي يجب القيام به هو تشخيص المرض وليس حقن إبرة عشوائياً.

يجب أن نعرف هذه المسائل مسبقاً بشكل جيد: إن الذهنية الميثولوجية للشرق الأوسط ممزقة، وقد فقد الشرق الأوسط دينه منذ زمن طويل، ولم يمتلك علماً أبداً، وكأنهم يعيشون حوار الطرشان الذين يتحدثون بكل اللغات ولا يفهمون بعضهم البعض تحت برج بابل. كم هو أليم هذا القدر، فالدولة الصفوية الإيرانية في شرق الشرق الأوسط، والأناضولية العثمانية تعيشان في غربه مرحلة من التاريخ بدون معنى وبدون عقل وقلب مرة أخرى، وكأن ما تقومان به أشبه ما يكون بكورس لعبة خيالات كاراكوز مكررة، فلا علاقة لهما لا بالتاريخ القديم ولا بالمعاصر، كما لم تبق لهما علاقة لا بالحضارة الغربية ولا بالشرقية ولا اهتمام لهما بالمسيحية ولا بالإسلام، أحدهم أنقطع عن الإنسانية لدرجة قيامه بخنق سبعة عشر من أخوته من أجل الحكم. وتم نسيان الميثولوجيا والفلسفة والعلم منذ زمن بعيد، والعقارات أضاعت أصحابها الحقيقيين، لم يعد يسكنها إلا الثراثرة السيئون ولا يفعلون شيئاً سوى الثرثرة.

كانت المرحلة ما بين القرنين 15- 20 م، عصر الازدهار الأوربي الكبير والزمن الذي تصاعد فيه العلم والعقل والتقنية، وهي المرحلة التاريخية التي كان الفرد فيها يؤمن بإمكانية تحطيم جميع دروع العبودية، وخطا فيها خطوات موثوقة وناجحة. انها حضارة حقيقية جديدة وكبيرة ولدت وأخذت بالنمو، أليس للشرق الأوسط حصة فيها..؟ وكيف لا يكون..؟ فهو الذي وهبها كل الخامات على مدى 15000 سنة لتقوم أوروبا بتحقيق هذه الولادة، فالشرق الأوسط هذا كان الحاضن، فهو الذي أحتضنها في العصر النيوليثي على مدى 10000 سنة، وأحتضنها في العصر الحضاري على مدى خمسة آلاف سنة، وجاء الوليد عاقاً لا يعترف بأجداده، بعيداً عن الاحترام والتقدير مغروراً بنفسه،

يعتقد بأنه يستطيع الدفاع عن ذاته كالآلهة. ومتيم بالعظمة، ولكن رغم ذلك يحيط به خطر الانزلاق إلى الهاوية، وذلك صحيح أيضاً، هذا ما يجب أن نفهمه جيداً كي لا نكون معجبين بتفسخنا ولكن يجب ألا ننسى أيضاً بأننا الأم التي ولدت الحضارة وأنشأتها واحتضنتها، وسنتعلم دون أن نلجأ إلى التقليد، ولكن في أرض حضارة الأم ومن ألوانها ودمائها كأولاد وبنات من صلبها، لنحقق الولادة الجديدة، لنجعل من أوروبا المسنة قابلة هذه المرة، إننا سنحقق هذا الميلاد الجديد المقدس.

تتراكم جميع الدروس التي نستخرجها من تاريخ الشرق الأوسط بشكل عام، والتاريخ الإسلامي بشكل خاص وتتعقد في نهضة شرق أوسطية، ويجب أن نعترف إن الهويات الإيديولوجية المزدهرة والقيم التي تمثلها قد انهارت، ووصلت إلى نهاية التعفن الذي تعيشه منذ زمن طويل أيضا، يجب القيام بتحليل شامل وبمقاييس علمية صحيحة للعلوم الاجتماعية، ولجميع العناصر الميثولوجية والدينية الماضية كخطوة أولى في درب التنوير، وستحقق النقاشات الجريئة والمتعددة الاتجاهات التي تجري في ضوء ذلك نتائجاً صحيحة. وستحل الشخصية والعمل المتين والفهم الصحيح والمقتدر محل حوار الطرشان الذي يجري في أسفل برج بابل. إن تحديد الصفوف بشكل صحيح وتمثيل الطابع المقتدر سيجلب نهاية التقليد الأعمى والحياة اللاوجدانية وغير الصحيحة، وستنير الهوية الإيديولوجية الجديدة المستندة إلى التصور الصحيح للمستقبل، الطريق أمام التطبيق الاجتماعي الذي يجب أن يتم عيشه بمقدار معنى الصلاحية التاريخية، وسيمنح الشجاعة اللازمة من أجل ذلك، والتطبيق الثوري بالذات سيخلق حركة التنوير الشرق أوسطية حتى لو كانت متأخرة.

المثالان الهندي والصيني لم يضيفا كثيراً إلى أصالة الحضارة الإقطاعية، فكلا من الهند والصين تبنتا قوالب النيوليثية الشرق أوسطية منذ الألف الرابع قبل الميلاد وتبنتا إنجازات الثورة الزراعية، وبذلك التزمتا نفس المسار التاريخي، وتظهر حضارتا هارابا وموهنجادارو في أودية نهري البنجاب والهندوس في أعوام 2500 ق.م، على شكل أنها تطوّر من المدن السومرية كاحتمال كبير ليأخذا مكانهما على مسرح الحضارة، بينما الآريون الذين تسلحوا بالأسلحة البرونزية كانوا في أعلى المستويات البربرية، ويحققون تطورهم بلا انقطاع في أعوام 1500 ق.م، ليقوموا بوضع أسس الحضارة الهندية، ويمكننا رؤية التطورات نفسها على ضفاف النهر الأصفر في الصين، حيث تصاعد النظام العبودي المشابه للنظام السومري متأخراً بـ 2500 سنة، وتتأسس أولى أمثلة للدولة ليشكل الكهنة الثقل فيها، حيث المركزية المتصلبة والملوك ـ الآلهة، هذه الأنظمة التي آمنت بألوهيتها تستمر لـ 500 سنة تقريباً، ثم تتمزق إيديولوجياً لتحدث معها تمزقاً سياسياً، وبالتالي الانجراف إلى مرحلة

طويلة من الفوضى، فالنظام العبودي الذي دام فترة من الإصلاح فيما بين عامي 250 ق.م - 250 م، يترك مكانه لنمط العلاقات الجديدة التي تمثل تطور الحضارة الإقطاعية، إن كلا من كونفوشيوس وبوذا اللذان يعتبران رسولان إصلاحيان للشرق الأقصى يلعبان دورهما كطليعة نظام سياسي استغلالي أكثر مرونة.

بدأ عصر التحول الإقطاعي في أعوام 500 م، بعد مرحلة الحضارة العبودية التي استمرت طويلاً، وكانت التطورات في الشرق الأوسط تواصل تأثرها من الخارج، حيث كانت تأثيرات وضغوطات الإسلام الإقطاعي يسرع ويقوي الإقطاعية في الهند والصين، وكانت مرحلة 1000 – 1500 م، تشكل مرحلة النضج، أما المرحلة التي تلتها فهي مرحلة التفسخ والتبعية في مواجهة الحضارة الأوروبية المتصاعدة. لقد شهدت حضارتا الأستيك والأنكى "في المكسيك والبيرو" في جنوب أمريكا تطورات مشابهة كشعبين متأخرين في المرحلة التي بدأت بتاريخ 500 ق.م، وفي أعوام 1500 م، وصلت إلى استقلالها تحت التأثير الأسباني لتتعرض إلى انحلال مشابه لتبقى في مواجهة الزوال من التاريخ.

هـ ـ بدلاً عن النتيجة

يحافظ نظام الحضارة الإقطاعية على نوعيته الأساسية ومكانته في التاريخ، إن التناقض الأساسي الذي أدى إلى انهيار العبودية هو فقدان عمل العبيد لعطائه وإنتاجيته القديمة، وتحوله إلى عائق أمام علاقات الإنتاج الجديدة، إن امتلاك الإنسان كرأسمال هو العامل الأساسي الذي اعتمد عليه النظام عند ميلاد وتطور العبودية، وكان لابد من تفسخ النظام بعد أن ازداد عدد العبيد إلى درجة لا يمكن له أن يستخدمهم في الإنتاج، ووصولهم إلى وضع العاطلين عن العمل لدى أسيادهم، وكان لابد أن يتسرع الانحلال عندما يكون السبب نقص إنتاجية العامل الأساسي، ويجب أن نضيف إلى ذلك غلاء حياة المدينة والحروب، فالمدن التي اكتظت بالسكان والتي كانت تغذيتها تشكل مشكلة كبيرة هي نتاج للمرحلة المنتجة للنظام، ويوماً بعد يوم كان يصعب مواصلة كيان المدن التي توسعت وزاد سكانها عند توقف العطاء، تطوير المدن وزيادة غلاء المعيشة فيها كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى الانحلال. والأمر نفسه بالنسبة للحروب، فعندما تحولت الحروب التي كان يجري خوضها لأجل كسب ساحات

حضارية جديدة في البداية إلى وسيلة للمحافظة على الحدود وقمع التمرد الداخلي، وتحولت إلى مؤسسات بطانتها أغلى من وجهها، لعبت الجيوش دوراً في تصعيد الفوضى بدلاً من تحقيق الاستقرار، وتحولت إلى وسيلة للحروب الداخلية لأجل الحفاظ على السلطة، وانقطعت علاقة الفلاح بالأرض، لأنه تم تقسيم الأراضي الزراعية إلى مزارع كبيرة بين المزارعين الكبار، وذلك هو أحد أسباب توقف الإنتاج. تحول هذا الانحلال في عناصر النظام الأساسية الى أزمة عامة أدت الى عطالة العلاقات والمؤسسات السليمة ايضاً، وعدم استخدام رأس المال مهد السبيل أمام التفسخ على جميع المستويات، وجاء القضاء على النظام من خلال توحد غزوات البربر مع التمردات الداخلية ليكون المصير المنتظر للمرحلة، وكان لابد للنظام إلا أن ينحل ويظهر نظام جديد، حتى ولو تم تطبيق أجهزة الدولة بحزم، ومهما ازدادت الضغوطات.

وكان على النظام الجديد إيجاد الحلول لأسباب الانهيار، لأن من أولويات هذا النظام إيجاد الحلول للعبيد الذين ابتعدوا عن الإنتاج، والجندي العاطل عن العمل، والأراضي غير المستخدمة، والمدن التي تضخمت كالأورام والحروب غير المثمرة والجو غير الآمن، حيث لا يمكن تجاوز هذه المشاكل عن طريق ترميم النظام القديم، ما حدد توجهات النظام الجديد هو الهروب من المدينة إلى الريف، وتشتت الجيوش الكبيرة والتهرب من الحروب، وبناء ساحات أضيق لكنها آمنة، وكان الوضع القائم يشبه التراجع والانسحاب وكأنه قد تمت العودة ثانية إلى المجتمع النيوليثي، ولكن ذلك كان ظاهرياً فقط، فقد كانت كل المدن تواصل حياتها رغم انخفاض عدد سكانها، وتم بناء علاقة الفلاح مع الإنتاج مرة أخرى عن طريق توزيع المزارع الكبيرة على الفلاحين على شكل حصص معينة ليكون الفلاح شبه مالك لها، وللفلاح أسرة على الأقل، ويستطيع الحصول على مردود تفي حاجته السنوية، وكانت الملكية المحدودة تتطور بالتدريج، وهذا التوجه نحو الأرض وعلى هذه الأسس، زاد مشاعر الولاء للأرض والارتباط بها، وكان مفهوم الأرض الأم يكتسب قوة ويتحول إلى وسيلة إنتاج أساسية، وأصبحت الحروب تخاض من أجل امتلاك أراضٍ أوسع، وليس من أجل امتلاك المزيد من العبيد، وأصبحت الأرض موضوعاً للملكية بدلاً من الإنسان، فالذي يمتلك أراضي أكثر، يتمتع بقوة أكبر.

إن تقاسم ملكية الأراضي على هذا الشكل يوصلنا إلى نظام الإمارات، فقد تم تجاوز النظام القروي المشاعي للعصر النيوليثي منذ زمن بعيد، وجاء نظام استخدام الإمارات حسب نظام الملكية، وكان الفلاحون مرتبطون بالأمير بعلاقات أقنان تشبه علاقات العبيد، وكأنه نظام مختلط من العبودية والنظام النيوليثي، ولم تتشكل سوى بلدات صغيرة حول الإمارات، وهو نظام إنشاء المدن والبلدات التي تتخذ طابع نظام الإنتاج الجديد أساساً لها، والتي كانت أكثر

واقعية، بينما كانت الامبراطورية العبودية تتحول إلى أنقاض، كان تنظيم المدن والريف يتم حسب الأسس الجديدة، ويتم القفز إلى الأمام بدا تراجع، ولم ينته التراجع نحو العصر النيوليثي، بل حدث توازن في التراجع مع التقدم إلى الأمام ليتم التقاط بداية النظام الجديد، ويكون المسار المتصاعد هو مسار الحياة الجديدة.

هذا التعريف الجديد للإقطاعية يساعدنا على فهم عدم الخلق الميثولوجي والديني الفلسفي الأصيل، إن نظاماً ذو نمط مختلط يتطلب إيديولوجية مختلطة، في حين أن الأنظمة الأصيلة تنقلنا إلى أشكال من التفكير الأصيل، وكان لابد للإقطاعية التي استندت إلى الأشكال القائمة في العصر النيوليثي والمجتمع الطبقي أن تتخذ بنية المجتمعين أساساً لبناء هويتها الإيديولوجية، لأنه لا تتوفر لدى الإقطاعية قوة وخصائص تجعلها قادرة على خلق الجديد، فحتى أكثر البنى الإيديولوجية التي ظهرت بصيغة أكثر ثورية لم تستطع تجاوز وضع الاشتقاق الثاني أو الثالث على صعيد المضمون، ولم تتضمن سوى معنىً إصلاحياً، وهذا الوضع للنظام على صعيد الأسس المنطقية والعقائدية والمعنوية هو بمثابة نسخة عن الماضي، إن أكبر تطور لمنطق القرون الوسطى هو الوصول في آخر أيامها إلى مستوى فهم وتحليل محدود لأرسطو ولم تتواجد أية قوة أو أسس فكرية تمكنت من تجاوز ذلك، إن حاكم العقول هو أرسطو، وكل أشكال المنطق ترتبط به، إنه الأستاذ الأعظم.

ومن حيث الإيمان فلا دور للآخرين سوى حفظ الدوغمائيات الدينية، إن كتابة وحفظ الكتب المقدسة يعني الوصول إلى مرتبة أكبر علاّمة أو رجل دين، وكانت هذه المرحلة من أكثر المراحل التي ضغطت فيها الدوغمائية على عقول البشر بكل ثقلها، إذ لم يتم إعطاء فرصة لتبرعم أي فكر خلاق، وظهر الوجه المظلم للقرون الوسطى من خلال إضافة ميتافيزيقيا ومثالية جافة للمعتقدات، وسمح لخلق إرادة إنسان ضعيف بشكل يوازي العبور من الإنسان العبد للملك الإله إلى الإنسان ظل الله ومازالت الإرادة والأخلاق الحرة بعيدة، ولم تتشجع الإنسانية لتكون تابعة لنفسها، بل تبقى تابعة بنسبة ظل الله عليها.

يجب أن نوضح حقيقة القرون الوسطى التي وصفها العصر الحديث بالعصور المظلمة، ومازالت هذه الظلمة تزداد ظلمة كلما تعمقنا، أسس ظلام القرون الوسطى تكمن في فقدان الهوية الإيديولوجية، فالعتاد الإيديولوجي الذي يمنح الروح ويسلط الضوء على مراحل الإبداع، يفقد أهميته عندما يتحول إلى قوة مادية ويصل إلى بناء مؤسساته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ويتحول إلى شكل آخر، وهذا الوضع يعني الظلمة إذا غابت الحركة التنويرية، كما يؤدي انسلاخ الإيديولوجية القديمة عن جوهرها واستخدامها لمصالح خاصة، إلى

التشويه الإيديولوجي التام والمغالطة تجاه المجتمع، وتتحول إلى التلاعب بالكلمات والتمذهب المزيف ونمط الخطاب الديماغوجي الذي يخنق الأجواء، ولا سيما نظام المدارس الدينية التي تستخدم كمراكز إيديولوجية أساسية، وما هي سوى وسائل لنشر الظلمة.

ونرى الظلام الواضح في القرون الوسطى عندما فقدت روابط التنوير في العصر الكلاسيكي، والأخطر من ذلك هو تحول الفلسفة إلى وسيلة لإثبات اللاهوت وهنا تتشكل ظلمة ذا وجهين، الأول هو فقدان الرسالة الدينية التي تعني النقاء الوجداني الذي يجعل الموقف الأخلاقي والمخرج غير ممكناً حسب المرحلة، وبذلك لا يبقى للنظام أي أساس شرعي ولا تبقى سوى المصالح المادية العلنية التي يجري القتال من اجلها، أما الثاني فهو اللاهوت الفلسفي، الذي تم إحداثه من أجل سد الفراغ الإيديولوجي الذي أقحم البنى الفكرية في عقد كبيرة. والتيارات الصوفية التي تصاعدت كرد فعل على ذلك زادت من التمزق الإيديولوجي عن طريق شده إلى الخلف، وبذلك أصبح الوجهان السابقان يزيدان من الظلمة لتغذية بعضهما البعض، فتلك هي الظروف المعيقة في القرون الوسطى، لقد تحولت اختراعات الثورة الزراعية الأصيلة، ونظام العبودية التي كانت بمثابة مكتسبات للعقل إلى دوغمائيات فجة نتيجة لنقلها حفظاً حيث فقدت معناها، وشكلت أكبر كارثة على الذهنية البشرية العامة.

وفي هذه النقطة يجب الحكم على العصور الوسطى بالظلام، كما يجب تحليلها ومحاولة تجاوزها، لم يتناقض الجوهر مع إيديولوجياته وحسب، بل تم تفريغ مضمون التراكم الذهني الهام الموجود منذ 15000 سنة، وتحويله إلى تلاعب بالألفاظ وفنتازيا في المنطق ومدارس ومذاهب مزيفة، وأدى ذلك إلى تخريبات كبيرة وظلام دامس ومزيد من الاغتراب، وكانت الأنطلاقات الدينية والفلسفية المتطرفة بهذا الاتجاه، في المراحل الأخيرة للعبودية قد جعلت الوضع الذهني في خطر، ثم عمقت القرون الوسطى هذا الوضع أكثر، وأوصلته إلى الاختناق في ظلام عميق والقيمة التنويرية للحضارة الأوروبية وتفوقها يلعب دوراً هاماً وحساساً في هذه النقطة، إن بحثها في عمق الطبيعة وطريقة تناولها للدوغمائيات الاجتماعية بالشك، يشكل أساس الحركة التنويرية، فقد قامت بتنوير الفرد الذي فقد إرادته وتعرض ذهنه للاختناق في الظلام، وقامت بإعداده لمسيرته الحرة بطريقتين، وتعتبر الطريقة العلمية الأفضل للتنوير الذهني، ومحاولات الحرية الفردية البعيدة عن الدوغمائية ستطور الأخلاق والإرادة الحرة.

هناك سؤال هام يجب طرحه وهو: ألا تستطيع الأنظمة الحضارية ذات الجذور الشرق أوسطية إحداث هذه الانطلاقة من ذاتها؟، هذا هو السؤال الذي

يبحث عن جواب في يومنا الراهن، ونجد بان كلاً من الكندي والفارابي وابن سينا وسهر وردي ومنصور الحلاج قد بذلوا جهوداً وتضحيات كبيرة من أجل تنوير الشرق الأوسط، منذ القرن العاشر الى القرن الثاني عشر. وكان الحب الشديد لديهم هو البحث عن الحقيقة، ومن المعروف أن ذلك يتفوق من حيث القيمة على المصالح الاقتصادية والسياسية، وتعالى صوت حب الحقيقة في جغرافية الشرق الأوسط أكثر من أي وقت مضى، وظهر المرشدون الكبار أمثال مولانا جلال الدين الرومي، ومحي الدين العربي كمرشدين للحقيقة، وكان هناك تقدم في العلم أيضاً، حيث تم إحراز تقدم في الرياضيات والطب وعلم الفلك والأبحاث النباتية والحيوانية، وكان الشرق الأوسط يتفوق على أوروبا في كل ذلك، وكان التفوق في مجال الآداب مذهلاً، أثبت أدب الملاحم نفسه في القرون الوسطى من خلال الشاهنامة ومجنون ليلى، أما الفلسفة التاريخية لابن خلدون، فقد كانت قريبةً إلى المادية الجدلية، ورغم ذلك لم تتطور حركة التنوير في الشرق الأوسط. إن سبب عدم تطور حركة التنوير - التي تعتبر حجر الأساس للهوية الأوروبية الجديدة - في الشرق الأوسط رغم جميع الإمكانيات الملائمة أمر مهم جداً. قد نتحدث في هذا الصدد عن غزوات المغول ولكنها لم تكن السبب الأساسي، وإن البحث عن السبب الأساسي يكمن في تحكم الإيديولوجية المتخلفة والدوغمائية التي كانت تشكل ثقلاً كالأسمنت على العقل وفي عمق التمأسس السياسي، ويكون ذلك هو التناول الأصح من غيره.

لعبت الدوغمائية المسيحية ذات الجذور الشرق أوسطية بشكل موضوعي دوراً إيجابياً في البنى الذهنية وطابع الشعوب الأوروبية، فهذه الشعوب كانت تعيش الميراث البربري بكل أبعاده، قد خرجت منتصرة بالتركيب السطحي الذي قامت به المسيحية، ويجب ألا ننسى أن المسيحية هي أكبر هدية من ثقافة الشرق الأوسط العظيمة لأوروبا، ومثلما دفعت المسيحية بالتكوين الذهني الأوروبي إلى الأمام خطوة كبيرة فإنها كونت لها أخلاقها أيضاً. وأدخلت فكر القانون والانضباط والقراءة والكتابة إلى أوروبا، ولا يمكن التفكير بأوروبا الحضارية دون الأسس التي قامت المسيحية بترسيخها، وربما كانت أوروبا ستبقى تحت مخالب العبودية المتخلفة لآلاف السنين لولا وجود المسيحية. التي لعبت دوراً كبيراً عندما نقلت إنجازات حضارة الشرق الأوسط إلى أوروبا دون أن تشهد ظلام العبودية، ويكمن حظ أوروبا هنا، لأنها أخذت هذه الإنجازات وحققت حملتها التاريخية عن طريق دمج الشخصية الحرة والقوية للمجتمع البربري مع آخر الإنجازات العلمية للشرق الأوسط.

إن هذا يعني أن المسيحية تكمن في أساس الحملة الحضارية الجديدة مع التراكم العلمي الشرق الأوسطي وحيوية المجتمع البربري، والأهم من ذلك أنه لم تتطور إيديولوجية أسمنتية بعد لتضع ثقلها على الذهنية بعمق، ولا يوجد

تمأسس سياسي ودولة عمرها آلاف السنين، وكان في انهيار روما وعدم إحكام العثمانيين والبيزنطنيين سيطرتهم عليها حظاً كبيراً بالنسبة لأوروبا، فالكونفدراليات السياسية المتداعية والإمارات المتراخية هيأت الأجواء وجعلتها مناسبة أكثر مما كان في الشرق الأوسط، وهذا يعني تطور التصلب السياسي والأيديولوجي ككتلة أسمنتية، ووجود جو مناسب لتكوين الفرد الحر والعقل المنفتح كأرضية ملائمة، ما خلق فرصة لأوروبا كان سوء حظ لدى الشرق الأوسط، إن عدم إعطاء الفرصة للثقافة السياسية كي تتحول إلى برجوازية كطبقة لم تتح الفرصة لقيام فيدراليات متراخية وتكوين أرضية مناسبة، فالدوغمائية المتجذرة في الأعماق لم تتح الفرصة لانطلاقة الفرد الحر، حيث تجري معاقبة أية مقاومة لذلك بمنتهى الشدة.

عندما يتم نقل التاريخ الثقافي للشرق الاوسط الذي يشبه شجرة دلب مسنة إلى أوروبا، يكون أشبه بنقل شتلة (غصن) مقتطعة من هذه الشجرة، وينمو عبر تطعيم حديث لتغدو شجرة جديدة. وتقدم ثماراً وفيرة، وفي هذا الإطار فإن أوروبا ليست أثراً للأوروبيين، قام الأوروبيون بزرع فرع من شجرة الحضارة في أراضيهم واستطاعوا تجديدها بفضل ما يملكون من مؤهلات التطعيم، وضمن هذا الإطار فإن الحضارة الأوروبية أضحت أثر للأوروبيين، إن القيام بهذا التمييز من زاوية التبادل الحضاري يكتسب أهمية مصيرية من زاوية فهم ما هو صحيح، ومثلما لا تعرف شخصية الشرق الأوسط التي تهشم دماغها ماذا تملك وماذا أعطت لأوروبا، وما الذي يجب أن تأخذه منها، وعليه عندما يكون الخطأ في الفرز والاختيار ومستمراً لمئات من السنين دون تحقيق أية حركة تنويرية يعود السبب الى ذاك الخطأ، وعليه لم تتمكن من البدء بعملية تنويرية ضرورية ولازمة.

تدعو الضرورة الى رؤية أسباب تعمق المأزق في الشرق الأوسط هذا على أقل تقدير. فإن شجرة دلب مسنة لا تستطيع أن تحيا حياة جديدة مهما تم تطعيمها، وبنفس الشكل لا يمكن تنمية شجيرات طازجة تم أخذها من أوروبا "العلم والتقنية وقوالب الحياة" على الجذوع الضخمة والكبيرة لتلك الأشجار وكأن شيئاً لم يحدث أو دون رؤيتها بشكل كامل، فبهذا الشكل لا تستطع حضارة الشرق الأوسط خلق نفسها من جديد.

نحاول الوصول إلى أسباب عدم تحليل البنية العقلية لمجتمعات الشرق الأوسط عن طريق اقتباس العلم والتقنية من الخارج، ولا يمكن إنكار أن الصين واليابان والهند قد قامت بتطوير خياراتها من خلال ما نقلته من أوروبا على الأقل، وتظهر الصين الاشتراكية واليابان الليبرالية المحافظة والهند الديمقراطية، على أنها تسير في طريق الحضارة الأوروبية بالإمكانيات المادية

والظروف التي تطورت كثيراً، بالإضافة إلى أن تلك الدول قد جسدت جميع إنجازات العصر النيوليثي وحضارته ووصلت إلى مرحلة تطور جاد، وتعيش اليوم تطوراً مشابهاً لأوروبا، لكن الشرق الأوسط والامتدادات المشابهة له تبدي تعنتاً كبيراً على هذا الصعيد، حيث لا يشهد الشرق الأوسط تغييراً كافياً لا بالإمكانيات الذاتية ولا بالتدخل الخارجي، وهنا يجب أن نفهم أن التناقض يكمن في الأعماق، إن التاريخ والثقافة والمجتمع ذاته هم الذين يقاومون، وهذه مفاهيم هامة جداً، وسأحاول تحليل الدفاع عن هذه الحقيقة بعمق في الأجزاء القادمة، ونحاول الآن القيام بمداخلات قصيرة.

يمتلك تحليل مصطلحات عشق الله، عشق الحقيقة التي لم تفقد أهميتها منذ النبي محمد أهمية حيوية، ويعتقد أنه تم الاقتراب من الحقيقة جزئياً عن طريق الدين، والفلسفة الإغريقية فتحت سبيلاً جديداً للوصول إلى الحقيقة من زاوية مختلفة، أي عن طريق العقل، وقالت أوروبا أن أفضل سبيل للوصول إلى الحقيقة هي التجربة، وبذلك فتحت الطريق أمام العلم التجريبي.

إن البحث الكثيف عن العشق، يعبر عن البحث عن حياة عالم المستقبل، مثلما هو بحث عن العالم المفقود أي البحث عن الميثولوجيا المفقودة وحالة التناقضات الاجتماعية التي لم تجد حلاً لها، وأسرار الطبيعة اللانهائية. وعن معرفة نوعية الإنسان بذاته. فقد تم الاعتقاد في القرون الوسطى أنه تم الوصول إلى نتيجة لهذا البحث بوجود الله، ولهذا تم تحميل "99" صفة لمصطلح الله، وتحميل الله جميع أحلام وتصورات الإنسان، وتم البحث عن وسائل الشفاعة لدى النبي "حبيب الله"، وتم طلب كل شيء من الله مما لا يمكن طلبه حتى من أفضل حبيب، وكأنه ستتم تلبية جميع الرغبات والتخلص من جميع المشاكل عن طريق صنع عالم إيديولوجي، مقابل أن تتم تلبية وتنفيذ جميع قواعد العبادة وقوانين الشريعة تطبيقاً صارماً، لقد عاش النبي محمد في توجهه نحو المرأة نوعاً من العشق الإلهي وهو أكثر الأشخاص تطوراً على هذا الصعيد، وأما حياة العشق التي وصلت إلى حالة لا يمكن التعرف عليها، فتعبر عن سمو المرأة والأسرة في تلك المرحلة، ولم تكن المسافة بعيدة بين حب المرأة و حب الله، لكن تم تحريف هذه العلاقة بعد فقدان جوهرها، وتم استخدامها في أكثر الممارسات دناءة.

إن البحث عن العشق الذي تركز في القرون الوسطى يذكرنا بجميع قيم الحضارة السابقة المفقودة. إنه بكاء من أجل هذه القيم التي ستضيع تماماً عما قريب، وكل التوسلات إلى الرب لها علاقة وثيقة بهذا الضياع، فقد تم استخدام مفاهيم الخيانة والنواقص والفقدان الأليم الموجودة بعمق في ثقافة الشرق الأوسط بكثرة في شعر العشق، وتظهر مأساة منصور الحلاج والمئات من أمثاله في

كيفية معايشة هذه الحقيقة لدى الفرد، إن الشعر المترادف لمولانا جلال الدين الرومي وإلهيات العشق ليونس أمره، هي التعبير الشعري والنغم الأكثر حزناً للقيم المفقودة، ويجب أن نقول ما يلي: كانت حضارة الشرق الأوسط تتألم كثيراً وتقدم الشهداء وتكتب ملاحمها عندما كانت تترك مكانها لأوروبا ولتدفن، إن كل الآداب الأصيلة في القرون الوسطى ما هي إلا عبارة عن هذا البكاء، وكان الفضولي هو آخر أكبر الشعراء في هذا المضمار وكأنه يذكرنا بشعر الرثاء الذي كان يتغنى به الشعراء السومريون في أعوام 2000 ق.م، حيث ينتفي الأمل في هذا الأدب وكل العشق قد تحول إلى رماد، إن قيس وليلى، وفرهاد وشيرين ومم وزين كرم وأصلي هي أنماط تعكس هذه الحقيقة والواقع على آداب الشعوب.

إذا قيّمنا المرحلة الواقعة بين القرن العاشر والخامس عشر نراها مرحلة الرعشة الكبيرة والأخيرة، حيث تم صب الأسمنت على القيم الثقافية التي يزيد عمرها عن 15000 سنة، بعد القرن الخامس عشر، وقام المغول بدفن ما تبقى بسرعة وبعنف، ولم يقم العثمانيون بأي دور سوى دور "حراس القبر"، أما السلطان محمد الفاتح فقد أدى الدعاء على المقابر فقط بعد عدة رعشات، وما تبقى يشبه قيام العرب البدو بالتبرز فوق آثار الحضارة المصرية، أو كان يتم الرقص بغباء مثل الرقصات الإفريقية البدائية، إن نظام القصر العثماني كان مثل سكون القبر، وذلك واضح إلى درجة كان يتم قتل الأطفال فيه من أجل سلامة السلطة، ولا يمكن أن يكون لذلك علاقة بالإسلام، فقد كان مفهوم أهل البيت هو المحافظة على حب كل أفراد العائلة إلى درجة التقديس، وكانت الأنماط المتردية التي استلمت الحكم، تعتمد على تطوير الموت وليس الحياة على هذا الشكل دائماً، فكان نيرون الروماني رمزاً لسلطان الموت الذي تم تنفيذه على عيسى عند ظهور المسيحية، وتم الالتزام بذلك عند البيزنطيين بظلام دامس، وقام العثمانيون المتبرجين بالإسلام مظهراً بلعب آخر المشهد الثالث والأخير من مسرحية الموت، إن كل أنواع موسيقى وشعر القصر العثماني كانت تعبر عن ازدواجية غير مشروعة للبكاء واللذة الرخيصة، وما أريد أن أقوله: أنه في الوقت الذي كانت تبكى فيه القيم الحضارية الكبيرة المفقودة، كانت الحياة السفيهة تمارس فوق قبورها الرقصة البدائية على الأموات، إن القهر الذي لا يحتمل للحياة في الشرق الأوسط، ليس نابعاً عن حرارته أو بطالة العمل أو التناقضات التي لا معنى لها، أو الجهل، بل ينبع من انتقام الماضي الذي تعرض للخيانة والذي لا يعفو.

ولذلك فإن التحليلات النابعة عن الإقطاعية الضيقة للعصور الوسطى، ولا سيما التقييمات المتعلقة بمرحلة الظلام هي تحليلات غير كافية، ويجب إعطاء الأولوية للشرح الصحيح والناجح للتحليلات التاريخية والاجتماعية العامة

والشاملة، ولا يكفي الوصول إلى وثائق العصور عن طريق علم الآثار فقط. لأن وثائق المأساة والحب والشجاعة والخيانة واللعنة والمقدسات هي قليلة جداً، إن أرض الشرق الأوسط التي شهدت أكثر مقدسات الآلهة، وانقسمت إلى دول قاحلة ملعونة لتشهد قصص الخيانات المركبة للحكام، والأساطير الكاذبة والأقنعة الإلهية الفارغة من الداخل، ومهازل الأقزام، كلهم مصطنعين، لا يحترمون التاريخ وخونة لعهودهم، وغرباء عن الحقيقة إلى درجة ليتركوا شيئاً إلا وباعوه في سبيل تحقيق المآرب الشخصية أو الأسرية البسيطة، وأصبحت أنظمة الدول منحطة لدرجة لم تعد هناك حاجة لجحيم آخر. فهذه الأنظمة تحولت إلى الجحيم الذي يمر وصفه في الكتب المقدسة، وكأنه ما بقي أي عبد يستحق الجنة، وحتى شرح الحرب الفلسطينية ـ الإسرائيلية الصغيرة تكفي الوقوع في مستنقع لا يمكن العيش فيه، عن طريق تحولها إلى انتقام بطريقة منظمة، في أقدس أرض للتاريخ الملعون، إن المنتقم الأساسي هنا هو القيم الحضارية التي لا حدود لها والتي لم نكن لائقين بها.

ومن المذهل التذكير بغضب وألم، قيام الربة إنانة "أول ربة سومرية، كانت آلهة الجمال ستار وبعدها جاءت ستار ربة الآلهة، ثم عشتار" بمقابلة الرب أنكي الخبيث والمخادع، لتقول له " اعطني القيم **ME** " التي خلقت الحضارة، وبعد أخذها لهذه القيم مقابل تلويث نفسها حيث أخذتها من أريدو ودخلت إلى أوروك في أجواء النصر، والآلهة الماكرين لصوص دائماً وعملوا على ان تخسر المرأة تماماً، وكلما خسرت المرأة بدأ الفقر الكبير ينهش في المجتمع و كأنه قدر مكتوب، وقاموا فيما بعد باستعباد الإنسان، وحولوا جميع أشكال الإكراه والكذب والاستغلال إلى حق مقدس. وعرف الذين جاؤوا فيما بعد كيفية تطوير هذين العملين كأجمل فن في الحياة، وقتلوا بشكل مخيف وطوروا وسائل موت مذهلة، وحولوا الإله و الربة اللذين كانا جنباً إلى جنب مع الإنسان إلى قابضي أرواح، ومنتقمين متوحشين. وحولوا حياة الجنة على الأرض إلى جهنم، وهكذا تحولت دول الشرق الأوسط الملعون الى دول قاحلة.

ويتم إدارة كل شيء عن طريق الممثلين الذين يفتقرون إلى الروح وخرجوا من أفواه الأقنعة الإلهية التي لم تعد تملك أية حيوية، حيث لم تبق أية ظاهرة أو علاقة اجتماعية أو عمل إنساني، لم يتقرر مسبقاً، ولا يمكن النظر إلى أي مكان وإلى أية ظاهرة وعلاقة بطريقة حرة وجديدة. لأن النظرات قد تجمدت في العيون منذ زمن بعيد، وتم لف الأصوات على بكرة منذ زمن طويل. وهي المحذورات التي قتلت حياة الأقنعة التي اللامعنى لها، وبدأت قدرية الحياة بالتحول إلى نوع من الإله من الأزل إلى الأبد.

إن التاريخ في الشرق الأوسط يمثل حلقات سلسلة تتصارع فيها جميع

القوى المطوّرة للحياة الاجتماعية مع القوى المضادة لها. وكأن هذه السلسلة قد انقطعت منذ أواسط القرون الوسطى، فكيف سيتم إضافة حلقة جديدة لأجل تصعيده؟ إننا سنخطو خطوة جديدة هامة عندما نرى الحضارة المتطورة في أوربا كمساعد لنا وليس منافس لنا، إن الحضارات لا تحارب بعضها البعض، بل يمكنها أن تقيم الصداقات، ولكن لابد مطلقاً أن نقوم بحراثة الأدمغة بالبلدوزرات ونفتح القلوب بجرأة ونعتق الحرية أمام كل شيء لندخل في عصر التنوير مرة أخرى باسم كل الإنسانية وبشكل يليق بالقيم الأصيلة المتوارثة.

الفصل الثالث

حضارة عصر الرأسمالية

إن المجتمعية " ظاهرة التحول إلى مجتمع" هي محصلة تراكم مجموعة قوى وتحولها إلى مصطلح في أعلى المستويات، لابد من تحليل هذا المصطلح. كيف يتجرأ الإنسان الذي يعتبر أضعف حيوان، على أن يصبح حاكماً لسائر قوى الطبيعة..؟ جواب هذا السؤال يكمن في المجتمعية، والسؤال الأهم هو: ما نوع الظاهرة التي تجعل المجتمع يقوّي الفرد الى هذا المستوى..؟ نجد في الطبيعة الكثير من المجموعات الحية منها أو الجامدة تتواجد في حيّز واحد. ولا يمكن الاستغراب من تواجد البشر على شكل مجموعات فيزيائية في حيّز واحد. لكن الشيء الذي يجب استغرابه هو: إن جميع المجموعات ـ عدا الإنسان ـ تخلق من ضمنها عناصراً يتميزون عنها بالقوة، ويكون كل واحد منهم على طبيعته، والتحول إلى مجموعات لا يخلق تمييزاً فيما بينها. فذرة الهيدروجين هي نفسها في كل مكان، والعشب في كل مكان يكون عشباً. والنمل هي هي، ونحن هنا لا نناقش الاختلافات الناجمة عن التطور الطبيعي، رغم أننا ندرك التفاوت الناجم عن الطبيعة بين أفراد المجموعات. ومهما تذكرنا هذه

الخصوصيات فإنه لا يصح تشبيهها بالمجتمع الإنساني، فالخصوصية المجتمعية بذاتها تتضمن اختلافاً نوعياً كبيراً، فهي قبل أي شيء آخر خلاّقة إلى أبعد الحدود، ونستطيع بكل سهولة أدراك عدم وجود إبداع متطور لدى أية مجموعة حية بدءاً من النمل ووصولاً إلى القرود، بينما المجتمع الإنساني فإنه يكتسب تطوراً طردياً في الخلاّقية والإبداع في كل زمان.

أما السؤال الثالث الهام فيتمحور حول أولوية الفرد والمجتمع، فإلى أي مدى تكون المجتمعية في صالح الفرد، ومتى تنقلب ضده..؟ وعلى العكس إلى أي مدى تكون الفردية في خدمة المجتمع وضرورية له، وأين وكم تلحق الضرر بالمجتمع..؟ من الضروري تحليل العلاقة بي الفرد والمجتمع بشكل صحيح، ولا يمكن إلا أن نحتار أمام جهل الإنسان بمسألة مصيرية وتزوده بمعلومات محدودة ومليئة بالنواقص، وهذه تعد مشكلة على صعيد الاستقلال الذاتي للإنسان أو انفصاله أو اتحاده مع المجتمع، فتلك هي قضية تتطلب التحليل.

عندما نقوم بتعريف المجتمع الرأسمالي كمصطلح رئيسي، فمن الأهمية بمكان أن نقوم بتوجيه هذه الأسئلة الثلاثة، ودون التوصل إلى الإجابات الصحيحة سيبقى تعريف الرأسمالية سطحياً، وبناءً عليه ستتضمن كل جهود الاصطلاح والتنظير سلسلة من النواقص والضيق. وانطلاقاً من هذه الحقيقة فإنه بمقدار تحليل المجتمعية والقوة الناجمة عنها، و بمقدار تحقيق استمرارية هذه القوة وإبداعاتها المتزايدة، وادراك ما يكسبه الفرد وما يخسره من المجتمعية بشكل صحيح ومؤثر، نستطيع التوصل إلى تعريف صحيح للفردية في المجتمع الرأسمالي.

لقد اتضحت عدم كفاية التحليلات الاشتراكية التي جرت كتيار معارض ويدعي العلمية إلى حد كبير حول الرأسمالية. فالهزائم التي عاشتها الاشتراكية لم تنجم عن عدم عدالتها، بل لأنها لم تكن علمية بما فيها الكفاية، وبقيت تحليلاتها بعيدة عن استيعاب المجتمع بشكل عام، وبشكل خاص ثنائية الفرد ـ المجتمع، ولم تتمكن من تحطيم تفوق المجتمع الرأسمالي على المجتمع الاشتراكي، ولا تفوق الفرد الرأسمالي على الفرد الاشتراكي، حيث لعب نقص الوعي الصحيح والتخلف القائم دوراً أساسياً في الوضع.

يتطلب تاريخ المجتمعية استيعاباً رهيباً للفرد، وعندما نقول رهيباً لا نقصد الممارسات القمعية الفظيعة فقط، بل جوانبها الإيجابية والجذابة والممارسات الصحيحة بشكل متداخل ببعضه البعض. وما يمكن ملاحظته في تكوين المجتمع هو تأهيل الفرد عن طريق الترغيب والترهيب لإعداده الفرد من أجل العضوية. وهذا نضال لا هوادة فيه، فإذا لم يتم تلبية متطلباته سيتم التعرض لخسائر كثيرة الجوانب وعلى رأسها الموت. والأصح أن العيش يصبح ممكناً

فقط بتلبية متطلبات العضوية في التجمع المعني، فإذا لم تجرِ تلبية ذلك حينها يصبح العيش مستحيلاً. ولا يستطيع الإنسان كأضعف حيوان أن ينقذ نفسه من الإبادة. إن فرخ أي طائر يستطيع أن يطير ويعيش خلال خمسة عشر يوماً، أما بالنسبة لصغير الإنسان، فلا تقل هذه الفترة عن عشر سنوات، وإذا ترك صغير الإنسان وحيداً سنراه أعجز في عقله عن ذلك الطير، وما ان يغدو عضواً في تجمع صغير للقبائل البدائية، يصبح قادراً على لعب دور الملكية على عالم الحيوان بمجمله. وبالنظر إلى هذا الوضع يمكن التعرف على مدى القوة الساحرة الخارقة التي يستمدها الإنسان من المجتمعية، و التي يجري التعبير عنها بمصطلحات الدين والإله في أشكال الفكر البدائي، أي ان ظهور الدين ومصطلحه الأساسي الإله، هي أول هوية اجتماعية للقوة المجتمعية الساحرة الخارقة، بل إن المجتمعية هي الألوهية بذاتها أو هي الانعكاس المادي لها، ولا يمكن الحديث عن انعكاس سلبي لهذا الموضوع، فالقوة التي ظهرت هي من المزايا التي تتميز بها الألوهية حقاً والتي تنم عن توفر الإمكانيات لكل أشكال الإبداع، فما الذي بقي ولم تخلقه المجتمعية..؟ قد يقال ان الإنسان لا يخلق من العدم، ولكن إذا عرفنا أنه لم يتأكد خلق شيء من العدم، عندها نستطيع فهم ألوهية الخلاّقية الاجتماعية بشكل أفضل.

وهذا يعني أنه بمقدار فهم القوة الكبيرة التي تمنحها المجتمعية، يتم تحميلها بشكل متزايد، وبذلك ينقذ نفسه من أن يكون من بين زواحف الطبيعة أو مخلوقا سلبياً فيها، أي كلما تطورت المجتمعية يتحول الإنسان إلى قوة حاكمة على كل الظواهر في الطبيعة، ولهذا نجد في المراحل البدائية للتاريخ مجتمعية متطرفة، تبدأ من شكل أدنى إلى شكل أعلى، وتتحقق القفزات من جزء إلى آخر باستمرار، ويتم التجاوب بتكوين الأشكال الاجتماعية اللازمة حسب المتطلبات وتجاوز العقبات والمشاكل التي تظهر. فرغم حدوث بعض الانقطاع والانقسام والإبادة، إلا أنها لم تكن بالقوة التي تستطيع إيقاف التوجهات واستمرار التعاظم والحصول على المزيد من القوة.

الميول كانت تتجه نحو الحصول وباستمرار على المزيد من القوة، وربما كان من متطلبات التطور الاجتماعي أن يبقى القديم الذي فقد مفعوله على شكل أنقاض أمام الجديد، فالقاعدة الأساسية هي صهر الفرد ضمن المجتمعية، ومع تقوية ظاهرة المجتمع فإن الأعراف المجتمعية تبقى هي السائدة دائماً رغم تناقضات وعلاقات الفرد مع المجتمع، والعرف هو بمثابة القانون للمجتمع، ومع تحول الأعراف إلى تقاليد متصلبة، ستتحول الى موقف مضاد من طاقة ومبادرة الفرد، وبعد مرحلة أخرى يغدو السبيل الوحيد الذي كان يضمن الأمن والحياة للفرد، أي المجتمع وأعرافه، قوة مقيدة تكبل ذلك الفرد.

لكن القواعد الرسمية للدولة جاءت متفوقة على الأعراف في المجتمع الطبقي، فهي تمارس العنف عند الضرورة لضمان الالتزام بها، وارتباط الفرد يتحول إلى شكل من الأسر و العبودية، و لا يعود الارتباط محصوراً في ظروف الإنتاج المادي للمجتمع فقط، بل سيهيمن على العالم الذهني والحسي للأفراد أيضاً، وسيتم مطلقاً قبول الظروف الإيديولوجية والمادية في جميع قطاعات المجتمع بشكل مقدس كانعكاس للنظام الإلهي، وكلما ازدادت إمكانيات الاستغلال الطبقي، ستترسخ علاقات التبعية بالضغوطات المادية والتعذيب من جهة، وبالترهيب المعنوي والميثولوجيات التبشيرية من جهة أخرى. وسيتطور حب الخلاص لدى الفرد وستبدأ مرحلة الهروب نتيجة وصول الثقل الاجتماعي إلى حالة انعدام التوازن، وسيتسارع الانحلال في المجتمع الذي يحاول فرض التبعية والعبودية عن طريق تجمعات جديدة مختلفة. إن الإنسان الذي كان يتحدث عن ألام واهنة في البداية تزداد شكواه، ويتجه نحو التمرد مع مرور الزمن، ويبدأ بالبحث عن إمكانيات المقاومة ضد قوى النظام الرسمي، ويقوم في هذه المرحلة بالبحث عن إله جديد ووحدات مجتمعية في هذه المرحلة بترسيخ الفروقات في الأذهان.

يكون المجتمع المعارض أقرب إلى الفرد، ومرحلة الحرية بإحدى معانيها هي التحرك المجتمعي الجديد، وهو البحث عن هوية إيديولوجية ونظام. فإذا استطاعت الإيديولوجيا والمجتمع الجديدين الاستمرار رغم النظام الذي تعارضه بتجربتها، واستطاعت إثبات إنتاجيتهما تخلقان حينها إمكانية الحلول محل النظام القديم، وسيبرز هذا التيار الذي تطور ضد النظام العبودي سواء كان من قبل الأديان التوحيدية أو على شكل طرق شبه فلسفية دينية، كتيار منقذ كما رأيناه في مثال عيسى المسيح. لقد استيقظ وجدان وذهن الفرد بعد المرحلة الطويلة للمجتمعية، فالتخلص من قيود الأعراف المجتمعية التي استمرت مئات الآلاف من السنين هو اعتراف بتوجه ظاهرة المجتمعية نحو التطرف، ولم يتوقف هذا التيار عند خلقه لنظام المجتمع الإقطاعي، وكان عشق الله والعشق الكلاسيكي في القرون الوسطى، يعبر عن هروب الفرد من المجتمعية المتطرفة وبحثه عن الحرية، ويؤكد البحث الكبير عن العشق، مدى العيش كمحكومين، بالهروب من المجتمع واللجوء إلى الله، على انتظار الخلاص عن طريق عشق الفرد، وسيستمر في هذا البحث الطرائق والفلسفة كجزء من هذه المرحلة، ولا يمكن لجم الفرد المتمرد بسهولة، وإن كانت الوسائل محدودة الأهداف خاطئة.

وعندما ننظر إلى الفردية التي تعتبر إحدى العوامل الأساسية التي خلقت الرأسمالية بهذا المفهوم، سنفهم مدى امتلاك الليبرالية البرجوازية لجذور تاريخية واجتماعية قوية، ونستطيع فهم أسباب عدم تفوق مجتمعية الاشتراكية العلمية أيضاً رغم عدالتها، وستبقى الليبرالية الفردية متفوقة على الاشتراكية

طالما واصل المجتمع وجوده كنواة فولاذية، وعندما يتحقق تفتيت نواة المجتمع القديم، ستظهر الظروف التي تتيح إمكانية بناء توازن مثالي في علاقات المجتمع مع الفرد.

نتحدث هنا عن الاتجاهات التاريخية التي خلقت الرأسمالية على مستوى التعريف، ولا شك أن تيار الفردية يأتي على رأس تلك الميول، ويعود سبب استمرار آثاره قوية لمئات الآلاف من السنين، الى المجتمعية المتطرفة التي تم فيها صهر الفرد تقريباً، أما المجتمع فقد كان شبيهاً بنواة ذرة كبيرة ابتلعت الكتروناتها المحيطة بها، وتضخمت وتورمت وباتت نواة ذرة قابلة للانشطار، والفردية تلعب دور الجزيئة التي تقوم بإحداث الانشطار للنواة المنتفخة، وهكذا تشبه الفردية الجزيء الذي يدخل إلى النظام القائم ليتسبب في تفاعلات متسلسلة، وتلعب الفردية دور ذلك الجزيء الذي يسبب انشطار المجتمع القديم المهترئ والمتضخم، وتستمد الرأسمالية قوتها من هذا الانفجار المتولد، وبذلك يفتح الباب أمام نتائج تاريخية عظيمة.

إن الرأسمالية تستمد قوتها وطاقتها أساساً من صراع المجتمع الذي تعاظم وكبر على مدى مئات الآلاف من السنين، مع الفرد الذي تسبب في انشطار المجتمع. وهنا يكمن سر هذه الخلاّقية. ويمكن أن نفهم بإضطراد أن الاشتراكية العلمية كانت ضيقة التفكير حيال هذا الموضوع، وبخلقها لمجتمع يشبه المجتمع القديم كثيراً، لا بل أكثر منه صرامة غدت تتناقض مع ميول الحرية التي ادعتها بشدة.

إن تعريف ولادة المجتمع الرأسمالي والميول الفردية حسب الزمان والمكان يكتسب أهمية أكبر. فمثلما لا يمكن التفكير في مادة ما دون بعدي الزمان والمكان، والمجتمع أيضاً كظاهرة مادية يرتبط بقوة بعاملي الزمان والمكان، فأي تكوين اجتماعي لم ينته زمنه لا يمكن أن يزول. ولا يزول إلا بالوصول إلى تكوين المجتمع الذي سيخلفه، وعندها يكون قد حقق إمكانية التخطي اللازم، ودون تأمين ذلك لا يمكن تحقيق التحول، وحينها تولد ظروف الانصهار أو التشتت مما يعني نهاية حياته، أما إذا كانت مقاومته ناجحة فإنه سيستمر وسيدخل مرحلة التطور الطبيعي. لكن إذا فشل في ذلك سيخرج من كونه يمثل ذاته، والزمن الطبيعي للمجتمع يبقى مستمراً ما دامت التشكلات الطبيعية تتعاقب فيه، وبالنتيجة نرى أن المجتمع الناجح هو الذي يستطيع الوصول إلى روح الزمن، ويقوم بتحقيق متطلباته، وبناءً عليه فلا يمكن أن يتحقق القفز في تكوين المجتمعات من القبلية البدائية إلى الرأسمالية مطلقاً، فحتى لو تكاملت بعض القبائل البدائية مع الرأسمالية، فذلك لا يعني تخطي الأنظمة العبودية والإقطاعية الباقية في الوسط، بل على العكس تماماً، لأن هذه الأنظمة

قد ملأت روح زمانها بشكل كامل وتركت مكانها للرأسمالية، فالأشكال القديمة ستستوعب من قبل الحديثة، ولا تستطيع الأنظمة القديمة حينها أن تتبع التسلسل الطبيعي المطلوب، وهنا يكمن الفرق بين التكوين والاستوعاب. ولا يستطيع أي تشكل مجتمعي الوصول إلى النضوج اللازم بهويته ما لم يعش روح زمانه. وفي هذه الحالة لا يمكن أن يتشكّل المجتمع الرأسمالي إلا نتيجة للتكوينات المجتمعية التي تعاقبت بالتسلسل، ليتحقق المجتمع الرأسمالي كحلقة نهائية لهذا التشكل، أينما عاشت وإلى متى استمرت الحلقات السابقة فالنتيجة تكون أن الرأسمالية هي الحلقة الأخيرة، حيث يستحيل التهرب من عامل الزمن كما أكدنا سابقاً، ومثلما لا توجد مادة بدون زمن، لا يمكن للأنظمة أيضاً أن تتشكل بدون زمن، ولا يمكن ضمها وإضافتها إلى بعضها.

يكتسب تقييمنا هذا أهمية كبيرة من زاوية أنه يتم تقديم الرأسمالية الأوروبية إلى الإنسانية كنمط اجتماعي ظهر في القارة الأوروبية مثلما ينبت الفطر من تلقاء ذاته، إذ تقوم الهيمنة الإيديولوجية الإمبريالية بمغالطة وتحريف علمي كبير في هذه النقطة بالذات، وتجري محاولة فرض أوروبا كنظام لا مثيل له ولا يمكن الوصول إليه، وليس مداناً لأحد وسيبقى مستمراً إلى الأبد، وكل المجتمعات التي تميزت بالشخصية الإمبريالية تبنت مواقف مشابهة دائماً عبر التاريخ، وكأن كل شيء يبدأ بها، وتجعل نفسها المركز الأساسي لكل شيء، وما الآخرون فما هم بنظرهم إلا إضافات أو امتدادات بسيطة لها بنظرها، هذه الرؤية تجعل التاريخ المجتمعي مبهماً، فرغم كل الطموحات العلمية فان وعي المجتمع لا يعتمد على مفهوم صحيح للتاريخ في يومنا هذا، وهذا يعني عدم تطور علم المجتمع بشكل صحيح، وككل ظواهر الطبيعة فلا ظاهرة بدون زمان، كلها تحمل آثار تاريخ الطبيعة، ويمكن الاستدلال على مدى وكيفية تكوينها بالتاريخ أي بالزمن، فلكل ظاهرة زمانها، ابتداءً من انفجار مجرة سماوية وصولاً إلى ولادة صوص دجاج من البيضة، ونظراً لأن المجتمعية هي ظاهرة مادية فهي مرتبطة بتكوين زمني، ولا بد من وجود تاريخ مجتمعي جاد حول: مكان تشكلها والمدة التي استغرقتها وما هي خصائص تكوينها، وأولوياتها ونتائجها، فعندما يتم طرح كل ذلك بشكل صحيح حينها يمكننا التحدث عن علم مجتمعي صحيح، وبناءً عليه يمكن الادعاء بأنه قد اكتسب الحق في أن يكون علماً مجتمعياً.

ويمكن تطوير تقييم مشابه بصدد البعد المكاني للمجتمعية، فالتشكل الاجتماعي يرتبط بالظروف المكانية إلى درجة وثيقة، وقبل كل شيء فإن الظروف الفيزيائية العامة التي يمكن أن يستند إليها النوع البشري هي الأساس، وإذا لم يتمكن الإنسان من العيش في القطب المتجمد أو الصحراء، فلا يمكن قط تكوين أشكال مجتمعية هناك، والأهم من ذلك، تستطيع التشكيلات المجتمعية

الأولية التطور في المكان الذي تتوفر فيه ظروف الصيد والتجميع، ولا يمكن أن يتكون أي تشكل مجتمعي في المكان الذي لا يتوفر فيه ذلك، فالتشكل المجتمعي الأرقى كالمجتمع النيوليثي ظهر في الأماكن التي تتطور فيها النباتات المناسبة للزراعة بشكل طبيعي، وترويض الحيوانات، و بنفس الوقت يتطلب هنا وجود مجتمعات تعيش على الصيد، وتجمع النباتات كشرط أولي لذلك. أما الحقيقة الأخرى فإن كل هذه الظروف الأولية لا تتوفر إلا في أماكن محددة، فبدون تحقيق المرحلة النيوليثية التي تشكل حلقة كبيرة لا يمكن بدونها العبور إلى شكل المجتمع الطبقي، و يظهر التاريخ أن المجتمع القروي الذي تحقق في أودية دجلة والفرات والقوس الداخلي لطوروس وزاغروس، شكّل خطوة متطورة نحو ثورة المدن التي ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً، لكن الحوض الأسفل لدجلة والفرات كان يمتلك إمكانات الري بالإضافة إلى بنية تربتها الخصبة، فكان المكان مناسب لثورة المدن، والتي تحققت هناك أولاً، فقد بدأت علاقات السلسلة الاجتماعية تدخل شكلاً أكثر تقارباً، حيث يتم العبور إلى تكوين المجتمع العبودي الطبقي بدلاً من المجتمع النيوليثي وسط ترابط ديالكتيكي للتكوين الجديد الذي يشكّل أحد الحلقات الأساسية أيضاً، فهذا التشكّل الجديد يتعايش مع ذاته وفي البعد المكاني على أوسع نطاق حتى يتعرض بتناقضاته الداخلية في نفس المكان إلى شكل اجتماعي جديد انطلاقاً من الخصوصيات التي طبعت تلك المرحلة بطابعها.

يجب التفريق بين الرئيسي والثانوي في أية ظاهرة مجتمعية، ويجب أن نعلم أن المركز الطليعي وأطرافه يشكلان تطوراً ضمن التكامل الديالكتيكي، ويجب استيعاب هذه الحقيقة التي تشكل قاعدة عامة في التشكلات الاجتماعية، وبدون ملاحظة أبعاد الزمان والمكان لا يمكن فهم هذه الحقيقة، فعلى الرغم من أن هذه هي الحقيقة، فإن قوة بعض المجتمعات على إظهار هويتها الإيديولوجية ـالتي هي خصوصية عامة ـ على أنها أصيلة ومختلفة هي من الأسباب الرئيسية التي تعرقل السرد التاريخي بشكل صحيح، وبذلك تصبح المركزية الذاتية هدفاً للحرب الإيديولوجية، مما يدفعها إلى تضخيم نفسها وتنكر ما هو خارج عنها وتعتبر ذلك تفوقاً، وتعتقد أنها تحقق النجاح بمقدار ما تستطيع تحريف الحقائق، وقد استخدمت التشكيلات الاجتماعية منذ العصور الأولى وحتى يومنا هذا، هذه الوسيلة لأجل إعاشة نفسها، ففي الطوطمية، وترى كل مجموعة بأن الصنم الذي تعبده هو الأثمن والأغلى، ورغم أنها تلعب نفس الدور جوهرياً فان ذلك وصل إلى خطوة متقدمة مع الميثولوجيا، لأنها بذلك تستطيع ان تكتسب صلاحيات تمثل الآلهة التي تجلس في السموات، ونظراً لأن المدن هي مراكز اجتماعية مهمة ستظهر فيها الإله الحامي القوي للمدينة، ولتتحقق المركزية في النظام لابد من توحيد كثير من المدن، مما يدعو إلى ولادة مركزية بين الآلهة أيضاً، وبذلك يمكن الوصول إلى إمبراطورية كونية وهذا ما يهيأ الأرضية سياسياً للإله

الواحد، أي ملك واحد على الأرض وإله واحد في السماء، وهذه الفكرة تبدأ باحتلال مكانها في الأذهان، ولما كان التطور على هذا النحو فإن المقاومات تبدأ داخل المجتمع الطبقي وخارجه لمناهضة هذا التوجه رغبة للاستمرار في تطوير تقاليدها ورموزها الخاصة بها ضمن علاقة الفعل ورد الفعل، وتستمر تطورات مشابهة في علاقات الإنتاج المادية، والتاريخ الإنساني بكل هذه الجوانب يشبه نهراً كبيراً تتوحد فيه كل الروافد ليستمر في تدفقه، والتاريخ يشبه قوة التدفق هذه في النهر، له مكان وزمان، وسيرغم على التجديد الذي يتناسب مع تدفقه من حيث الأرضية المناسبة والزمان المناسب والساحة المناسبة واللحظة المناسبة ليبقى مستمراً.

مثلماً لا يمكن للتيار ان يجري باتجاه قمة الجبل، فلا مفر من جريانه في الاتجاه المناسب له، بعد اكتساب قوة دفع، وهذا قانون فيزيائي، وفي البنى الاجتماعية أيضاً هناك نفس القانون ولكن وفق خصوصياتها. إن التاريخ الاجتماعي عضوية حية تمتلك القدرة على مواصلة طريقها كنهر عبر توحيد كل الروافد التي يمكنها التزود بها، وهي ظاهرة لها ذاكرة وأحلام وعقل وإرادة، والقضية هي تحديد المكان والزمان والمسافة التي تقطعها الروافد الأساسية للجريان وقوتها، والوصول إلى الوعي التاريخي الصحيح. ما نحاول القيام به هنا هو التأكيد على أن المفاهيم التي يتم فرضها على الإنسانية على أنها تاريخ صحيح ما هي إلا قسر إيديولوجي كبير يتناسى الشعوب والكادحين الذين قاموا بالمشاركة في خلق هذه القيم، وهو ما يؤثر على التاريخ سلباً، وبهذا المعنى نؤكد على أنه لا يمكن أن يكون تاريخاً صحيحاً، لذا فإن كتابة التاريخ تشكل أهم قضية علمية جادة في يومنا.

تظهر المراكز الإيديولوجية الطليعية للمجتمع الرأسمالي صاحبة الدور الأكبر في تطور العلوم، أهمية كبرى من أجل الإقناع بالتحريفات التي تنسينا البحث في تحريفات الماضي عند صياغة التاريخ. وكأن العصر النيوليثي الذي كان مركزه الهلال الخصيب والذي لعب دوراً طليعياً استمر عشرة آلاف سنة لم يقدم شيئاً للإنسانية، ولم يلعب دوراً في التاريخ الأوروبي والتطور المجتمعي الأوروبي، رغم أننا نعلم تماماً أنه ما كان بالإمكان الحديث عن الإنسانية وتطورها لولا وجود مبدعين في العصر النيوليثي، هؤلاء هم الذين أنشؤوا القرى السكنية وهم أول من طوروا الزراعة وتربية الماشية، ونشروها في جميع أنحاء العالم، فتطور المجتمع النيوليثي هو الذي مهد السبيل امام ظهور المجتمع الطبقي وكل حضارة العصر العبودي التي بدأت مع السومريين. ولا يمكن كتابة التاريخ دون اخذ ذلك بعين الاعتبار، فالأنشطة الخلاقة لهذه المرحلة و التي استمرت آلاف السنين تمتلك حصة أساسية في تكوين الخريطة الوراثية للإنسانية.

الحضارة الإغريقية الرومانية التي تمثل أساس الحضارة الأوروبية، وتمثل مرحلة الذروة للحضارة السومرية والمصرية، ومن هنا يتضح أن جميع التطورات التاريخية تؤكد أنه لا يمكن أن تتشكل هذه الحضارة بمفردها، فجميع الوسائل الحضارية الأساسية ابتداءً من المحراث إلى العجلات، ومن الكتابة إلى الرياضيات ومن الحديد إلى النحاس، ومن الزجاج إلى النسيج ومن الطاحونة اليدوية إلى طاحونة الماء، ومن أنواع النباتات الأساسية إلى استئناس الحيوانات، ومن العمارة إلى النحت ومن الشعر إلى الموسيقى ومن الميثولوجيا إلى الأديان التوحيدية، قد تم خلقها استناداً إلى الثورة النيوليثية للهلال الخصيب وللمصريين والسومريين، وتم استيعابها ونقلها بالطرق التي أثبتها التاريخ. و هذا النقل لم يتم فقط بوصول النظام النيوليثي إلى أوروبا في الألفية الخامسة قبل الميلاد، بل استمر نقلها حتى أعوام 1500 م، ولأخر مرة عن طريق قيم الحضارة الإسلامية، ويدخل في إطار هذا النقل الأشكال الذاتية للمجتمع حتى القيم الثقافية للبنية الفوقية والتحتية، حيث ان أوروبا لم تكن قد تخلصت من نمط حياة المجتمعات المتوحشة عندما تم نقل تلك القيم إليها.

إن هذا الشرح المقتضب يثبت أن أموراً عديدة استندت إليها الحضارة الأوربية ابتداءً من وسائل الإنتاج، وحتى أشكال الذهنية الأساسية وقيمها المعنوية و معتقداتها، قد تم تكوينها في ظروف مكانية وزمانية مختلفة. فالأبعاد المكانية والزمانية للحضارة هي قوة كبيرة لنقل القيم المتراكمة كالحبل الفولاذي الذي لا ينقطع ويمتلك خاصة التجديد في داخله، وإذا عبرنا عن ذلك بلغة ميثولوجية فإنها قوة إلهية.

إن التحديد الصحيح للقيم الحضارية السابقة التي أعدت ظروف خلق الحضارة الرأسمالية، منهج صحيح ليس فقط من زاوية علوم التاريخ الصحيحة، بل من زاوية حساب ما رفد نهر الحضارة الأوروبية من قيم ومعرفة، وسيكون تطوير تحليلاتنا ضمن هذا النهج مفيداً وذا قيمة تعليمية.

أ ـ ميلاد الحضارة الرأسمالية وهويتها الإيديولوجية

إن الخصائص الأساسية التي تحدد نوعية الأنظمة الاجتماعية، هي ظروف الإنتاج المادي وعلاقات الملكية المستندة إليها، وهناك إجماع عام حول هذا التعريف، وتجري تسمية النمط الاجتماعي وفقاً للعوامل التي تقوم بالمساهمة أكثر من غيرها في الإنتاج، ولأن الأدوات المصنوعة من الحجر قد لعبت دوراً كبيراً في الأنظمة المشاعية البدائية، فقد تم تسمية هذا العصر بـ العصر الحجري القديم والجديد " باليوليتك ـ نيوليتيك"، وكون الإنسان الرقيق موضوع الملكية

بكل شخصيته قد قام بالدور الأساسي في الإنتاج في عصر المجتمع الطبقي، فقد تم تسمية هذه الأنظمة بالمجتمع العبودي، حيث كان العبد أكثر أدوات الإنتاج إنتاجية، وكانت وسائل الإنتاج الأخرى تلعب معه أفضل دور إنتاجي، أما في العصور الوسطى فإن الأداة التي ارتقت إنتاجيتها كانت الأرض خصوصاً بعد فتح الأراضي للإنتاج بنسبة أكبر، وانتشار المحراث الحديدي، وتحديد علاقات ملكية العبيد فقد لعبت الأرض دوراً اكبر في عملية الإنتاج وحدد شكل المجتمع الإقطاعي. اما ما لعب دوراً في تحديد نوعية وشكل المجتمع الرأسمالي فهو الإنتاج الصناعي الذي حقق تفوقاً في مجال الإنتاج المادي، وأصبحت قوة الإنسان والأرض في الدرجة الثانية من حيث نوع الإنتاج، وتمت تسمية المجتمع الذي تكون حول الإنتاج الغزير والمتواصل للمصنع الذي أثبت تفوق قدرته على الأرض والمهن اليدوية بالمجتمع الرأسمالي.

إن المصنع هو الشكل الأكثر تركيزاً لرأس المال، ومن المعروف إن "رأس المال" قد تطور في البداية بشكل وثيق مع التجارة، وشكل ذلك التراكم البدائي لرأس المال، حيث تمتد جذوره إلى السومريين، ويتحقق إنتاج المصنع بدخول نمط الإنتاج المعتمد على اليد العاملة للرأسمال التجاري البدائي إلى الإنتاج المستند إلى تقنية المكننة، أو بمعنى آخر التحول من المانيفكتورة إلى المصنع، وقد أدى هذا التحول إلى فائض إنتاج لم يشهد له مثيل في نمط الإنتاج، ورغم أن هذا هو تعريفنا للمجتمع الرأسمالي، إلا أنه يتضمن أخطاء جدية، ستؤدي إلى أغلاط كبيرة إذا لم يجر تصحيحها.

إن المواقف المادية الفظة هي إحدى الأسباب الأساسية لانهيار الاشتراكية المشيدة، ويجعل هذا التعريف الذي نحاول تقديمه للرأسمالية بل ولكل المجتمعات ضيقاً ومتخلفاً، ويصغر ويبسط دور الأيديولوجيات والمعنويات ومفهوم التاريخ، وتعريف الدولة يجعله هامشياً، ولا يمكن أن نأمل من موقف يتضمن نقصاً كبيراً حتى على مستوى التعريف نمطاً مجتمعياً بديلاً. ولا يذهب هذا الموقف إلى أبعد من الممارسات المشاعية الضيقة التي تكثر مثيلاتها في التاريخ، ويتم تسمية ذلك بالمذاهب والطرق الصوفية التي تفتقر إلى الخصائص التي تؤهلها لتجاوز النظام حتى ولو تقدمت بمواقف إيديولوجية مختلفة، وحتى لو تم تسميتها بالمجموعات اليسارية أو اليمينية، ، فلا يمكن لمعظمها التخلص من الانحلال في إطار النظام الحاكم، وتكون المدافع السيئ عنه غالباً.

ولذلك يصبح من الضروري تقديم توضيح أشمل حول ولادة الرأسمالية، وما يجب القيام به أولاً هو تجاوز تعريفات المجتمع الرأسمالي التي قدمتها التيارات اليسارية واليمينية التي تأكد فشلها مراراً، ومن الطبيعي أن لا تظهر مفاهيم تاريخية سليمة ومتطورة لدى الذين لا يستطيعون تقييم المجتمع

الرأسمالي بشكل شامل، إن أشكال المجتمع البديل التي تطرحها تلك القيادات لا تتجاوز عن كونها خيالاً وأوهاماً، ومن الأهمية بمكان أدراك أن الضغط المفرط يكمن وراء تطور المأساة والكوميديا. إن المأساة والكوميديا هما أقدم تعبير فني للولادة والموت المبكر، وينبع ذلك جوهرياً من الممارسات القسرية والمفاهيم القاصرة.

إن النضال المشحون بالأخطاء ضد الرأسمالية، والذي انتهى إلى فشل ذريع، هو إحدى النتائج السيئة للتعريفات الناقصة للمجتمع الرأسمالي، وهذا الوضع يجعل الرأسمالية أكثر تطرفاً، ويؤدي إلى خسائر ومآسي كبيرة في صفوف معارضيها، ويؤدي إلى عدم تعريف ظاهرة المجتمع بشكل عام إلى الميثولوجيا ومفاهيم فلسفية ودينية غير ناضجة، وعندها لا مفر من حياة مأساوية ساخرة للإنسان، ولهذه الحقيقة روابط وثيقة مع الحروب العالمية الكبيرة المستندة إلى نظام المجتمع الرأسمالي. إن قلة المعرفة والعلم تولدان الجهل، والجهل يولد الصراع الأعمى في كل زمان ومكان، لذا فإن محاولة تجاوز الجهل والتخلص منه يكمن في الجهد ومن خلاله الوصول إلى جذور المعرفة، ويمكن القيام بكل عمل بشكل صحيح بمقدار ما يتم تجاوز الجهل، ويمكن إخراج الموت من كونه مصدراً للآلام عن طريق الكفاءة العلمية، وإن مستوى المعلومات والمعرفة غير الكافي والخاطئ يشكل مصدراً للمخاوف والحركات السلبية والصراعات التي تستند إليها.

إن تعريف المجتمع الرأسمالي بشكل أفضل يمكن أن يكون كاملاً إذ شمل هويته الإيديولوجية، فيجب الا نتغاضى أبداً عن أن ولادة وتسيير الأنظمة المجتمعية تستند أولاً إلى الذهن والإرادة، وبدون وضوح الهوية الإيديولوجية والسيطرة على الإرادة مهما كانت ظروف الإنتاج مهيأة ومناسبة لا يمكن للمجتمع أن يتطور ويسير، ولا تتعدى ظروف الإنتاج إلا عن كونها وسائل جامدة، ومحاولة إيضاح ولادة الأنظمة وحتى التجمعات الصغيرة بمعزل عن التمييز الذهني والإرادي الذي يوجهها هو السبب الأساسي وراء عدم قيام علم الاجتماع بدوره، ان النقص الأساسي لعلم الاجتماع هو عدم توضيح وتقييم دور الهوية الأيديولوجية بشكل صحيح، وعلى المعنيين بعلم الاجتماع أن يشعروا بالمسؤولية المقدسة الملقاة على عاتقهم بما يوازي مسؤولية المهتمين بالدين على الأقل.

الانشغال بالمجتمع لا يشبه قط الانشغال الفيزيائي، فتجربة خاطئة أو اختراع خارج السيطرة قد يؤدي إلى أكبر فاجعة، والقنبلة النووية مثال بارز على ذلك، إن الساحة المجتمعية برمتها هي كالمعبد المقدس، ويتطلب فهم كل علاقة ومؤسسة فيها، بنفس الحساسية وبنفس الموقف وبمنتهى المهارة

والمسؤولية كالطبيب على الأقل، ونظراً لأنه لم يتم القيام بذلك، فإننا نشهد مأساة المجتمع، حيث وصل إلى جميع أشكال الهستيريا والتعذيب الرهيب وحتى الحروب، وهذا ما يزيد من أهمية تقديم نقد ذاتي حيال العلوم الاجتماعية يوم بعد يوم.

إن المواقف العلمية حول المجتمع، تظهر الحاجة إلى شخصيات علمية تدرك كيفية قيامها بمسؤولياتها، وتشعر بقدسية العمل الذي تقوم به بمقدار عمل الأنبياء على الأقل، وهذا هو أهم درس يمكن استنباطه من التعريفات الناقصة للماركسية. والمشكلة الهامة الأخرى المتعلقة بتشكل المجتمع الرأسمالي هي: لماذا لم يتطور مركز الحضارة في الشرق الأوسط وتطور في أوروبا على سواحل الأطلسي..؟ ينبع عدم تطور المجتمع الرأسمالي في الشرق الأوسط من حقيقة استنفاذ الإرث الإيديولوجي والسياسي للحضارة لجميع مضامينه مع الإسلام، حيث يشكل الإسلام نقطة الذروة في تدين الميثولوجيا منذ السومريين، ووصول السلطة السياسية إلى ذروة التطور. لقد استخدم الإسلام كل ما كان موجوداً في جعبة الحضارة حتى النهاية، ولم يبق سوى القشور والبذور الجافة التي نثرها هنا وهناك، فمن المعروف أن الإسلام والشرق الأوسط كان متفوقاً على المسيحية وأوروبا حتى أواسط القرون الوسطى من ناحية السلطة السياسية والعلم والفلسفة والمجال الديني، وكما كان الانهيار الداخلي هو السبب الرئيسي لسقوط الإمبراطورية الرومانية، فيمكننا أن نتحدث عن نفس الحقيقة بالنسبة للإسلام، ومثلما لم تكن عدة هجمات من البربر هي سبب سقوط روما، فإن عدة ضربات من قبل المغول لا يمكن أن تكون سبباً لانهيار الإمبراطورية الإسلامية أيضاً، فالاهتراء على صعيد الجوهر واستنفاذ القيم التي تطيل حياته، ارتباطاً مع ذلك فإن القشرة المكونة من المؤسسات السياسية تبقى سنوات طويلة تتصلب دون أن تتفسخ، وهو ما سيحدد قدرة الشرق الأوسط الحضاري ومصيره.

النظام الذي يعيش حالة تجذر في مكان ما لا يترك مكانه بسهولة لغيره، لأن الثمار الجديدة والمتطورة تنمو دائماً في الأراضي البكر، وليس في الأراضي التي تُزرع باستمرار. كل المؤشرات تدل على أن حضارة الشرق الأوسط قد أنهت نفسها بعد تعب كبير في أواسط القرون الوسطى، ويمكن ان نفهم الآن أكثر بأن انطلاقة الإسلام كانت صعبة، إذ تطورت بقوة الدماء الطازجة لقبائل الصحراء التي انفتحت على الحضارة الجديدة، فإعلان محمد نفسه كآخر نبي، يرتبط بنفاذ قوى المجتمع، وهذا يساعدنا على فهم أفضل للمسألة. ويعتبر الإسلام آخر زئير للأسد في الشرق الأوسط، وآخر عملية تنفيذية للإرث الحضاري الذي يمتد لآلاف السنين، وكأنه يقول "هذا كل ما أستطيع تقديمه"، لقد أظهر هذا الصوت مدى قصر عمره منذ ولادته من خلال الخيانة الأموية، لكن الجيل الأخير للإرث الحضاري الكبير لم يقف عاجزاً عن نقل تأثيره إلى

الآلاف، أما من تبقى فهم من أكلة الإرث والحثالة الذين هدروا الميراث دون أن يعرفوا قيمته ودون أن يستطيعوا الاستفادة من الجوهر الإيديولوجي والإمكانيات المادية، انهم مخلوقات على شكل إنسان ولكنها أكثر تخلفاً من الحيوانات، ويشبهون الحمار الذي ينهق على الأطلال ويعتبرون ذلك طرازاً من الحياة، كيف يمكن للشرق الأوسط أن يحتضن حضارة جديدة إذا كانت مرحلة انهيار العصور الوسطى فيه بهذا الشكل..؟ هل يمكن لأم أصبح عمرها سبعين سنة أن تلد مولوداً جديداً..؟

تتولد الأنظمة المجتمعية الكبيرة في الساحات العذراء على أرضية الأنظمة القديمة، وكانت مكة الموجودة في زاوية بعيدة وسط صحراء شبه الجزيرة العربية آخر الأراضي العذراء في الشرق الأوسط، ولم تبق مناطق عذراء في الشرق الأوسط لتتم فيها ولادة حضارية بعد ولادة الإسلام، لقد انتشر الإسلام في مناطق البحر المتوسط وحتى المحيط الهادي وفي عمق أفريقيا وحتى سيبيريا، كما وصل إلى الجذر الإندونيسية، ولم يكن قد تم بعد اكتشاف القارة الأمريكية وأستراليا، وكانت كل المؤشرات تشير إلى أن الأرض العذراء للحضارة الجديدة هي أوربا.

قبل كل شيء فإن أوروبا قد تغذت من قيم الحضارة النيوليثية منذ الألفية الخامسة قبل الميلاد وتعرفت على الحضارة منذ عام 2500 ق.م، وكانت سواحل البحر المتوسط مهداً للحضارة الإغريقية الرومانية والتي شكلت جنين الحضارة الحديثة، كانت الحضارة الإغريقية الرومانية هي المولود البكر للحضارة الأوروبية والأخير لحضارة الشرق الأوسط، أو يمكننا تشبيهها بالمولود الأخير لزواج ملك الشرق الأوسط المسن من الفتاة الأوروبية الشابة، والمسيحية كقوة شرق أوسطية أعدت وأهلت أوروبا وأخرجتها من البربرية وأوصلتها إلى كفاءات من أجل الولادة الجديدة بعد جهود كبيرة، ولم يبق أي سبب يمنع ولادة أوروبا الجديدة بعد اقتباس المعرفة والعلم والفلسفة اللازمة من الإسلام، إن الفتاة المدللة التي أسمها أوروبا " سميت أوروبا باسم ابنة الملك الفينيقي أغونور، وتخبرنا الميثولوجيا الإغريقية بأنها كانت فتاة بريئة وساذجة" قد جاءت من هذه الجذور كمقارنة مع قصة ولادتها، فالقصص الميثولوجية لها قيمة كبيرة كخطوة أولى للحقيقة، تستوجب الاهتمام.

فلنحاول الآن شرح خصائص الهوية الإيديولوجية الأوروبية التي أدت إلى ولادة الحضارة الأوربية بعد أيديولوجية موقع هذه الحضارة ودورها بشكل عام في التطورات التاريخية والاجتماعية.

1 ـ تأتي البنية الذهنية المستندة إلى معلومات علمية للنمط الفكري على رأس الخصائص الأساسية المميزة في خلق الحضارة الرأسمالية، حيث بدأ

بتجاوز البنية الذهنية الميثولوجية للعصور الأولى، والبنية الفكرية الدينية التي كانت مسيطرة في القرون الوسطى، مع العصر الرأسمالي. وأكتسب نمط التفكير العلمي، الذي مهد له التفكير الفلسفي للعصور الأولى والوسطى ثقلاً في هذه المرحلة، وجوهر هذا النمط الفكري يعتمد على شرح علاقات الطبيعة والمجتمع من خلال قوانينه الداخلية دون الاعتماد على الخارج. أما الفرق بينه و بين الفلسفة فهو: انه في الوقت الذي تحاول فيه الفلسفة شرح الكائنات بمصطلحات ومفاهيم عامة، في حين يعتمد العلم على نمط شرح مفصل وتجريبي بشكل أكبر، ومن خلال ظواهر محددة.

هناك روابط ديالكيتكية بين تطور أنماط فكرهما رغم وجود خصائص متضادة بينهما، وتعتقد البنية الذهنية الروحانية "**Animizm**" بوجود روح لجميع المخلوقات الطبيعية، ولا يوجد أي تمييز بين المخلوقات الحية والجامدة، وبين الطبيعة والمجتمع، وبين الإنسان والحيوان من الناحية الحيوية، ويؤدي هذا النمط من التفكير، أي منهج تطبيقه إلى السحر، و يتم الاعتماد على الاعتقاد بأنه يمكن التحكم بكل الظواهر وإيصالها إلى الوضع المطلوب بالسحر، وفن السحر الذي يعتمد أساساً على من يمتلكون المهارة والرؤية المستقبلية في الممارسة العملية المجتمعية، يتزامن مع أولى مواقع القيادة الاجتماعية. فالساحر هو قائد لأن لديه نظرة مستقبلية ومهارة متطورة في الممارسة الاجتماعية، ويتم النظر إلى مثل هؤلاء الأشخاص في الظروف الاجتماعية الضيقة والحرجة، كأشخاص فوق الطبيعة ويتم احترامهم والإيمان بهم. لأنه حتى المساهمة المحدودة لهم، لها أهمية حيوية للمجتمع، ويظهر المجتمع حاجته لهم ويهابهم أيضاً، وعندما رأى السحرة ارتباط المجتمع بهم، وضعوا أنفسهم في موقع متميز وبنوا مؤسساتهم الخاصة، وربما كانت أول مؤسسة اجتماعية هي السحر.

إن الاسم الآخر للسحر هو "الشمانية"، والفرق بينهما هو تطور وتمأسس الشمانية أكثر من السحر. ونرى هذا النمط من الفكر والممارسة ساري المفعول في جميع المجتمعات الباليوليتية، أما نمط الفكر في العصر النيوليثي الذي يعتبر خطوة متقدمة للمجتمعات فهو نصف روحاني ـ ديني طوطمي. وكان يتم تمييز القبيلة بشكل أفضل كوحدة اجتماعية أساسية. ويتم فهم أهمية الانتساب إلى القبيلة، وكان يظهر موقع الأم الخلاق والرائد في القبيلة، وكانت بعض المخلوقات والحيوانات المدجنة والنباتات تعرف أكثر من جميع المخلوقات الأخرى، وذلك كضرورة للحياة، ولذلك كان هناك اهتمام بروح هذه المخلوقات. وانعكست هذه الظروف على البنية الفكرية لهذه المرحلة، فكانت المرأة تلعب دور الربة الأم في المجتمع الأمومي، وتمثل بالطوطم كرمز لكل قبيلة، كل النباتات والحيوانات والأشجار والأشياء الهامة كانت تمثل بآلهة في نمط التفكير المذكور، وفي الوقت الذي كان الطوطم تعبيراً رمزياً للقبيلة يوازي الإله أو شبه

الإله، كان يتم تأليه جميع الرموز الأخرى وفي مقدمتها الربة الأم، لأنها هي التي تقوم بإنشاء المجتمع الجديد وتخلفه وتلده وتحافظ عليه.

كان ثقل المرأة في المجتمع النيوليثي كبيراً إلى درجة بدا وكأنه لا مكان فيه للرجل، وتم إزالة دور المرأة في المجتمع كقوة أساسية فيما بعد، وحققت المرأة قوتها هذه عن طريق زراعة النباتات واستئناس الحيوانات وبناء البيت، والنسيج، وولادة الأطفال وتربيتهم. وهذه القوة الطارئة غير العادية، تعكس البنية الفكرية إلى درجة جاءت بالتأنيث الموجود في جميع اللغات، وكثرة الآلهة الإناث في الميثولوجيا، والموقع المحترم للأم في هذه المرحلة التاريخية. وتحمل بنية اللغة السومرية في البداية طابع الشخصية المؤنثة، إن الربات هن أول من أسسن المدن، وجميع الهياكل الأولية كانت على شكل امرأة، وتبرز المرأة في الأسماء والمصطلحات، وحتى أسماء قارتي أوروبا وآسيا فهي مؤنثة في الميثولوجيا الإغريقية.

كانت البنية الفكرية المستندة إلى العنصر المؤنث في العصر النيوليثي تؤله جميع المخلوقات الهامة على أساس الإنسان - الإله، حسب أهميتها في المجتمع، وكانت تتطور بنية فكرية وعقائدية مستندة إلى الأم في **"Sterk"** أو ستار**"Star"** وتم رفعها إلى السموات لتصبح خالدة في الهلال الخصيب لأول مرة.

النمط الفكري الأساسي عند السومريين الذين بدؤوا المجتمع الطبقي كان على أساس نظام ميثولوجي يعتمد على الأقاويل والأساطير، وتعتمد الميثولوجيا كقوة ضرورية وهامة في الطبيعة والمجتمع على شكل عالم إلهي ينعكس على نظام الإنتاج ومصادر الحياة الأخرى، وبدأ يفهم الفرق بين قوانين نظام الطبيعة والمجتمع وتكوين عالم الآلهة الذي يعكس الفرق بين السيد والعبد، بشكل يتناسب مع الفرز الطبقي في المجتمع، وحسب ذلك تتكون سيادة مفهوم كوني ميثولوجي ذو أنظمة متعددة، وربما كانت أكبر هدية قدمها السومريون للإنسانية هي: تكوين هويات إلهية تمثل نظاماً سماوياً لا يتغير، وجعله يهيمن على الأذهان كنمط فكري واعتقادي أساسي. إن الكهنة السومريين هم أكبر مبدعي وممثلي نمط الفكر الديني بما فيه الأديان التوحيدية، وتقتصر مساهمة الميثولوجيات والأديان والأنبياء والكهنة الذين أتوا فيما بعد - وكلهم في ذلك سواء - على تحويل تلك الهويات المخلوقة سابقاً وجعلها محلية.

إن الفلسفة هي المرحلة التاريخية الثالثة والهامة في النمط الفكري. وتتزامن الفلسفة بمعنى حب المعرفة مع مرحلة التعريف الأكثر واقعية للظواهر الطبيعية والمجتمعية، ويحتاج نمط التفكير الميثولوجي إلى شرح أكثر واقعية عند تفسيره كمادة أدبية في الممارسة المجتمعية، وقد ظهر في القرن السادس

قبل الميلاد بأن زيوس والآلهة الأخرى لا يملكون القوة الخارقة كما كان يعتقد، وهنا بدأ الشك بالآلهة بشكل جدي، وشكلت هذه الأرضية أساساً للمرحلة الذهنية التي تم فيها فهم التمييز بين ممارسة الإنتاج الاجتماعي، وفئة المجتمع ـ الطبيعة، والحي والميت. وكانت الإيضاحات الميثولوجية تقابل بالسخرية من قبل هذه الذهنية، وتجعل التفسيرات الجديدة والشرح الواقعي أمراً ضرورياً. لقد أدت المعلومات التي ازدادت حول بنية المجتمع المتشابكة والعالم، والوصول إلى معلومات ملموسة حول بعض المفاهيم في الممارسة العملية، إلى عدم حاجة التفسيرات إلى آلهة ميثولوجية، وكان نمط التفكير الذي لا تتدخل فيه الآلهة والدين، يمر بحالة التطور.

هذا التطور الذي يمكن أن نعتبره نمط التفكير الدنيوي والعلماني، يسمى الفكر الفلسفي. الذي جعل الإنسان صاحب فكر، وقد تطور هذا خارج المعابد، واقام أنظمة تشبه الأكاديمية، والثانوية، والإعدادية، في يومنا هذا، وهذه أهم خصائصه المميزة، حيث تم إرساء قواعد المدارس والتعليم، ولكن لا يمكننا أن نقول أنها تمثل انقطاعاً كاملاً عن الميثولوجيا والدين.

إن أهم فرق بين الميثولوجيا والدين، هو ان الدين يتضمّن إيماناً وعبادة قسرية، وهذا مالا نجده في الميثولوجيا. أما في الفلسفة فلا يوجد إيمان قسري أو نمط لفظي معين. فالفلسفة هي نمط فكري يحمل السيئ الإقطاعي بعيداً عن العاطفة، وتعتمد على البنية الذهنية والمنطق لدى الإنسان، وتحمل الخصائص الاثباتية، وتضع في أولوياتها الثقة والاهتمام بالبنية الذهنية للإنسان. وهناك علاقة للإنسانية والفردية مع هذا النمط من الفكر الفلسفي، وتغدو الفلسفة بهذا المعنى شرطاً هاماً لنمط الفكر الأساسي للمجتمع الرأسمالي. كلما ازداد الصراع بين الفلسفة والدين والميثولوجيا، وانتهى هذا الصراع لصالح الفلسفة، يؤدي ذلك إلى قفزة صحيحة لصالح نمط التفكير العلمي الذي سيتطور بتأثير الفلسفة. إن نمط التفكير الفلسفي هو نتاج حياة المدينة المتطورة، وليس صدفة أن المدن التي وجدت فيها الفلسفة كانت مدناً حيوية، ومن اكثر المدن تطوراً في العصور الأولى، وهي المراكز التي تطور فيها الفكر الفلسفي، فمدينة ميلاتوس"**Milatos**" التي عرفت كمكان لخلق الفلسفة، كانت من أهم مراكز الحياة المدينية في زمانها، وستظهر فيما بعد أثينا وروما والإسكندرية كمدن هامة للفكر الفلسفي.

لا شك أن تمهيد الفلسفة لطريق العلم شيء هام جداً، لكنها ليست العامل الوحيد. فالعامل الأكثر تأثيراً هو ازدياد المعلومات العلمية بالتوازي مع تقنيات الإنتاج، حيث يقوم التطبيق العملي للإنتاج والحياة بتعريف الظواهر والعلاقة الموجودة بينها، وينتهي بنا إلى إنشاء معادلة السبب والنتيجة، وتزيد التقنيات

المستخدمة من اكتشاف خصائص الطبيعة، وبذلك تكون المثيولوجيا والفكر الديني، اللتان كانتا مسيطرتان في البداية، قد ضعفتا بتأثير الفلسفة، وتزداد أهمية العلم الذي يتطور مع الفلسفة بشكل متداخل، وكانت نتيجة تطبيق الثلاثي الطرح والطرح المضاد والتركيب، قد انتهت لصالح العلم، فكانت الميثولوجيا والفكر الديني هما الطرح الأول، بينما الفلسفة شكلت الطرح المضاد والصراع بينهما ولد الذهنية العلمية، ويمكننا القول مع أخذ الفترة الزمنية بشكل تقريبي، أن المثيولوجيا والدين كانتا حاكمتين في عصر ما بين 3000 - 500 ق.م، ظهرت الفلسفة وبرزت إلى الصفوف الأمامية بين عامي 500 ق.م - 1500 م، ويمكننا تسمية العصر ما بعد 1500 م، بعصر العلم، وقد انتهت الحرب الكبيرة في العالم الذهني للإنسانية بانتصار الفكر العلمي.

شهدت أوروبا في القرن الثالث عشر بعد الميلاد مرحلة الحضانة نتيجة للتراكم الذي تحقق عبر رافدين وهما الفلسفة والتطبيق، وتخلصت الجامعات البارزة من الدوغمائية الدينية في هذا القرن، وخطت أول خطوة نحو العلوم التجريبية، ويعتبر "روجر باكون" من رواد هذه المرحلة وعلامة بارزة في تلك المرحلة، ولعب دوراً طليعياً في عصر العلوم التجريبية وفتح الطريق أمام العلم، بعد أن خلّصت حركة النهضة التي تطورت منذ بداية القرن الخامس عشر في أوروبا ذهن وروح الإنسان من الدوغمائية الدينية، ووضعتها في مسار دنيوي وباتجاه الإنسان، وتم تقديم عدة شهداء في هذا الطريق وفي مقدمتهم برونو. لكن هذه الشهادات تعتبر انتصاراً لعصر الفكر العلمي، وهكذا كانت الإنسانية وجهاً لوجه مع نمط حياة جديدة. إن تسمية عصر العلم بالحضارة الرأسمالية تكون تسمية ضيقة، فتحقيق سيادة العقلية العلمية سيؤدي إلى تسريع الحضارة الرأسمالية وتفوقها، ويجب أن نرى العصر العلمي كأكبر المكتسبات التي حققتها البنية الذهنية للإنسان في طريق التطور الاجتماعي الطويل، وتم بذلك إغلاق عصر الآلهة التي تقدّم القوانين وممثليها على الأرض، وخطو خطوة إلى العصر الاجتماعي أي عصر المجتمع العقلي الذي يديره ويحدّد قوانينه الإنسان، وبهذا المعنى تم الدخول في بداية عصر المجتمع العلمي.

مازالت القوانين والعلاقات المتبقية من العصر المثيولوجي للعبودية سارية المفعول في مؤسسات البنية التحتية والفوقية للمجتمع وفي مقدمتها المؤسسات السياسية، فحتى لو سمي عصرنا بعصر المعلومات والاتصالات، سنرى بشكل افضل في نهاية تحليلنا للحضارة الرأسمالية أن الإرث الاجتماعي ولا سيما مؤسسة الدولة التي تحتل مركزه، لم يتغير منذ خمسة آلاف سنة، بل تم تقويته، وفي الحقيقة إن هذا التمأسس يتناقض في جوهره مع العلم، ويمتنع العلم عند تطبيقه من أن يكون المبدأ الأساسي الذي يحدد النظام الاجتماعي، لذلك يكون التناقض في الأساس بين الدولة التي هزمت الإيديولوجيا" مثيولوجيا ودين

وفلسفة مثالية"، واستمرت في وجودها كأداة ضغط، وبين العلم الذي يعطي شكلاً جديداً للمجتمع وفق أسس علمية.

لم يخلق عصر المعلوماتية، الذي يستخدم كثيراً في يومنا هذا، شكله الاجتماعي بعد، ناهيك عن أن العلم هو ظاهرة مازالت تتطور باستمرار، ولم يتم تحديد أخلاق العلم حتى على مستوى المبادئ، ولذلك لم يكن مستحيلاً للعلم الخارج عن السيطرة أن يخلق أنظمة أخطر من أنظمة ممثلي آلهة المثيولوجيا والأديان التوحيدية على الأرض، ويمكن مشاهدة الكثير من الأنظمة الحاكمة البعيدة عن الأسس الأخلاقية الاجتماعية المطبقة والمستندة إلى العلم، تتحول إلى أنظمة سلطوية ومستبدة.

إن وضع العلم لمصادر قوة الطبيعة في خدمة المجتمع، هي إحدى نتائجه الرئيسية، ومن الواضح أنه لا يمكن أن يكون المجتمع منذ ميلاده حتى الآن "دون علم ومعلومات". لقد كان الإنسان الذي استخدم الحجر والعصا لأول مرة قد وصل إلى العلم، ووضع القانون الفيزيائي المخطط له، ووضعه في خدمة الإنتاج، عن استخدام العلم حتى لو لم يجر تحويله إلى صيغة، ويجب أن نقول ما يلي: إن المجتمع ومنذ ظهوره على علاقة وتناقض مع ظاهرة العلم، وتتحول العلاقة إلى علم كلما تم حل التناقضات، وهذا يؤكد بدوره ان التنوير في العلم ظاهرة مستمرة، وأن المشكلة هي المستوى النسبي لذلك عبر العصور، ويكون التنوير متطوراً بمقدار دور العلم فيه، وليس صحيحاً انعكاس ذلك الواقع كتطور لعصر المجتمع الرأسمالي فقط، بل يمكننا التحدث عن زيادة دور المجتمع الرأسمالي في ذلك.

يجب أن نعرف جيداً أن الحضارة الرأسمالية لم تؤد إلى تطور العلم وحسب، بل أدت إلى الحد منه في مستوى متقدم أيضاً، فالتناقضات الموجودة في داخله منعت من استخدام العلم لكل قوته، وهي في موقع النظام المتعصب تجاه العلوم الاجتماعية، ومع هذا يعتبر المجتمع الرأسمالي هو النظام الذي قوّى البنية التحتية والفوقية لمؤسساته بالعلم أكثر من كل الأنظمة الاجتماعية الأخرى، وتظهر هذه الخاصية الدور الخلّاق لحركة النهضة والعصر التنويري عند ظهور الرأسمالية، أكثر المجتمعات تطوراً، والذي أخذ قوته من تطور العلم وتمأسسه وإدارته، وليس صدفة وصول المجتمعات التي تنجح في أن تكون علمية أو بعض قطاعاتها إلى مواقع أكثر قوة. فالعلمية تعني التنوير، والتنوير يعني القيام بالعمل الصحيح، وهذا بدوره يعني النجاح والإنتاج النوعي، والإنتاج النوعي في كل مستوى ابتداءً من الاقتصاد إلى السياسة يعني الوصول إلى موقع ريادي وطليعي.

يمكننا تعريف بروز الجانب العلمي لتشكل الهوية الإيديولوجية

للحضارة الرأسمالية في هذا الإطار، ويتواصل الى ذلك مع موقع العلاقة والتناقض، ولم تنسلخ تماماً عن الهويات الإيديولوجية الأخرى كالدين والفلسفة، لا تملك مؤهلات الانفصال، إن مستوى شموليته المجتمعية محكومة بالدين والفلسفة المثالية.

إن السؤال الأخير الأرض الذي يجب توجيهه هو: هل يمكن للعلم بمفرده أن يكون قوة منقذة ؟، هل هو قادر على إزالة الإنسان الكامن في طبيعة الإنسان..؟ هل العلم كل شيء....؟ أما السؤال المذهل فهو؛ هل قام الإنسان الأول بأصح شيء عند توجهه إلى فكرة الله....؟ ألا يستند الاعتقاد الذي يقول: "أنا الحق أنا الله" إلى اللاهوت..؟ ألا يعلن الإسلام بان صيغة "العلم = الرب" منذ زمن طويل بأن الله يعلم كل شيء..؟ ويمكننا توجيه أسئلة كثيرة، ولا يمكننا التخلص من العيش بشكل عبودي، كتابعين أكثر من العبيد في تلك المرحلة، والتحول إلى أنظمة اكثر تسلطاً من النمرودية والفرعونية، إذا لم نربط القوة التأليهية للعلم بالمبدأ الأخلاقي الذي يتطلب الانسجام المطلق أي بمبدأ السلوك الأساسي الذي يتخذ المصالح المشتركة للإنسانية وحقوقها وأمنها أساساً له، ولقد شرحنا الدور الذي لعبته الحروب الأكثر فظاعة في التاريخ في القرن العشرين والتي استخدم فيها العلم أكثر من أي قرن مضى، هذا الخطر يومي وبمستوى ان يولد القيامة. فعندما كان ممثلو مثيولوجيا العبودية والأديان التوحيدية الإقطاعية على الأربعة متشابهين، لم تتخلص الإنسانية من الاستبداد والظلم والتسلط الذي خلقوه، ألا يعني هذا ان تأليه العلم سيجعل من تسلط الإنتاج واستبداديته أشبه بيوم الحشر....؟

2 ـ إن الفردية هي الخاصية الروحية الأساسية للنظام الذي ولد المجتمع الرأسمالي. مثلما يعبّر العلم عن الوضع الذهني لهذا المجتمع، تشكّل الفردية الخاصية الروحية الأساسية له. فالفردية هي الصرخة المدوية للفرد الذي تخلص من قيوده بولادة الرأسمالية، والذي لا مقدسات لديه سوى مصلحته، وتلعب قوة الأنا فيه دوراً يسبق العلم.

إن الفرد الرأسمالي هو حركة الانتقام من ظاهرة المجتمع، والرغبة الفردية لا تعترف بأية حدود لطموحاتها لا سيما في مرحلة ولادتها، وتؤمن بانها أصبحت حرة بقطع كل روابطها مع الماضي، وتساوي قوة النقد بالله، أي أن معادلة "الرب = النقد" لائقة بالمجتمع الرأسمالي أكثر من أي مجتمع آخر، وتصبح النقود التعبير المجسد للنظام والقوة الساحرة القادرة على تغيير كل القيم، وتغدو انعكاساً لجوهر وقوة المجتمع في تشكل الرأسمالية، وتجذب الروح الفردية، وتعتبر في المجتمع الرأسمالي قوة تؤدي إلى حروب دموية والى إبادة البشرية في سبيلها، وإذا كانت رموز المجتمعات القديمة عبارة عن الطوطم

والإله ـ الملك، فأننا نرى في المجتمع الرأسمالي هوية روحية تتمحور حول النقود.

يعود سبب تفاقم الفردية بهذا الشكل إلى رد الفعل حيال المجتمعية منذ مئات آلاف السنين، لقد كانت جميع الأنظمة السابقة تطور المجتمعية وفق مصلحتها، وتعتبر المجتمعية عملية مقدسة لا يمكن التخلي عنها في الحياة، سواء تحققت بشكل علني أو سري أو بشكل إرادي أو قسري، من الضروري للدين والأخلاق والإنتاج والسياسة كلها أن ترتبط بهذا الهدف، وكل ميراث أو شخص لابد وان يكون داعية دائمة لهذه القاعدة، وعند الوصول إلى المرحلة الرأسمالية، وكأنه قد تم اكتشاف قوة هائلة من خلال تفجير المجتمعية بالفردية أشبه بانشطار الذرة، أدى تفجير المجتمع من النقطة الأكثر حساسية بالقنبلة الفردية إلى ثورة عظيمة، وعندما نجحت أولى الاختبارات لم يبق سوى الوصول إلى تنظيمها، لم يعد المعبد مزاراً للفرد، ولم تعد الوجوه متوجهة إلى الله، وزال الشعور بالذنب، وأصبحت الكعبة الجديدة هي المصنع، والرب الجديد هو النقود، والشيء المقدس هو المصلحة الشخصية، ولم يعد الشعور بالذنب عائقاً أمام الربح.

لا شك أن الرأسمالية ليست ظالمة بكليتها، لأن الفرد كان ضحية للمجتمع منذ مئات آلاف السنين، وفي الكثير من الأديان فان الناس قد ضحوا بأغلى قيمهم وأولادهم وقدموها كقرابين، وقد تم فتح هذا الطريق باسم الدين في الضمير الأسود للمجتمع، وتم الانتقام من الفرد من خلال تقديمه كضحية بلا رادع، وتحول تاريخ المجتمع إلى تاريخ التضحية بالفرد باسم إنقاذ المجتمع، وقد تم استنفار كل الحروب والعبادات والمراسيم من أجل هذا الهدف، وما يتم القيام به باسم المجتمعية وصل إلى الهستيريا، وأعلن عن أي انتهاك بسيط للقواعد على أنه أكبر جريمة، حتى لو كان مستنداً الى مطالب عادلة وبريئة، وتم جعل مرحلة العذاب في جهنم أبدية باسم العالم الآخر السرمدي، وكأنه لم يكف تحويل الأرض إلى جهنم. لقد تم تطوير أسر الفرد إلى درجة بات فيها لا يتبنى حتى ظله، وتراجع موقعه إلى ظل الظل، وواصل كل ذلك باسم المجتمعية.

التقطت مرحلة الهوية الإيديولوجية التي أدت إلى الرأسمالية النقطة الأساسية في الفردية، وكانت تشعر بضرورة قيام توازن عادل بين الفرد والمجتمع من خلال دفع الفرد الى الأمام، ومن الواضح أن المرحلة قد استمدت قوتها وعدالتها من التراكم التاريخي، وكان الفرد يشعر بأنه سيلعب دوراً ثورياً بمقدار انهيار المجتمع المتخلف والمتعصب الذي حكم على الفرد باعتباره إنساناً آلياً محكوم عليه بحياة مليئة بالمحذورات، وهكذا تظهر المواقف العادلة والتقدمية عبر التاريخ، فالظاهرة الاجتماعية التي خلقت قوة إلهية عند بنائه تعمل بشكل معاكس، إذ تعمل على بناء القوة التي تصنع الشخصانية، وتظهر في نقطة

التحول التاريخية هذه إمكانية التوازن الضروري والعادل بين الفرد والمجتمع، وكان قلق المجتمع الرأسمالي في بهذه النقطة محدوداً ولا سيما في بداية ميلاده، وسيتم الوقوف عند توازن الفرد والمجتمع في مرحلة رد الفعل الاشتراكي غالباً، ولكن من المؤكد أن هناك حاجة إلى انطلاقة فردية قوية للوصول إلى ذلك، وتظهر الثورة الفردية كنتاج للاحتياج التاريخي.

يشعر الفرد بحياة طارئة كلما حطم سلاسل العبودية، وتبدأ الدنيا بالتحول الى جنة، وتتحول الرغبات التي كانت ذنوباً إلى أشكال حياة جميلة، لقد بدأ تحول علماني عظيم، وتم إدراك إمكانية تجميل الحياة بالفن، وباتت حركة التنوير ممكنة من خلال الاستيحاء من الآثار الفنية المزدهرة للعصور الأولى، ومن خلال الجرأة التي منحها العلم وبالسيطرة على الدوغمائيات ودون الخوف منها أصبحت الدنيا عبر الفن أكثر جمالاً ويمكن العيش فيها، وهذا ما منح الفردية قوة كبيرة، وأدت الفردية إلى التفكير الحر، وجرأة العيش بحرية ودون خوف، أوصل الفرد إلى حب وعشق جديدين، وكان الوصول إلى مفهوم الوطن والتحول إلى دولة قومية من خلال العبور من مفهوم الأمة إلى المفهوم القومي، والتحول الى الدنيوية والغنى والارتباط بالعيش في هذا العالم وإعطاء قيمة لكل الفنون التي تخلق الجمال للوصول أولاُ الى هوية أية، ومن أولويات التنوير ان الانقطاع عن القديم والارتباط بشكل الحياة الجديدة الخلاقة كان من القوة بحيث لا تستطيع أية مؤسسة أو علاقة من الوقوف بوجه بناء الجديد.

3 ـ يشكل المبدأ الإنساني (**Humanism**) الذي يعطي قيمة للإنسان، ويضعه في الأولويات، الخاصية الثالثة للهوية الإيديولوجية للمجتمع الرأسمالي، وكان الإنسان في كل التشكيلات الاجتماعية في العصور السابقة وكأنه قد ابتلع، وانحل داخل المجتمع، وكان بمظهر كيان سلبي لا يؤدي أي عمل سوى ما يكلف به، منصهر في المجتمع، وكل العظمة والإجلال كانت للمجال الإلهي، وكان السمو بالطوطم والآلهة الذين لم يكونوا سوى تصورات هوية وأقنعة ضد الإنسان، وقد حاولوا تحقيق استمرارية المجتمع وتقويته عبر هذه العمليات الأيديولوجيات؛ وهذا لا يعني تطوير مصطلح الإنتاج بل خلق وتعظيم كائنات تحدد مصير الإنتاج.

أما في مرحلة المجتمع الطبقي فقد تم تحقير الإنسان أكثر، وتم إعلانه مذنباً في شخص آدم وحواء، وحكم عليه بهوية عبيد الآلهة إلى الأبد، ذنوبه ستزداد باستمرار، والخيار الوحيد للخلاص هو الخدمة من أجل الغفران. ان وقوع الإنتاج وسقوطه يتطور دائماً من محورين أساسيين، وكان يتم إسقاطه وتحقيره أمام المجتمع باسم الهويات الكيانية المجردة، وبهذا لن يملك أية أهمية أو ادعاء وكل شيء سيكون من أجل المجتمع، ويضحي بكل القيم من أجل وجود

المجتمع، ولان الإنتاج هو الذي يحقق التحول المجتمعي لذا كانت التضحية تبدأ به أولاً، أما المحور الثاني الهام فهو أن التفكير بالإنسان كعنصر غير هام مذنب وغير لائق إلا للخدمة، ليفقد طموحاته في مواجهة واقع الطبقة الحاكمة، وبذلك تحقق نظام العبودية عبر خروج الأسياد من الصفة الإنسانية ورفعهم إلى مستوى كائنات إلهية، وجعل الإنسان عبداً عليه العمل باستمرار كالحيوانات، وتم تطوير هذه المواقف حيال الإنسان بشكل دائم عبر العصور.

لقد تم الدفاع عن وجدان الإنتاج وشرفه في الأديان التوحيدية، وفي مرحلة مقاومة المجتمع النيوليثي ضد العبودية ولو بشكل محدود، وتم تكوين مصطلح الإنسانية التي يجب إنقاذها، وحصل التمرد لأول مرة باسم الضمير والشرف، وجاءت الثورة الأخلاقية لزرادشت والإصلاحات المشابهة لبوذا مع الفلسفة الإغريقية، لتدفع بالإنسان خطوات الى الأمام وتم الشعور والإحساس بالإنسان صاحب الجهد الأصيل الذي يتعرض للألم والنسيان، والارتباط بعيسى إلى هذه الدرجة يعود إلى أهمية التطورات الحاصلة في هذا الاتجاه، وإكسابه أرضية ونهجاً لهذا المسار، وتم إدراك ذلك كرسالة إنقاذ لا يملكون قاطبة دون تمييز، واقدم النبي محمد على خطوة أخرى نحو الأمام من خلال إعلانه أن الإنسان أشرف المخلوقات. لقد لعبت القيمة التي أعطاها الإسلام للإنسان دوراً كبيراً في تقبل الإسلام من قبل الآخرين.

وبقي الإنسان الذي تم تحقيره ودفعه إلى العبودية والقنانة، بعيداً عن أن يحظى باهتمام مركزي رغم الخطوات التاريخية المذكورة، وتم النظر إلى المرأة كناقصة عقل، ومحرضة على الخطيئة دائماً، وحكمت بهوية كأنها قريبة الشيطان، وتم إقناعها بقدرها، ولا يتم اعتبارها إنساناً في الوقت الذي تتطور فيه الإنسانية قليلاً، أما الطبقة الحاكمة والمستغلة، فكانت تتسم بالصفات الإلهية، وقد بذلت جهود كبيرة من أجل تعريفها ككيان مميز عن عرق الإنسان الذي تم تحقيره، وتم تطوير هويات إيديولوجية منسجمة مع ذلك كأهم الأعمال المطلوبة، هذه هي الخطوط العريضة للقدر والواقع الذي رأته الحضارة القديمة لائقاً بالإنسان.

هذه هي الظاهرة الثالثة الهامة التي انتقم الإنسان لنفسه فيها عند ظهور العصر الرأسمالي، حيث تم الانتقام من المجتمع القديم والطبقة الحاكمة من خلال رفع شأن الإنسانية، أي بالمذهب الإنساني (**Humanism**) الذي هو أمضى سلاحٍ في مواجهة الذين يتمسكون بالنظام القديم، ويجد الإنسان إمكانية النهوض والتحرر والعلم والشرف من خلال الفكر الإنساني، وأصبحت الإنسانية إحدى أهم المفاهيم الأساسية للهوية الإيديولوجية الجديدة.

لقد جرى وضع الإله في مركز الهوية الإيديولوجية للمجتمع القديم،

وبذلك حققت الطبقة الحاكمة المستغلة سيطرتها الإيديولوجية الكاملة. إن قوة القانون الإلهي هي عبارة عن سيناريو من أجل فتح الطريق أمام التشريع القانوني للطبقة الحاكمة، وتأتي المحاكمات الأولية التي تسمى بالقوانين الإلهية على رأس الطرق المؤثرة في أسر العقل، وتسخيره كما يراد، ولم ينقص ظل الإرادات المؤثرة الغريبة عن الإنسانية، وخلق الأسر الإيديولوجي كأخطر نوع من التبعية للإنسان الذي سلبت إرادته، وخلقت الإنتاج الآلي.

خلّصت الإنسانية الجديدة الإنسان من كل سيطرة الظلال، لقد كان خلق الإنسان الأفضل هي الوظيفة الإيديولوجية الأساسية، في حين كانت جميع وظائف الإيديولوجية القديمة تتعلق بخلق الإله والطوطم والبطل والجن والشيطان والملائكة، أي المخلوقات الخارجة عن نطاق الإنسان، وكانت وظيفة تلك المخلوقات هي جعل الإنسان بلا تأثير لا حول له ولا قوة، وتأتي هذه المخلوقات كوسائل للهيمنة الإيديولوجية على رأس العلاقات التي تكوّن التأثير العبودي في ذهن الإنسان، ولقد أنكرت الإنسانية جميع تلك المخلوقات المصطنعة، ووضعت الإنسان في مكانه، كأسمى قيمة، واهتمت بخصائصه الأساسية، وبدأ يسود الاهتمام الأساسي بالإنسان الحر بشكل شامل تحت تأثير المجتمع الجديد، وتم تخليص الإنسان من الدوغمائيات الجاهزة، وعن أسر الآلهة، لئلا يظل عبداً لها، كما امتلك هوية خلقه وتعليم نفسه إرادياً، وبدأ يهيمن على العقل نمط فكري مستقل منفتح على الأفكار الجديدة، وبدأ الإنسان يختار برغبته الألوان والأصوات والأذواق والحرارة وكل ما يؤدي إلى تخلّصه من السحر، وينمي التصور والخيال الذي يؤدي بدوره إلى معنى مذهل، وبدأت الولادة العظيمة للعالم الجديد الذي أغلقه الحكام السابقون امام الإنتاج. كانت تظهر في جميع جوانب الطبيعة ألغاز تنتظر الاستكشاف، والشعور بالثقة بالنفس حرر عملية الإبداع من يد الإله وأعطاها صفة إنسانية ترسخت يوماً بعد يوم، وبدأ الإنسان بالدخول في مرحلة استطاع فيها تقرير مصيره بنفسه ووصل بعد توجيهه لآلاف السنين من أجل مصالح الآخرين، إلى حالة القدرة على إدارة نفسه بنفسه، وتم تمزيق جميع الأقنعة الموجهة للإنسان، وانبلج عصر أضحى فيه الإنسان سيد نفسه، وتعبر هذه الحقائق التي يمكن تعدادها بشكل أوسع، عن الثورة الإنسانية الشاملة. كانت جميع الثورات القديمة حتى الآن قد نقلت الإنسان من سيطرة وتبعية نظام إلى سيطرة وتبعية نظام آخر. أما الثورة الجديدة فقد أدخلت الإنسان إلى مرحلة التخلص من جميع تبعاته والارتباط بذاته.

يعتبر التوازن مشكلة هامة في الوضع الجديد للإنسان أيضاً، ألا يتحول الإنسان الذي قطع كل ارتباطاته إلى حيوان....؟ في الوقت الذي تؤدي فيه المجتمعية غير المتوازنة والمتطرفة، والتي جعلت الإنسان إنساناً إلى خلق عبد اخطر من الإنسان إلى مرحلة الحيوانية، ألا يصبح الفرد الذي تقوّى في

المجتمع، وانسلخ عنه فيما بعد، أخطر من وحش كاسر..؟ ألا يكون الإنسان الذي تمت تقويته بالنقود والعلم، والذي تعوّد على أن يرى العالم ساحة غنائم، أخطر من الإنسان الذي يبقى مرتبطاً بالمجتمع....؟ إن توجيه هذه الأسئلة لا يأتي من فراغ، فقد تم ارتكاب أفظع الجرائم والمجازر العامة والإبادة الجماعية ضد الإنسانية باسم الإنسانية في عصر الفردية، ونتج عن ذلك حربان عالميتان، وعدة حروب إقليمية محلية طبقية وأثنية ودينية في أكثر عصور التاريخ دموية، و تظهر أن الأخطار المذكورة ليست عبارة عن ادعاءات فارغة أو جافة، فالحيوان الذي يكمن في الإنسان قد تم إيقاظه وتقوّى كثيراً ويكاد يقضي على الإنسانية من خلال تلوث البيئة وتدني الأخلاق، وعبادة البورصة في مواجهة نظام لا مسؤول.

كان واضحاً ومنذ نشأة الرأسمالية أن هويتها الإيديولوجية وبنيتها المعنوية للرأسمالية، رغم امتلاكها أساساً علمياً على الأرجح، وتتخذ الفرد أساساً لها، وتسمو بالإنسانية تتضمن جميع أنماط المخاطر.

إن قيام أوربا بدور الممهد لظهور الحضارة الرأسمالية يتطلب تحليلاً واسعاً، ويكون التطور الذي يشمل جوهرها وبنيتها السطحية في المجتمع الطبقي والظروف الجغرافية المناسبة عوامل مصيرية، ورغم كل التوضيحات السابقة للإطار العام، لم تستطع الأشكال الجديدة في المجتمعات التي تعيش الحضارات القديمة منذ فترة تاريخية طويلة التطور إلا بالتدخل الخارجي. ولم يكن من السهل عليها استيعاب وتجسيد الشكل الجديد بنفسها، ويمكن ان يكون المناخ والتربة عناصر مؤثرة في التشكيلات الجديدة .

عندما ننظر من هذا الإطار نرى أن جميع تراكمات التاريخ قد وصلت إلى أوروبا في القرن العاشر الميلادي تقريباً، وقد تم نقل كل شيء إلى أوربا، بدءاً من الثورة الزراعية، وثورة المدن العبودية، وصولاً الى جميع مكتسبات الحضارة الإقطاعية، و ليشمل أيضاً جميع التطورات الإيديولوجية و العلمية والتقنية، وتم استيراد قيم الحضارة الإسلامية، التي تشكل ذروة الحضارة الأخيرة حتى القرن الخامس عشر الميلادي، وأخذت المعلومات اللازمة من الصين، التي اخترعت البارود والورق والمطبعة والتي تملك مكانة هامة في التطور التقني. كما أتاحت إمكانيات التجارة الواسعة فرصة لأوروبا كي تعرف على المنتجات الكثير من دول العالم، وأدت المعلومات والمنتجات التي وجدت في مناخ و تربة مناسبتين إلى فائض إنتاجي لم يشهد له مثيل سابقاً، وأدى هذا بدوره إلى تطور المهن اليدوية والتجارية والعلم والفلسفة، وازدادت نسبة القراءة والكتابة، وأضحت أوروبا تمتلك أكبر نسبة من سكان العالم تدريباً.

يكمن وراء هذه التطورات، ظاهرة أساسية، وهي ان أوروبا لم تعش

المجتمع الطبقي بعمق، ولم ينتشر النظام العبودي إلى خارج شبه الجزيرة اليونانية وإيطاليا، إلا الى بعض المناطق المتفرقة على شكل مستوطنات، وكانت الحضارة الإقطاعية أكثر حداثة، ولم تستطع الانتشار في جميع أنحاء أوروبا حتى نهاية الألفية الأولى بعد الميلاد. وكانت هذه هي المرحلة التي تربت فيها الطبقة البرجوازية في أبراج المدن. والأهم من ذلك أن الأنظمة النيوليثية والعبودية والإقطاعية هي حضارات شرق أوسطية بجذورها، ولذلك لم تكن هذه الأنظمة مؤهلة للتجذر من خلال تصديرها، وكانت الأعراق الجرمانية والفرنكية والنورمانية التي كانت تعيش المرحلة الأرقى للبربرية، قد أظهرت ردة فعل حيال تلك الأنظمة، ولم تكن هذه الشعوب قد فقدت حريتها بشكل عميق، وكانت هي الأخرى مثل الأربعة الأوروبية لا تزال غالباً عذارء من الناحية الطبقية.

يمكننا أن نتوقع أن عدم الانسلاخ عن الحرية تماماً، مع التراكم الحضاري، سيؤدي إلى ولادة تركيبة جديدة كبيرة باسم الإنسانية في الأراضي الأوربية العذارء، وأدى الطرح والطرح المضاد الغنيين اللذين خلقا الحضارة الأوربية، إلى تركيب متطور في ذهنية الإنسان الذي وصل إلى مرحلة تجسيد واستوعاب جيدة ودون ان يستمر ذلك طويلاً، مثلما تكون كل المستلزمات اللازمة جاهزة للقيام بطبخ العاشوراء، بدأ المثقفون والفنانون ورجال الدين الأوروبيون بحركة التنوير في القرن الخامس عشر، والإصلاحات الدينية في القرن السادس عشر، والحركات التنويرية الكبيرة في العلم والفلسفة في القرن السابع عشر، واستطاعوا خلق العصر الحضاري التاريخي الثالث بطابع القارة الأوروبية.

تأكد أن كل حضارة تتطلب أولاً ثورة ذهنية وروحية، وذلك من خلال المثال الأوروبي، فلا يمكن خلق حضارة من خلال التجارة والمهن اليدوية، ولا بدونها يمكن تحقيقها بدون ذلك أيضاً، ولكن يجب على الميلاد أن يثبت نفسه أولاً ذهنياً وروحياً ومن ثم تحقيق السيادة في المجال الاجتماعي والاقتصادي اللذين يمنحان القوة، عبر ثورة سياسية بأقصى سرعة ممكنة. و كل ذلك يؤكد البنية الديالكتيكية الصحيحة للتطور.

ب ـ تطور الحضارة الرأسمالية وتمأسسها

يعتمد جوهر النظام الرأسمالي على ان اليد العاملة الحرة مكلفة بالعمل لساعات محددة سلفاً مقابل أجر معين، فالفرد العبد في النظام العبودي يكون ملكاً لصاحبه بكل ما يملك حتى الموت، يمكن للمالك أن يشغّله وفق رغبته أو يبيعه أو حتى يقتله، ولا يتميز العبد عن الحيوان كثيراً. اما نظام القنانة فيعتمد على

أساس مشاركة القن في الأرض، وجعله شريكاً مع صاحب الأربعة مقابل حصة معينة من الإله، انه شبه حر و يستطيع أن يمتلك أسرة، ولكن إمكانية انسلاخ القن عن الأرض محدودة جداً. أما في المجتمع الرأسمالي لا يكون الفرد تابعاً لأحد، و يمكنه أن يبيع عمله لأي شخص كان لقاء اجر معين، ويعتبر ذلك خطوة تحرر نحو الأمام مقارنة مع نظام القنانة.

إن الطابع الصناعي للإنتاج هو الخاصية الثانية الحاسمة في تطور النظام، إمكانيات المصنع هو الأساس، ويعتبر الانتقال من المانيفاكتورة إلى المصنع أهم خطوة في تطور الرأسمالية. فالإنتاج المانيفكتوري الذي يعتمد غالباً على قوة اليد العاملة، يعتمد على نفس الأصول التي استندت إليها وحدات الإله في العصر النيوليثي، يعتبر المصنع وحدة إنتاجية خاصة بالرأسمالية، وتعتمد على العمل الجماعي على أسس تقنية معينة. أما العنصر الثالث الأساسي الذي يميز النظام الرأسمالي، فهو البنية التقنية التي يعتمد عليها. فالتقنية تمثل أهم العناصر التي تحقق تطوراً أكثر من خلال تأثرها بالرأسمالية، وذلك بمقدار الدور الذي تلعبه في نمط الإنتاج الرأسمالي، ومن المفيد أن نتحدث عن التقنية بمزيد من التوضيح، فمن الصواب تسمية أول علاقة بناها الإنسان مع الطبيعة بالتقنية. فكانت العصي والحجارة أولى الوسائل التقنية المستخدمة. ويتميز الإنسان عن الحيوانات في هذا الجانب، فأهم جانب للإنسان هو وضع التقنية بينه وبين الطبيعة ومحاولة القيام بفتوحات كبيرة. وتعتبر التقنية، الظاهرة التي أعطت الإنسان قوة لا حدود لها أمام الطبيعة. ويعتبر عدم الكشف بعد عن أسباب بدء الإنسان باستخدام التقنية من أهم القضايا غير المكتشفة حتى الآن، وتلعب العناصر التقنية الأساسية، الدور الرئيسي في تحديد عصور الإنسانية بسبب أهميتها، ويتميز العصر الباليوليتيكي "العصر الحجري القديم" باستخدام الحجارة غير المصقولة كسلاح صيد أساسي و آلة دفاعية، ولقد أمضت الإنسانية ثمانية وتسعين بالمائة من عمرها في هذا العصر، وكانت الحجارة في خدمة الإنسان كأهم تقنية في هذا العصر الذي اعتمد على الصيد و جمع الأعشاب.

العصر الثاني الهام هو العصر النيوليثي الذي اعتمد على صقل الحجارة، بأشكال مختلفة لتستخدم في عدة مجالات. و تم الدخول الى الثورة الزراعية واستئناس الحيوانات من خلال هذه التقنية، حيث لعبت الحجارة المصقولة دوراً هاماً في حراثة الأرض، واستخدمت كسلاح ضد الحيوانات المفترسة، وبناء المنازل، والقطع، والثقب. وفي بداية النظام العبودي تم تركيب البرونز من خليط النحاس والقصدير، ولعب إنتاج هذه التقنية دوراً هاماً في التجارة والحروب، حيث كان البرونز من أهم الوسائل التقنية في صناعة الأدوات الحادة والمحراث والبلطة والأسلحة، ولذلك يسمى ذاك العصر بالعصر البرونزي، وفيما يشمل العصر النيوليثي المرحلة قبل الميلاد، فأن العصر

البرونزي يمتد في المرحلة من 3000- 1000ق.م، اما عصر الحديد فيعبر عن عصر اكثر تطوراً، وحيث تقنيات الحديد هي الفعالة فيه، ولعبت الأدوات التقنية المصنوعة منه دوراً كبيراً في الزراعة والمهن اليدوية والعسكرية، وتعتبر تقنية الحديد هي إحدى أكبر روافع تاريخ الإنسانية وحافظ على أهميته منذ الألفية الأولى قبل الميلاد وحتى الآن، وواصل دوره كتقنية أساسية وسيواصل موقعه هذا في الرأسمالية أيضاً ويعتبر النول والمحراث والدروع الحديدية، من أهم التقنيات المساعدة للمهنيين والفلاحين والجنود.

ورغم تحديد العصور على هذا النحو، فقد واصلت التقنية تطورها كمتوالية هندسية ووصلت إلى الذروة في تكنولوجيا الذرة والفضاء، حيث تعاش ثورة على مستوى التقنية في النظام الرأسمالي، ولا سيما أن دخول تقنية المكننة إلى الإنتاج لها علاقة بالرأسمالية، وقد أدى الدخول في مرحلة القوة البخارية ومكننة المحركات البخارية إلى عصر تقني متطور. وبمقدار ما يكون النمط الإنتاجي عنصراً مصيرياً للثورة التقنية، فإن دور الثورة العلمية مصيري أيضاً، وسيتداخل العلم والتقنية اللذان تطورا بشكل مستقل، مع بعضهما البعض، وسيغذي أحدهما الآخر، فمثلما أدى تطور العلم إلى كثير من التقنيات الجديدة، فإن التقنية أصبحت مصدر إلهام لكثير من التطورات العلمية، وقدمت خدمات تجريبية، ولكون الثورة الرأسمالية ثورة تقنية، فلها علاقة بالمسافة التي قطعها العلم في تطوره، وأدت تغذية العلم والتقنية لبعضهما البعض بشكل متداخل إلى انفجار في البنية الإنتاجية و فتح الكثير من المجالات الاجتماعية في الطبيعة لخدمة الإنسان، واكتشاف طاقة المياه والرياح والكهرباء، والذرة ووضعها في خدمة الإنسانية. ونجري المحاولات الآن للتدخل في عالم البيولوجيا عبر تكنولوجيا المورثات من أجل خلق معجزات جديدة.

إن الخروج عن السيطرة، والتحول إلى وحش خطير، هي من أهم الانتقادات التي توجه إلى التقنية، ويؤدي اعتماد الإنسان عليها بشكل كبير إلى الكثير من الأمراض الخطيرة منذ الآن، حيث تؤدي التقنية إلى ان تواجه الخصائص الطبيعية للإنسان خطر الزوال، ويزداد تهديد التقنية للحياة الاجتماعية بمقدار تطور الفردية، وبات لا بد من رسم الحدود الأخلاقية والسيطرة على الجوانب المضرة للتقنية بمقدار فردية الإنسان.

باختصار ان دخول تقنية المكننة لنمط الإنتاج الرأسمالي أدى إلى أكبر تطور في تاريخ الإنتاج، وتشكل الحضارة الرأسمالية الذروة المتصاعدة الحادة في إطار التاريخ العام من خلال بنيتها الإنتاجية التي لا تقل أهمية عن هويتها الإيديولوجية، و باتت تظهر المشاكل الاستهلاكية وليست الإنتاجية، ويظهر الفائض الإنتاجي لمشاكل جدية في المجتمعات التي تسيطر عليها الرأسمالية،

فكانت المشاكل في الماضي تنبع من زيادة الإنتاج و فيما بعد أصبحت فيما تنبع من قلة الاستهلاك. وأدى ازدياد توفر المواد الأولية للإنتاج إلى تطور نظام السوق الخارجية، وللإنتاج الرخيص حصة هامة في التطورات ويمكننا القول: أن الرأسمالية أتاحت إمكانية الحصول على مصادر إنتاجية لا حدود لها، وفي مقدمتها الطاقة، ولأول مرة في التاريخ أدت إلى تعطيل القوة الكامنة لأن نظامها يعتمد على الاستغلال بهدف الربح، وبدأت العلاقات الإنتاجية تتحكم في تحديد القوة الإنتاجية إلى حد ما، و يسعى نمط الملكية التقنية إلى إنتاج يهدف إلى الربح الأعظم اللامحدود، لكن حين تتعارض الحاجة الضرورية للإنسانية مع قانون الربح الأعظم، يتم التحول إلى قانون الربح الممكن، وتواجه الإنسانية وضعاً لا تستطيع فيه استخدام قدراتها كما تشاء، فتضطر إلى التصرف بموجب أهواء أصحاب الربح.

يتربع نظام الإنتاج الرأسمالي على قمة التاريخ الإنساني من خلال إثبات نفسه رغم سلبياته. ولا جدال حول تفوق المجتمع الرأسمالي عندما تجتمع الذهنية العلمية مع روح الفرد الخلاقة، والجانب الذي يدفع الإنسان إلى الأمام، مع الجانب الإنتاجي الذي أثبت نفسه وهو يتقدم بهويته الإيديولوجية، وكذلك هويته المادية، كنمط إنتاجي على كل الأنظمة التي جاءت قبله.

أدى الميلاد الإيديولوجي وعلاقاته المكثفة مع البنية الإنتاجية إلى تكوينات جديدة رأساً على عقب في الميدان الاجتماعي والسياسي، وتم تشكيل مؤسسات سياسية واجتماعية مناسبة حسب موقعها، ورغم أنه يتم تحديد الوضع الاجتماعي والسياسي بنمط تطوري غالباً، الا أن السلوك المتطرف للوضع القديم قد يؤدي إلى تحطيمه بعملية ثورية، وتندرج مراحل الثورة الاجتماعية والسياسية على جدول الأعمال عند رفض الأنظمة القديمة لكل محاولات التطور أو امتناعها عن القيام بإصلاحات جديدة. وتتعمق أزمة المجتمع عند هذا الوضع، والأزمة في الأصل هي مرحلة انتقالية تظهر عند محاولة اكتساب الإيديولوجية الجديدة ومؤسساتها لمواقعها بعد ان تبقى الإيديولوجية القديمة ومؤسساتها غير كافية، وتعبر عن الصراع على كل المستويات بين الجديد والقديم، ومثلما يؤدي القديم إلى التفسخ فان الجديد يحاول التطور كبرعم، وبمعنى آخر تأخذ طابع الاشتباك بين الثورة والثورة المضادة، وفي الوقت الذي ستمارس فيه الثورة المضادة نظاماً صلباً عند نجاحها، فان بنجاح الثورة يبدأ النظام الجديد بتشكله السريع، ويسيطر على مضمون و شكل مؤسساته بالتغيرات التي تنسجم مع النمط الإيديولوجي والمادي على شكل تقديم خدمات افضل وأحدث، وتتحول التصورات الإيديولوجية إلى تمأسس وتأخذ وضعاً رسمياً، أما النمط الإنتاجي فيعتمد على بنية أكثر سرعة وإنتاجية، بفضل قوة قرار الحكم المناسب للمؤسسات الجديدة.

وفـي هـذا الوضـع لا تعبـر التمأسسـات الاجتماعيـة والسياسـية عـن أي معنـى بمفردهـا، ولكـن الوضـع الـذي ظهـر نتيجـة التـأثير الخـلاق للهويـة الإيديولوجيـة مـن الأعلـى، وضـغط الظـروف الاقتصـادية مـن الأسـفل، سـيؤدي بالنتيجة الى تكون وضع الدولـة وهو مـا يمكن فهمه الآن بشكل أفضـل، وتكـون الدولـة بمفردهـا فـي وضـع وسيلة معتدلـة أو غيـر منحـازة، وتعـاني مـن التـأثير الشـديد لقـوة الهويـة الإيديولوجيـة مـن الأعلـى، والقـوة الاقتصـادية الحاكمـة مـن الأسـفل، القـوة الاقتصـادية والاجتماعيـة تتفـق دعمـاً لمصـالحها مـع الهويـات الإيديولوجية التي تراها منسجمة وتولد شكل الدولة الجديـدة، فبينمـا تقوم بتحطيم البنـى الشـكلية القديمـة غيـر المناسـبة تقـوم ببنـاء المؤسسـات الشـكلية الجديـدة، ويحـاول بهـذا تـرك بصـماته عليهـا، ويكتسـب التعبيـر الإيـديولوجي والأسـاس الاجتماعي والطبقي لنمط الدولـة الجديد الـذي تشكل فـي إطـار الوضـع المذكور صـفة رسـمية لتصـبح القـوة القانونيـة الحاكمـة لكـل النظـام الاجتمـاعي، وتحقـق مشروعيتها في صفوف جميع قطاعات المجتمع من خلال الدعايـة المكثفـة، ويـتم تقديسـها كأسـمى عضـو، وتقـدم لهـا التحيـة تحـت رايتهـا، ويشـهد تجديـد كـل المجتمعات الطبقية مراحل مشابهة لذلك، وبنفس المنطـق، وان اختلفت التشكل حسب اختلاف ظروف الزمان المكان.

المجتمع الطبقي الرأسمالي باعتمـاده علـى كافـة التراكمـات الحضـارية وفـي ظـروف عـدم كفايـة الأيديولوجيـة والإنتـاج الإقطـاعي أسـتند إلـى تراكماتـه الجوهريـة وتطـور تـدريجياً عبـر مرحلـة طويلـة، وأدى تخلـف الملكيـات المطلقـة وسلوكها المتعصب إلـى قيـام الإصلاحات السياسية وحـدوث مـا يشبه الثـورات والقلاقل في كثير من أنحاء العالم، وفي مقدمتها بريطانيا في القرن السـابع عشـر عـام 1640، وفرنسـا القـرن الثـامن عشـر فـي فرنسـا عـام 1789، وعـدة بلـدان أوربية ومناطق أخرى كثيرة في العالم في القرنين الـتاسع عشـر والعشرين وقد لعبت هذه الثورات التي كانت تتزعمها الطبقة الاجتماعيـة الجديـدة التـي اكتسبت شخصيتها دورهـا الأساسـي فـي خلـق مؤسسـاتها السياسـية الأصـيلة، ويظهـر دور البرجوازيـة كطبقـة أساسـية، وبمعنـى آخـر أن الطبقـة الاجتماعيـة الجديـدة أثبتـت نضجها من خلال تحولها إلى دولة، فالطبقة الاجتماعية التي لا تتحـول إلـى دولـة تبقى موضع نقاش، ويظهر وضـع غيـر مستقر ومؤقت، إمـا انهـا ستحكم وتصـبح طبقة سياسية رسمية، أو سيحد من شأنها، وستتحول الـى طبقـة تعمـل فـي خدمـة مصالح النظام الرسمي، أي يتم إدارتها من الأسفل. وستتخذ الطبقـة والقطاعـات التـي تلعـب الـدور الأكبـر فـي الإنتـاج مواقعهـا الجديـدة كطبقـة وقطاعـات أساسـية للنظام، وتنسلخ عن الواقع.

يأتي الوطن والقوميـة والجمهوريـة والمواطنـة والعلمانيـة والديمقراطيـة والحقـوق وحقـوق الإنسـان فـي مقدمـة المؤسسـات التـي تشـهد تغيـراً كبيـراً فـي

مضامينها، والتي تكتسب أهمية مع تطور الحضارة الرأسمالية، ويشهد مصطلح حقوق الإنسان توسعاً من خلال الانفتاحات الجديدة كل يوم، وتتجاوز جميع تلك المصطلحات عبر تطورها المعاني التي عبرت عنها في البداية، وتحصل على معانٍ جديدة.

إن فهم المصطلحات والمؤسسات الأساسية التالية للحياة الاجتماعية سيسهل فهم المجتمع الرأسمالي:

1- الوطن: هو أسم يطلق على مناطق جغرافية تعيش فيها قطاعات اجتماعية تجمعها روابط عضوية متشابهة لنظام اجتماعي ما، وتشكل أرضية للالتزام لما تشمله من آمال المستقبل بمقدار تراكمات الماضي، ولم يكن مصطلح الوطن قد تطور في نظام المجتمع المشاعي البدائي، حيث لا يجد المجتمع حاجة للارتباط بمكان ما، لكونه يركض وراء الصيد وجمع الأعشاب بشكل دائم، ولذلك لم يتكون لديه مصطلح الوطن أو البلد، ولم يتطور مفهوم بلد ممأسس أو متمركز لأنه لم تتشكل القيم التي تربط حياته به. لقد ظهر نمط من الحياة القروية المستقرة مع الثورة الزراعية، بحيث تحققت وحدة أوثق مع الأربعة، وبذلك أكتسب المكان معنى لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة لحياة المجتمع، وازدادت أهمية قطعة الأرض أو المكان مع الزراعة وتربية الماشية، وبنفس مقدار التمركز والتجمع حول الأم يتطور الارتباط بالأرض المعطاءة، ويتم تشبيه الأرض بالأم، وتغدو المساحات التي تعيش فيها التجمعات التي يزداد عددها قرى خاصة بها، ويترسخ في الذهن مفهوم يقضي بعدم إمكانية الحياة بدونها، وتفضي الذكريات المشتركة وظروف الإنتاج المادي، وأحلام المستقبل، الى إضفاء هالة من القدسية على الجغرافيا التي يتم العيش فيها، وعندها يكون لا بد من تكوين مصطلح البلد أو الوطن على هذا الأساس، وبهذا يتحول البلد الى جزء لا يتجزأ من الحياة المادية والمعنوية.

يشهد هذا التطور تقدماً مع المجتمع الطبقي. فولادة الدولة كجهاز إداري مشترك للمعبد المقدس والمدينة والملكية والتجارة، يؤدي إلى مفاهيم الحدود الداخلية والخارجية التي تستوجب الشعور بالمسؤولية تجاهها، وفي الوقت الذي يرى المجتمع كل ما داخل هذه الحدود عائداً له، وما خارجه يعود للأجانب، تتم تسمية قطعة الأرض التي يتم رسم حدودها من خلال سيطرة الدولة بمصطلح الوطن، وتسمية الأراضي الواقعة خارج الحدود بالأراضي الأجنبية، وقطع مصطلح البلد شوطاً كبيراً في عصر السومريين، الى حد السمو به ليماثل الجنة، أي الى " ديلمون" فكلمة "ديلمون" في الميثولوجيا السومرية تعني الوطن الجنة، وحافظ هذا المصطلح على نفسه ليصل إلى يومنا هذا، ولم ينجح أي مجتمع برفع شأن مدنه وأراضيه مثل السومريين. وأعتقد أن السبب

الحاسم في ذلك يعود إلى حياة المدنية، والحصول على إنتاج غزير ومتعدد الأنواع لأول مرة بهذا الشكل، وتم وصف عدم امتلاك وطن، وتحوله إلى أطلال أو احتلاله بالكارثة، وقد طوّر السومريون الملاحم الأكثر مأساوية في التاريخ عند انهيار حضارتهم المدينية، وشكل فقدان الوطن جوهر ملاحمهم، ومازالت تحافظ على كونها أفضل الإنجازات الأدبية الأصيلة حتى يومنا هذا.

نرى القفزة الكبيرة الثانية المتعلقة بمصطلح البلد والوطن في ظروف ظهور المجتمع الرأسمالي. لقد أنقذت "يوتوبيا" توماس مور و"بلاد الشمس" لكامبانيلا، العالم من ظلال الإيديولوجيات الدوغمائية التي حولت الحياة الدنيا إلى جحيم، وقيمتها على أنها الخطيئة والذنب، وأحيت حلماً بتحويل العالم والمجتمع الذي يعيشون فيه إلى ساحة حياة مثالية، ولم يتنازل كلا المثقفين عن "يوتوبيا" الإنسان الجديدة رغم تعرضهما لمآسٍ كبيرة.

إن الحياة الدنيا وإنشاء المجتمع المثالي وحرية الفرد متداخلة مع بعضها البعض في الهوية الإيديولوجية للتنوير، وقد تم إعادة خيال الجنة إلى الأرض مرة أخرى، والعيش في حالة شاعرية أمام الحياة الجديدة بمقدار السومريين.

البنية الإنتاجية للمجتمع الرأسمالي وتمأسس الدولة جعلت مفهوم الوطن أكثر ترسيخاً، وغدت المشاكل الحدودية أكثر جدية بسبب العلاقة بين السوق الوطنية واللغة المشتركة والوعي التاريخي، وبين مصطلح الوطن عن قرب، ويتم التفكير بالحرب من أجل "شبر من أرض الوطن الأم "، وتأخذ ظروف الرأسمالية شكلها حول محور الربح، ويتصف بالتحريض على الحروب بين البلدان مع مرور الزمن، وتتحول الوطنية التي كانت تتضمن معنى تقدمياً ومقدساً في البداية، إلى عواطف شوفينية وعدائية ارتباطاً مع مفهوم الأراضي الواسعة تعني الربح الأكثر، ويؤدي ذلك إلى حروب غير عادلة، ولذلك فقد أدى التطرف الرأسمالي حيال مفهوم الوطن مع التطرف القومي إلى ظهور أكثر الحروب دموية في التاريخ، وتتم محاولة تلافي الأنانية عند الرأسمالية بتطور معاكس أي بـ " العولمة ".

لم تحصل المجتمعات التي تعيش حول ثقافة مشتركة عبر التاريخ على مفهوم الوطن الحر بشكل كامل، بسبب دوغمائية القرون الوسطى وشوفينية الرأسمالية وخصوصيتها الاحتلالية سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، وتفكر المجتمعات دائماً بالعيش في وطن حر كهدف مصيري، وعندما لا تناله بالطرق السلمية تحاول نيله عبر الحروب العادلة، ويكون العيش بدون وطن أو في وطن الآخرين، السبب الأساسي لصب اللعنة عليه ، وظهور الأفكار المنحرفة وفقدان الكرامة وعدم التفكير وغياب الأصالة من خلال السير وراء الغرائز والحياة

العمياء للأرواح القذرة العديمة المعنى وصولاً إلى الانتهاء والفناء.

2ـ إن مصطلح **القومية "ULUS"** هو من أكثر المصطلحات والظواهر الاجتماعية التي تطورت في ظروف المجتمع الرأسمالي، و بشكل آخر يمكن القول: إن الوعي القومي وتطور روابط القومية كظاهرة اجتماعية، هي من الخصائص الأساسية للمجتمع الجديد، وتلعب الرأسمالية دوراً أكبر من جميع الأشكال الاجتماعية الأخرى في تطور الوعي القومي وبناء كيانها بنفسها، فلقد حققت القومية تطورها الأساسي لأول مرة في بداية المجتمع الرأسمالي.

تبدّل شعور التبعية الأساسي من الدين إلى القومية، وأصبحت الروابط الدينية في المرتبة الثانية، بينما تصدرت الروابط القومية المرتبة الأولى، وحل التطرف القومي محل التطرف الديني، ولعب التطور القومي دوراً تقدمياً في كسر أسوار الإقطاعية وإضعاف مفهوم الأمة الخاص بالقرون الوسطى، وتطوير وعي السوق القومية والتاريخ والثقافة المشتركة بدلاً منه، ولعب نمط الإنتاج الرأسمالي دوراً إيجابياً في ذلك، لكنه عندما جنح إلى الانفصال تقمص شكل دين جديد، ووضعت القومية الشوفينية أساس عداوات جديدة عبر مفهوم التفوق ـ الذي لا يعتمد على أساس واقعي ـ حيال الشعوب الأخرى، وأخذت الحروب القومية مكان الحروب الدينية القديمة، ولجأت الطبقة الرأسمالية إلى لعبة تحريف الهوية الإيديولوجية التي تقوم بها جميع الطبقات المستغلة الحاكمة من أجل تغطية مصالحها، وتوجيه الأنظار إلى اتجاهات أخرى، وتحتدم هذه اللعبة ويتكرر احتدام الصراع الطبقي، وتتم مواصلة اللعبة بالقناع القومي وبطولاته، لتتخلى أقنعة اللعبة الجديدة من المظهر الديني والإلهي. أما الشعوب التي لم تحصل على هويتها القومية، فقد خطت خطوات إيجابية نحو الوعي القومي والتضامن والحرية، ولعب المفهوم القومي المتطرف دوراً سلبياً في نمو الشعور الشوفيني عبر ملء الفراغ الذي تركه الدين في حياة الفرد. أدى هذا الوضع الذي اكتسب ثقلاً في القرن العشرين إلى الانقسامات في العالم الإنساني، وخلق الحقد والشوفينية القومية كغذاء إيديولوجي رئيسي للحروب الدامية، وسمم المجتمع الدولي وطوّر موقفاً مضاداً للإنسانية، حيث نجد أن القومية تصل إلى حالة مرضية مع مرور الزمن.

تطور مفهوم الدولة القومية مع تطور ظاهرة القومية، وفي الحقيقة إن الدولة القومية ظاهرة غير موجودة جوهرياً في الأصل، وكما لا يمكن أن تكون هناك دولة تمثل كل المجتمع، فلا يمكن أن تكون الدولة لكل القومية، وتحمل الدولة غالباً طابع الطبقة الحاكمة من الناحية الاقتصادية والاجتماعية، وعندما تتوحد كل مصالح المجتمع القومي، يمكن التحدث عن الدولة القومية بشكل نسبي ضد نظام الملكية المطلقة الذي يمثل الطبقة القديمة، ومع تطور الفرز الاجتماعي

تخرج الدولة عن كونها دولة قومية، وتتحول إلى أداة ضغط لخدمة مصالح الطبقة الحاكمة، ويتحول المفهوم القومي كما في الدين إلى قناع يخفي المصالح المادية الظاهرة من خلال التلاعب به.

3 ـ **الجمهورية:** هي الراية الأخرى التي لوحت بها الطبقة البرجوازية من أجل القضاء على ملكية الدولة الإقطاعية المطلقة (المونارشية)، ولم تشهد أي تطور ينسجم مع جوهرها، رغم أنها تعني حكم الشعب كمصطلح، لكنها نظام دولة تقدم خدمات كثيرة للتطور باتجاه المجتمع الحديث عند مقارنتها بالملكية والأوليغارشية، وقد عاشت الأنظمة الجمهورية التي لم تجد سوى تطبيقات محدودة في العصور الأولى والوسطى تطوراً كبيراً مع الثورة الفرنسية.

يتميز النظام الجمهوري بالصفة التعليمية والتدريبية كونه يشد أغلب قطاعات المجتمع إلى نقاش سياسي، ويرغم على تشكيل الأحزاب السياسية، ويشجع على تعلم فن السياسة. التيارات الجمهورية تتناقض مع الأنظمة الملكية المطلقة والأوليغارشية والدكتاتورية، هذا بإصلاح الى انها تمثل التطور الثوري والديمقراطي للنظام، والنظام الجمهوري يكون علمانياً من الناحية الإيديولوجية ويتصدى لأية دوغمائية دينية، ويعتمد أساساً على إيديولوجيا دنيوية وتنويرية، ويستند إلى حركة تنويرية وإصلاحات ضد ظلام القرون الوسطى، ويستخدم العلم من أجل التنوير، لكن المصالح الأنانية للطبقة الرأسمالية من جهة، وعدم رغبتها في تقاسم السلطة مع الطبقات الأخرى العاملة من جهة ثانية، يعرقل تطوره باتجاه الديمقراطية رغم أهميته كمؤسسة سياسية من خلال مواصفاته المذكورة، ويتحول إلى جهاز فارغ من الداخل، ولم يتبق اليوم أي نظام إلا ويدعي أنه أصبح جمهورياً ولو بالكلام فقط، والجمهورية هي أكثر الأنظمة التي انقطعت عن جوهرها وابتعدت عنه. إن أكبر خطر للنظام الجمهوري هو الوقوع في وضع لا يختلف فيه عن أي جهاز دولة تقليدي، يجب الا يبقى وسيلة لاخفاء المصالح الطبقية الضيقة، أو للتناقض مع مصالح القومية أو الأنانية. بل يتحول إلى جهاز مخادع يتحرك خلف ظله الأوليغارشيات التي تمثل سلطة زمرة ضيقة، لا يتورعون عن تقديم أنفسهم كرؤساء جمهورية رغم قيامهم بشد الخناق على الجماهير وكتم أنفاسها بشكل يتجاوز المجتمعات الديكتاتورية.

كل هذه الأسباب تدل على أن الجمهورية هي نظام أزمات، وبتطور المقاييس الديمقراطية قد تنقذ الجمهورية من أزماتها.

4 ـ إن **المواطنة** هي إحدى المصطلحات الأخرى التي تكتسب أهمية، فعندما ننظر إلى التطور التاريخي نرى أن الفرد الذي عاش كعضو في مجتمعات مختلفة ابتداءً من القبيلة الأولى ودولة المدينة الأولى وصولاً الى

المواطنة في الإمبراطورية وحتى العضوية في الدين والطريقة الصوفية، لم يتم إخضاعه لممارسة شاملة الا في نظام الدولة البرجوازية، وإن هذا المصطلح الذي يستخدم بشكل واسع للدلالة على مواطنة الجمهورية يعني في جوهره العضوية في الدولة، وهذا هو الصحيح، ولا يتناسب عضوية العشيرة أو الأمة الدينية أو خدم الإمبراطورية مع المواطنة، فالحد الأصغري للمواطنة هو المساواة الحقوقية، بينما لا تعترف كل التجمعات الأخرى بهذه المساواة بسهولة، وتعتبر المواطنة خطوة متقدمة حتى ولو لم يظهر مضمونها تطوراً كبيراً نحو الحرية، والمشكلة تكمن في شحن مضمونها بقيم الجمهورية، ويتحقق ذلك عبر تربية الذات في المسائل الأساسية كالحرية الفردية والتحرر والتنوير والمشاركة السياسية، وتأتي الديمقراطية من أجل الشعب والمواطنة الحرة من أجل الفرد على رأس المؤسسات التي ازدادت أهميتها اليومية كمصطلح أساسي.

مارست جميع السلطات الاجتماعية عبر التاريخ سياسة صهر الفرد حسب مصالحها، ويهدف هذا الإجراء إلى إعداد الفرد حسب تقاليد وقوانين مجتمعاتها، وتهدف جميع المؤسسات ابتداء من الميثولوجيا والسجون وجميع ساحات الإيمان وحتى المؤسسات التي تحكم بعقوبات مادية إلى إيصال الفرد للوضع المطلوب وإدارته، وباتت السياسة التي تمارس على الفرد من قبل الدولة في ظروف المجتمع الرأسمالي أكثر تعقيداً، فلم يتم الاكتفاء بفرض الضرائب والخدمة الإلزامية، بل يتم ربطه بإيديولوجية رسمية لا تقل عن الدوغمائية الدينية، حيث يراد خلق مواطن مصطنع يتم التخطيط لشكله الذهني والروحي بشكل مسبق واعتماداً على الإمكانات التقنية، وهكذا يتطور التمأسس الذي يسمى بالعبودية المعاصرة، وفي الحقيقة يتم تحجيم الانطلاقة الفردية الموجهة بدوغمائيات اقتبست من ولادة الرأسمالية بطريقة محكمة وخبيثة، ويتم خلق مجتمع وفرد موجهين لم نشهد له مثيلاً في التاريخ بفضل تقنية الاتصالات الهائلة. إن الخطر الكبير ينبع من هنا لأن هناك رغبة في خلق توازن للفردية المتشنجة من خلال توجيه مجتمعي متشنج.

إن كبرى النقاشات والمشاكل التي يعيشها نظام الحضارة الرأسمالية تشاهد في مرحلة التوازن هذه، إلى أي درجة يستطيع المواطن ان يحدد مصيره بآماله في مستقبل حر ولغته وثقافته وإيمانه ووعيه التاريخي في إطار حالته الطبيعية..؟، وإلى أي درجة يستطيع المجتمع الرسمي تحقيق سيادته من خلال قوالبه..؟ يحاول المجتمع المدني وحقوق الإنسان ومنظمات البيئة كمؤسسات خارج نطاق الدولة تعريف المواطنة من جديد، وتعبر مواقف الأديرة والطرق الصوفية المنتشرة عبر مراحل التاريخ عن رد فعل حيال النظام، وتقدم للفرد موقعاً يكون فيه قادراً على التنفس قليلاً، وتشهد هوية المواطنة التي تفرضها السلطة وتخطط لها وهوية المواطنة الحرة التي يحاول المجتمع المدني تعريفها،

صراعاً ونقاشاً جاداً، يمكنه أن يساهم في ظهور الهوية الإيديولوجية التي ستحدد مسار التطور الحضاري الجديد، ويمكن أن تجعل هذه النقاشات المرحلة الجديدة أكثر نجاحاً، لأنها تعتمد على جميع أبعاد المجتمع والمعلوماتية ووسائل الاتصال المتطورة، ولا سيما بعد فشل الماركسية في بحثها عن الهوية، بسبب النقاشات الضيقة التي استندت على البعد الاقتصادي غالباً.

5 ـ مبدأ **العلمانية** هو من أهم المبادئ الثورية للطبقة البرجوازية التي تستند على الحرية والدنيوية من أجل التخلص من طوق الكنيسة إيديولوجياً وسياسياً، ولا يمكن القول بأنه استطاع تطوير البديل، الا أنه تطور كرد فعل على الواقع. كانت قوة إيديولوجية الطبقة البرجوازية في البداية محدودة جداً في تحليل الدين والله بشكل صحيح، ولم تذهب انطلاقتها الأكثر راديكالية الى أبعد من الإنكار الفظ للدين والله. وتبني الماركسية التي تدعي أنها تمثل الطبقة العاملة لهذا الموقف كما هو، خلق نقصاً إيديولوجياً جاداً.

أضعف جوانب العلمانية هو عدم استنادها إلى تحليلات دينية صحيحة، ولم يكن علم الاجتماع قد تطور كفرع علمي عند ظهورها، وكانت المواقف النقدية حول الدين تتطور حديثاً، وكانت الشجاعة العلمية تولد من جديد وتحاول الانسلاخ عن الدوغمائيات الدينية، وكانت المحاكم الدينية تفرض عقوبات بلا رحمة، مما أدى كل ذلك الى إنطلاقات علمية مفعمة بالخوف والعاطفة والتمرد، في حين ان الفلسفة شهدت وضعاً مشابهاً أمام الدين الرسمي لأثينا، إذ حكم على سقراط بالموت لاتهامه بمناهضة الدين، في حين ان أرسطو نجا بنفسه هرباً، واقتسم كثير من الفلاسفة نفس القدر.

لقد عاشت الأديان التوحيدية التي تعود جذورها إلى النبي إبراهيم نفس الوضع أمام الأنظمة التي كانت تتخذ عبادة الأصنام ديناً رسمياً لها، ويجب ألا نندهش من ان تقدم الانطلاقة العلمية "شهداء العلم" عندما حاولت التطور، بتهمة الإلحاد بإصلاح الى تهم أخرى أقسى من ذلك، فكانت حرب العلم ضد الدوغمائية من أصعب المراحل التي مرت بها ولادة المجتمع الجديد، والعلمانية هي الجانب السياسي لهذه الحرب، ومن الواضح أن حظها في النجاح كان سيظل ضئيلاً لو لم يكن أساسها العلمي قوياً وصلباً، وما يجب القيام به هو محاكمة الدولة المعتمدة على الهوية الإيديولوجية التي تشكلت حول أولى معابد الكهنة السومريين.

الدولة منذ ولادتها وتطورها المستمر عبر التاريخ كانت نتاج العنف الذي تستخدمه الدوغمائية الدينية، لقد وضع السومريون مبدأ الدولة ومن أهم خصائصه هو تحويل الإنسان إلى عبد وجعله مرغماً على أن يكون خادماً عبداً، ولم تغير مبدأها المذكور حتى يومنا هذا، ويتم تلوينه بألف لون ولون، فالدولة

هي انعكاس سياسي للميثولوجيا المستندة على المنطق الفج للنظام السماوي "حركة النجوم والشمس والقمر التي تكرر نفسها دائماً"، الذي لم يكن الكهنة السومريون يعرفون وجهه الداخلي، وكانت الدولة وسيلة كذب وإكراه للنظام العبودي الذي بدأ بأكبر استغلال لجهد الإنسان، إن خاصية الدولة هذه تنبع من جوهرها، فقد تم الاعتماد على معلومات النظام الأكثر فجاجة عند خلق الدولة، ويكون هذا تعبيراً عن الإرادة الإلهية التي لا حدود لها على الأرض، واتخذت الدولة عند ولادتها نمطاً تستطيع معه أن تحاسب الجميع دون ان يحاسبها أحد، وجعلت ذلك مبدأً أساسياً لها، فميلاد الدولة يستند إلى القدسية، حيث تأخذ ما تريده من الجميع ويتم تقديم كل شيء لها بما فيه الروح وبلا مقابل.

لم يتخذ الكهنة السومريون أية تدابير عند خلقهم لأكبر وحش اجتماعي غاضب، ولم يتم التفكير قطعاً بحق العبيد حتى كمصطلح، فالمبدأ السومري هو " الدولة كل شيء والفرد لا شيء"، وبهذا الشكل تحولت الدوغمائية إلى دولة، وولدت الدولة بآلهتها المقنعة بالكذب والقوة والفجاجة والعنف، وبقضاتها الذين لا يحاسبهم أحد سوى الآلهة وبموظفي الضرائب الذين ينهبون كل شيء. وعندما كان هذا المخلوق في مرحلته الطفولية هكذا، فقد تم تطويره بعد توفر إمكانيات الاستغلال بالكذب والإكراه، وتم تلوين أقنعته كي لا تكشف أو تسقط، وتم تثبيته بالمسامير من جميع جوانبها، فحتى الماركسية لم تستطع التخلي عن الوقوع بموقع مخادع وتقوية الدولة بتثبيت مسامير أكثر وبشكل لا يوصف، وأثبتت هذه التجربة ان الدولة لا تمثل فقط القوة الذكورية القسرية المقنعة بألف قناع، بل تظهر بقناع عاهرة متبجحة جذابة، لا يتخلص أي عبد من عباد الله من شرها، وبهذا يتأكد انها - أي الدولة - مخلوق غير شرعي ومزدوج الجنسية، وهي عشق غير مشروع مزدوج الجنس ليس للبرجوازية فقط بل للبروليتاريا أيضاً.

الغريب أن المعابد السومرية التي كانت رحم الدولة، هي أولى الأماكن التي ظهر فيها انحلال وعهر الرجال والنساء، وكانت الدولة ذات النمط السومري تشعر أنها غير قادرة على مواصلة الاستغلال كما تريد دون تحويل الرجل والمرأة إلى عاهر وعاهرة، ففي الوقت الذي كانت الحقيقة ملموسة إلى هذه الدرجة، تقوم الأفكار الميثولوجية والدينية والفلسفية والعلمية التي تطورت أغلبها على شكل يؤكد ذلك الواقع، والقليل منها جاء على شكل انتقادي لتطوير مصطلحات ونظريات عديدة قامت بمهمة إخفاء العلاقة الاستغلالية الواضحة، لأنها كانت ستكون مؤثرة ومديدة التأثير بمقدار قوتها على إخفاء الحقيقة وتقديمها بشكل مشوق كضرورة لعهرها.

يجب على المبدأ العلماني أن يستهدف نمط الدولة السومرية حتى يتمكن لعب دوره بشكل تام، ولم تكن قوة معلومات ومصالح البرجوازية ملائمة

لذلك، لقد أظهرت ممارسات الاشتراكية المشيدة في ظروف الرأسمالية أنها لا تنوي تجاوز النمط السومري للدولة، بل أثبتت بأنها أفضل من يطبق دولة سومر، ومازال النقاش حول العلمانية صحيحاً ويحافظ على أهميته وإذ يتطلب تطوير العلمانية نحو الجوهر، ويعني ذلك أن معارضة مسألة قيام الدولة اعتماداً على الدين كأداة للسياسة لا يكفي من أجل العلمانية، ويمكن للعلمانية أن تستهدف نمط دولة سومر المستند إلى الدوغمائية الدينية حتى تتمكن من لعب دور تاريخي كبير، إن ما تقوم به الحضارة الأوروبية يقتصر على نقد بعض الأقنعة الخاصة بالدولة والتي ليس لها معنى، وهي بعيدة عن أن تؤدي إلى تحول جذري في الجوهر، بل أنها تقوم بتقوية بعض جوانب الدولة وتوصلها إلى خطر كبير، وعند مقارنة دولة القنبلة النووية بالدولة ذات القناع الإلهي، نجدها أكثر فظاعة، إن ما تقوم به أوروبا هو الدخول إلى زواج رسمي مع عاهرتها، والنتائج التي أدت إليهما الحربان العالميتان وكثير من الحروب الإقليمية، تظهر مدى نجاحها وما ستؤدي إليها من مخاطر في المستقبل.

إن العلمانية هي من أهم القضايا الأساسية التي قد تؤدي إلى نقاشات وصراعات كبيرة في الشرق الأوسط، لأن الدولة المستندة إلى الدوغمائية هي نتاج شرق أوسطي، إذا لم يتم رفض الدولة الدوغمائية من جذورها لا يمكننا التحدث عن نضال علماني حقيقي، وإذا كان لابد من حركة تنوير شرق أوسطية، فإن الشرط الأساسي لذلك هو تناول الدولة الدوغمائية بكل جوانبها منذ ولادتها وحتى الآن بنظرة نقدية تحليلية، وتحديد الخصائص التي يجب تجاوزها، وبرمجة الإجراءات البديلة، وخوض نضال ناجح في سبيل حرية الفكر أولاً واعطائه الأهمية اللازمة، ويكتسب تثمين للجهود المبذولة من أجل الديمقراطية والقيام بالنشاطات اللازمة في سبيل نجاحها إن كان ذلك على أساس علماني أو ديني أهمية كبيرة، وسيكون قدر التنوير في الشرق الأوسط والبحث عن الحضارة الجديدة مرتبطاً بنتائج هذا النضال بعض الشيء.

6 ـ إن **الديمقراطية** هي المؤسسة الهامة التي طورتها الرأسمالية، ويعود أساس النظام الديمقراطي الذي يتشكل عن طريق انتخابه من قبل جميع المواطنين، إلى فرز المجتمع القبلي. إن إدارة الحكم عبر تأييد جميع أعضاء القبيلة هو إرث ديمقراطي، ويتم التعبير عن الديمقراطية في المجتمع الطبقي بمجلس تمثيل يتشكل من وجهاء الطبقة الحاكمة، ونرى في كل المجتمعات الطبقية تمأسسات ابتداءً من التنفيذ حسب قوتها، وحتى دورها كجهاز استشاري، ولكن الملكية التي ازداد دورها خلال فترة قصيرة أزالت الإرث الديمقراطي، ونرى البذور الأولية للديمقراطية عند السومريين، لكن تطورها الأصلي قد حدث في دولة مدينة أثينا. أخذت ديمقراطية أثينا المستندة إلى رجال طبقة الرق الحاكمة شكلها الأول الكلاسيكي، ووصلت إلى طابعها الخاص استناداً على

النقاش الموسع، وتأثرت بالفكر الفلسفي وامتلكت ظروفاً مناسبة من أجل التطور. فبقدر ما تتوفر الديمقراطية في مكان ما تظهر إمكانات المناقشة وتطور مختلف الأفكار.

مع امتلاك الجمهورية أجهزة إدارة مستندة إلى الانتخابات، وعدم وجود انتخابات يشارك فيها جميع المواطنون، وانفتاحها على مصادقة أصحاب القوة الذين يتم تعيينهم مسبقاً، أدى إلى تحديد طابع الديمقراطية، ومثلما لا تكون كل جمهورية ديمقراطية، فليس من الضروري أيضاً أن تكون كل ديمقراطية جمهورية، ويمكن أن تكون الملكيات ديمقراطية. العامل الحاسم للديمقراطية هنا هو أسلوب السياسة الديناميكي الذي يمثل طابعاً يعتمد على الدفاع عن مصالح جميع المواطنين، واختيار السلطات التنفيذية عبر الانتخابات ومراقبتها ومنح المواطن إمكانية المشاركة في تحديد السياسة اللازمة، ولذلك يتم تقيمها كأفضل نظام عرف حتى الآن، ومن الواضح أنها ستحمل صفاتها هذه حتى يظهر حكم أفضل منها، ولكن مشاكلها تنبع من الممارسة والتطبيق.

لم تبد الطبقة البرجوازية اهتماماً بتطوير الديمقراطية رغم أخذها بعين الاعتبار، وذلك لإدراكها بأن الديمقراطية ستضايق حكمها الطبقي على مستوى كبير، و يتم كتم صوت جميع المؤسسات الديمقراطية عند التحدث عن الربح الفاحش، وتقترب من الحلول الديمقراطية عند الأزمات الكبيرة وذلك لتتخطى الانهيار تماماً. تتميز الطبقة التي تطور ديمقراطيتها أكثر من غيرها بخصائص كالثقة بالنفس والتجربة والأفق السياسي الواسع. وقدمت الطبقة البرجوازية الأوربية للمشاريع والمؤسسات الديمقراطية قوة لتكون أكثر شمولية في التاريخ من خلال إظهار قدراتها، وأثبتت تفوقها أمام القطاعات الاجتماعية التي تدعي أنها ستمثل الجديد، بمقدار التفوق الذي أثبتته أمام الأطلال الاجتماعية القديمة من خلال تجربتها الثورية الغنية الطويلة وتحليلها لعلاقة السياسة بالقوة بشكل صحيح. لقد أظهرت الممارسات الأوربية أن الديمقراطية نظام يمكن أن يتطور أكثر من غيره، ويصبح مؤسسة حضارية معاصرة مستهدفة مع مرور الزمن، ولذلك فإن تسمية عصرنا بعصر الحضارة الديمقراطية يعبر عن حقيقته.

ينبع الجانب الهام للديمقراطية من نمط حلها للقضايا الاجتماعية، أكثر من أن يكون من بنيتها الإدارية، وإذ كانت جميع الأنظمة الحاكمة حتى الآن قد اتبعت أسلوب التصفية القسرية، حتى يتم توازنها بقوة مضادة، أو إنهاءها عن طريق إخضاعها، وهذا هو منطق التاريخ الكلاسيكي عموماً، إلا أن الحل الديمقراطي يقدم مواقف جديدة في إطار منح الحقوق حتى للضعفاء في المجتمع، والمحافظة على ضمان الحياة وحرية التفكير والتطور وحماية وجوده الثقافي، واستطاع طرح عدة حلول لقضايا صراعية ومتشابكة، ويرتبط تفوق أوربا

أساساً بنمط هذا الحل بشكل وثيق، ولا شك أنه من أكثر الأنظمة التي تنتج حلولاً مثمرة، لأنه نموذج اكثر إنسانية وعلمية ويحافظ على مصالح جميع المواطنين، ويظهر المستوى العلمي والقوة التقنية للإنسانية على أنها يمكن أن تقدم حلولاً في إطار المقاييس الديمقراطية لأية مشكلة دون الحاجة لثورات دامية، بمعنى أن مستوى التطور العلمي والتقني قد استطاع الوصول إلى المستوى المطلوب لأول مرة من أجل ممارسة الديمقراطية بشكل كامل، وبمعنى آخر في حال تكامل المستوى العلمي والتقني مع نظام ديمقراطي صحيح وكامل، يمكن الوصول إلى كل الظروف المادية التي تكون قادرة على حل أية مشكلة، ويمكن تقييم الظروف المادية للنظام الاشتراكي الذي تمت مناقشته مطولاً في المراحل القديمة بشكل أو بآخر، لكن لا يمكن الشك بأن الحضارة الحديثة قد أعدت الظروف المثالية من أجل الديمقراطية، وهذا الواقع يثبت أن جميع أنواع التغيير بما فيها التحول الحضاري ممكنة في جو النظام الديمقراطي.

7- إن إدارة الدولة المستندة إلى سيادة **الحقوق** هو تمأسس هام يتطور في هذه المرحلة. إذ يوجد في كل مرحلة تواجدت فيها الدولة نظام يستند إلى قواعد مؤيدة ومساندة تسمى "الحقوق"، وأكثر من ذلك أن الدولة هي منظمة تنفيذ نظام القواعد للقوى الحاكمة، وتتميز عن بقية التنظيمات الاجتماعية بشمولها لكل تلك المنظمات، ووجودها في موقع الآمر. إن الحقوق بمعناها الضيق هي قواعد منظمة للدولة تعمل على تنظيمها داخلياً، وتشمل جميع القواعد التي هي قيد التنفيذ بينها وبين المواطنين من جهة، وبين المواطنين أنفسهم من جهة أخرى، ومجمل هذه القواعد تسمى القوانين، إن تسمية هذه القوانين التي ظهرت في مرحلة قوة الدولة، وحسب مصالحها بالـ "حقوق " يكون تعريفاً ناقصاً، لأن مصدر الحقوق أوسع من ذلك، وتعتبر العادات والتقاليد القديمة وأعمال رجال العلم النظرية والعلمية في مجال الحقوق والموضوعات الحقوقية المتبقية من الماضي هي مصادر أساسية لنشأة الحقوق، إن هذه المصادر لها صفة إلزامية حتى للدول.

إن المسألة الأساسية الأخرى المتعلقة بالحقوق هي علاقتها بالعدالة، ولا يمكن تسمية قواعد الدولة التي ليست لها علاقة بالعدل بالحقوق، أما العدالة فهي تحديد المواطنين لإرادتهم بحرية، وهكذا تكون الحقوق مميزة عن دولة القانون عندما تستند إلى الإرادة الحرة للمواطنين، ويمكننا وقتئذ التحدث عن نظام حقوقي حقيقي، ولا يمكن تسمية الدولة التي لا تعترف بالإرادة الحرة لمواطنيها كتعبير لمصالحهم العامة والأساسية بدولة الحقوق، وهناك دول عديدة في التاريخ بهذا الوضع. إن أغلب الدول لا تعترف بحريات كيان مواطنيها بل تحاول قمعها، ويتم خلق الحقوق من خلال النضال الذي يخوضه المواطنون ضد هذا النوع من الدولة ولحق يكتسب عبر النضال وكذلك الحقوق كلها، وهناك

الكثير من التطورات تغذي الحقوق باستمرار.

تظهر البنية المعقدة للمجتمع الرأسمالي والظروف التي يستند إليها الإنتاج ونضال الكادحين والقطاعات الاجتماعية الأخرى من أجل نيل حقوقهم، والتزايد السكاني وقلة المواد، والحاجة إلى نظام حقوقي متطور، هذا الوضع يجعل الدولة كبنية معقدة مضطرة لاعادة بناء تنظيمها، لذلك يظهر نقاش حقوقي لا مفر منه في النظام الرأسمالي، وتلعب هذه المرحلة دورها التاريخي في تشكل الأنظمة الدستورية وقوانين الحقوق الأساسية، وتؤدي الحقوق إلى مرونة نظام الصراع الداخلي والخارجي وتنظم مصالح كل شريحة بشكل لا يؤدي إلى العنف، وتعمل من أجل تحقيق مجتمع الحقوق عن طريق الاعتراف بالحقوق الأساسية للمواطنين، تشمل هذه القواعد الدولة وكل الذين يحكمونها.

ومن الواضح أن الحضارة التي طورت هذا النظام القانوني أكثر من غيرها أظهرت تطوراً في عصرنا هذا. ويؤدي البعد الحقوقي للحضارة الذي لعبت فيه أوروبا الدور المؤثر والريادي، أظهر تطوراً أثر فيه على العالم برمته. طبعاً يتم الحفاظ على مصالح الطبقة الحاكمة والقومية والوطن وحتى الحلف الذي ينتسب إليه، وتحاول جعل نظامها الحقوقي الذي أنشأه كونياً من خلال بناء حقوق دولية لمسائل التجارة الحرة والاستثمار، وذلك بالتخلي عن المنهج القسري لمرحلة الاستعمار الفجة والاستناد إلى العلم والتقنية والإنتاج والتفوق السياسي غالباً، وتعني الحقوق الدولية إلى حد ما، انعكاس الحقوق الداخلية على الخارج.

عند دمج الديمقراطية مع الحقوق، تظهر على الساحة دولة الحقوق الديمقراطية المعاصرة، ويتحقق النظام الاجتماعي الأساسي للحضارة المعاصرة الذي يعتمد على الرأسمالية نوعاً ما، لكنه يتجاوزها بعدة جوانب ويكون شكلاً أكثر تطوراً، إن المجتمع الذي يحكمه نظام الحقوق الديمقراطي يكون مجتمعاً حضارياً معاصراً، ويعتقد بأنه يصل إلى حلول أكثر تطوراً مهما واجه من مشاكل، وذلك عن طريق استخدام الخيار السلمي وآلية السياسة الديمقراطية.

8 - إن **حقوق الإنسان** الذي يعني ممارسة الحقوق للفرد، يمثل الهويات الاجتماعية الضيقة التي لا يمكن التخلي عنها، وهي المؤسسة الأساسية الأخرى الهامة للحضارة الحديثة وتتطور باستمرار. يعبر حقوق الإنسان عن النظام الحقوقي الذي يأخذ بعين الاعتبار ويهتم بالقيم المتصاعدة، أي التفكير الحر والأيمان وإرادة الحياة مع تكون الرأسمالية، ومن ثم تحديد القيم الفردية كحق وحقوق بشكل واضح وملموس وثم إعطائها ضمانات قانونية وجعلها قوية ولائقة بالأفراد.

عند التحدث عن حقوق الإنسان، يتم ذكر ضمانات الحرية التي يجب أن يمتلكها الجميع، لأنهم بشر دون تمييز بين الطبقة والقومية والدين والجنس والانتماء الأثني والعرقي، وتشكل تلك الحقوق أساساً من أجل التطور الحر للفرد، وتنقسم هذه الحقوق إلى ثلاثة أقسام، وتسمى حرية الفكر والاعتقاد والتعبير والتنظيم والاجتماع وحق التظاهر والتعليم باللغة الأم، بحقوق الجيل الأول، والحقوق ذات المضمون الاقتصادي والاجتماعي بحقوق الجيل الثاني، وتطوير الشعوب لكيانها الثقافي وحياتها، بحقوق الجيل الثالث، ولا يمكن معارضة هذه الحقوق التي يجب الاعتراف بها على المستوى الكوني بأية ذريعة من الذرائع، ويأتي حق الحياة على رأس جميع تلك الحقوق، وتنص هذه الحقوق على أنه لا صلاحية للدولة في أن تقتل سوى في حالة الحرب.

تهدف حقوق الإنسان التي تشهد تطوراً مستمراً، إلى حماية الفرد أمام قوة الدولة التي تتحول إلى إخطبوط يوماً بعد يوم، ومن المهم حماية الفرد الذي يصبح وحيداً يوماً بعد يوم، في الوقت الذي تزداد فيه صلاحيات الدولة. لقد وقع الأفراد الذين كانوا يمتلكون ضمانات معينة من خلال بعض المؤسسات كالعشيرة والدين والأوقاف في عصور ما قبل الرأسمالية، في وضع يتجه من ضعيف إلى أضعف ويشهد تراجع تلك المؤسسات. إن صعوبات الحياة الفردية وعدم تأمين التعليم والعمل والصحة، تهدد الفرد بشكل كبير، ولا يستطيع أن يبني أسرة، وحتى إذا بناها لا يمكنه مواصلتها، ويرزح تحت مشكلة تعليم وصحة أولاده، وتصبح جميع تلك المسائل مشاكل تواجه الرأسمالية نتيجة انهيار الأشكال الاجتماعية القديمة، وعدم استيعاب وتجسيد المجتمع الجديد. حيث توقع العلاقات المنحلة الفرد في وضع صعب أمام الرأسمالية المتوحشة، ويصبح الفرد محكوماً بالعجز بين القديم والجديد، ويظهر قانون حقوق الإنسان تطوراً كنتاج لهذا الفراغ، ولا يمكن التحدث عن حصول الفرد على ضمانات كافية من قبل الحقوق القومية أو ما فوق القومية.

تعد حقوق المرأة والطفل والحقوق المتعلقة بالبيئة التي تطورت مؤخراً، جزء من حقوق الإنسان.

المرأة هي موضوع استغلال وضغط شديدين كأدنى وأقدم طبقة، لذا فإن قضية المرأة التي يتم فتح الطريق أمامها مجدداً، هي موضوع شامل لا يمكن استيعابه في محيط المجتمع الرأسمالي. فحرية المرأة التي تعتبر مقياسا عاما لجميع الحريات، لازلت في طور الاستعداد لخطو خطواتها الأولى، فالانتقال من عصر المرأة إلى عصر الرجل ألحق خسارة كبيرة بالمرأة، وخلال هذا التاريخ الطبقي الممتد لخمسة آلاف سنة ألحقت بالمرأة أكبر الخسائر، وتعرضت للضغوطات من جوانب عدة واحتقار وتمييز جنسي ولا مساواة في

كل المجالات، لكنه ومن جديد تبذل المساعي لانتشالها من تحت الرماد حيث كانت على وشك الاحتراق، ففي الوقت الذي يجب أن يتم الاعتراف فيه بجميع الحقوق الفردية للمرأة وتناولها في الصدارة دون قيد أو شرط، فإن وضع ذلك في آخر جدول الأعمال وبشكل محدود، له علاقة بالبعد التاريخي العميق للظلم، والقضية هامة إلى درجة يمكن أن تكون فرعاً من علم الاجتماع، وتتطلب جهوداً طويلة الأمد في النضال القانوني والسياسي الديمقراطي المنظم والمخطط والمبرمج والشامل، وتكتسب أهمية مصيرية كقضية أكثر أصالة من حيث النمط والجوهر مقارنة بالنضال الوطني والطبقي.

في يومنا هذا لم يتم سوى وضع أسم المشكلة دون تحديد مضمونها تماماً، وما زال برنامجها واستراتيجيتها ونمط تنظيمها وعملياتها، بعيد عن أن يكون هذا الموضوع موجوداً بشكل كامل على جدول الأعمال، وكما بدأ التاريخ، كتاريخ الكذب والحرب والاستغلال على أساس عبودية جنس المرأة في حضارة المجتمع الطبقي، سيتم خلقه وكتابته من جديد كتاريخ الاستقامة والسلام والمساواة والحرية بعد تحقيق النجاح في نضال المرأة التحرري، وتبين جميع الدلائل أن حرية المرأة ستلعب دوراً مصيرياً في فجر الحضارة الجديدة، ويمكن عيش عصر المرأة الحرة في أعلى مستوى مرة أخرى.

يتضح يوماً بعد يوم أن حقوق **الطفل** مسألة هامة إلى درجة لا يمكن تركها للأم والأب والدولة، ونظراً لصعوبة نشأة الطفل مقارنة مع باقي صغار الحيوانات، فإن ذلك يجعل المواقف الخاصة والمستندة إلى العلم أمراً ضرورياً، فلقد سحق النظام المستند إلى سلطة الرجل الوحشية الطفل أكثر من غيره بعد الرقيق والمرأة والكادحين، فالنظام الذكوري أعمى وظالم ولا وجداني إلى درجة لا يعترف بالطفل أبداً، وكان يتم تقديم الأطفال كقرابين للآلهة في المراحل الأولى للمجتمع الطبقي، وربما لا يتم الآن تقديم الضحايا جسدياً، لكن الضحية المعنوية لم تفقد أي شيء من سرعتها. أما المرأة التي تعرف نفسية الطفل أكثر من الرجل، والتي هي أكثر وجدانية منه، فقد وصلت إلى وضع لم تستطيع القيام بدورها كأم بسبب جهلها وعدم توفر الإمكانيات لديها، واما أنظمة الدولة الآمرة فهي بلا شك غريبة عن عالم الطفل تماماً، فحتى لو نظرنا من خلال هذا الإطار العام أيضاً نجد بأن الضرورة تقتضي إخضاع حقوق الطفل لتعديل شامل، وينتظر إعلان حقوق الطفل والتي تتخذ من حنان الأم والسلام ولاسيما حقوق التعليم والصحة واللعب، كمهمة عاجلة يتطلب تنفيذها دون تأجيل.

تتضمن حقوق **البيئة** التدابير القانونية التي يجب اتخاذها ضد الحالات التي تعرض باطن الأرض وسطحها إلى وضع لا يمكن العيش فيه، بما في ذلك المناخ والغلاف الجوي بسبب تزايد السكان والتلوث التكنولوجي الذي تلعب

ذهنية الربح الرأسمالي دوراً أساسياً فيه، ولم ينحصر الصراع حول وجود طبقة استغلالية طفيلية ضمن المجتمع وحسب، بل تحول الى الصراع اكبر بين المجتمع والطبيعة ويستهدف حياة كوكبنا الجميل. ولا مفر من بدء المجتمع بنضال حول حقوق البيئة على المستوى العالمي. إذ يعتبر النضال من أجل مانيفستو حقوق البيئة وتعبئة منظمة البيئة العالمية بالاستناد إلى ذلك، جزء لا يتجزأ من نضال حقوق الإنسان العامة، والسياسة الديمقراطية والقانونية، ويجب خوض هذا النضال بشكل متداخل ومشترك.

بتجاوز الإطار الحقوقي الضيق لمصطلح حقوق الإنسان، فإنه من المفروض إعادة تقييمه من جديد باعتباره تمأسساً وظاهرة سياسية وأخلاقية أساسية يجب على الفلسفة والسياسة تناولها. ما حاولنا التأكيد عليه منذ البداية هو انه لا يمكن تجاوز أزمة الحضارة المتفاقمة، دون تحليل جديد وتمأسس في أعلى المستويات للتناقض بين الشخصانية والمجتمعية. وكما تم تجاوز أزمة العصر النيوليثي بتركيب المجتمع الطبقي السومري، أي بالدخول إلى عصر الدولة والعصر الحضاري، فإنه لا يمكن تجاوز القضايا والأزمات الكبيرة التي شهدها العصر الحضاري كتعبير منظم لجميع مؤسسات البنى التحتية والفوقية للدولة والمجتمع الطبقي، إلا بتحقيق معادلة الفرد والمجتمع على أسس الحرية والمساواة لتصل إلى مستوى مقبول لكل البشرية، لتكون تلك خطوة نحو تركيبة إنسانية جديدة. بعضهم يسمي هذه الخطوة "بوست مودرنيسم" (الحضارة المعاصرة، أو ما بعد الحداثة) وبعضهم يقيم ذلك على أنه نهاية التاريخ، ومضمون المصطلحين غير كافي، حيث أنهما يستندان إلى وجهة النظر البرجوازية، وتقدم نهاية الحضارة الرأسمالية وانتهاءها على أنها نهاية البشرية، مما يذكرنا بادعاء الليبرالية والفاشية وكأنهما أنظمة أبدية.

ظهر للعيان بأن المؤسسات والحلول المعتمدة على التحليلات الطبقية والوطنية الضيقة لم تستطع تجاوز تناقضات المجتمع الرأسمالي، كما بات جلياً عدم امتلاك كافة المجتمعات الطبقية والدولية القدرة على تحليل القضايا والأزمات العميقة التي شهدتها مع التحول إلى الدولة باعتبارها تعبير عن تنظيم مؤسسات البنى التحتية والفوقية، فالقضية ليست في "ما بعد الحداثة" ولا في "نهاية التاريخ". فقد وصلنا إلى مرحلة تاريخية لا يمكن فيها تجاوز القضايا بتأسيس نظام الدول والمجتمعات الطبقية، وكما كان في كافة عهود التاريخ، فإن مستوى التقنية والعلوم في هذا العهد أيضاً يلعب دوراً مصيرياً، حيث استطاعا إلغاء المعنى التقليدي لمنطق الطبقة والدولة، إذ عبر عصر العلوم والاتصالات عن بعد مهم لهذا المسار، ولكن تسمية العصر الذي نحن فيه بعصر حقوق العلم والاتصالات ووعي البيئة وحدها لا يكفي، بل هناك حاجة إلى إنطلاقات تاريخية تأخذ كل هذه الظواهر بعين الاعتبار، وبتوجيه النقد البناء الصحيح لهذه

الأنطلاقات، والقيام بتكوين الهوية الإيديولوجية التي سيتم تطويرها ضمن وحدة وثيقة مع الممارسة العلمية لترتيب الاقتصاد والحياة العامة من جديد، وإعداد البرامج والاستراتيجيات اللازمة وتحديد التكتيكات لها هو الذي سيحدد الأنطلاقات البشرية الجديدة.

سيتم تناول هذا الموضوع بتحليل أعمق في فصل النتيجة المتعلق بالحضارة في مرافعتي هذه، وهذه المداخل الصغيرة التي وضعناه لكافة تقييماتنا تجري بهذا الشكل نظراً لتداخل المواضيع وكي نتمكن من رؤية الروابط القائمة فيما بينها.

ج ـ عصر انتشار الحضارة الرأسمالية وذروتها

الميزة الأساسية للعصور البشرية هي أن التطورات تتسارع بالتدريج مع تطور المستوى المعرفي والتقني للمجتمع والذي يلعب دوراً مصيرياً في ذلك، فالعصر الباليوليتيكي الذي كانت تقنياته تتكون من الحجارة والعصي ومعلومات عن الطبيعة لا تزال في مستوى الطفولة، شهد تطوراً بطيئاً جداً حتى نهاية العصر الجليدي، علماً بأنه يعد العصر الأطول في تاريخ البشرية، إذ يشكل ثمان وتسعين بالمائة من تاريخها، أما العصر النيوزيليتيكي الذي يعد عصراً انتقالياً، فتقدر مرحلته الزمنية بأنه امتد من عشرين ألف إلى عشرة آلاف قبل الميلاد، ويعتبر العصر النيوليثي أسرع تطوراً من العصور السابقة لأنه كان يمتلك معلومات أكثر تطوراً كما يمتلك كافة الأجهزة التقنية التي من شأنها أن تؤسس حضارة. ونظراً لأن المعرفة والتقنية تقومان بتغذية بعضهما البعض فذلك يفتح الطريق أمام تطور سريع ومكثف في الإنتاج والحياة الاجتماعية وعلى صعيد قوة النظام. ورغم أن هذه المرحلة شملت سنوات من 10000 ـ 3000 ق.م، إلا إنها أسفرت عن تطورات ذات مستوى مرموق وعالٍ مقارنة بالعصر الباليوليتيكي الذي استمر لمئات الآلاف من السنين، وخاصة المرحلة التي امتدت بين 6000 ـ 4000 ق.م، والتي تضمنت القدرة المعرفية والتقنية والتي استطاعت تغيير مصير البشرية في منطقة الهلال الخصيب تغييراً جذرياً، إذ تم اختراع كافة الوسائل التقنية والنظرية التي استخدمها السومريون في هذه الجغرافيا خلال هذه الأعوام، ورغم قصر أمد العصور تدريجياً إلا ان نمو التطورات كان هائلاً.

امتدت مرحلة النظام العبودي للمجتمع الطبقي في الفترة ما بين أعوام 3000 ق.م - 500م ورغم قصر هذه الفترة، إلا انها كانت مصيرية في مجال المدن والمؤسسات الاجتماعية والسياسية كذلك في مجال الميثولوجيا والدين والفلسفة، كما نشاهد أن عمر المرحلة الإقطاعية كان أقصر، حيث امتد من 500 م - 1500 م، وكأن هناك تناسباً عكسياً بين عمر العصور والتطور السريع للمجالات المادية والذهنية بما يشبه متوالية هندسية.

هناك ميزة أخرى للعصور البشرية وهي أنها تحقق انتشارا كونياً.

شوهد نمو المجتمع الباليوليتيكي في كافة القارات التي كانت صالحة للحياة، حيث أمتاز ذلك العصر بخصوصية المجتمع الأكثر انتشاراً والأطول عمراً. كما انتشر المجتمع النيوليثي من الهلال الخصيب الذي ولد فيه إلى كافة المناطق الصالحة للحياة وبسرعة أكبر من المجتمع الذي سبقه، مرة أخرى نجد بأن التقنية لعبت دوراً مصيرياً في ذلك، ويمكن إثبات هذا الأمر بشكل مجسد تاريخياً، كما نرى أن المجتمع العبودي السومري قد تقدم وانتشر على أثرِ العصر النيوليثي بسرعة أكبر. كذلك حقق العصر الإقطاعي الذي استخدم تقنية الحديد والخيول انتشاراً أوسع وأسرع على الأساس الإسلامي والمسيحي.

هناك مسألة أخرى يجب تحليلها عندما نقوم بتقييم العصور وهي وضع الكولونيالية "الاستعمار" والإمبريالية. حيث يمتلك كل نظام اجتماعي تقدمي ومتطور في جوهره خاصية التوسع حتى ولو لم يرغب في ذلك، لأنه يمتلك تفوقاً توسعياً قائماً على التقنية والمعرفة المتطورة، إذ لازالت بذور المجتمع الآري النيوليثي القائم على المساواة، تنبت وتتبرعم حتى الآن في كل بقاع العالم، ويبدو واضحاً أنه لا يمكننا تسمية ذلك بمصطلح الإمبريالية، ولكن في الوقت الذي يتم استيطان كيان نيوليثي في مجال باليوليتيكي، عندئذ يمكننا التحدث عن بداية الكولونيالية "الاستيطان"، كما يجب ألا ننسى هذه النقطة والتي تسري على كافة العصور وهي أن التوسع الاستيطاني محدود ـ يمكن أن نطلق عليه اسم الانتشار الفيزيائي للشكل السائد ـ فهو يحرك عدداً قليلاً من السكان، أما الذي تم نشره أكثر فهو المعرفة والتقنية وشكل الإنتاج وما يعتمد على ذلك كالبنية الميثولوجية والدينية. إن وجهة النظر التي تفسر التاريخ اعتماداً على الهجرات الكبرى، هي وجهات نظر مبالغ فيها وغير صحيحة، فكل عصر متفوق يملك خاصية التوسع والانتشار ليس بفضل التوسع الفيزيائي، بل بفضل المعلومات والتقنية والقدرة الإيديولوجية والمؤسساتية.

ما يمكننا اعتباره صحيحاً بالنسبة للكولونيالية هو أنها توسع تجاري وما يقتضيه من هجرات فيزيائية. إذ يعتمد إشراف المركز المسيطر على التفوق التقني والإنتاجي أكثر من اعتماده على وسائل العنف. أما الإمبريالية فهي نظام

احتلال وسيطرة يعتمد على العنف والاستيلاء أو على الأقل يعتمد على القسر والإكراه كبداية وهما من أساسيات الإمبريالية، ولقد تأكد تاريخياً أن أول ممارسة إمبريالية حدثت في زمن سارغون مؤسس السلالة الأكادية السومرية، علماً بأنه قبل ذلك كان يتم الاستيلاء التام على قرية ما. فعندما يتكدس الثراء المادي في منطقة ما، كانت تصبح هدفاً للاحتلال والسطو إما من قبل الكيانات الفقيرة المجاورة أو من قبل المراكز القوية الغنية، وتعد الإمبريالية ظاهرة قوية جداً في مرحلتي العبودية والإقطاع، حيث كانت تلك العصور بآلهتها وآدابها وإيديولوجياتها وتقنياتها وجيوشها عبارة عن عصور سطو وتوسع إمبريالي فظيع.

ليس من الواقعية هنا ربط التوسع بالعنف فحسب، إذ لو لم تكن المؤسسات السياسية والإنتاجية للعصور أقوى من الأنظمة الاجتماعية السابقة، لما استطاع التوسع أن يكون بهذه القوة اعتماداً على القوة فقط وفي أي وقت كان، فإذا كانت علاقات الإنتاج متفوقة على العنف حينها ستنتشر وتصبح أكثر ديمومة، أما إذا قام الاستيطان بجعل التفوق المعرفي والتقني والمؤسسات السياسية والاجتماعية التي يعتمد عليها الإنتاج مناسبة وصالحة لفترة طويلة، فسيتم الرضوخ للتوسع دون حاجة للعنف، أي أن المجتمع في هذه الحالة يقبل بالعصر الجديد. أما أخطر أشكال الإمبريالية على المجتمعات فهي تلك الحركات التي لا تتضمن نظاماً تقدمياً كحركات الاحتلال والاستيلاء التي تجعل من السلب والنهب نهجاً لها، والتاريخ حافل بهذه النماذج من الإمبريالية التي لعبت دوراً بارزاً في الهدم والتخريب، ويمكن ذكر المغول مثالاً عن هذه الحركات، وهكذا نجد بأنه وبقدر ما يتضمنه التاريخ من توسعات لعبت أدواراً تقدمية، فإنه حافل بالاستيلاءات التي لعبت ادوراً رجعية أيضاً، وكما أنه مليء بالتوسعات التي تم تنفيذها بأساليب العنف، كذلك هناك الكثير من التوسعات التي تم تقبلها بشكل طوعي بفضل القيم المرموقة التي تمثلها.

أما النقطة الأخرى التي يجب ملاحظتها في توسعات الأنظمة الاجتماعية فهي المتعلقة بالتمركز والتأصل، فعندما تواجه القوى التوسعية مساحات فارغة أو كيانات ضعيفة فهي تسطو عليها بكاملها فيزيائيًا وثقافياً لتستوطن وتتحول إلى قوة محلية، أما إذا حدث التوسع نحو منطقة آهلة وإذا كانت هذه المنطقة مماثلة لها وتملك أساساً ثقافياً وتاريخياً قوية جداً، عندها يتم استيعاب وهضم القوة التوسعية من قبل المجتمع المحلي، وما سيظهر للوجود هو تركيبة ذات مستوى عالي تحمل بصمة وأثر الثقافة المحلية القديمة على الأكثر، وعكس ذلك أي إذا ما قامت قوة باحتلال أحد المراكز الحضارية فإنه سيتم ابتلاعها خلال فترة وجيزة من طرف الثقافة الأقوى، وهكذا فالأمر الذي يحدد النتيجة النهائية هو وضع الأنظمة التوسعية فيما إن كانت متفوقة أو متدنية

مقارنة بالمجتمع المحلي. وحتى لو استسلمت الطبقات والأشخاص إلا ان الحقيقة الهامة الأخرى التي شهدها التاريخ وهي ان الثقافات تلعب دوراً مصيرياً في ولادة الجديد وذلك بقدرتها على التجسيد والمقاومة والبقاء.

لقد أثبت المجتمع الرأسمالي تفوقه في القرن السابع عشر والثامن عشر، وحينها شعرت السواحل الأوروبية للمحيط الأطلسي بأنها مستعدة لفتح العالم. ويظهر كل نظام جديد انطلاقا من ثقته العالية بنفسه هامته تدريجياً في المراكز على آثار خطى الحضارات السابقة، ولقد أمتد هذا التقليد من الملك سارغون إلى داريوس إلى الاسكندر والقيصر فالفتوحات الإسلامية، ويستمر هذا التقليد على سواحل المحيط الأطلسي عن طريق الفتوحات والاكتشافات البرتغالية والأسبانية والهولندية والإنكليزية، حيث للرأسمالية أعذار وحجج قوية لتبرير هذه الفتوحات لتقوم بنقل أيديولوجيتها ونضالها السياسي والاجتماعي إلى العالم، إذ يعد العلم والتكنولوجيا في مقدمة ما يراد نقله إلى العالم. ويمضي القرنان الخامس عشر والسادس عشر في اكتشاف الطرق البحرية للعالم، حيث يتم اكتشاف القارتين الأميركية والأسترالية، ويتم الوصول إلى الهند وإلى الهند الصينية عن طريق البحر، كما تمركزت المستعمرات التجارية في جهات العالم الأربعة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، فكانت هناك شركات رأسمالية قوية وراء هذه المستعمرات، وبذلك فإن البرجوازية التي تحولت إلى مؤسسات أكثر قوة وديمومة عن طريق التطور والثورة في مواطنها، باتت لا تكتفي بتصدير السلع بل تجاوزتها إلى التصدير الفكري وأساليب الحياة والمؤسسات السياسية؟، وإضافة إلى المناطق الحضارية القديمة قامت البرجوازية بفتح كافة مناطق العالم التي لم تلمسها يد الإنسان، وامتلكت أوروبا التي تغذت من حضارات تاريخية عمرها 15000 سنة ولا سيما حضارة الشرق الأوسط، كل شيء، وبدأت بشن حملتها المضادة، وتعلم كافة العالم عن طريق استيراد العلم والدين. فقد وصلت أوروبا إلى وضع متميز مقارنة بكافة مناطق العالم عن طريق إنجاز ثورة علمية وتقنية، وبات من المستحيل أن تلحق بها أي بقعة في العالم ضمن شروط المرحلة.

إن الحقيقة التي تأكدت مرة أخرى في هذه التجربة الأوروبية هي انتشار الحضارة من مراكز النشوء إلى بقية المناطق الأخرى، لكن لم يكن التطور المتوازن موجوداً في كل الجوانب، بل ظهرت عدة مراكز، وبعد أن تمت تجربة النظام هناك وتأكد تفوقه بدأ بالانتشار عن طريق التجارة أما قسراً أو طواعية، ومنذ عهد السومريين تحمل التجارة في توسعها طابع الفتوحات المكثفة تضاهي فيه درجة فتوحات وتوسع القوة العسكرية على الأقل، وظهرت هذه الحقيقة في نمط التوسع الأوروبي أيضاً، فقد وصل توسعها التجاري في القرن الثامن عشر إلى الذروة، وبالإضافة إلى التجارة ففي القرنين التاسع عشر

والعشرين تم الوصول إلى مرحلة تصدير رأس المال، وتصدير رأس المال يعني في جوهره تصدير النظام، وهكذا بدأت مرحلة انفتاح العالم برمته على الحضارة الرأسمالية، وتكاثرت البرجوازية العميلة التي تقلد سادتها الجدد في كل دولة.

تكونت أولى أشكال العمالة في التاريخ بأغلب الظن عن طريق تقليد ثقافة الزراعة الآرية في الهلال الخصيب، ويمكن متابعة عملاء السومريين بشكل أفضل من خلال الوثائق المكتوبة وإدراك كيفية قيام العملاء المحليين بتقليد السومريين في اللغة والثقافة ونمط الحياة، ومرحلة بدء نشوء الحضارة مليئة بالحضارات التي قلدت السومريين والمصريين والهنود والإيطاليين والإغريق والأناضول. فبدون ان يتلقوا أي تدريب على أيدي الكهنة السومريين والمصريين، ودون اجتياز طرق تجارتهم ودون معرفة نمط حياتهم ودون الشعور والإحساس بملوكهم الإلهية حتى النخاع، ناهيك عن فتح مراكز حضارية جديدة، فلم يكن بإمكانهم التخلص من تأثير المجتمع البربري، وأثناء دراسة توسع الحضارة يجب عدم نسيان الحقيقة التالية وهي أن قيام الفرس والهلينيين فيما بعد بتأسيس حضاراتهم كان حسب أنماطهم الخاصة وعلى أنقاض الحضارتين المصرية والسومرية، وهي من أكثر التطورات التي تركت بصمتها في التاريخ ومازالت آثارها موجودة في موروثاتنا حتى الآن. أما في عهد الحضارة الرومانية وخاصة في فترة سلام روما "باكس روما" فقد كانت العمالة لروما هي إنشاء نموذج مصغر عن روما، وهو من أهم الأهداف السامية. فإحدى أكثر المسارات ديمومة في خلق مكانة العميل المسيطر المحلي هو العمالة لروما. أما عن توسع الحضارتين البيزنطية المسيحية والإسلامية فقد تركتا آثاراً دائمة في صنع الأنظمة العميلة على نطاق عالمي حسب أنماطها الخاصة. وفي النهاية وصل تطور العمالة المعتمدة على التوسع الذي بدأ في المرحلة النيوليثية، إلى نقطة الذروة مع تصدير التجارة ورأس المال في مرحلة الرأسمالية.

لقد خطا عالمنا في الربع الأخير من القرن العشرين أكبر خطوة في مجال العولمة مقارنة مع كل نظام توسعي كبير، فقد تحول العالم بشكل عام إلى ساحة توسع أزيلت منه كل الحدود تقريباً، حتى أنه لم يعد هناك حاجة لاستخدام وسائل العنف من أجل حركة رأس المال، حيث أصبح الرأسمال يسحب بالتوسل والرجاء، بل حتى يمكننا الحديث عن عالم تحول إلى دولة واحدة على صعيد الرأسمال. فقد اكتملت الفتوحات الرأسمالية وما تبقى لا يتجاوز نمو النوعي ولعبة تغيير الأيدي باستمرار.

أما إذا نظرنا إلى الأبعاد المكانية للتوسع فستظهر أمامنا بعض

التطورات المذهلة، لقد أنهكت أوروبا التي شهدت حربين عالميتين والكثير من الحروب الداخلية بالإضافة لحروبها الاستعمارية التقليدية في الخارج، وفي الحقيقة عندما كانت أوروبا تنقل نفسها إلى العالم، كانت تنقل تعبها ودهن قواها الناجمتين عن النجاحات التي حققتها، وبعد الحرب العالمية الثانية أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية ممثلة الحضارة الرأسمالية مثلها مثل أوروبا المغرورة المتهورة في بعض الأوقات، وعن طريق جعل كل أمريكا الشمالية تقريباً ـ ويجب التفكير على ان كندا هي إحدى ولاياتها ـ مركزاً واحداً، فإن تعميق التوسع من جهة وتوجيهه من جهة أخرى بات مهمة تاريخية ملقاة على عاتق الولايات المتحدة الأمريكية، وبتعميقها للثورة العلمية والتقنية، امتلكت الإمكانيات التي مكنتها من تجاوز أوروبا لتنتقل إلى مرحلة التفوق بتقنيات الذرة والفضاء والانترنيت، واعتمدت في سياستها التوسعية على الاستعمار الحديث الذي يتضمن؛ تنمية اسهم رأسمال الأنظمة الرأسمالية المحلية، ومن أجل ذلك تعتمد على أساليب أهمها، فتح الأبواب على مصارعيها أمام الانتقال الحر لرأس المال ونشر ثقافة الرأسمالية في كل مكان، ومن أجل ذلك يتم استخدام وسائل الصحافة والمعلوماتية، في هذه المرة حاولت أمريكا أن تفتح العالم من جديد وهي ناجحة في ذلك، إذ تحاول ترسيخ مرحلتها في كافة أرجاء المعمورة عن طريق تجاوز الأمة ـ الدولة التي مازالت تشكل عائقاً أمامها، ويشبه مصطلح الأمة ـ الدولة بدوره دور المعرقل الذي لعبته بقايا النظام الإقطاعي في إحدى المراحل، لذا يجب إزالته حتى يتم ضمان سير نظام العولمة دون أية عقبات. وبهذا المعنى ربما ستقوم أمريكا باعتبارها آخر قوة إمبريالية في تاريخ الحضارة بمهمتها التاريخية بنجاح وهي فتح كافة أنحاء العالم أمام الرأسمالية الناضجة.

بفشل تجربة الاشتراكية المشيدة في نهاية القرن العشرين فإن تقلص هذه الفترة كان أمراً لابد منه، في الواقع لقد أجرت أوروبا مراجعة للمرحلة التي أكملتها وقامت بترميمها، وقبل ان تنفصل عن نظامها السابق فإن الدعم الذي كانت تقدمه لعملائها تسعى الى ربطه تدريجياً بالتطورات الديمقراطية وحقوق الإنسان، وابتعاد الرأسمالية عن طابع النهب مرتبط بهذه الحقيقة، حيث كانت تحاول تجاوز ممارسات القرن التاسع عشر التي تعتمد على استخدام دولهم كمستعمرات، وتحاول أيضاً جعل مفهوم الأمة ـ الدولة باعتباره أحد الوسائل المتبقية من هذا العصر أكثر تلائماً مع النظام. إن كل التطورات الكبرى الأخيرة التي تم إنجازها في كل أنحاء العالم على صعيد العولمة الرأسمالية جرت ضمن هذا الإطار، ويظهر أن موجة العولمة الأخيرة التي شملت كل الدول والثقافات حتى التي ترى نفسها دول كبيرة وحرة بدءاً من الصين وحتى البرازيل ومن الأرجنتين حتى تركيا ومن روسيا حتى إندونيسيا، قد وصلت إلى نقطة الذروة

خلال فترة قصيرة.

وتوجد أدلة كثيرة تظهر بأن كل الحضارات الكبرى في التاريخ التي وصلت إلى نقطة الذروة قد عاشت وضعاً مماثلاً لذلك. وتبين المقارنات التاريخية من جهة، والبنية الداخلية للنظام من الجهة الأخرى بأنه هناك أزمة وولادة جديدة بعد هذه التطورات، وحتى نتمكن من استيعاب أفضل لمرحلة الأزمة التي يمر بها النظام، يجب تناول مرحلة التوسع والنضج بشكل مفصل.

فبينما كان التوسع من المركز إلى الخارج يدل على نضوج النظام من جهة، كان ينظر إليه كوسيلة لإزالة الأزمات التي خلقها والقضاء على الصراعات التي ظهرت من جهة أخرى. فقد كانت عملية نقل الوفرة التي أوجدها النظام إلى الخارج يكسبه إنتاجاً وقيماً أكبر، وهذا هو المنطق الذي يعتمد عليه الاستعمار، والأهم من ذلك أنه تم العمل على تطويع النضال الاجتماعي، الذي راح يتطور فوق القيم الناجمة عن النظام، وذلك عن طريق توجيهه إلى التصدير نحو الخارج.

يملك المجتمع الرأسمالي القدرة على تطبيق هذا الأسلوب بعمق في كافة الأنظمة الحضارية. وهو أكثر تفوقاً من كل المجتمعات على صعيد الاستغلال الداخلي والخارجي وبأفضل الأشكال، واقناع الجماهير عن طريق الدعاية. لقد تم التوسع العرضي تاريخياً على أكمل وجه، حتى لم تبق أية قطعة أرض لم يتم فتحها، باستثناء الفضاء، وبدأ بإظهار تأثير مخالف للتقنية التي فتحت الطريق أمام التفوق العسكري لنظام الحضارة الرأسمالية، وخاصة أن حلف الناتو الذي تم تشكيله ضد الاتحاد السوفيتي قد اكمل مهمته تاريخياً، وأصبح التوازن المرعب الذي تم التوصل إليه بواسطة القنبلة الذرية يعبر عن المأزق، ولم يلعب نظام الدرع الصاروخي الذي تم التفكير فيه دوراً كافياً للتخلص من هذا المأزق، أي أنه لم يفعل شيئاً سوى تعميق الأزمة أكثر مما كانت عليه. كما أصبحت التكنولوجيا والتنظيمات العسكرية تحتاج إلى نفقات باهظة من النظام، ووجد النظام نفسه في وضع لن يؤدي إلى أية نتائج. ومحاولة تأسيس الجيش الأوروبي هي تعبير عن نوايا النظام للخروج من هذا المأزق، حيث ينظر إليه كقوة تدخل لحل الخلافات الصغيرة والمحلية، ويمكن أن نسميها بقوة حربية تجعل السلام دائماً.

وكما تم التنويه سابقاً فإن جوهر هذه العمليات العسكرية يستهدف إكمال مرحلة فتح العالم واقتسامه عن طريق العديد من التجديدات والوصول إلى مرحلة الاستقرار عن طريق التوازن النووي الرهيب، وقد استهدفت المرحلة

التالية استمرار حالة الاستقرار والسلام بتمويل رخيص، عن طريق التسلح بتكاليف أفضل نسبياً، وتطور الأحداث العامة للعالم تناسب هذا التوجه. لقد تم تجاوز تناقضات النظام التي أدت إلى جيوش كبيرة وتقنيات باهظة التكاليف بنسبة عالية، وتم الانتهاء من الصراع بين الكتلة الاشتراكية والكتلة الرأسمالية، كما يمكن اعتبار أن حروب التحرر الوطنية التقليدية قد أتمت دورها بعد أن وصلت إلى أهدافها، وتم تقليص الحروب الطبقية الموجودة داخل النظام إلى مستوى يمكن حلها بالوسائل الديمقراطية والسلمية.

هذه التطورات التاريخية هي محصلة القرن العشرين، وذات أبعاد يمكن تقييمها على أنها الأكثر دموية مقارنة بباقي العصور، إذ لم يشاهد في عصر من العصور هذا العدد الهائل من القتلى وهذا الكم الهائل من الدمار الذي نتج عن القرن العشرين أي خلال مائة عام فقط، بمعنى آخر يمكننا القول بأن البشرية قد شهدت يوم حشرها، وان احترام الإنسانية يفرض إجراء تقييم هذا الواقع على هذا النحو، حيث تم بالفعل خلق عوالم يوم الحساب والجنة والجحيم انطلاقاً من الميثولوجيا المجردة والمحدودة للآلهة والملوك السومريين والمصريين في أولى مراحل تشكل الحضارة، على يد أناس صغار جعلوا من أنفسهم آلهة عن طريق القوة العملاقة للتقنية والعلم في القرن الواحد والعشرين في العالم أجمع. فعندما يقارن الإنسان بين الميثولوجيا والعلم لا يستطيع أن يمنع نفسه عن التساؤل: أيهما أخطر من الآخر، فضخامة المحصلة المذهلة التي نتجت عن العلم تشير إلى جواب هذا السؤال في مكان آخر.

القرن العشرين هو تعبير عن تسمر الرأسمالية في الذروة، فلم يتم التأكد من ضرورة الحروب الكبرى وكذلك لم تصل هذه الحروب إلى وضع يؤكد أنها ستكون وسيلة للحل، فإذا ما تم تطبيقها فذلك يعني ان النظام ينتحر، حتى أن إعادة حروب الاقتسام قد وصلت إلى وضع لا معنى له وغير مثمر، بل أنه سيسبب أضراراً كثيرة نتيجة للمستوى العلمي والتقني وكذلك بسبب الحرية غير المحدودة التي أكتسبها رأس المال، وإلا فأن هذا الوضع ليس ناجماً عن إنسانية النظام الرأسمالي، ومع ذلك فإن قانون الربح هو الحاسم، إذ لم يتردد هذا النظام عن خوض أضرى حرب عندما تقتضي الأرباح ذلك، لكن عندما تزداد الخطورة التي تهدد الأرباح فإنه يقوم بفرض السلام هذه المرة، وذلك لما يقتضيه القانون ذاته، إن هذا التوازن القائم بين الأرباح والتقنية جعل القيام بحرب تقاسم كبيرة أمراً غير ضرورياً بشكل موضوعي، ونرى من جديد أن هذا القانون يقتضي الدخول في حروب كبرى عندما يتم التأكد بأنها ستؤدي إلى أرباح كبيرة، وإن هذه الحقيقة ترغم النظام الرأسمالي الموجود في الذروة على الدخول في مرحلة انتقالية.

يشاهد أن كافة الحضارات قد مرت بثلاثة مراحل تاريخية هي: التكوين، التمأسس، الذروة. فمرحلة التكوين تعبر عن الولادة والتطور أي عن الطفولة والمراهقة، أما مرحلة التمأسس فتعبر عن وجود الشباب ونضج الشخصية، وأما الذروة فتعبر عن مرحلة الكهولة، ويشاهد أن كافة الحضارات في التاريخ مثل السومرية والمصرية والرومانية والفارسية والصينية والهندية والحضارة الإسلامية قد شهدت المراحل ذاتها بطريقة مذهلة، فكافة الأنظمة الحضارية الهامة تواجه حالتين في مراحلها الأخيرة؛ حيث نرى دائماً أنه تم العمل على تجاوز الدمار الذي نتج عن كهولة النظام، إما عن طريق الترميم أو عن طريق إجراء الإصلاحات أو استخدام كلا الأسلوبين في مواجهة القوى التي تحاول تحطيم ذاك النظام، إذ يعبر الترميم عن الأسفل الرجعي، ويطلق مصطلح الترميم على المرحلة التي يعيشها النظام الذي تم إنشاؤه في حال نجاح الثورة المضادة في صراعها ضد القوى التي لعبت دور الثورة، ويمكن تقديم سلالة أور الثالثة في سومر ومرحلة الملكية الجديدة في مصر، وآخر مائتي سنة في الحضارة الرومانية كأمثلة على ذلك، فقد كانت تجري في تلك المراحل عملية إحياء المجد القديم، ومحاولات للتماسك فوق الأساس ذاته، أي كان يجري تطوير الدولتية كما يجري تطبيق القواعد بكثافة ليتم السير نحو نوع من النظام النقابي، وبتعبير اصطلاحي عام يمكن إطلاق مصطلح الفاشية على تلك الأنظمة التي تم تطويرها لأجل الحفاظ على استمرارية الأنظمة، والفرق فيما بينها نابع من خصائص الأنظمة.

أما الإصلاحات فهي مرحلة مختلفة إذ أنها تلجأ الى أجراء الوفاق مع القوى المعارضة والى إجراء التغييرات ببطئ وإعادة التشكل من جديد، بدلاً من ان تنهار بالقوة، وشوهد عبر التاريخ بأنه تم معايشة هذا المثال أيضاً بشكل موسع، فعندما تتعادل قوى الثورة مع القوى المضادة للثورة، أو عندما يراد منع الدمار والمراحل الدموية يصبح الإصلاح أمراً لا مفر منه، أما الوضع الأخير فهو نجاح الثورة، عندها يتم الانتقال إلى تطبيق برنامج القوى الاجتماعية الثورية خطوة بخطوة محل النظام القديم الذي تم إسقاطه من خلال إجراءات سريعة وجذرية. ويشاهد في التاريخ أن الكثير من التغييرات قد تحققت بكثافة بواسطة الثورة. طبعاً ونظراً لأن الحياة لا تتكون من الأبيض والأسود وحسب، فإن المراحل والأنظمة تعيش في تداخل كبير مع بعضها البعض، ويصادف أن تنتقل إحداها بسرعة أكبر من الأخرى، وتتصادف أوضاع مختلطة أيضاً، والتمييز الجيد بين مراحل الأنظمة الانتقالية هذه، يقدم خدمة كبيرة من أجل القيام بتقييم جيد.

يمكن تقسيم نظام الحضارة الرأسمالية إلى المراحل التالية: مرحلة الولادة والنشوء من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر، أما مرحلة التمأسس

والتوسع فقد كانت من القرن السابع عشر إلى التاسع عشر، أما القرن العشرين فقد شمل مرحلة الذروة ومرحلة تقاسم العالم من جديد بواسطة الحروب، وبذلك تكون المبادئ والمؤسسات قد تم إنجازهما في المرحلتين الأولى والثانية. فكل ظاهرة في مرحلة الذروة تشكل أرضية للتشكلات اللاحقة، وتشهد ذروة النظام الرأسمالي تطورات مشابهة، حيث تنضج الصراعات الأساسية للنظام وتتغذى التركيبات الجديدة في داخله، أي ان تحول التناقضات إلى مواجهات مرتبط بالتكوين الجديد، كما توجد حاجة متبادلة بين الطرفين طالما أنهما متداخلان وغير ناضجين، فلم يتم نزع النظام القديم كغلاف بشكل تام، ويمكن للمواجهات القائمة بينهما أن تؤدي إلى غرق كلا الطرفين، وفي هذه الحالة يجدان إمكانية التطور الحر بعد مواجهة نظام الغلاف القديم وتفتيته. لقد كانت الطبقتان الأساسيتان البرجوازية والبروليتاريا صاحبتين للمصالح المشتركة ضد النظام الإقطاعي، وذلك حتى مراحل الثورة البرجوازية، ثم انتهت هذه المصالح المشتركة بعد انتصار الثورة ومع قيام الطبقة البرجوازية بإعادة تشكيل طبقات المجتمع تحت قيادتها.

تعد الثورة البرجوازية الفرنسية وحملات التوسع الكبرى التي قادها نابليون أمثلة واضحة على مرحلة التحول إلى مؤسسات ومرحلة التوسع، فالعمليات التي جرت بين عامي 1815- 1830 لترميم بقايا النظام القديم هي عبارة عن آخر حملة يقوم بها النظام الإقطاعي، وعلى الرغم من كل التدابير التي اتخذها النظام الإقطاعي لم يستطع توسيع الثورة على النطاق العالمي. حيث بدت مرحلة المجتمع الطبقي البرجوازية وضعا قائماً في التاريخ، إذ تقوم الطبقة الحاكمة الجديدة وحسب أولوياتها بإعادة تشكيل جميع الساحات من جديد بدءاً من الذهنيات إلى الروحانيات ومن الاقتصاد إلى السياسة والعسكرية، إنها المرحلة التي أكسبت الطبقة في شخصها للنظام عمراً غير محدود، ولم يبق أي مكان لم تستولِ عليه تلك الطبقة أو ترى بأنه منطقة نفوذ لها، وسيقيم كل شيء حسب وجهة نظرها وستحاكم حسب قوانينها وستتشكل المؤسسات حسب نمط حياتها، إنها ليست الإرادة التي تفكر وتتكلم فحسب، بل هي الإرادة الشرعية التي تنفذ أيضاً، لقد انتهت الوحدة مع الطبقة العاملة التي غذتها البرجوازية باعتبارها العنصر النقيض لها، ودخلت في مرحلة المواجهات، وبدأ التمايز في الإيديولوجية وفي الممارسة الاجتماعية والسياسة شيئاً فشيئاً لتعبر عن نفسها.

بهذا المعنى يعد القرن التاسع عشر عصر التمايز وعصر تبلور الهوية ذات الأصول الطبقية، حيث شهد ازدياد الهوة بين الليبرالية التي تمثل الطبقة البرجوازية وبين الاشتراكية التي تمثل الطبقة العاملة المعتمدة على مبدأ المساواة، وخرج الصراع الإيديولوجي عن كونه صراعاً بين إيديولوجية الطبقة الإقطاعية التي تتظاهر بالدين وبين الأيديولوجيات البرجوازية العلمانية التي

تعتمد على العلم، وباتت الليبرالية البرجوازية واشتراكية الطبقة العاملة تعبران عن الهوية الجديدة للصراع الإيديولوجي.

ويحصل كفاح الطبقة العاملة لأول مرة في التاريخ، بالاعتماد على مرشد إيديولوجي يستند على أساس علمي، ويرمي كارل ماركس من وراء كتاب رأس المال أن يفعل ما فعله عيسى بواسطة الإنجيل، ويمر قرن مليء بالنضالات العمالية في المراكز الحضارية، وتتأسس الأممية الأولى والثانية، وتولد حركة المسحوقين الكونية الجديدة آمالاً كبيرة للإنسانية.

وكما حدثت انتفاضات القبائل في الأزمنة المنصرمة، فإنها تظهر الآن في مناطق التوسع الموجودة في خارج المركز، وتحاول أطراف المجتمعات الأكثر تطوراً أن تدافع عن نفسها بتيارات التحرر الوطنية وبواسطة أسلحة الحضارة التي حصلت عليها من المراكز، وتطورت القومية على الصعيد الإيديولوجي، والأسلحة النارية على الصعيد التقني بشكل كافي، ليشهد القرن العشرين بعد ذلك حركات التحرر الوطنية التي انتشرت كثيراً في الأطراف، وكان الاتفاق الذي أبرمته الحركة العمالية والحركة الوطنية في أضعف الحلقات في روسيا، وما نجم عنه من وضع الخطوة الأولى على طريق الحرية والمساواة وجعلها ملكاً للجميع، وذلك لأول مرة ضمن ظروف الحضارة، لكن بعد مرور سبعين عاماً تتمكن الحضارة المعتمدة على بنية المجتمع الطبقي لآلاف السنين ان تجر هذه التجربة مرة أخرى نحو المجتمع الطبقي وأن تنجح في إسقاطها من الداخل، حتى وان لم تنجح هذه التجربة إلا أنها وبفضل الدروس والعبر التي تركتها على طريق الوصول إلى النجاح استطاعت أن تكون واحدة من الشواهد التاريخية البارزة، امام هذا التطور تصاب الحضارة الرأسمالية بذهول وتدخل في أول تجربة ترميم جادة، والحقيقة أن القومية الألمانية التي قادها هتلر لم تكن سوى ردة فعل للنظام الرأسمالي الذي دخل في حالة رعب أمام الاشتراكية؛ وتعبر عن تحقيق الترميم ضمن شروط الثورة المضادة، وتنتهي هذه الخطوة بقيام الولايات المتحدة الأمريكية بخطف قيادة الرأسمالية من أوروبا، وتصدرت أمريكا الشمالية والولايات المتحدة الأمريكية المركز الأول للرأسمالية في النصف الثاني من القرن العشرين. لقد شكلت الدول الوطنية خريطة جديدة على النطاق العالمي، كذلك استطاعت الاشتراكية المشيدة رغم كل نقاط الضعف الموجودة في أسسها أن تحقق بعض النجاحات التاريخية، وقامت الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا في مرحلة ما بعد الفاشية بالإقدام خطوات كبيرة على طريق تطوير الديمقراطية، حيث تم العبور من فاشية الترميمات إلى ديمقراطية الإصلاحات.

لقد مضى القرن العشرين بشكل دموي لم يسبق له مثيل في أي مرحلة

من مراحل التاريخ نتيجة للأنظمة الإمبريالية وحركات التحرر الوطنية والاشتراكية والديمقراطية والثورة والثورة المضادة والترميم والإصلاحات والانقلاب والانقلاب المضاد. ويمكن تسمية هذا القرن بالمرحلة التي عبرت فيها البشرية عن جنونها، حيث استخدمت في هذه المرحلة أكثر الأسلحة رعباً ودماراً، وتم تدمير كافة القيم العقائدية والأخلاقية، كما لم ينحصر هذا الدمار داخل المجتمع فحسب، بل امتد ليصل إلى البيئة التي استوطنت فيها البشرية.

لعب جشع كسب القيمة الزائدة لرأس المال دوراً أساسياً كإرادة إلهية جديدة تقف خلف كافة هذه التطورات. إذ أدى تراكم القيم الزائدة بشكل لم يسبق له مثيل خلال النشأة الأولى للنظام العبودي الى ظهور الملوك الآلهة، أما بالنسبة للقيمة الفائضة لرأس المال التي لم يشهد لها مثيل فقد دفع بالتطورات إلى الذروة وابتليت الإنسانية بالملوك الملحدين الخطرين جداً.

ربما لا زال الوقت مبكراً للقيام بتقييم عام للقرن العشرين لأنه لم يمض زمن طويل على انتهائه، ولكن لا يمكن إنكار أن هذا القرن هو القرن الذي شنت فيه الحضارة الرأسمالية خاصة وقوى حضارة محصلة المجتمع الطبقي عامة، هجوماً جنونياً ضد حلم العمال المسحوقين في عالم يعتمد على الحرية والمساواة، فقد قامت الحضارة الرومانية بشن هجوم مشابه عندما كانت في الذروة وسحقت انتفاضة الرقيق التي قام بها المصارع سبارتاكوس على رأس جيش العبيد عام 70 ق.م، حيث صفت خمسة آلاف شخص ومن ثم قادتهم الى الصلب، فعندما تصل الخطورة إلى صميم النظام فهو لن يتردد في القيام بممارسات مجنونة.

صحيح إنه تم تراجع الاشتراكية والثورة والحركات الوطنية لتخلف ورائها مرحلة، لكن الأمر الصحيح الآخر هو أن الرأسمالية أيضاً لم تعد قادرة على مواصلة وجودها بكيانها السابق، فلم تستطع الثورة تحقيق انتصار كامل وكذلك الثورة المضادة؛ فلا الإمبريالية أحرزت النصر التام ولا حركات التحرر، وبقيت الترميمات والإصلاحات بعيدة عن بلوغ النصر. اذاً فالذي ظهر في نهاية القرن العشرين هو وضع جديد تماماً وعلى كافة الأصعدة.

صحيح أن الرأسمالية سعت للتطور في كل مكان، حتى في الدول الاشتراكية السابقة، وكما لا يمكن الإنكار بان الصين التي تدعي بأنها صامدة قد حققت تطوراً رأسمالياً باطراد تحت أشراف الدولة، وبات واضحاً أيضاً أن كل بقعة وكل دولة مهما كبرت أو صغرت في العالم سواء في آسيا أو أفريقيا أو أمريكا الجنوبية، تحاول أن تبني مؤسساتها كمؤسسات نظام رأسمالي. إنها تشهد مرحلة تلاؤم مع النظام حتى الأعماق، وكذلك لا يمكن إنكار أن الذي يحدث في الحياة هو وضع مختلف عن مرحلة الرأسمالية في تاريخ الحضارة، ولا شك أن

هناك الكثير من المؤشرات المصيرية لهذه المرحلة وفي مقدمتها مجيء الثورة العلمية والتقنية في النصف الثاني من القرن العشرين. فمن المعروف إن المعرفة والتقنية تلعبان دوراً أساسياً في التحولات الحضارية دائماً، وهكذا فإن المستوى الجديد للتقنية والمعرفة خلق أوضاعاً متميزة من أجل الربح، وتعد المعلوماتية والاتصالات من أهم الأمثلة على ذلك، وكذلك فان اكتساب الرأسمال قوة استثمار في كل مكان دون مواجهة أية صعوبة تذكر يعد تطوراً تاريخياً متميزاً. إذ هناك انخفاض ملحوظ في ساعات العمل وتم وضع المستعمرات القديمة على طريق التطور الرأسمالي ولو بشكل محدود، وتم ربط كل شيء بالطغمة المالية التي وصلت إلى قوة مهيمنة على المستوى العالمي، وذلك عن طريق الأسواق المالية، وانخفض عدد الحكومات والدول التي لم ترضخ للطغمة المالية بنسبة كبيرة الى درجة لا يمكن ذكرها. وبينما كانت تخاض الحروب سابقاً كوسيلة لتحقيق الأرباح، أصبحت في راهننا تشكل عائقاً أمام الرأسمالية، لأن الرأسمالية تحتاج إلى شكل منظم والى الهدوء الذي يتطلبه الربح.

لا شك أن العلم والتقنية قد لعبا دوراً مصيرياً في هذه التطورات التي لم تكن تمثل إرادة الرأسمالية بمفردها، كما لعبت الاشتراكية المشيدة ونضالات التحرر الوطني والإنجازات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تعد ثمرة للنضال التاريخي الذي خاضته القوى العاملة الموجودة في المراكز الرأسمالية التي ضمنت تلك المكاسب من خلال الدستور، دوراً تاريخياً مصيرياً لا يقل أهمية عن دور العلم والتقنية، وتمكنت بإرادتها موازنة إرادة البرجوازية. حيث شهد التاريخ في نهاية القرن العشرين ولادة أرضية ملائمة للوفاق بين كلا الطرفين، وليس انتصار طرف واحد على الإطلاق، فلأول مرة في تاريخ الحضارة تصل قوى المجتمع الطبقي إلى حالة وفاق حول تقرير كل قوة لمصيرها بمنتهى الحرية ضمن أوسع نظام ديمقراطي وأجواء من السلام، حتى ولو لم تكن شروطها متساوية، وبذلك لا تكون الحضارة الديمقراطية خيالاً بل واقعاً.

د ـ الأزمة العامة للحضارة وعصر الحضارة الديمقراطية

حتى ولو لم يكن مصطلح **"نهاية التاريخ"** صحيحاً، فإننا نكون واقعيين إذا تحدثنا عن وصول الخصائص المستندة على الطابع الطبقي للحضارة إلى نهايتها، وإذا اعتبرنا أن التاريخ هو عبارة عن صراع طبقي فحسب، عندها فإن مصطلح وصول التاريخ إلى نهايته سيكون صحيحاً بهذا المعنى، إذ تعد القوة التقنية التي خلقها المجتمع النيوليثي هي الأساس الذي حقق الحضارة، فهذه القوة التقنية التي استطاعت فتح الطريق أمام فائض الإنتاج بالإضافة إلى توفر الأراضي الخصبة وإمكانيات الري في تلك المنطقة الجغرافية، وهي من الأسباب التي مهدت الطريق لولادة المجتمع الطبقي، وبشكل طبيعي أدى التمايز بين الحاكم والمحكوم إلى توفر إمكانية قيام الدولة، هذه الظاهرة الاجتماعية التي تحققت لأول مرة في ميزوبوتاميا السفلى كانت تعبير عن التحضر، ومن الواضح تماماً أن التقنية تكمن خلف الحضارة. فتلائم الظروف لتطور التقنية تعني تطورها في نفس الوقت.

إن التقنية التي أرغمت المجتمع على الانقسام الطبقي فتحت الطريق أمام تأثير ذو اتجاهين، ففي المرحلة الأولى أرغم الأساس التقني الضعيف المجتمع على الانقسام الطبقي من الأعماق، وتم استخدام الإنسان بحد ذاته كآلة تقنية وأصبح العبيد موضوعاً للملكية باعتبارهم أكثر التقنيات تطوراً، مما أدى إلى أكبر انقسام جذري للمجتمع، حيث انقسم المجتمع إلى عبيد ومالكي عبيد. يعد استعباد الإنسان من إحدى نتائج الأساس التقني الضعيف، وكلما تطورت التقنية انخفض الفرق القائم بين مستوى الطبقات.

وحتى في المراحل التالية من النظام العبودي، كان كلما تطورت الآلات والتقنيات المصنوعة من الحديد بشكل خاص، كلما تقلص عمق التمايز الطبقي، ولكن الموضوع الأكثر أهمية هو العلاقة بين مستوى التقنية والانقسام الطبقي، بل إن معرفة الى أي مستويات أدت التقنية إلى التمايز الطبقي يتحلى بأهمية كبرى على صعيد نضال المجتمع من أجل الحرية، وبناءً عليه فإن التطور التقني يشكل الأرضية المادية لتطوير مستوى الحرية. فلقد أدى إحلال المصانع محل المشاغل "المانيفاكتورة" في مرحلة المجتمع الرأسمالي إلى تغيير جذري في العلاقات الطبقية. وتقنية المعامل المتطورة لم تعد ترى ضرورة لفرض العلاقة بالطراز العبودي على الطبقة العاملة، وحتى ان علاقة من هذا الطراز تتناقض مع جوهر إنتاج المعامل، فقد سمح الإنتاج المتطور للعامل أن يقوم بعمله بحرية حتى ولو كانت محدودة، حيث يعد التسويق الحر للجهد من أحد مبادئ هذا النظام، والمعمل بالذات هو الأرضية المادية التي جعلت ذلك ممكناً.

شهدت المرحلة الرأسمالية تطورات كبيرة في تاريخ التقنية، فلأول

مرة في التاريخ تتم إزالة حالة الانقطاع الموجودة بين العلم والتقنية، وتتحول إلى عوامل تغذي بعضها بعضاً، خاصة أن القرن العشرين يشهد ثورة علمية تقنية كبيرة، فبالإضافة إلى التقنية الميكانيكية تم تطوير التقنية الإلكترونية والتقنية النووية لأول مرة في هذا القرن، وتم وضع كلا التقنيتين في خدمة المجتمع مما أدى إلى قلب كافة القيم التقليدية رأساً على عقب، وهذا بدوره يجعل من التحولات الكبرى على الأصعدة السياسية والعسكرية والدولية أمراً ضرورياً لا مفر منه.

تعتبر الدولة سياسة مكثفة وقائمة على مؤسسات وهي من مكتشفات العصر العبودي وآلياته. إن قيام علم الاجتماع الماركسي بترجيح ثقل تحليل الدولة في إطار الأسس الرأسمالية أدى إلى قصور كبير في هذا الموضوع. إذ ان أول من عين مبدأ مفهوم الدولة وشكلها هم الكهنة السومريون، دون أن يكون لديهم أي أساس علمي، حيث اعتمدت الدولة باعتبارها وسيلة تمارس اقبح أشكال الاستغلال الطبقي على الفكر الميثولوجي والذي يعد أكثر تخلفاً من أية الدين، فحسب اعتقاد الكهنة كانت الدولة انعكاساً للنظام السائد في السماء على الأرض ونموذجاً له، ومثلما تحكم الآلهة السماء فإن الدولة تحكم الأرض، وكما أن نظام الآلهة مقدس كذلك يجب أن يكون نظام الدولة، إن قداسة الدولة هي أخطر رؤية انتقلت من المعتقدات الميثولوجية للكهنة السومريين ووصلت إلى يومنا هذا، وهي التي تشرف على القمع باستغلال مذهل.

يمكن القول أن كافة المجتمعات الطبقية واصلت النموذج السومري للدولة التاريخية، ولكن بعد أن عملت على تقويته، ومع كل طبقة مهيمنة جديدة ازداد ترسيخ هذا النموذج اكثر. وربما تأتي الدولة على رأس قائمة الأدوات القديمة التي لم تتغير، ولا تزال حتى الآن من أبرز المواضيع الموجودة بين الظواهر الاجتماعية والأكثر تخلفاً، ففي الوقت الذي وصل فيه التغيير إلى كل شيء حتى الأديان، بقي وضع الدولة خلف الستار المقدس محافظاً على استمراريتها دون تغيير، وذلك بسبب أهميتها بالنسبة للطبقة المهيمنة والمستغلة، وبقي وضع السياسة والعسكرية مشابهاً تماماً بسبب علاقاتهما مع الدولة، حيث أن الدولة تدير نظام الاستغلال وبنيته الاجتماعية بواسطة المهام السياسية والعسكرية اعتماداً على الأساس التقني، فعندما تقتضي الضرورة يتم استخدام العنف لإتمام هذه المهمة بشكل مستمر.

إن الدولة التي استلمها النظام الرأسمالي بكل ما تحتويه من خصائص هي من صنع الكهنة السومريين، وهكذا فكل طبقة مستغلة مسيطرة تضطر للركوع أمام الدولة التي تراها جاهزة أمامها، لأن هذه الطبقة تبحث عن الأمن والضمان في نظام الدولة ولأنها تعرف أيضاً أنها لن تستطيع العيش يوماً واحداً

بدونها، وليس لهذه الطبقة أدنى رغبة في محاكمة الدولة أو تحليلها، فكل ما تقوم به هو أن تلبس هذه الدولة الزي الذي يتناسب معها وتضيف إليها الأعضاء الجديدة المناسبة لهويتها، وهذا تقليد قوي جداً لدرجة أنه عندما قامت الثورة في الاتحاد السوفيتي، لم تستطع الكثير من القوى التي ادعت أنها أسست دولة الطبقة العاملة التخلص من الاستسلام لدولة الكهنة ذاتها، وليس من قبيل المصادفة هذا التشابه الكبير بين نمط السوفيت للدولة والنمط الكهني للدولة في مصر وسومر. فكل ما قام به ثوريو الاشتراكية المشيدة، هو تمزيق الزي والأعضاء المضافة الى نظام الدولة السومرية. حيث بدا واضحاً ولو بعد وقت متأخر أنه تم الحفاظ على العنف والقمع اللذان يشكلان فكر الدولة المقدسة وجوهرها الأساسي، وأن ديكتاتورية "البروليتاريا" ليست أكثر من خدعة لتضليل الذات، وقد بات واضحاً أن تمزق ألبستها يعني تمزقها.

وقد تكون هناك علاقة بين ديكتاتورية البروليتاريا كمصطلح وبين الطبقة العاملة، وهناك علاقة تربط بين كافة الديكتاتوريات وبين الاستغلال، فإن استمرت الديكتاتورية يوماً واحداً، فهذا يعني أنها أداة بيد الطبقة المستغلة، فالأمر الذي أدى لانهيار الاشتراكية السوفيتية هو المغالطة الموجودة في موضوع الدولة والديكتاتورية. إن الطبقة العاملة المسحوقة وبالتالي المجتمعات لم تكن في يوم من الأيام بحاجة لأداة الدولة، لأن هذه الأداة هي التي تمنح الانقسام الطبقي ديمومتها، والمجتمع الطبقي هو سبب وجودها.

اننا اتخذنا من الدولة الكلاسيكية أساساً لنا أثناء تناولنا لهذا الموضوع، ونريد إظهار أنه لم يطرأ على هذه الأداة أي تغيير، ولا نستثني النمط السوفيتي من هذه القاعدة. فعندما نقول بأن الدولة لم تتغير فإننا نقصد مبدأ نشوءها ووظيفتها الأساسية، وإلا فليس هناك أي خلاف حول وجود عدد كبير من أنماط دول عبر التاريخ، إذ أدت الأفكار والممارسات الخاطئة حول موضوع الدولة إلى فشل الجهود التي بذلها العديد من الثوريين الذين ناضلوا من أجل صنع عالم يسوده الحرية والمساواة وخال من القمع. وتحولت أغلب الأنظمة التي أسسوها الى مصيبة حلت على رؤوسهم، كل ذلك لأنهم لم يفهموا مقدسات الكهنة السومريين بشكل صحيح، فالدولة وسيلة من الشكل الذي تكون فيه دائماً صاحبة خاصية التضليل والتحريف باعتبارها رمزاً لمفاهيم المجتمع البالية والصرامة والجهالة ورمزاً إلهياً يصعب لجمه، وبالرغم من أنها كيان طاعن في السن إلا ان استخدامها لأحدث مكياج يجعلها شابة وجميلة وتزداد جاذبية، كما تعتبر كياناً عجيباً ذو تجربة عميقة من الصعب انقسامه لكونه مؤثر وذا جنسية مزدوجة لا يستطيع إلا القليل من البشر التخلص من سحره. وإننا لا نهدف من ذلك عرضها بالشكل السلبي، بل للتأكيد على أنه مادامت حقيقة الانقسام الطبقي مستمرة فإنه لا يمكن العيش دون دولة بسبب وجود العوامل التقنية. في هذه الحالة لا يمكن

العيش دون دولة إلا بالعودة إلى حياة العصر الحجري أو أن نكون فوضويين، وباعتبار إن كلاهما غير ممكنين ضمن الشروط الاجتماعية القائمة فإن الدولة ستستمر في وجودها.

باعتبار الدولة والمجتمع الطبقي نتاج للتقنية من جهة ولنقاط ضعفها من جهة أخرى، وبالتالي حسب نشوء الحضارة، فإن السؤال الذي يجب طرحه والمتعلق بهذه المرحلة هو: في أي مرحلة من مراحل التطور التقني سيكون وجود الانقسام الطبقي وبالتالي الدولة والنظام الحضاري الذي تعتمد عليه أمراً غير ضروري..؟ هذا هو السؤال الذي يجب الإجابة عليه.

نظراً إلى أن التقنية ولدت الفرز الطبقي، فهي التي يمكنها تجاوز الدولة في مستوى ما من مستويات التطور، حيث برهن التاريخ على أن كل تطور تقني أدى إلى تضييق الفروقات الطبقية وإلى زيادة إمكانيات الحرية، وليس بمكنة أحد إنكار فضل تقنية الأدوات الحديدية في توفير إمكانيات تحرر عظيمة للبشرية، فمثلاً قدمت هذه التقنية إمكانيات للحرية لم تتمكن سوى القليل من الأدوات تقديمها للشعوب التي استطاعت أن تمتلك السيوف بسهولة، وللفلاحين الذين صنعوا المحراث من الحديد، وللحرفيين الذين أنشؤوا معدات حرفهم اعتماداً على الحديد، والتاريخ مليء بأمثلة مشابهة كثيرة.

هناك مسألة أخرى لها علاقة بهذا الموضوع تستوجب التحليل، وهي أنه لم يتم تقييم تطور الدولة والانقسام الطبقي وأنواع المهن المتزايدة والتنظيم الداخلي الذي يعد أساساً للتطور التقني. إذ أن الحاجة إلى المهن المتزايدة وإلى التنظيم والتنسيق جعلت من وجود الدولة والانقسام الطبقي التقليدي أمراً غير ضروري، وتم إظهار أن المهن ونظام التنسيق تستوجب تجاوز الدولة.

النتيجة التاريخية الأهم التي تم استنباطها من الثورات العلمية التقنية التي حدثت في القرن العشرين هي إزالة الأساس المادي للانقسام الطبقي، لذا من الضروري تقييم هذه النقطة على أنها أهم ظاهرة تاريخية، وإن عدم أخذ تأثير هذه النقطة على التطور الاجتماعي بعين الاعتبار والاستمرار بنفس المواقف النظرية المتعلقة بالعلاقات والتناقضات الموجودة بين الطبقات التي تشكلت حسب تقنية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر سيؤدي إلى مغالطات هامة. فمن المعروف أن الأمر الذي فصل بين النظام الإقطاعي والنظام الرأسمالي هو التطورات العلمية التقنية وفي مقدمتها الدولة الوطنية والجمهورية والعلمانية، التي أنتجت العديد من المؤسسات السياسية والاجتماعية، والنتيجة الأخرى لهذا التطور هي أنها فتحت الطريق أمام الصراعات القومية والطبقية.

من الممكن النظر إلى النتائج الاجتماعية والسياسية والعسكرية للثورة

العلميـة التقنيـة الثانيـة فـي القـرن العشـرين باعتبارهـا أكبـر وأكثـر ديمومـة مـن سابقاتها، والذي يجعل ذلك ممكناً هو ضخامة الثورة التقنية ـ العلمية، حيث بدأت نتائجها تظهر حديثاً، ومن أو نتائج هذه الثورة وأهمها هو انحلال التحالفات وانهيار الاتحاد السوفيتي، ورغم وجود أسباب أخرى إلا أن هذه الثورة هي السبب الأهم حسب الآراء العامة. والنتيجة الثانية هي فقدان الدولة الوطنية لأهميتها التي كانت تتمتع بها سابقاً، وفعلاً لقد فقدت الحدود معناها وأهميتها لدرجة كبيرة، فمن الواضح أن تكنولوجيا الاتصال لعبت دوراً ثورياً خارقاً في ذلك، حيث أكتسب التوجه نحو مجتمع المعلوماتية تسارعاً كبيراً لا يمكن مقارنته بأية مرحلة ماضية، إذ يعد الانترنيت بمفرده ظاهرة ثورية كبرى. باختصار لا يمكن لأي تحليل نظري الوصول إلى تقييم صحيح للعصر الذي نعيشه، ما لم يأخذ بحسبانه النتائج الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعسكرية للثورة التي تشهدها كافة الميادين الميكانيكية والإلكترونية والنووية، ودون تطوير هذا التقييم الصحيح لا يمكن تطوير أي برنامج سياسي صحيح أو وضع أية استراتيجية سليمة أو تكتيك صحيح. من الواضح ان هناك حاجة لنقاش معمق وللنقد والنقد الذاتي في هذه المواضيع، فالضعف في مستوى هذه التقييمات هو من أهم أسباب الأزمات الإيديولوجية القائمة

إذا كانت الثورة العلمية التقنية أمراً لا بد منه وترغم المجتمعات الطبقية على التحول والتبدل، فإنه يجب معرفة كيفية تطوير هوية إيديولوجية جديدة وبرنامج سياسي جديد لأهميتهما الكبيرة. حيث يظهر التاريخ في كل حين مداً لإستقصاءات ونقاشات كبيرة في هذا المراحل.

1 ـ تتجه الرأسمالية نحو الانهيار كنظام حضاري، إذ لم يقتصر الانهيار على الاشتراكية المشيدة فقط، فهزيمة الفاشية تعني في الوقت ذاته هزيمة للرأسمالية، كما أن الهزيمة في المستعمرات هي الجزء الآخر لهذه الهزيمة، كذلك تعد هزيمة الولايات المتحدة في فيتنام هي هزيمة للاستعمار الجديد، وفي الحقيقة إن الذي مني بالهزيمة في الحرب العالمية الثانية هو بنى كلا النظامين المعتمدين على الفلسفة والعلمية التقنية القديمة، إن هاتان البنيتان كانتا تعتمدان على الأرجح على تفسيرات الفكر الفلسفي والعلمية التقنية الميكانيكية، وهكذا فان المستوى التقني هو عبارة عن تطبيقات القوانين الميكانيكية في المصانع حيث هناك حاجة كبيرة للأيدي العاملة. كما لا يمكن للمستوى العلمي إلا أن يرفد الوضعية "**Positivism** "، وقد بدا واضحاً بان تحلي السياسة بقيمة كانت عن طريق المؤسسات القديمة والمواقف الميثولوجي. ففي حين كانت الليبرالية البرجوازية تؤول الى الفاشية والقومية الشوفينية في نهايتها، فان الاشتراكية آلت الى قومية اجتماعية والتحول لدولة متطورة إلى أبعد حد على المستوى الديكتاتوري والاستبدادي. لم تكن الحرب العالمية الثانية

حرباً اعتيادية، إذ إنها اعتمدت على ترميم جذري للحضارة الرأسمالية التي دخلت في أعمق أزماتها، ويعد النمط التعاوني الذي يقوم كل نظام طبقي بتطويره لأجل الصمود أثناء مرحلة الانهيار هو نوع من التحول إلى دولة متطرفة، من جهة أخرى فإن "أممية الاشتراكية الثالثة" التي تم وضعها كمسار نحو هدف إسقاط النظام الرأسمالي عن طريق الثورة، لم تستطع أن تحمي نفسها من الانهيار بسبب مآزقها الإيديولوجية رغم انتصارها في الحرب ورغم كل النجاحات التي حققتها في كافة الميادين في مرحلة ما بعد الحرب.

إذا دققنا قليلاً فإننا سنجد أن كلا النظامين لم يخرجا من الأزمة اعتماداً على النجاحات التي حققاها، بل اعتماداً على وضع التوازن. فالمفهوم المؤكد هو أن النظام الرأسمالي لن يستطيع تقوية نفسه عن طريق الحرب، والحقيقة المؤكدة الأخرى هي أن الهيمنة المطلقة أصبحت من ذكريات الماضي، اما التطور الهام الآخر الذي ظهر هو خطأ مفهوم القطبين؛ الأصح هو ظهور أخطاء وعدم ملائمة مسار الصراع المتطور بين الطبقات والأمم المسحوقة من جهة والرأسمالية الإمبريالية من جهة أخرى، وفي النهاية أن هذا العصر ليس عصر "نهاية التاريخ" ولا هو بعصر ديكتاتورية البروليتاريا؛ انه عصر الأزمة العميقة للمرحلة الأخيرة من النظام الرأسمالي التي يشهدها النظام الحضاري المعتمد في جوهره على المجتمع الطبقي. إن عدم وضع نتائج الثورة العلمية التقنية في خدمة الإنسانية، تلك الثورة التي أعطت إمكانيات كل أشكال الوفرة والثراء التي من شأنها توفير الأجهزة المادية والمعنوية الجديدة لكل البشرية بعد الحرب، هو دليل هام آخر على هذه الأزمة، فلولا وجود الإيديولوجيات والسياسات المهيمنة لاستطاعت التقنية التي تمتلك اساساً ملائماً أن تحل كافة الخلافات القومية والطبقية دون حروب ولاستطاعت الوصول إلى مجتمع الوفرة، ولكن مؤسسات البنى الفوقية للنظام وعلاقات الملكية حالت دون ظهور النظام الجديد.

تعد البورصات العالمية نظام الربح المفضل للرأسمال، فمرحلة الربح عن طريق البورصات التي اعتمد عليها النظام الرأسمالي تعني تأمين الربح الأقصى دون أي عمل، أي أنه نوع من أنواع مراهنة النظام على نفسه في لعبة قمار، ولا نعتقد بوجود وسيلة أفضل من هذه الوسيلة، لإظهار عدم ضرورة وجود هذا النظام. إن هذا الوضع، أي وجود علاقات الملكية الساقطة وعلاقات الإنتاج المهيمنة لم تكتف بفتح الطريق أمام الآثار الضارة التي زرعت أسلوب القمار لدى كل المجتمع فحسب، بل الأنكى من ذلك انها عملت وباستمرار على تأجيل فرصة نشوء نظام جديد، انه نظام يفسد أخلاق المجتمع ويجعله متعصباً عن طريق تعويده على أسلوب الربح السهل "بورصات، كمبيالات، تحويلات عملة صعبة " كما ويناهض كل التطورات المستجدة والخلاّقة. إن هذا الوضع الذي وصل إليه النظام ليس موضعياً بل هو وضع معاش بشكل عام، فلو تحول

الأساس التقني والرأسمال الموجود إلى استثمارات في ميادين صحيحة مثل تأمين الحاجات والبيئة والصحة والتعليم والعمل، لانخفضت الفروقات الطبقية إلى أدنى مستوى من جهة ولاستطاعت بسهولة حل كافة الصراعات القائمة والتي يمكن أن تظهر دون اللجوء إلى العنف من جهة أخرى.

هنا يجب الانتباه إلى نقطة هامة، وهي مثلما كان نشوء نظام حضارة المجتمع الطبقي هو إحدى نتائج التقنية، فإن زواله أيضاً سيكون نتيجة لمستوى جديد من التطور التقني ذاته. وكما كانت التقنية هي القوة الدافعة إلى خلق حضارة النظام العبودي فهي ذاتها ستكون القوة الدافعة لإلغاء وجود المجتمع الطبقي. إن هذا الوضع يجعل كل شخص يملك شيئاً من الوعي، قادراً على أن يكون شاهداً على هذه الحقيقة دون العودة إلى التحليلات النظرية المعمقة.

2 ـ النقطة الهامة الثانية في هذا الموضوع هي الوقوف على الخطوط الرئيسية للبديل الواجب طرحه في الحالة التي ذكرناها. حيث فقدت الثورات الدموية جدواها في الوصول إلى ما هو ضروري، وبالأحرى إن الأساس التقني قد ألغى ذلك النظام، وفتح أقنية الاتصال والمعلوماتية هذا المجال، وبات الراعي الذي يعيش في الجبل يعلم كل شيء عن العالم في آنه بواسطة الهاتف الخلوي وعلى اتصال به، وكل حظر على العلاقات قد فقد معناه وهذه الظروف تجعل أساليب العنف غير مجدية فيما عدا حالات الدفاع عن النفس. وتبين الأمثلة الموجودة في كل بقعة من العالم أن أقسى أنظمة الدولة لا تستطيع تحطيم قوة التقنية، فهي لا توفر الإمكانيات غير المحدودة للإنتاج الوفير فحسب، بل أنها تقدم إمكانيات عظيمة على صعيد التنظيم والوعي الضروري من أجل إزالة العراقيل السياسية الموجودة أمامها، وهي بهذا الاتجاه تجعل نظام المجتمع الطبقي لا حول له ولا قوة بل تجعله لاغياً.

لعدم توفر تقنية كهذه في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين بما في ذلك المراحل التاريخية السابقة لها، فإن التنظيمات السرية والانتفاضات والحروب طويلة الأمد قد لعبت دوراً أساسياً لكونها أساليب ضرورية. حيث قضت الثورات الجذرية التي تحققت لأول مرة في التاريخ خلال النصف الثاني من القرن العشرين على هذا الوضع. ويقسم البعض من علماء التاريخ، التاريخ البشري إلى ثلاثة مراحل: أولها مرحلة الثورة الزراعية ومجتمع القرية والتي تحدثنا عنها مطولاً، تبدأ مع تأسيس أول دولة مدينة حوالي أعوام 10000 ق.م وتستمر حتى حوالي 3000 ق.م. اما المرحلة الثانية فهي مرحلة مجتمع المدينة التي تطورت فيها الحرف والمشاغل والصناعة وتشمل الفترة التاريخية الممتدة من 3000ق .م ـ 1950 م. وأما مرحلة التاريخ الحديث فهي المرحلة التي تلت عام 1950م والتي تحددها التطورات التي نتجت عن

أكبر ثورة علمية تقنية عرفها التاريخ. حتى وان كان هذا التقسيم يتضمن على نقاط ضعف جادة إلا أنه ضروري لأنه أرجع العلاقة الموجودة بين التقنية والإنتاج والمجتمع إلى أسبابها الأساسية.

من الواضح أن البنى التي تعتمد على المستوى العلمي التقني لهذه المرحلة الجديدة لن تبلور الطابع الطبقي، بل إن التحكم المهني سيعمل على بلورة الشكل الاجتماعي الذي سيتكون. وكذلك لن تكون النوعية السياسية مصيرية بالمعنى القديم، بل سيتم الاعتماد على التنسيق العام وعلى هندسة التشغيل. فلن تكون المشكلة هي التشغيل القسري وإدارتها، بل سيحل محلها التقييم المهني الصحيح حسب القدرات والإدارة المعطاء، وبالأحرى أن المرحلة ستكون مرحلة تجاوز العنف والإرغام إلى مرحلة المشاركة في الإدارة الطوعية، التي ستحول العمل إلى حالة من المتعة والذوق وتجعله ضرباً من العادة التي لا تنفصل عن الحياة. وبالمعنى الحقيقي للكلمة تطبيق نظام العمل المقترح من أجل النظام الاشتراكي، لقد وصلت البشرية لأول مرة إلى إمكانية نظام عمل كهذا بفضل الأسس العلمية والتقنية.

3 ـ لقد أظهر الوضع التاريخي الذي تبلور في نهاية الحرب العالمية الثانية عدم إمكانية إدارة نظام الحضارة بواسطة أشكال الدولة والسياسة الكلاسيكية، ومن هنا تبين الدور المصيري للثورة العلمية التقنية. وأما السبب الهام الآخر فهو أن المستوى الذي وصلت إليه التكنولوجيا العسكرية قد فتح الطريق أمام تطورات جديدة، ووصلت إلى أبعاد قد تدمر البشرية برمتها. وبالتأكيد على أن المفاهيم السياسة والدولة التقليدية قد فقدت قدرتها على الإدارة عن طريق الحروب التي تخوضها على نطاق عالمي، حينها كان لا بد من تجاوز المؤسسات السياسية القائمة، والموضوع الذي يكمن هنا هو إفلاس الحضارة القديمة من الزاوية السياسة والقدرة على تقديم الحلول، وبدا واضحاً ان علاقات الإله القائمة والمستندة الى المؤسسات والمفاهيم الأساسية التي تكمن خلفها غير قادرة على الاستمرار. كما أتضح أن وضع التوازن بين الأقطاب التي تعتمد على القوى النووية لن يكون دائماً وخاصة بعد انهيار النظام السوفيتي. وليس من الواقعية اعتبار الحلف المضاد على أنه خرج منتصراً، ولكن هذا يؤكد على أن العناد في المأزق فقط لا يشكل حلاً، وأن الأزمة لها طابع جذري، لقد أظهرت كافة نماذج الحلول بعد الحرب العالمية الثانية إفلاسها وعدم صلاحيتها، كما وأتضح بأن تجارب الجيش الأوروبي الصغير وتجارب الدرع الصاروخي الأمريكي لم تضع حلولاً جذريةً بل تحمل مهام إنقاذ يومها أو تأمين بعض المصالح العابرة.

تؤكد هذه التقييمات القصيرة حقيقة أن المرحلة الانتقالية هي ضرورة

تاريخية، وهذه الضرورة تنبع من التأثيرات القوية لآثار النظام الحضاري القديم، ومن عدم تبلور حملة الانطلاقة الإنسانية الجديدة بعد. كما ويبين التاريخ بان هذه المراحل الانتقالية تستغرق أمداً طويلاً، لدرجة أن بعض الأنظمة تمثل هذه الفترات على شكل نظام إمبراطوري، ولقد شهدت حضارة النظام العبودي بين أشكال نشأتها الأولى ومرحلة الذروة والانهيار أمثلة انتقالية مذهلة، فلقد لعب الحثيون والهوريون والميتانيون والفينيقيون والفريغايين دور الحامل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والميثولوجي والتقني والعلمي في مرحلة انتقالية نموذجية بين مراحل النشوء الأولى للإمبراطورتين المصرية والسومرية وبين الإمبراطوريات الإغريقية الرومانية اللتان كانتا في مرحلة الذروة، وبذلك يكون الشرق وسيلة نقل للمكاسب الحضارية الكبرى إلى الغرب وإلى مناطقه المحلية، وأكثر من ذلك فقد أخذت طابع المرحلة الانتقالية على هذا التوجه.

وهناك مثال آخر وهو ان الحضارتان البيزنطية والساسانية لعبتا دورهما كمرحلة انتقالية بين حضارة النظام العبودي وحضارة النظام الإقطاعي، وشكلتا حلقة مرحلية بين العصور القديمة والعصور الوسطى، أي في مرحلة الانتقال من النظام العبودي إلى النظام الإقطاع. وكذلك يمكن تقديم مثال آخر وهو أن مونارشيات أوروبا الغربية لعبت دور الجسر في الانتقال من النظام الإقطاعي إلى النظام الرأسمالي، حيث كانت تلك المونارشيات أشكالاً مرحلية للانتقال من الإقطاعية الى الرأسمالية، وبالرغم من وجود بعض الفروقات يمكن تقديم القيصرية الروسية والإمبراطورية العثمانية أمثلة على المرحلة الانتقالية، وتشكل هذه المراحل الانتقالية النموذجية وتعبيرها المتمأسس جسراً بين الحضارة القديمة والحضارة الجديدة، حيث تتوحد أطرافهما في كنفها. إن ما تقتضيه الفلسفة العلمية هو أن قيام الوحدة المؤقتة للقطبين القديم والجديد تعتبر مرحلة انتقالية ضرورية، فكل التطورات الموجودة في الطبيعة مضطرة للعبور في مراحل الوحدة الانتقالية، يعد ديالكتيك التطور هذا ضروري من أجل المجتمع الذي يعتبر في جوهره استمراراً للطبيعة.

4 ـ من الأنسب أن نطلق اسم "عصر الحضارة الديمقراطية" على هذه المرحلة الانتقالية أي بين نظام الحضارة القديم بأزمته المتفاقمة والمستمرة وبين الانطلاقة الحضارية الجديدة التي لم تتبلور بعد. فانتقال الأساليب الديمقراطية كونها نظام وفاق تم التوصل إليه في نهاية القرن العشرين، إلى وضع المسيطر والسائد لم يتم بناءً على خيارات مزاجية وعشوائية بل كان نتيجة لشروط موضوعية، وقد لعب إفلاس الخيار الفاشي واستبدادية الاشتراكية المشيدة دوراً مصيرياً في وصول الديمقراطية إلى هذا الوضع.

لا يمكن تقييم الخيار الفاشي للرأسمالية بالشكل الهتلري فحسب، بل هو

عبارة عن مرحلة تولدت من وصول الطغمة المالية إلى مرحلة الهيمنة وكذلك عن حقيقة النظام الدموي لرجعية الرأسمالية بشكل كلي، ومن المعلوم أنها لم تنتشر في المراكز الرأسمالية فحسب، بل تم العمل على نشرها في علاقاتها مع الدول المحيطة وفي دول الأطراف. إن الخوف والرعب اللذان نجما عن ظروف الانهيار والطابع الشوفيني للقومية الذي فاق التعصب الديني واحتمال أن تتحول الاشتراكية إلى نظام، كل هذه الأمور جعلتها من أكثر الأنظمة ظلماً وقسوة في التاريخ. أما أسباب فشلها فقد جاءت من مستوى الحرية الذي اكتسبته البشرية بشكل عام، ومن نجاحات الثورات العلمية التقنية، ولقد أرغم هذا الوضع النظام الرأسمالي على الخيار الجديد، وبما ان النظام لن يقبل بالانهيار، ولما كان انتصار الفاشية الشامل أمراً مستحيلاً، حينها كان لا بد من نظام توفيقي طويل الأمد، ولم يكن غريباً عندما أطلقوا على هذا الوفاق اسم الديمقراطية، وخاصة أن النجاحات الكبرى للثورة التقنية لم تكتف باعتماد الديمقراطية فحسب، بل برهنت على أنها أفضل نظام يمكن أن يحقق التطور، مما أدى إلى فتح الطريق أمام أمن النظام الرأسمالي، ورغم الممارسات المحدودة في البداية فقد تم قبول الديمقراطية كنمط للإدارة وللحياة الأنسب للوصول إلى نظام كوني في نهاية القرن العشرين، وشيئاً فشيئاً انتشرت في كل مكان.

يتناقض توجه الاشتراكية المشيدة نحو التوتاليتارية مع مبدأ الحرية اللازم من أجل تقدم الاشتراكية، حيث لم يعد هناك مفر من فشل النظام عندما اتضح أن إذابة الفرد باسم المجتمع حتى لو كان بهدف المساواة، لن يجعل الفرد خلّاقاً حتى بتلك الدرجة التي تجعله الليبرالية البرجوازية. فلقد كانت المساواة تامة في النظام العبودي وكل ما ينقصه هو الحرية فقط، ومنذ تلك المرحلة أصبح طلب المزيد من الحرية هدفاً لكل الممارسات التي قامت بها البشرية، إن الاشتراكية المشيدة هي ضرب من النظام الكهنوتي السومري الذي تم تطبيقه في زمن ما، حيث حقق الكهنة السومريون أول نظام عبودي جماعي، وكان عبارة عن دولة عبودية أشبه ما تكون بدولة الاشتراكية المشيدة. سواء تم تأسيس الدولة إيضاح اليسار أو باسم اليمين، وحتى لربما احتوت في أساسها على أنظمة تخدم مبدأ المساواة، ولكن هذا لا يتم إلا من خلال التضحية بالحرية الفردية، إذ تعد الدولة ضمن شروط المجتمع الطبقي نفياً للحرية، حيث بقيت دولتية الاشتراكية المشيدة كممارسة مكثفة وواسعة متخلفة عن الرأسمالية في مجال الحرية الفردية.

حتى تتمكن الأنظمة التي لا تعتمد على الحرية، من النجاح على الأنظمة التي تعتمد الحرية لابد أن تلجأ إلى العنف الذي يعتبر الطريق الوحيد أمامها. وقد خسر النظام السوفيتي في هذه النقطة تحديداً. كما تقف أخطاء الهوية الإيديولوجية وراء هذه الحقيقة أيضاً. فمن دون تحقيق تناول فلسفي يستطيع

تحرير هوية الفرد بالقدر الذي تحرره الرأسمالية، ومن دون أن تتكامل هذه الحرية مع المساواة الحقيقية، يكون الحديث عن حضارة جديدة مغالطة كبرى. فبعد اتخاذ فلسفة مادية فظة كمرشد للحياة، يكون الوصول إلى نظام يشبه النظام العبودي أمراً حتمياً. وباختزال ظاهرة كحياة الإنسان المعقدة إلى أبعد حد، إلى عدة كليشهات مادية فجة سيكون قد فتح الباب على مصراعيه أمام خلق إنسان تابع لغرائزه. والتجربة السوفيتية تعتبر دليلاً على هذه الحقيقة إلى حد ما. أما شيوع النزعة القومية في القرن العشرين فهي لا تتجاوز حركة قبلية معاصرة ولا يمكن أن ننتظر منها أي إسهام للحضارة الجديدة، باعتبارها نزعة متطورة للقبلية نمت من الناحيتين الكمية والكيفية، عند تحليل الديمقراطية المعاصرة يجب أخذ هذه الحقائق الأساسية بعين الاعتبار، فمع أكثر دولة تميل إلى الاستبداد في التوازن النووي الرهيب ستتحول كافة البشرية إما إلى جنود أو إلى عمال، وهذه التطورات وصلت مستويات لا يتحملها المجتمع الطبقي وكلها تنشأ من بنى الثورة والثورة المضادة المتأزمة، والتي لا يمكنها أن تقوم بالوظائف العادية لأي نظام، ولا يمكن لأية ثورة أو ثورة مضادة أن تصمد طويلاً بهكذا بنية، وقد برهن ذلك من خلال العديد من الأمثلة.

يمكن تقديم الكثير من التعريفات حول الديمقراطية ويمكن التوقف مطولاً عند طابعها الطبقي وطابعها الوفاقي وطابعها المسالم. كما يمكن شرح تطورها النظري والعملي بعمق، وكما يمكن أن يتضح بأنها ليست نظام الحضارة الوحيد ولكن يمكننا أن نقول: أنه لأول مرة تتوفر إمكانية التطور والسباق بين كافة الشعوب والثقافات في أجواء من السلام والعلاقات الشاملة وباسم الخيارات الإيديولوجية والاقتصادية والسياسية حتى ولو حدث ذلك بطريقة غير وافية. ومن الأهمية توضيح أن الديمقراطية التي تأكد انتصارها في نهاية القرن العشرين قد تجاوزت الطابع الطبقي الضيق، حيث حملت كافة الديمقراطيات التي طبقت حتى هذه المرحلة نموذج طبقية ضيقة، بل يمكن القول بأن تلك الديمقراطية حتى ولو كانت شكلاً، لم تكن تشمل كافة المواطنين، ولم تكن أكثر من أسلوب حكم لكيان ضيق من المواطنين الأثرياء، أنها ضرب من ديمقراطية أثينا الأولى، حيث تتخذ من الواقع الطبقي أساساً لها، لكن الديمقراطية التي تحققت في نهاية القرن العشرين استطاعت تجاوز هذا الضيق بشكل متقدم، فهي لم تكتفِ بالتوسع على مستوى الشمول الطبقي فحسب، بل أصبحت تعترف بإمكانية التنظيم والتعبير الحر في كافة المجالات الأساسية مثل الفكر والإيمان والثقافة الأشمل والفروقات الاقتصادية والممارسات السياسية. فكل الأضداد تملك فرص تغيير وتطوير نفسها دون اللجوء إلى العنف ولو بشكل محدود، وهنا لا تنتهِ الصراعات والتضامنات في كافة المجالات الطبقية والقومية، الفكرية والعقائدية، الاقتصادية والثقافية، الاجتماعية والسياسية، فلا تتوقف

العلاقات والصراعات، بل تولد مرحلة التنفيذ التزاماً بالقوانين السائدة والأشكال السلمية.

من المؤكد أن الديمقراطية تحمل جوهراً اكثر إنسانية، لكن النظر إلى الدموية كمقياس للشجاعة والعظمة هي من تقاليد وأعراف المجتمع الطبقي الأكثر بربرية، ويتم تعظيمها وتقديسها لأجل تغطية حقيقتها الملعونة جداً، فلا يمكن لأي انتصار تحقق على المجازر المرعبة أن يكون مقدساً، وإذا كان لا بد من التقديس فهو الشيء الذي يتحقق بأقل قدر من الألم ويرمي إلى خير الإنسانية باستثناء آلام المخاض الضرورية، وبالتالي فإن الديمقراطية الحديثة التي تجاوزت كافة الأشكال الدموية والتي سادت طوال تاريخ المجتمع الطبقي واعترفت بحق كل إنسان وكل اثنية ودين وجنس وحق كل مجموعة اقتصادية وسياسية بالتعبير الحر، تكون هي أقرب شكل للحياة وأفضل أسلوب للحكم وتستحق التقديس. ومن المفيد أن نوضح بأن هذه الديمقراطية تتحقق لأول مرة منذ بداية التاريخ.

إن تطور الديمقراطية الحديثة ارتقائي ويحدث من الداخل، ولا تظهر نفسها بنتائج مذهلة. لكن إذا كانت الإنسانية تريد أن تملئ ذهنها وروحها بالتطورات الخلاّقة فإنها لن تجد أفضل من هذا النظام. إضافة الى إعطاء الأجوبة الكافية للمسألة التي تتمحور حول السبب الذي جعل الديمقراطية تتحقق بهذه الشمولية، كذلك يجب الا نمل من التكرار عندما نقول بأن الثورات التقنية العلمية قد أظهرت الإمكانات المادية اللازمة لتجاوز الأزمة المتفاقمة والمستمرة.

إن الحقيقة الهامة التي سعينا لتأكيدها عبر تحليلاتنا للحضارة هي أن نشوء الطبقات وزوالها لا يتم بالعنف، إنما تلعب القدرة التقنية دوراً مصيرياً اكبر في هذا الأمر، فعندما تتوفر إمكانيات التطور لكيان ما بالوفرة التقنية فإن تشكل الطبقة يصبح حتمياً لأن كل شخص سيستفيد من ذلك التطور، وحتى عندما تم تأسيس النظام العبودي في مراحله الأولى كانت شروط الحياة الجديدة بالنسبة للكثير من العبيد اكثر أمناً وإشباعاً لبطونهم من النظام القديم. إن المصدر الحقيقي للتكوين الطبقي هو هذا الإمكان المادي، وديالكتيك التطور الطبقي على مدى التاريخ يؤكد صحة هذه الحقيقة.

وفي هذه الحالة فحتى لو كان القضاء على الطبقات في مرحلة الحضارة الرأسمالية ممكناً من الناحية الفيزيائية عن طريق الثورة والعنف إلا إنه لا يمكن القضاء عليها كمؤسسة، لأنها ستولد من جديد عندما تجد الفرصة المناسبة، وقد أثبتت التجربة التي خاضتها الاشتراكية المشيدة صحة ذلك، حيث استطاعت الاشتراكية القضاء على بعض الطبقات باستخدام القوة، ولكنها لم

تستطع الحيلولة دون ظهورها من جديد وبشكل أكثر فساداً، أو سبب ذلك هو المستوى التقني مرة أخرى. إذ أن الظاهرة الاجتماعية التي يسمح المستوى التقني بظهورها وتطورها لا يمكن القضاء عليها، إلا إذا فقدت ضرورتها والحاجة إليها ضمن هذا المستوى، وربما يكون بمكنة العنف والثورة والثورة المضادة عرقلة الظواهر الاجتماعية ولكنها لا تستطيع إزالتها، وبالتالي لا يمكن القضاء على المجتمعات التي شكلتها التقنية ببناها التحتية والفوقية، إلا إذا قضت عليها التطورات التقنية كأمر حتمي أو أن يتم تحولها إلى مجتمعات أخرى، لكن الأحداث الجنونية التي جرت قبل مجيء الديمقراطية المعاصرة اعتمدت على تجاهل هذه القاعدة، وكان ذلك سبباً لفشل الاستبدادية الفاشية وأنظمة الاشتراكية المشيدة، ورغم فشل الكثير من التطورات التي رغبوا بها، إلا انها دخلت ضمن إمكانات التقنية المتطورة. ولو امتلك هتلر كل هذه الأسلحة النووية المكدسة في أيامنا هذه لدمر كل من لا يعجبه لأن الأساس التقني موجود ولهذا لم يعد هناك أي داعي لهذا الحشد الغفير من طبقة العمال والفلاحين، لأن التطور التقني خفض الحاجة إلى هذا العدد الكبير الذي تضمنه هذه الطبقات، والنتيجة أن العامل المصيري ليس القوة أو العنف، بل هو التقنية.

وبذلك تكون الديمقراطية المعاصرة هي السبيل الأكثر واقعية، والذي يمكنه تقديم إمكانية الاصطفاء التقني وبالتالي التطور من جهة، وتقديم إمكانية إزالة هذه الظواهر الاجتماعية على هذا الأساس من جهة أخرى بل وتحويلها عن طريق الاصطفاء الاجتماعي، دون اللجوء إلى استخدام العنف. تستمد الديمقراطية قوتها الأساسية من هذه الحلول الصحيحة التي تقدمها وليس من المرتبطين والمتعلقين بها من الصميم، ولقد أظهرت الأبحاث العلمية وجود تلازم سليم ودائم بين الديمقراطية والتطور الاقتصادي، ولا شك أن السبب الرئيسي الذي يقف وراء هذا الأمر هو تجسيد تشكل المظهر الاجتماعي الأقرب الى نظام الطبيعة، ولا نقصد هنا التطورات التي اعتمدت على تفسير النمط الكهنوتي أو المادي الفج للطبيعة، فلا يمكن لقوانين التحول الاجتماعي أن تحدث إلا ضمن نطاق قانون التطور العام، وذلك بعد أخذ القوانين الذاتية الخاصة بعين الاعتبار كما هي، وإن بناء ظاهرة اجتماعية ما خارج هذا القانون أو متجاوزة إياه لن يؤدي إلا إلى الجنون والدمار بيد الجهالة الإنسانية.

ومن الأهمية رؤية بعض خصائص العصر الديمقراطي عن كثب:

أ - إن الديمقراطية المعاصرة هي من نتاج الأزمة العميقة والدائمة لنظام الحضارة المعتمد على المجتمع الطبقي الذي تكامل باستمرار منذ عهد النظام العبودي. فقد وقعت كافة أنظمة المبادئ والمؤسسات الاجتماعية في حالة قصور أمام الثورة العلمية التقنية الكبرى، ويعبر هذا الوضع عن تشكل عام

مقلوب ومبدد ممتد من الصعيد الاقتصادي وحتى الإيديولوجي، إذ يتم الشك بكل المبادئ، وباتت المؤسسات تفقد وظيفتها، مقابل ذلك مازال النظام الاجتماعي الجديد بعيداً عن التبلور والوضوح، ولا يستطيع أحد أن يتوقع الشكل الذي ستتخذه الهوية الإيديولوجية والمؤسسات الأساسية. وتم التأكد من عدم قدرة القديم من خلال الترميم الفاشي وكذلك الحديث من خلال البناء السوفيتي الثوري على تقديم الحلول، لذا فإن الديمقراطية المعاصرة هي شكل الحياة والإدارة لهذه المرحلة التاريخية.

ب ـ الثورات العلمية التقنية أخرجت الحياة في المجتمع الطبقي من كونها ظاهرة مفروضة لا يمكن التحضر بدونها، وأدت التقنية إلى اعتماد الأساس الذي يؤكد الواقع اللا طبقي وليس الانقسام الطبقي، وكما تطور نظام الحضارة الطبقي اعتماداً على المستوى التقني، فإن المستوى التقني القائم أصبح يرى أن هذا النمط يشكل عائقاً أساسياً أمام تقدم المجتمع، فالتقنية تقضي بنفي المجتمع الطبقي، بل وترغم على التحول من المجتمع الطبقي إلى المجتمع المهني كطرح اجتماعي جديد، وتعتمد البنية التحية للديمقراطية المعاصرة على ضرورة وجود المجتمع الطبقي ذو الأساس التقني، بعبارة أخرى إن الثورة التقنية هي الأساس الأمتن للديمقراطية المعاصرة فلقد تشكلت رابطة معينة بين الديمقراطية المعاصرة والثورة العلمية التقنية حيث لم يظهر تطور من هذه الناحية في مرحلة تاريخية سابقة، وبالتالي فإن الديمقراطية المعاصرة ليست خياراً اعتباطياً، بل تعتمد على القدرة المادية للتقنية التي تبلور مرحلة تاريخية حديثة والتي جعلت تأسيس مجتمع منظم وواع ممكناً، وقد وصلا إلى مستوى يمكنهما من دعم بعضهما البعض ويشعران بالحاجة المتبادلة لتطوير بعضهم.

ج ـ لا يمكن إزالة أو تحويل الطبقات وكافة الظواهر الاجتماعية المختلفة الأخرى باستخدام العنف والإرغام، إنما يمكن ذلك عن طريق تغيير المستوى العلمي والتقني، فكما لا يمكن خلق ظاهرة اجتماعية عنوة، كذلك لا يمكن إزالتها، فالعامل المصيري في التبدل والتحول ليس العنف والإرغام بل هو الأساس العلمي التقني، وربما يمكن إزالة أو تأسيس بعض الظواهر أو الطبقات الاجتماعية فيزيائياً ولكن في هذه الحالة لا يمكن حمايتها من الزوال عندما يتم استخدام أعمال عنف أخرى ضدها، لأنهم اعتمدوا على عنصر الإرغام. كما يلعب الجهل دوراً أساسياً في ممارسة العنف وكلما تم تجاوز الجهل في العلم والممارسة تبين عدم جدوى ممارسة الإرغام. ترجع ممارسة الإرغام في التاريخ الإنساني بنسبة كبيرة إلى الافتقار للتطور العلمي والتطبيقي، ويجب ان نفهم بشكل صحيح النظرية القائلة بان العنف يعتبر بمثابة القابلة التي تولد المجتمع الجديد، وإن مهمة القابلة التي تحضر آلام مخاض الولادة لأم ما، هي تقديم المساعدة من أجل ولادة بشكل أقل ألماً وأفضل صحة للمولود، ولكن العنف

الذي تم ممارسته عبر التاريخ عمل على تقزيم الأطفال أي البشر الذين ولدوا أصحاء، وأفقدهم حريتهم ومنحهم هوية القطيع، وأحياناً عمل على قتلهم وتدميرهم، فليس لهذا العنف أية علاقة بالقابلة، بل علاقته أقرب الى الجلاد أو السجان. فإن الاستخدام الظالم والمبالغ فيه لممارسة العنف في التاريخ جعل المجتمع يتأزم ويتجاوز التطور الطبيعي له، حيث يعتبر التخلف التكنولوجي وعدم تطور العلم من الأسباب الرئيسية للعنف، ويتجاوز هذه الأسباب حينها فقط يفقد العنف ولاسيما الدولة التي تخضع لإمرة المجتمع الطبقي، معناه.

لقد أصبحت هذه المرحلة التاريخية حقيقة واقعة، وبالتالي فإن نظريات التحول والتغيير المعتمدة على العنف الثوري وعنف التعصب الرجعي والثوري المضاد، كلها عبارة عن مصطلحات فقدت معناها، ويتخذ المجتمع الديمقراطي المعاصر من التحول الملائم للتطور الطبيعي أساساً له، ويستند على الوعي بوجود أسسه العلمية والتقنية المتينة، ولا يمكن أن نستنتج من كل هذا أن الديمقراطية هي وفاق بين عنف الثورة والثورة المضادة، فلا شك أن هذه المواقف خاطئة، إذ لا يوجد هناك أي وفاق قسري في جوهر الديمقراطية، بل على العكس إن الديمقراطية تعتمد على نبذ ممارسة العنف وإخراجها من جدول الأعمال الاجتماعية. كذلك لا علاقة للديمقراطية بالرضوخ بل على العكس إنها تؤمن باستحالة التطور من دون الحريات التي يجب أن تسود كافة الأوساط التي لا مكان للعنف فيها، كذلك تستوجب الديمقراطية المعاصرة توجيه النقد الذاتي لكافة الكيانات الحضارية التي تعتمد على العنف، إذ أن الديمقراطية المعاصرة هي نظام أساسه النقد الذاتي، وإن موقفها نحو العنف ليس تكتيكياً ولا حتى استراتيجياً بل هو موقف مبدئي، إن المبدأ الأساسي للديمقراطية هو الإيمان بوجود مرحلة تاريخية تنبذ العنف من ذاتها وتصل إلى تحقيق ذلك بالقدرات العلمية والتقنية، ويعبر هذا المبدأ عن أساس فلسفي لا يعتمد على سياسة التكتيكات والاستراتيجيات، إذ أنه يقيم هذه الممارسة على أنها من ضرورات الممارسة والتطبيق، إن هذا الموقف نحو العنف يظهر الطابع السلمي للديمقراطية المعاصرة، وإنه يدرك السلام الاجتماعي على أنه شكل من أشكال تطور الطبيعة ويؤمن بذلك، كما يجب ألا نفهم بأن السلام لا يعني الرضوخ للعنف، بل على العكس من ذلك فالسلام يعني القضاء على العنف، إنه يؤمن بمجتمع خال من الحروب وبعالم حضاري يتخذ من هذا الإيمان أساساً له.

الدفاع المشروع: هو المبدأ الهام الآخر للديمقراطية المعاصرة، ففي المجتمعات التي تفتقر إلى العلاقات الديمقراطية المعاصرة أو عندما تتعرض الديمقراطية لاعتداء عندها يكون الدفاع المشروع عن الذات هو أحد حقوقها الأساسية، بل هو حق دستوري أساسي حيث ان الرضوخ للأنظمة والقوانين غير الديمقراطية ليس موقف ديمقراطي، وهذا الموقف إفناء القوى غير

الديمقراطية باعتداء مضاد، بل يقترح تجاوز الظلم بتطوير الوعي العام للمجتمع والتنظيم وحق التظاهر، وتدخل المقاومة العملية ضمن حقوق الدفاع المقدس وتشكل جوهر الحقوق، ويأخذ الدفاع المشروع عن الذات بما في ذلك المسلح منها أساسه من المبادئ الديمقراطية المعاصرة وما يتجاوز هذا المبدأ من العمليات لا تدخل في أطر الدفاع المشروع.

د ـ إن الديمقراطية لا تعتمد على طبقة أو زمرة أو قومية معينة، بل تتخذ كل المجتمع أساساً، وهناك كثير من المؤسسات الديمقراطية عبر التاريخ لم تتجاوز حدودها أسس طبقة أو زمرة أو مجموعة أثنية، ومن الأفضل أن نسميها بديمقراطيات الطبقة التقليدية، اما الديمقراطية المعاصرة هي عكس ذلك تماماً إذ أنها تقبل بمشروعية كافة الهويات الموجودة في المجتمع ولا تمنع أي منها من الدفاع عن حقها في الحرية والمساواة، ولا ترى في تنوع وخلاف الهويات الاجتماعية على أنها مشكلة، بل تقبل بذلك كغنى وثراء للمجتمع، لا بل واكثر من ذلك فهي تشجعهم على النمو والتطور، وبهذا المعنى فإن الديمقراطية المعاصرة هي نظام ديناميكي يعتمد على التنظيمات والعمليات التي تعتمد على كافة الفروقات الإيديولوجية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعرقية والجنسية، ودون اللجوء إلى العنف والنظام الذي يتخذ من الموزاييك الاجتماعي المنظم أرضية له، ويرى في النزعات التي تطالب بـ : إما الأسود أو الأبيض على أنها نزعات تهدد الديمقراطية وهي من ممارسات الأنظمة الديكتاتورية الاستبدادية الخطرة على كيانه، ويستخدم النظام الديمقراطي حق الدفاع عن الذات كسلاح ضد هذه الأخطار.

إن هذا الموقف من المجتمع يشكل القدرة الحقيقة للديمقراطية المعاصرة، إذ أن كل الفئات الاجتماعية التي تريد الحياة والتطور وتتطلع إلى تحقيق الغنى والثراء عن طريق التضامن، هي المدافعة الحقيقية عن الديمقراطية المعاصرة، وبالتالي تمثل قواها، وبهذا المعنى ان الديمقراطية المعاصرة تستند على المجتمع الديمقراطي، فالمجتمع الديمقراطي يعني الوعي الحر لكل وجود ثقافي ولكل فكر وعقيدة، وتنظيم هذا الوعي وممارسته بشكل قانوني، ولا يمكن التحدث عن مجتمع ديمقراطي إذا كان ذلك المجتمع يتعرض للقمع والمنع ويحظر عليه إقامة التنظيمات ولا يستطيع التعبير عن إرادته بسبب الخوف، كما لا يمكن الحديث عن ديمقراطية معاصرة دون وجود مجتمع ديمقراطي.

هـ ـ الديمقراطية المعاصرة تقتضي دولة ديمقراطية وتكلف "الدولة الديمقراطية" أعضاءها التشريعيين والتنفيذيين بمهامهم بناءاً على اختيار المجتمع لهم، إن التعيين في الوظائف الذي لا يعتمد على انتخابات شعبية، هو النمط الذي تعمل به الأنظمة الاستبدادية وأنظمة السلالات، أي انه لا يعتمد على

الاقتراع الديمقراطي، وهذا يتعلق بطابع الدولة الديمقراطية، وفي نظريات الدولة التقليدية وتطبيقاتها يرى الحكام أنفسهم طبقة ساحقة فوق المجتمع ويعتبرون أن الإرادة الإلهية تجسدت فيهم، ويقدمون أنفسهم من خلف القناع المقدس الذي توارثوه من آبائهم أو من سلطات استبدادية مختلفة ومن هذه الناحية يتضح أن تاريخ الحضارة هو تاريخ اللا ديمقراطية التي مارستها الدولة ضد المجتمع، واعتبرت الفوقية وإذلال المجتمع والضبابية على أنها ذات منبت إلهي وأقنعت المجتمع بذلك، والدولة الجيدة حسب مفهومهم هي الدولة التي تراقب المجتمع جيداً وتحكم كما ترغب وتستغل وتشن الحروب، لقد حدثت التطورات الحضارية الهامة في ظل هذه الممارسات من الدولة.

أما الديمقراطية المعاصرة فإنها تعمل بعكس صفات الدولة هذه وتضعها في الاتجاه الصحيح، وتستند في أساسها على العلاقات المعقدة في المجتمع وتعمل على تكون شفافة ومنفتحة، وتؤمن بأن الثقة تنبع من القبول والرضى وليس من الخوف، وتتطلع الى ان تكون ضمانة الانقسام العادل للثروة وليس الاستغلال، وهي تخرج من كونها دولة بالمعنى الكلاسيكي، وغالباً ما تعمل على ان تتوصل الى تنسيق نظام العلاقات المعقدة للمجتمع على أعلى المستويات، والوصول الى مستوى من الإدارة قادرة الى اتخاذ القرارات في مجالات مثل الأمن العام والتعليم والصحة والاتصالات والدبلوماسية إذ أنه لا يمكن لشرائح المجتمع أن تقوم بهذه المهام بمفردها.

يشهد عصرنا الراهن نضالاً كثيفاً على صعيد التحول والتغيير للانتقال من مفهوم الدولة التقليدية إلى مفهوم الدولة الديمقراطية المعاصرة، والدولة هي أكثر المؤسسات معاناة من الصعوبات أثناء التحول نحو الديمقراطية المعاصرة، والعامل الحاسم في ذلك هو التاريخ الحضاري للدولة وأعرافها ومؤسساتها المتجذرة، ولكن عندما تدرك بأنها لم تصمد طويلاً أمام الثورة العلمية التقنية، فإنها لا تجد بداً من التحول التدريجي، وهكذا تكتسب هذه التطورات سرعة مع مرور الزمن على مستوى العالم.

و ـ في الديمقراطية المعاصرة تتجه المؤسسات السياسية نحو إجراء التحول الديمقراطي "دمقرطة" الدولة والمجتمع، وتلعب دور الجسر الواصل بين الدولة والمجتمع، ودمقرطة السياسة تعني فتح القنوات بين المجتمع والدولة باتجاهين معاً وإبداء الاهتمام اللازم بتمأسسها، وهذا الوضع يمهد السبيل امام تطبيق مصطلح السياسة الديناميكية، فقد حدد السابقون أدوار وعناصر السياسة خارج نطاق المجتمع وكانت قواعدها على شكل مؤسسة تقليدية جامدة تستند الى الأعراف والتقاليد مما أدى إلى واقع سياسي لا يمكن تغييره الا بالعنف وعن طريق الانقلابات، ولهذا السبب كانت التغييرات صعبة ودامية. أما السياسة

الديمقراطية فهي النظام الأنسب لتحقيق التغييرات بالسبل السلمية وبشكل سريع عن طريق منح الفرصة لكل ثقافة ومجموعة لتعكس نفسها كدولة ديمقراطية بالبرنامج الذي تضعه والفكر الذي تريده، وذلك عن طريق إجراء الانتخابات المنظمة ومفهوم التعددية الحزبية، أي أن فرصة التغيير وأسلوبه يجب ان يكون في متناول الجميع، وهذا الوضع يفتح الطريق أمام إقامة الأحزاب الديمقراطية واللوبي ومختلف مؤسسات المجتمع المدني لكي تشكل قوة تأثير عناصر القرار السياسي، أي يتم عادة خلق ساحة ثالثة تحقق في ما نسميه بميدان وسائل السياسة الديمقراطية تطوراً جديداً.

وسائل السياسة الديمقراطية التي كانت تعمل سراً في العهود السابقة بسبب الخطر تحقق تطوراً جديداً، ويطلق تعبير المجتمع المدني على الأحزاب السياسية والمؤسسات الاقتصادية والثقافية والفنية والبيئية والتقنية باعتبارها اكتسبت صفة المهنة أكثر من أي شيء آخر، والديمقراطية المعاصرة هي من أهم وسائل التطور الاجتماعي في تاريخ التطور بين الدولة التقليدية والمجتمع، فمؤسسات المجتمع المدني هي وسائل ضرورية للحياة الديمقراطية، ومن المهم هنا أن نطلق على هذا النمط من النشاط اسم البعد الثالث "أو المجال الثالث" ولأول مرة في التاريخ يظهر هذا النوع من العمل وسبب إعطاءه هذه الصفة الحضارية الديمقراطية للعصر تأتي من هذه الصفة التحديثية.

ز - من المواضيع التي تزايدت أهميتها في تطوير الديمقراطية المعاصرة هي موضوع حقوق الإنسان وحرية المرأة، فإذا اعتبرنا أنهما من نتاج النظام الرأسمالي نكون مخطئين، بل العكس هو الصحيح، لأن هذين الموضوعين تطورا وتصاعدا في مرحلة تجاوز الحضارة الرأسمالية، وأثناء ظهور قصور الحياة الرأسمالية ونظامها التقليدي. إن حقوق الإنسان وحرية المرأة موضوعان أساسيان من التكوين الديمقراطي العام للمجتمع وتزداد فرصة تطورهما بتجاوز إطار الحضارة التقليدية، وهما الموضوعان اللذان سيحددان المرحلة نحو تطور الحضارة الجديدة، ولأن كلا الموضوعين ليسا من نتاج المجتمع الرأسمالي فهما يحملان صفة التجاوب لمعايير الديمقراطية المعاصرة، والتي تعتبر حقوق الإنسان وحرية المرأة جزءاً منها وسيلعبان دوراً بارزاً في تحديد مصير الارتقاء الحضاري الجديد، فحقوق الإنسان وحرية المرأة موضوعان جرى شطبهما من سجل المجتمع الطبقي على مدى التاريخ، لكنهما مرشحان لأن يحققا تطوراً كبيراً لأنهما منفتحان على التجديد، ففي الوقت الذي تحدد حقوق الإنسان الإطار الحقوقي للحضارة الجديدة تشكل المرأة الأرضية الاجتماعية لهذه الحضارة، والتطورات التي تتحقق في هذين الموضوعين هي التي تحدد عمق وتطور الديمقراطية المعاصرة.

ح - ان الوضوح في الأساس الفلسفي للحضارة الديمقراطية المعاصرة يحمل أهمية كبيرة من المشاركة الواعية والقناعة، فالديمقراطية ليست نظاماً يفتقر إلى المبادئ، بحيث تستطيع كل شريحة أن تحللها وفق مصالحها، بل هي فلسفة تستند على العلم، ولها وجهة نظرها حول العالم وتمتلك مبادئ وبرنامج ومفهوم في الممارسة، والديمقراطية المعاصرة ترتكز في أساسها على قانون المادية الجدلية ووجود الأضداد ووحدتها وتحولها، ان التضاد الأرض في الديمقراطية المعاصرة هو التناقض النابع من الصراع بين حقيقة الحضارة التي تستند الى المجتمع الطبقي وما حققته التطورات الحضارية الجديدة، إذ قيمنا الطرح هو الحضارة القديمة والطرح المضاد هو الظواهر الحضارية الجديدة، فان المرحلة الأخيرة ستكوّن التركيب، ولأن الديمقراطية المعاصرة تشهد بداية تطورها، فإن المظاهر الحضارية القديمة تكون الغلبة لها ولكنها بالية وضعيفة، اما الظواهر التي تدل على التطور الحضاري الجديد ورغم قلتها، لكنها تتميز بالحيوية والقوة، فصراع الأضداد هذا سينتهي بتركيب على مستوى أرقى واحدث لصالح المظاهر الأقوى بفضل توفر الشروط التقنية والمعايير الديمقراطية ودون اللجوء إلى العنف، وسيتم هذا التركيب مع بعض الصعوبات التي تشبه آلام المخاض.

إن المبدأ الأساسي للفلسفة يتطابق مع المعنى الذي تقدمه مصطلحات ظاهرة الديمقراطية المعاصرة وعلاقتها وتحولها، وتصل المادية الجدلية التاريخية إلى نظام مجتمع وسياسة ودولة وهي مفهوم قابل للتطبيق، اما الأنظمة التي انغلق فيها المجتمع والسياسة والدولة، والتي تستند الى العنف والإكراه ولا تتحول فأنها تستند اصلاً الى نظرة مادية فظة أنواع مثالية للعالم، وفي النتيجة ستنحل وتضطر للانسجام مع القوانين الديالكتيكية للتاريخ.

وبالنتيجة فان عصر الحضارة الديمقراطية يعبر عن مرحلة تاريخية طويلة الأمد، حيث لم يحسم بعد التجاوز التام للعصر الحضاري الطبقي ارتباطاً مع التحولات والتطورات العلمية والتقنية، ولم يتبلور الجديد كما يجب بعد، أي هناك تداخل بين القديم والحديث. لكن التحول السلمي يسبق رؤيته، وهذا يعتمد على المستوى التقني الموجود وعدم اللجوء الى العنف وخلق شروطاً مناسبةً لتشكيل أرضية مادية للقيام بكل التغييرات المختلفة، كما تجاوز المجتمع المنغلق بالدولة التقليدية واكتسب المجتمع المدني كساحة ثالثة تقع بين الساحة الأول والثانية، أي بين الدولة والمجتمع تأثيراً كبيراً، مما يؤدي إلى ظهور نمط من الحياة والإدارة الفيدرالية، ويتم النظر إلى التنوع والتمايز الأيديولوجي والاقتصادي والاجتماعي والاثني والجنسي والعرقي والسياسي على انه عامل غني وثراء للمجتمع، ويعتمد على ان كل مجموعة تمتلك حرية التعبير وتتزود بالوعي والتنظيم الذي تريده، ولأن ذلك الوعي فعّال للحياة الاجتماعية

والاقتصادية والثقافية والسياسية، فإن التعبير الصحيح لهذا النمط من الإدارة والحياة، هو حصول الدولة والمجتمع على المؤسسات المختلفة والضرورية على أساس فيدرالي، ولهذا فالفيدرالية التي تعتمد على مؤسسات المجتمع المدني بقدر ما تختلف عن نمط الحياة والإدارة الديكتاتورية والاستبدادية فهي تمثل الديمقراطية المعاصرة وتتوافق مع قيمها، وبناءً عليه إذا أردنا أن نضع مصطلحاً عاماً لعصرنا فذلك سيكون "عصر الفيدرالية الديمقراطية العالمية".

5 - إن عصر الحضارة الرأسمالية هو الشكل الأخير لتاريخ الحضارة المستندة الى المجتمع الطبقي، وأهم ظاهرة برزت في مرحلة انهيار هذه العصر، هي استبعاد دور العنف في مجتمعات الثورات العلمية التقنية الكبرى التي تحققت باستثناء ظروف الدفاع المشروع، رغم أن العنف الذي كان وسيلة لسياسات المهيمنين والمستغلين لم يسفر عن شيء سوى الخراب والدمار، وأمام الخوف الذي نجم عن الطابع اللصوصي للملكية الخاصة، وجدت الفئة الحاكمة أمنها وضمان بقائها في ممارسة العنف، فقامت بتقديسه وتمجيده من خلال تضخيم قصص البطولة، لدرجة أن الآلهة التي لم تكن تعرف معنى العنف في الميثولوجيا الأولى أصبحت تحمل صفات العقاب والقهر والشدة مع تطور المجتمع الطبقي وخاصة في العصر الإقطاعي.

إن دور العنف في التحولات المجتمعية أقل بكثير مما يعتقد، فقد لعب العنف دور التحويل والتغيير في مراحل الطفرات النوعية المجتمعية، هذا الشكل من عمليات العنف كان يحقق تحولات نوعية وقصيرة المدى ثم تجري تجاوزها، علماً بأن قسماً كبيراً من ممارسات العنف التي كانت تطبق عبر التاريخ وتكتسب صفة الاستمرارية، هي أعمال إرغامية كانت تمارس الظلم عبر الفتوحات والاحتلال والنهب وما شابه مخلفة الخراب والدمار، وكان يقال بأن هذه الممارسات تتم بأوامر من الآلهة في سبيل إخفاء أهدافها، وكان يتم أطلق اسم الشهيد على الذي يموت، واسم مجاهد على الذي_ على قيد الحياة لأجل تقديس هذه الممارسة، ويبدو أن ذلك لم يكن كافياً وكانت تتم مكافئة المشارك بإعطائه نصيباً من الغنائم، أجل فالتاريخ كان يكتب بهذا الشكل السافل، وبهذا المعنى يمكن وصف التاريخ المكتوب بأنه تاريخ ملعون، والمقصود به هو الاستدلال على وجوب كتابة تاريخ صحيح يمجد المظلومين لأنهم أبطال العمل والجهد ويمثلون الضمير الحقيقي للبشرية، والدفاع عن الأنظمة التقدمية ونشرها سيكون عظيماً بشرط الصدق في جوهرها.

إن تاريخ الحضارة بعيد عن القيام بتحليل صحيح للعنف، فالآراء الميثولوجية والدينية والفلسفية التي تمجد الطبقة المهيمنة المستغلة والتي تتحدث عن وصول هذه الطبقة الى سدة الحكم، أثرت وطبعت التاريخ بطابعها، ويغدو

التاريخ بآرائه هذه مجرد نصوص أدبية تأملية خطيرة تتغاضى عن الظواهر التي يمكن أن تشكل التاريخ الحقيقي، هذه النصوص الظالمة التي قلبت الموازين حيث تغييب دور الأصحاب الحقيقيين للتاريخ، في البدايةً يجب كتابة تاريخ هذا النوع من التاريخ بشكل صحيح، ولن تتم ولادة فرصة لكتابة تاريخ تحليلي إلا إذا تحققت هذه المهمة بنجاح، وأكبر ظلم في التاريخ هو أن يكتب التاريخ اعتماداً على هذا النوع من الإملاءات، والجانب الأكثر سلباً هو التدفق غير الممتع لسلسلة العمليات التي قامت بها الظواهر التي يطلق عليها اسم الشخصيات والمؤسسات التاريخية التي تجعل هذا التاريخ أساساً لها وتتأثر به، إن التاريخ الذي يكتب بشكل خاطئ يؤدي إلى أعمال خاطئة، وعليه فإن التاريخ الصحيح هو أحد شروط الممارسة الصحيحة، وأما مفهوم التاريخ الصحيح فهو الخطوة الأولى في التحليل الصحيح للحضارة.

إن كل ما حاولنا القيام به من خلال هذه المرافعة هو المساهمة في تقديم تحليل صحيح للحضارة وللتاريخ في مرحلة تاريخية هامة ولو بخطوطه العريضة، وعندما يقع ظلم كبير وتآمر واسع في وسط ما، فإن أول ما يجب القيام به هو الكشف عن الجذور التاريخية والحضارية لهذه المظالم وإزالة الأقنعة الخبيثة عن وجوه الذين يعتقدون بأنهم أنجزوا تاريخاً وهم ليسوا أكثر من متآمرين سفلة.

إن المرافعة الإنسانية الكبرى تعني الكشف عن أصحاب المواقف المتآمرة من كافة المراكز الشرقية والغربية، والكشف عن الآراء التي يتسلحون بها وعن نمط حياتهم المنحطة.

لقد أضحت المرحلة التي تشهد عصر الحضارة الرأسمالية لكونه العصر الأخير موضوعاً لكثير من التقييمات، فبينما يقيم أصحاب وجهة النظر المحافظة على أن العصر المعاش هو" نهاية للتاريخ "، يرى أصحاب الفكر الثوري بأن يسموه "عصر الاشتراكية"، فأصحاب الرأي الأول تسلحوا بفلسفة مثالية جامدة ومتحجرة، اما أصحاب الرأي الثاني تسلحوا بفلسفة مادية فظة، وكلاهما بعيدان تماماً عن رؤية وتحليل كافة تعقيدات العصر المعاش، أما المواقف المتعلقة بحضارة ما بعد الحداثة فهي وجهات نظر غير متناسقة وغارقة في الذرائعية ومجريات الحياة اليومية.

إن الموقف الصحيح هو الذي يرى أن الثورات العلمية التقنية هي التي تحدد هذه المرحلة بشكل عميق، وإن المستوى المادي القائم هو أساس التطورات التي تحدد وتحول وتبدل كافة الأنظمة الاجتماعية، ولكن هذا لا يعني أن التقنية بمفردها ستقوم بعملية التحويل، فهنا لا بد من الهوية الإيديولوجية أن تتدخل في المسار، إذا لا يمكن تجاوز النظام القديم أبداً وإظهار الأطراف الجديدة دون

تحقيق الولادة الإيديولوجية ويمكن تشبيه هذه العملية بما يلي: لا يمكن لبذرة أن تنبت دون وجود حقل، فإذا ما شبهنا الحقل بالتقنية فإن ذلك يستدعي تشبيه البذرة بالهوية الإيديولوجية.

لقد تشكلت الهوية الإيديولوجية للنظام الرأسمالي مع بداية عصر النهضة الأوروبية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ولن نتحدث عن هذه الفترة تجنباً للتكرار، ثم في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر تحققت أكبر مرحلة تطور للنظام الرأسمالي، حيث تشكلت مؤسساته وتوفرت الفرصة لانتشاره، وقد تطرقنا إلى هذه المواضيع بخطوطها العريضة، وأما القرن العشرين فقد أخذ طابع الأزمة وحروب الاقتسام الجديدة من أجل الخروج من هذه الأزمة، لقد برهنت حربان عالميتان والكثير من الحروب المحلية والإقليمية، أن النظام لن يستطيع الاستمرار بأساليبه القديمة، ولم يستطع النمط القديم لاستغلال العمل من جهة والممارسات الاستعمارية القديمة والجديدة من جهة أخرى أن تخلص نفسها من التجاوز، ولكن هذه الأوضاع لا تعني بداية حضارة جديدة كما تم الإدعاء في تلك المرحلة عند بدء تأسيس عصر الاشتراكية، بل كانت تعني دخول تلك المرحلة إلى مرحلة تحول الإنتاج والانقسام بين الأنظمة، وقد توضحت هذه الحقيقة في نهايات القرن العشرين، وعرفت هذه المرحلة بمرحلة حضارة الديمقراطية المعاصرة.

إن مرحلة الديمقراطية المعاصرة لا تعني نهاية النظام الرأسمالي، إنما تعني أن عصر الهيمنة المطلقة قد ولّى، وانه قد تم الحد من الهيمنة والاستغلال ونمط حياته على مستوى متقدم، ولقد عملت معايير الديمقراطية المعاصرة على كبح جماح النظام الرأسمالي وأرغمته على تقاسم قدرته في الاستغلال والإدارة مع العمال ومع الشعوب كما تريد.

لا شك أن نضال العمال والشعوب لعب دوراً مصيرياً في هذه التغييرات، ومما لا شك فيه أيضاً أن كل ذلك قد حدث بفضل وصول التطور التقني إلى أبعاد متقدمة جداً، فلقد ناضلت الطبقة العاملة والشعوب على مدى تاريخها ولكنها لم تستطع منع الأنظمة والطبقة المهيمنة من تطبيق أقصى أشكال الاستغلال، ولم تكن الهزائم التي لحقت بها سبباً في ذلك، بل ان السبب كان يكمن في التطور التقني الذي لم يكن قد وصل إلى المستوى الذي يسمح له بالتقاسم والمشاركة، ولكن عندما وصلت الثورات التقنية العلمية في النصف الثاني من القرن العشرين إلى مستوى يسمح للطبقة العاملة والشعوب بالمشاركة والاقتسام من جديد في مجال فائض القيمة والسلطات السياسية كان ذلك يعني توفراً للشروط الموضوعية القوية التي تحد من السلطة والاستغلال، وبتوفر هذه الشروط حققت الديمقراطية المعاصرة أكبر قفزاتها.

إن ترتيب الديمقراطية المعاصرة نفسها كهوية إيديولوجية من جهة وكمؤسسة سياسية من جهة أخرى يرتبط أشد الارتباط مع توفر هذه الشروط الموضوعية.

في هذه الحال فان الديمقراطية المعاصرة من زاوية أخرى، تعني تنظيم وتوجيه كافة آليات ومؤسسات الإدارة والاستغلال للنظام الرأسمالي بشكل يسمح للمشاركة والاقتسام مع العمال والمجموعات الشعبية من جديد. أي ان الموضوع في هذا النظام لم يعد يتمحور حول كون النظام الرأسمالي يقوم بالاستغلال كما كان سابقاً وبتحديد شكل الإدارة من طرف واحد، ولم يعد يتمحور حول قيام الطبقة العاملة والشعوب بإسقاط النظام الرأسمالي بالقوة وبناء النظام الخاص بهم حسب النمط الثوري، بل على العكس من ذلك لقد قبل الطرفان بالحد من مصالحهما وأحلامهما المتحجرة ليتم ترسيخ نمط حياة يتناسب مع قواعد دولة الحقوق الديمقراطية، واقتسام فائض القيمة والوفرة وإنتاج القيم الموجودة على كافة الأصعدة الناجمة عن التقنية من جديد ضمن جو من السلام وباستخدام آليات السياسة الديمقراطية، ولأجل ذلك تم الاعتراف بحق الجميع في المشاركة في السلطة السياسية، رغم ظهور الإكراه والتصلب أحياناً إلا انه يفضل استهلاكها وإنهاءها ضمن هذا الصراع والوفاق وحولتها، وبالأحرى أن هذا ناجم عن أنه لا مفر من حروب الفتوحات والهجمات المعتمدة على تقنية الأسلحة التي تطورت إلى درجة يمكنها أن تدمر الإنسانية جمعاء وستلحق الأذى والخسارة بالجميع وهذا أيضاً من نتائج التقنية.

من الواضح إن الرأسمالية لا تستطيع الإصرار على شكلها الكلاسيكي ضمن هذه المرحلة التي اكتسبت أساساً موضوعياً كهذا، حيث وصلت الشعوب بواسطة التقنية من جهة، ومستويات الحرية التي تم اكتسابها بالنضال الذي خاضته الشعوب والطبقات الكادحة من جهة أخرى، إلى مستوى من الوعي والتنظيم الذي لن يسمح لذلك الشكل التقليدي بالاستمرار، فالموضوع هنا لا يتعلق بخيار كيفي بل يتعلق بمرحلة جديدة بلورتها الشروط القائمة، وهي قبول النظام الرأسمالي بالتحول الديمقراطي، إذ أن ضرورات النظام تؤكد أن الربح في مرحلة التطورات التدريجية واقتسام هذا الربح وفق الحاجة أفضل من الربح عن طريق المغامرات الدموية، ولذلك لا يمكن الحديث عن عودة النظام الرأسمالي التقليدي إلى عهد سابق، ولم يعد ممكناً القضاء على هذا النظام عن طريق الثورات.

وبالتدريج كلما تطورت أشكال الحضارة الجديدة تصبح عملية الذوبان ممكنة في هذه المرحلة، ويتم الاقتناع بوجود تحول نموذجي. نؤكد من جديد أن التطورات العلمية والتقنية تشكل أساس كل ذلك، كما أن الجواب الواقعي الذي

قدمته هذه المرحلة يعد الأساس الذي جعل الديمقراطية المعاصرة مؤثرة إلى هذا الحد في نهاية القرن العشرين، فإمكانيات التوعية العظيمة التي أكتسبها المجتمع بفضل تقنية الاتصال والمعلوماتية، والقدرة التي اكتسبها المجتمع المدني كونه الساحة الثالثة، وضرورات أن تكون السياسة والدولة منفتحتان على الأقنية الديمقراطية، كل هذه العوامل لا تسمح بإمكانية هيمنة طبقية بمفردها، لأن المجتمع الذي يغدو ديمقراطياً يصبح متعدد الألوان إلى درجة لا يحتمل فيها ثنائية الأبيض والأسود، فلولا وجود العديد من مؤسسات المهن التقنية لا يمكن للإدارة السياسية بمفردها أن تدير أعمال المجتمع ليوم واحد، والأهم من ذلك أن الفرد الذي تحرر لا يمكن إدارته أو التحكم به بمفاهيم الاستبداد والتسلط التقليدية لنفس الأسباب التقنية أيضاً.

وبالنتيجة فأن حضارة النظام الرأسمالي تعمل على تعريف نفسها من جديد ضمن معايير الديمقراطية المعاصرة، وعلى كسب هوية إيديولوجية وبالاعتماد على الوفاق مع الشرائح الاجتماعية التي لها علاقة بكافة المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في تحديد أسلوب للحضارة والإدارة، وهذا يدل على أن عصور الاستغلال والسيطرة بلا حدود قد بقيت في الماضي، وأن التطورات الحضارية الجديدة تدخل إلى جدول أعمال التاريخ. لاشك أن التطور العلمي التقني يشكل أساس الشروط الموضوعية في تحديد علاقات وظواهر الحضارة الجديدة، وتشكيلات الهوية الإيديولوجية الخلاّقة المستندة على هذه الأرضية. ستتطور وستنتشر وستتعاظم الظواهر المؤسساتية التي تعمل على تخطي طابع الأزمات الأساسية للعصر.

6 ـ لم تنجح الإيديولوجية الاشتراكية والنظام الاشتراكي المشيد الذي نجم عنها والتي تشكلت ضد النظام الرأسمالي في الوصول إلى شكل حضارة جديدة، ومهما كان السبب سواء أكان نابعاً من الهوية الإيديولوجية، أو كان نتيجة للولادة المبكرة أو نتيجة للأخطاء التي ارتكبت، فإن النظام الاشتراكي المشيد لم يستطع تحويل مطالب الكادحين والشعوب في الحرية والمساواة إلى تطور حضاري، وبالرغم من كل ادعاءاته على هذا الصعيد فإنه لم يستطع الوصول إلى أبعد من تشكيل رأسمالية الدولة، وشهد التاريخ الكثير من التيارات الإيديولوجية والحركات الاجتماعية المشابهة، ورغم الأساس الديني والاعتماد على النظام القبلي، فإن إنطلاقات النبي إبراهيم والنبي موسى تشكل في حالاته الأولى اشتراكية قبلية، ولم تستطع الكيانات القائمة في الشرق الأوسط آنذاك والتي قلبتها الهيمنة الآشورية بشكل خاص رأساً على عقب وجعلتها تغير أماكنها وعملت على خنقها بوحشية، لم تستطع مواصلة وجودها إلا عن طريق أسلوب الحياة الجماعية على شكل طرق صوفية، ناهيك عن أن أنظمة الكهنة في مصر وسومر تشكل أولى الأمثلة المقدسة لاشتراكية الدولة، وقد فتح الطريق

الحضاري أمام اقتصاد الدولة بما يشبه النظام السوفيتي، لقد تشكل سابقاً في المجتمع النيوليثي نظام مجتمع مشاعي "كومونة" حول نظام الأب والأم، وعاش هذا النظام الاجتماعي الذي يمكن أن نسميه بالاشتراكية البدائية دون أن يعرف الدولة آلاف السنين، حيث أمنت الإنسانية خميرتها الأساسية من ذلك النظام وبقيت تذكره بمصطلح الجنة الذي يقوم بتغذية أحلام المساواة والحرية باستمرار.

يقدم النبي عيسى والسنين الثلاثمائة الأولى من الحركة المسيحية مثالاً ساطعاً على الاشتراكية الدينية من حيث الفترة والشمولية، فقد استطاع أساتذة تلك الفترة تمثيل الإيديولوجية والتطبيق في شخصياتهم، حيث يندر وجود مثل لها في التاريخ.

تعد الانطلاقة الإسلامية مثالاً مختاراً آخر على النمط المشاعي، فلقد كانت قيم المساواة والاحترام المتبادل موجودة بين الأعضاء بما يشبه نمط العائلة المقدسة، إن حالة الأمة النقية عبارة عن اشتراكية المرحلة الإقطاعية، ولقد ابتعدت كل من المسيحية والإسلام عن اشتراكية الأمة بعد أن شكلتا دولاً وبعد ازدياد الدور الذي لعبته السلالات، وقد عملت الملكية الخاصة المتطورة على تدني الطابع الاشتراكي الذي كان سائداً في البدايات، وأصبح النظام غلافاً إيديولوجياً بسيطاً واجوفاً، وظهرت العديد من المذاهب والطرائق التي واصلت نظام حياتها الجماعي وصفائها الإيديولوجي، والأسلوب الذي تتبعه الكثير من الحركات ذات المظهر الديني في الشرق الأوسط يمثل أسلوب المسحوقين الجماعي ضد نظام الهيمنة والاستغلال، ونظراً لضعف الأساس التقني لم تستطع هذه الحركات أن تتحول إلى نظام حرية ومساواة بديل، وعدم وصول هذه الحركات إلى نموذج حضاري بديل على الرغم من استمرار بعضها لمئات السنين، بل وعلى الرغم من وصولها إلى سلطة سياسية على مستوى دولة، مرتبط اشد الارتباط بضعف الأساس العلمي والتقني، بالإضافة إلى أن جوهر هوياتها الإيديولوجية كان يستند إلى نظام المجتمع الطبقي، لذا لم يتمكنوا من إحياء مطالبهم بالحرية والمساواة إلا في خيالاتهم، وعلى هذا الأساس اتجهوا نحو العشق الإلهي والبشري، وغذوا أحلامهم بالجنة وحافظوا على حيوية شوقهم للأخوة، وتحولوا إلى تقاليد أدبية وأخلاقية قوية.

يجب إضافة المدارس الفلسفية إلى هذه النزعات، حيث لم تتأخر المدارس ذات الأسس الفلسفية في تمثيل الأفكار الاشتراكية القوية، فأسسوا أحزابا فلسفيةً استمرت مئات السنين وقاموا بالعديد من الهجمات العنيفة بكل بطولة وشجاعة، وظهرت حركات اجتماعية تنادي بالحرية والمساواة، ويجب علينا أن لا ننسى هذه الحروب التي تم خوضها لأجل حماية العقيدة والوعي في

التاريخ.

لقد تم إحياء حلم اشتراكية مثالية من خلال "اليوتوبيا" و"مدينة الشمس" مع ولادة الرأسمالية، وناضل الكثير من البشر والتجمعات ببطولة وشجاعة ضد الدوغمائيات الدينية، وذلك في سبيل أحلام الحرية التي أنجبت الرأسمالية، فعندما كانوا يناضلون لم يشكوا ولو للحظة واحدة في أنهم يعملون من أجل المساواة والحرية والأخوة وليس من أجل خدمة الرغبات الفردية، فحتى الثورة الفرنسية جعلت "المساواة والحرية والأخوة" شعاراً لها.

ولم تتردد مؤسسات الاشتراكية العلمية كارل ماركس وفريدرك أنجلس في الإعلان عن أنهما بنيا هويتهما الإيديولوجية اعتماداً على الفلسفة الألمانية والاشتراكية الفرنسية وحركة الطبقة العاملة الإنكليزية، ويبين هذا الشرح المختصر أن الطبقة العاملة والشعوب المسحوقة قد ناضلت دائماً منذ المشاعة البدائية للعصر النيوليثي وحتى مرحلة الاشتراكية العلمية، وذاقت أقسى أنواع العذاب وقاومت بكل بطولة وشجاعة في سبيل نظام حياة مشاعية، يعتمد على الأخوة بإيديولوجية تتضمن المساواة والحرية، فإذا لم يستطيعوا تأسيس الأنظمة التي استحقوها فإن السبب يكمن في قلة الإيمان ووهن النضال، بل السبب هو أنهم لم يمتلكوا الشروط التقنية التي تحقق أهدافهم المقدسة آنذاك وهذا ما نسميه بالتأخر التقني الذي حكم عليها بالبقاء في حضارة مجتمع طبقي.

تعد حركة الطبقة العاملة التي تتخذ من "البيان الشيوعي" مرشداً لها آخر حركة لأجل الحرية والمساواة في هذه السلسلة التاريخية، ولقد أدرك كتّاب البيان الشيوعي الطابع الخيالي للحركات التي سبقتهم ، ولهذا حرصوا على أن يكونوا علميين، ولكن هذه العلمية كانت محدودة آنذاك، وكانوا يعيشون في مرحلة نضج النظام الرأسمالي، حيث كان هذا النظام يعيش أول أزماته، بينما ثقته بنفسه لا حدود لها، وكان يعتقد أن التاريخ بدأ به وسيستمر حتى النهاية، وبالرغم من تضمنها الأسلوب العلمي فان الاشتراكية كانت في بدايات تكوينها ولم تنضج بعد، وكانت حركة الطبقة العاملة تعيش مرحلة الطفولة على الرغم من ذلك، ولا يصدر صوت عن حركات التحرر ضد الاستعمار ولم يتردد مؤسسا الاشتراكية اعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر عن الإعلان وبكل جرأة عن مواقفهم الطبقية في الإيديولوجية والعملية من خلال الأممية الأولى والثانية، ومواقفهم العلمية هي من أكثر الجوانب التي تستحق الاحترام مع بحثهم عن حقوق العمال في كافة الشروط ودفاعهم عنها، وذلك هو الجانب النبوي في عملهم، وفي مراحل كهذه لا يتم التساؤل حول ما إذا كانت الاستراتيجية مناسبة أم لا، فعندما وقف عيسى ضد نظام روما الرهيب وهو لا يملك سلاحاً سوى الإيمان بربه، لم يكن في وضع يسمح له بالتفكير الاستراتيجي والتكتيكي، ومع

ذلك لم يتردد ولو لحظة في إلقاء خطوة لأجل البشرية، والبدء بمرحلة حرية لا نهائية في أقوى لحظة تاريخية، وخطوة كهذه تستحق صفة القدسية، وبهذا المعنى يكتسب مؤسسو الاشتراكية الأبطال وحركات القواعد الاجتماعية الأولى صفة القدسية أيضاً، فالنجاحات السياسية والخسائر المؤلمة تأتي في المرتبة الثانية بعد جوهر العمل الذي تحقق.

إن فشل كومونة باريس أو انهيار الأممية الثانية لم تمنعا الاشتراكية العلمية من الوصول إلى هدفها، حيث تصل مع المرحلة اللينينية إلى قوة سياسية عظمى وتمتلك قدرة دولة، وبالتعريف القديم يتم الإعلان عن انضمام ثلث العالم من البروليتاريا والشعوب المسحوقة إلى عصر الحضارة الاشتراكية، تجري منافسة ناجحة مع النظام الرأسمالي على كافة الأصعدة وفعلاً ولأول مرة في التاريخ يتم تأسيس جمهوريات الحرية والمساواة للمسحوقين، ولكن قبل أن تكمل عمرها المائة وقبل أن ينتهي القرن العشرين تنحل هذه الجمهوريات وتفقد أهميتها التاريخية ويعلن العلماء البرجوازيون بهدف الدعاية عن هذه المرحلة بإفلاس الاشتراكية، وتجري محاكمات للماركسيين على عدة أشكال باعتبارهم خونة، ويقيّم المؤمنون بالاشتراكية هذا الأمر بأنه سقوط الأحلام المقدسة، وأما بالنسبة لذوي الأعصاب الباردة والذين يعملون على وضع مواقف علمية، فقد وجدوا أنه لا يمكن الوصول بسهولة إلى الحلول عبر الحديث عن سقوط الأحلام الكبيرة أو عن طريق المحاكمات الذاتية وتوجيه الاتهام بالخيانة، فالأمر الذي حدث لم يكن يليق بجوهره وبالحلم المطلوب تحقيقه، ولم ينفذ المبادئ بشكل صحيح، فالطريق الذي يسلكه العلم واضح دائماً ويتم الانطلاق منه نحو النجاح، فبدلاً من الفرح أو الحزن حيال ما حدث يجب إجراء محاكمة عقلية بمعرفة مكان وجود الحقيقة كما هي.

لم تخضع التجربة السوفيتية لتحليلات عميقة، والأهم من ذلك أن نتائج الانحلال نفسها لم تتضح حتى الآن، ومازالت كثير من النقاط غير واضحة وكأنها تنتظر مرحلة جديدة، وبالرغم من كل هذا تستوضح الفلسفة والممارسة اللتين كانتا سبباً للفشل، فعندما ننظر بدقة إلى الظواهر التي نواجهها نرى بروز محاكمة جديدة أمامنا ونتساءل: ما الذي تم تطبيقه..؟، هل اشتراكية أم قومية، حرية أم استبداد، مساواة أم رأسمالية دولة. بالتأكيد هذه الأسئلة لا تهدف إلى تقزيم أو التقليل من الأهمية التاريخية للنضال الذي قام به ملايين العمال والكثير من الأبطال الذين حملوا في قلوبهم وعقولهم إيمان ووعي الاشتراكية العلمية بكل قدسية، ولا يمكن أن نقول أن هذا النضال لم يحقق أية فائدة بل على العكس من ذلك، إذ أن التحليل الصحيح لهذه الممارسة هو الطريق السليم للدفاع عن القيم، فعندما نضعه في الغربال العلمي ستظهر أهميته الكبرى، ويعتقد بأنه دون إتمام هذه المهمة بنجاح لا يمكن تحقيق مسيرات ناجحة للوصول إلى أهداف

الحرية والمساواة المقدسة.

لقد شهد التاريخ الكثير من التجارب التي أسفرت عن نتائج مخالفة للأهداف التي تم النضال من أجل تحقيقها بسبب المغالطات والأخطاء الخطيرة، ولكن ما دامت البشرية مستمرة في وجودها فإنها ستعرف كيف تحقق التعبير العلمي الأقرب من الصواب لمثل الحرية والمساواة العظيمة، وستسير بخطوات واثقة على الطريق الصحيح الممهد أمامها، وستحقق النجاحات المطلوبة على هذا الصعيد.

من المفيد هنا أن نلقي الضوء من خلال تحديد مفصل لمكانة الاشتراكية المشيدة التي تشكل حقيقة هامة لهذا العصر.

أ ـ تتضمن الاشتراكية العلمية كهوية أية قصوراً جاداً في المستويات التاريخية والاجتماعية والتقنية، حيث لم يمتلك مؤسسوها تراكمات معرفية تمكنهم من تحليل عام للحضارة، إذ ان الأبحاث التي استهدفت للحصول على المعلومات الضرورية كانت محدودة، ففي تلك المرحلة لم تتوفر أية معلومة تتعلق بالسومريين وحتى العصور القديمة، ولم تكن قد حللت بشكل صحيح، فكانت التقييمات بعيدة عن الصواب ولم تتوفر أعمال جادة حول الدراسات الأثرية للمجتمع النيوليثي، ولم توجد أية تقييمات نظرية ورغم فهم واستيعاب "المجتمع القديم" لـ "مورغان" إلا انه كان قاصراً، أما بالنسبة للمجتمع الرأسمالي الذي تم تقييمه، فقد كان في مرحلة النضوج، وأكثر ما تم تحليله هو البنية الإنتاجية، أما تحليلات الدولة والهوية الإيديولوجية فقد كانت محدودة أيضاً وتتضمن الكثير من الأخطاء، ولم يتخلص تناول هاتين الظاهرتين الهامتين من التأثيرات الفلسفية المادية الفظة، إذ تم تقييمها كانعكاسات بسيطة للاقتصاد، ولتأثير هذا التناول الفلسفي دوراً مصيرياً في نشوء وانحلال الاشتراكية المشيدة.

إن تحليل الحضارة الرأسمالية كجزء صغير من التاريخ ينحصر في مرحلة زمنية صغيرة على أنها مرحلة محدودة، والتركيز على العامل الاقتصادي دون تحليل تاريخ الحضارة بشكل متكامل، لا يعبر عن قيمة أكبر من تلك التي يحملها تحليل الأبجدية، ومن الواضح أنه بهذا التحليل لن يتم تنوير كل المجتمع ولن يكون كافياً لرسم البرنامج والممارسة الضروريين للتحول الثوري، وقد أظهرت التطورات التي ظهرت لاحقاً نصيب الأخطاء التي نجمت عن هذا القصور في الفشل الذي منيت به الاشتراكية المشيدة.

إن البرامج التي تعتمد على العمال حصراً تعزل نفسها منذ البداية، بالإضافة إلى بعدها عن التحليل العميق للعلاقة بين المجتمع والواقع الطبقي، فحتى الطبقة البرجوازية ليست أكثر من فرع صغير من الواقع المجتمعي، وقد

سيطر مفهوم مجرد يقر بوجود طبقتين فقط وكأنها الحقيقة الوحيدة في العالم، وهما الطبقة العمال والبرجوازية علماً بأن ظاهرة المجتمع قد تشكلت خلال تاريخ عمره مئات الآلاف من سنين التطور، وأما ظاهرة الفرز الطبقي فتشكل جزءاً من هذا التاريخ، بل هي ظاهرة جزئية ومحدودة، إن الطبقة العاملة والبرجوازية هما عضوان قديمان تجددا جسداً واكتسبا قوة، ولهذا لن يتمكنا لوحدهما سواء أكان عن طريق تغيير كلي لهما أو إزالتهما، من التعبير عن وجود كامل المجتمع أو بتحويله وتبديله، ولم تكن القوى الخارجية سبباً أساسياً في عدم استطاعة البرجوازية والطبقة العاملة بمواقفهما الضيقة ممثلتين بالفاشية والاشتراكية المشيدة حماية مرحلة النشوء بواسطة الثورات والثورات المضادة من الانهيار، بل ان سبب هذا الانهيار يعود الى كونهما تناقضتا مع واقع الحقائق الاجتماعية الأساسية، لقد اكتشفت القدرة التاريخية لمفهوم المجتمعية أن هذه الممارسات الهندسية النموذجية لا معنى لها، وقامت بتحليلها استناداً إلى قدراتها الذاتية، ولم تستطع كافة الأعمال الهندسية التي لا تعتمد على التحليل الشامل والعميق للواقع الاجتماعي أن تكون أكثر من بناء ذو عمر قصير.

يعد الانهيار المفاجئ غير المنتظر للترميم الفاشي للنظام الرأسمالي وكذلك بناء مجتمع الاشتراكية المشيدة للنظام الاشتراكي أمثلة صارخة تؤكد صحة التقييم الذي أوردناه، ناهيك عن أن أغلب المؤسسات التي أخذت شكل طرق صوفية، والتي تشبه هذا النوع من الأبنية، لم تستطع أن تكون أكثر من بنى جوفاء **Marjinal** في التاريخ. إن التحولات الاجتماعية التي استمرت طويلاً هي تلك التحولات التي تبنت المستوى التقني للمجتمع، والمؤسسات الأيديولوجية والسياسية المرتبطة بهذا المستوى، وهذه قاعدة صحيحة دائماً سواء أكانت تلك التحولات تحمل طابع الطبقة المهيمنة والمستغِلة أو تحمل طابع الطبقات المسحوقة التي تتعرض للاستغلال، إن مستوى التقنية في القرن التاسع عشر لم يكن متطوراً لدرجة تكفي لتحقيق برنامج الاشتراكية العلمية، وقد تمت البرهنة على عدم كفاية هذا المستوى التقني على تقديم البنية المادية الضرورية لإقامة مجتمع لا طبقي عبر انحلال البنى الاشتراكية التي نشأت، ويمكن القول أن الاشتراكية بدأت اعتباراً من النصف الثاني للقرن العشرين بالوصول إلى هذا المستوى التقني المطلوب بشكل قوي، وللثورة العلمية التقنية دور مصيري في هذا الإنجاز التقني الذي تم التوصل إليه، إذ لا يمكن لأية هوية إيديولوجية بمفردها أن تمتلك القدرة على تحقيق تطور يفوق المستوى التقني الموجود وهذه قاعدة صحيحة دائماً، سواء حملت في طياتها مزاعم إلهية أو مزاعم علمية كبيرة.

ب ـ يشاهد أن الاشتراكية تعاني من قصور حاد في مواقفها نحو العنف بشكل عام ونحو العنف الثوري بشكل خاص، ومن المعلوم أن المبالغة في دور

العنف ينبع من وجهة النظر القائلة بأنه يلعب دور" القابلة في ولادة المجتمع الجديد"، والعنف الذي استخدمته الثورات الاشتراكية والاشتراكية المشيدة كان بعيداً عن دور القابلة التي تقدم المساعدة أثناء الولادة، بل أكثر من ذلك أن العنف المذكور لم يكن سوى استمراراً لنهج سارغون وحمورابي والاسكندر وقيصر ونابليون، وخاصة أنها بنت الجدران ومدت الأسلاك الشائكة لحماية النظام، ودعت للعيش ضمن غلاف من العنف من رأسها إلى أخمص قدميها، وضمن هذه الشروط دعك من مساعدة أم على إنجاب وليدها فإن ما تقدمه بشروط كهذه هو موت الأم جراء الصعوبات والأخطار والاختناقات الإضافية التي قدمتها، لقد جرى هذا الوضع بل وأكثر منه أثناء تطبيقات الاشتراكية المشيدة، فالنظام الذي يؤمن بمصالح وخير الإنسانية إلى هذه الدرجة، لا يبني حوله كل هذه الجدران، ولا يمد كل هذه الأسلاك الشائكة، ولا يتخذ هذه التدابير إلا الأنظمة التي لا تثق بنفسها والتي تحتوي على كل أنواع العنف، والعكس هو الصحيح، فلو كانت واثقة من هويتها الإيديولوجية لأظهرت تسهيلات كثيرة لجذب كل العالم إلى داخلها من جهة، ونشر إنسانيتها الذاتية إلى كافة أنحاء العالم من جهة أخرى، ناهيك عن أن سائر الأعمال التي نفذت انصبت في بوتقة عدم جعل النظام يتخلف عن سباق التسلح، والتي لم تلعب أي دور سوى التحضير لانهيار النظام، أي أن تقيم الممارسة العنيفة والتطبيقات المعتمدة عليها قد برهنت عبر حل النظام على أنها شكلت الأخطاء الأساسية للنظام، ويتفق الجميع على أن سياسات سباق التسلح قد لعبت دوراً أساسياً في انهيار الاشتراكية المشيدة.

لقد كان تمجيد العنف الثوري مليئاً بالمبالغات والأخطاء ولم يلعب هنا دور القابلة، بل لم يتردد في لعب دور كبير في إجهاض قيصري، فممارسة العنف المتطرف عموماً هي من سمات الطبقات المهيمِنة والمستغِلة، نتيجة شعورها بالخوف واللصوصية التي تمارسها، ولتتخلص من ذلك الخوف تقوم بالحصول على الأسلحة الجديدة باستمرار، وتكثف من أعمال القتل والجرائم وترتكب المجازر، حقاً إنها تشعر بالحاجة إلى تمجيد العنف بخلق ذرائع كثيرة، مثل ممارسة العنف تحت اسم "الله" و "لأجل سلامة واستقرار المجتمع"، وكلها لإخفاء الطابع الحقيقي للحروب التي تعتبر كل واحدة بمفردها مجزرة رهيبة، أما في الواقع فإنهم يمارسون كل أنواع السلب والنهب المنظم، ولا يتورعون عن ارتكاب كل أشكال الجرائم من أجل ذلك، والعنف الذي يمكن الدفاع عنه والذي يمارس لأجل التحول والسلامة الاجتماعية هو العنف المستخدم في الدفاع المشروع عن الذات الذي ينبع من تعريف القانون العالمي، والمقصود هنا هو العنف الذي يتم اللجوء إليه للحماية والدفاع عن النفس ضد الاعتداءات الداخلية أو الخارجية التي تسعى إلى التدمير أو الدمج أو أجراء تحولات بالقوة، أما أنواع العنف الأخرى التي تتجاوز هذا الهدف مثل العنف المستخدم في احتلال الكيانات

الاجتماعية الأخرى أو الاستيلاء على القيم المادية والمعنوية، أو في إجراء التحولات القسرية عن طريق عمليات الدمج، فإنها تحمل صفة رجعية يجب التخلي عنها، ولا يمكن لعمليات الإرغام والإكراه هذه أن تحمل صفة القابلة سواء تمت ممارستها باسم الله أو باسم الوطن أو تحرير الأمة، ولا تحمل أية صفة أكثر من كونها عمليات قتل ونهب واستبداد.

لقد تطرقت الاشتراكية المشيدة والكثير من حركات التحرر الوطني التي سارت على نهجها في ممارسة العنف بشكل واسع ولم تستطع التخلص من أن تكون محكومة بنظام حماية يعتمد على العنف فقط، إن هذا الموقف يعكس قطعاً طابع الفئات المهيمنة المستغلة، ولأن استخدام العنف كان باسم الاشتراكية والتقدمية فقد جلب معه انحلالاً جاداً، ولقد تأكد مرة أخرى من خلال النماذج التي قدمتها الاشتراكية المشيدة أنه لا يمكن أن يكون العنف أسلوباً للطبقة العاملة وللشعوب المسحوقة، أما الدفاع المشروع فهو عمل مقدس وحق يجب ممارسته لتحقيق الحرية وحماية الكيان ضد كافة الاعتداءات الظالمة التي تستهدف القيم الحياتية مهما كانت الظروف التي يجري فيها ودون النظر إلى زمانها ومكانها.

ان استخدام العنف في الدفاع المشروع يتم فقط عند مواجهة هجمات تهدف النيل من المبادئ المادية والإيديولوجية للكيان الاجتماعي وفي مراحل تطور الحرية وخاصة في لحظات التحول النوعي، أي أن هذا النوع من العنف يظهر في مواجهة العنف الذي تمارسه القوى التي تعمل على إعاقة التطورات أثناء الولادة الثورية، فاستخدام العنف ضمن هذا الإطار يكون مشروعا بل وضرورياً، وكل شكل من أشكال العنف يتجاوز هذا التعريف سيؤدي إلى وضع غير عادل وخسائر غير ضرورية وإلى تحريفات جادة، وهناك الكثير من الأمثلة التي تشير إلى أنه لم يتم تقديم الدعم اللازم للقوى التي تخوض حرباً لحماية نفسها وتطوير حريتها بالقدر الذي حدث في الممارسات التي بولغ فيها باستخدام العنف بهذا المعنى في العديد من التطورات المرتبطة بالاشتراكية العلمية، فنظرية العنف تأتي في مقدمة المواضيع التي أخطأت فيها الاشتراكية المشيدة، وكان لهذا الخطأ تأثير حاسم في انهيار الاشتراكية المشيدة.

ج ـ لم تظهر مؤسسات السياسة والدولة في المرحلة الاشتراكية مزاياها الخاصة، ولم يستطع النمط السوفيتي أن يعبر عن نمط حياة بقدر ما عبر عن كونه آلة دعائية للدولة، حقاً لقد أصبحت هذه الأداة، التي يفترض أن يكون لها ثقل أكبر من الدولة، الى أداة انحطاط وتحريف هام لكونها أصبحت وسيلة للعبور إلى دولة الاستبداد، وهكذا أصبحت سياسة بنية الحزب الواحد، أداة تحول البنية المعقدة للمجتمع إلى ثنائية الأبيض والأسود التي لا يمكن رؤيتها سوى في الممارسات الفاشية، وسقط العديد من الجوانب والفروع المرتبطة بهذه الأداة بدلاً

من أن تكون إحدى أدوات نقل تطالب المجتمع الديمقراطي إلى الدولة، بل تحولت إلى أداة بيد الدولة لتقوم بتضييق الخناق على المجتمع، بينما يجب أن تكون الدولة نفسها أداة تنسيق عامة، وتوصلت الدولة إلى مفهوم الدولة ذات المصدر الإلهي وأصبحت تمارس استبداداً قاسياً وتطبق نمط مفهوم النظام الاستبدادي، ولم تستطع أن تمنع نفسها من فقدان كافة العلاقات التي تربطها بمصطلحي الجمهورية والديمقراطية. علماً بأنه كان يجب على الاشتراكية المشيدة أن تقوم بتطوير نفسها بهذا الاتجاه أكثر من أي اتجاه آخر، لأن هذا الجانب هو الذي يميزها عن النظام الرأسمالي، وكل ما جرى كان عكس ذلك تماماً، ففي الوقت الذي كانت المعايير الديمقراطية في الدول الرأسمالية متفوقة، كانت دول الاشتراكية المشيدة تسير نحو التحجر والجمود باتجاه الدولة السلطوية الاستبدادية، ولا يمكن البرهنة على دولة أو حزب يدعي بأنه ملك للشعب إلا إذا ساهم في نظام ديمقراطي تعددي يتجاوز ما هو موجود في النظام الرأسمالي، وهذه النقطة أيضاً تعد من النقاط التي تم تطبيقها بشكل خاطئ وأدت مع غيرها إلى انهيار النظام، وابتعدت الأعمال النظرية التي أنجزت باسم "دولة الشعب" وديكتاتورية البروليتاريا عن العلمية، ولم تستطع التخلص من أن تكون دعائية، وبهذا المعنى بقي النظام متخلفاً عن ماركس وانجلس، فلم تستطع الدولة أن تحمي نفسها من التحول إلى قوة رأسمالية بيروقراطية ضيقة وتتحول إلى أداة للدفاع عن نفسها وتمارس النهب، ودعك عن تحقيق تفوق يذكر على النظام الرأسمالي في مجال مؤسسات الدولة والسياسة وحسب، بل وبقي متخلفاً عنه وتحول إلى نظام أشبه بنظام "الكاهن ـ الملك" عند السومريين والمصريين، ولا يمكن أن يحافظ هذا النظام على علاقته مع مجتمع القرن العشرين أو أن يتجنب الانهيار.

لم يتم تحليل كافٍ حول كيفية وصول الاشتراكية المشيدة، إلى وضع التشابه مع أكثر الأنماط العبودية تخلفاً من ناحية السياسة والدولة في النظرية والتطبيق، ولن يتم تجاوز هذه الممارسة إلا عن طريق إعادة التحليل العميق للحضارة التي لعبت فيها السياسة والدولة دوراً مركزياً بشكل ناجح وعلمي بحيث تشمل كل المرحلة التاريخية والاجتماعية، فبهذه الطريقة فقط يمكن تطوير أشكال النظرية والتطبيق للحضارة الجديدة، وبهذه الوسيلة أيضاً يمكن أن تكتسب الهوية الإيديولوجية والمؤسسات السياسية معنى جديداً.

د ـ في الاشتراكية المشيدة لم يتحقق مجتمع ديمقراطي يعتمد على المؤسسات المدنية. ففي الوقت الذي كان النظام الرأسمالي يسعى إلى التخلص من الممارسات الفاشية مستخدماً المؤسسات الديمقراطية والمدنية، أعطت دول الاشتراكية المشيدة أهمية لتطور معاكس، حيث تم القضاء على بقايا الديمقراطية الطبيعية وتم تحويل كافة المؤسسات المدنية إلى مؤسسات عميلة للدولة، بينما

كـان يجـب أن تظهـر قـوة الاشـتراكية فـي نمـط وعـي وتنظـيم وحيـاة ديمقراطيـة واسعة وعميقة للمجتمع، فالذي يجب أن يكون قوياً هو المجتمع ولـيس الدولـة، والطريـق المـؤدي إلـى ذلـك اسمه المجتمـع الـديمقراطي والمجتمـع المـدني، وإن تخريـب كـلا الظـاهرتين عمـل لا يمكـن مقارنتـه إلا مـع مفهـوم الدولـة السـومرية الكهنوتية التي كانت فـي أوجهـا، وتصبح رأسمالية الدولـة نتيجـة لشـروط الدولـة المتخلفة جداً، ويصبح النظـام السياسـي المطبـق هـو رأسمالية دولـة متخلفـة جداً، وهذا النمط لن يسمح ببناء أي مفهوم سوى المفهوم السلطوي الاستبدادي. وأمـا نتيجة هذا التطبيق، فهو عدم إعطاء فرصة لتطور المجتمع الديمقراطي؛ وتتحول مؤسسات المجتمع المدني إلـى آلـة دعائيـة بيد الدولـة، وهـذه الظـاهرة دليـل آخـر على أن الاشتراكية المشيدة ليست اشتراكية.

بمقتضـى جـوهر الاشـتراكية، وبأنهـا نظـام يسـعى إلـى تطـوير المجتمـع الـديمقراطي، وحتـى الكـلام الـذي يقـر بـأن الاشـتراكية يمكنهـا ان تتحقـق نتيجـة لتطور الديمقراطية هي رؤية نظرية. فلا يمكن بناء الاشـتراكية فـي مجتمـع غيـر متطـور ديمقراطيـاً، ولا يمكـن للمؤسسـات المدنيـة وهـي الوسـائل الفعالـة للديمقراطيـة أن تكـون مرتبطـة بالدولـة؛ بـل علـى العكـس، يجـب أن تلعـب هـذه المؤسسات دورها كمجموعات خبرة تقوم بمراقبة الدولـة باستمرار، ودون لعـب هـذا الـدور لا يمكـن مراقبـة علاقـات المجتمـع والدولـة التـي تـزداد تعقيـداً. فعنـد انهيار الاشـتراكية المشيدة لـم يتـردد المجتمـع الـذي كـان مـن المفتـرض أن يـدافع عنهـا ولـو للحظـة واحـدة أن يقـوم بحركـات اجتماعيـة واسـعة للـتخلص مـن هـذا النظـام وبأسـرع وقت ممكن، وهـذه الممارسـة كانت عمليـة انتقـال مـن رأسـمالية متخلفة جداً ولا ديمقراطية إلى رأسمالية أكثر اعتدالاً وذات طريق مفتوح أمـام الديمقراطية، ولا يمكن الحديث هنا عن خيانة أو عملية تضليل الجماهير بل على العكس، أنها رغبة الشعب بنظام رأسمالي أكثر ديمقراطيـة مستفيداً مـن الـدروس التي استخلصها من ممارساته اليومية الحياتية، وقد ظهر بكل وضوح أن تـوحش رأسمالية الدولة وتحولها إلى عصابات مافيا كـان وراء ذلك؛ وبرهنـت علـى أنـه ليس لديها القدرة حتى لأن تكون نظاماً رأسمالياً يعتمد على الحقوق.

ومن خلال هذا المثـال يتم التأكيد مـرة أخـرى علـى صـحة فكـرة أنـه لا يمكـن الوصـول إلـى الاشـتراكية دون وجـود ديمقراطيـة متطـورة، ودون تجـاوز الـديمقراطيات البرجوازيـة المتطـورة جـداً لا يمكـن الوصـول إلـى ديمقراطيـة شـعبية، ودون أن تبـرهن الديمقراطيـة الشـعبية عـن نفسـها بتعدديـة البنـى وتـوفر إرادتهـا الحقيقـة وقـدرتها علـى مراقبـة الدولـة وبمواقفهـا السـلمية والمتسـامحة لا يمكن الادعاء أنها تجاوزت الديمقراطيات البرجوازيـة. فـإن أحـد أهـم المؤشـرات التـي تؤكـد الطـابع الاشـتراكي لنظـام مـا هـي الديمقراطيـة المطبقـة، أمـا المؤشـرات الأخـرى فأهميتهـا ثانويـة. ونظـراً لأن الاشـتراكية المشـيدة قـد فشـلت فـي امتحـان

الديمقراطيـة وأنهـا شـهدت مرحلـة الديمقراطيـة، فهـي لـم تسـتطع إنكـار مـن ان الانهيار الذي تم بإرادة الشعب وبغضبه دون أن يفكر بالعواقب.

هـ ـ أما بالنسبة للنظام الاقتصادي للاشتراكية المشيدة فلم يستطع تجاوز رأسمالية الدولة لأنه جزء من الكل، فالنظام الرأسمالي الذي كان يعتقد أنه مرحلة مؤقتة حاصر النظام بأكمله وبالرغم من استخدام العمل والجهد كنظام عبودي معاصر فلم يستطع الوصول إلى التطور الذي حققته الرأسمالية التقليدية، والسبب أنها لم تستطع إرضاء الفرد كما كان يفعل النظام الرأسمالي الخاص، حيث انخفض مردود الفرد تدريجياً وأصبح غريباً عن نتائج عمله، وفي النتيجة بدأت ظاهرة الملل والهروب من العمل كما حدث في العصر الأول للعبودية، بينما تقييم العمل في النظام الاشتراكي على أنه حاجة وإنجازه يجلب السعادة، لقد أظهر الوضع الذي عاشه مبدأ العمل والجهد في الاشتراكية، أنه أسلوب إرغامي للنمط المعاش، ولهذا عندما انهار النظام ظهر وضع مؤلم جداً، ويرى العامل أن العمل في أسوأ الأعمال وأدناها أجراً وفي أي مكان من العالم نعمة كبيرة، ولا يمكن التذرع بأية حجة لوضعهم مواطناً اشتراكيا في هذا الوضع، وإن هذا الوضع يبرهن على أن النظام الذي كان قائماً يمكن أن يكون نتيجة لأي تحريف أو انحطاط ولا يمكن أن يكون ناتجاً عن النظام الاشتراكي.

و ـ أما حركات التحرر الوطني والدول الوطنية التي تعتبر مركز السياسة الخارجية للاشتراكية المشيدة فقد كانت نماذج تفتقر إلى الجودة وشكلاً ساذجاً من النظام الأصلي، فحتى عندما تحرروا من الاستعمار التقليدي أسسوا أنظمة أسوأ من الاستعمار القديم بحيث لا يمكن المقارنة بينهما، ولأن هذا النوع من الدول كانت نسخاً ثانية عن الرأسمالية التقليدية من جهة وعن الاشتراكية المشيدة من جهة أخرى، فقد تحولت إلى كارثة على شعوبها ومجتمعاتها لا يمكن احتمالها، ويمكن القول بأن المجتمعات التي كانت تحيا تحت وطأة هذا النوع من الأنظمة قد تم التخلي عنها لتعيش مع واقعها الملعون المتفسخ وجهاً لوجه، ومارست هذه الأنظمة قوالب من القمع المتحجر أشبه بظلام العصور الوسطى وبأساليب ظالمة وحقيرة بحيث أصبحت هذه المجتمعات وتحت تأثير التقليد الأعمى تعيش اغتراباً عميقاً عن واقعها بشكل لم يشهد التاريخ في أي مرحلة من مراحله هذا الاغتراب العميق لتلك الشعوب بالذات، وفقدت الثقة بقدراتها الذاتية، كما فقدت الوعي التاريخي وتدنى مستواها الأخلاقي وانعدام الوعي حول كيانها الاجتماعي، إن هذه المجتمعات تمثل أكثر وأعقد مجتمعات عصرنا تأزماً.

ز ـ إن حقوق الفرد ووجوده كان ولازال مقياساً للحرية على مدى التاريخ، ولم ينظر إليها كإشكالية في نظام الاشتراكية المشيدة، فالحرية الفردية هي من أكثر المواضيع التي لاقت الاهتمام والاستخدام عند نشوء النظام

الرأسمالي أوفي مرحلة أزمته، إن تخلص الفرد روحياً وذهنياً من وطأة كافة الدوغمائيات يعبر عن تطور هام جداً، وهذا التطور لا يتعلق بالرأسمالية فحسب، بل يتحدد مقياس كل نقلة تقدمية بما تحققه من تطورات على صعيد وجدان وكرامة الفرد بمعنى الوصول إلى إدراك ذاته، ومقياس كل ثورة تاريخية هو الكيان الإنساني والكرامة الفردية التي تتحقق، وتعبر عن نفسها بالوعي الذي تخلقه في الفرد وفي رغبته في الحياة وإبداعه وإنتاجه على مستوى العمل، ويحدد أفضل مقياس للتقدم أو عكسه بالتطورات التي تظهر على الوضع الذي وصل إليه الفرد، وكذلك نرى أن مستوى حرية المجتمع والنظام هو المقياس في هذا المجال.

لقد قام النظام الرأسمالي بتطورات مذهلة في موضوع الشخصانية، وهو موضوع يجب أن يخضع لتقييم دقيق بكل جوانبه السلبية والإيجابية، إن قيام الاشتراكية المشيدة بحملة دعائية لتشويه صورة الفردية وكأنها موضوع خاص بالنظام الرأسمالي، يضعها في موقع متخلف على صعيد مسألة الحقوق الفردية، بينما كان على الاشتراكية أن تتناول هذا الموضوع بأهمية أكبر مما تقوم بها الرأسمالية، فإذا لم يجر التعريف الصحيح للفرد الاشتراكي، فإن مقاييس المجتمع الذي سيتأسس والحضارة التي ستنشأ ستكون غامضة ومبهمة، لأن القيمة الحقيقية لأي نظام تقاس بنوع الفرد الذي خلقته، إذ يجب التركيز على الفرد كأكبر قيمة، ولا يمكن وجود أي شيء أثمن منه، ولا يمكن الحديث عن أي مقياس اكثر متانة وأكبر قدسية من هذا المقياس، لا سيما أن النظام الذي نتحدث عنه يدعي تمثيله لمرحلة متقدمة على صعيد الحرية.

إن الموضوع الأهم الذي دفع الى خسارة الاشتراكية المشيدة هو موضوع الشخصانية وغفلتها وإهمالها وربما خيانتها وظلمها في موضوع الفرد الإنسان، فإذا كان الفرد يهرول إلى النظام الرأسمالي كخيار أفضل من الاشتراكية المشيدة، فهو بسبب تعامل النظام الرأسمالي مع موضوع الفرد والحقوق الفردية بحساسية بالغة وتجسيده لبعض المعايير الهامة في هذا الموضوع، مما يجعل الفرد مقتنعاً بأنه نظام على حق، إن الفردية والحقوق الشخصانية تأتي على رأس المواضيع التي لا يمكن تركها للنظام الرأسمالي، علماً بأن النظام الرأسمالي بدأ يستثمر القوة ويجمعها من خلال رفع مستوى الفرد الذي بدأ يدرك ذاته أثناء نشوئه في العصور الوسطى وأثناء إعادة ولادته في عصر النهضة.

إن الوضوح في هذا الموضوع يحمل أهمية كبرى ويجب النظر إلى الفردية الشخصانية على أنهما موضوعان مختلفان، فبقدر ما يجب إيلاء أهمية للشخصانية يجب تجنب الفردية، لقد أخرج النظام الرأسمالي سلوك الفردية من

الشخصانية وكل واحد من المصطلحين يؤدي إلى نتائج مختلفة، ولا يمكن العبور إلى الاشتراكية دون إعطاء الشخصانية أهميتها، كما لا يمكن الوصول إلى ديمقراطي منسجم أو اشتراكي بالشخصيات الإقطاعية المتبقية من العصور الوسطى أو الشخصيات الرأسمالية التي تتمسك بسلوكها الفردي المتداخل مع الشخصيات الإقطاعية، إن الشخصانية موضوع شامل وقد حققت الحضارة الغربية تقدماً كبيراً على هذا الصعيد، وحتى يكون المرء شخصانياً يجب عليه قبل كل شيء أن يقوم بالاستجابة للذوبان الذي تحقق ضمن الكيان الاجتماعي الذي لا يعرف حجمه واتساعه باستخدام كافة الأساليب المختلفة عبر مئات الآلاف من السنين، وليقوم بطرح أسئلة مهمة مثل إلى أي مدى تصبح الاجتماعية ضرورة وما هي فوائدها وما هي محاذيرها وما هي الجوانب التي لا معنى لها، وما الذي يمكن أن يكسبه الفرد عندما يكون عضواً في مجتمع أو قبيلة أو عشيرة أو في مجتمع متدين أو علماني، وما الذي يمكن أن يخسره في تلك الأوضاع، إن مثل هذه الأسئلة يمكن أن تبرز الأهمية الحقيقية للشخصانية، وقد أعطى النظام العبودي جوابه على هذه الأسئلة حين وجد أن الفرد عبارة عن شخص محطم تخلى عن ذاته لدرجة أنه يدفن حياً مع الملك حين يموت في نفس القبر، وهو الذي لا يملك ظله، لقد حطم النظام الاجتماعي العبودي إرادة الفرد وحوله إلى كيان مادي وجعله أداة بسيطة وموضوعاً للملكية.

عمل المجتمع الإقطاعي على جعل مستوى العبودية أكثر مرونة، فقد اصبح للفرد شخصية تسمح له بأن يكون صاحب ظله، وربما نجد أن هذا مكسب مضحك ولكنه يعبر عن تطور هام رغم ذلك، ويجب ألا ننسى أن السلاطين قد لقبوا أنفسهم بظل الله، فلقد كانت الهيمنة الدوغمائية قوية جداً، إذ يتقرر مصير الإنسان منذ ولادته وهذه القدرية العميقة شلت الذهن والروح، فلم يعد هناك أية ضرورة للتفكير والإبداع، خاصة وأن الإرادة السامية الكبرى قد قررت كل شيء مسبقاً فلا داعي لسعي عديم الجدوى، ولا لهروب مما هو مكتوب على الجبين ولن نكسب إلا ما كتبه الله لنا، نعم بهذه الطريقة ولدت القدرية التي تركت أثراً قاتلاً في عصر الحضارة في الشرق الأوسط، وفي الحقيقة لقد ظهر هذا المفهوم مع تحويل فلسفة أفلاطون إلى ثيولوجيا "علم اللاهوت" فقد أضحت كافة الأفكار الأولى باسم الإسلام والمسيحية عبارة عن اعتقادات ويتم تقييمها كضرورات للإرادة الإلهية، ولكن الإعداد لتجميد ذهن الإنسانية ولشل روحها عبر آلاف السنين فتح الطريق أمام تأثير قاتل، وذلك هو جوهر الدوغمائية العقائدية.

لقد خاضت الكنيسة عند ظهور الشخصانية في الغرب حرباً ضارية باستخدام هذا الاعتقاد، وتم تحويل فلسفات أرسطو وأفلاطون التي لعبت دوراً تقدمياً في مرحلة ظهورهما، بواسطة الكنيسة والجامع إلى دوغمائيات العقيدة

العمياء بهدف إخضاع الجماهير.

ومع تطور الأسلوب العلمي وولادة عصر النهضة تم تجاوز الدوغمائية بشكل محدود وبدأت الإنسانية التي تفجرت طاقاتها كما يتفجر السد وتهدر مياهه، فأقبلوا على الحياة رافضين الأثر الذي تركته الدوغمائية وبدءوا برحلة الإبداع والمحبة، واستخدم النظام الرأسمالي سلاح الفردية ضد المجتمع واستطاع أن يحقق تحريكاً في الشخصانية الخلاّقة وقد تطورت هذه الفردية لدرجة أصبح مشكلة مستعصية على الحل، فبينما كان الملك الإله واحداً أصبح ألفاً،وهكذا حققت نقلة من طرف إلى آخر ورغم ذلك فإن ما تحقق يمثل ثورة كبرى في تاريخ الإنسانية من جديد، فقد تسارعت خطوات الفرد الذي تخلص من ظل الإله ومن كافة أنواع الدوغمائيات، وتحولت عملية الحد من الشخصانية ومن الرأسمالية التي أدت الى الركض المحموم وراء الربح وبجنون إلى مشكلة كبرى، وضاعت الموازيين وتزايدت الحاجة إلى اتخاذ تدابير مضادة كي لا يقوم النظام الرأسمالي الذي تسلح بمذهب الفردية بتدمير المجتمعية الذي تحول إلى طاقة نووية بعد مئات آلاف السنين.

في هذه النقطة أضحت المجتمعية حاجة تاريخية لا يمكن الاستغناء عنها، وقد كان الفكر الاشتراكي ونظرية الاشتراكية العلمية إحدى نتائج هذه الحاجة التاريخية، وعندما تم تجاوز المفهوم الطبقي الضيق، كان في الحقيقة سيلعب هذا المفهوم دوره التاريخي في هذه النقطة باسم كافة فئات المجتمع ضد النظام الرأسمالي وسيعبر عن القدرة على إيقاف الفردية للرأسمالية من أجل المصالح الحيوية للبشرية، ولكن ردة الفعل الحقة ضد الربح والفردية في هذه النقطة أدت إلى إهمال أهمية الشخصانية وخاصة أن الاشتراكية المشيدة قد وجدت أن الشخصانية هي لعبة دعائية تقوم بها الحضارة الغربية وتجعل من حقوق الفرد وحقوق الإنسان موضوعاً لهجوم إيديولوجي، وشعرت بالحاجة لاتخاذ تدابير مشددة ضد هذه المصطلحات بهدف حماية نفسها، وهكذا كان موقف الاشتراكية المشيدة من الشخصانية وحقوق الأفراد أحد الأسباب التي أدت إلى انهيارها، فقد تسارع الانهيار بعد أن نال النظام ضربة في هذا المجال أيضاً.

ويمكن توجيه انتقادات أخرى للاشتراكية المشيدة فالهدف من هذه الانتقادات ولو كانت على مستوى التعريف بدون شك، هو الوصول إلى الكشف عن حقيقة وجهة نظر الاشتراكية إلى المجتمع والفرد، وإخراج عصر تاريخي من كونه يوتوبيا مجردة وتحويله إلى مسألة تطبيقية وإظهار جوانبه السلبية، ففي الوقت الذي أظهرت هذه الانتقادات الأخطاء التي أدت إلى الانهيار حاولت أيضاً تسليط الأضواء على ما يجب القيام به، فإن الذي سقط هو اليوتوبيا وشقيقها التوأم الفلسفة المادية الفظة اللتان تمثلان الأساس التاريخي القوي، ومن الواضح

أن هذين الموقفين لا يعبران عن الاشتراكية العلمية بل على العكس فكلما تجاوزت الاشتراكية العلمية كل أشكال اليوتوبيات الدوغمائية وكلما ابتعدت عن الفلسفة المادية الفظة واقتربت من الفلسفة المادية الديالكتيكية سيتم إنشاء وبناء الهوية الإيديولوجية على نمط متكامل وقابل للتطبيق، لأن هذه الهويات تشكل دليل ممارسة وحياة لا يمكن الاستغناء عنها على طريق الرقي الحضاري الجديد الذي يخدم الإنسانية، وستلعب التحولات الاجتماعية المطلوبة دوراً بارزاً في الرقي الحضاري الجديد، ويصبح أكثر ديمومة عن طريق إجراء توازن بين الهوية الإيديولوجية الجديدة وبين الشخصانية والمجتمعية والحرية والمساواة انطلاقاً من الأسس والإمكانيات التي توفرها التقنية، وسيتحقق هذا الدور عن طريق وضع الحضارة الديمقراطية المعاصرة على جناح المساواة مع المرحلة بشكل قوي وعن طريق معرفة أن شعار المبدأ الإنساني العظيم " لكل حسب قدراته ولكل حسب حاجاته" لن يتحقق ما لم تتحقق الديمقراطية المعاصرة، وما لم تتحقق كل مستلزماته، وذلك هو السبيل الوحيد الذي سيحقق الاستمرارية للحضارة الديمقراطية وسيتحقق انتصار الاشتراكية العلمية بشكل قطعي.

الفصل الرابع

المكان والزمان والهوية الإيديولوجية للتطور الحضاري الجديد وشروطه

لم يتم التوصل حتى الآن إلى إجماع لتعريف العصر الذي نعيشه، لأن معالمه لم تتضح بعد. حيث يعيش النظام الحضاري المستند على المجتمع الطبقي، وتحديداً على الرأسمالية باعتبارها الشكل الأخير له، أزمة وانحلال عميقين. هناك إجماع على هذا الرأي رغم وجود بعض الشكوك، ويتم طرح تفسيرات مختلفة حول تعريف التكوينات التي تظهر مجدداً.

إن الثورات العلمية التقنية التي تحققت في القرن العشرين وخاصة في النصف الثاني منه واكتسبت القدرة على التطبيق بسرعة كبيرة، لعبت دوراً أساسياً في تحول العصر وبلورة خصائصه. حيث تحققت أكبر التحولات النوعية في التاريخ بعد الاستحداث الكبير الذي طرأ على التطور الذهني والتقني، مثل اكتشاف البرونز والحديد، واختراع الدولاب والمحراث واكتشاف تقنيات الكتابة والرياضيات والميكانيك والمطابع والبارود وإلى جانب الثورات الفكرية الهامة مثل الأديان التوحيدية والفلسفة.

فمن المعلوم أن التقنية التي وطدت دعائم النظام الرأسمالي، هي قوة المحركات البخارية أولاً والمحركات النفطية تبعاً التي أدت الى تراجع القوة العضلية إلى المرتبة الثانية، هذه القوة لعبت دوراً أساسياً في إعادة بناء النظام

بأكمله وحققت له الاستمرارية ومدته بالقوة. بحيث لا يمكن معه أن نقلل من دور التطور العلمي وبنفس الشكل لا يمكن التقليل من دور الجوهر الديالكتيكي للطبيعة والفلسفة في ذلك. وهذا التجديد الجذري الذي جرى في البنية التقنية انعكس على كافة المجالات وكوّن الأرضية المادية الأساسية الضرورية لتشكيل نمط الإنتاج والمؤسسات السياسية والوضع الذهني الذي يتناسب معه، وتستند التطورات التقنية والتطورات التي مهدت لها السبيل، على علم الفيزياء "قسم الميكانيك"، إذ شكلت المؤسسات المرتبطة بالميكانيك وتطبيقاته أساساً للثورة الصناعية وذلك على شكل المصانع.

مهد القرن العشرين الطريق أمام أكبر ثورات علمية وتقنية في التاريخ وخاصة تحليلات أربرت اينشتاين المتعلقة بتحول الطاقة والمادة، كما أن السيطرة على التطبيقات التقنية للمغنطة الكهربائية وللطاقة النووية ووضعها في الخدمة، جعل التغيير الجذري للعصر أمراً لا مفر منه. وشهد العصر تطورات قلبت الموازين رأساً على عقب، سواء في البنية الذهنية للإنسان أو في الحياة التطبيقية، وعن طريق تقنية الاتصال والمعلوماتية التي تحمل مزايا الاستمرارية لهذه الثورة، فتحت الطريق لأن يتمكن الراعي في القرية أو في الجبل ولرجل الأعمال في نيويورك من الحصول على المعلومات ذاتها من خلال الوصول إلى عصر عولمة شاملة ينشط على مدار أربع وعشرين ساعة متواصلة، في الحقيقة لقد حققت التقنية نقلات تقدمية سبقت البنى الاجتماعية والإيديولوجية القائمة، ولم تستطع الأنظمة المتبقية من العصور الوسطى الموجودة في كثير من أصقاع الأرض والأنظمة التي بقيت متخلفة ضمن مراكز الحضارة الهامة، أن تشكل جواباً لهذه النقلة النوعية بالوتيرة المطلوبة. فلقد شهدت المرحلة تغييراً كبيراً في نمط الصراع، وإذا لم يتم تقييم هذا الصراع بالشكل الصحيح ولم يتم اتخاذ التدابير الضرورية فإن اتساع الهوة سيكون أمراً حتمياً، المقصود بهذه التدابير هي التحولات الجذرية على كافة الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، إذ لا يوجد أي انسجام بين التقنية الموجودة من جهة وبين الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية القائمة من جهة أخرى، كما لم تستخدم الإمكانيات الهائلة التي خلقتها التقنية الاستخدام الصحيح، إذ يتم استثمارها بطريقة تؤدي إلى أخطار كبيرة وذلك بسبب الأساليب المتبعة للمجتمع القديم والنظام الرأسمالي التقليدي في الإنتاج والاقتسام والإدارة، ومن الأمثلة التي يمكن تقديمها، هي استخدام القنبلة الذرية والتلوث الرهيب للبيئة وتغيير المناخ ومرض الإيدز والانفجار السكاني والتعليم والصحة، كل هذه المشاكل تأتي في مقدمة المواضيع التي نتجت عنه سوء الاستثمار.

في الوقت الذي كان يؤدي فيه الصراع في مرحلة الرأسمالية التقليدية إلى تطورات ضمن نظام الاقتسام العادل والبنية الداخلية للمجتمع، فانه في

المرحلة الجديدة اخذ طابعاً ما بين الطبيعة والبيئة وبين كافة الأنظمة الاجتماعية. فان القوى المهيمنة المحلية والدولية التي لم تستطع استخدام التقدم التقني في التنظيم الصحيح للمجتمعات والبيئة بسبب المصالح الطبقية والشخصية والزمرية، لعبت دوراً هاماً في نمو هكذا صراع، خاصة وأن القوى الاجتماعية والسياسية المسؤولة عن الدولة ـ الأمة والأنظمة ما فوق القومية الخاملة والعديمة التأثير، تأتي في مقدمة القوى التي تهدد العصر. ولازال بمكنة الإدارات التي تجد الحل في التوازن النووي وفي الأنظمة المضادة للصواريخ، الوصول الى سدة الحكم، ويتم إثارة التوترات الإقليمية من اجل سباق التسلح، كما يتم غض النظر عن التقنيات التي تخرب البيئة، وبالرغم من وجود التقنية المناسبة للقضاء على ظواهر مثل الانفجار السكاني والجهل والأمراض المتفاقمة مع التقدم التقني، إلا انه لا يتم تخصيص الميزانية اللازمة لذلك، لاشك أن البنية الإنتاجية القديمة والنظام السياسي القديم مسؤولان بالدرجة الأولى عن استمرارية هذا الوضع. لهذا السبب فقد اختزل الصراع إلى صراع بين الإنسانية قاطبة من جهة والقوة المهيمنة على السياسة التي وضعت عشق المال القذر فوق كل اعتبار من جهة أخرى، إذ بات تخلص رقابة البنى الاقتصادية من آليات مراقبة النظام القديم للبنى السياسية، يشكل اكبر خطراً. فكما لم يفتقد للأنظمة الديكتاتورية والاوليغارشية المعاصرة والمقنعة بالديمقراطية، كذلك لم يفتقد للأنظمة الأوليغارشية التي تشاهد في كافة العصور خلال مراحل الأزمات والانحلال. إذ هناك تعايش متداخل بين المعايير الديمقراطية المعاصرة التي تفرض نفسها فعلاً من جهة، وبين الأنظمة الأوليغارشية المستبدة التي تشكل الضد تماماً من جهة أخرى. ففي حين تقوم حفنة من سماسرة البورصات التي لا تربطها بالإنتاج إلا علاقات صغيرة في البنية الاقتصادية، بنهب ما تريده من الأرباح عن طريق وسائل النهب التي تمتلكها، تقوم كتلة من المصالح باستخدام قوة وسائل الأعلام لإيصال الطغمة التي تختارها إلى سدة السلطة السياسية.

من الواضح أنه تم الوصول إلى صراع شامل بين البشرية جمعاء من جهة، وبين أصحاب الأنظمة الأوليغارشية التي طوّرت بهذا الشكل وترتبط فيما بينها بعلاقات وثيقة من جهة أخرى. إذ لا خلاف حول فداحة الأخطار الناجمة عنها، ليس بسبب ازدياد نسبة الوفيات نتيجة الجوع والمرض والحروب المحلية فحسب، بل بسبب البيئة والمناخ اللذان راحا يتجهان بسرعة نحو حالة غير قابلة للعيش، فالأسلوب الأناني الذي جعل الإنسان أشبه بحيوان حطم قيوده، بالإضافة إلى الانفجار السكاني الرهيب، فهذا مهد الطريق امام قيام قيامة حقيقية. لقد تم الوقوف وجهاً لوجه أمام "نظام الشيطان" الذي بات مكشوفاً، إن هذا النظام يلعب دور الشيطان الذي يمر ذكره مطولاً في التاريخ ويسمي نفسه بما ليس فيه. كذلك ازداد مكره وتقنع بالأقنعة لدرجة أنه صار ينسب كل السيئات والسلبيات لشيطان

خيالي، وهو في الحقيقة ليس سوى جوهر هذا النظام الذي يعتمد على القدرة الهائلة للفن ولوسائل الأعلام التي تمكنه من إظهار نفسه كالملائكة، ويتم خداع البشرية كلها بهذا التناقض وبأقبح قناع وبواسطة من يقوم بغسل الدماغ والروح، فقديماً كان الحديث عن الأثر المخدر للدين، لكن الدين يتحول إلى نعمة مقارنة مع الأقنعة، إذ يتم تنفيذ أخطر أنواع التحطيم والانحلال المنظم باستخدام القوة التقنية لدرجة يمكن القول ان العصور الحجرية أقل خطراً، فيتم تدمير ذهنية الإنسان وروحه من قبل هذا النظام بطريقة وبمضمون لم يعرف التاريخ له مثيلاً، حتى أصبح هذا الإنسان معرضاً للهزيمة في كل لحظة.

قامت أقلية لا مسؤولة منسلخة عن مصالح الإنسانية بتحويل التفوق التقني الذي يجعل إمكانية تحقيق الجنة التي طالما داعبت خيال الإنسانية ممكناً لأول مرة في التاريخ، الى وحش على وشك أن يفتك بإبداعاتها ويحول الحياة إلى جحيم.

ضمن هذا الإطار يتطور الصراع بين ممثلي شوفينية الدولة ـ الأمة الذي تحولوا الى قبيلة معاصرة وبين ممثلي رأس المال العالميين من جهة، وبين هاتين القوتين وعامة الشعوب من جهة أخرى، وفي الوقت الذي تسد فيه قوى الدولة المنغلقة على الداخل باب الثراء الذي نتج عن التطور التقني والديمقراطية المعاصرة أمام شعوبها من جهة، فأنها من جهة أخرى تدخل في صراع مع رأس المال الذي يقبع فوق المجتمع فيما يخص موضوع العولمة، وفي كلا الحالتين تلعب دوراً رجعياً، حتى ولو تم استخدام شعار الاستقلال الوطني الذي كان يتضمن تقدمية محدودة ضد الإمبريالية في المرحلة السابقة، ولكن لعدم توفر ظروف هذه المرحلة فإنها في جوهرها تلعب دور وسيلة الفوق مستعمر (**Ultra**) للنظام الفوق دولي بشكل موضوعي. وعندما تضاق عليها الخناق فإنها ومن أجل حصص صغيرة تلجأ إلى القيام بما هو أسوأ من السابق. وقد تحقق ضمن هذا الإطار تمأسس النظام الجديد بين الطغمة المالية للرأسمالية وبين عملائها المحليين.

ان تأثير المعلوماتية والاتصالات على صعيد تقليل أهمية الحدود السياسية وإمكانية الوصول إلى المعلومة على مدى أربع وعشرين ساعة في اليوم، شدتا الشعوب إلى أممية وتقارب لم يشهد التاريخ مثيلاً له؛ وتزايدت إمكانات التضامن الأممي بأبعاد كبيرة، لقد خلقت التقنية التي لعبت دوراً أساسياً في هذه الخطوة، أوضاع وإمكانيات جديدة لتجاوز التناقضات الداخلية والخارجية، وأمنَتَ دمقرطة المجتمع وأكسبت بمنح مؤسسات المجتمع المدني قوة كبيرة هذا من جهة، ومن جهة أخرى جعلت التضامن الدولي بكل الوسائل المتطورة ممكناً، إن هذا الوضع مختلف تماماً عن القرن العشرين بل والقرن

التاسع عشر أيضاً، من حيث تناقضاته وأنماط حلوله، فالأوليغارشية المهيمنة مرغمة على الانسجام مع معايير الديمقراطية المعاصرة، إذ إن الوضع المتباين للتناقض يؤدي إلى سبل حل مختلفة، وقد شكلت معايير الديمقراطية المعاصرة إطار الوفاق الأصغري كوسيلة حل عام، ولهذا السبب تم تجاوز مناهج الثورة والثورة المضادة التي هي من نتائج التناقضات السابقة، كذلك تفسخت السلطات الفاشية وأنظمة الاشتراكية المشيدة لأنها نتاج لتلك المناهج.

يتم تحديد جدول أعمال البشرية الأساسي في القرن الواحد والعشرين من قبل المؤسسات السياسية الجديدة والبحوثات الإيديولوجية التي شكلتها هذه العلاقات والتناقضات الأساسية. لا شك أن الذي حدد هذه العلاقات والتناقضات بشكل أساسي هو المستوى الذي وصلت إليه التطورات العلمية والتقنية. وتتم المحاولات من جديد لأجراء تقييمات للوضع استناداً إلى هذه الأسس الموضوعية. وحيث تضمنت المناقشات الدائرة على كل المواضيع وبكل التفاصيل الممكنة.

أ ـ ستتشكل الهوية الإيديولوجية للألفية الثالثة عن طريق تجاوز الفلسفة الموجودة في بنيان الحضارة الرأسمالية التقليدية من جهة وفي تطبيقات الاشتراكية المشيدة من جهة أخرى، إذ لا يمكن تجاوز أزمة النظام الرأسمالي التي اكتسبت صفة الديمومة عن طريق نماذج الترميم الفاشي ولا عن طريق أنمط الاشتراكية المشيدة، حيث عملت الحروب والثورات والثورات المضادة على تعميق الأزمة، وهذا يبين أيضاً أنه لم يتم الاعتماد على المستوى التقني بشكل أساسي كمؤثر يحدد أساساً الهوية الإيديولوجية، وأنه لم يجعل ولادتها ممكنة، وتعد هزيمة الهوية الإيديولوجي الفاشية وهزيمة الأساس الإيديولوجي الذي أدى إلى الاشتراكية المشيدة، نموذجين هامين في هذا الموضوع. أما النتيجة التي تم التوصل إليها فهي حتمية ولادة الهوية الإيديولوجية من جديد، فالمشكلة لا تتعلق بالشروط التقنية ولا بنضوج أو تفسخ الشروط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، إذ أن النضوج والتفسخ موجودان في كافة المجالات، والأهم من هذا أن الأساس التقني والتراكمات الإيديولوجية مناسبان جداً أكثر من أي وقت مضى لأجل التكوينات الجديدة، بعبارة أخرى فمثلما الشروط الموضوعية كافية من أجل انطلاقة تاريخية جديدة، كذلك تظهر إلى جانب التفسخ دلائل هامة من أجل تحقيق تلك الانطلاقة، فالمسألة تكمن في عدم بلورة تامة وصحيحة للهوية الإيديولوجية. وقد أسفر التفتت في البنية الذهنية والروحية عن الهزيمة والاستسلام والانحطاط وبالتالي فإن العمل الهام الذي يجب القيام به هو تحقيق ولادة هوية إيديولوجية في البنية الذهنية والروحية بحيث تكون أصيلة ومقاومة ومتكاملة وتعرف كيف تنتصر، وبوضوحٍ اكثر يجب وضع البرنامج ورسم خط استراتيجي وتكتيكي عن طريق التحليلِ النظري الصحيح للشروط

القائمة ضمن إطار التكامل التاريخي والاجتماعي. وبهذا المعنى نجد أن مقولة "ليست هناك ممارسة صحيحة دون نظرية صحيحة" تحافظ على صحتها وواقعيتها.

استندت كافة العصور الهامة في التاريخ على هويات إيديولوجية قوية، إذ عبرت عبادة الآلهة الأم في المجتمع النيوليثي عن الهوية الإيديولوجية الأساسية في ذلك العصر، وتشكل المثيولوجيا السومرية بداية وأساس الهوية الإيديولوجية لكافة عصور المجتمع الطبقي، والتي هي بمثابة المعين الذي لا ينضب للكتب المقدسة وللآداب والفلسفة.

دفعت الفلسفة اليونانية والأديان التوحيدية بصماتها على كافة الهويات الإيديولوجية للعصور الكلاسيكية والوسطى. كما أن عصور النهضة والإصلاح والتنوير هي المراحل الأساسية التي شكلت فيها الهوية الإيديولوجية للحضارة الرأسمالية، اما الإيديولوجية الاشتراكية كانت تتملكها الرغبة في ان تصبح هوية أيديولوجية لحضارة المجتمع اللاطبقي. وإذا نظرنا إلى جميع هذه الهويات الإيديولوجية فإننا نرى أن المجتمع الذي نشأ وتطور قد عكس الصراعات الأولى للأنظمة. حيث يتحدد مصير الأنظمة قبل كل شيء بحرب الهوية الإيديولوجية، ولا نشهد أي نظام اجتماعي لم يخض حرباً إيديولوجية، فالهوية الإيديولوجية أشبه بتشكل طفل في رحم الأم. وتتوقف الولادة والنمو الصحي والسليم قبل كل شيء على تكونه في الرحم، وهكذا لا يمكن للمجتمعات والحضارات التي لا تعيش هذا التطور الديالكتيكي أن تتخلص من وضع مصطنع مفكك، ومثلما تستمر العلة التي تصيب الجنين وهو في رحم أمه، على مدى الحياة، يسري نفس الشيء على الهوية الإيديولوجية عندما تكون مصابة بمرض أو نقص ما لتصبح الأنظمة الاجتماعية المتبنية لهذه الهوية تعاني من أعراض ذلك خلال حياتها برمته، إذ أن قدرة أي نظام اجتماعي مرتبطة بشكل وثيق بالهوية الإيديولوجية التي يستند عليها.

يشكل التحليل النظري أهم نقطة في الهوية الإيديولوجية في أيامنا هذه، بينما كانت المفاهيم الميثولوجية والدينية والفلسفية المختلفة تحتل مكان النظرية في المجتمعات القديمة، لكن تطور التفسير العلمي للعلاقات الطبيعية والاجتماعية أدى إلى تطور في الأساس العلمي للنظرية. إذ أن النظرية تتضمن توقع التقييم العام واتجاه التدفق المحتمل لشكل المجتمع المراد تغييره والعيش فيه، وكلما كان التوقع صائباً كلما كان التطور التطبيقي سليماً وناجحاً، فلقد أنشغل الكهنة في المجتمع السومري الذي يعد نقطة انطلاقة الحضارات، بأعمال الهوية الإيديولوجية للنظام من خلال أداء طقوس العبادة التي استمرت آلاف السنين، وتحققت أول ولادة ضمن المعبد وفي إطاره؛ وكان هذا الجانب مذهلاً

عند الكهنة المصريين، وقد تلقى الفلاسفة الأوائل الذين فتحوا الطريق أمام ولادة الفلسفة الإغريقية أول دروسهم الجادة في تلك المعابد؛ استلهموا استنتاجات أفكارهم من تلك النماذج ليعيدوا تشكيلها من خلال الأكاديميات والمدارس.

تعد الكنائس والجوامع في العصور الوسطى امتداداً لهذا التقليد، حيث تمت مواصلته أثناء قيام العصر الحديث عن طريق تسميتها بالمدارس والجامعات وإلمامها بالتطورات العلمية تدريجياً، من الواضح أنه دون وجود قوة هذا التقليد لا يمكن التحدث عن تطورات حضارية.

غير أن المواقف النظرية المعاصرة في أيامنا هذه تحتاج قبل كل شيء إلى التحليل الصحيح لتدفق الهوية لهذا التقليد، فالاكتفاء بالقول "الدين أفيون" لا يمكن أن يحل أي شيء، إذ أن التحليلات التي ستجري ستعاني من قصور ونواقص هامة فيما إذا لم يتم تبيان قوة الهويات الميثولوجية والدينية التي مارست تأثيرها لآلاف السنين على حياة المجتمع، وإذا لم يتم توضيح ما كانت تمثله تلك الهويات وتحديد موقعها في تاريخ الفكر، والخلط بين الشخصانية التي تطورت في بداية نشوء النظام الرأسمالي والفردية سيتضمن أخطاءً مشابهة. إذ يجب تحليل العلاقات المعنوية بنفس الأهمية التي يتم فيها تحليل العلاقات المادية، لمَ بينهما علاقة شرطية، فلا يمكن التقليل من شأن إسهام الموقف الماركسي الذي ركز على التحليل الاقتصادي في الوصول إلى الاشتراكية المشيدة وفي انهيارها أيضاً، وعندما يتم عكس التطور التاريخي والاجتماعي وليس اليومي فقط للنظرية بكافة أبعادها الإيديولوجية والاقتصادية وتداخلها مع الظاهرة السياسية ودون إهمال أي منها أو التركيز على أي منها، حينها يمكن الحديث عن أن الهوية الإيديولوجية قد لعبت دورها بشكل صحيح. وعلى ضوء المعرفة التي ستظهرها، تسهل رؤية الحقائق واتخاذ المسار المتقدم.

لأجل حل المشاكل الإيديولوجية والسياسية والاقتصادية التي تواجه مجتمعاتنا الحالية وجهاً لوجه والتي لم تستطع إظهارها قدرة التعريفات الصحيحة للمواقف الذهنية والنظرية الموجودة، يجب إعادة النظر في الانضباط الفكري المعروف للإنسانية بالارتباط مع مراحل التشكل التاريخي. وإن موقف تحليل نظري شامل كهذا يجعل وجوب دراسة جذرية للأنظمة السياسية والاقتصادية والفكرية لمجتمعاتنا الحالية حتى جذورها ومنابتها شرطاً أساسياً. هذا يعني تحقيق تاريخ جديد كما يعني تكوين وجهة نظر جديدة وشاملة لتناول حاضرنا وتاريخنا، فمنهج التحليل والتحقيق التاريخي هذا يستند على الشرق الأوسط باعتباره معين لا ينضب للفكر والحضارة الإنسانية.

تعتبر حضارات الشرق الأوسط المعتمدة على المجتمع الطبقي والتي تمتد جذورها الإيديولوجية والمادية الى مجتمع المساواة الزراعي" النيوليثي"،

عريقة بالنسبة للإنسانية جمعاء، ويقصد بهذا أنها منبت التكوين الأول، حيث لا يصعب ضمن شروط أيامنا الراهنة البرهنة على هذه الحقيقة بإجراء دراسة تاريخية علمية، إذ أن كل المعطيات الأثرية والدينية والأدبية والسياسية والاقتصادية الموجودة حالياً تسمح بذلك على أفضل وجه.

أردنا من خلال تحليلنا لحضارة الشرق الأوسط تسليط الأضواء على عدد من النقاط الهامة، لأن تقييماتنا كانت معقدة ومتشابكة فمن الأنسب أن ننوه إلى هذه النقاط مرة أخرى:

أ - سيؤدي البحث عن الأصول التاريخية للحضارة الأوروبية ضمن الحضارة الإغريقية الرومانية إلى قصور ومغالطات كبيرة، لأن تطور الحضارة الإغريقية الرومانية يمثل الشكل الأخير للمرحلة العبودية للشرق الوسط، وهي بعيدة عن ان تعبر عن الجوهر. إذ أن المنبت الأساسي لها هي الحضارة السومرية بالدرجة الأولى ويليها المجتمع الطبقي المصري في الدرجة الثانية، ولأن السومريين يمثلون الأصل فإن تحليل حضارتهم يكتسب أهمية بالغة، لا يبدأ التاريخ مع السومريين فحسب، لكنه نظراً لان التطور قد حدث ضمن اتجاهين رئيسيين فإنه يبدأ كذلك مع انقسام المجتمع إلى مسيطر ومسيطر عليه وإلى مستغَل ومستغِل وإلى ساحق ومسحوق. وسيتطور التاريخ لاحقاً في هذين الاتجاهين الرئيسيين: الشرق مع الغرب والمستغَلين مع المستغِلين، وهكذا فالذي يلعب دوراً هاماً في الفصل بين الشرق والغرب هو الاستثمار المديني والزراعي، حيث أرغمت الزراعة على التلاؤم مع التطورات التقدمية التي شهدتها المدينة، وبذلك يستمر التناقض الذي بدأ بهذا الشكل حتى أيامنا الراهنة. فبينما كانت الحضارات ذات المنبع الغربي تلعب دوراً مركزياً في تطوير التجارة والحرف والنظام الديني والدنيوي الذي يعتمد على المدينة، كانت الحضارات ذات المنبت الشرقي تعتمد على الزارعة والرعي والعشيرة والإمارات الزراعية التي تأخذ من القرية والقصبة أساساً لها.

ب - إن التحديد السليم لانعكاسات التطور ضمن هذا النمط بأشكال التعبير الإيديولوجية، يشكل مسألة هامة جداً، حيث يتضمن الانعكاس الإيديولوجي الموجود في المنبت السومري على الأشكال التي يجب التوقف عليها مطولاً، فبدون تحليل البنية الإيديولوجية للحضارة السومرية لا يمكن الوصول إلى تقييم سليم للدين التوحيدي والإيديولوجية أو للأشكال الإيديولوجية للفلسفة ولا حتى لنمط الفكر العلمي، إذ لا يمكن إجراء تعريف قطعي للإيديولوجيا ولنمط واقعي إلا من منبتها الأصيل. وبدون الاستناد الى ذلك فإن اعتماد تاريخ الأديان واعتبار أن الفلسفة عريقة وقول "لا يمكن وجود الحقائق إلا في العصر العلمي" سيؤدي إلى الوقوع في الأخطاء والإنقطاعات الكثيرة،

وبالتالي إلى وضع هذه البنى الذهنية التي غطت التاريخ من أوله إلى آخره مكان الحقيقة، وكما تضمن التاريخ عيوباً عامة كذلك وقعت الممارسة تحت تأثير هذه الشذوذ وبالأحرى تحت تأثير غرائب كبيرة. ولربما يعد القرن العشرين الذي حاول إدراك هذه الحقيقة من أكثر القرون التاريخية دموية، وإذا كان لا بد من اعتراف للقرن العشرون فإنه سيكون على شكل إظهار نظرته إلى التاريخ معززاً ذلك بالعلم وكيفية تأثيره على البشرية، قد لا تكون كافة القرون الماضية في وضع يؤهلها لان تقدم نقداً ذاتياً لمحدودية الإمكانيات العلمية، لكن هذه الإمكانيات كانت متوفرة جداً في القرن العشرين لتقديم نقد ذاتي، الا ان اتجاه هذا القرن نحو الهجوم والعدوان وفتح الطريق أمام قرن مليء بالعنف بدلاً من الإدلاء باعتراف ونقد ذاتي كبير يعتبر أكبر جريمة اقترفها هذا العصر، ولن تستطيع الإنسانية أن تنقذ نفسها من كونها ألعن نظام اجتماعي، ما لم تقم بتحليل القرن العشرين وتعترف بجريمته وتقوم بإجراء نقد ذاتي له عن طريق ثورة أخلاقية كبرى، ولا يمكن أن تتطور الحضارة الجديدة إلا عن طريق تحليل هذا المجتمع الملعون.

ج ـ توجد أربعة أشكال فكرية ترتبط فيما بينها برابطة ديالكتيكية وفي جوهرها تعكس تاريخ المجتمع الطبقي، يبين هذا الانعكاس وجهة نظر الفئة المستغلة المهيمنة باعتبارها تشكل الأساس، مقابل ذلك هناك فئة الطبقات المسحوقة والمحكومة التي لم تتردد لحظة في مواصلة خلق نمطها الخاص غير الرسمي والذي أضطر إلى أن يبقى متخفياً.

كانت الميثولوجيا المعتمدة على السماء هي الشكل الإيديولوجي الأول الذي أبرزته الطبقة المهيمنة؛ بعبارة أكثر دقة بينما كانت صفات السماء المتمثلة بالمجد والسمو تتطور كصفات للطبقة المهيمنة، كان يتم التنبؤ بالجحيم والانحطاط والسفالة كصفات للطبقات الدنيا.

لقد لعب الكهنة السومريون دوراً مصيرياً في تحويل الشكل الفكري للميثولوجيا "حكايات، أقوال" من مرحلة الطفولة الإنسانية إلى الشكل الأكثر براءة لصالح الطبقة المهيمنة، فالطراز الكهنوتي السومري قد وضع بصمته على الأشكال الفكرية اللاحقة، إذ أن هذا الطراز مرتبط بشكل وثيق مع تشكل المجتمع الطبقي. وبالرغم من أن كافة شخصيات الآلهة المسيطرة وصفاتها كانت في البداية تمثل الطبيعة، الا انه تم اختزالها تدريجياً إلى خصائص الطبقة المهيمنة، كما تعتبر الآلهة السومرية مصيرية في مسيرة البشرية نحو تشكل الأديان التوحيدية؛ كلما تم اتجاه التطور من دويلات المدن إلى النظام الإمبراطوري نجد تقلصاً في عدد الآلهة حتى يصل في النهاية إلى الإله الواحد، ويتم استخلاص الخصائص الاجتماعية من الخصائص الطبيعية.

تطورت الديانة التوحيدية وتغيرت مع تطور مجتمع المدينة. إذ أن ذلك يتلاءم يتناسب مع طابع المجتمع التجاري أكثر من غيره، ويعد هذا محطة هامة في التطور الفكري من ناحية المصطلح والهوية، حيث حاول المجتمع التجاري الذي كان يشعر بالحاجة لقواعد تعُينه على تحقيق الأمن وقواعد التغيير أن يسد هذه الحاجة من خلال تحويل الميثولوجيا إلى دين، وإذا لم يكن قد أظهر الحكم القطعي، فذلك لأنه اعتمد على المقولات الميثولوجية التي لم تكن تمتلك قيمة الحكم الذي يمتاز به القانون أو الدين، بل كانت أكثر انسجاماً مع المجتمع الزراعي، ومع اكتساب التطور أهمية كبرى أشعر التجار لضرورة قيام العقائد والدين اللذين يمتلكان حكماً قطعياً. إذ تحمل قواعد الدين ذات الحكم المطلق قيم القوانين التي تعتبر الانسجام معها وإطاعتها والاعتقاد بها أمراً ضرورياً، أن هذه الخاصية تسهل الأعمال التجارية إلى أبعد حد، لذا لم يكن مصادفة أن تتطور الأديان التوحيدية بالاعتماد على القبائل السامية التي كانت تعمل بالتجارة بين الحضارتين السومرية والمصرية، بل هو مرتبط بهذه الحقيقة، فلقد تم تنظيم الأشكال الرسمية للدين والميثولوجيا حسب مصالح الطبقة المهيمنة المستغلة، وكان دور الطبقات المحكومة والمستغلة في هذا الإنجاز ضعيفاً جداً ويتوجب عليها أن تتمثلها وتنصاع له حسب الشكل الذي يقدم إليها.

د ـ مقابل هذه التطورات فإن كافة الفئات التي أصبحت تحت وطأة نظام الاستغلال قد نظرت دائماً إلى الميثولوجيا والدين نظرة شك، واستندت على المجتمع النيوليثي في مصادر الدين الأم، حيث نجد أن دين الإلهة ـ الأم للمجتمع النيوليثي مارست تأثيراً عميقاً على كافة الأشكال الفكرية الباطنية "الصوفية" التي أتت لاحقاً. وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الأشكال الدينية تعكس ردود فعل الطبقات المسحوقة من جهة، كانت من جهة أخرى تعكس جنسيتها النسوية وخصائص الحياة الخاصة بها ودينها المعتمد على الطبيعة والعلاقة الحميمة بين الإنسان الإله وطابعه المسالم. حيث كان يمتلك موقفاً أكثر علمانية وأكثر دنيوية. لقد حاولت كافة طرق ومراكز العبادة الباطنية عبر التاريخ الوقوف إلى جانب الفئات المسحوقة وإلى جانب المرأة ومعتمدة على المساواة، لكن هذه الطرق لم تتخلص من تحولها الى موضوعاً للاستغلال والاستثمار، حيث لعبت التقنية المتخلفة وعدم تطور الفكر العلمي دوراً أساسياً في ذلك، يمكن النظر إلى هذه الطرق بشكلها الخام على أنها كانت تمثل قوة المعارضة باسم الطبقات المسحوقة في العصور القديمة والوسطى. وعلى الرغم من الانتشار والامتداد الواسع في التاريخ، إلا انها عانت من الملاحقات والآلام والتحريفات كثيراً بسبب تشتيت طليعتها عن طريق التعذيب القاسي أو بسبب بيع هذه الطليعة في سوق النخاسة. لكن الحقيقة الواضحة تؤكد أن الطرق والمذاهب المعارضة اعتباراً من المجتمع النيوليثي وحتى يومنا هذا قد عكستا عقائدهما ومقاوماتهما

نمط حياة الفئات المحكومة والمسحوقة.

هـ ـ لقد تزامن شكل الفكر الفلسفي مع مرحلة تطور مجتمع المدينة وفائض الإنتاج. ففي الوقت الذي تكتشف الممارسة الاجتماعية قوى الطبيعة والمجتمع، يصعب تدريجياً إشباع الفكر الإنساني بالميثولوجيا والدين، وتتولد الحاجة لشكل فكري أكثر إقناعاً. إذ تصبح العديد من الأحكام الدينية والميثولوجيا مدعاة للسخرية. فعندما تنكشف ماهية الأرض والسماء وعندما يجد الإنسان بانها خالية من الآلهة التي كان السابقون يعتقدون بوجودها هناك، يصبح من الضروري استيعاب قوانين الطبيعة، ويبدأ الفكر الفلسفي بطرح الكثير من الأسئلة مثل: لماذا خلق الكون..؟ ما هي مادته الأولى..؟ وكيف تشكل كل هذا التنوع..؟ وعندما يدرك بأن الملوك ليسوا آلهة وأن القوانين وضعت بما يتناسب مع مصالحهم يصبح التفكير الفلسفي للمجتمع أمراً ضرورياً.

يمثل الفكر الفلسفي بخاصيته هذه المرحلة الثالثة الأكثر تقدماً في تاريخ الفكر بعد الميثولوجيا والدين، ويلعب دوراً انتقالياً بين العلم والدين. فالفلسفة تفتح الطريق أمام وصول شكل الفكر الديني إلى مستوى أكثر عقلانية، أي تمهد السبيل أمام الثيولوجيا "علم اللاهوت" هذا من جهة، ومن جهة ثانية تمنح القوة والعزم للعلوم الطبيعية التجريبية، وكلما تطور العلم تعمل الفلسفة على تطوير طراز التعبير العام للعلم الذي بقي ناقصاً وعلى تطوير قوانينه، ويتم استخدام الفلسفة كما الدين والميثولوجيا لصالح الطبقة المهيمنة، لكن موقفها القريب من الواقع الطبيعي لا يسمح باستخدامها بنفس الدرجة التي استخدام فيها الدين والميثولوجيا. لقد هيئت الحضارات المتطورة جواً مناسباً لتطور الفلسفة، وكما أن تكامل الفلسفة مع الأديان الرسمية يفتح الطريق أمام الثيولوجيا كذلك تكاملها مع الطرق الصوفية يقربها أكثر من الطبقات المسحوقة، ولكن تكامل الطرق الصوفية من الفلسفة أكثر بكثير مع تكاملها مع الدين الرسمي عموماً، إن الاتحاد مع الفلسفة أسهل بكثير بسبب تكامل مصالح الطبقات المسحوقة مع الحقائق، لهذا السبب استخدمت الطرائق في العصور الوسطى ولاسيما الباطنية منها، الفكر الفلسفي كسلاح قوي بيدها، هكذا أتت ولادة الفكر العلمي من وجود هذا النوع من الطرق والمذاهب.

و ـ يتقدم الفكر العلمي كلما تأكدت معرفة الطبيعة والمجتمع لدرجة لا تكون فيها بحاجة لتدخل خارجي، وكلما تم إثبات الأفكار بالتجربة، وهذا مرتبط بتطور الممارسة الاجتماعية، كان ذلك المجتمع معقداً، ومدينياً وتجارياً وصناعياً كلما اشتدت حاجته لنمط الفكر العلمي. إذ يوجد بين العلم والمجتمع رابطة قوية جداً، وفي الوقت الذي تستفيد فيه الطبقة المهيمنة والمستغلة من قدرات العلم الإنتاجية فإنها تتجنب الجانب التنويري من العلم لأنه يضر

بمصالحها، وتلجأ إلى الأشكال الإيديولوجية التي تحكم على الإنسان أن يعيش في الظلام. لهذا السبب فإن نمط الفكر العلمي بهذا الاتجاه مستمر كمصدر خطر بالنسبة للطبقات المسحوقة لأنه لا يشكل بمفرده عامل تحرر لهم. إذ أن النظام الطبقي للعلم حاسم، حيث يختلف تأثير العلم المرتبط بطابع المصالح الطبقية على الفئات الاجتماعية، ومع ازدياد المصالح الطبقية تزداد السيطرة والانحلال على المجتمع والبيئة، وعلى العكس فالطابع التقدمي للقوة الاجتماعية الحاكمة المرتبطة بالمصلحة العامة تفسح المجال أمام إمكانيات العلم المنتجة الدافعة إلى التحرر وقدرته على المساواة.

ز ـ يعتبر نظام الفكر الغربي نتاجاً لهذه الأشكال التاريخية وواصل تطوره حتى يومنا هذا بتحول مميز، فنمط الهوية الأيديولوجية السومرية الذي مر بحضارتي الأناضول والإغريق،تتحلى في جوهرها بالتحول وبمنح إمكانية الحرية المحدودة وكذلك بعدم التحكم تماماً بإرادة الفرد. لقد اقتربت عبادة زيوس التي كانت سائدة بين أعوام 1500 ـ 500 ق.م من الشكل الإنساني، ولم تكن لقضية الخوف والأمل المرتبطة بالإله أي معنى أكثر من أنهما يتركان أثراً معنوياً؛ تعبر عن الواقع الطبقي غير صارم، وكانت الطبيعة تتسارع في استقلاليتها عن الإرادة الإلهية وترسخ المفهوم القائل بأن قوانين المجتمع هي نتيجة لإرادة الإنسان. فبينما كانت الطبقات المهيمنة تتمثل بعبادة زيوس، كانت عبادة ديونيسوس الشعبية تمثل التمايز الموجود في المجتمع، إذ أنها كانت تعكس التمايز الموجود بين الآلهة عموماً، وحل الفكر الفلسفي محل الميثولوجيا عموماً بعد أعوام 500 ق.م، حيث تنور الفرد عن طريق الفلسفة واكتسب إرادة قوية، وبالإضافة للعبودية التي كانت منتشرة في الثقافة الشرقية فقد رسم وجهة معاكسة ومختلفة، لقد تعمق أول انقطاع جاد بين شخصيتي الشرق والغرب مع الإغريق، أما الانقطاع الحقيقي فقد حققته ميديا. كما ان أول تمايز بين الشرق والغرب ظهر في شمال غرب إيران وفي بلاد ميزوبوتاميا العليا، حيث استمد التقليد الزرادشتي قوته من جعل هذا التمايز ممكناً.

يزداد في مرحلة الحضارة الرومانية ضعف الإرادة الإلهية مع تقدم الطابع العلماني، وتمهد فلسفة الطبيعة الستوائية (الرواقية) بطابعها الكوزموبوليتي الطريق أمام المسيحية، إذ تشكل التفسيرات التي قدمتها الفلسفة الإغريقية للنصوص اليهودية المقدسة، الأساس الفلسفي للاعتقادين المسيحي والإسلامي، وفي الحقيقة لقد شكلت الكنيسة التي كانت تزعم بأنها تمثل السلطة الإلهية مقابل السلطة الدنيوية خلال أعوام 500 ـ 1500 م، الأساس الإيديولوجي للنظام الإقطاعي في العالم الغربي. ويفتح نمط الفكر الشرقي الباب أمام تحولات جذرية في البنية الأخلاقية والفكرية للمجتمع الأوربي الذي يعيش في المرحلة البربرية وذلك أثناء مرحلة السيطرة الأخيرة. وهنا يتم الدخول في صراع قاس

ومرير مع الطرق والمذاهب التي تعتمد على الشعب، بهذا الشكل ابتعدت العيسوية عن حالتها البريئة الأولى وتكاملت مع مصالح الطبقة المهيمنة، كما ازدادت سرعة العصر العلمي اعتباراً من أعوام 1400 م، حيث يترك طراز الفكر الثيولوجي اللاهوتي ويتم اختزاله إلى مجرد سلوكيات أخلاقية، وفي هذه الفترة تستقل جميع الذهنيات الغربية عن الدين وتتطور اعتماداً على قدراتها الذاتية، هذه النقلة جلبت معها خروج الفرد من إشراف المجتمع بشكل غير متوازن، وجعل الفرد مغرماً بذاته أكثر من اللازم وفتح الطريق أمام مرض معاكس للدوغمائية، وهكذا يعتبر الفرد الرأسمالي نفسه صاحب قوة تضاهي قوة الآلهة الملوك السومريين على الأقل، فبدأ يؤله نفسه بطريق مختلف أي أنه وضع نفسه في مكانة فوق المجتمع، وهذا ما يشكل المرض والخطر الأساسي الموجود في الثقافة الغربية وما من دواء لهذا الداء حتى الآن.

اتجهت الفئات الاجتماعية المسحوقة والمستغلة الغربية في هذه المرحلة نحو إيديولوجية تعتمد على الجانب العلمي، أي نحو الاشتراكية. إذ باتت الاشتراكية تشكل الهوية الإيديولوجية الجديدة للطبقات المسحوقة، غير أن خروجها من كنف المجتمع الطبقي وخاصة عدم تخلصها من التأثير السياسي وعدم تحويل شخصيتها ونمط حكمها إلى مؤسسات، بل عكس ذلك بناءها المشابه لمؤسسات الطبقات الحاكمة، كل هذه الأسباب أدت إلى انحلالها بعد فترة قصيرة، فعملية خنق أو تجسيد الكثير من التشكيلات المشابهة في العصور الأولى والوسطى من قبل أنماط الطبقات المهيمنة التي قادتها، قد تكررت مرة أخرى في تطبيقات الاشتراكية المشيدة.

ح ـ رسم مسار الفكر الشرقي خط سير مختلف، فإما أله نفسه، أو أظهر تحول نحو الدين التوحيدي الذي أصبح قوياً جداً، إذ كان تحول الدين التوحيدي في فكر الشرق الأوسط انعكاساً لتمركز القوة الاقتصادية والسياسية، وبتحويله إلى قوانين قاسية ومطلقة يجب إطاعتها على أنها معتقدات وأوامر إلهية، لعب دوراً هاماً في تراجع الشرق الأوسط والشرق عموماً، بهذا الشكل تطبع الشرق بنمط شخصية أكثر تخلفاً حتى من السومريين. إذ لم تكن الآلهة السومرية صارمة ولم تمتلك قوانين لهذه الدرجة، فلم يخلق الإيمان أية عقوبة أو إحباط في المعنويات، وربما يمكن الحديث هنا عن مفهوم ديني إلهي أكثر مرونة وإنسانية من مفهوم الإغريق، لكن التصلب الحقيقي بدأ باستيلاء العموريون ذوي الأصول السامية على المدن السومرية، وجلب المسار الأكادي البابلي الآشوري معه التوحيد في المفهوم الديني والإلهي مع تحقيقه القوة الاقتصادية والسياسية على قاعدة من العنف المتطرف، أي جلب مفهوم الإله الحاكم الذي يعاقب. واقتضت التجارة التي ازدادت أهميتها، إيجاد قوانين قاسية. كما ان لاتحاد القبائل إسهام هام في هذا التطور، إذ أن الاعتقاد بالإله (إيل) الذي يعتبر الإله

المشترك للقبائل ذات الأصول السامية يظهر تطوراً يبتدئ مع النبي إبراهيم وينتهي مع النبي محمد الذي وصل إلى مصطلح "الله" القوي المتصف بـ 99 صفة، حقاً إن الله هو انعكاس فكري لمركزية القبائل التي استمرت عشرة آلاف عام على الأقل في شبه الجزيرة العربية. فقد مر بالعديد من المراحل حتى تحول إلى رمز قوي للقبائل السامية بشكل عام، ووصل إلى الذروة مع النبي محمد. حيث أخذ شكله النهائي باعتباره هوية إيديولوجية لمجتمع التجار، وهو إله يتميز بجانب قومي يعد أعلى انعكاس إيديولوجي للقوة الاجتماعية للساميين والعرب.

بالإضافة إلى استخدام مصطلح الله باعتباره إلهاً، كتعبير عن قوة الطبيعة، فقد كان تمثيلاً إيديولوجيا على أعلى المستويات للقوة الاجتماعية، لقد كانت الخصائص الاستعبادية والتحررية للمصطلح متداخلة فيما بينها، فدفع بالبشر إلى الوقوف ضد عبودية العصر الأول عن طريق انسلاخهم عن مصطلح الإله الملك، وارتبطوا بفكر إلهي مجرد، إذ أن هذا الارتباط مقارنة مع عبادة الإله الملك يعد خطوة تقدمية في سبيل خدمة قضية التحرر، لكن بتقويته لفكرة العبودية بشكل عام فقد نظم طراز التبعية الموجود ضمن شروط النظام الإقطاعي، على مستوى جديد. واعتبرت الهوية الإيديولوجية الأساسية للنظام الإقطاعي الذي أصبح قوياً في العصور الوسطى، كما تم التعبير عنها على أنها أفضل طراز يتناسب مع مصالح طبقة التجار الذهنية والمادية، تلك الطبقة التي أصبحت طبقة حاكمة في المجتمع العربي، فاعتمد النبي محمد في تطويره لمصطلح الله باعتباره إلهاً على الفكر الفلسفي الإغريقي والفكر الديني اليهودي والمسيحي، لكنه كان يمثل القوة التي حققت تحولات فرضتها الظروف الاجتماعية، حيث يمثل الله البيان الإقطاعي للعصور الوسطى ويشكل قانونه وبلاغه الأساسي.

إن لإعلان النبي محمد عن الإسلام كآخر دين تعبير عن نظرة مستقبلية هامة جداً، وبذلك يبين بأن عصور الأديان والآلهة قد ولى، وإن مصطلح الله عند محمد ليس قريباً من الدين كما يعتقد، بل هو أقرب الى العلم والفلسفة، ويشاهد أن الصفات التي أعطيت "لله" مثلاً أقرب للإنسان من حبل الوريد وهو أزلي، ابدي، وان نعته بـ ((لم يلد ولم يولد)) وصاحب كل شيء، جميعها صفات قريبة من قوانين الديالكتيك، كما يعرف بأنه محصلة قوانين الطبيعة والمجتمع، بذلك تجاوز منذ زمن بعيد حالة الجمود أو مرحلة الآلهة السومرية والإغريقية التي كانت قائمة على استثمار المرأة، والتي كانت تحول البشر قسراً إلى خدم وعبيد. كما وصل إلى وضع صار يمثل فيه قوة القانون الاجتماعي الشامل الذي ترسخ واصبح قوياً، فمن الواضح أنه بات يمثل خطوة تقدمية هامة.

إن مناقشة موضوع "هل الله موجود أم لا " التي استمرت منذ القرون

الوسطى وحتى يومنا هذا، ما هي إلا تحريف وهدر للوقت، فمن الخطأ تناول المشكلة بهذه الطريقة، بل كان من الأجدى تطوير مناقشة بناءة حول ماهية الانعكاس الاجتماعي للإله، وماذا يمثل..؟ وما هي مراحل التطور التي مر بها..؟ وفي النهاية إلى ماذا سيتحول..؟ أما باتجاه الشرق الأقصى، فإن الجواب المعطى في الصين والهند هو فكرة الإله ـ الملك وعبادته. بينما في الغرب تم إنزال الإله إلى الأرض وتقريبه من البشر عن طريق مشاركته في حياتهم، وأدى هذا في النهاية إلى المنهج العلمي والديمقراطي. وفي الشرق الأوسط تم تسليطه على رقاب المجتمع كسيف ديموقليطس بسبب نشوءه المتجذر القوي. كما تم تمكين وترسيخ السلطة الإيديولوجية للطبقة المهيمنة عن طريق تحويله بما يتناسب وشروط النظام الإقطاعي في القرون الوسطى. ويعبر التفسير السني للإسلام عن الثيولوجيا الرسمية ويمثل طبقة التجار الصاعدة والأرستقراطية الزراعية. ومقابل ذلك فإن كافة الطرق والمذاهب كالباطنية والشيعية والعلوية التي تسترت خلف قناع أهل البيت، تمثل تفسير الطبقات المسحوقة المستغلة. وتشكل هذه التيارات الشبه السرية التي ترجع جذورها إلى المجتمع النيوليثي، شكل النضال الطبقي والأثني في العصور الوسطى، ولقد تشكل النضال القومي والطبقي الخاص بالعصور الوسطى تحت ستار هذه الطرق، وبالرغم من النضالات الكبيرة التي خاضتها والتأثيرات التي أحدثتها، لم تتمكن من الاستمرار بسبب عدم تبلور التشكيلات الطبقية لذلك العصر، كما لعبت المجازر والانحرافات دوراً في ذلك.

الإسلام الذي يشكل أساساً للبنية الذهنية في الشرق الأوسط أو ما يمكن أن نسميه بمرحلة النضج الممتدة ما بين القرنين الثامن والثاني عشر، قد دخل مرحلة تراجع كبيرة بعد القرن الثاني عشر، ففي حين كانت توضع أسس العلم وعصر النهضة في الغرب، كان الشرق يدخل في مرحلة تعصب ورجعية من الناحية الذهنية، وساد نمط حياة خالٍ من المبادئ ولا يعتمد إلا على القوة العسكرية، ولم يكن يستند إلى أي مبدأ معنوي فلسفي، وقد استطاع الإسلام الذي تكامل مع إمارات الحرب الإقطاعية أن يمارس تأثيره حتى يومنا هذا.

ط ـ أدى هذا الوضع العام إلى قيام ثورة إيديولوجية. لكن يجب ألا ننسى بأنه وفضلاً عن تخطي كافة التيارات اليمينية واليسارية المعاصرة للشخصية والهوية الإيديولوجية للعصور الوسطى، فإنها لم تنج من الزيف والتصنع، وحرب الهوية الإيديولوجية للشرق الأوسط لازالت قائمة كما هي. ولانها لم تستند على تخطي شخصية العصور الوسطى والهويات الذهنية للتعصب القومي، الشيوعية، وحتى الإسلام الجديد، التي مرت بها، لم تكن قادرة على تمهيد السبيل امام التجريد. وهكذا فإن من متطلبات الشرق الأوسط وقبل كل شيء هو الانفصال عن الشخصية والهوية الإيديولوجية الرجعية. وبدون

إنجاز هذا لن يكون سوى إضافة امرأة برجوازية الى الحرم الإقطاعي، وهذا ما تم عمله نوعاً ما، حيث بدا واضحاً فشل نتائجها منذ مائتي عام.

ما أردنا القيام به في تحليلنا للحضارة هو الإسهام على أقل تقدير في طرح وإظهار المسألة بشكل صحيح. وحتى هذه المحاولة ظلت في مستوى التعريف، إذ أن عدم تعريف الشرق الأوسط ضمن الشمولية التاريخية، لن يؤدي إلا إلى إضافة مشاكل جديدة للمشكلة التي سيتم تناولها. لقد برهنت الحرب العراقية ـ الإيرانية، الحرب العربية ـ الإسرائيلية، الصراعات العربية ـ العربية، التراجيديا الأرمنية والتراجيديا الكردية مع الجميع، وحتى أبعد من التراجيديا، بشكل كافٍ على أنها حروب حطت من كرامة الإنسان، لكون مشاكل المنطقة مرتبطة فيما بينها كحلقات سلسلة، لذا يمكن تحقيق الخطوة الأولى إذا كانوا مجتمعين وقاموا بتحليل سليم للأسس التاريخية، لقد فاقمت الحركات القومية والإسلامية والتيارات اليسارية التقليدية من تأزم هذه المشاكل، ورغم ذلك يمكن التوصل إلى حلول جديدة عن طريق تجاوز هذه التيارات.

فالنتائج التي توصلت إليها تحليلاتنا قد تجسدت على شكل حركة ديمقراطية تعتمد على العلم و التقنية، وذلك بتطهير خيارات هذه الشعوب ـ التي بقيت تراوح في مكانها منذ المجتمع النيوليثي، والتي تعتبر تياراُ اقرب ما يكون الى حرية ومساواة الحضارة الديمقراطية ـ من الرواسب الطبقية التاريخية وتشكيلها من جديد بالمعنى المعاصر. التاريخ الذي بدأ بالأرض التي أنجبته وبالشعوب التي تعيش فيها، قد رسخ في يومنا الراهن كأمل كبير في ان يتجه من جديد نحو حضارة جديدة، حضارة تتخذ الحرية والمساواة اساساً لها، كما ان احتضانها بطموح النهضة وتحقيق النجاح فيها، جديرة بتحمل كافة الآلام التي تصادفها.

2 ـ يضع البرنامج الأهداف التي تعد مفتاحاً لمستقبل الهوية الإيديولوجية، ويحدد نوعية شكل المجتمع المطلوب. وإذا لم تهمل السوية التقنية، فإن البرنامج وعلى ضوء النظرية يستطيع أن يساهم في التطور السليم لحركة تحول اجتماعية. والوعد بالبناء الاقتصادي والسياسي والاجتماعي الذي تنبأ به، والالتزام بالمسؤولية تجاه الرأي العام الداخلي والخارجي.

يجب ان تستند الانطلاقة الجديدة على برنامج يعتمد نقد الماضي القريب، وطرح نفسه بواسطة الأهداف التي تجعله متميزاً عن طريق نقد الاشتراكية المشيدة التي زعمت بأنها بدأت حضارة المجتمع اللا طبقي، ونقد البرنامج الليبرالي المتعلق بالأشكال الأخيرة للنظام الرأسمالي بشكل خاص، وتأكيد ارتباطه بالديمقراطية المعاصرة وتحدد كيفية تطويرها وبأي اتجاه وبوضوح. إذ أن مقاييس الديمقراطية المعاصرة تعد بحد ذاتها برنامجاً،

فالانطلاقة الجديدة مضطرة لقبول هذا كبرنامج اصغري لها، مثلاً يعتبر تطبيق المعايير الديمقراطية على مؤسسات المجتمع والسياسة والدولة إحدى مهامها الأساسية.

ان الانطلاقة مرغمة لان تحدد القضايا المتعلقة بقضية المرأة وحماية البيئة وتوحش التقنية التي لم تحل ضمن إطار الحضارة الرأسمالية، كأهم مواد في برنامجها الجديد لمراقبتها.

ستلعب حرية المرأة الدور الهام في المساواة والتوازن لقيام الحضارة الجديدة. وستأخذ المرأة التي همشت في التاريخ منذ تفسخ المجتمع النيوليثي، موقعها ضمن شروط الحرية والمساواة، وإعادة الاحترام لها، ولأجل ذلك سيتم إنجاز كافة الأعمال النظرية والبرامجية والتنظيمية والتطبيقية. إن قضية المرأة عبارة عن موضوع مجسد، ويمكن تحليلها أكثر من مصطلحي طبقة البروليتاريا والأمم المسحوقة، اللتان تم الحديث عنهما بكثير في زمن ما. ويمكن القول: بأنه سيتم تحديد التحول الجذري في المجتمع من خلال التحول الذي ستحققه المرأة. كما ان مساواة وحرية المجتمع بكافة فئاته وشرائحه تتناسب طرداً مع مساواة وحرية المرأة. وسيلعب التحول الديمقراطي للمرأة دوراً بارزاً في ترسيخ ديمومة الديمقراطية والعلمانية. يبين هذا التعريف البرنامجي المختصر المتعلق بظاهرة المرأة، أن الحركات الاجتماعية الجديدة ستعيش وضعاً مميزاً بإضفاء لون المرأة عليها.

الموضوع الآخر والهام للانطلاقة الجديدة هو وضع مشكلة البيئة ضمن أهداف البرنامج. فقد تبين بأن الصراع مع الطبيعة يضاهي في أهميته على الأقل الصراعات الداخلية التي يشهدها المجتمع، فحماية البيئة هي في الأساس عبارة عن حماية التربة والخضر والماء والهواء والمناخ. ويعتمد البرنامج على المواد التي من شأنها اتخاذ الإجراءات الكفيلة بحماية هذه الموضوعات الأساسية حماية سليمة بما في ذلك حماية الحيوانات وردع الأساليب الوحشية في ذبح الحيوانات.

بينما تترك التكنولوجيا عاطلة في ظروف المجتمع الرأسمالي من جهة، فمن جهة أخرى تتحول إلى وحش مخيف وقوي يصعب السيطرة عليه. أمام هذا الوضع لابد ان تحتل السياسة التقنية المناسبة لحاجات الإنسانية الأساسية والموقف المبدئي تجاه التطور الذي يجعل من التقنية شيئاً خطيراً، موقعاً لها في البرنامج. وستحدد الانطلاقة الحضارية الجديدة مستوى التقنية واستخداماتها المناسبة. وعلى البرنامج أن يتضمن مواداً لتطوير الحظر والرقابة المشددة على بعض المجالات وأهمها الطاقة النووية وظاهرة البيت الزجاجي وإدخال الهرمونات على المواد الغذائية وتكنولوجيا الجينات من جهة، ومن جهة أخرى

أن يتضمن مواد لتطوير الأعمال التي تجري في حقول التعليم وتحديد النسل والوقاية من الأمراض، وصياغة المجالات التقنية والاقتصادية مع أهداف دمقرطة المجتمع والسياسة والدولة بشكل متداخل.

كذلك يجب على البرنامج أن يتضمن مواقف أكثر حساسية من مشاكل الأطفال والشيوخ، التي لا يمكن تركها للأسر نظراً لأهميتها.

كما يجب وضع تعاريف قطعية للمعايير الأخلاقية الجديدة كي تأخذ مكانها في البرنامج على شكل مؤسسات، وتشكل قوانين الأخلاق الجديدة وتمأسسها الجانب الضروري والخاص للانطلاقة التاريخية، ويجب أن يحدد دور الأخلاق بمعرفة أنه لا يوجد أي إجراء سياسي أو أي قانون يصل إلى قوة الأخلاق وقدراتها، ويجب أن يتم العمل لتحويلها إلى مؤسسات.

إن انحلال الأخلاق في مجتمع ما هو دليل على عمق الأزمة التي يعيشها. وبالطبع عندما نتحدث عن الأخلاق لا نقصد الأعراف التقليدية والقواعد الدينية فحسب، فالأخلاق هي الإيمان بالخير والحق والجمال والتي تمارس من صميم القلب والضمير ولا تقتضي وجود قوانين، بحيث تكون أقوى من القوانين نفسها، وهي التي تعبر عن السلوك الاجتماعي المعاش حسب الحاجة، وهناك أخلاق تقدمية ومتحررة بالقدر الذي تكون هناك أخلاق متعصبة ورجعية. فوضع برنامج يأخذ هذا التمييز بعين الاعتبار يمكنه ان يلعب دوراً تعليمياً وتحويلياً، ويمكن التعبير عن ذلك بالتمأسس المعنوي للمجتمع، ويمكن أن تلعب الأخلاق التي أفسدتها الأزمة دوراً في تجاوز الأزمة، وذلك عن طريق تجديدها بفضل الموقف الأخلاقي الجديد. وبالوصول إلى قيم حقيقية لحماية المجتمع الجديد. في الحقيقة إن الأخلاق كالجسر الذي يصل بين خصائص طابع الخير والحق لشخصية نوعية من أجل أنظمة اجتماعية تضمن كافة الضرورات وبين فن إتمام الخير والجمال الداخلي ضمن زي جميل.

إضافة الى ذلك يجب إعادة تعريف مكانة الفن في الحياة الاجتماعية، بقدر مكانة الأخلاق على الأقل، إذ أن المجتمع الذي يفتقر الى الفن مثله مثل الجسد العاري والبدائي، بل الأنكى من ذلك أنه يعبر عن انسلاخ الروح والجسد عن البنية الذهنية الصحيحة. ففي الوقت الذي يحدد فيه برنامج الذهنية الصحيحة تحول الاقتصاد والاجتماع والسياسة إلى مؤسسات، فإن الأهداف الناتجة ستكون عارية وقبيحة ومعرضة للإعاقة ما لم تكتسي بالفن وأهدافه. لا يمكن التفكير في مجتمع بلا فن. وعلى العكس مما يعتقد فانه واكثر من كونه نتاج النخبة، يجب فهمه على انه لغة الجواب الذي قدمه الشعب للميثولوجيات وللدين وللفلسفة، وأنه يعبر عن استيعاب الشعب للأفكار والأخلاق التي نتجت عن الإرادة والذهنية الرفيعة المستوى وسبكها في قوالب تحقق الانسجام. فالبرنامج المتكامل يتمم

نفسه ببناء إطاره الفني.

3ـ يتم إكمال الهوية الإيديولوجية عن طريق موقف استراتيجي وتكتيكي متكامل يعبر عن ماهية السبل التي أراد بها النجاح للوصول إلى البنية النظرية والبرنامجية. ففي الوقت الذي تعبر فيه النظرية عن وجهة نظرها بشكل واضح وشفاف، فإن البرنامج يكشف عن أهدافه الواضحة والمختصرة المصاغة من النظرية التي تم تمريرها عبر مصفاة النقد. فالاستراتيجية التي تمثل الطريق الصحيح، والتكتيك الذي يعني السير بخطى سليمة، هما اللذان يحددان كيف وبأي الوسائل سيتم الوصول الى هذه الأهداف. إذ أن الاستراتيجية هي فن الاختيار الصحيح بين سائر الطرق المرسومة للوصول إلى تحقيق الأهداف، فهناك طرق مسدودة وهناك طرق مؤلمة ودموية، بالإضافة إلى ذلك فإن الطرق التي تنتهي دون الوصول إلى الهدف ليست قليلة أيضاً، في هذه الحالة تعبر الاستراتيجية الصحيحة عن سبل نجاح الوصول والنقل والنهوض بمسيرة يمكن أن تحقق أو تمكن المجتمع من نيل حقوقه التاريخية، وذلك عن طريق معرفة كافة هذه الطرق الخطرة، وعن طريق إصلاح وتنقيح الأهداف التي يكون الوصول إليها امراً غير واقعي. كثيراً ما شوهد في التاريخ أمثلة عن المجتمعات والمنظمات المحرومة من سبيل واستراتيجية كهذه، يدخلون في وضع تراجيدي وفاشل وذلك إما بسقوطهم في الطرق المسدودة أو ببقائهم في منتصف الطرق الدموية والمؤلمة. فالاستراتيجية هي الفن الذي سيحول دون ذلك؛ بمعنى آخر هو فن السبيل الصحيح.

الاستراتيجية هي إدارة مسيرة ركض، بل هي ركض ماراثوني ناجح لبلوغ الهدف بأكثر الأشكال واقعية وبأقل الخسائر والآلام، وذلك بالتحديد السليم للقوى الأساسية والاحتياطية، ولأصدقاء الدرب المؤقتين. إن كل مجتمع أو منظمة لم تشكل هذه القوة وتجهل طريقة استخدامها محكوم عليها بهدر طاقاتها الحيوية وبالتشتت والتخلف والانحلال. فتشكيل الاستراتيجية بالنسبة لمجتمع أو منظمة بمثابة تشكيل القدرة الدماغية، ومن المعلوم أن الكيانات التي تشكلت بلا دماغ أو بشكل بدائي ظلت في المستوى البدائي. بالتالي فمن الممكن أن يكون لوجهة نظر أو برنامج نظرية ما معنى بواسطة قوة الادارة الاستراتيجية، وهذا بدوره يُمكن من الوصول إلى قوة اتخاذ القرارات التاريخية والاستراتيجية، وتنفيذها في كافة المراحل الهامة. وإذا اقتضت الضرورة يجب معرفة الادارة الإستراتيجية وذلك بإظهار أسباب فشلها وعدم سيرها بإعادة تطوير الصحيح منها. ويعبر الإطار الاستراتيجي حسب هذا التعريف عن التنفيذ، وذلك بالتشكل المتكامل لمؤسسة الزعامة والقيادة وإيجاد قدرتها الخلاّقة في ذاتها. فالمجتمعات أو كافة أشكال المنظمات المفتقدة لهذه القدرة والتي لا تستطيع تحديد اتجاه سيرها، ولا تعرف فيما إذا كانت سائرة نحو الأمام أو نحو الخلف وتراوح في

مكانها، لن تستطيع أن تنجو من التفسخ والانحطاط وستتحول إلى مجرد حطام. وعلى العكس من ذلك فإذا ما اكتسبت المجتمعات أو أي نوع من المنظمات التي تعاني من النقص، هذه القوة حينها يمكنها أن تبدأ بالتحول عن طريق استجماع قواها وتكاملها والوصول إلى الهدف، وستبدأ بتعزيز قواها بنموها من جديد، لذا فالعنصر الاستراتيجي في الهوية الإيديولوجية أمر لا يستغنى عنه، من منطلق أهميته الحياتية وتحقيقه.

تم تناول العنصر الأخير للهوية الأيديولوجية بمصطلح التكتيك، حيث يعبر التكتيك عن الأعضاء والطاقات الواجب امتلاكها للوصول إلى الهدف، وهو يعني كافة أعضاء الجسد باستثناء الدماغ، ومثلما هناك حاجة لعمل هذه الأعضاء بشكل متكامل بتقسيم العمل فيما بينها من اجل الحياة اليومية، كذلك المجتمعات والمنظمات بحاجة لوجود أعضاء مشابهة تعمل بشكل متكامل.

تحاول دولة ما الوصول إلى السياسات الأساسية التي رسمتها بواسطة التنظيمات الموجودة في مجال التشريع والتنفيذ والقضاء وبواسطة التنظيمات الاقتصادية والعسكرية. وتمتلك المجتمعات وسائل شبيهة بهذه الوسائل. فالحاجات والأهداف تحدد الوسائل التي يجب امتلاكها، ويحدد التكتيك أسلوب العمل الذي يجب امتلاكه بالمنظمات الطليعية والجانبية الضرورية من أجل انطلاقة المجتمع الذي يعيش في الأزمة، وتشمل إدارة التكتيك قضايا العنف أو اللاعنف، الهجوم أو الدفاع، بقدرات كبيرة أو بقدرات صغيرة، بسرعة أو ببطئ. إذا ما رغبت إدارة تكتيكية في النجاح عليها السعي الى تقييم واقعي لهذه القضايا، وفي حال العكس هي بمثابة عقل راجح ولكنه يفتقر لكافة وسائل الدعم والتطبيق. ولا يمكن لأي مجتمع سواء أكان في حالة أزمة أو في حالة رخاء أن يعيش دون تكتيك. ويصح هذا على المنظمات أيضاً. فكل مجتمع ومنظمة تفتقر الى القوة التكتيكية أو المواهب التكتيكية محكوم عليها بالخسارة، مهما كانت قوة نظريتها وبرنامجها واستراتيجيتها، وبالتالي فإن على كافة المنظمات الاجتماعية المختلفة أن تحدد الفروع الوظيفية والأنماط التطبيقية الضرورية من أجل الحياة اليومية وذلك على شاكلة الدور الذي تؤديه أعضاء الجسد، أو بالأحرى عليها أن تجري تنظيماً عضوياً، وبعبارة أخرى فهي مضطرة للعمل ولإجراء التحول التنظيمي.

يتضمن التنظيم والممارسة غنىً كبيراً ابتداءً من المجال الروحي حتى المجال العسكري وذلك حسب متطلبات الهدف، وعليه أن يطبق كل شكل يراه مناسباً، ومن الناحية العملية فإنه يتضمن غنى بدءاً من العمليات السلمية وحتى عمليات العنف، بدءاً من العمل الاقتصادي وحتى العمل السياسي. لن تستطيع المنظمات التي لم تحدد وسائلها بشكل صحيح وممارساتها أثناء التوجه نحو

الهدف، أن تتفادى الهزيمة والانحراف، ولا يمكن الحديث عن قيادة تكتيكية سليمة تجهل كيف تبدل فيما بين أشكال التنظيم والممارسة عندما تقتضي الضرورة، وتجهل التجديد في حينها، ولا تستطيع أن تقدم أو تبدي وتيرة كافية. وكما هو محكوم على المجتمعات وكافة أنواع المنظمات التي لا تستطيع تطوير قيادة تكتيكية (الوسائل وقوة إدارة الممارسة والعمل اليومي) بالخسارة، كذلك لا يمكن الاعتقاد بخسارة الذين يستطيعون لعب هذا الدور بنجاح. وكما أنه محكوم على كافة نظريات وبرامج واستراتيجيات الهوية الإيديولوجية التي لم تطور أشكال الوسائل والعمليات على نحو كامل بالشلل، وعلى العكس فحتى تمتلك القوى هذه العناصر، عليها ان تتمكن من التطبيق الآني لكافة أشكال الوسائل والعمليات التنظيمية وبالسرعة المطلوبة، حينها سيكون نجاح مسيرتها نحو الهدف أمر لا مفر منه. إن لعب الدور التكتيكي يعني إثبات القوة المعنية لوجودها وحقيقتها على شكل ظاهرة وذلك حسب الهدف.

نستنتج مما سبق أنه مازالت الولادة الإيديولوجية تحافظ على أهميتها، وان الحضارة المعتمدة على المجتمع الطبقي ستتواصل عن طريق تعميق الأزمة العامة في الواقع الملموس للنظام الرأسمالي. ورغم كافة التجارب التي أجريت فقد ظلت بعيدة عن تحقيق ولادة إيديولوجية سليمة. وإن وجود تراكم قوي على الصعيد الذاتي والموضوعي يزيد من فرصة الولادة. حيث يجب تقييم كافة المواقف الإيديولوجية المتطورة ابتداءً من الميثولوجية وحتى الاشتراكية العلمية، في إطار تكامل ديالكتيكي. يجب أن تكون الخطوة الأولى لكل المهتمين بمراحل الولادة هي احترام التراكم الإنساني عن طريق إدراك قدسية كلمة واحدة حتى. إذ أن مواقف الكفر والاتهام تصدر عن الجهل. وليس صحيحاً أن يتم التصديق أو الاتهام بعبارات تقليدية لأي فكر ما لم يتم دراسته بعمق، وهذا الموقف لا يعني السكوت على النقص أو الخطأ. بل على العكس يجب أن يتم الرد انطلاقاً من مقولة "لا يتحقق الموقف القوي إلا مع الحقيقة".

يتحلى الطابع الأساسي لعصرنا وبشكل متداخل، بحضارة مستندة الى المجتمع الطبقي بكافة أزماته وانهياراته، وبخصائص مرحلة انتقالية تتشكل فيها هوية حضارة اجتماعية جديدة. رغم أن الخصائص المتميزة أدت الى نشوب حروب بين هذين العالمين، الا انه ومع ذلك لا يملكان القوة الكافية ليتخطى أحدهما الآخر ويقضي عليه بشكل سريع وقطعي، ناهيك أن هذا النموذج الثنائي المتشكل من الأبيض والأسود يتناقض مع القوانين الأساسية للطبيعة. حيث تمر الطبيعة والحقيقة الاجتماعية التي هي إحدى أشكالها، بحالات تغيير مستمرة بين النهائي واللانهائي، فتقييم الأشكال الاجتماعية وإمتداداتها الحضارية حسب ثنائية الأبيض والأسود الضيقة، سيؤدي إلى انحرافات واخطاء أيديولوجية خطيرة. في الحقيقة يعتبر الأبيض والأسود أقصى قطبي عالم الألوان وهما شاحبين

ويتغيران بسرعة. وإن قسماً كبيراً من الحقيقة ومجمل التنوع اللوني موجود بين هذين القطبين. وتكتسب رؤية التحولات الحضارية والاجتماعية ضمن هذا الغنى اللوني أهمية مصيرية من أجل ولادة إيديولوجية صحيحة. فالقول ((سأولد إما أبيضاً أو أسوداً)) يعني سأصبح "اشتراكياً مشيداً أو فاشياً". حسناً فماذا سنفعل بالألوان الأخرى الأكثر ورونقاً وعظمة...؟.

ان الانزلاق الى هذه الضيق باسم الاشتراكية العلمية هو أساس كافة الأخطاء التي تظهر في التطبيق والنهاية ستكون الانهيار. لذا لابد من تحديد انسب الأشكال مع الأخذ بعين الاعتبار وجود القطبين، وهذه من المهام الأساسية للقوى الموالية لولادة الجديد.

شهد الواقع التاريخي للقرن العشرين فرض كلا النقطتين المتطرفتين بكل ثقلهما على الإنسانية، إذ أرغمتا الإنسانية على الاصطفاف وفق نظام الأوامر والتعليمات تحت وطأة القوة النارية التي لم تشهد التقنية مثيلاً لها، وتحت راية إما الأبيض أو الأسود، وعانت الإنسانية من سفك دماء وآلام كبيرة جراء ذلك، ولكن السيرورة الديالكتيكية للحياة التي أضفت كل لون وليس اللون الرمادي فحسب، قد أحبطت هذه الضغوطات. فكلا النظامين؛ سواء أكان من النظام الأسود لحضارة المجتمع الطبقي الذي أمر به الإله المطلق الحاكم القهار، أو نظام "الشيوعية البيضاء" ذو اللون الواحد الذي يعتبر ضد الأول ظاهرياً ولكنه يشبه جوهرياً، وعلى الرغم من وجود التفكير نظرياً وإدخاله حيز التنفيذ احياناً إلا انهما لا يتعديا كونهما أنظمة خيالية لا يمكن لهما الاستمرار.

كما هو الأمر في الطبيعة فان الإنسانية ايضاً ستعيش بتطبيق الغنى اللوني على المجتمع، وبهذا المعنى تكون الميثولوجيا السومرية مقارنة مع الأديان التوحيدية أكثر مرونة وإنسانية، بالطبع فأنها من بعض مناحيها تمثل النظام الأسود للآلهة - الملوك، وحتى إذا أجريت دراسة تاريخية لكافة الميثولوجيات والأديان فلن نعثر فيهما على النظام الأسود المطلق، ورغم كافة جوانبهما الدوغمائية، لا تستطيع النجاة من قبول الغنى اللوني.

لقد أكد العلم هذه الحقيقة وبشكل كبير في القرن العشرين، حيث برهنت نظرية تحول المادة - الطاقة، ونظرية التطور، تحول الطاقة، الفيزياء الكمية "كوانتوم" ونسبية الزمان والمكان على أن اللونين الأسود والأبيض ليسا نظامين لا يتغيران.

إذا تم النظر إلى الواقع الاجتماعي ضمن هذا الإطار العلمي والفلسفي، سيدرك بان الأضداد تعايشت لمدة طويلة مرتبطة وبحاجة متوازية لبعضها البعض. وان انتصار الديمقراطية المعاصرة في نهاية القرن العشرين ناجم عن

طابعها الملائم للواقع؛ وعن الرؤية المسبقة بأن الفلسفة تعتبر الميدان الرئيسي للتشكيل الغني للطبيعة والمجتمع وبأن التحولات التطورية في الممارسة هي الأساس. انها تستمد قدرتها من العلم والفلسفة. وبدأت حضارة الديمقراطية المعاصرة تصبح ملك للإنسانية جمعاء عن طريق استيعابها العميق لقوانين التطور وإخضاع التغييرات الاجتماعية لتأثيرها، لم يحدث هذا الوضع مصادفة، بل هو أحد النتائج الهامة لقدرة العلم، لأن العلم عبارة عن ظاهرة ديمقراطية. فمثلما حافظ المجتمع القديم على وجود بناه المعتمدة على الدوغمائيات، كذلك سيكتسب المجتمع الجديد بعض بناءاته اليوتوبية وسيحافظ على بناه.

انطلاقاً من هذه النقطة نجد أن تناول الديمقراطية المعاصرة باعتبارها مجرد حالة وفاق بين قطبين يعتبر مغالطة كبرى، والأمر الهام الذي يتوجب معرفته، هو رغم وجود موقف ذا قطبين فإنها تعطي حق الحياة لهما ما داما ملتزمين بالمعايير الديمقراطية الأساسية. ولكن من المؤكد أنها تشكل اختلافاً اجتماعياً وغنى لونياً لأوسع جيل. فالديمقراطية المعاصرة تستند على غنى التشكلات الاجتماعية أكثر من كونها وفاق بين قطبين، ويتم تقييمها كنظام يتخذ من احترام أشكال الغنى التي عاشتها المجتمعات عبر التاريخ وستعيشها مستقبلاً، ومن النظر الى التعبير عن أنفسهم بشكل حر وأحيائها على انها أهم مبدأ، وهي تعبر عن القاعدة النظرية الغنية والتطور التطبيقي والتشكل. حيث إنها ليست نظرية تحدد سلطة سياسية بسيطة، إذ لا يمكن اختزالها بسلطة سياسية، لأنها شكل حضاري طويل ومستمر وشامل. إنها نظام يحتوي على العناصر الطبقية من جهة واللا طبقية من جهة أخرى، ولكنه يعتمد على تجدد وإحياء نبراته المختلطة بدون حدود، وبشكل حر أيضاً. أنها النظرية والتطبيق للتطور الحر للحياة. وفي الوقت الذي تعمل فيه على تحقيق هذا فإنها نظام ينكر اللجوء إلى العنف باستثناء الدفاع المشروع ذو التعريف القانوني الواضح. نظام تستطيع فيه كافة الفئات الاجتماعية وخاصة النساء والأطفال كأقدم طبقات مسحوقة التعبير عن نفسها بحرية، وهي نظام لا يعتمد على حل الصراعات الداخلية في المجتمع فحسب، بل ويعتمد على تحليل الصراع المتنامي مع البيئة باستخدام التطور التقني العلمي ويتخذ من تحقيق التغيير والتحول ضمن الشروط السلمية اساساً له.

إننا نكرر ونعيد وضع التعريفات للديمقراطية المعاصرة لأنها تشكل أهم إطار للهوية الإيديولوجية، لقد كتب على راية الهوية الإيديولوجية المسيطرة على القرن الواحد والعشرين عبارة "الحضارة الديمقراطية المعاصرة ". إنها تظهر تحت هذه الراية قدرتها على الاستفادة من البنى القديمة، ووضعها في خدمة المجتمع وبالتالي في خدمة التجديد، وتحت هذه الراية باستطاعتكم أن تعيشوا التاريخ والمستقبل بقدر ما تريدون وأن تصبحوا آنيين بقدر ما تريدون،

على أن تعيشوا ذلك عن طريق معرفة القدرة المؤسساتية بالوعي العميق للمعايير الأساسية والالتزام بها لدرجة العبادة واحترامها إلى أبعد مدى. ولكن فإن شخصية الحياة الديمقراطية لا تعني الحياة الأنانية التي أثارتها جنون الربح الرأسمالي كما تشاء، لا يمكن احياء هذه الحياة بفرض طرائقية باثولوجية (مَرَضية) وبشكل اعتباطي، والقول: حياة حسبما تقتضيه يوتوبيات المستقبل المجيدة"، ويمكن أن تصبحوا أفرداً أحراراً كما ترغبون، ولكن يجب أن تبدوا الالتزام بالتاريخ وبإبداعات المستقبل العلمية؛ وألا تكونوا أسرى للدوغمائيات واليوتوبيات.

عندما يكون المرء علمياً حينها فقط سيدرك بان الحياة الحرة ممكنة بالتاريخ والمستقبل، عليكم الا تتخلوا عن الفرد الحر من أجل الدوغمائيات واليوتوبيات، ولا أن تعطوا فرصة للتحول إلى فرد شتوم ومنكر لها. وستدركون أن الفرد الحر لا يمكن أن يعيش إلا عن طريق معرفة القدرات الدوغمائية واليوتوبية ولكن دون الرضوخ لها، وعن طريق الوصول إلى القوة العلمية والفلسفية قدر المستطاع.

هذه الأحكام مكتوبة على الهوية الإيديولوجية التي سنتبناها وهي ليست أحكام اعتباطية أو فرضها القدر، بل هي أحكام علمية وحرة بكل معنى الكلمة.

المجال الهام الثاني للهوية الإيديولوجية بعد الفردية، هو التطور المعاصر للمجتمع المدني، أي ولادته من جديد، وإطلاق اسم الساحة الثالثة "البعد الثالث" على مجال المجتمع المدني سيشكل خطوة اصطلاحية مساعدة، ويمكن القول بأن حضارة الديمقراطية المعاصرة تقوم على ثلاث قوائم وهي: المجتمع الديمقراطي والسياسة والدولة الديمقراطية، لكن دمقرطة المجتمع القديم عملية صعبة وبطيئة وأما دمقرطة الدولة فهي الأصعب بسبب بنيتها التقليدية، والديمقراطية المعاصرة أيضاً تقتضي نضالاً كبيراً لأنها ترغم على الحساسية الديمقراطية. إن الانتفاضات العامة للمجتمع في المراحل الأولى كانت تؤدي إلى ذلك، ولكن الدولة التي تكتسب تدريجياً تفوقاً عملياً وأيديولوجياً كسرت حدة الفعل المنعكس لدمقرطة المجتمع.

ليس من الصعب تحريف وقمع الأساليب التقليدية. حيث يلعب تخلف شروط الثورة والثورة المضادة التقليديتين دوراً هاماً في ذلك. ويأتي الدور إلى ظهور السياسة الديمقراطية وأشكال وسائلها وعملياتها التي اكتسبت وظيفة ضرورية بين الدولة والمجتمع.

لقد عرفت مجالات المجتمع والدولة في التاريخ بشكل جيد. فعندما

كانت قوة تمرد الشعوب تلعب دوراً هاماً كصوت ومطلب للمجتمع، كانت الدولة تطرح بوجودها كنوع من أنواع القدر وذلك كأقدم سلطة؛ وكان يعتقد بأنه لا يمكن تجنب تأثيرها، خاصة وأن انكماش المجتمعات والدول التقليدية التي كانت موجودة خارج مراكز الحضارة الرأسمالية، على سلبياتها وانعكاسها على الخارج كان بمثابة المحرض الأكثر تعصباً، وتتشكل نوعاً من أنواع التوازن المتعصب الجديد، وكان يعتقد بأنه يمكن تحطيم هذا التوازن بالثورة، وقد أكدت بعض الأمثلة الناجحة على نتيجة وهي الإيمان بإمكانية انتشارها، ولكن التدابير التي اتخذها النظام الرأسمالي الإمبريالي حد من تأثير هذا الادارة، ولان دولة المرحلة المتعصبة لم تتمكن من ان تحقق تحولاً ديمقراطياً ذاتياً، ظهرت حتمية الانتقال إلى بعد جديد، علماً أن مفهوم الدولة الموجود حتى في مراكز الرأسمالية، الذي أصبح متعصباً في مرحلة الأزمة وراح يعمل على تخريب البيئة، جعل من تحرك الساحة الثالثة "البعد الثالث" أمراً حتمياً.

إن البعد الثالث، هو مجال السياسية الديمقراطية، وقد بات ضرورياً خلق أداة مدنية من أجل تلبية كل حاجة فرضتها شروط الحضارة التي أخذت شكلاً متشابكاً، هذه الأدوات ليست عبارة عن أدوات ثورة أو أحزمة اتصال قدمتها الدولة للمجتمع، بل هي عبارة عن منظمات مستقلة تقف بين الدولة والمجتمع تاركة بينهما مسافة محددة، وتتبنى هوية خاصة وتأخذ أشكالاً مختلفة حسب الضرورة. انها ليست ضد الدولة وليست عميلة لها، إنما تخضع لسلطة (إمرة) الحاجة. كما انها ليست منظمات اجتماعية أساسية، وليست مؤسسات أخلاقية أو دينية، ويأخذ أعضاءها أشكالاً حسب الوظائف المحدودة التي ينجزونها، وهي منظمات تنتهي مع انتهاء مهامها أو على أقل هي منظمات متغيرة حسب المهام الجديدة، وقد جعل هذا النموذج وجوده مؤثراً كسبيل لابد منه وضروري للجميع من أجل التخلص من التأزم الذي عمقته الثورة والثورة المضادة، وتزداد أهمية هذا البعد يوماً بعد يوم لأن الحاجات تفرض نفسها في كل مجال، بدءاً من المجال الاقتصادي، ومروراً بالثقافي، ومن الرياضي إلى البيئة ومن السلام إلى حقوق الإنسان.

إن تعريف الساحة الثالثة ضمن هذا الإطار غير كاف، إذ أن هذا المجال يحتاج إلى جعل موقعه النظري والتطبيقي أكثر وضوحاً.

يزداد الشعور يوماً بعد يوم بالحاجة إلى نظرية وتطبيق يخصان الساحة الثالثة؛ إذ أصبحت نظريتها وبرنامجها واستراتيجيتها وتكتيكها أمراً ضرورياً الى جانب ممارسة التطبيق العملي من جديد، ويرغم على الانتقال من مفهوم الحزب المعتمد على سماسرة المجتمع أو الدولة بالمعنى التقليدي، إلى تشكيل حزب محدد حسب الوظيفة والحاجات. فكافة المنظمات صاحبة مفهوم

السمسرة المشابهة، وفي مقدمتها الأحزاب التقليدية باتت وجهاً لوجه أمام إعادة البناء من جديد بما يتناسب مع نظرية المجتمع المدني.

إن نجاح حضارة الديمقراطية المعاصرة مرتبط بوصولها إلى شكل تنظيم وتطبيق يتناسبان معها وإلى إعادة تعريف دورها ضمن هذا المعنى، وان المجتمعات والدول التي لم تطور الساحة الثالثة ستكون مسيرتها بساق واحدة في الديمقراطية المعاصرة، ولن يستطيع عنصر العنف والنزعة الانفصالية المسببان للكثير من المصاعب ان يخرجا عن كونهما مشكلة إلا عن طريق اكتسابهما للحرية الموجودة في هذا البعد ولعب دورهما فيه، ومن هذا الجانب تشكل هذه الظاهرة التي يمكن تسميتها بالسياسة الديمقراطية خطوة تمهيدية للانتقال من السياسة المتأزمة إلى السياسة المنتجة للحلول، وستتمكن ساحة السياسة الديمقراطية، كأكثر ساحة ساخنة ومنتجة، من إنتاج الحلول كلما كانت مؤسسات المجتمع المدني أكثر تنوعاً ووظيفة وتنسيقاً. فالثورة ليست الطريق الوحيد، وكذلك الثورة المضادة أيضاً. فالطريق المؤدي إلى الحل هو السياسة الديمقراطية التي تتضمن بدائل حلول متنوعة، إذ أن الحياة مع مرور الوقت تدفع بتشكيل وتطبيق مشروع من أجل تطوير المجتمع المدني إلى المقدمة، والمؤسسة أو الحزب الذي يمتلك مشاريع هذا المجتمع المدني ومنظماته وأعماله، سيتمكن من الإسهام المميز في التحول الديمقراطي للمجتمع وللدولة. إن الذي سيحقق هذا العمل هو الأحزاب أو المؤسسات البعيدة كل البعد عن سياسة السمسرة، والمنتجة للقيم والتي تحمل ذلك الى الدولة والمجتمع الديمقراطية. فالتاريخ يلقي بدور التحول على المؤسسات والأشخاص الذين يمتلكون نظرية وبرنامج واستراتيجية وتكتيك من هذا النموذج. فالذين لا يصبحون أداة لمطالب المجتمع الرسمي غير الواقعية، وبمقدار عدم تحولهم الى آلة لضغوطات الدولة، والذين يؤمنون بأنهم سيحققون خدمات مفيدة للمجتمع والدولة بتطويرهم معايير الديمقراطية المعاصرة، هؤلاء هم الذين سيلعبون دورهم التاريخي بنجاح.

إن هذا الدور يعني امتلاك نظرية الساحة الثالثة فرصة إنتاج الحلول في مرحلة الأزمة، في الوقت الذي أصبح فيه مفهوم المجتمع الذي دخل في طريق مسدود ومفهوم الدولة التي تعمقت أزمتها، يشكلان عائقاً في هذه المرحلة، فالنجاح الكبير الذي سيحرزها مجالها النظري والعملي متوقف على القيام بالأعمال الصحيحة والمتكاملة وعلى تلبية متطلباتها.

يتبين من كل هذه الشروحات بأن الحضارة الديمقراطية المعاصرة بعيدة جداً عن ان تشكل مرحلة منظومة مختلفة عن هندسة المجتمع الطوباوي والمغامر المحكوم عليه إما بالتحول الى دولة أو الى منظومة جديدة، إذ لا تعني

الحضارة الديمقراطية المعاصرة القضاء على الدولة وتفتيتها، بل تحويلها ببطئ إلى معدات عتيقة وبعد ذلك رميها في مزبلة التاريخ، وهو الصواب وهذا ما سيتحقق. فالحضارة الديمقراطية المعاصرة ليست بدولة متشكلة كأداة قمع جديدة أنشئت بدلاً من أداة الحضارة القديمة، بل على العكس من ذلك فهي أداة تنسيق عامة تعتمد على الجهد المنتج للجميع ولكافة مؤسسات وفئات المجتمع، وتمثل معايير العدالة والحرية على أعلى المستويات وتشرف عليها، ولن تكون لها عصا تضرب ولا سلاح يقتل ولا سجن يزج فيه، ومع مرور كل يوم ومع الاقتراب من اقتسام "كل حسب قدرته، وكل حسب حاجته"، سنصل إلى مجتمع يستطيع رمي آخر بقايا الدولة في متحف الأشياء التاريخية العتيقة. لقد قربت الثورات التقنية العلمية الإنسانية من خيالاتها الواقعية هذه أكثر من أي وقت مضى. ويشكل القديم درعاً للحضارة الديمقراطية المعاصرة وسيكون النصر من حق الكادحين والشعوب المسحوقة لأن التاريخ أدرج ذلك ضمن سياقه.

4 ـ إن توقيت عصر الحضارة الديمقراطية يشكل مشكلة معقدة أيضاً. فمن المؤكد أن لكل عصر روحه الزمنية الخاصة به. ولا يمكن التفكير بعصور اجتماعية خارج الزمن أو بعصور اجتماعية لم تؤسس روابط زمنية، إذ أن الزمن بحد ذاته عبارة عن عنصر فعال وبنّاء، ويعمل مع بقية الأبعاد الأساسية الأخرى. لكي تصبح أزمنة العصر الاجتماعي واقعاً موجوداً، فإنه يتطلب الإدراك الصحيح لهذه الأزمنة، فكلما تم إظهار خصائص العصور والتأثيرات الديالكتيكية الموجودة فيما بينها بشكل صحيح، ازدادت إمكانيات إجراء تعريفات علمية للتاريخ وبالتالي للمجتمع بتلك النسبة.

الخاصية المميزة لعصر المجتمع النيوليثي هي اكتسابه ولأول مرة مكانه كمجتمع زراعي ومرب للحيوانات الداجنة والذي جعل ذلك ممكناً هو التقنية التي تحققت في تلك المرحلة. فأهم خصائص هذا المجتمع هي الأرض وزراعة بعض أنواع النباتات والأشجار وتربية الحيوانات التي تم ترويضها، والقرى المستقرة، والمجتمع الأمومي المتمحور حول المرأة، والمفاهيم الميثولوجية والدينية المعتمدة على تأليه الموجودات والتي لعبت دوراً هاماً في الحياة ورفعها إلى السماء. أما أهم أدوات الإنتاج في ذلك العصر فهي المعول والفأس والمحراث والدولاب وآلات الحياكة اليدوية والطاحونة اليدوية وآلات القص الحجرية الجديدة والحمير والماعز والأغنام والأبقار. وكان المجتمع يعيش على شكل قبائل ضمن نظام يعتمد على الملكية الجماعية. وكانت تسود التجارة ومبادلة السلع في ابسط حالاتها. كما تشكلت فيه المجموعات اللغوية الأساسية في التاريخ وحققت تمايزها. ويظهر للوهلة الأولى أن زمن هذا العصر لا نهائي، فقد كان الزمن يسير ببطئ دون تطوير لأحاسيس الزمن ودون التمييز بين الماضي والمستقبل. لقد تطورت البنية الذهنية والمشاعر في عالم أشبه ما

يكون بالجنة، وكانت عاطفة القرابة التي لم تكن قد تطورت بين البشر في حالة تطور. كما لم يكن لظاهرة العنف المنظم والذي يستهدف النهب أي وجود يذكر. حيث كانت الثقافة الداعمة للمجتمع الأمومي مصاغة من السلام، وكان هناك اغتراب عن ذهنية النهب والقضاء على البعض، ويعتبر الشعر بنية اللغة في هذه المرحلة، ولهذا السبب يطلق على ذلك العصر بالعصر الشعري للحياة الإنسانية.

يعتمد زمن أو عصر المجتمع العبودي على استعباد الإنسان وتحويله إلى سلعة، ويصبح الإنسان ذاته الوسيلة الإنتاجية الأكثر عطاءً. ويتفتت مجتمع القبيلة المعتمد على صلة القرابة عن طريق التقسيم الطبقي المعتمد على نمط العبودية، وتسود علاقة الحاكم والمحكوم، لقد أدت هذه الظاهرة التي تحققت لأول مرة إلى تغييرات عميقة في ذاكرة المجتمع، وتشكلت المدينة حول الحكام وأنشئت دولة المدينة.

عندما كان يعمل قسم كبير من المجتمع في كافة أنواع الخدمات، كانت فئة قليلة تسمو لأنها تمثل أسياد المجتمع والجميع يعمل في خدمتهم، وانعكاس هذا التحول الكبير للمجتمع على البنية الذهنية، يعني بدء عصر الميثولوجيا. ولقد لعب سببان هامان دوراً مميزاً في جوهر الميثولوجيا، أولهما هو فائض الإنتاج الذي أفرزه نمط الإنتاج العبودي لأول مرة للفئة الحاكمة والذي كان يعتبر معجزة بالنسبة لذلك العهد. وأما السبب الثاني فهو مرتبط بالسبب الأول ويتضمن البرهنة على أن هذا النمط هو النظام الطبيعي للمجتمع، حيث حقق منتجو الميثولوجيا السومرية مهامهم هذه بنجاح منقطع النظير، فآلهة السماء هي الخالقة والبشر هم العبيد الخدم الذين خلقتهم الآلهة على الأرض. وتعد عملية تمجيد الآلهة (الممجد، يمثل في جوهره طبقة الأسياد) وتحقير البشر (لأن الاستعباد يقتضي ذلك)، من أهم النجاحات التي حققها الكهنة السومريون، إذ استنتجوا ذلك من صعودهم إلى سطح المعبد (زيكورات) ومراقبتهم لحركة السماء المنتظمة؛ التكرار المنتظم لحركة الشمس والقمر والنجوم والفصول والليل والنهار. ومثلما تعكس قوانين السماء إرادة الآلهة، فإن القوى التي تسير وتنفذ القوانين على الأرض هي ملوك السلالة الحاكمة أو الكهنة الملوك الذين يمثلون الآلهة على الأرض، فأنهم يقوون الإله والآلهة وهي بدورها تقوم بتقويتهم.

كان يطلق اسم الميثولوجيا على فكر ولغة هذه الحقيقة، التي لم تكن قد تطورت بعد إلى شكل دين وذلك بسبب بقاءها ضمن مستوى الحكم والأقوال. وبعد فترة محدودة يأخذ المقتبسون مكان الكهنة ويقدمون هذه الأقوال على شكل قواعد دينية إلى البشرية، وتضع هوية التصور الميثولوجي بصمتها على عصر العبودية الذي استمر لآلاف السنين، ويمكن أن نطلق اسم عصر الميثولوجيا على هذا العصر الذي كان رازحاً تحت حصار المجتمع النيوليثي وبعد ذلك حقق نمواً

في العمق والانتشار، فاحتلت الأقوال الميثولوجية القوالب الأساسية في ذهنية الإنسان، وكأن الاستعباد الجسدي لم يكن كافياً حتى تم تعزيزه وتقويته بالاستعباد الذهني الذي أصبح مسيطراً، وتم خداع إدارة الإنسانية التي تم تركها ضمن مرحلة الطفولة، بالأمثال والأساطير الميثولوجية. إنه العصر الذي تم فيه تمجيد الملوك والسلالات إلى أبعد الحدود، ولهذا فإن فهم التاريخ مرتبط عن قرب بتحليل عصر ولغة الميثولوجيا، إننا نطلق وصف الخرافة على عصر المثيولوجيا ونسخر منها ونمر عليها مرور الكرام، هذا يعني إننا نقدم خدمة عن معرفة أو دون معرفة للنظام العبودي الذي يجب أن نلعنه ونرفضه. فعصر الميثولوجيا هو المهد الذي ولد فيه عصر الدين؛ إنه تقليد عريق وأساسي.

يطلق على زمن النظام الإقطاعي اسم عصر اللاهوت لأنه العصر الذي ساد فيه المفهوم الديني. لقد تواصل نظام العلاقات الذي انحدر من النظام العبودي عن طريق جعله أكثر مرونة ولكن بعد ربطه بقواعد صارمة، استمر في هذا العصر العمل المرتبط بالأرض باعتبارها أكثر العناصر التي توفر فائض الإنتاج، وبالتالي تواصلت علاقة السيد ـ القن، الفلاح ـ الإقطاع، الملك ـ الغلام.. وكذلك تمجيد ثنائية الإله والعبد، كأقدس انعكاسٍ لهذه العلاقة.

تمت البرهنة في هذا العصر على وجود الله ووحدانيته (هذا يعكس في الحقيقة قطعية الفرز الطبقي والنظام الملكي).

إن المهمة التي ألقيت على عاتق الإنسان هي العبادة المستمرة والشكر المستمر للإله (أسياده، الأزواج، الآباء) الواحد، صاحب اكبر قوة، لانه خلقه من لا شيء (إعادة الولادة على أساس طبقي).

استمر الدين بتقديس الارتباط بالنظام من جديد حسب قواعد الإيمان الذي اكتسب صفة القطعية. وتم الاستمرار بتقييم الملكية والسلطنة وهما الشكل الجديد للمجتمع الطبقي، على أنهما يمثلان نظام الآلهة السماوية على الأرض، وسيطرت هذه الأنظمة الجديدة على الذهنية الإنسانية وعلى مؤسساتها السياسية وذلك وفق أسس أقوى، كمن يهرب من المطر وهو في البحيرة، أو عكس ذلك كمن يهرب من المطر الى البرد والثلج.

ان كافة الهويات الإيديولوجية ولاسيما الإسلام والمسيحية التي تم ضبطها وملاءمتها مع النظام الإقطاعي، حققت عصر اللاهوت العظيم في القرون الوسطى، بوضعها الميثولوجيا القديمة من جهة وطراز الفكر الفلسفي الذي ولد حديثاً من جهة ثانية في خدمة الدين.

لاشك أن الانطلاقة النبوية والفلسفية قد لعبت دوراً إنسانياً وتاريخياً في تجاوز أو تليين النظام العبودي. وبغض النظر عن نواياها، فقد قدمت الأديان

التي أسست أبنية العبادة الفخمة على ميراثهم خدمة كبيرة "جوامع ، كنائس، أديرة" كغطاء أساسي للعهد الإقطاعي. وواصلت الآلهة احتلالها لروح وذهن الإنسانية. وان عصر اللاهوت كتعبير عن تعميق اللامعنى وعن انسلاخ الشعر والثيولوجية عن جوهرها فلسفياً، تحول الى كابوس استحق ان يطلق عليه عصر الظلام، وخاصاً في مرحلة الانهيار، وسيتم تسليط الضوء على التاريخ فيما إذا أجري تحليل صحيح لعلم اللاهوت بقدر تحليل عصر المثيولوجيا على الأقل، وبالتالي سيتم فهم ظاهرة المجتمع بشكل أفضل، ويمكننا أن نوصل المجتمع والشعوب والبشرية إلى مرحلة النجاح بالمعنى الحقيقي للكلمة، فيما إذا أجرينا تحليلاً علمياً لمنطق ولغة شعرية العصر النيوليثي وللميثولوجيا في العصر العبودي ولـ اللاهوت في عصر النظام الإقطاعي.

يمكن تقييم مرحلة النظام الرأسمالي من ناحية النشوء على أنها أقرب عصر إلى الفلسفة. حيث أدت الحروب الفكرية الكبرى إلى انحلال اللاهوت، وبذلك توضع خطوة عملاقة من أجل الفهم الصحيح للمجتمع برفع هذا الغطاء عنه. وبهذا الاتجاه لعب الفلاسفة دور أنبياء العصر الجديد. ولكن يكمن اختلافهم الوحيد في اكتسابهم قوة تفسير المراحل الاجتماعية الطبيعية بقوانينها الداخلية، دون إشراك الله بالأمر. حقاً لقد عبّر هذا الطراز الفكري عن أعلى مستوى من مستويات الوعي العام الذي اكتسبته الإنسانية الناضجة في التطبيق، وقد أدت التجارب التي أجريت على الطبيعة والمجتمع إلى تحويل التفسيرات التي تقدمها المواقف الميثولوجية واللاهوتية مدعاة للضحك. وبدأ الفرد الذي فقد حريته تحت وطأة الدوغمائية يبحث عن ذاته؛ ليتحكم في مصيره بنفسه لأنه ملّ من الآلهة. وقد كانت المسيرة نحو الفردية تقتضي الكثير من الجرأة، وراح الإنسان يتخلص تدريجياً من كونه ظلاً ويحول نفسه ليصبح فاعلاً، ولم يكن أمامه أي حل سوى الوثوق بنفسه وبقدراته، فثقته بنفسه ورفضه لتدخل الدين في شؤونه يتطلب جرأة كبيرة، لهذا تعد الفلسفة مرحلة فكر حر نجمت عن الثقة بالنفس والجرأة، ولم تعد هناك آلهة تتدخل بشؤونه، فكانت الفلسفة شكل فكر حر في مرحلة أكسبت الفرد قوة حين أكدت له: "لن تعيش كالأطفال معتمداً على الكبار، بل ستعمل من أجل العيش عن طريق تفسير الحياة بأفكارك وقوتك الذاتية". ولكن لم يكن بالإمكان الاقتناع بتلك العصور التي عقدت المجتمع بأنماط التفكير التي تضلل الأطفال، تلك العصور التي نمت وتوسعت فيها المدن.

لم تستطع الفلسفة التي نشأت في المدن المتطورة في آخر مرحلة من مراحل النظام العبودي أن تتحرر إلا في بداية العصور الحديثة، بعد أن تم استخدامها في خدمة الدين طيلة العصور الوسطى. ويطلق اسم العصر الفلسفي على العصر الذي تجاوزت فيه الإنسانية مرحلة الطفولة الميثولوجية والديانات وبدأت ترسم مصيرها بيدها، وتبحث عن الانسجام مع الطبيعة والمجتمع بدلاً

من الانسجام مع الآلهة. كما تعد الفلسفة مدخلاً إلى العصر الواقعي، فهي العقلانية التي تسعى للاستفادة من قوى الطبيعة أكثر ما يمكن. ومن المؤكد أن عصر الفلسفة هو العصر الذي تم فيه تمجيد الإنسانية.

لا يمكن أن ننكر بأن التطور العلمي قد أكتسب سرعته من الفلسفة، ولا يمكن أن ندعي بأن العلم قد تخطى الفلسفة وبأن الفلسفة لم تعد ضرورية، ولكن هناك حقيقة لا يمكن إنكارها أيضاً، وهي أن الفلسفة قد فقدت أهميتها القديمة في مرحلة نضوج النظام الرأسمالي، ومثلما لا يمكن ان ننظر إلى الفلسفة باعتبارها شكل التفكير الخاص بالنظام الرأسمالي، كذلك لا يمكن تقييم الرأسمالية على أنها النظام الذي يرفض الفلسفة.

من المؤكد أن النظام الرأسمالي لم يعش الشعرية والميثولوجيا واللاهوتية من الصميم، وبالأحرى لقد أنكر وبشكل فظ الشعر والميثولوجيا واللاهوت واعتبر نفسه عقلانياً وواقعياً. إذ أن الفترة التي يمثلها ليست شاهداً على سحرية الشعر أو على بطولة الميثولوجيا أو على قدسية اللاهوت، وبالإنكار الفظ لهذه العصور أفقرت البشرية. فهو عصر العقل الممجد ولكنه في الحقيقة لم يذهب إلى أبعد من إشباع المطامع الأنانية بطريقة منطقية وعقلانية متطورة. كما برهن على أنه عصر مغرم بالمادة لا يستطيع احتمال تمجيد الفلسفة ذاتها. لهذا السبب فإن النظام الرأسمالي عصر يستحق النقد أكثر من غيره، إذ أنه أهمل وانكر روح الزمن والعصور التي احتضنت الإنسانية آلاف السنين وغض الطرف عنها، والأسوأ من ذلك هو وضعها في متحفٍ وحكم عليها بالعيش مرحلة ضحلة. لقد أصاب هذا النظام الإبداع الروحي للإنسانية بالعقم، وتم تحويل إنسان هذا العصر إلى وضع يمكنه فيه أن يضحي بكل شيء في سبيل أنانيته، كما وتم تحويل حساب المصالح عن طريق ألعاب البورصات إلى قمار عام. ومهما أطلق عليها من أسماء سواء "نهاية التاريخ" أو "مرحلة ما بعد الحداثة" الا انه وبالأزمة العامة التي يشهدها أوصل التاريخ الإنساني الى عتبة الزوال والذي يشبه عصور الجاهلية. حيث باتت روابط النظام الفخمة التي ظهرت أثناء بداية العصر الحديث وجهاً لوجه أمام فقدان كبير في الروح والذهن. ولقد تركت الثقة بالنفس والفكر الخلّاق والتنوير والرومانسية التي نجمت عن الفردية مكانها للخوف والشك والتهرب من الفكر والفلسفة التي نجمت عن النزعة الفردية؛ هذا العالم الضبابي وهذه الروحانية التي استسلمت للغرائز والمصالح الصغيرة التي تم تفريغها من كل شيء، قد أدت الى إنزلاق المجتمع إلى أزمة خطيرة محدثة تخريبات كبيرة في البيئة. بالتالي فإن إطلاق اسم "مرحلة الآلهة الصغيرة" على زمن النظام الرأسمالي الذي ضحى بالتاريخ والمجتمع والحياة من أجل مصالحه الصغيرة، أمر يدعو إلى التفكير.

لقد حوّل لسان هذا العصر كل كلمات لغته إلى مصيدة، وكأن الكلمات والأفكار التي تضافرت معاً قد اصطفت من أجل تضليل طبيعة الإنسانية الأساسية وتضليل ذهنيتها وروحها؛ كاصطفاف خائن وحقير. وبسبب التمثيل السليم لبعض حقائق هذه الكلمات تتعاظم الخطورة، وكأن العلم والتقنية بمنطق ولغة النظام الرأسمالي ينتهكان عرض الإنسان في كل لحظة. ومثلما أعتبر الكهنة السومريون أن دفن العبد حياً مع ملكه عندما يموت هو إحدى مقتضيات أوامر النظام الإلهي المتربع في السماء، فإن منطق المصالح الفجة المنتشر في النظام الرأسمالي لم يترك شيئاً مجيداً أو مقدساً دون أن ينتهك عرضه أو يتلاعب به من أجل مصالحه البسيطة. لقد وصل الفساد الذي شهدته الأنظمة في مراحل الأزمات إلى أبعد حدود له في النظام الرأسمالي، وكأن عصر الفردية الفخم قد تحول إلى أحط عصر والى فردية قائمة على المصلحة واللا أخلاقية التي تمت حمايتها بكافة الأساليب، والى عصر اللصوصية التي اكتسبت الصفة الشرعية.

من المؤكد أن الأزمنة الإيديولوجية تشهد أكثر المراحل تأزماً وانحلالاً. فحتى للعصور الدوغمائية عالم منطق خاص بها، وان نظريات الحياة الملتزمة صالحة ضمنها. وتوجد للفلسفة مراحل مثلت الإنسانية سواء على صعيد المفهوم الكوني أو على صعيد الأخلاق. أما في عصر الأزمة العامة للحضارة، فإن الفردية التي تم وضعها في مركز كل شيء وبالرغم من منطقها القائم على المصلحة فإنها لا تحترم القيم التاريخية ولا تحترم الأحلام الطوباوية المستقبلية؛ يتم الهروب إلى مذهب الفردية الذي يضع الدوافع الغريزية العديمة الفائدة والمنسلخة عن التاريخ، مكان الحرية.

لقد تم في عصور الدوغمائية إذابة الفرد داخل المجتمع ووضعت له حدود مسبقة لكل شيء، والتطرف الموجود هنا هو أهم سبب موضوعي لرقي العصر الجديد على أساس الشخصانية. أما في عصور أزمة النظام الرأسمالي فقد جرت مرحلة معاكسة لذلك، حيث تشهد هذه المرحلة انحلالاً لكافة القيم الاجتماعية ذات المعنى في الفردية التي تطرفت إلى أبعد درجة. وقد مهدت ردة الفعل التي تم التعبير عنها تحت اسم الاشتراكية، السبيل أمام الاشتراكية الكهنوتية السومرية المعاصرة، وهذه أمثلة تبين كيف تغذّت التطرفات من بعضها.

ان أحداً لم يفكر في أن الإنسانية سوف تحقق تحولاً عصرياً آخر بعد الحرب العالمية الثانية، إذ أن تحول الطاقة النووية إلى سلاح يأتي في مقدمة العوامل التقنية واعتباراً من النصف الثاني من القرن العشرين سترغم الثورة التقنية - العلمية المتعمقة على خلق روح زمن جديد تدريجياً، وإن الحضارة

المعتمدة على المجتمع الطبقي الذي يعيش آخر اكبر مراحله المتجسدة في الرأسمالية، لم تعد قادرة على الخروج من الأزمة العميقة والمستمرة لا عن طريق خوض حروب جديدة ولا بواسطة مجتمع طبقي.

يتطور عصر جديد من بين أحضان أو أحشاء الانحلال والتفسخ وإن كان هذا التطور يجري بخطى بطيئة. وهذا التطور لن يتم بفعل منظمات ثورية صغيرة ومنظمة بإحكام كما يعتقد، بل سيكون بداية لعصر لعبت التقنية دوراً هاماً في قيامه وجعلت تحقيقه أمراً حتمياً، لقد اتضح بأن استخدام التقنية في حرب شاملة أدت إلى حلة لاغالب فيها ولا مغلوب. فبواسطة الحروب لن يتم هدم حضارات ولن يتم خلق حضارات؛ بل سيكون الدمار شاملاً للجميع. من جهة أخرى وصلت التقنية مستويات تمكنها من حل كافة صراعات المجتمع دون اللجوء إلى العنف. والبعد المادي الذي أستند إليه العصر الجديد هو وصول التقنية إلى مستوى تحقيق أي مشروع تحول اجتماعي جديد، ولا نستثني من ذلك أشكال المجتمع اللا طبقي. ويعد التحول الثوري للمادة سبباً اساسياً في تغيير طابع الزمن. فإذا ما حدث تحول مادي كهذا فإن زمن العصر سيصبح زمناً آخر.

إننا على قناعة بواقعية إطلاق اسم عصر الحضارة الديمقراطية على هذا العصر الذي قمنا بتعريفه بشكل مفصل وشامل.

هذا العصر وقبل كل شيء هو العصر الذي وضعت فيه الشعوب ولأول مرة في التاريخ كل ثقلها على السياسة. فالديمقراطية (ديمو ـ قراطية) تعني إدارة الشعب، ويتحقق هذا في الكثير من وجوهه، حيث كان يتم تحديد كافة الأزمنة السابقة بأسماء الطبقات المسيطرة فيها؛ عصر العبودية وعصر الإقطاعية وعصر الرأسمالية، حيث تعتبر الشعوب وكأنها غير موجودة في تلك الأزمنة. ولقد دوَّن التاريخ بأسماء الملوك والسلالات الحاكمة، ولا يعرف أي شيء عن أخبار المبدعين الحقيقيين في تلك العصور، بل وحتى الإيديولوجيا كانت تعكس واقع الحكام، وعندما لم تكن السلطة المادية كافية كانت السلطة المعنوية والقدرة الإلهية جاهزة في كل لحظة، وحتى في النظام الرأسمالي، فقد عكرت الوطنية بالشوفينية بشكل سريع، وككيان مادي جعلوها بلاءً كبيراً على الوطنية. وبواسطة النزعة القومية اختبأت أقذر المصالح الطبقية خلف المصالح الوطنية الحقيقية.

إن أية ممارسة عادية للنظام الديمقراطي قد برهنت بما يكفي بأن الشعب قد أصبح القوة الفاعلة الأساسية. إذ ولى عصر حكم الأشخاص والملوك والسلالات الحاكمة والطبقات التي كانت تسيطر بلا حدود، ودخلت الشعوب بكل ثرائها الثقافي الى المسار. حتى الديكتاتور المغتر بنفسه لا يمكنه أن يكون

صاحب قوة إلا إذا كان شعبه من خلفه. كانت الشعوب تعيش حالة جنينية في العصر النيوليثي، وولدت وتسمرت بالأرض مع انتقالها إلى المجتمع الطبقي، وكلما كانت تنتقل إلى مجتمع طبقي جديد كان أسيادها يستخدمونها حتى الرمق الأخير ويسخرونها ويدفعون بها إلى الحروب.

حقاً إن الشعوب هم البنات الحقيقيون للتاريخ، ولكن أسمائها تكاد لا تذكر في التاريخ، حيث كان السادة ونظامهم الإلهي هم خالقي وأصحاب كل شيء، في حين كانت تدون أكبر كذبة تحت اسم التاريخ، كانت الشعوب تئن وتتألم بعمق وبصمت، وتتعلم باستمرار من معلومات الزمن منتظرة عهودها الآتية.

رداً على الرأسمالية بكل فاشيتها وسمومها القومية، لم يعد ممكناً تأخير انبعاث الشعوب من جديد. وبهذا المعنى يمكن أن تكون مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية ميلاداً لانبعاث الشعوب من جديد. وقد شهدت نهاية القرن العشرين انتصاراً للديمقراطية، لأن هذا العصر هو عصر الحضارة الديمقراطية المعتمدة على البنية التحتية التقنية والمؤسسات السياسية الضرورية لبناء سلطة الشعوب.

دفعت الشعوب ثمناً باهظاً للدخول في هذا العصر، وتحملت طوال التاريخ كافة أعباء الحضارة المعتمدة على الانقسام الطبقي، وتعرضت لكافة أنواع القمع والمجازر والاستغلال والنهب والتهجير والصهر ولم تكتف بهذا، بل جربت كل أشكال الإرغام الإيديولوجي والمعنوي وتم تأليبها على بعضهم البعض، وحدثت إبادات عرقية فظيعة. وفي الحربين العالميتين في القرن العشرين وفي الكثير من الحروب المحلية والإقليمية، لم يتحطم أحد سوى الشعوب. كما أن الحروب التي تم خوضها باسم الدين في القرون الوسطى تواصلت بشمولية وقسوة اكبر تحت اسم النزعة القومية في النظام الرأسمالي.

لم تقف الشعوب طوال تلك المراحل مكتوفة الأيدي. ولم تهدأ الانتفاضات والهجمات التي شنتها ضد النظام العبودي. كما لم تهدأ أشكال المقاومة التي أبدتها الشعوب في العصور القديمة والوسطى والكيانات الفلسفية والشبه دينية والأديان التوحيدية، وبهذا المعنى نرى أن التاريخ من بدايته وحتى نهايته استمر كتاريخ لمقاومة الشعوب حتى ولو كان تحت الستار العشائري والديني والمذهبي. حقاً إن هذا التاريخ غير مدون والمزيف والمحرف والذي ينسب لغير أصحابه هو تاريخ حرية الشعوب.

تركت حركات المقاومة الشعبية المعاصرة في القرن العشرين بصمتها على العصر. فبالرغم من كل أخطاء الاشتراكية المشيدة، يمكن اعتبار

الحروب التي تم خوضها تحت راية الاشتراكية وحروب التحرر الوطني، في جوهرها حروب مقاومة الشعوب من أجل نيل حريتها.

ظلت ثقافات الشعوب التي تعرضت للقمع والإبادة في جميع هذه المقاومات صامدة، فحتى ولو لم تنجح مقاومات الشعوب بالمعنى السياسي، إلا انها برهنت على عدم رضوخ ثقافاتها وعلى عدم زوالها والتمسك بديمومتها. علماً بأن تمثيل الشعوب في المؤسسات السياسية بعد الحرب العالمية الثانية حقق تطوراً كبيراً، والذي انتصر في نهاية القرن العشرين لم يكن النظام الرأسمالي بل الديمقراطية. وتعد الديمقراطية المعاصرة أول وأهم خطوة على سبيل تحقيق أحلام وآمال الشعوب منذ آلاف السنين، فمثال الأبيض والأسود الذي تفرضه الهيمنة الطبقية ليست سوى تطرف، وفي الحقيقة أن السبيل الأنسب لإنهاء الاستغلال في عالم الواقع يمر عبر تفعيل معايير الديمقراطية المعاصرة، ويجب النظر إلى الديمقراطية المعاصرة على أنها نظام إدارة الشعب الحقيقي الذي يصحح التحريفات الطبقية المتطرفة، وتكسب الشعوب فعالية نحو عوالمها الغنية، وتعطي التقاليد السلمية والأخوية مكانة خاصة. وتطور الشعوب شخصياتها الأساسية تحت راية الديمقراطية المنسجمة والحقيقية. وستجد الصراعات والحروب الدينية والاثنية والقومية السابقة والتي كانت تؤدي إلى الانفصال والانقسام وبالتالي لـ اللجوء إلى العنف، الحل في السلام والنظام الديمقراطي المعاصر. ولو ترك الأمر للشعوب فسيكون طموحها الأعلى هو العيش تحت ظل "فيدرالية عالمية" لأن الدويلات الصغيرة لا تمثل ذروة طموح الشعوب، بل هي طموح للإمارات المهيمنة، ولكافة الفئات الطبقية والأثنية والقومية الضيقة ذات الطابع الشوفيني، حيث تتطور الفيدراليات الإقليمية الواسعة وتواصل وجودها كأشكال ديمقراطية معاصرة، وتدل على عدم وجود أي معنى للتمييز اللغوي والديني والعرقي وكافة الفروقات الثقافية. لقد اجتمعت الدول الأكثر ديمقراطية وتقدمية في اتحادات مثل الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي ورابطة الدول المستقلة، والذي أرغمها على ذلك، هو الوجود الثقافي للشعوب وقدرتها على المشاركة السياسية.

إن اليقظة الثقافات هي التي تطبع مجريات الحياة اليومية في العالم برمته بطابعها، وتتبنى أشكال معاصرة تحولها الى عنصر أساسي لا يمكن الاستغناء عنه في الحياة. ولأول مرة تنعتق الشعوب من قيود الإيديولوجيات الدوغمائية المخدرة، ومن قيود الأحلام الفارغة، وتعانق من جديد كياناتها التي دفنت في الأرض وتسمرت بها منذ المجتمع النيوليثي لتبعث فيها الحياة من جديد وتدخل مرحلة تحديثية كبرى بكل ما تملكه.

تحول حضارة الديمقراطية المعاصرة إلى نهضة للشعوب باتت حقيقة،

وتدعو الحاجة الماسة لهذا التطور مع مضي كل يوم. فتراجع ديكتاتوريات الطبقة المتحجرة، وبتعبير أكثر واقعية إن تراجع الأنظمة الاستبدادية والديكتاتورية وزوالها يعتبر مكسباً كبيراً لصالح الشعوب. إن كيانات الشعوب متماثلة مع الديمقراطية، حيث تربط بينها علاقة ديالكتيكية تجعل انفصالها مستحيل.

يعد المجتمع الديمقراطي ثمرة من ثمار التأثير المتصاعد للشعوب على السياسة والدولة. فإذا وصلت عملية التحول الديمقراطي في المجتمع والسياسة والدولة إلى طرح يومي لدرجة لا يمكن مقارنتها مع أي مرحلة تاريخية، وإذا كانت هذه الحاجة تعاش في كافة بقاع العالم، فإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على يقظة الشعوب وتنورها وتحولها إلى قوة سياسية. كانت الفاشية تمثل الديكتاتورية المتطرفة للرأسمالية، بينما عبرت الاشتراكية المشيدة عن تعصب الطبقة المسحوقة. وأما الديمقراطية المعاصرة فهي عبارة عن نظام حياة ونظام حكم يعمل على وصول الشعوب إلى مرحلة النضوج ويستند على واقع مادي البنيان، وبالتالي هو النظام يحقق نجاحات مستمرة.

تؤكد هذه التعريفات وبكل جلاء أنه بالرغم من الطابع المتفسخ والمتأزم لرأسمالية عصرنا، فإن عصر الحضارة الديمقراطية للشعوب التي تطورت ضد النظام الرأسمالي وكقوة تسببت في انحلاله.

وإذا ما قمنا بتلخيص الخصائص الأساسية لتطور عصر الحضارة الديمقراطية ضمن إطار تعريفه، فإننا سنصل إلى ما يلي:

أ - انه يستند إلى أساس تقني وعلمي وأيديولوجي ملموس. فقد أدت التقنيات المعتمدة على الطاقة النووية والإلكترونية بالإضافة للتقنيات الفيزيائية والميكانيكية إلى تغييرات جذرية في الأساس المادي للمجتمع. فإذا تم استخدام هذه التقنيات في مكانها الصحيح، فإنها كفيلة بتفتيت سلسلة الفقر الناجمة عن التمايز الطبقي واللامساواة الاجتماعية. تعد أثبتت التحليلات العلمية أن تقسيم المجتمع إلى طبقات تنعدم فيه المساواة الاجتماعية ناجم عن تخلف وسائل الإنتاج ولاسيما التخلف التقني. حيث أنقذت الثورات التقنية التي تحققت في النصف الثاني من القرن العشرين المجتمع من هذه السيطرة، وقضت على الأرضية المادية للمؤسسات المعتمدة على اللامساواة. وإذا تم الوصول إلى علاقات إدارة اقتصادية وسياسية تجعل من استخدام التقنية في خدمة كافة فئات المجتمع ممكناً، فإن ذلك سيؤدي إلى تطور الحرية والمساواة الإنسانية في ظل البنيان التقني، كان هذا الإنجاز عبارة عن حلم في الماضي بيد أن امتلاك عصر الحضارة الديمقراطية المعاصرة للوسائل المناسبة جعل تحقيق هذا الحلم ممكناً على أرض الواقع. وبهذا المعنى يمكن اعتبار التقنية عامل تحرر أساسي، وفي حال

استخدامه بشكل معاكس فإنه سينقلب إلى وحش مدمر بيد القوى الرجعية والأنانية. فقد تحولت التقنية الى خدمة الحضارة الديمقراطية، ولكن المشكلة تنحصر في تحقيق النظام الديمقراطي للمجتمع والسياسة والدولة الذي يمكن أن يضع التكنولوجيا وبشكلها الأكثر عطاءً في خدمة المجتمع.

أما الميزة الثانية الأخرى لهذا العصر فهي الثورات العلمية ومجتمع المعلومات. فقد وصل العلم الذي كان عبارة عن مجال بحث في بيئة ضيقة، بسرعة فائقة إلى كافة شرائح المجتمع بفضل تكنولوجيا الاتصال. ومن هنا جاءت ولادة حقيقة مجتمع المعلومات، وبفضلها اكتسبت الديمقراطية والادارة الذاتية قوتهما، إن المجتمع والدولة والسياسة المزودة بالمعرفة مضطرة للعيش بشفافية وفي ظل نظام ديمقراطي متبادل. حيث تسارعت التطورات التي وثقت بين العلم والتقنية وفتحت الطريق لتغذي بعضها البعض. فهذه الظاهرة التي تحققت لأول مرة أدت الى انفجار كبير في إمكانيات الإنتاج. وبتنامي كافة المعلومات الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية والاجتماعية كالكرة الثلجية تحولت إلى مصدر قوة جبارة من أجل المجتمع. بالنسبة للمجتمع والمشكلة تتلخص الآن في الوصول الى نظام ديمقراطي في إدارة التقنية وفي استخدام العلم.

الدور الأساسي للإيديولوجيا هو تحطيم الدوغمائيات وبناء الأحلام والآمال، وجعلها نشطة باستمرار. فبينما كانت الدوغمائيات مسيطرة على الأذهان في الماضي، تطورت في عصر النظام الرأسمالي والنظرية المستقبلية وطوباويات مختلفة. وكلتا الإيديولوجيتين خلقتا عوائق هامة في الذهنية وفي كافة المؤسسات. فالأيديولوجيات الدوغمائية تشكل عوائق مختلفة، وأما الطوباوية فقد كانت حواجزها أقل حدة. ورغم انها بذلك فتحت الطريق أمام إبداع محدود إلا انها عملت على خلق الإنسان التافه والمنسلخ عن واقعه؛ والشخصية ذات التطلعات الخيالية. وتتفق كلتا الإيديولوجيتين على أنهما بعيدتان عن الإبداع وعن دنيا الظواهر الحقيقية، كما لا يمكن أن تكون أي منهما أساساً إيديولوجياً لعصر الحضارة الديمقراطية.

العصر مرغم على الاعتماد على الإبداع والعلمية الإيديولوجية، وفي الأساس هناك علاقة وثيقة بين الاثنتين. أي كلما تم توضيح وتفسير العلاقات والظواهر بواسطة العلم يصبح الطريق ممهداً أمام الإبداع. وإذا ما تسلح الفرد بالمعلومات التاريخية والاجتماعية وسخر عقله لنظام ديالكتيك الطبيعة، يكون قد أمسك بإيديولوجية العصر دون أن يستسلم لقوة الدوغمائيات التي يعرفها.

إن عصرنا الذي يعتمد على إيديولوجية لا تخلو من الخيال وفي نفس الوقت تستند إلى العلم، مؤهل للوصول بالحق والجمال إلى الأخلاق والفن، لأنه مزود بمعلومات واقعية وحقيقية عن كافة الظواهر والعلاقات.

ب - إن نظام الحضارة الديمقراطية هو عصر دمقرطة المجتمع (التحول إلى مجتمع ديمقراطي). وبهذا المعنى يجب على الشعوب أن تدخل المسار بهويتها الخاصة وبإرادة واعية ومتحررة، وستعمل على تبني هوياتها التي تعرضت للتخدير والقمع على مدى آلاف السنين. وسيتمثل كيانها الثقافي باعتباره الميراث الأكثر قيمة وستعتمد عليه في الحياة الجديدة. وإن الجهود التي بذلت حتى الآن من أجل مصالح الأشخاص والسلالات الحاكمة والكيانات الدينية والزمر الضيقة، ستبذل من الآن فصاعداً في خدمة الكيان الاجتماعي برمته ولضمانة استمراريته، وذلك يعني دمقرطة المجتمع، فوصول ذلك المجتمع - كمجتمع معلوماتي - إلى إدراك مصالحه وتحويلها إلى مطالب وحملها إلى المؤسسات السياسية، يعني الوصول إلى ديناميكية تراقب وتطالب وتصبح أكثر فاعلية من الإرادة المسلوبة. وضمن هذا النطاق يكون المجتمع ولأول مرة في التاريخ قد وصل إلى مرحلة إدراك نفسه بشكل علمي، وإلى وعي يدافع فيه عن حقوقه ويكون قد تحول إلى وضع يستطيع فيه أن يقرر مصيره بحرية. هذه الحقيقة تعبر بشكل كاف عن السبب الذي جعل من الحضارة الديمقراطية، عصر دمقرطة المجتمع.

ج - أما النقطة الأساسية الثالثة التي تحدد عصر الحضارة الديمقراطية، تتمثل بدمقرطة السياسة. فإنقاذ السياسة التي عرفت على مدى التاريخ بأنها فن تركيز القوة واستخدامها على أعلى مستوى من أقنعتها وثيابها الضيقة الملونة، يعتبر من إحدى تطورات عصرنا الرائعة، وهذا يعني إنزال السياسة من السماء الى الأرض. وانتهت المناقشات التي كانت تدور حول مصدر السياسة الذي لا ينتهي ولا يستهلك، والاعتراف بأن مصدرها في الأساس هو المجتمع، فالسياسة التي تسترت خلال قرون خلف أمجاد مزورة ومتطورة من أجل خداع البشرية وتحويلها إلى قطيع، قد تحولت إلى أداة بسيطة بيد المجتمع. ولكنها وصلت إلى وعي يمكن أن يعبر عن قيمة باعتبارها أداة مصالح حياتية طويلة الأمد. وكانت الخاصية البارزة لعصر الحضارة الديمقراطية هي إيصالها للسياسة التي كانت تعتبر ولمئات السنين وسيلة إلهية مقتدرة وسحرية، الى معناها الحقيقي وتعريفها كوسيلة في خدمة الشعوب.

السياسة الديمقراطية تشكل الساحة الثالثة بين الدولة والمجتمع وقد وصلت إلى دور مؤسساتي يملك القدرة على الخلق والتجديد، لا يمكن الحديث عن تحول ديمقراطي سليم للمجتمع، ولا عن تطوير الدولة لحساسيتها المتعلقة بهذا الموضوع، من دون توفر أدوات السياسة الديمقراطية المتشكلة في كل مجال من الاقتصاد وحتى السياسة ومن حقوق الإنسان حتى البيئة ومن الثقافة حتى الصحة ومن التعليم إلى السلام، وباختصار من دون وجود المؤسسات المعاصرة المقامة في كل مجال لاسيما الأحزاب السياسية اللازمة لتحديد الطابع

العادل والديمقراطي للقيم اللازمة لتدفقها المستمر من المجتمع إلى الدولة ومن الدولة إلى المجتمع باعتبارها حلقة أساسية. وتحولت مؤسسات المجتمع المدني المتصاعدة هذه ـ باعتبار أن الساحة الثالثة تعني المجتمع الثالث ـ إلى وضع لا يمكن الاستغناء عنه في عصرنا هذا. إذ تمت البرهنة بما فيه الكفاية على أن عصر الحضارة الديمقراطية هو عصر كافة مؤسسات المجتمع المدني للسياسة الديمقراطية.

د ـ والنقطة الهامة الأخرى الرابعة لعصر الحضارة الديمقراطية فتتمثل بتطوير الحساسية الديمقراطية للدولة. حيث يعد تحول أقدم أداة في التاريخ، تلك الأداة التي ما إن يسيطر عليها أحد حتى ينقلب إلى تنين، إلى مؤسسات ديمقراطية تطوراً ثورياً هاماً. وإن هذا العصر مدعو لأن لا يضفي على هذه الأداة أي صفة أكثر من كونها أداة تنسيق للمجتمع على أعلى مستوى، بعد أن كان يتم تمجيدها باستمرار باعتبارها تمثل الكيان السماوي على الأرض، لقد تم تسليط الضوء بما فيه الكفاية على أن الدولة أنشأت من أجل خدمة الإنسان والفرد، وأنه لا علاقة لها بالآلهة، وأن لجوءها إلى العنف طوال التاريخ ناجم عن وقوعها كأداة بيد السلوك الفردي والسلالات الحاكمة وتعصب الزمر الضيقة. إذ تبين وبما فيه الكفاية بان الذي يجب ان يمجد حقاً هو كل مجتمع يؤكد على ضرورة ان تصبح الدولة أداة تنسيق عامة للمجتمع، وكل من يمجد الدولة باعتبارها كيان مجرد منحطً، وإن تحول الدولة حسب هذا التعريف وإخضاعها للمراقبة هو من أهم حقائق وإنجازات عصر الحضارة الديمقراطية. من المناسب هنا أن يتم تقييم تحول الدولة إلى أداة في خدمة الشعب ووضعها في دور المؤسسة الأساسية للسياسة الديمقراطية، وهذا إنجاز ذو مستوى عال لعصر الحضارة الديمقراطية، كما أن التحول إلى دولة ديمقراطية، يعتبر تطوراً أساسياً في عصرنا.

تحتل مشكلة أشكال الدولة الديمقراطية أهمية من الدرجة الثانية، وكنتيجة لبنيتها المرنة فأن أشكال الدولة بدءاً من الكونفدرالية وحتى المركزية* التي تمتلك قدرات وإمكانيات واسعة على الانفتاح، تحمل أهمية كبيرة بقدرتها على إنتاج الحلول. إذ تستطيع الدول والمجتمعات تقرير الشكل المناسب حسب شروطها الواقعية، حيث تعد نوعية المشاكل المعقدة ووسائل مؤسسات الحل الديمقراطي العديدة من العوامل الأساسية التي أنجبت الديمقراطية، وعندما اضطرت الدولة الى الاعتماد على هذه المؤسسات فإنها بذلك فقدت أهميتها التقليدية، وتلعب دوراً هاماً كأداة تنسيق عليا بينها، إن الطابع الأساسي لدولة بهذه البنية هو ديمقراطيتها. وبما أن الديمقراطية تعبر عن نظام المؤسسات فإن هذا يرغمها بشكل طبيعي على اتباع نظام التعددية والاتحادات** وخاصة عندما تزداد أهمية الأعضاء المحليين فإنها تؤدي بالمركزية الى ان تشكل عبئاً،

وسيؤدي ذلك بالضرورة إلى التدفق السليم للقوة من المركز إلى الأطراف، ومن البؤر الأساسية إلى البؤر المحلية، والتدفق العام في هذا العصر يأخذ هذا الاتجاه، فلقد تم تطوير البنية التعددية المعتمدة على الحرية وعلى التوزيع العادل للإمكانيات والقوة على كافة المستويات من المجتمع إلى الأسرة، ومن الدولة إلى الاقتصاد. ضمن هذا الإطار تقوم الدولة بتطوير تقدمها الديمقراطي من جهة وتقوم من الجهة الأخرى بنقل القوانين الجديدة إلى أشكال غنية جداً وواسعة، ابتداءً من الكونفدرالية باعتبارها هدفاً هاماً لحركة القوانين الجديدة، وحتى البنى الديمقراطية المعاصرة، ومثلما أزالت هذه الظاهرة الأضرار الناجمة عن مفهوم الوحدة الإرغامية والإكراه، كذلك أزالت أضرار الدولة الصغيرة "ميكرو" الانفصالية التي تلحق الأذى والخسارة بكل الأطراف في النهاية، إن ظواهر مثل الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي ورابطة الدول المستقلة انها تعبر عن تطورات تاريخية، بيّنت جهة تقدم الدولة الديمقراطية المعاصرة، وجعلت المجتمع الجديد والسياسة الديمقراطية ضرورية في جوهرها.

هـ - إن عصر الحضارة الديمقراطية، بمقدار ما هو عصر انبعاث الشعوب من جديد فهو عصر انبعاث النساء ولربما بشكل اكثر تحديداً، فالمرأة التي كانت تتمتع بقوة الربة المنجبة في المجتمع النيوليثي، أصبحت في مواجهة خطر الزوال طوال تاريخ المجتمع الطبقي. فالتاريخ هو تاريخ الذكر المهيمن الذي اكتسب القوة مع تصاعد المجتمع الطبقي إلى حد ما. ويتشكل طابع الهيمنة الطبقية مع طابع الهيمنة الذكورية، لتكون القاعدة السارية المفعول هنا هي، الأكاذيب والميثولوجية والعقوبات الإلهية، ويكمن تحت كل ذلك واقع عنف واستغلال فظ ومجرد. لم يعط طابع الهيمنة الذكرية للمجتمع فرصة حتى للتقييم العلمي لظاهرة المرأة لغاية يومنا هذا، ويدخل ذلك في إطار ساحة الطابو (المحرمات) أكثر ما يكون في ساحة الدين، كما يتم إخفاء واقع وحقوق المرأة المغتصبة بطريقة قسرية وخائنة وخبيثة من قبل الرجل تحت ستار الشرف. فحرمان المرأة من هويتها وشخصيتها وجعلها أسيرة للرجل عبر التاريخ، وهذه ظاهرة أدت إلى نتائج سلبية أكثر من التمايز الطبقي. ويعتبر أسر المرأة مقياساً للعبودية العامة والانحطاط؛ مقياساً للكذب والإكراه والسرقة التي انتشرت في المجتمع؛ مقياس لكل أنواع القذارة والتبعية.

لا مفر من أن يجلب انقلاب هذا التاريخ معه نتائج اجتماعية عميقة، إذا سيجعل انبعاث المرأة بحرية من جديد، الحرية والعدالة والتنوير العامة في المؤسسات الفوقية والتحتية للمجتمع ممكناً. وسيقتنع الجميع أن السلام هو الأفضل والأكثر قيمة من الحرب ويجب السمو به عالياً. والمرأة الرابحة تعني المجتمع والفرد الرابح على كافة المستويات وحتى هذا الإطار الصغير يظهر مدى تاريخية التحول الديمقراطي في مجال حقوق المرأة وحرياتها. وبهذا فإن

بدء القرن الواحد والعشرين كعصر للمرأة الحرة والقوية، تعتبر ظاهرة أهم من التحرر الطبقي والوطني. وسيكون عصر الحضارة الديمقراطية عصراً ارتقاء المرأة فيه، وتكسب أكثر من أي مرحلة مضت.

إن الموقف اللامسؤول والمفتقر للوعي حيال الأطفال والمسنين هو من المواضيع التي أهملتها الثقافة الذكرية المتسلطة، وكأنه قد تم خفض مستواهم إلى الوضعية الثانية أو الثالثة نسبة للمرأة. فقد تم فرض عالم ظالم غير مبالٍ بالطفل، فالنظام الرجولي المتسلط لا يتورع من ضخ شخصيته وعالمه المنتهي الفظ والزائل الذي خان الأحلام السامية والبعيد عن قيم الحرية والمساواة إلى أذهان الأطفال وعقولهم، دون أخذ نفسيتهم وعالمهم في الحسبان؛ بعيداً عن القلق والألم، فمواقفه تجاه الأطفال محشوة بالأخطاء والمخاطر أكثر مما نتوقع، حيث ساد هذا الواقع وتمأسس ابتداءً من الأسرة وإلى المدرسة ومن الشارع ولغاية أماكن اللعب، وتم جعل الكابوس مخيماً على عالم الطفل. كما فرض حصار مشابه على عالم المسنين أيضاً، وبنى جدار من الفولاذ بينهم وبين أولادهم. لقد طوّر المجتمع الطبقي اللامبالاة في هذا المجال أيضاً، وسيّر التاريخ حكمه القاسي في هذه الساحة أيضاً. فاللاوجدانية واللامبالاة العامة تزيد من معاناة المسنين.

لا مفر للمجتمع الديمقراطي من أن يتخذ إجراءات جديدة لهاتين الساحتين، فالحياة ليست عبارة عن حياة شباب تلهو وغير مسؤولة أو فوضى وتشتت، إذ للأطفال عالم خاص يجب ألا يتعرض للخيانة ويجب احترامه وتلبية متطلباته، وخيانة هذا العالم قد عرّض المجتمع لخسارة قيم كبيرة. اما المسنين فانهم كحكماء قد خبروا الحياة، والمجتمع الذي لا يتلقى الدروس من هذا العالم لا يمكن أن يعيش ويفكر بشكل صحيح وسليم، ولهذا فإن عالم الأطفال والمسنين ليس عالماً استهلاكياً، بل هو عالم منتج وغني، فكسب هذين العالمين بإعادة تمأسسها من جديد على أساس الحريات والحقوق التي يفرضها موقعهما الخاص في ظروف المجتمع الديمقراطي، يعتبر مهمة لا مفر منها في الحضارة الديمقراطية، إن عصر الحضارة الديمقراطية هو العصر الذي يتم فيه ذكر الأطفال والمسنين بحب واحترام، كذلك وبهذه المعرفة والموقف الأخلاقي فانه يتكامل مع المجتمع.

و ـ سيكون عصر الحضارة الديمقراطية مرحلة يتم فيها إعلاء شأن حقوق الإنسان، والشخصانية التي ستصبح خاصية لا تنفصم عن شكل الحياة الجديدة. فالإنسانية والفرد اللذين كانا من اكبر الخاسرين في ظل الدوغمائيات والطوباويات، حتى وان كانت خسارتهما ترجع لفترة تاريخية طويلة، فان عودتهما الى الحالة الطبيعية قد خطت اكبر خطواتها في النهضة، إلا أنها

تعرضت مرة أخرى للزوال من خلال السلوك الفردي للرأسمالية، لكن الثورة العلمية ـ التقنية للقرن العشرين، تجبر الفرد والبشرية على شخصانية وإنسانية ناضجة، وعلى الرغم من اعتباره قرناً دموياً خائناً ألحق الخسائر بالبشرية والفرد، الا انه وعن طريق الوعي العلمي والإمكانات التقنية قد بات مرغماً على كسب الشخصانية والإنسانية الجديدة بكونها قيماً سامية لا يمكن التخلي عنها وجعلها سائدة. وهكذا فإن التحول الشخصاني الإنساني النامي باستمرار كأملٍ منذ عصور تشكل المجتمع القديم قدم الإنسانية، قد بلغ ولأول مرة عصراً يمكن ان يتحقق فيه هذا الأمل بفضل العلم والأرضية المادية السليمة. تعرضت الإنسانية باستمرار للتجزئة نتيجة للخصائص الأثنية والدينية والقومية، وقد باتت مرغمة لان تتكامل بلغة التقنية والعلم والديمقراطية. ويظهر انه باستطاعة الغنى الذي يكمن في هذه الإمكانيات تغذية الإنسانية الحقيقية، وباتت الأممية مؤسسة لا يمكن التخلي عنها، ويمكن عيشها أكثر من أية مرحلة مضت. فلم يكتف حقوق الإنسان بان يكون أهم مادة في القانون، بل ان يتمأسس ببلوغها للوعي الذي يحقق التوازن الأنسب مع المجتمع وكذلك بتحقيق الواقعية في المجال الشخصاني.

لأول مرة في لتاريخ ترسخت المجتمعية والشخصانية في مركز الحياة العصرية وفق متطلباتها عن طريق القانون، وربما يكون أفضل تطور ذي معنى للتاريخ هو وصول المجتمعية والشخصانية لأول مرة إلى تحقيق أنسب الأوضاع، وللسبب ذاته يمكن القول إن عصر الحضارة الديمقراطية هو عصر الإنسانية الحقيقية وحقوق الإنسان والشخصانية.

5ـ لا تزال الأبعاد المكانية للحضارة الديمقراطية في أطوارها الأولى. ولكن يمكننا القول أن المرحلة الحضارية التي تخضع للظروف الجغرافية قد أصبحت في طيات الماضي لأول مرة، وتعني هذه الحقيقة أن تطور الحضارة الجديدة لا تجعل الظروف الجغرافية المعينة ضرورية، فجميع العصور الحضارية السابقة ومن خلال توسعها وتطورها خضعت للتأثير الشديد للجغرافيا، وانتهت هذه المرحلة مع عصر الرأسمالية، ولا تشعر الرأسمالية بالحاجة لقطعة ارض من أجل التطور والاتساع، رغم بقائها غير مستقرة في كافة بقاع العالم في الوضع الحالي، وتبحث لها عن ظروف خلق قانون مشابه وساري المفعول في جميع أنحاء العالم تحت اسم العولمة، فعوضاً عن الجغرافية الملائمة فإنها تبحث عن القانون، وبطبيعة الحال فهي تقصد بالقانون التخلص من البنى التي تشكل عائقاً أمام التمأسس السياسي والاقتصادي، وبهذا المعنى فان الرأسمالية المعاصرة لا تمارس النزعة القومية بل الكوزموبوليتيكية، فالرأسمالية القديمة كانت تفرض المفهوم القومي والدولة القومية، لكن الرأسمالية الكونية لا تضع المفهوم القومي أو الدولة القومية في الأولويات، إذا لم تقع في

وضع اضطراري، بل حتى تراها عائقاً أمامها. وبالاستفادة من إمكانيات الثورة التقنية العلمية تسعى ولأول مرة إلى مأسسة العولمة وفق مصالحها، وباتت مقاييس العولمة سارية المفعول بدلاً عن المقاييس القومية، وأصبح كل شيء يقيّم ويثمّن حسب مقاييس العولمة، حتى أنها ترمي القيم القومية في متحف الآثار القديمة عندما لا تنسجم معها، هذه الحملة العصرية للرأسمالية ليست حلاً لتخلصها من الأزمة العميقة والمستمرة التي تعاني منها، إنما تهدف إلى إطالة عمرها والوصول إلى قوة حاسمة من جديد في الحضارة الديمقراطية من خلال إجراء التحول الضروري. من هذا المنطلق يجب علينا أن نؤكد أن الرأسمالية أدركت وشعرت بالحاجة للتحول على المستوى النظري والتطبيقي بشكل مبكر، وبالاستفادة من التجربة التاريخية أثبتت تفوقها على الاشتراكية المشيدة من ناحية التحرك المبكر حيال أجراء التغييرات التي فرضتها الثورة العلمية والتقنية، وإن ذلك سار المفعول بالنسبة لمراكز الرأسمالية المتطورة. ففي أواخر القرن العشرين عملت عل ضم جميع أنحاء العالم بما فيها الاشتراكية المشيدة إلى نفسها كالمحيط تحت اسم العولمة، وهنا شكلت علاقات المراكز والأطراف المشكلة الساخنة للعولمة الجديدة.

ستكون الأمم المتحدة مؤسسة دولية قيد التجاوز في حال عدم تجديد نفسها، كما تواجه الاتحادات والوحدات الإقليمية والقارية المشابهة الحاجة لتجديد نفسها، حيث غدت أشكال الاتحادات القديمة بين الدول في المجال السياسي في وضع لا تشكل جواباً لعولمة الرأسمالية ومقاييس الحضارة الديمقراطية للعصر، كان ذلك نتاجاً لتوازن الرأسمالية التقليدية والاشتراكية المشيدة، إذ يجب تجاوز هذه البنى السياسية طالما تم تجاوز هذه المرحلة.

يجب إنهاء حلف الناتو وحلف وارسو كمؤسسات عسكرية أساسية، حيث بات حلف الناتو في وضع غير وظيفي بانتهاء حلف وراسو منذ أمد، ولا تنجوا التعريفات للأدوار الجديدة من افتقاد مغزاها، لقد تم تجاوز مرحلة الأحلاف العسكرية هذه والمشابهة.

من الصعب على المؤسسات الاقتصادية وفي مقدمتها صندوق النقد الدولي " **IMF** " والبنك الدولي مواصلة كيانها دون تجديد، حيث يستند منطق هذه المؤسسات على تجريد دول الاشتراكية المشيدة من الناحية الاقتصادية، وربط اقتصاديات الدول النامية بالمراكز الاقتصادية القوية، لن يكون هناك مفر من ترتيبات اقتصادية جديدة طالما تم تجاوز دعائم هذا المنطق الفج في العالم، وان معارضة العولمة في الأساس لا تعني معارضة التحول العولمي، بل تكون ضد هذه الترتيبات القديمة غير العادلة.

أدركت الرأسمالية الحديثة التي تتحرك بوعي هذه الحقيقة على أساس

الدروس التي تلقتها من خلال الحرب العالمية الثانية والعديدة من الحروب الإقليمية والمحلية، بأن الخيار الفاشي لن يكون السبيل الناجح للخروج من الأزمة، بالاستفادة من تجربة البرجوازية الديمقراطية القديمة، يبدو وكأن المركز والدول المحيطة قد اقتنعت بأن الانسجام مع التطور الحضاري الجديد هو الخيار الأمثل. ويعتبر ذلك من اكثر العوامل التي تزيد من فرص تطور الحضارة الديمقراطية. لقد تمسكت المراكز الرأسمالية التي كانت تتهرب من الديمقراطية وتحاول اللجوء إلى التخلف والفاشية، بالنظام الديمقراطي منذ النصف الثاني للقرن العشرين كخيار عام. ورغم عدم تخليها عن أولويات ومقاييس طبقتها، فهي طبقة وعت اكثر من غيرها ضرورة الالتزام بالمقاييس الديمقراطية العامة، لكي لا تفقد كل شيء.

إن الحضارة الديمقراطية ليست ظاهرة أو إبداع للرأسمالية على الإطلاق، بل أنها مرحلة تاريخية واجتماعية عامة من أجل الخروج من الأزمة كما بيّنا ذلك في القسم المعني. فالأمر الذي نجحت الرأسمالية فيه هنا هو سرعة الإدراك والتأقلم. لكن الاشتراكية المشيدة التي لم تظهر هذا الوعي والانسجام، لم تنجوا من الانهيار. لأن منطق العصر وقوة جريانه هو العامل الأكثر مصيرية في النتيجة.

هبوط البعد المكاني للحضارة الديمقراطية إلى الدرجة الثانية يأخذنا إلى الاستفسار عن ماهية أولوياتها، وتعتبر الصفة الكونية للتطور التقني والعلمي عاملاً أساسياً في ذلك إذ يمكن تقييم العلم والتقنية على انهما قيم اجتماعية أساسية باعتبارها ملكاً مشتركاً لكل البشرية، حيث يملكان طابعاً جماعياً لدرجة لا يمكن أن تكون ملكاً لأية حضارة أو طبقة أو قومية، فقد ساهمت كل البشرية في هذا التطور، وإن الخطوات الصغيرة التي خطتها المجموعات العشائرية الأولية في العصور المتوحشة، لا تقل أهمية عن الخطوات التي خطاها العلماء الأمريكيون أو الأوروبيون. هكذا يبين التاريخ بان التطور العلمي والتقني الذي ظهر في المرحلة الثانية اعتبارا من أعوام 1600م، قد توازن مع ما تحقق في الهلال الخصيب من تطور ما بين أعوام 6000 - 4000ق.م، وهناك إجماع عام في الرأي على أن علم وتقنية العصر النيوليثي يعتبر من اكثر التطورات التي خلقت وأحيت نتائج كونية بالنسبة للإنسان من الناحية المكانية والزمانية والشمولية.

يعد خروج النمط القديم لتقاسم العالم من جديد عن معناه ، بعد حمل العلم والتقنية خصائص كونية، وهذه الظاهرة تحققت لأول مرة من حيث الشمولية التي تحملها، وتبين بانها لن تعقد روابط وثيقة على النمط القديم بين الانتشار المكاني والتطور، وتؤكد هذه الحقيقة أنه لن يتم تقييم الحضارة الديمقراطية كنتاج خاص لمنطقة معينة، بل سيكون من الصواب إدراكها على

انها إبداع كوني تماماً كالعلم والتقنية، وهي من اكثر النتائج الحضارية قيمة لأنها تتلخص في التجربة المشتركة للإنسانية والمصفاة عبر التاريخ، ولن نكرر الحديث عن تطورها وشموليتها وشكلها لأننا توقفنا عليها سابقاً على مستوى التعريف، بل سنسعى الى تقييمها بخطوطها العريضة من منطلق تمهيد السبيل لفائدة تعليمية مع الأخذ بعين الاعتبار تحقيقها على البعد الكوني.

تظهر المراكز القوية للرأسمالية قوة الوصول بشكل مبكر للحضارة الديمقراطية. وأثبتت هذه السمة على وجود الصلة بين الحضارة الديمقراطية والتطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. وبمعنى أصح هو تأثير الحضارة الديمقراطية المصيري على التطورات. فكل دولة ونظام اجتماعي يعايش هذا التطور يمكنه ان يجعل بنيته السياسية والاقتصادية اكثر حيوية وإنتاجاً. ونظراً ولأدراك المراكز المتطورة الرأسمالية المتطورة لذلك بشكل مبكر وشامل، فإنها حظيت بدور الطليعة لتطور المرحلة الجديدة، وخطت أشواطا متقدمة في البحث النظري والتطبيقي للديمقراطية تجسيداً وممارسة.

تلعب أوروبا الدور الطليعي في هذا الأمر، وتشعر جميع الدول الأوروبية بضرورة تجسيد النظام الديمقراطي وتطويره حتى لو كانت تتميز عن بعضها. فالنتائج الكبيرة والدامية، التي أدت إليها الصراعات الدينية والقومية التي استمرت مئات السنين، جعلت أوروبا متمسكة بحزم بالطابع الوفاقي والسلمي للديمقراطية فان حل مشاكل الحدود السياسية والإيديولوجية والدينية والأثنية والعرقية دون تحولها إلى صراعات مهما كانت المشاكل معقدة، يعتبر من أهم خصائص الثقافة السياسية الجديدة. فالتعبير الملموس لهذه التطورات مع مرور الزمن هو تطور ظاهرة الاتحاد الأوروبي، إذ ان الاتحاد الأوروبي ليس اتحاداً سياسياً وحسب بل قاعدةً حضاريةً عامة، حيث توجد مشاكل توسعية وتعميقية للاتحاد، والاحتمال الكبير أن يوحد الاتحاد جميع الدول الأوروبية تحت سقف فيدرالي، هنا لا يمكن التفكير بأن يؤدي ذلك إلى تراجع لأوروبا، بل من المتوقع أن يؤثر على العالم من خلال المشروع الحضاري الجديد، حيث يوطد الاتحاد الأوروبي موقعه الطليعي في العالم بدرجة ترسيخ وتوسيع الحضارة الديمقراطية، لكن موقعه المذكور لا يمتلك القوة الكامنة من أجل التقدم، وذلك بسبب ولادة وتجذر الرأسمالية فيها، إنما ستمثل القوى اليمينية لتطور الحضارة الجديدة. ولا يمكن تطور الدور المركزي الجديد إلا في موقع بعيد عنها ومتناقض معها كما شوهد ذلك في كثير من التطورات الحضارية، وإن الذي سيأخذ هذا الدور سيبدي موقفاً يتحدد من خلال الظروف الثقافية وليس الجغرافية.

لقد استخدمت الحضارة الأوروبية قواها الكامنة إلى حد كبير، ولم يبق

الكثير من الأشياء لتخلقها. إذ أن الروح والذهنية الرأسمالية قد كونت نسيجها الصلب، ولذلك سيكون الانفتاح على الشخصية الحضارية الجديدة محدوداً، لكن الكثير من الأشخاص ومراكز القوى سيقومون بلعب دور مساهم في الحضارة الجديدة بسبب التناقضات الداخلية. لا يمكن إنكار جميع الخصائص الأوروبية إلا من قبيل التخلف وهذا ما لا يتيح إمكانية للتقدم، فما يجب القيام به هو أخذ ما يجب أخذه عن طريق موقف انتقادي وتحطيم القشرة المتعصبة والتخلص منها، إذ لا يمكن لأوروبا أن تلعب دوراً إلا على مستوى المساهمة، لأنها لا تمتلك القدرة لكي تصل إلى حضارة جديدة من خلال ردة فعلها. وإن الموقف الصحيح لا يكمن في انتظار دور المنقذ ولا إنكاره، بل يتطلب هذا الموقف إظهار قوة تستطيع تجاوزها من خلال تحليلها والهوية الأيديولوجية الجديدة. وستصل أوروبا إلى موقع مشابه للوضع الذي شهدته الحضارة السومرية والمصرية والإغريقية والرومانية في المراحل السابقة، وفي الحقيقة أنها تمر في المرحلة التي يجب أن تعيشها بعمق. منذ الآن تجاوزت الكثير من الأطراف أوروبا كمركز، فأوروبا تصبح مسنة في الوقت الذي ينضج فيه وليدها، وتعتبر أمريكا هي الابن الفظ لأوروبا والذي ولدته في قارة أخرى. حيث سمحت الجغرافيا العذراء والملائمة لأمريكا أن تنمو بشكل سريع في شمالها، والجغرافيا التي واجهت النزاعات المغامرة الأوروبية، قد شهدت في بدايتها مجازر بحق الهنود الحمر، وحققت استقلالها في القرنين الماضيين بعد انتفاضة معينة، كما أحرزت تفوقاً في الكثير من المجالات، وأظهرت القوة المتدفقة من جميع أطراف العالم نمط عالم الناشئين الجدد حيث تنبع فظاظته وعدم خبرته من خاصيته تلك. لقد كوّن السكان الذين تحركوا بحماسة ونفور من الخسارة في بلدهم بنية منطقية جامدة وعالماً روحانياً بلا ضمير ورحمة وحصروا دنياهم في المال، واستندوا إلى مقاييس المصلحة والذرائعية، وكأن جميع الذين لا جذور لهم قد توحدوا هنا وشكلوا عالماً مضاداً، وبذلك خلقوا الثنائي؛ الولايات المتحدة الأمريكية من جهة والعالم من جهة أخرى.

القول بأن القرن العشرين هو قرن أمريكا قول صحيح إلى درجة ما، إذ تأتي مساهماتها في العلم والتقنية في المقدمة، كما لا يمكن التقليل من دورها في تطوير الحضارة الديمقراطية، حيث تقدم على خطوات سريعة وقوية في العولمة مع أنها ملحق ومتمم لأوروبا في كلا المجالين، وتعتبر نفسها في الذروة في أواخر القرن العشرين، لكن المؤكد هو أنها تعيش حالة تفسخ داخلي، ونرى مؤشرات الانهيار تتصاعد حتى وإن لم يشبه ذلك آخر أيام انهيار روما، فالاستعمار الجديد الذي أرادت تطويره في العالم قد تم تجاوزه في فيتنام، أما خطوات العولمة فإنها تواجه ردود فعل وتتجرد يوماً بعد يوم بخصائصها الموجودة، فالسيادة العالمية تعمل عبر الأمم المتحدة والناتو وصندوق النقد

الدولي بشكل بطيء ومتثاقل، ويظهر أنه سيتم تجاوز هذه السيادة في القرن الواحد والعشرين وتراجعها الى دور ثانوي.

يمكن رؤية هذا الوضع كانعكاس لأوروبا، ولا يمكن التفكير بعدم عيش الأولاد لما يعيشه المركز الأم. ما من جديد تقدمه الولايات المتحدة الأمريكية لعصر الحضارة الديمقراطية، لكن الدور الذي ستلعبه في العالم حتى وان كان محدوداً يتطابق مع الاتحاد الأوروبي، ولم تعد تغذيتها للنزعات السلطوية والفاشية تخدم مصالحتها، إذ لا تملك قوة من أجل تسيير تدخلاتها العلنية، واتخذت من مواصلة نفسها عن طريق العولمة والتقنع بالديمقراطية بالاستناد على قوتها العلمية والتقنية، إستراتيجية أساسية لها. من المؤكد أنه سيتم تدريجياً الحد من تأثيرها واستجوابها داخلياً وخارجياً، نجد هنا الوضع الذي عاشه العالم الإغريقي أمام روما في الثنائي أمريكا وأوروبا وكأن التاريخ يعيد نفسه، فتشابه مصيرهما امرٌ طبيعي. ومثلما سارعت حملة البرابرة من انهيار روما، فإن التيارات التي تمتلك موقعاً مشابهاً وإن لم تكن ببرابرة العالم اجمع، ستلعب دوراً مشابهاً في أزمة وانحلال الولايات المتحدة الأمريكية. بهذا النمط الديالكتيكي للقرن الواحد والعشرين ستقع أمريكا في الوضع الذي وقعت فيه الاشتراكية المشيدة.

تشهد أم القارات آسيا تطوراً جزئياً، ففي الشمال والوسط هناك تحالف بقيادة روسيا، والصين في الشرق والمحيط الهادي، والهند في الجنوب. ولا يمكن التحدث عن الموقع الخاص لليابان واستراليا، حيث لا يوجد لهما أي دور سوى أنهما امتداد للحضارة الغربية.

يعيش الروس وروسيا تأرجحاً عميقاً بين الطابع الأوربي والآسيوي بعيداً عن الأصالة. إن محاولتهم في أن يكونوا رواد الاشتراكية المشيدة قد كلفهم وكلف العالم كثيراً، ولهم دور كبير في مضي القرن العشرين بشكل دموي ومأساوي، حيث حاولوا إلباس الأشكال الدوغمائية والطوباوية العديمة المعنى على الإنسانية كقميص المجانين باسم الاشتراكية، وعندما لم يفلحوا لجؤوا دون حياء إلى سياسة التملص وكأن هذه ليست مسؤوليتهم وهكذا أثبتوا انحطاطهم، وانتقلوا من الشيوعية المتطرفة إلى الطرف الآخر، فلم يترددوا في احياء ازدواجية الانحطاط والتفوق لدرجة السقوط في نمط المافيا الرأسمالية وأحياء طابعها. وباتوا في وضع مترنح لا يعلمون إلى أين يتوجهون، يبدوا أنه لا مفر من استمرارهم في الازدواجية الموجودة في طابعهم، فلم يتأخروا عن معايشة الوضع الذي يشبه الاشتراكية المشيدة في الوقت الذي يعمقون فيه الرأسمالية، وعندما يلمون شملهم سيحاولون أن يكونوا ذوي نفوذ في عدة مناطق من العالم وفي مقدمتها آسيا الوسطى والقوقاز، لكن لا يمكن أن نتوخى منهم وصول

مستوى في القرن الحادي والعشرين كما كان عليه في القرن العشرين، ولا مفر من توطيد موقعها كمركز في الأطراف ومعايشة مرحلة الترويض، وسيحاولون تقليد أمريكا وأوروبا بالعلم والتقنية والحضارة الديمقراطية، ولا يمكن التفكير بمساهمة أصيلة من قبلهم.

يمكن أن تشهد الصين تطورات غريبة، حيث استطاعت حتى الآن النجاح في مواصلة الزواج البشع مع الرأسمالية في الاقتصاد ومع الاشتراكية المشيدة في السياسة، سيؤدي هذا الزواج غير المشروع إلى نمو تنيني من ناحية التكاثر السكاني والعاملين، ولم يتضح بعد إلى أي مدى ستكون حضارة أصيلة. لقد لوحظ بان دور الصين عبر التاريخ يكمن بتفوقها في القدرة على التقليد البارع للحضارات الكبيرة، ويمكن القول بان الصينيون مقلدون بارعون، كذلك يمكن اعتبار اليابانيين والشعوب الهند - الصينية ضمن هذه الموجة، إذ نجحوا في تقليد الاشتراكية المشيدة، حيث يقتبسون ما يفيدهم من جميع الأنظمة، وليس معروفاً ماذا سينشرون في العالم مقابل ذلك وكيف. إن احتمال نشر السلام والهدوء قوي، لكنها تأتي على رأس القوى التي ستطور الفاجعة في حال دخولها في حرب مع أية قوة في العالم، ويظهر أنه لا مفر من أن تكون قوة صاعدة في القرن الواحد والعشرين. إذ إن نتيجة الزواج البشع تثير الفضول، ويجب أن لا ننتظر أن تكون مركز انطلاقة لحضارة مميزة. أما الصينيون فيمثلون الرأسمالية أكثر من الرأسماليين والشيوعية أكثر من الشيوعيين بإبداء موهبة التنقل من مسار إلى آخر، ولكن تلك الموهبة لن تؤدي إلا إلى تطوير التقليد فقط، ولا علاقة لهم بأي تركيب جديد.

أما الهند فعلى ما يبدو أنها ستواصل تعميق ثقافات المحتلين التي شهدتها عبر التاريخ أكثر من أصالتها، لقد تطورت من خلال أصداء الثقافة الآرية في إحدى مراحل التاريخ، ووصلت البراهماتية وخلقت بوذا، وعاشت الثقافة الإسلامية أيضاً وتبنت الإقطاعية بعمق، فلم يبق أي احتلال إلا وتعرفت عليه وعاشته، بذلك تشبه المرأة التي تنام مع المحتل ومن ثم تتبناه، وكأنها استفادت من الزوج الإنكليزي من خلال زواجها الرأسمالي، وتستطيع تطبيق الديمقراطية الليبرالية، كما يمكن أن تصل إلى مستوى أمريكا في العلم والتقنية، وتمتلك موزاييكاً شعبياً يرجح جانبه السلمي، وستحافظ على مكانتها في الإرث الآسيوي كثقافة أكثر تلوناً، لكنها مازالت بعيدة عن الخطوة الحضارية، وستواصل تطورها الصادق في النهج الإنكليزي، وبالحفاظ على هويتها التاريخية ضمن هذا الإطار ستتمكن من التطور ومواصلة وجودها.

هناك الكثير من الثقافات الداجنة في الشرق الأوسط كالأتراك والإيرانيين والإندونيسيين، ولكنها ملائمة لاحتلال مكانتها في معادلة الشرق

الأوسط. ولا يمكن انتظار توحد روسيا والصين والهند في البوتقة الآسيوية المشتركة، ويبدو أنه من غير الممكن وصولهم إلى مستوى أمريكا أو الاتحاد الأوروبي بجوهرهم الحالي، كما لا يظهر في الأفق أي موقف تحالفي عام. وستظل آسيا كما كانت في التاريخ وستواصل وجودها لتكون الجبهة الخلفية لجميع الحضارات، لكنها لن تتخلى عن موقعها الذي تظهر فيه كالمارد.

أما أمريكا اللاتينية، فهي مزيج من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية وامتداد لهما. وقد أدت العلاقات التي بنتها معهما إلى تهجين خارق، وكم هو مذهل تهجين الأعراق والثقافات والأنظمة وجوانبها الجميلة الأخرى..؟ من الصعب خروج أصالات منها لكنها ثقافة حافلة ببطولات وأصالات فردية. فمن المكن ان يتواصل ظهور أمثال بوليفار، غيفارا،زباتا وكاسترو. ويجب ألا ننتظر منها أن تقلد أخاها الأكبر مثلما تفعل الهند أو الصين. لديهم طابع التمرد، لكن يصعب خلقهم لخطوات حضارية جديدة بشخصيتهم المطعمة. ومن المنتظر أن يمثلوا قارة تحيي آمال التجديد من خلال الأنطلاقات الثورية الجديدة، وأن يمثلوا ثقافاتها أيضاً. فلم يتخلوا بسهولة عن أن يكونوا شخصيات الأمل الشريفة للذين يكونون في وضع صعب، لكن قوتهم لا تكفيهم لخلق نظام، ويجب اعتبار تحقيق تجسيدهم للحضارة الديمقراطية المعاصرة في القرن الواحد والعشرين نجاحاً بالنسبة لهم.

ستواصل أفريقيا السوداء لعب دورها في أدنى المستويات، وسيبقى العرق الأسود قضية كبيرة، أما مرض الإيدز فهو رمز هذه الحقيقة، علماً بأنها قادرة على ان تمتلك كل شيء كي تكون اماً مزدهرة. لكن لن تنجو بسهولة من السقوط في أسوأ الأوضاع على أيدي أزواجها السيئين المحليين منهم والأجانب. غير إن شروقها سيكون على شكل أم سوداء جميلة حتى ولو تأخر ذلك، وستكون من اكثر الساحات ملائمة لانتشار الحضارة التي ستخلق بطابع المرأة وليس الرجل. وستتبعها أمريكا اللاتينية والهند، حيث يمتلك الثلاثة إرث الأم والمرأة ويبشرون بالأمل. ستقاوم أفريقيا ـ حتى لو كان ذلك متأخراً وصعباً ـ كي تصل إلى شخصيتها الحقيقية بانتصار الحضارة الجديدة.

ان الدوغمائية المعتمدة على ترسيخ القديم في مواجهة التطور الحضاري، وقوة اليوتوبيا التي تعبر عن تصورات تحديد الجديد قد تعرضتا إلى هزيمة كبيرة. ويقابل قدرتها على السير بشكوك، ونشهد مراحل مشابهة لها في التاريخ. وتزداد الشكوك والشبهات حول الماضي في مراحل انهيار وتحول الحضارة السومرية في أواخر أعوام 2000 ق.م، وتفسخ وجهات النظر العبودية في الأعوام الميلادية، ومراحل ظهور حركة النهضة في أعوام 1500 م. فالبحث في المستقبل والتشاؤم منه أمران متداخلان، حيث يشهد عالم عام 2000

وضعاً مشابهاً، ففي الوقت الذي تحتضر فيه الدوغمائية تنهار الأحلام من خلال وقوعها في وضع يوتوبي، وتترك الذرائعية الضيقة تأثيرها على الناس بحيث يكونون بلا حول ولا قوة وبدون حماس. لا نرى في الرأسمالية إمكانية خلق أحلام جديدة، إذ يمكن لأمريكا خلق أحلام جديدة في عالم أفلام هوليود فقط، لكن ليس بإمكانها إشغال وتخدير الإنسانية لفترة طويلة بذلك. إن لتكوين المجتمع الاستهلاكي والذرائعية السارية المفعول إرثاً فلسفياً وخيالاً يتناقض مع جوهرها. سيكون العيش اليومي هو المبدأ الساري، ويعتبر ذلك جعل كل يوم من مراحل الأزمة من الأيام العادية. إن العلة الموجودة في اليوتوبيا الشيوعية هي إظهار واقع عملي يتناقض مع الأهداف التي تصبو إليها، لقد أدى ذلك إلى الشعور بالشك الكبير حيال جاذبية الاشتراكية في المثال السيئ للاشتراكية المشيدة وتحتاج الاشتراكية إلى جهود مضنية لتجديد نفسها والتحول الجذري.

يجب على إنسان هذا العصر أن يبدأ باستقصاءات كبيرة من جديد في واقع كهذا. ويمكن أن ينقذ يومه بما يمتلكه، لكنه لا يمكن أن يبني مستقبلاً متجذراً لنفسه. فقد وعى بأنه ليس في وضع يتوخى فيه نجدة من الدوغمائية. وكما اختبر ورأى أن الانجرار خلف اليوتوبيات التي لا تمتلك أسساً علمية أو تقنية كافية، لم تؤد إلى نتائج مختلفة عن الدوغمائية، ومع ذلك فإنه يحيا عصر أكبر الثورات العلمية والتقنية في التاريخ. لقد أحاطت الحضارة الديمقراطية التي قامت على هذه الأسس بالعالم كله. حيث لا تزال الحضارة الديمقراطية بحد ذاتها بعيدة عن تليين كيان القطبين المضادين اللذين تجاوزا مرحلتهما الوحشية، وعن وضع حلول جذرية بدلاً من تسهيلها عن طريق المحافل الوفاقية، وما زالت بعيدة عن تجاوز الضعف في جعل الديمومة ذات مرحلة طويلة وكاملة. في الحقيقة إن المرحلة الراهنة هي مرحلة تاريخية يجب معايشتها بترسيخ البحث والاستقصاء، وإيجاد الحل الجذري، والتي يتطلب استمرارها طويلاً، ولا يمكن تجاوزها، فبالحلول غير الناضجة لا يمكن الحيلولة دون ظهور نتائج وخيمة كما شوهد في أمثلة كومونة باريس والاشتراكية المشيدة.

إن النتائج المأساوية التي تعرضت لها الكثير من الممارسات الثورية ذات الأهداف السامية والمساعي المقدسة لها علاقة بذلك الواقع، وستخلق التركيبة الإنسانية الجديدة في مرحلة الحضارة الديمقراطية الكثير من الأطروحات والأطروحات المضادة المتشابكة ذات الاتجاهات المتعددة، كما وستخلق في النتيجة نضالا لا يعتمد على العنف، إنما على حق الدفاع المشروع عن الحقوق الكونية الأكثر إنسانية والمتعددة الألوان. ومازال عصرنا بعيداً عن خلق تركيبه رغم امتلاكه لرصيد من التطور في هذا الجانب، وهو ما يحدث في الكثير من المراكز الهامة في العالم. إن تحويل مفاهيمنا وقدرة ملاحظتنا إلى التراث الثقافي للشرق الأوسط الذي أصبح مهد الحضارة من جديد، وخلق شبابه

وتقييم أفقه وقوته الكامنة، سيلعب دوراً في إظهار تركيبه المحتمل من اجل الحل.

الفصل الخامس

هل سيصبح التراث الثقافي في الشرق الأوسط تركيباً للحضارة الجديدة.. ؟

إن التحدث عن الدور التاريخي للشرق الأوسط كأرضية لظروف جغرافية خلقت الحضارة في المرحلة المقبلة لن يكون واقعياً. بل على العكس فمن المتوقع أن تصل إلى وضع غير ملائم بسبب زيادة التصحر وارتفاع الحرارة وشحة المياه، وقد لعبت ثروة النفط دوراً سلبياً في الآونة الأخيرة بسبب الحروب والانقسامات التي نجمت عنها، هذه الثروة التي لا تمتلك أية قيمة سوى إشباع الرغبات الاستهلاكية لحفنة من الأغنياء البعيدين عن الخلاقية والإبداع، ناهيك عن أن نفاذ عروق النفط في وقت لاحق أمر لا مفر منه.أما الأنهار التي خلقت الحضارة كالفرات ودجلة والنيل، فإنها على الأغلب ستؤدي إلى اضطرابات، ويمكن أن تتطور الزراعة المستندة إلى الري على أساس التقنية الجديدة. و لكن لا يمكن للموارد الطبيعية المشابهة أن تلعب دور العنصر الأساسي من أجل المهمة التاريخية للمنطقة. من هذا المنطلق فان أغلب مناطق العالم محظوظة أكثر من الشرق الأوسط. وباختصار فإن تركيبة المرحلة التاريخية المقبلة للإنسانية، لن تحمل فيها الظروف الجغرافية تأثيرات مصيرية. فالحضارة الرأسمالية الأوروبية هي الحضارة الأخيرة التي لعبت فيها الجغرافيا دوراً مصيرياً. لقد تحولت عوامل التحديد إلى عوامل أخرى بعد هذه المرحلة.

كما لا يمكن للتقنية العلمية أن تحدد تركيب الحضارة الأساسي لوحدها، فإن قوة الوصول الى التقنية والعلم قد تخطت أن تكون امتيازاً . ولن تشكل سوى الأرضية المادية المؤهلة للولادات الجديدة، حيث انها في وضع يمكنها من لعب هذا الدور، وبإمكان كل مجتمع الوصول إليها ولا يمكن إبعاد منطقة أو مجتمع عنها؛ إذ ان تقنية الاتصال والمعلوماتية بحد ذاتها لا تسمح بذلك. وكل ما تستطيع عمله هو نقل الخلق والإبداع الجديد الى أبعاد العولمة بشكل سريع ومتوازن.

لقد تم شرح طابع الحضارة الديمقراطية ودورها الأساسي، حيث ستواصل هذه الحضارة انتشارها عرضاً وعمقاً في العالم في القرن الواحد والعشرين، ولا مفر من معايشة الإنسانية هذه الحضارة بشمولية، ويمكن أن

يتوخى منها ان تظهر تقدماً من الأشكال الادارية والحياتية إلى أشكال أغنى واكثر نضجاً، لكنها لا تشكل تركيبة لوحدها، بل هي الشكل والإطار الذي يخلق التركيب، ولا شك أنه يوجد تكامل ديالكتيكي بين الشكل والجوهر، ورؤيتهما كأمر واحد يعني الجنوح إلى الميتافيزيقيا، لذلك يجب البحث عن تراكيب دائمة للإنسانية في ظواهر أخرى. لقد تم التأكيد على المرحلة التي نعيشها بأنها مرحلة البحث الشامل والجذري، فالحزم ومنذ الآن في النتيجة في هذه المرحلة لن يكون ابعد من موقف كهنوتي، وإن القيام بذلك يعني الوقوع في الدوغمائية واليوتوبيا التي لا أساس لها، لكن لا يمكن أن تبقى استقصاءاتنا بدون نتيجة، ولا مفر من مواصلة الديالكتيك لحكمه طالما تتواصل الحياة. إن الشيء المهم هو التوقع حول ماهية التراكمات التي سيستند عليها الميلاد الجديد.

لقد رأينا عند تقييمنا للمراكز الأكثر أهمية في العالم، أنها رسمت مسارها للقرن الواحد والعشرين على الأقل، حيث لا يمكن أن تبتعد عن ذلك إلا إذا تشكلت ظروف غير طبيعية، ومن المحتمل أن تعيش من خلال توسيع الأنظمة الديمقراطية وتعميقها في الاتجاه المنتظر والمتوقع وبانحرافات طفيفة.

يحتل الشرق الأوسط وضعاً مميزاً في ظل هذا العالم ووفق منظور العصر، وإذا كنا قد أكدنا أن ذلك لا يمكن أن يتحقق ارتباطاً بالجغرافيا. فإذاً ما هي العوامل الأساسية التي تحدد هذا التمييز..؟، من الصواب البحث عن الجواب في التراث الثقافي، حيث إن التأثير المحتمل للجغرافيا لن يكون ذو معنى، إلا إذا وجد انعكاسه في الثقافة، حينها تصبح أهمية ظروف المحيط الخارجي في الدرجة الثانية بعد تشكل الثقافة، ويدخل عاملها المصيري إلى الديناميكيات الجوهرية، وهناك إجماع على أن تاريخ الحضارة هو تاريخ التراكمات والتطورات الثقافية، فتعريف الثقافة وموقعها الخاص في التطور الحضاري ينطوي على أهمية، ويتم تسليط الضوء على مكانة الشرق الأوسط في تاريخ الحضارة يوماً بعد يوم من خلال الأبحاث التي تجري بهذا الصدد، حيث منح العصر النيوليثي دور الولادة لهذه الجغرافية لما يقارب العشرة آلاف سنة، والأمر الذي لا يقبل النقاش هو أن جميع الحضارات مدينة للعصر النيوليثي، وتستند الحضارتان السومرية والمصرية واللتان تعتبران أولى الحضارات على الاختراعات النيوليثية في المنطقة التي نسميها بالهلال الخصيب.

حاولنا إظهار كيفية تأثير ذلك إلى يومنا هذا من خلال تفاعل تسلسلي في كافة فصول تقييماتنا هذه، كما حاولنا أن نبين بأن منطقة الشرق الأوسط قد دخلت في أزمة عميقة بين القرنين العاشر والخامس عشر بعد الميلاد، واستمرت الأزمة وتعمقت منذ تلك المرحلة. إن الانحلال في الشرق الأوسط لن يشبه الانحلال في أية منطقة أخرى من العالم نظراً لخصوصية المنطقة، هذه المنطقة

التي لعبت دوراً منجباً في تطور الإنسانية على مدى ما يقارب الـ 15 ألف سنة، فإنها ومع مرحلة التفسخ تستمد خصائصها المختلفة عن كافة بقاع العالم من هذه النوعية التاريخية الطويلة والمصيرية، بهذا المعنى فإن الشرق الأوسط يمثل شخصية متميزة، وإذا حاولنا تعريف ذلك بشمولية فأنها شخصية جعلت تطورها التاريخي ملكاً لكل البشرية، ولا يمكن قول نفس الشيء عن المناطق الأخرى في العالم.

فمثلاً إن الصين والهند وروسيا وأمريكا اللاتينية وحتى أوروبا وأتباعها، يمكن أن تبدّل أنظمة مختلفة لتحاول تطبيقها على هويتها كما يغير الشخص ملابسه، فذلك يعني أن الأنظمة الحضارية بالنسبة لهم كالملابس يجب تغييرها بين الحين والآخر، ولن يشكل تغييرها أية مشكلة عندما تصبح بالية أو يظهر ما هو أفضل منها، لأنها لم ترسخ تلك الأنظمة الحضارية في أعماقها. اما بالنسبة لشخصية الشرق الأوسط فالحضارة لا تشكل رداءاً وإنما بل هي الحياة ذاتها، وقد تلاحمت مع الحضارة التي عايشتها كتلاحم الظفر باللحم، وجسدتها حتى دخلت ضمن جيناتها الوراثية، لذا لا يمكن أن ترمي ما عاشته جانباً مثل الألبسة، إذ لم تشهد أية منطقة من العالم الوضع المذكور ولم ترسخه في ذاتها كما رسخها الشرق الأوسط. لقد خلقت الثقافة والتاريخ والحضارة والحياة في الشرق الأوسط، مجتمعات وشخصيات مميزة لا تشبه أي مكان آخر، فخلقت ثقافتها الزراعية التي يبلغ عمرها آلاف السنين مورثاتها الاجتماعية الخاصة بها، وعاشت أشكال الفكر الميثولوجي والديني آلاف السنين في الذاكرة الاجتماعية، كما أصبحت الدوغمائية والقدرية جزءاً لا يتجزأ من حياتها، ونام الفكر الأصيل الخلاّق فترة طويلة. وما وصل إليه اللاهوت هو فقط من أجل الإيمان دون شك كمحرمات مقدسة، ويعتبر الخروج عما تقوله الكتب المقدسة أكبر ذنب، حتى تحولت القصص التي كانت تروى كالأقاويل في عصر الميثولوجيات وأصبحت قواعد عقائدية صلبة؛ إلى دين وإله أسر تصورات الذين خلقوا الحضارة وأحلامهم وذكرياتهم.

لم يفهم البشر كيف وقعوا في أول أكبر حالة اغتراب في التاريخ، عندما أصبحوا أسرى لما خلقوه، حيث تكونت ثقافة وصلت إلى درجة جعلت من الخالق مخلوقاً والمخلوق خالقاً، وتم جعل ذلك موضوعاً أساسياً للفكر والإيمان، وحتى أنهم جعلوا العبودية لهذا النظام وعبادته أفضل هوية للإنسان، واعتبروا الشك بالمعبودات أكبر أثم يمكن أن يقترف، من جهة أخرى تم ولأول مرة تحويل الميثولوجيات الشعبية والعقائد إلى صفة إلهية لصالح الحكام وذلك بالقوة النابعة عن تشكل الدولة، لتصبح سلاحاً في يد الحكام. في الواقع يكون مجتمع الشرق الأوسط بذلك قد ضحى بنفسه باسم الإنسانية جمعاء عندما جعل نفسه أسيراً، وبعد تحويل ما خلقه إلى أضداد في كلا الساحتين المادية والمعنوية، إذ

خلقت هذه الحضارة التي نشأت على الاغتراب المذكور تأثيراً بالغاً في العصور الأولى والوسطى إلى درجة لا يمكن لأي منطقة من العالم أن تنجو منه، هذه هي الظاهرة التي نسميها بـ الشخصية التاريخية، ويمكن فهم ما جرى بشكل أفضل من عدة مقارنات، تتحقق شخصية وموت الأم عن طريق ما تلده. وتكبر الشجرة وتموت بعد أن ترمي بذورها في محيطها لتملأه بأشجار مماثلة، فالموت هو ضرورة للتكاثر. وإن شجرة ثقافة الشرق الأوسط ظاهرة من هذا النوع، إنها شجرة متجذرة؛ نشرت بذورها في أطراف العالم الأربعة، هذه الشجرة تشبه شجرة السنديان التي تريد أن تعيش بالتبرعم الزائد فوق جذورها كلما انقطع جذعها وأغصانها، حيث تعتبر من أولى أشجار الثقافة في الشرق الأوسط.

لقد فقدت ثقافة الشرق الأوسط أصالتها بعد دخولها في مرحلة الانهيار بين أعوام 1000 - 1500 م. والصواب أنها تشبه شجرة السنديان التي تم تدريجياً قص أغصانها وساقها حتى الجذور. وبمعنى آخر كأنها تحولت إلى مقبرة قديمة للإنسانية التي خلقتها، مقبرة كبيرة تماماً مثل الأهرامات والزيكورات..! إن ما يحدث منذ ما يقارب الألف سنة لا يعني سوى صمت الأموات، فليس لهذه الثقافة القدرة على خطو خطوة خلاّقة بسبب الترهل الكبير الذي نجم من كثرة الولادة، وعصر الحكم العثماني هو عبارة عن حراسة المقبرة، وكان دوره الرئيسي هو تحقيق موت جديد بشكل دائم والعيش على صداقاتها، أما الدين والآذان والصلوات المليئة بالحزن، فليس لها أي هدف سوى انها رسائل النداء من أجل الموت، فاصبح التخويف بالموت والإعداد له برسائل الجنة والجحيم، الشكل الحضاري للعصر الأخير، وتم ترك العلم والتقنية منذ زمن بعيد، ويتكرر المجتمع والسياسة كالقوالب الجامدة منذ الأزل، وكان يعتبر مثال الثور الذي يدير دولاب الماء قدراً وتعجز العقول عن التفكير بأي شكل آخر من المسير، إن تربع هذا الكم من الدوغمائية وشبكة القدرية المترسخة على حضارة كبيرة ومبدعة سيؤدي الى الأزمة والانهيار. هذه اللوحة تعبر عن واقع تشرح قصة الشرق الأوسط، واحتراق كل قصة حب في الشرق الأوسط وتحولها إلى رماد له علاقة بهذا الواقع.

منذ خمسة عشرة ألف سنة تقوم بدور الأم وتخلق كل شيء للإنسانية، ومن ثم تقع في وضع عبد لا حول له ولا قوة..! وتكون الوطن الذي خلقت فيه أولى الإلهات، وتخلق كل ما يلزم الإنسانية ثم يتم رميك في زاوية كقطعة قماش مستعملة..! تخلق جميع الآلهة والعظماء، ثم تصبح عبداً لا حول ولا قوة لك تجاه هذه الآلهة..! وتخلق جميع المهن التي تشبع العالم، وتبقى جائعاً فيما بعد..! وتبني البيوت في كل مكان، وتبقى بدون مأوى فيما بعد..! تكون شمعة تنير درب الجميع، ولا تنجو من الظلمة فيما بعد..! تكون صوتاً من أجل كل الناس وتؤلف الشعر والموسيقى، ثم تصبح صم بكم..! تخلق العلم والتقنية والاحترام

من أجل الجميع وتبقى جاهلاً فيما بعد..! تبنى القصور والخانات للجميع وتحتاج إلى شبر من الأرض فيما بعد..! فحضارة الشرق الأوسط هي اسم لهذا التناقض المأساوي والكبير، ويكمن سر احتراق الحب وتحويله إلى رماد في هذه التناقضات. تنمو على هذه القيم ومن ثم تتحول إلى قزم..! لا يمكن تطهير ذلك إلا بالاحتراق. تخلق لقاء الإله - الآلهة لأول مرة ومن ثم تصبح أحط رجل وامرأةً بموقع المتسولين، ولا يمكن أن يطهر ذلك إلا الاحتراق.

تبكي شعوب الشرق الأوسط كثيراً، بلا ريب لابد ان تبكي بعد فقدانها جميع القيم التي خلقتها. ففي الألفية الأخيرة بشكل خاص والشرق الأوسط يبكي على صمت الأموات، فإن الآذان والأغاني والآلات الموسيقية مفعمة بالحزن وتنادي بالموت، وكل ذلك ليس صدفة؛ لأنه يعبر عما جرى، ولو تم القيام بعكس ذلك لكانت ستعتبر بدون معنى. وبات مفهوماً بشكل أفضل لماذا لم يؤثر ما جرى في العالم على هذه المنطقة، فالذين تكون أسسهم وقبورهم كبيرة وعميقة لهذه الدرجة، لا يمكنهم أن يفهموا الآخرين. هم دائماً سكارى بدون شراب أو كالموتى عند ولادتهم. ولا يمكن العفو عن هكذا ماض، وسبب ذلك واضح، إذ لا يمكن ترك هذه الحضارة على هذا الشكل في أي مكان. فالذين يتركونها يرتكبون خيانة كبيرة، ولا يمكن العفو عن الذين يرتكبون هذه الخيانة،ان خيانة الحضارة شيء كبير وهناك الكثير ممن خانوها. لذلك فإن حركات الانتقام كثيرة وكبيرة، لكن ماذا بوسعها ان تنقذ..؟ متَ وأمت لن يؤدي ذلك سوى إلى توسيع المقابر؟! يتم سفك الدماء في الشرق الأوسط نتيجة الصراعات الدينية والأسرية و قضايا الشرف والممتلكات لأتفه الأسباب. فكل ذلك صحيح؛ بينما تكمن الخسارات والخيانات في أساس سفك الدماء، إذ إن الميراث الانتقامي ليس سهلاً، لأنه يمتد إلى ماض كهذا، يستمد منه أساسه. فكانت تسود الجرائم الناجمة عن العادات والتقاليد بكثرة. إن أساسها ايضاً هو التاريخ الملعون. لقد تم الاستيلاء على جميع قيم الحضارة وهتكت أعراضها كما هي في الكثير من الأمور، فهذه الحقيقة تجد تعبيرها في الفتاة والمرأة كرمز. أي إذا ما أصاب الرمز شيء ما حينها تعتبر القدسية الكبيرة قد تلطخت، وتكون عقوبتها قاسية جداً، ومن هذا التاريخ تستمد المأساة جذورها.

قبر داخل قبر، وعقدة فوق عقدة، هذا هو الشرق الأوسط، لا يتغير رغم تغير العالم، مجبر على ان يبقى كما هو. إنه شجرة سنديان يتضخم جذعها بشكل دائم، حتى وإن قلمت أغصانها يبقى جذعها ولا ينقطع الأمل من اخضرارها مجدداً. الشرق الأوسط هو ديار الأمل، حيث لم يبقَ في حوزته سواه. ففي الوقت الذي يكون التراث ساحقاً وعديم الرحمة يغدو الأمل كشجرة سنديان تنتظر التبرعم والاخضرار، وهكذا ظلت الحياة أملاً كبيراً، فعدم انسلاخه عن التراث نابع من قوته، لكن عدم تحديد نفسه يزيد من تفسخه. ففي

الوقت الذي تحدد جميع مناطق العالم مسار تطورها فإن محافظة الشرق الأوسط على خصائصه وأصالته يعود إلى التأثير العميق لماضيه الحضاري، وهذا الوضع ناتج عن عدم التجسيد الناجح للتطورات المعاصرة، حيث تدخل آثار الحضارة القديمة التي لا تزال موجودة في صراع مع الحضارة الحديثة أو بمعنى آخر تظهر ضرورة التركيبة الجديدة. أما بالنسبة للهند وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ناهيك عن تكوينها لتركيبة جديدة فإنها تتطور على أساس البنية الرأسمالية. إن مرحلة التجسيد سارية المفعول أكثر من المقاومة، كما إن الوضع في المناطق الأخرى من العالم أيضاً مشابه لهذا الوضع، ولا توجد أرضية ثقافية قوية تقتضي صراعاً أو تركيباً جديداً، وحتى لو كانت موجودة فانه يتم تذويبها أو تحويلها من قبل الثقافة المهيمنة الجديدة بسهولة، اما في الشرق الأوسط فلا يتم التحول أو الانصهار بسهولة، حيث تتخلى الطاقة الكامنة للإبداع بأهمية اكبر عوضاً عن قوة التراث الثقافي والتحول والانصهار السهل. ورغم بلوغ المشاكل الأثنية والدينية والقومية المتشابهة الى حل في كافة بقاع العالم بأي بوسائل مختلفة، الا ان الشرق الأوسط يظهر تمايزه في هذا الأمر أيضاً،فالمقاومة العنيدة للتمييز الثقافي العميق هي الحقيقة التي تكمن وراء عدم حل المشاكل بسبلٍ حضارية حديثة.

يجب ألا نقيم هذا الواقع بشكل سلبي، بل من الأصح أن نقيمه كإمكانية من أجل الخروج من الأزمة الرأسمالية التي أصبحت شاملة ودائمة، التناقض هنا يكمن في عدم تحديث التراث الثقافي في الشرق الأوسط عبر تحليل نفسه؛ إذ تحول بعض العوامل الداخلية والخارجية دون تفعيل القوة الكامنة، لكن الجذور القوية تمنع الاحتواء الخارجي، وتكون النتيجة تعمق المشكلة وتشابكها ودخولها في مأزق.

لقد تعمقت واستمرت هذه المرحلة بين عامي 1500 - 2000 م. وكان التوازن والتفوق حتى عام 1500 لصالح ثقافة الشرق الأوسط التي كان عمرها خمسة عشر ألف سنة، وأدى التفوق المادي والمعنوي في كافة مؤسسات البنية التحتية والفوقية للمجتمع إلى الثقة الزائدة بنفسها، حتى أعتقد أنه مركز العالم، ولم يكن يعتقد بإمكانية تطور عالم حضاري يتفوق عليه، إذ يعتبر نفسه العالم كله والآخرين غرباء وكفار. ولم تكف الخمسمائة سنة الماضية لتحطيم هذه الدوغمائية، إنه يرى تفوق الحضارة الغربية ويشعر بقوتها المادية والمعنوية لكنه لا يعترف بذلك بصدق ولا يحاول تجسيدها، وأصبح الفرز الطبقي الجديد الذي تشكل حول رأس المال مؤثراً هنا؛ حيث تم إدراك هذه التكوينات على أنها مصطنعة، فلا هو قادر على التعمق ومحاسبة أسسه التاريخية أو حتى رفضها، ولا على تحليلها ليجعل منها خامات لتركيب جديد لأنه يشكل امتداداً بسيطاً للخارج، بل حتى يمنع مثل هذه التكوينات من التحول إلى قوة محلية.

مازالت الحداثة الرأسمالية في الشرق الأوسط بعيدة عن أجراء حوار مع الثقافة المحلية، حيث تبقى كوكالة أجنبية. فالمجتمع يعيش قوالب العصر النيوليثي التي مضت عليها عشرة آلاف عام من ناحية، وليس بعيداً عن قوالب العبودية والإقطاعية بأوجه كثيرة. وعندما جاءت الرأسمالية والاشتراكية المشيدة وتراكمت فوق ذلك، تكونت مراحل أصبح من الصعب الخروج منها. وظهر وضع مضطرب ومتداخل، فلم تعد تيارات أو مؤسسات مؤثرة، وبات كل شيء على وشك السقوط، وهذه المرحلة هي من اكثر المراحل التي يتم الهرب منها، وبات من غير الممكن التمييز بين المواقف المترددة والخيانية وبين المواقف الأصيلة.

يجب إعطاء أهمية لأزمة وانهيار الشرق الأوسط، وأكبر خطأ اقترفته الحضارة الغربية هو عدم تقييمها لقوة هذه المنطقة والتي كانت أساساً لها بطريقة صحيحة وواقعية، فهي غالبا تمد بجذورها إلى الحضارة الإغريقية الرومانية فقط، إلا أن الحضارة الإغريقية الرومانية تشكل مرحلة من مراحل الشرق الأوسط، إنها لا تعط العصر النيوليثي الذي غذاها حقه و تتصرف بأنانية. هذا الخطأ يضع حاجزاً أمام قيام روابط ديالكتيكية ذات معنى مع الواقع الراهن، لأنه لم تمنح إمكانية القيام بحوار صحيح مع الماضي. ويبدو قيام رابط ديالكتيكي من أجل تحديد تركيب المستقبل ضرورياً بمقدار معرفة الماضي بشكل صحيح، فعندما نقبل أوروبا كأطروحة لا يمكن أن تكون ثقافة أمريكا أو روسيا أو الصين أو منطقة أخرى الأطروحة المضادة، فالأطروحة المضادة تنبع من نفس ساحة الأطروحة كما هو الأمر في الطبيعة، ويمكن أن تكون جميع مناطق العالم عدا الشرق الأوسط امتداداً لأطروحة أوروبا، ولكن لا يمكنها أن تكون أطروحتها المضادة؛ فإما أنها لا تمتلك الفروقات والتشابه في القوة الكامنة الضرورية من أجل ذلك، أو أنها بعيدة عن أن تكون أطروحة مضادة، وبالنتيجة تكون امتداداً أو إضافة. فمن أجل ان تكون أطروحة وأطروحة مضادة لبعضها البعض، يتطلب الأمر وحدة المصدر البدائي وهذا يتوفر في الشرق الأوسط.

التقييم المختصر الذي أجريناه يطرح هذا السؤال المؤلم: كيف يمكن أن نوصل الشرق الأوسط إلى حالة أطروحة مضادة..؟ لم تعط محاولات التقليد التي جربت عبر القرن العشرين بكامله نتائج ناجحة. ولم يتخلص المفهوم القومي والاشتراكية المشيدة كأطروحة للحضارة الغربية من موقعها في المنطقة كظواهر مصطنعة، حتى الإسلام الذي انهار منذ أمد وفقد شروحاته يشُبه هذه الأطروحة بتحميل الحمار كتباً وتجوله في سيارة، فهو يفتقر الى القوة التي تخلق الأطروحة المضادة، كذلك فمؤسسات الحضارة الديمقراطية بعيدة عن امتلاك الشروط التي يمكن تكيفها بسهولة بسبب وجود تقاليد المجتمع والدولة،حيث تتطلب مؤسسات الحضارة الديمقراطية حركة نهضة وثورة تنويرية وإصلاحات

دينية على الأقل. هذه المراحل التاريخية الرئيسية الثلاث لم تظهر في ثقافة الشرق الأوسط، لذلك فإن القول بأن المؤسسات الديمقراطية ستتطور بسهولة سيقودنا إلى الخطأ. إذ لا تستطيع هذه المؤسسات أن تلعب أي دور يختلف عن المؤسسات التي تم تركيبها من الخارج. كما إن واقع إسرائيل هو إضافي لم يتم احتوائه بعد، كذلك الأحزاب الليبرالية والشيوعية القائمة ما هي إلا عبارة عن أجزاء مضافة، تعيش الاغتراب في العمق مع الكيان التاريخي والثقافي. أما إحياء الإسلام من جديد فلا يؤدي إلى أي سبيل خلاّق سوى التذكير بالتاريخ، ويعتبر ذلك أفضل من النسيان.

يمكن تشبيه التدخلات المتعددة في الشرق الأوسط بمعالجة مريض في الغيبوبة بالأسبرين. ابتداءاً من التيارات الإسلامية إلى الأحزاب الشيوعية، ومن القومية إلى الليبرالية ومن الاتجاهات المقاومة المختلفة وحتى جميع أشكال الضغط على طراز إسرائيل، تم الإثبات بشكل واف أن كل هذه التيارات لم تستطع لعب دور أكثر من تأجيج ابسط المشاكل، وتبين هذه الحقيقة أن التشخيص والمعالجة بعيدة عن واقع البنية. فقد تم تكوين كيان مصطنع بمصطلحات مصطنعة، ومن ثم يعتقد أنه سيتم القيام بالعمل من خلال التشخيص والمعالجة. إن كل ما يوجد في الشرق الأوسط باسم الحداثة لا يتعدى كونه نموذجاً استعراضياً، فحتى المنطقة لا تعرف نفسها وتعيش جهالة سوداء وتغرباً عميقاً عن مسائل التاريخ، وغدا المجتمع كالخرسانة، وأصبحت مؤسسات السياسة والدولة تشكل ورماً سرطانياً، وكأن الروح المظلمة لكبريات المراحل تتجول، إذ يتم معايشة وضع تخريبي أكثر عمقاً وتفسخاً مما أحدثه المغول والآشوريون بأضعاف مضاعفة؛ وهكذا فالشرق الأوسط يشبه لغزاً غامضاً ومعادلة تضم مجاهيل كثيرة لم يتم حلها حتى الآن.

إن إمكانية تحليل الشرق الأوسط مرتبطة بإمكانية إقامة روابطه الصحيحة مع الحضارة الأوروبية، وتعطي هذه المسألة معناها الصحيح عند تناولها بتكامل ديالكتيكي، كما نرى من الضروري لأوروبا أن تبحث عن أسسها الحضارية في حضارة الشرق الأوسط وتحديدها بشكل صحيح، كذلك يجب على الشرق الأوسط الذي أصبحت قيمه الحضارية عبارة عن حطام ثقافي، ان يقوم بتعريف الحضارة الأوروبية بشكل صحيح لأجل تكوين أطروحته المضادة حسب هذه المرحلة. كما يجب التأكيد على أن التعريف لا يكفي أن يكون على شكل تجسيد أو تقليد، فما تم القيام به في القرنيين الماضيين لم يكن سوى تقليداً بسيطاً، ومع أنه لا مفر من مرحلة التقليد إلا أنها تشكل منهجاً تعليمياً مختلفاً وبدائياً على طراز القردة، ولا يوجد أي معنى لتكرار هذه المرحلة في يومنا هذا، وهكذا فإن تجاوز مرحلة التقليد بسرعة هو الشرط الأساسي لاحترام الذات وإعادة الاعتبار.

لازالت مرحلة تجسيد أوروبا مستمرة، إذ لا يمكن القول بان هناك مرحلة تجسيد سليمة، ويبدو أنها بتلك القدرة التي تمكنها من نجاحها وسيتجه الى التحول إلى أطروحة مضادة وتجسيدها بشكل متواز. فالنظر إلى التجسيد كمرحلة يمكن أن تعاش حتى النهاية، يعني عدم الاعتراف بالميراث والقوة الكبيرة لحضارة الشرق الأوسط. ولم تنجُ أية قوة إيديولوجية وسياسية وأخلاقية وفنية قامت بتجربة ذلك من الفشل، ولا يعود سببه إلى عدم القدرة أو قلة الجهود، بل إنه نابع من عدم معرفة الميراث الحضاري الموجود في أساسه والقوة التي شكلته، وعدم تقييم هذه القوة على أنها تتحلى بسمة قبول التقليد والتجسيد حتى النهاية.

هناك مسألة يجب ألا ننساها وهي أنه لا يمكن لعب دور يليق بالتاريخ دون اخذ التحول الشامل أساساً في الأعمال الاستراتيجية بعين الاعتبار، كما يجب على الحركات التاريخية التي تتطلع إلى لعب دور في الشرق الأوسط ، أن تعمل على تكوين أطروحتها المضادة مجتازة بذلك التقليد والتمثيل. ولن تنجو أية حركة من تخطيها ما لم تنجح في هذا الأمر، وبالإمكان تخطي ذلك من خلال القضاء على قوة المقاومة المتخلفة مع مرور الزمن، أو برفض التقليد من قبل التراث الثقافي، حيث أثبتت العلاقات مع أوروبا ولا سيما في القرنيين الماضيين صحة ذلك. فان مساعي التحديث السطحي خلال القرنين الماضيين تتعرض الى هزيمة تامة في يومنا الراهن، وفي النتيجة كان يجب استخلاص الدروس من ذلك، لكن من المعروف أنه لا يوجد لدى السفلة وقليلي الشرف قضية استنباط الدروس، أما الباقون فيعتبرون التمسك بالعشائرية التي كانت شكلاً من أشكال المقاومة قبل ألف عام وعياً وشرفاً، ولندع مسألة انهم لا يخجلون جانباً فهم يشعرون بالفخر بوضع أنفسهم في موقع الأبطال من خلال الدولة القومية التي تعتبر الشكل الحديث للعشائرية بدون خجل.

إلا أن العشائرية، والقومية كشكل حديث لها، تبقى بسيطة أمام قوة وتراث حضارة الشرق الأوسط الكبيرة وهي مرغمة على ذلك ولربما يوجد معنى تاريخي لمقاومة القبائل الصحراوية العمورية والهورية الجبلية ضد الحضارة السومرية، حيث أدت الى ظهور الملاحم العشائرية. وكذلك هنالك معنى أيضاً لمقاومة القبائل العبرية باسم الدين التوحيدي الجديد ضد نمرود وفرعون، حيث استطاعوا وضع الكتب المقدسة، وأظهروا القدرة على مساهمتهم في تكوين الأطروحة المضادة والتركيبة في التاريخ. لكن لا يوجد لمقاومة الحضارة الأوروبية استناداً على العشائرية والدينية والقومية أية خاصية لتكون أطروحة مضادة و تركيبة. وما يهدفون إليه هو التقليد الناجح كنمط متطور للتقليد والتحول إلى المحلية. ويمكن أن يجعلوا الآخرين يشعرون بها كأطروحة مضادة من خلال اطلاق اللحية ووضع الكوفية كالتزام بذكريات الماضي، لكن

ذلك لا يعبر سوى عن تحويل التقليد إلى تهريج. إن التجسيد الذي يكون ناجحاً في تحوله إلى محلية، لا يملك خاصية تخلق قوة جوهرية وأطروحة مضادة، لكن يمكن أن يدعي بأنه قد تعمق بالاقتباس والقيام بحقن القيم المحلية.

مازالت الملكية المطلقة والأنظمة الجمهورية بعيدة عن هذا النوع من التجسيد في هذا الجانب، ولا يمكن القول أنها أصبحت ملكية مطلقة أو أنظمة جمهورية بالمعنى الأوروبي، حيث لم تتخط الجمهورية الديمقراطية والعلمانية مستوى الكلام والديماغوجية. أما الحضارة الديمقراطية فمازالت بعيدة عن بلوغ معناها الاصطلاحي؛ فبتعميقهم للظواهر العشائرية والعائلية والقومية البدائية والشوفينية أخفوا مصالحهم الشخصية وجعلوا الشعب يتقبل ذلك عن طريق مناهج لا أخلاقية ولا يمكننا القول أن البنية الفوقية الحاكمة للمجتمع تقوم بمحاولات أو أعمال أصيلة فيما عدا ذلك، ويجب علينا التأكيد بأنهم مازالوا متخلفين ومتأخرين عن الأصالة العشائرية التي كانت سارية قبل أربعة آلاف سنة. أما السياسة الرسمية في الشرق الأوسط وبمؤسساتها الفوقية والتحتية فهي تمارس أشد أشكال القمع الرهيب لفرض التقليد والانحلال على الجماهير باسم الحداثة والتقدمية، بينما تجمع المزيد من الثروات بوسائل النهب الأكثر بدائية. ولا يمكننا القول أن الحكام لم يتلقوا الدروس من ماضيهم الحضاري، فعند الضرورة يرسلون بلحاهم ويرتدون أزياء تذكر بالماضي، ولإضفاء صبغة التحديث على الأنظمة المستبدة المتبقية من العصور العبودية والأنظمة الملكية من مفهوم السلطنات، لجؤوا الى صبغها بألوان أوربية. هناك من يسمي ذلك بإصلاحات وهناك من يسميه بالثورة. وفي الحقيقة ليس هناك ثورة أو اصلاح، بل هو ترسيخ للوضع المعاش. إن القيام باستيراد القطع والمسامير من أوروبا لا يمكن أن نسميه بثورة ثقافية، لنترك الثورة الثقافية جانباً، فإن الشرق الأوسط لم يتعرف حتى على الإصلاحات والإضافات التي تفرض من الخارج لا تسمى بالإصلاحات، بل يقال عنها احتلال وتحول إلى مستعمرات. ربما هناك تطور ما لكننا لا يمكن أن نسميه بثورة أو إصلاحات. ولم يتم تجاوز الاستعمار الجديد حتى في الدول التي عاشت تعمقاً كبيراً، لكن هناك اقتناع به كهدف.

ما يمكن قوله عن قيم حضارة الشرق الأوسط، مستخلص من أعمال التنقيب والبحث عن الآثار، ويمكن اعتبار ذلك نجاحاً للمستشرقين المعتمدين على الحضارة الأوروبية، ولكنهم كانوا ينفذون ويفسرون بشكل خاطئ ومحدود. ومازال العلم والتقنية بعيدين عن تجاوز مثال الكتب المحمولة على ظهر حمار. لقد بات جلياً انه بتقديم الموارد المادية و هدرها لا يمكن وضع بنيان اقتصادي بالمعنى الرأسمالي، لكن كما أكدنا سابقاً أن مواصلة استبدادية المؤسسات السياسية والسلطنة عبر الألاعيب وبأساليب حديثة هو الأساس، إذ تم جعل التأثير الخرساني لواقع المثيولوجيا القديمة والدين مسيطراً على العقول

إيديولوجياً، ومثلما لم يتعرض هذا التأثير للتحطيم، فإنه أخذ شكلاً أكثر خطورة بمزجه مع الفلسفة والعلم المعاصر. باختصار، فالتأثر من الحضارة الأوربية الذي ساد منذ القرنين الماضيين لم ينج من ان يكون افشل مثال شهده العالم. ويدل ذلك على عمق الجهل والفساد رغم توفر المصادر المادية والحضارة الغنية. مرة أخرى تتأكد الرؤية التالية: طالما لم يتحقق نمط العلاقات المستندة إلى الأطروحة المضادة والتركيب مع الحضارة الأوروبية. والذي يمكن أن يعطي طريقاً لحضارة الشرق الأوسط كضرورة ديالكتيكية للعصر، فإن الماضي العريق لن يتسامح مع الإقليمية والقومية الفاسدة.

يعتبر هذا الوضع أمراً متعلقاً بجوهر الحضارات، ويمكن للذين يستطيعون بناء روابط ديالكتيكية مستندة إلى تكوين الأطروحة المضادة والتركيبة في الشرق الأوسط عن طريق قيم الحضارة الأوروبية، أن يكتسبوا حق تشكيل قوة لحملة الانطلاقة التاريخية، ليس لأجل المنطقة فحسب، بل لأجل العالم برمته. هكذا كانت الأنطلاقات الكبيرة عبر التاريخ. إن كلكامش وسارغون وإبراهيم وموسى وزرادشت وسقراط وعيسى ومحمد وأنصار النهضة هم الأمثلة الأولى التي ترد إلى العقل. إذ تتضمن ثقافة الشرق الأوسط ثقافة عاشت هذا النوع من الأنطلاقات التاريخية والبدايات الحضارية أكثر من غيرها. فالتصاعد والتعاظم التاريخيان في هذه الثقافة حدثا على شكل حلقات متتالية، لكنها شهدت انقطاعا منذ أكثر من ألف سنة، وفاصل طويل كهذا أدى إلى حدوث التصدؤ والتفسخ.

السؤال الأساسي الذي يجب طرحه أيضاً هو: هل يمكن لكيان الشرق الأوسط التاريخي والثقافي المبني على الأنطلاقات الكبيرة أن ينتقل إلى المستقبل بإضافة حلقة حديثة وإحياء نفسه..؟ والأهم من ذلك هل يمكن أن يضيف حلقة جديدة للميراث المثيولوجي الذي أصبح الأمل المنقذ للإنسانية..؟ هل يستطيع أن يتوصل إلى قوة تمكنه من تكوين أطروحته المضادة وتركيبها دون الاكتفاء بتجسيد أوروبا..؟ فإما أن يقوم الشرق الأوسط بإضافة حلقة جديدة للانطلاقات التاريخية كي تشكل قوة لهذه المهمة، أو أنه لن يتخلص من اللعنة من الأعماق ولن يمنح التاريخ خياراً ثالثاً. فالتاريخ يقول " لن تكون كـ روسيا، الصين، الهند، وأمريكا الجديدة، باعتبارهم يشكلون محيط المركز، ينتظرون دائماً انطلاقة تاريخية جديدة، وهكذا رسم التاريخ قدرهم، أما قدرك فهو مسيرة حضارية كبيرة مبنية بانطلاقة قوية مثل تدفق النهرين العظيمين النيل والفرات، فيا أيها الولد اللعين والعديم الأصل، ان لم تصبح مثلهم لن اغفر لك". ويقول الشرق الأوسط الذي كان مرتعاً للآلهة:" يا أيها الزوج الخرف والعاجز، لن أكون معك سأحترق وأصبح رماداً لكنني لن أقاسمك خيانة الحياة " كموطن للآلهة يقول: "أيها الأقزام لن أقبلكم حتى عباداً لي، فأنتم ملعونون ولا تليقون إلا

بالاحتراق في نار جهنم". ويقول الفنانون الكبار:" إننا لن نغني ولن نعزف الموسيقى ولن نكتب الملاحم والشعر لأنكم قضيتم على جمال الروح للأدب والفن وخنتموه". ويقف جميع الفنانين الكبار أمام التاريخ ويقولون:" لن نغفر لكم".

تقول حضارة الشرق الأوسط ذلك بصمت وتقدم جواباً للضغوطات الخارجية بهزةٍ من كتفيها، تريد أن تشرح ذلك بعدم التحول واعتبار البقاء كالحجر شرفاً لها، وتنتقم بتعريض أولادها لجميع أنواع الهزائم وتركهم أمام مواقف سافلة لألف عام. هكذا يكون جوابها، قد توجد لها أجوبة أخرى مذهلة، فهي تخبئها للمستقبل، وتستعد لتقديم أجوبة لا تنتهي من جعبتها، وتقول:" يا أيها الجزء الملعون من التاريخ والحاضر المتقزم ماذا سيكون جوابك حيال هذه المواقف..؟ فان كنت شجاعاً و شريفا" فأنهض واستجب لها".

يمكن تطوير تقييمات شاملة حول مقاومة حضارة الشرق الأوسط ووقفتها الصامدة. باعتقادي سيكون ذلك كافياً من أجل لفت الانتباه. لنحاول الاقتراب إلى المسألة التي تحمل الأهمية، كيف ستدخل في علاقة الأطروحة المضادة والتركيب مع الحضارة الأوروبية..؟ لقد أجرينا تقييماً حول ولادة وتطور وانتشار الحضارة الأوروبية في العالم، وبخطوطها العريضة رأينا نتائج مواقفها الاستعمارية والصهر حيال الشرق الأوسط. إذا كانت الحياة في الشرق الأوسط ستستمر بمعنى وكبرياء في الجغرافيا التي خلقت الحضارة ورعتها، فإنها ستكتسب الصلاحية من خلال الإجابة على سؤال "كيف نعيش"، إذ لا يمكن تقديم إجابات صحيحة دون التعقل والتخلص من الأرواح المتصلبة التي أضحت عقدة مستعصية منذ مئات السنين.

علينا أن نوضح ما نقصده من قيام الشرق الأوسط بلعب دوره كطرف في الأطروحة المضادة والتركيب، فقد وصلت الحضارة الأوروبية منذ زمن إلى وضع تشكل فيه أطروحة قوية على كافة المستويات في كل مكان من العالم، وتقف قوية واثقة من أسسها العلمية وأطروحتها التجريبية ابتداءاً من الاقتصاد إلى الإيديولوجيا ومن الفن إلى السياسة ومن التقنية إلى التاريخ، ومازال الانتشار الكوني والمتمركز بعمق في العالم يتم عن طريق الاستيعاب؛ اما بالنسبة للشرق الأوسط فلم يتم تحقيق انتشار مشابه لهذا بأي شكل كان. وهنا توجد مقاومة، ولا يريد التاريخ الذي خلق أوروبا أن يستسلم للتقليد والتجسيد من طرف واحد، ويريد الميراث التاريخي الكبير أن يجعل نفسه طرحاً مضاداً وتركيباً ليتحول إلى قوة لبداية جديدة تليق بتاريخه. إن التحول إلى أطروحة مضادة في مواجهة أطروحة أوروبا لا يعني الرفض الفظ، فمثلاً ليس للانطلاقة الإسلامية أية قيمة كأطروحة مضادة، وحتى لو كانت تطمح بذلك فإنها لا تمتلك

القوة اللازمة، ناهيك عن ان تصبح المواقف من قبيل القومية أو الشيوعية القائمة أطروحة مضادة، فأنها لم تلعب دوراً أكثر من القيام بتقليد بسيط؛ إذ لم تبد مساهمة في خلق حركة تنويرية ولو بقدر المستشرقين. اما الذين يتعاون مع أوربا مباشرة، فلا يتعدون كونهم موظفين بسطاء وعملاء لها، لذا فإن مهمة التحول إلى أطروحة مضادة تنتظر التبني.

ما يجب تعريفه بالأطروحة المضادة هو كيف يمكن أن نحول الوجود الحضاري للشرق الأوسط مع مكونات الحضارة الأوروبية إلى أطروحة مضادة، بحيث تؤدي إلى انطلاقة جديدة..؟ وما هي الظاهرة المضادة أو الميزة التي يمكن استخلاصها من إقامة علاقة بين الحضارتين....؟ بإمكاننا تكوين الأطروحة المضادة للأطروحة الديالكتيكية التي تفتش عنها الإنسانية، دون الانحلال فيها أو رفضها بطريقة فجة، بل بالمساهمة من جانبنا بمقدار ما هو مطلوب. إن الدور هو ليس تكوين التركيب، بل يتضمن معنى الوصول إلى قوة تستطيع إنقاذ العالم من التصحر العام والمحافظة على موقعه الذي يمكن العيش فيه. وهناك خطر من أن يؤدي الانتشار من طرف واحد، أي العولمة والكونية المستندة إلى الأطروحة المضادة حتى ولو كانت على شكل ديمقراطي، إلى فاشية من نوع "إما الأسود أو الأبيض". وتنهض جميع مناطق العالم عدا الشرق الأوسط متفقة بما يجب القيام به في عملية التجسيد من أجل الاستسلام لهذه الأطروحة. وستكون نتيجة ذلك فاشية على الطراز الديمقراطي، أو تطوراً مشابهاً لذلك، وهذا أخطر شيء بالنسبة للإنسانية، فإذا حدث ما يقال فإن ذلك سيكون "نهاية التاريخ"، وعدم حدوث ذلك مرتبط بالأطروحة المضادة. إذ أن عدم تحول الاشتراكية المشيدة التي تمت تجربتها بقيادة الروس إلى أطروحة مضادة، أدى إلى استسلامها بانهيار سيئ ألحق الضرر بالبشرية. وكان يجب ألا تنتهي كل هذه المقاومات الرائعة والمقدسة والدماء المراقة، والآلام والآمال إلى هذه النتيجة، ويعود سبب ذلك إلى التحدث عن اليوتوبيا الشيوعية زيفاً دون النجاح في التحول إلى أطروحة مضادة. وهكذا نجد بأن كل خطأ يؤدي إلى الخيانة والاستسلام.

أكدنا مراراً أن الواقع التاريخي للشرق الأوسط لا يسمح بعملية تجسيد عادية، لأنه لا يمكن حتى لقيم أطلال حضارة الشرق الأوسط أن تعي نفسها دون أطروحة مضادة، وبذلك فإنه يمكن وضمن ظروف جديدة أن تتحول الروح الإنسانية الموجودة في طابع هذه الحضارة إلى أمل مجدداً، وأن القبول بأقل من ذلك هو بمثابة إنكار للذات، حيث هناك الكثير ممن جرب ذلك، وبات واضحاً بماذا فاد وجودهم. فالشرق الأوسط لا يقبل أيضاً بهذه الكيانات المصطنعة والثانوية، إذ أن معدته الثقافية لا تكتفي ولو أكل كل العالم فهو لا يأكل لأنه يريد أن يصبح قيمة، وهذا ما يقتضيه جوهره وطابعه. إذاً كيف له أن يصبح أطروحة

مضـادة..؟ نقدم بعض أفكارنـا بخطوطهـا العامـة بعمق ودون تحريـف وبشـكل جوهري كمهمة تقع على عاتقنا.

يعد تجديد الهويـة الإيديولوجيـة مهمـة تاريخيـة أولـى، إذ يجب توحيد حركة النهضة والإصلاح والتنوير التي لم تتحقق بعد في ثقافة الشرق الأوسط وتحقيقها كحركـة واحـدة. وستحدد التحـولات التـي ستجري فـي هـذه المجـالات الثلاثـة الهويـة الإيديولوجيـة الجديـدة. وهـذا يعنـي التحـول الأساسـي فـي المجـال الذهني والروحي.

لـم تسـتطع الحضـارة الأوروبيـة التمأسـس إلا بـالثورات الذهنيـة التـي استمرت من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، وآخر مرحلة وصلت إليها هي الحضارة المستندة إلى المؤسسات الديمقراطيـة، بينما لـم يجرؤ الشرق الأوسط بعد حتى للتعرف على تلك المصطلحات. لكننا يجب أن نتجاوز بعض الأخطاء في هذه المسألة، فاقتباس العلم والتقنية وإنشاء المصـانع وامتلاك بعض المؤسسات الديمقراطية لا يعني تحقيق النهضة أو الإصـلاحات أو التنـوير، لأنهـا تطورات منفصلة لا تمس الجوهر، ولا تعبر عن شيء سوى الجسم الذي يحمل الذهنيـة المعروفـة التـي تكونـت حـول الاستعمار والصـهر، ولا نـرى أي تطـور جـوهري عـدا ذاك المسـتوى الـذي وصـلت إليـه مرحلـة الاغتـراب فـي القـرنين الماضيين، ولا تمتلك التيارات الإسلامية التي تطورت كرد فعل أي معنـى سوى القومية التي غيرت لونها.

يمكن تحقيق الأصالة من خلال تحقيق الثـورة الذهنيـة الذاتيـة الثلاثيـة. وسيتم فهم عدم وجود أي حل سوى تحقيق هذه الثـورة فـي واقـع الشـرق الأوسـط حتى وان كان متأخراً. بعد التأكد من عدم وجود أي سبيل آخر، يجب أولاً توجيه ضربة إلى الميدان الديني لأجل القيام بثورة أخلاقية وذهنية في الشرق الأوسط، ونؤكد هنا بأنه لا علاقة لهذا الموقف بالعلمانية الرخيصة، فالمفهوم الذي يقتضي توجيه الضربة إليه هو العلمانيـة المزيفـة، وهـذا لـيس مرتبطـاً بالشـرائح المتدينـة فحسب، بل بتلك الكيانات القيمة التـي لـم تنصـهر بعـد فـي ثقافـة الشـرق الأوسـط. ولا علاقـة لذلك بإنكـار الـرب أو شـتم الجوامـع، بـل تـنص علـى أجـراء تحلـيلات علمية كاملة للتكوينات التاريخية لتلك الهويـات، ومـا يجب القيـام بـه هـو التحليـل الصـائب للكيانات الميثولوجية التي كانت تمثـل هويـة الكهنـة السـومريين؛ التفكيـر باللاهوت الـذي اكتسب طابعـاً مثيولوجيـاً أولاً ودينيـاً فيمـا بعـد والـذي كـان نتاجـاً لمرحلة الفرز الطبقي البدائي تحولت قدسيته إلى خامة للأدب التاريخي.

عمـل السـومريون علـى تغييـر ميثولـوجيتهم وأديـانهم باسـتمرار، ولـم يخشوا من تقليل عدد آلهتهم وتغيير نوعيتها وأسمائها؛ فتراث النبي إبراهيم الذي بدا وكأنه يتصارع مع آلهتـه توصـل فـي النهايـة إلـى قـرار هـو " (إل) أي الله "

(إسرائيل = المتصارع مع الله) ، وحوّل موسى ذلك إلى رب القوم. ورجع عيسى إلى مصطلح "الإله الثلاثي" من جديد، ووصل النبي محمد إلى مصطلح الله المدعم بـ99 صفة سلطوية بسبب حاجته إلى سلطة موحدة. يظهر هذا التكرار القصير أن الدين والآلهة كانا في تغيير مستمر دوماً، فالظروف الملموسة للمرحلة التي خلقت الإسلام تعبر عن وحدة الفكر الديني الموجود، أما أشكال العبادة فهي لا تحمل سوى معنى تدعيم الشخصية الجديدة، وقد تعرضت إلى تغييرات كبيرة فيما بعد، وشهدت المسيحية واليهودية ذات الجذور الواحدة تغييرات بشكل مستمر، وينظر إليهما في يومنا كمصدر أدبي وكقيم أخلاقية على الأغلب. إن إصلاحاتهما في الدين مستمرة وتتطور بريادة العلم، حتى بات جلياً مدى المكاسب التي حققتها من ذلك.

مازال تغيير كلمة واحدة في الإسلام والإرث المشابه له يعتبر ذنباً كبيراً. ويعتبر هذه مؤامرة من أجل أسر البنية الذهنية بشكل رهيب، ولم يكن الدين أداة تردي إلى هذه الدرجة في التاريخ حتى في عصر الأنبياء. فقد تم وضع الدين بشكله هذا في موقع متخلف وملعون بالنسبة إلى التاريخ تحت اسم القداسة، فلا حق لأية سلطة سياسية أو معنوية الحط من مستوى الدين إلى هذه الدرجة، كما لا يمكن التفكير بممارسة أخطر من ذلك من أجل تسميم وشل ذاكرة مجتمعاتهم. لقد عاشت مجتمعات الشرق الأوسط تأثير استمرار زيادة هذا الخطر ولا سيما في الألفية الأخيرة، ويأتي هذا التشكل الإيديولوجي الخطر الذي يأسر الذهن ويجمد التطور الروحي في مقدمة مصادر التخلف التي لا نشعر بها، ولم يتم التأكيد على مدى وكيفية شلها للمجتمع لأنه لم تجرِ دراسات بهذا الصدد، ولأن جميع السلطات المركزية والمحلية بما فيها الأكثر علمانية تستخدم هذا الأمر كوسيلة سهلة للاستغلال.

تعرض الإسلام في مرحلة الظهور والانتشار إلى الإصلاحات الضرورية؛ فشيعة إيران وعلوية الكرد وبكداشية ومولوية الأتراك وعدة طرق ومذاهب دينية أخرى هي إصلاحات طرأت على الدين الإسلامي، فقد تم تجميد هذه المرحلة في أعوام 1100 م، ووصلت إلى يومنا هذا بشكل أكثر صلابة على أساس التماثل مع الوضع الراهن، فلا تنبع خطورتها من درجة صحتها أو خطأها، بل من إيقافها للتفكير الحر وإلغائها للفردية، إذ لا يمكن للإنسان الذي لا يتصور العيش الفردي ولا يفكر بشكل حر أن يخلق أي شيء، و هكذا تعتبر مصادر حياة المجتمعات المتشكلة من هذا الفرد ميتة. إن أكبر فاجعة بالنسبة لمجتمعات الشرق الأوسط هي وجود هذا الوضع واستمراره بشكل قوي جداً ويمكن أن يستفيد من هذا الوضع جميع الاستبداديين في الداخل والخارج، ولن يتخلص المجتمع والدولة من الفقر المستمر والقحط لأنه فقد قيمه الخلاّقة.

لذلك ومن أجل الوصول إلى نتيجة حول الإصلاحات الدينية التي تم تأخيرها ولفتح الطريق أمام الفرد الحر، يجب تحقيق الحملة التي تحل الدوغمائية الدينية، وذلك عبر تقييم جميع الكتب المقدسة كمصادر أدبية وعبر التحول إلى أخلاق حرة عن طريق تحليلات اجتماعية وأخلاقية. حيث يجب إخراجها من كونها عقيدة مفروضة على الفرد، كما يجب تطوير حلول عميقة على أساس علاقتها بالمسائل التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والاستغلال والعلم والحرية والتقدم والرجعية والمادية الديالكتيكية والمثالية الميتافيزيقية والأخلاقية وما شابه ذلك، بحيث يتمكن الشعب من فهم الكتب المقدسة وملاحقها بدلاً من أشكال العبادة المتعلقة بها، ويجب تطوير تفاسير الآيات والسنة على هذا الأساس.

إننا لا نقصد بذلك الدور الذي تقوم به الأنظمة التي تروج الدعاية الجافة للنظام، بل إننا نقصد إصلاحات جذرية تستطيع الجوامع والمراكز المشابهة لها أن تلعب دور مراكز العلم والفن للمنطقة الموجودة فيها، ويمكن إجراء تمثيليات مسرحية أصيلة، كما يجب ألا يغيب عن بالنا أن الصلاة بحد ذاتها تعتبر من أولى التمثيليات الدرامية التي تكون فيما بعد، كما أنها بالمعنى العام تعتبر مسرحية. وعدم تحريف أقوالنا هذه بطريقة سفسطائية يتحلى بأهمية بالغة. أعيد وأكرر بأنه يجب البحث عن مصادر الصوم والصلاة والأعياد والأضاحي، وسنرى عند ذلك أن جذورها ترجع إلى العروض التي تقوم بها الشعوب في بعض الفصول الهامة؛ فالعبادات هي الشكل المتطور عن الأشكال البدائية للعروض والمسرحيات ((الدراما- الكوميديا- التراجيديا)) وذلك حسب الحاجة. ويجب تحويلها إلى أشكال تترك الذهن حراً وتجعل فهم التاريخ عميقاً وتوصلنا إلى تذوق الفن وتجعل الأخلاق المفيدة ممكنة، وذلك مع أخذ احتياجات عصرنا بعين الاعتبار. فيجب تحويل الصلاة والصوم والأضاحي ومراسيم الدعاء والتي تعتبر من تدابير التحول الاجتماعي ربما يلائم المرحلة، حينها تكون قد تحققت وبشكل أفضل المعاني الموجودة في مصادر الأديان منذ ولادتها، وأفضل طريقة لذلك هي جعل الأماكن المقدسة وفي مقدمتها الجوامع أكاديميات ومسارح للفنون يتعلم فيها الشعب. ويجب أن يعطي العلماء والفنانون والعرّافون دروساً في هذه المراكز كي لا يتركوا الشعب جاهلاً.

يجب اتخاذ إجراءات مشابهة من أجل أشكال العبادات الأخرى. فمن المفيد إنشاء صندوق لمساعدة الفقراء بدلاً من الأضاحي التي اتخذت شكلاً وحشياً، كما يجب ممارسة الصوم بشكل محدود من أجل تربية النفس، وبالنتيجة يجب تعديل جميع أشكال العبادات حسب متطلبات العصر. قد يتساءل البعض "أين بقي الله؟" أقول لهم منذ البداية: لقد تطور باستمرار مع التطور الاجتماعي كـ هويات فكرية لتصورات الكهنة السومريين. إن "أل" إبراهيم هو قبيلته التي

يجب أن تقوى، و"يهوا" موسى هو القوم اليهودي الإسرائيلي الذي يجب أن يتوحد. أما رب عيسى فهو تركيب الدين والوجدان البدائي للمضطهدين في ذلك العصر، ويعبر رب محمد "الله" عن الحاجة الى القوة من خلال توحيد القبائل الرئيسية، وهو تصور مشترك للقبائل البدوية وقوة القبائل العربية الموحدة. ولم تتردد أياً من المجتمعات عن تصور إلهها الجديد كلما قويت، هذا هو الواقع التاريخي والاجتماعي؛ أما إله يومنا هذا فهو جوهر العلم حيث غدا الله يمثل كل شيء فيوظف نفسه بنفسه على أساس الديالكتيك الكوني، يتعرض ويعرض للتغيير إلى ما لانهاية، هل يمكن التفكير بفكر إلهي أسمى من ذلك..؟

يجب تحطيم اليوتوبيا التي لا أساس لها والمتسلطة على البنية الذهنية للشرق الأوسط ، كما يجب التخلي عن التصورات اليوتوبية على شاكلة الأبيض والأسود، الجنة والجحيم والصراط المستقيم ويوم الحشر وانتظار المهدي والشعب المختار، فكل هذه تعتبر من خلق كهنة سومر ومصر. إن تحويل الأنانية إلى مثالية لهذه الدرجة تؤدي إلى أشكال استغلالية وقمعية لا مثيل لها، وتصبح قوة اليوتوبيا وسيلة بيد الأقوياء كالقوة الدوغمائية. إن اليوتوبيا المتعلقة بالأبدية والتي لا يوجد لها أي احتمال للتحقيق علمياً تجعل الذهن أسيراً وخاملاً، وإذا كانت تستند إلى أساس ديني فإن تأثيرها يصبح أكثر جموداً، وبقدر ضرورة المشاريع والأفكار المستندة الى أرضية علمية تقنية، فإن المشاريع والأفكار التي لا تستند إلى أسس علمية هي خطيرة وغير ضرورية، ولا يمكن تحقيق ثورة النهضة دون تحطيم التخلف الدوغمائي واليوتوبي القوي في ثقافة الشرق الأوسط. إن جعل التصورات المتطورة على أساس الظروف التي تجعل عدم المساواة في المجتمع قسرية، والتي هي في الأصل نتاج التخلف العلمي والتقني منذ آلاف السنين، موضوع عبادة وشيئاً مقدساً لا يفهم معناه هو أخطر مرض مجتمعي وفردي.

قبل كل شيء يجب ألا ننتظر عودة المعرفة والوجدان الروح إلى رشدها دون تجاوز هذا المرض. فثقافة مجتمع تقتل فيه فتاة عمرها خمس عشرة سنة لكونها أحبت شاباً هي ثقافة مريضة بشكل رهيب، ويجب ألا ننسى أنه يتم قتل جميع ساحات الحياة بهذه الطريقة. إن عجز هذه الثقافة والتربة التي كونت تصورات الآلهة والربات فيما مضى بشكل دائم عن تحقيق التحول الخلاق اللازم، أدى إلى ظهور بلد مسكين متصحر جاف واجرد، وليس بإمكانه خلق تصورات جديدة؛ لا يقدم إلهاماً ولا يخلق شعراً ولا يطور عشقاً لأنه أصبح مستحاثة منذ زمن بعيد، وجف على يد الدوغمائيات واليوتوبيا، وتم تجميده ليتحول إلى أراضٍ جرداء؛ فثورة النهضة تعني استنبات هذه الأرض من جديد وجعلها مصدر إلهام للعشق الكبير وللملاحم الجديدة وإيقاظها بأحلام الجنة الجديدة والواقعية، وتعني أيضاً فتح الطريق أمام الذهنية التي تجمدت والروح

التي جفت، والوجدان الذي تصلب وانحرف، وإعادة عواطف العدالة المفقودة، وخلق ذاته من جديد كل يوم. كما إن الأرضية ملائمة من أجل الذهنية العلمية، ويمكن أخذ أشياء كثيرة من المكتسبات الأوروبية، فالتقنية جاهزة أيضاً ويمكن تأمينها بسهولة، حيث تحدد هذه الوقائع قوة ومدى فرص النهضة الشرق أوسطية. وفي حال تحليل الدوغمائيات القديمة وتصورات المستقبل على أسس علمية، سيصبح التاريخ شلالاً من جديد وسيتدفق بغزارة نحو المستقبل، وسيتحول الأمل عند ذلك إلى قوة جارفة كالسيل.

لقد تشكلت تراكمات قوية من خلال التنوير العلمي، وما ينقصها هو توجيهها نحو التاريخ والواقع، حينها ستحصل الذهنية العلمية والتاريخ على شرح غني، سيؤدي إلى تحليل حاضرنا وإحيائه لحظة بلحظة، ويكفي تحليل إنسان واحد لفهم وتحليل العالم. ان إمكانية ارتقاء مكان ما مرهونة بدرجة الانحطاط الموجود فيه. وبقدر ما يكون الظلام حالكاً يكون النور قريباً. ويجب أن نكون منتقدين لكل شيء لكن دون أن نفقد الأمل بالوصول الى الحقيقة، ويجب أن نتخلى عن الأنانية المتفسخة وعشائريتها وأسريتها وزوجها وزوجتها وقوميتها ودينها، وأن نرجع إلى المفهوم الإنساني الكبير والغنى الذي يرى الفرد في الجماعة والجماعة في الفرد،فلا داعي لأخذ المفهوم الإنساني من الخارج، إن أعظم غنى موجود في هذه التربة هو إنسانيتها، حيث يجب أن ندفع هذه الإنسانية للنهوض، وان نمهد طريق العشق الكبير من جديد، ونتوب ألف مرة عن نظرياتها الإلهية و ممارساتها المقدسة، وإن نسعى إلى أحيائها من خلال معرفة درجة ارتباطها بالقيم الحضارية والإنسانية والأرض ومعرفة معنى الصدق الكبير، كما يجب علينا بعث أمثال ليلى ومجنون، وكرم وأصلي، وفرهاد وشيرين من قبورهم، لنرى وصولهم إلى قوة الحياة من حيث تخلوا فيه عن عشقهم.

لنعد إلى الأقدمين إلى كلكامش ليستيقظ ويرى أن حضارته لم تمت وان أنكيدو لم يمت ومازال حياً، وأن نبين له أن عشق إنانا لم ينته. وليستيقظ جميع الأنبياء لنبد لهم قدرة إبداع أديانهم ومدى رفع شأن الإنسانية.

ليستيقظ ابن رشد وابن سينا والكندي ورفاقهم، ليروا مساهماتهم التي قدموها بجهودٍ كبيرة للعلم، حينها ستتشبع أذهانهم برؤيتهم لمدى تطور العلم، ويجب أن يستيقظ كاوا الحداد ومنصور الحلاج والسهر وردي والبابكي والمزدكي ورفاقهم ليروا أن المقاومات والبطولات والمآسي الكبرى لم تذهب هدراً، وأن هناك أناساً يحكمون بما يليق بهم.

إن ذلك ليس عبارة عن خيال رخيص بل عظَمةً تاريخية كبيرة، كان علينا استنهاضها مع حركة نهضتنا منذ زمن طويل. كما يجب إعادة إحياء

تاريخنا منذ بدايته بالأدب الحديث، والأهم من ذلك لا بد من بحث ودراسة آداب العصر النيوليثي ولا سيما المجتمع الأمومي الذي يعتبر القوة الخلاقة لكل شيء، والأم الربة وروحها وذهنيتها وخيالاتها وآمالها، فما الذي يمكننا القيام به بدونها، فبدونها لسنا سوى العدم. إن إحياء وتسليط الضوء بلغة أدبية حديثة في الشرق الأوسط على المصطلحات الميثولوجية والدين والمذاهب والطرائق والسلالات والعشائر والأمراء والغلمان والعبيد والإله والربة، والشيخ والرئيس والسيد والأم والأب والطفل والحداد والفرس والسيف والمحراث والفأس والمعدن، والنهب والحرب والعشق والنبوة والكاهن والمتصوف والعلاّمة والخائن والسافل والشرف والناموس والقدسية والقدر والأمل والعيد والموت والربيع والشتاء والصيف والجبل والنهر والصحراء، والطريق والجمل والكلب والحمار والثور والعنزة والخروف والبقرة والقطيع والراعي والفلاح، والكاتب والسلطان والأمير والجندي والقائد والعالم، والجمال والقبح...الخ، هي من المهام الفنية والعلمية لثورة النهضة. إن ذهنية العلم والأدب الموجودة منسلخة عن الواقع التاريخي والاجتماعي للشرق الأوسط؛ وتعبر عن الآراء الاختيارية والفنتازيا غير المنظمة التي لا أساس لها، ولها علاقة بالأشخاص والمجموعات المحتواة من قبل الاستعمار. والبنية الذهنية للمجتمع لازالت مشلولة، كما إن الآداب ذات البنية الدوغمائية التي أدت إلى ذلك ما هي الا مديح لا معنى له. فحركة النهضة في الآداب هي أساس ميلاد الشخصية الحرة، لأنه لا يكفي التخلص من الحلم الدوغمائي الذي لا أساس له وحسب، بل يجب إكمال ذلك عن طريق إحياء الآداب وتأثيراتها.

ما ينتج من الخلاصة ليس ديناً جديداً، بل إيصال الدين إلى الموقع الذي يليق به، عن طريق اختزاله إلى الأخلاق، وسيخلق بذلك الوجدان العادل الحر. ولن يهتم بمجالات العلم كثيراً، وسيترك ذلك للفلسفة. فالمشكلة بالنسبة للفلسفة والعلم ليست تكوينهما من جديد، بل سيظهران القوة التنويرية اللازمة من أجل أن يحكما الذهنية الخلاقة والحرة، وذلك بتوحيدهما مع المعرفة التاريخية. وسيصل تاريخ العالم العام والذهنية الإنسانية إلى تنور أكثر تطوراً عند تكامل المكتسبات العلمية والفلسفية الأوروبية مع الواقع التاريخي للشرق الأوسط، وهذا ما يعنيه تطور الأطروحة المضادة. إذاً فشرق أوسط يفكر بذاته هو عبارة عن أطروحة مضادة، ولا يمكنه إظهار هذه القوة إلا عن طريق نشر ثورة النهضة والتنوير، إذ لا تكفي محاولات بعض الأشخاص أو المجموعات لأجل ذلك، فظهور مبدعين من كل مجموعة ثقافية وقومية وتأثيرهم على مجتمعاتهم، يعني النهضة والتنوير للمنطقة.

أ- الخاصية الواضحة لهذه المرحلة هي بروز الفرد والمتنور الحقيقي، ومازال ميلاد هذه الظواهر بعيد عن الشرق الأوسط، فالتحول إلى فرد ومتنور

أصعب من التحول إلى حزب أو حزب معارض، وتطور الشخصانية يعني ظهور المجتمع الحر؛ حيث يمكن لفرد مثقف أن يمثل مجتمعاً أو أمة في بعض الأحيان، بينما لا تمنح ثقافة الجماعة والعشيرة والعبد فرصة لتطور كهذا بسهولة. وعندما يعطى الفرد والمثقف حق مسيرته، حينها يحقق الاتجاه الذي ستتابعه المجتمعات لمئات السنين؛ ويكون بذلك قد قام بعمل لا يمكن أن تحققه عدة حروب وأحزاب. يجب أن نذكر دائماً أن الفنانين والأنبياء والفلاسفة والعلاّمون هم مسيرة نهضة وثقافة المرحلة التي عاشوا فيها، والمجتمع الذي لا يمتلك مثقفين يشبه القافلة التي لا مرشد لها، وقد تبتعد عن الهدف لمئات السنين عندما تضل السبيل، وهكذا تكتسب الثورة النهضوية والتنويرية أهمية لا يمكن التخلي عنها بالنسبة للمجتمعات، لأنها تخلق الأشخاص المتنورين من جهة ويخلقها المتنورون من جهة أخرى. ويحتاج كل من يدخل الطريق حديثاً إلى دليل ورائد ولا سيما المجتمعات والثقافات التي تستيقظ حديثاً، وتحتاج المراحل التي تعاش الى هذه الأمثلة الشخصانية أكثر مما يعتقد.

الشخصانية تعني الفرد الذي يصل إلى قوة يحقق بها ذاته في المجتمع، ويحقق المجتمع في ذاته أكثر من أن يكون محصوراً بالتفكير بنفسه. ولا يمكن تسمية المغرم بنفسه والذي يلهث وراء مصالحه بالفرد. كما لا يمكن لذوي المصالح الأنانية والبسيطة أن يمثلوا الأفراد في أي وقت من الأوقات، كذلك تتطور مختلف الفنون وتحصل على ميلادها عند تكوين الفرد؛ فالفرد والفن متلازمان وعندما يكون أحدهما موجوداً يلحق به الآخر. الفن يعني إنشاء أجنحة للذهن والروح، ويتحقق التحليق بدلاً من المشي. إذاً فالتحليق بالنسبة للمجتمع أو للحضارة يعني الحصول على القوة الجوهرية والسير نحو المجد.

يمكن أجراء تقييمات شاملة من أجل النهضة والإصلاحات والتنوير في الشرق الأوسط. لكنها كافية للفهم كي ندخل في الموضوع. إن التفكير بجذور الذات بشكل واقعي واتخاذ قرار حر حول الأسئلة "كيف نكون، وكيف نعيش..؟"، وعن كيفية إظهار القوة اللازمة من أجل ذلك العيش تشكل أساساً من أجل الذين يطمحون بأن يكونوا أطروحة وأطروحة مضادة. والنجاح في ذلك يعني السير بنجاح في طريق النهضة وتنوير الإنسانية، ولا يمكن للحضارة الأوروبية أن تؤدي إلى تركيب جديد، بمعنى حضارة جديدة بمفردها، دون خلق الأطروحة المضادة في الشرق الأوسط حتى لو كان ذلك متأخراً. حيث كانت الحضارة الرومانية الإغريقية الأطروحة المضادة للشرق الأوسط، وكانت تركيبة الحضارة الأوروبية نتاجاً للأطروحة والأطروحة المضادة للاثنتين. أما الأطروحة الحالية فهي الحضارة الأوروبية، وستتكون الأطروحة المضادة في الشرق الأوسط من خلال ثورة النهضة، وستكون الوحدة الديالكتيكية لكلتيهما هي التركيبة الجديدة للعالم. هكذا كان الديالكتيك التاريخي دائماً، ويمكن أن تؤدي

ترجمة أغانيه على أساس الوحدة الديالكتيكية إلى بدء انطلاقة تاريخية.

ب ـ الظاهرة الأساسية الأخرى التي يجب معايشتها بشكل متداخل مع التنوير والميلاد الجديد في الشرق الأوسط أو طرح الحضارة الأوروبية، هو مشروع الحضارة الديمقراطية، ولن نخوض في تفاصيل موضوع الحضارة الديمقراطية لأنه تم الوقوف عندها بشكل شامل، لكن ضبطها في الشرق الأوسط وتكوينها لأطروحتها المضادة تشكل مشكلة شاملة أكبر، ومع أن التجدد الذهني والروحي أساس لذلك، إلا أن هناك مسافة بينها وبين المجتمع والدولة، ويتم تحقيق ذلك خارج نطاقهما، وتأخذ في شموليتها الفرد والنوعي. بشكل قليل، أما أطروحة الحضارة الديمقراطية فتتخذ الدولة والمجتمع أساساً لها وهي مضطرة للمحاسبة مع كليهما.

لم يدرج الجواب الذي سيقدمه الشرق الأوسط بصدد الأطروحة الأوروبية على جدول الأعمال حتى ولو على مستوى النقاش.

إن فشل جواب الاشتراكية المشيدة قد أزم الوضع من جهة، وأعاق سبل الخيارات من جهة أخرى. في الواقع ان الرافد الأوروبي للحضارة الديمقراطية يمثل اليمين، بقول أصح إن الحضارة الأوروبية تشكل الجناح اليميني للحضارة الديمقراطية التي تجاوزتها، وهذا ناجم عن قوة الرأسمالية إذ لا تنسلخ أوروبا عن اليمين كأكبر مركز كلاسيكي للرأسمالية في يومنا الراهن ولن تستطيع التقدم أكثر من ذلك، فهي إن تراجعت ستتجه نحو الفاشية، وإن تقدمت فستتجه نحو الاشتراكية، ومن هذا المنطلق فإن اليمين هو أكثرها عقلانية، ومن غير المحتمل أن تملأ الدول المسماة بالنامية هذا الفراغ، وإذا استطاعت أن تكون امتداداً لها، فإن ذلك يعتبر نجاحاً بالنسبة لها، ولا توجد مشكلة بالنسبة للصين والدول المشابهة لها بهذا الصدد.

لا يمكن للشرق الأوسط أن يصبح أطروحة مضادة إلا بعد ترسيخ المرحلة الديمقراطية في المجالين الاجتماعي والسياسي، والقيام بذلك عن طريق الإصلاح أو الثورة، يجب ألا يغير الجوهر. كما ان دمقرطة المجتمع هي مسألة عاجلة جداً، حيث تلعب المرأة والشبيبة دوراً طليعياً في ذلك، كما شوهد في كل الحركات الجماهيرية الثورية، فهاتين القوتين هما في موقع أقوى العناصر الديمقراطية.

للمرأة دور خاص في النهضة الديمقراطية للشرق الأوسط، فهي لا تليق بنفسها وبأي شكل كان الانتقاص من شأنها من قبل المجتمع الطبقي باعتبارها القوة الخالقة للعصر النيوليثي، ونظرت بشك دائم لسيادة الرجل. وأدركت تماماً بأنها مسلوبة الحقوق وعجزها يسبب لها آلاماً عميقة، وبان

الوضع الذي آلت إليه لا يليق بها، وفي الواقع انها تؤيد ثقافة الربات في الخفاء، ولم تؤمن بالآلهة الذكور بشكل جاد، وهي تعي ايضاً بأنها موجودة في فراغ دائم، وتشعر بالألم والغضب لأنها لم تتلق الحب والاحترام الذي تستحقه، ولم تعف مطلقاً عن إيقاعها في وضع تحتاج فيه للرجل إلى هذه الدرجة، بل والأكثر من ذلك هي إنها لم تعف عن نفسها، وتعي بأن الرجل بعيد عن المحبة وتدرك بأنه خشن ولا أخلاقي و يفتقر لقوة العشق. إن وقوع المرأة كضحية للتناقضات إلى هذه الدرجة لم يتركها جاهلة كما يعتقد، بل قربها إلى أن تكون علاّمة، وعندما تؤمن بشيء فلا توجد قوة أخرى تعلو على قوة التزامها، وتعتبر جميع النساء بشكل عام ونساء الشرق الأوسط بشكل خاص، القوة العملية والحية للمجتمع الديمقراطي بسبب خصائصهن المذكورة.

يمكن أن يتحقق النصر النهائي للمجتمع الديمقراطي بالمرأة، وإن الشعوب والنساء التي تم إذلالها أمام المجتمع الطبقي منذ العصر النيوليثي تنتقم من التاريخ كأصحاب حق حقيقيين في الحملة الديمقراطية، وكذلك تشكل الأطروحة المضادة اللازمة من خلال وقوفها في يسار الحضارة الديمقراطية المتصاعدة، وتشكل السند الاجتماعي المتين في طريق الوصول إلى مجتمع المساواة والحرية، إن تحول دمقرطة المجتمع إلى أطروحة مضادة في الشرق الأوسط سيتحقق بفضل المرأة والشبيبة على الأغلب، حيث تعتبر يقظة المرأة واتخاذها مكانة في الساحة التاريخية كقوة طليعية للمجتمع، بمثابة الأطروحة المضادة، فعالم المرأة ووعيها ووجدانها وحبها وحمايتها لكل ذلك مرشح لخلق قيم حضارية مميزة، كما ان تطور الحضارة تحت سيادة الرجل كمطلب لطابعه الطبقي جعلها بموقع الأطروحة المضادة القوية بهذا الاتجاه، إن تجاوز التمايزات الطبقية للمجتمع والقضاء على فوقية الرجل هي بمثابة تركيبة أكثر من كونها أطروحة مضادة، لذلك يحمل الموقع الطليعي للمرأة في تحول مجتمع الشرق الأوسط إلى مجتمع ديمقراطي، خصائص تاريخية لموقع الأطروحة المضادة (وهي ناتجة من شرق اوسطيتها) في العالم والتركيبة أيضاً.

يشبه دور الشبيبة دور المرأة إلى حد ما، فهي تدرك العالم الحديث بسرعة وتشعر بغضب كبير تجاه الواقع الذي أسقطت فيه نتيجة واقع الشرق الاوسط، وتدفع تقنية المعلوماتية والاتصال بالشبيبة إلى التوعية السريعة، وحتى الأطفال يأخذون موقع القوة الديمقراطية السريعة لأنهم شبيبة الشبيبة، وبسبب الملل الذي أصاب مجتمع الشرق الأوسط من العشائرية والقومية والأزمات التي أدت إليها، ونظراً للأثر الثقافي التاريخي المشترك، جعلت هذا المجتمع أقرب إلى الديمقراطية في جوهر واقعه، حيث يعتبر الشرق الأوسط الديمقراطي هو الأنسب لتاريخ شعوبه وواقعها الاجتماعي، وإن التداخل الجغرافي والثقافي، والحاجات الاقتصادية والمواصلات، والموارد المائية يجعل الفيدرالية

الديمقراطية المشتركة أفضل بديل في المنطقة، علماً بأن الماضي التاريخي للشرق الأوسط يتحلى بصفة فيدرالية للشعوب والقبائل. يستخلص من هذه الأقوال بأن الفيدرالية تشكل النظام الأنسب للنسيج الاجتماعي في الشرق الأوسط، ويعتبر المجتمع الديمقراطي هو النظام الذي ينسجم أكثر من غيره مع آمال وتطلعات شعوب الشرق الأوسط التاريخية.

تشكل الشعوب قوة ديمقراطية راديكالية مع جميع ضروراتها التاريخية والاجتماعية، وتكوّن بمواقعها هذه الحقيقة الدنيوية الأقرب لتكوين أطروحة مضادة في الجناح اليساري للحضارة الديمقراطية، تحتل الشعوب مع نسائها الموقع الأكثر طموحاً للخيار الديمقراطي في الشرق الأوسط لتشكيل الأطروحة المضادة التي تحتاجها الحضارة الأوربية كثيراً، فطبيعة حقائقها هي التي تخلق هذه الأطروحة المضادة، فهذه الوحدة الديالكتيكية التي تشكل الجانب اليساري واليميني والأطروحة والأطروحة المضادة لمركزي الحضارة القويتين، أمام مهمة تاريخية للبدء بالعمل لصالح الانطلاقة من أجل تركيبة إنسانية جديدة مرة أخرى كما كان في الماضي.

تاريخ شعوب الشرق الأوسط يشبه تاريخ المرأة نوعاً ما، وكما قلنا سابقاً فإن المرأة قد سحقت وأخرجت عن المسار منذ العصر النيوليثي.

العائق الوحيد هو الدول الاستبدادية التي تتربع على مراكز المؤسسات السياسية، ولكن اتخاذ الحضارة الرأسمالية للعولمة أساساً هو لصالح الحضارة الديمقراطية، ويقلل من احتمال مواصلة القديم، وعلى ما يبدو فإن معارضة الشعوب في الداخل التي ازدادت عن طريق تقنية الاتصال والمعلوماتية والعولمة في الخارج ستحل تلك الأداة الاستبدادية، ولأول مرة يعمل التاريخ لصالح تفتيت الكتلة السرطانية الموجودة في جسم المجتمع، ولذلك نرى أنه لا يوجد احتمال مقاومة طويلة الأمد للسياسة والدولة أمام التحول الديمقراطي، ولا مفر من تصفيتها في مرحلة زمنية قصيرة، يبدو إن إمكانيات وضرورات التحول الديمقراطي في المجتمع والدولة بشكل متداخل سيؤدي باتجاهه هذا إلى النضوج السريع لخيار الحضارة الديمقراطية في الشرق الأوسط، ويعتبر ذلك تطوراً يساند ظاهرة التحول إلى أطروحة مضادة. لذلك فإننا نقول: أن الثورة الذهنية والديمقراطية تقدمان حظاً وفرصة كبيرة لحضارة الشرق الأوسط من أجل أن تكون أطروحة مضادة، وهذه الحقائق مصيرية.

ج - يرتبط تطور الحضارة الديمقراطية في الشرق الأوسط بنظرية الساحة الثالثة وتطبيقاتها عن كثب. وتلعب بنية المجتمع والدولة التقليدية دوراً أساسياً في هذا الأمر.

أدت ممارسة الضغط الشديد على المجتمع التقليدي وتعرضه للاغتراب عن نفسه إلى فقدان الديناميكية الذاتية لديه إلى درجة كبيرة. وكما ان التحديث السطحي المستند إلى الرأسمالية زاد من سلبية هذا الوضع، فالدولة التقليدية التي لا تعكس الدور التقدمي للرأسمالية أبدا، ولا سيما أنها لا تنقل أيضاً ثقافة المرحلة النهضوية والتنويرية إلى المجتمع، بل أنها توحد المفاهيم القومية والسلطوية المتطرفة مع بنى استبدادية تقليدية وتفرضها عن طريق صبغة مؤسساتية بعد تلميعها، كل ذلك جعل التفسخ والتعقيد الموجودان في البنية الاجتماعية للشرق الأوسط يتفاقمان، ووضع الدولة التقليدية يكون اكثر تعصباً ورجعيةُ، ويؤثر هذان العنصران سلباً على تطور المجتمع المدني والحضارة الديمقراطية، وبمعنى أصح من الصعب أن يظهر المجتمع والدولة التقليدية القدرة على التحول الديمقراطي لوحدهما، إذ يكتسب المجتمع المدني والتحول الديمقراطي كساحة ثالثة أهمية كبرى. إذ لا يمكن ظهور فرصة للتحول إلا إذا تم تطوير الديمقراطية والمجتمع المدني كعنصر ثالث بين العنصرين، ربما هناك حاجة كبيرة الى تطوير نظرية الساحة الثالثة وتطبيقها، لحل الوضع الذي وصل إلى طريق مسدود في الشرق الأوسط، إن البنية الذهنية والمؤسساتية التي وصلت إلى طريق مسدود في مجتمع الشرق الأوسط، تجعل من وجود التحول الديمقراطي المستند إلى المجتمع المدني كساحة ثالثة أهم خطوة وعنصر للحل، وبدون القيام بهذه الخطوة بنجاح سنكون غير واقعيين إذا انتظرنا حدوث انحلال في الدولة والمجتمع من تلقاء نفسه أو بالمداخلة، وسيؤدي هذا الوضع إلى ترسيخ التعقيد والتفسخ، وتؤدي المنظمات والعمليات المعتمدة على العنف والتي ترغب في أن تكون بديلاً لذلك إلى تعقيد الوضع أكثر مما هو معقد، في حين تلجأ الدولة إلى تقوية نفسها عن طريق العنف، فإن الشعب يمتلئ حنقاً والتشكيلات التي تطرفت نحو اليسار واليمين رسخت اكثر تراث العنف السيئ في تاريخ المنطقة، ولم تستطع المواقف المشابهة التي تعتمد على العنف النجاح في القرون الماضية، يظهر هذا الوضع أهمية نمط المقاومة وليس عدم جدواها.

لم يكن عبثاً استناد الحضارة الديمقراطية التي حققت نجاحاً في العالم، على المجتمع المدني دون سواه، بل يرجع ذلك إلى إثباتها بأنه لا يمكن تجاوز التعصب المؤثر للدولة والمجتمع الا بهذه الطريقة، ويحتاج الشرق الأوسط بشدة إلى تكامل نظري ومنهجي واستراتيجي وتكتيكي شامل للمجتمع المدني، ويجب تكوين مجتمع بديل منظم ومنتشر، ابتداءاً من الاقتصاد إلى التقنية والبيئة ومن الساحة الاجتماعية إلى القانون والثقافة والعلم، ومن الرياضة إلى جميع الفروع الفنية، ومن الإيديولوجيا إلى السياسة، فالمجتمع المدني البديل الذي لا يكون امتداداً للدولة والمجتمع التقليدي والذي يمتلك رؤية عالمية مستقلة، والمؤهل للقيام بأشكال عمليات ملائمة من أجل الوصول إلى الهدف، وله برنامج مفصل

وتنظيمات وظيفية وفقاً للحاجة، سيلعب دوراً مصيرياً في تجاوز الانسداد وتحديد الطريق الذي يجب السير فيه.

الخاصية الهامة لنظرية الساحة الثالثة هي اتخاذها التوجه إلى النتيجة بدون اللجوء الى هدم بنى الدولة والمجتمع الذي يؤدي إلى تعقيد الوضع ولا يقدم الحلول له، ودون مواجهة النظام الحقوقي المعمول به، بل رؤية أغلاط هذه البنى والفجوات والقيام بانتقادها وإعادة بنائها على شكل اتخاذ نفسها مثالاً لذلك، وكأن ذلك يعتمد على مفهوم "أنت غير قادر على العمل، أنا سأقوم به"، أما نظريات الثورة والثورة المضادة للمراحل الماضية، فهي تتخذ من هدم المجتمع والدولة الموجودة أساساً لها من أجل الوصول إلى النتيجة، وقد رأينا كثيراً أنها لم تنتج من أوضاعها الدامية ونجاحاتها مشكوك فيها، إن طرق التحول إن كانت بالرجوع إلى الماضي أو التقدم إلى الأمام والمستندة على التخلف العلمي والتقني والتسيير القسري للتمايز الطبقي والتي تعتبر نتاجاً لمرحلة ماضية، قد اضطرت مرة أخرى الى فقدان أهميتها استناداً إلى الثورة العلمية والتقنية في نهاية القرن العشرين، وتعتمد نظرية المجتمع المدني وتطبيقها على تطور الثورة العلمية والتقنية في النصف الثاني من القرن العشرين، وتزداد فرص نجاح المجتمع المدني من خلال ظهور الأساس المادي له من خلال هذه الثورات. وهكذا فان المؤسسات التي كانت استثنائية وداجنة غدت مؤسسات أساسية، حيث تم معايشة انفجار ثوري لمجتمع مدني، وهكذا توجد في يومنا الراهن أسباب تاريخية وعلمية وتقنية واجتماعية ودولية لاكتساب منظمات المجتمع المدني أهمية كبرى، كما يجب اعتبار كل التجمعات الدينية والفلسفية والمهنية والتي بقيت مدجنة عبر التاريخ ضمن المجتمع المدني، لكن ضعف إمكاناتها كان عائقاً أمام تحولها إلى بديل، ناهيك عن أن الكثير من الأشخاص الذين نشئوا في المؤسسات المذكورة لعبوا أهم دور في تطوير إدارة المجتمع والدولة، وأهم فرق في يومنا هذا هو وصول المجتمع المدني إلى مركز قوة تؤهله ليصبح مجتمعاً بديلاً، كما ان الباب مفتوح على مصراعيه أمام تحولات اجتماعية وسياسية مستندة إلى المجتمع المدني.

إن تجسيد هذا الموديل في الشرق الأوسط مع الأخذ بعين الاعتبار الوقائع التاريخية والاجتماعية والسياسية يتمتع بأهمية بالغة، فهذه الفعاليات التي يتم تسييرها عبر التاريخ كالطرق الدينية واتحادات صغار الكسب ومنظمات قاطعي الطرق؛ هي في وضع متخلف أكثر من كونه تقدمياً، من خلال اتخاذها طابع وشكل الطرق الدينية والاتحادات المذكورة، ولهذا حصة كبيرة في عدم تجسيدها للحضارة الديمقراطية. ويظهر تحويل هذه البنى الداجنة المتبقية من الماضي إلى شكل ديمقراطي وظيفة هامة جداً. لكن الأهم من ذلك هو خلق مؤسسات المجتمع المدني الحديثة كسند أساسي للحضارة الديمقراطية.

إذا حاولنا تحديد الخطوط العامة يمكننا القول أنه سيظهر تنظيم جماعات المجتمع أو المجموعة الشعبية المعنية بالمجال الاقتصادي ولاسيما المجال الاستهلاكي قوة تحولية هامة، وتؤدي التنظيمات الاستهلاكية إلى تأثير هام حتى في المجتمعات المتطورة. إذا ما تم إنشاء شركات المواصلات والجمعيات الاستهلاكية وشركات السياحة والسفر واتحادات الإنتاج والجمعيات، والاتحادات التجارية والمالية بالاستناد إلى الحجج الاقتصادية الملائمة مع الأسس القانونية، فمن الواضح أنها ستشكل قوة هامة؛ عندها يمكن أن يصبح المجتمع التقليدي والدولة في الدرجة الثانية، وبالتالي تنتج أهم الوسائل من أجل تطبيق الديمقراطية؛ حيث ان الدولة وكل المجتمع مضطران للنظر الى ذلك بشكل جاد، وتحقيق الوفاق مع المجموعة أو القطاع الشعبي الذي يمتلك جمعيات تعاونية إنتاجية واستهلاكية والذي نظم مؤسسات كالفنادق والمصارف والغرف والجمعيات والباصات وصناديق التعاون.

أضحت المجموعات التي انتظمت بقوتها الذاتية في المجال الاجتماعي لاسيما التعليم والصحة، من القوة الأساسية في المكان الذي تتواجد فيه، ويكون المجتمع المدني الذي ينظم مؤسساته الثقافية الجوهرية وأنشطته من النوع المسرحي والسينمائي والأدبي والموسيقي والرسم والأفلام والبرامج الوثائقية مؤثراً وجذاباً، ويكتسب إنشاء صالات وساحات رياضية وأماكن للسير في الجبال والريف وأماكن للجري، لاسيما المتعلقة بالجماهير والمرأة والشبيبة، أهمية من أجل الصحة والذهن السليم، وبات فتح الطريق أمام الرياضة الجماهيرية ولاسيما في ظروف المدينة النامية حاجة تزداد يوماً بعد يوم، وهكذا فالرياضة المستندة إلى المشاركة الفعالة للمجتمع المدني بدلاً عن الرياضة الرسمية التي تعمل على تخدير المجتمع، مؤهلة لان تصبح إحدى المؤسسات المدنية الأكثر عصرية.

يعتبر التنظيم الجوهري للمجتمع المدني في المجال القانوني إحدى المؤسسات التي لا يمكن التخلي عنها بسبب تطور الواقع اللاقانوني وضعف المعرفة القانونية بشكل عام، ويتمتع حصول جميع الوحدات والمجموعات الشعبية للمجتمع المدني على مكاتب حقوقية بأهمية حيوية، وتعتبر مكاتب الحقوق بمثابة مؤسسات المجتمع المدني التي لا يمكن التخلي عنها وذلك لترسيخ نظام الحقوق الكوني على اعتباره مؤسسات أساسية في النضال ضد اللاحقوق، كذلك بشد الجماهير إلى طريق السياسة الديمقراطية الصحيحة عن طريق تقديم المعرفة القانونية. إن تناول مؤسسة نقابة المحامين وحقوق الإنسان بشكل شامل وحتى توظيف ممثل مكتب في كل قرية وحي، وعدم ترك أي مكان دون أن يدخله القانون والحقوقيون، يتمتع بأهمية حيوية من أجل نجاح المجتمع المدني.

يجب تناول المؤسسات السياسية لا سيما الأحزاب كوسائل للوصول إلى السلطة بشكل مباشر لأهميتها القصوى بالنسبة للمجتمع المدني. إن تبني الأحزاب السياسية المنظمة بشكل جيد والتي تفجر القوة الجوهرية للمجتمع، وتتخذ الاتجاه الدستوري أساساً لها، وتمتلك المعرفة بدلاً من الأحزاب السياسية المعتمدة على غلال المجتمع التقليدي والدولة، هو شرط أساسي للمجتمع المدني. فنظام الحزب السياسي الذي يوجد له فروع في جميع أنحاء المجتمع المدني بما فيها القرى والبلدات والذي يمتلك كوادر مدربة وينفذ سياسة وفاقية مع المجتمع والدولة القديمتين، يلعب دوراً حيوياً عن طريق الضغط من أجل التحول الديمقراطي في الدولة والمجتمع بالطريقة السلمية كوسيلة أساسية للتحول الديمقراطي.

تتولد حاجة كبيرة للوحدات والتنظيمات المسالمة من أجل تجاوز مجتمع العنف والدخول إلى مجتمع السلم الذي يكتسب أهمية كبرى في بعض المناطق والمجتمعات، إذ لابد من إقامة حركات سلام تؤدي إلى تفعيل معنى السلام وأهميته وطرقه ومناهجه. إن السلام وأدواته وعملياته هو من أهم المؤسسات المدنية التي يجب إبرازها في المجتمعات المشابهة لمجتمعات الشرق الأوسط والتي يعشش العنف في أعماقها حتى النخاع، ويلعب أحد الأدوار الحيوية في تطور المجتمع الديمقراطي والدولة عن طريق الإيمان به ومواصلته بقوة.

تعتبر اتحادات المرأة والشبيبة ذات الاتجاهات المتعددة إحدى المؤسسات الأساسية للمجتمع المدني من أجل النساء والشباب اللذين هما بحاجة إلى السلام والحرية أكثر من غيرهما، ويجب على التنظيمات التي تكون جواباً سليماً للأهداف السياسية والمواقع الملموسة والتاريخية للنساء والشبيبة، ان تتجاوز المجتمع المتعصب وحواجز الدولة الاستبدادية من جهة، وتلعب دور الوسائل الأساسية لوضع المجتمع في مساره الصحيح من جهة أخرى، وتعد الاتحادات النسائية والشبيبة الضمانة الأساسية لانتصار المجتمع المدني من خلال تنظيماتها التي تستهدف الكمية والنوعية بشكل جيد وتؤمن بها.

سيتم إتمام النظام من خلال تنظيمات السقف التي تتصف بالفيدرالية الديمقراطية والتي تشمل مؤسسات المجتمع المدني ضمن حدود البلد والدولة، ومن خلال التضامن الذي يقام مع التنظيمات المشابهة في البلدان والدول الأخرى على شكل تنظيمات ديمقراطية متضامنة، وبذلك يتم النظام.

يشكل الدفاع المشروع أحد المواضيع الأساسية التي يجب فهمها وتطبيقها بشكل صحيح كقضية عامة للمجتمع المدني، ولا يستبعد احتمال تعرض المجتمع المدني لاعتداءات دائمة من قبل الدولة والمجتمع التقليدي،

وستستخدم القوى التي تريد إفشال المجتمع المدني واستفزازه هذا الأسلوب بشكل علني أو سري، لأنه قد أغلق باب الغلال الذي كان يؤمن لها مصالح كبيرة، ولذلك لا يمكن أن تقبل بالأمر بسهولة. وكون الكثير من مؤسسات الدولة والمجتمع القديم ستبقى دون وظيفة وغير فعالة وذات مكانة مهزوزة، فإن ظهور خروقات قانونية أو إدراج العنف وارد في كل آن. يدرج هذا الوضع الدفاع المشروع على جدول الأعمال كحق لا يمكن التخلي عنه في القانون، ويجب فهم مضمون وشكل الدفاع المشروع بشكل جيد، وعندما يكون الأفراد والجماعات أصحاب الحق في وضع دفاع جوهري عن حقوقهم المنصوص عليها في الدستور والمعاهدات والقوانين الدولية، فبإمكانهم أن يستخدموا حق المقاومة حتى يحصلوا على حقوقهم بكافة السبل ابتداءً من الانتفاضة إلى المظاهرات، ومن تقديم عرائض جماعية حتى اللجوء إلى المحاكم بشكل عام أو جزئي وبشكل فردي أو جماعي، حيث يمكن لشعب هضمت حقوقه ولغته وثقافته أن يلجأ إلى مقاومة طويلة أو قصيرة الأمد حسب الحاجة، إذا كانت طرق الحل القانونية والسياسية مغلقة. إن ذلك ليس عصياناً بل هو حق قانوني مشروع، وعدم القيام به يعتبر انتهاكاً للقانون.

يعتبر عدم المطالبة بالحقوق أو عدم استخدامها أكبر انتهاك للقانون، وتكون قوانين الغابة سارية المفعول في المكان الذي يتواجد فيه ذلك. لذا يكون الأفراد والمجموعات والشعوب صاحبة الحق منتهكة للقانون في حال سكوتها على هضم حقوقها، ويعتبر طلب الحق وإذا اقتضت الضرورة القيام بانتفاضة عند اغتصاب الحقوق حق مقاومة مقدس، وهذا هو جوهر القانون والعدالة، وليس لأي شخص أو شعب الحق في السكوت أو الرضوخ أمام انتهاك حقها، فانتهاك القانون وتسميم المجتمع والدولة ناتج عن ذلك الرضوخ، كما إن الدفاع المشروع هو الوقفة القانونية الأساسية التي لا يمكن التخلي عنها ابداً في ولادة الحقوق واستخدامها، إذ لا يحق للشعوب والجماعات والأفراد التي لا تلبي مقتضيات ذلك ان تعتبر نفسها من البشر أو أن تشكو. إن حقوق الفرد المدنية والاقتصادية والاجتماعية وحقوق الشعوب في الثقافة وحق تقرير المصير التي تعتبر حقوق الجيل الأول والثاني والثالث والتي جعلها القانون الدولي حقوقاً لا يمكن التخلي عنها وإعطائها طابعاً رسمياً تمثل القيم المتصاعدة للعصر، وتشكل إحدى الركائز الأساسية التي تعتمد عليها الحضارة الديمقراطية.

يشكل موضوع القيادة والكوادر أحد القضايا الهامة بالنسبة للمجتمع المدني، إذ هناك حاجة ماسة لمؤسسات تعليمية هامة من أجل مشاريع المجتمع المدني الشاملة، حيث لا يمكن إنشاء هذا النمط الاجتماعي من خلال أشخاص عاديين لا على التعيين، لذلك يجب إنشاء المؤسسات التعليمية التي تخلق الكوادر الأساسية وفق الحاجة وهو أمر لا يمكن التخلي عنه، ويجب أن تكون هذه

المؤسسات شاملة وغنية ابتداءاً من المضمون الإيديولوجي حتى المسائل التقنية. كما يجب إنشاء أكاديميات ومعاهد كافية مقتدرة لا سيما في مجال الفلسفة واللاهوت والتاريخ والحقوق واللغة والفن والعلم والقيادة والاقتصاد والسياسة والصحافة والطبع والنشر والرياضة والاتصال؛ لأن نظام التعليم العام لدى الدولة والمجتمع لا يستطيع تخريج الكوادر اللازمة لهذا الغرض، إنما يمكن إعداد هذه الكوادر بطريقة تنسجم مع أهدافها في مدارسها التي تتناسب مع جوهرها وتوطد ذلك عن طريق التجربة.

يجب تناول نمط المجتمع المدني باهتمام من أجل حل البنية التي وصلت إلى طريق مسدود على مستوى الدولة والمجتمع في الشرق الأوسط، والحد من التخريب الذي نجم عن مناهج العنف التقليدية. وسيكتسب الأهمية بالمواقف العملية والنظرية مع مرور الزمن. وعلى الجميع وفي مقدمتهم العرب وإسرائيل، وإيران والعراق والكرد أن يعترفوا بأن جميع مناهج العنف التي تمت تجربتها والمفاهيم التي تقف وراءها لم تنجح في حل التناقضات في هذا العصر. وأصبح لا مفر من مشروع اجتماعي مدني شامل يدرج على جدول أعماله في كل آن حق الدفاع المشروع، فلا يمكن حل مسألة القدس بمفهوم قومي، أما حل المسألة الكردية بهذا الشكل فقد يستغرق قرناً كاملاً، ولن تنتهي الحروب المذهبية والعشائرية. فالمجتمع الذي يتبنى العنف يكون في حالة تمرد دائم، كما لن تتخلى الدولة عن العصا، لان كل تلك الطرق تعمق المأزق وتبقى بعيدة عن العصر.

بالمقابل لا يمكن التخلي عن شكل حلول المجتمع المدني كسند أساسي للحضارة الديمقراطية باعتباره سبيل حل عام واكثر توازناً، من خلال مناهجه الحلولية وتطوير السلام خطوة بخطوة حسب مقاييس الديمقراطية حتى وان كان بطيئاً أو لم يكن كما يريده الجميع. يمكن لحضارة الشرق الأوسط التي تعتبر فيدرالية طبيعية في التاريخ، أن تصل إلى موقع الأطروحة المضادة عند تطويرها للمجتمع المدني بمقاييس ديمقراطية حديثة، بتشكيل الأطروحة المضادة اليسارية لحضارة الشرق الأوسط، يمكن خلق حملة باتجاه التركيبة اللازمة لكل الإنسانية مرة أخرى كما كان في التاريخ عن طريق إقامة اتحاد ديالكتيكي مع الأطروحة اليمينية للحضارة الأوربية،، ويمكن أن يؤدي دوران التاريخ لعجلته بهذا الاتجاه إلى خطوات عملية ناجحة وآمال متصاعدة.

إن آخر موضوع يجب تقييمه في تكوين الشرق الأوسط لأطروحته المضادة يتعلق بدور الشعوب كقوى فاعلة أساسية. إذاً، عن ماذا يعبر حاملي هذه الثقافة كونهم من أقدم الشعوب في التاريخ بتداخلهم الحضاري في يومنا هذا، وكيف يتطور دورهم في المستقبل..؟ إن الإجابة على هذا السؤال يمكن أن

يسلط الضوء على التطورات المحتملة وسنتطرق إليها على مستوى التعريف وبشكل مختصر

أ - يأتي الواقع العربي الإسرائيلي ذو الجذور السامية على رأس الظواهر التي شغلت وستشغل المنطقة كثيراً، إذ ترجع جذور المشكلة إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد، وكانت الثقافة السامية في مرحلة التكون بين الألف التاسع والألف السادس قبل الميلاد، ومن ثم انتشرت باتجاه الشرق والغرب والشمال والجنوب، وكانت المناطق الداخلية لشبه الجزيرة العربية التي ولدت فيها تمتلك مناخاً ملائماً منذ الألف التاسع وحتى الألف الثالث قبل الميلاد، حيث لعب المناخ الملائم دوراً أساسياً في تكوين القبائل السامية التي أظهرت تأثيرها في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية وأفريقيا الشمالية وشرق البحر المتوسط وحتى ضاف نهر الفرات وجبال طوروس، وتشكلت عدة لهجات سامية مختلفة في هذه المرحلة. لقد أسرع الجفاف الذي حدث في الألف الثالث قبل الميلاد في نزوح القبائل نحو المناطق الملائمة للعيش وكانت بموقع القوة العاملة الأساسية في تكوين الحضارة المصرية والسومرية. وكانت من أولى القبائل التي عملت بالتجارة بين تلك الحضارتين وفيما بينها. لقد أطلق السومريون على هذه القبائل التي توجهت إليهم اسم العموريين"الغربيين"، أما المصريون فقد أطلقوا عليها اسم أبيرو (وتعني القبائل الصحراوية ومن هنا يأتي أساس كلمة عبري). حكم العموريون السومريين تماماً في عصر الأكاديين والبابليين والآشوريين، أما العبريون فقد تراوحوا صعوداً وهبوطاً بين الاثنين. وفي الوقت الذي كان فيه إبراهيم ينزل من أور و"معناها المدينة ذات التلال" أورفا، يخرج موسى من مصر حيث كانت حرب تحرير ضد الحضارة العبودية إلى حد ما، وانتهت هذه المرحلة بظهور الأديان التوحيدية نتيجة التأثير المكثف من الحضارتين.

يكتسب الدين التوحيدي أهمية من ناحية الحياة الروتينية للقبائل وحاجتها للتوحيد أمام تعدد الآلهة عند المصريين والسومريين. إذ لا يمكن توحيد وتسيير القبائل إلا عن طريق الإيمان بإله واحد وصارم. لقد لعبت تأثيرات ظروف شبه الجزيرة العربية دوراً مصيرياً في هذا الظهور الديني، ونفهم أنه تم الوصول إلى هذه المرحلة بعد الأديان المتعددة الآلهة والطوطمية من خلال حرب تكوين الأديان التوحيدية. إن المرحلة التي بدأها إبراهيم قد أصبحت دين القوم مع موسى، وديناً كونياً مع عيسى وأصبح دين العرب مع محمد، ودين الإنسانية لآخر مرة، إن ما قام به عيسى باسم الفقراء قد قام به محمد باسم التجار، أي باسم الطبقة الوسطى. ونسبة لكونية هذه الطبقات يظهر الاثنان قوة تطور كدين كوني.

أدى إصرار اليهود على دين القوم لأن يصبحوا أحد العناصر الكبرى

في التغيير التاريخي. فاليهودية بجانبها هذا هي في موقع القوة الأساسية للتحول والإرغام والتحريض في صدر الإنسانية، وتواصل دورها هذا منذ ظهورها وحتى الآن .

لقد ظهر العرب كآخر جيل للقبائل الصحراوية على ساحة التاريخ بعد أن قاموا بانفجار كبير مع قيام النبي محمد بتجديد دين النبي إبراهيم، ويشكل الإسلام والله والقومية العربية هوية و نسيجاً إيديولوجياً مترابطاً بإحكام، وفي الواقع وكما يتضح من الناحيتين العرقية والدينية، فإنهم أقرباء لليهود، ويأتي ازدياد التناقض فيما بينهم من التمايز الطبقي. وتقدم الصراع خطوة إلى الأمام بين اليهود الذين أصبحوا أثرياء من التجارة، والعرب الذين يعبرون عن آخر اتحاد للقبائل الصحراوية مع ظهور الإسلام. في الحقيقة لقد بدأت هذه المرحلة مع إبراهيم الذي قام بإنطلاقات ضد ملوك المدن السومرية الأغنى من العبريين، كما وجه موسى نفس القبائل العبرية الفقيرة ضد الملكية المصرية. ويتواصل هذا النوع من الصراعات في إسرائيل الحالية، ولم يكن هذا الصراع أقل من صراع الهلينيين مع الرومانيين، والبابليين مع الآشوريين. إذ تعود الخبرة اليهودية الكبيرة في التاريخ إلى الدروس التي تلقوها من هذا الصراع و قوة التجارة. لقد تعرض اليهود إلى أكبر تهجير من قبل الرومانيين بعد الذي تعرضوا له على يد البابليين، وانتشروا في جميع أنحاء العالم بعد عام 70 م.

إن امتلاك اليهود للذهن التجاري الأكثر مكراً في العالم، حرض المجتمعات التي أقاموا فيها وهذا ما أدى إلى تعرضهم للإبادة بشكل متكرر. وأصبح ظهور الدولة الإسرائيلية أمر لابد منه مع الفاشية الألمانية الهتلرية، إن إسرائيل هي تسديد الأوساط المحيطة وفي مقدمتها العرب فاتورة الإبادة التي مارستها الفاشية الألمانية بحق اليهود. ويأتي اليهود في مقدمة قائمة المجموعات المؤثرة في تطور وانتشار الرأسمالية ولا سيما في الحضارة الأوروبية وأمريكا. ولهم تأثير في التجارة والمال والعلم والفن وحتى في الأماكن الحساسة في السياسة في جميع أنحاء العالم ،تقف وراءهم الحضارة الرأسمالية. لقد ازدادت تناقضاتهم مع العرب حول موضوع الأرض، ولا يمكن إزالة إسرائيل لكن تحول شكلها الموجود يمكن أن ينتج وسائلاً للحل، كما إن تحول القومية العربية أيضاً شرط. وفي حال العكس فإن وجود قوميتين قد يؤدي حتى الى استخدام قنبلة ذرية جديدة. ولإسرائيل تفوق استراتيجي في هذا النمط من الحرب، لكن ذلك لن يفيد المجريات العملية.

وفي القدس تم تعقيد المشكلة لتتحول الى ظلم كبير، والذي أدى الى ذلك هو التشبث بالقومية التي وصلت إلى طريق مسدود في جميع أنحاء العالم، وكأن هذه المدينة المقدسة تحمل لعنة القومية والقبائلية السابقة، إلا أن اسمها

يعني القدسية وديار السلام. فكما لعب اليهود دوراً في ظهور أبوية الأديان التوحيدية، كذلك لعبوا نفس الدور في ظهور القومية، ويعتبرون من اكثر الذين تضرروا وأصبحوا ضحية لهذين المفهومين. بالإضافة الى ذلك أدت التجارب التي عاشها اليهود بين الحضارات إلى نشأتهم على قيم قوية في مجالات العلم والفن والاقتصاد، وابتداءً من كتابة الكتب المقدسة وكثير من المؤلفات لرجال العلم والفنون، فقد وصلوا إلى قوة كبيرة من الناحية المادية والمعنوية، حتى كأنهم يحركون كل الإيديولوجيات والمؤسسات الأساسية على أصابعهم.

اما بالنسبة للعرب، فقد ظلوا متخلفين باعتبارهم آخر المجموعات الصحراوية السامية. لكن انتشارهم في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية وأفريقيا الشمالية، أدى إلى وصولهم لثروة وقوة نوعية من الناحية الجغرافية على الأقل، بذلك وقعت مجموعتان ساميتان في وضع المواجهة على الصعيد العالمي، فغدوا ضحايا ما خلقوه من دين وقومية، وبدأت تبتلعهم الوحوش التي خلقوها بأيديهم، ولذلك فإن تجاوز مواقفهما المعتمدة على الدين والقومية هو الحل الوحيد. إذ يجب على هاتين المجموعتين اللتين يمكن أن تلعبا دوراً هاماً في الشرق الأوسط أن تتفقا في إطار مقاييس الحضارة الديمقراطية، وهكذا فان المخرج الوحيد هو الفيدرالية المرنة بدلاً من الانقسام القومي والديني، ويجب برمجة فيدرالية عربية إسرائيلية تحت نظام اقتصاد السوق الحر مع حرية الكيانات الثقافية ولأمد طويل، علماً بأن الفيدرالية ضرورية ايضاً من أجل العرب المنقسمين إلى ثلاثة وعشرين دويلة. فليس للاتحاد العربي الموجود "الجامعة العربية" دوراً وظيفياً كما يجب، بل إن فيدرالية ديمقراطية عربية ـ إسرائيلية ترغم العرب على التوحد تحت سقف واحد، ومن الواضح أن الشرق الأوسط برمته سيستفيد من هذه الفيدرالية عدا بعض الأطراف الرجعية، ويظهر أنه لا مفر من سير العلاقات العربية الإسرائيلية نحو الحل تحت ظل فيدرالية في القرن الواحد والعشرين، ويمكن للتجربة الديمقراطية لإسرائيل في العالم أن تلعب دوراً تاريخياً في دمقرطة العرب.

لا مفر من ممارسة العلمانية بعمق كجزء لا يتجزأ من هذا التحول الديمقراطي، حيث بات من الضروري تجاوز التخريب والتخلف الذي يجري باسم الدين منذ آلاف السنين، من خلال إصلاحات دينية شاملة، بالإضافة إلى الإصلاحات الدينية فان نجاح العلمانية سيعطي دفعاً للتحول الديمقراطي، كما يستمد منه القوة أيضاً، ويجب تجاوز الإيديولوجية القومية أيضاً، فعندما يتم تجاوز الإيديولوجيات التي تحرض على الصراع في هاتين الساحتين، حينها فان فلسفة الحرية والوحدة العادلة المعتمدة على الدين والحرية ستكتسب الصلاحية، وستجلب هذه المفاهيم الفلسفية الموجودة في أساس الحضارة الديمقراطية السلام والتسامح، في هذه الحالة سيتحقق الوفاق العربي ـ الإسرائيلي والوحدة

الديمقراطية بدلاً من الصراع، وسيؤثر هذا التطور على الشرق الأوسط والعالم بأكمله.

سيكون الوفاق العربي ـ الإسرائيلي خطوة كبيرة على طريق السلام والوحدة الديمقراطية في الشرق الأوسط، وستكتسب الأطروحة المضادة لأطروحة الحضارة الديمقراطية الأوروبية التي تستمد غذائها من الشرق الأوسط، قوة كبيرة من خلال الوفاق المذكور، وسيكون لها تأثير تسلسلي في العالم اجمع، كما ستساهم المرحلة الجديدة التي تبنى على أساس الفيدرالية الديمقراطية في أن يسير الشرق الأوسط نحو تركيب الحضارة الديمقراطية وإلى مرحلة حضارية تليق بتاريخه. حقاً إن النتائج التاريخية للاتفاق العربي ـ الإسرائيلي مهمة جداً، لأن ذلك سيسرع من حل التناقضات الأخرى في المنطقة وسيضغط من أجل الحل الديمقراطي، فالتطور في هذا الاتجاه والذي نرى تأثيره منذ الآن سيكتسب طابعاً سائداً، ولا يمكن انتظار استمرار مرحلة الصراع في جو من عدم الوفاق مطولاً، لأن الظروف المحلية والإقليمية والدولية لن تتحمل هذا الوضع طويلاً، وسنرى أنه لا مفر من السلام المستند إلى التحول الديمقراطي بين العرب أنفسهم، وبين العرب وإسرائيل وكل المنطقة في القرن الواحد والعشرين وتصاعده عبر حملة اقتصادية وفنية متطورة، هكذا سيكون للشرق الأوسط الذي سيكتسب قوة على هذا الأساس، إمكانية خلق تطورات تليق بتاريخه في كل العالم وتطوير الحضارة الديمقراطية نحو تركيبات جديدة.

ب ـ تقاوم الساحة الحضارية الإيرانية في الشرق الأوسط بأصالتها المتبقية عبر التاريخ، وتريد مواصلة الدور الذي تلعبه على مفترق خطوط الحضارة الشرقية والغربية في تجربة دمقرطة الثقافة الإسلامية، حيث يمتد هذا الطابع الإصلاحي في الساحة الإيرانية إلى أقدم مراحل التاريخ. فالحضارة الإيرانية هي التي جعلت العبودية القاسية للسومريين مرنة، كما ويعتبر الإرث الزرادشتي والازدهار البارثي نصراً للإصلاح في العبودية وتحولها الديمقراطي النسبي وفق تلك المرحلة. إن لإيران دور هام في تحضر آسيا، إذ أنها عرضت الحضارة الإقطاعية الإسلامية لإصلاحات منذ استقبالها في اللحظة الأولى، وتمثل الشيعة الإيرانية أول إصلاح إيجابي في الإسلام، وقبلهم أيضاً أراد ماني ومزدك إجراء إصلاحات في النظام العبودي الساساني، كذلك كان بابك بموقع قائد شعب ضد سنية العباسيين، ويرجع سبب انهيار الأمويين إلى التأثير الإيراني، كما أن مرونة العباسيين كانت بتأثير من إيران. لقد كانت الحضارة الإيرانية الصفوية أقرب إلى الشعب من السنية المتصلبة للعثمانيين وتخلفها الإقطاعي المركزي، كما ساندت العلويين أيضاً واستمر الدور الإيراني في إصلاحات القرن التاسع عشر.

كانت آخر ثورة كبيرة للقرن العشرين من نصيب إيران، وإن الشيء الغريب هو أن هذه الثورة لن تنطفئ بسهولة كونها ثورة الشرق الأوسط، ويظهر أنه لا مفر من انحلال التعصب الإسلامي تحت اسم الثورة الإسلامية الإيرانية، وذلك عند توحد تأثير الحضارة الديمقراطية من الخارج مع الطابع الإصلاحي الذي يأتي من التاريخ، وهكذا فإن الثورة الإسلامية الإيرانية إما أن تقضي على نفسها أو أنها ستواجه تعصب الشرق الأوسط تحت اسم الإسلام، وستضغط من أجل حل جذري للمشكلة، لذا لن تزول نتائج الثورة الإسلامية الإيرانية عن الساحة بسهولة، والسائد الآن هو انها تعيش مرحلة انتقالية؛ فإما أنها ستتعصب في داخلها ولن تتحمل الجماهير ذلك، أو ستجد نفسها مضطرة للدخول في مرحلة النتيجة النهائية للإصلاحات، عندها لا مفر من إحداثها موجة إسلامية ديمقراطية في الشرق الأوسط، كما تضغط الديمقراطية الرأسمالية الإسرائيلية من الغرب على القومية والإقطاعية العربية لتشدها نحو التحول الديمقراطي فإن إيران بالذات تحاول القيام بنفس المهمة من خلال التحول الديمقراطي داخل الإسلام من الشرق.

وكأن الإقطاعية الإسلامية ذات الثقل العربي مأخوذة بين فكي كماشة، لا ينتظر استمرار الإسلام الإقطاعي واللاديمقراطي طويلاً، كما أن الوضع الانتقالي الإيراني لن يستمر طويلاً، بل سيتم تحطيمها من قبل القوميين والإصلاحيين في الداخل في حال توجهها نحو التعصب، أما إذا نجحت في التحول نحو الديمقراطية، فإن الاتحاد الفيدرالي الإيراني الديمقراطي سيصبح من أقوى الموديلات التي ستؤثر في الشرق الأوسط، وستكون الجمهورية الإسلامية الديمقراطية الإيرانية الدعامة القوية للتحول الديمقراطي في الشرق الأوسط، وبما ان هذه الحضارة البديلة قادرة على إنشاء روابط قوية مع أساسها التاريخي، فإنها قادرة أيضاً على حل المشكلة عن طريق الوفاق والسلم من خلال الحضارة الديمقراطية الحديثة، ويمكن أن تكتسب قوة تطوير أطروحة مضادة في واقع إيران في كلا الحالتين، إن إيران مضطرة للقيام بدور مشابه لأنها تعرفت على الدور الحضاري سابقاً، ولا يمكن لإيران أن تبقى دون تأثير على آسيا الوسطى أو القوقاز أو كامل الشرق الأوسط، وسترغب في تحقيق ذلك عن طريق خلق حل إسلامي ديمقراطي بشكل جذري. كما ان نجاحها أو عدم نجاحها موضع نقاش، وسيظهر نظام أكثر تعصباً في حال فشلها وسيكون التشتت نتيجة ذلك. ولكن لا يمكن انتظار تحطم القومية بشكل جذري، إذ سيظهر اتحاد ديمقراطي فيدرالي معاصر في واقع إيران كبديل آخر على الأغلب، وفي حال عدم تحقيق الديمقراطية في إيران فإن فيدرالية إيران الديمقراطية العصرية ستتحقق على المدى البعيد دون الحاجة إلى ستار ديني، وهكذا فإن الاحتمال قوي لتحقيق هذا الخيار في المستقبل البعيد، لقد كانت إيران ذات صفة فيدرالية

عبر التاريخ ومازالت مقسمة إلى أربع مقاطعات، لذا فإن فيدرالية إيران الديمقراطية لن تكون مرحلة صعبة، ويمكن أن تكون من إحدى أولى الدول التي ستنضم إلى فيدرالية الشرق الأوسط، كما يمكن أن تصبح الفيدرالية الجزئية التي تشهدها إيران أكثر وضوحاً، وأن تأخذ طابعاً دستورياً.

يمكننا القول بارتياح أن التطورات التي تحدث في إيران ستكون من إحدى القوى الأساسية المتحكمة بالتطورات التي ستجري في الشرق الأوسط في القرن الواحد والعشرين، وتعتبر إيران حجر الزاوية الكبيرة الثالثة في الأطروحة المضادة التي سيشكلها الشرق الأوسط في مواجهة الحضارة الأوروبية، إذا كانت إسرائيل تأتي في المرتبة الأولى والعرب في المرتبة الثانية فلا مفر من أن تكون إيران الثالثة من الناحية التاريخية والجغرافية والتطورات التي تحدث فيها يومياً، وستشكل الأطروحة المضادة للشرق الأوسط قوة كبيرة من خلال الثقل الذي ستكتسبه من إيران. فبينما تمثل إسرائيل هذه الأطروحة المضادة في الحضارة الغربية، سيمثلها العرب في شبه الجزيرة العربية والقارة الإفريقية، أما إيران فسوف تمثلها في القارة الآسيوية. إن الأطروحة المضادة التي ستتمركز في يسار الحضارة الديمقراطية في الشرق الأوسط في القرن الواحد والعشرين ستكتسب قوة متعددة الألوان وخلاقة في الواقع الإيراني لخلق تركيبها الجديد للحضارة اللائقة بالتاريخ، وستؤدي إلى خطوات عملية ناجحة من خلال قيامها بالمساهمة التاريخية لآمال الحضارة الجديدة للإنسانية.

ج ـ كما لعبت الأناضول، تركيا أبرز دور في أقصى شمال الشرق الاوسط في كل مرحلة، فإنها كذلك تواصل طموحها في مرحلة الحضارة العصرية، إذ تشكل الأناضول معبر وخط تحول الأنظمة في التاريخ، وقد نقلت القيم الحضارية الشرق أوسطية والتي استمرت خمس عشرة ألف سنة إلى أوروبا عبر منطقة البلقان والقوقاز، وتقوم بنقل قيم الحضارة الأوروبية إلى الشرق الأوسط في القرنين الأخيرين. إذ كان الحثيون ذووا الأصل الآري، بمثابة الشعب الذي يمثل الدور الأول في الألفية الثانية قبل الميلاد، وبشكل أصح كانت عدة شعوب تبدو كشعب واحد تحت اسم الحثيين، وكانت في مرحلة الدخول إلى العبودية حديثاً مع العصر النيوليثي. لقد وقعت الأناضول تحت التأثير الإغريقي بعد سقوط قلاع طروادة ومن ثم فريغيا وليكيا من "1200 ـ 600" ق.م وعاشت المرحلة الهلينية، واستمر ذلك حتى عام 1000 م. حيث استقر الأرمن في الخط الشمالي الغربي والكرد في الخط الجنوبي الشرقي من الأناضول، انفتح الأناضول للعشائر التركية منذ عام 1000 م، واستمر هذا الاستيطان حتى القرن الرابع عشر، حيث تعرضت مع الحضارة السلجوقية والعثمانية الى تمايز طبقي عميق، وهكذا فقد تم التقسيم الطبقي الجذري للأتراك في هذا المرحلة، ففي الوقت الذي أحيا فيه التركمان الموجودين في الجبل

خصائصهم التركية بشكل مباشر وحي، فإن تركية المدن شهدت تذويباً قاسياً، واتخذ السلاجقة والعثمانيون المذهب السني الإسلامي أساساً لهم، واكتسب التعصب الإقطاعي قوة في مواجهة الإصلاحات الإيرانية، ان الإمبراطورية العثمانية التي وصلت إلى التوازن الحساس بين الرأسمالية والإقطاعية، قد انتشرت وعاشت بطريقة مريحة لغاية تطور الحضارة الرأسمالية، لكنها لم تصمد كثيراً أمام مرحلة انتشار الرأسمالية وسقطت في بداية القرن العشرين. وحقق الأتراك بقيادة مصطفى كمال أتاتورك نجاحاً في حرب الاستقلال التي خاضوها ضد الاستعمار الغربي ومحيط السلطنة العثمانية التي أصبحت في وضع العميل للغرب، بالإيديولوجية القومية الغربية بدلاً من الإيديولوجية الإسلامية من خلال الاتفاقيات التي طوروها مع البلاشفة في الخارج ومع الكرد في الداخل ضد الكومبرادوريين الروم والأرمن، وبذلك قاموا بانتقال تاريخي إلى المرحلة الجمهورية لتلعب أناضول القرن العشرين دوراً باسم الجمهورية التركية.

عندما أقدمت الجمهورية التركية على قمع الكرد الذين كانوا عنصراً مؤسساً في هذه المرحلة بسبب التمرد، فقدت تركيا فرصة التطور التاريخي لعدم قيامها بالتحول الديمقراطي، وتحول موقعها الذي كان يسمح لها أن تصبح كاليابان، إلى مأزق بسبب المشكلة المذكورة، ومازال هذا المأزق قائماً، فهي في أقر ب موقع إلى أوروبا من حيث جغرافية الشرق الأوسط ومستوى التطور الحضاري. وتشهد نقاشاً ديمقراطياً مكثفاً، كما لم تستطع التقدم في عضويتها إلى الاتحاد الأوروبي بسبب عدم تحقيقها التحول الديمقراطي، ويرجع سبب ذلك إلى الوجود الكردي، حتى وصلت هذه المشكلة الأساسية القائمة أمام تركيا إلى مستوى تقرير مصيرها، وتشهد ازدواجية إما الحل الديمقراطي في إطار الجمهورية أو أن تنكمش وتصبح هامشية، لم يتم تحديد طريقة حل المشكلة بعد، مع أن الظروف الداخلية والخارجية ترغمها على إجراء حل ديمقراطي.

تمتلك تركيا ظروف اجتماعية قريبة للتحول الديمقراطي، أكثر من أي دولة في الشرق الأوسط. وقد خطت خطوات بهذا الصدد وستصل إلى وضع الانضمام إلى عضوية الاتحاد الأوروبي إذا قامت بإلقاء الخطوات المتبقية وبذلك فإنها تكون قد أضافت قوة للخيار الديمقراطي للحضارة الأوروبية الديمقراطية وستؤثر على تركية آسيا الوسطى كثيراً. من المحتمل أن تتطور تركيا بهذا الاتجاه في القرن الواحد والعشرين وتصبح بهذه الحالة حجر الزاوية الكبير الرابع للتحول الديمقراطي في الشرق الأوسط، وهكذا فان إسرائيل والعرب وإيران وتركيا ستدخل كقوى أساسية في مرحلة تكوين وتطوير الأطروحة المضادة، وذلك لحل معادلة الشرق الأوسط نحو الديمقراطية، عندها لا مفر من دخول القرن الواحد والعشرين مرحلة حملة متصاعدة بالنسبة لكل المنطقة في

حال حدوث حل للصراع العربي - الإسرائيلي، ومشكلة التحول الديمقراطي والوحدة بين العرب وقيام إيران ببناء فيدرالية ديمقراطية دائمة "تحت الستار الإسلامي أو الحديث"، والمشكلة الديمقراطية في تركيا التي يجب إكمالها، وبعد إيجاد الحلول للقضايا المذكورة ستخطو فيدرالية الشرق الأوسط الديمقراطية التي تتصاعد فوق القوائم الأربعة الأساسية المذكورة خطوة قوية ناجحة باتجاه تكوين التركيب التاريخي الجديد في روابط ديالكتيكية تبنيها فيما بينها كقوة أطروحة مضادة حقيقية للحضارة الأوروبية.

د - يدرك بشكل أفضل وجود الموقع الأصيل للكرد وكردستان في تاريخ حضارة الشرق الأوسط، وضرورة تعريف دور الشعب من أجل الفهم الصحيح للمراحل بشكل أفضل إن كان من زاوية التطورات في الحاضر أو عند نبش التاريخ.

من المؤكد أن كردستان كانت مهداً للعصر النيوليثي لأول مرة في العالم بسبب جغرافيتها وثقافتها النباتية والحيوانية، وهي الساحة التي تحققت فيها الثورة الزراعية والقروية، ومن خلال التنقيبات الأثرية تأكد بأنها تمتلك ثقافة مستقرة تمتد جذورها إلى الألف الحادي عشر قبل الميلاد، بحيث لا يوجد تاريخ أقدم منه في العالم، فنحن مدينون للسومريين - من أجل المصادر التي دونها - في تسمية الشعوب التي خلقت العصر النيوليثي، إذ تسمى هذه الساحة وشعبها بمنطقة الجبل وشعب الجبال، ومازالت هذه المصطلحات سارية حتى يومنا، إن كلمة " **Kur** " تعني الجبل بالسومرية، و"**ti**" تعني التابعية أو الانتماء، ولذلك تعني كلمة كردي " **Kurdi** " شعب الجبل أو الجبليين وكما توجد تسميات أخرى للسومريين، وكلمة " **Urarti** " تعني البلد العالي، و" **Guti** " تعني الشعب الذي يمتلك الثيران، لأنهم كانوا يحرثون الأرض بواسطة الثيران، وتحولت هذه الحقيقة إلى مصطلحات وتسميات عدة، (فما زال اسم **Guti** أي الثور موجود باللغة الكردية) و **Aryen** بمعنى الشعب الذي يحرث الأرض بالمحراث، وأطلق الآشوريون اسم الميديين "**Mata**" غالباً على اسم الشعب الموجود في موطن المعادن، وأطلق اللويون والميديون اسم "**Gondwana**" على البلد العالي، وأطلق عليه الإغريق اسم "**Komagene -Kurdiana**" على شعب الرعاة والخيام، وعندما تم بناء علاقات مع العرب تم تسميتهم بالكرد (جمع لكلمة كردي)، لقد أثبت التاريخ أن السلطان السلجوقي الكبير سنجار قد سمى المنطقة باسم كردستان وتم استخدام مصطلح كردستان والكرد على الولاية والحكومات المحلية في عصر العثمانيين بكثرة وتحدث مصطفى كمال أتاتورك باني الجمهورية التركية عن الكرد وكردستان كعنصر مؤسس أساسي عشرات المرات، وتم استخدام هذه التسميات كثيراً في الأدب العالمي بسبب التمردات في القرن التاسع عشر والعشرين.

يأتي الدور التاريخي للكرد من كونهم الشعب الرئيسي الذي خلق العصر النيوليثي. لقد اثبت بشكل قطعي بان هذه الساحة الشبه سهلية والجبلية التي ترويها نهري دجلة والفرات تتغذيان من سلاسل جبال زاغروس وطوروس، كانت مهداً للحضارية النيوليثية. ومن المؤكد أن السومريين والمصريين والحثيين والبارسيين قد تغذوا من المجتمع النيوليثي القائم هنا، ان وجود الموارد المعدنية هنا واكتسابها لأهمية كبيرة أدى إلى تعرض المنطقة لغزوات واحتلالات كثيرة، وأدت الضغوطات من الأطراف الأربعة إلى بقاء هذا الشعب الكبير الذي خلق العصر النيوليثي في وضع دفاعي باستمرار، وهكذا فإن المصدر الأساسي الذي خلق الحضارة قد أصبح أسيراً لها، هذا يفسر بشكل افضل سبب بقائه على شكل عشائر متصلبة، لأنه لا يمكن الدفاع عن النفس في الظروف الجبلية إلا على شكل وحدات عشائرية، ويمكن الوصول إلى النظام الكونفدرالي كأقصى حد للتطور، وهكذا لم تكن الظروف مواتية لإنشاء مراكز حضارة مدن قوية، إذ أدت جغرافيتها التي كانت في وضع قلعة متنامية في الشرق الأوسط إلى لعبها دور موقع الدفاع الطبيعي، إن تلك الظروف تشرح كيفية وصول الأصالة الثقافية منذ عشرة آلاف سنة حتى يومنا هذا.

لقد تعرض الكرد وبلادهم لجميع غزوات العصر العبودي، وإذا بدأنا من كلكامش السومري نرى أن البابليين والآشوريين والبارسيين والهلينيين والرومان والساسانيين والبيزنطيين والعرب والأتراك والمغول قد قاموا باحتلال المنطقة تسلسلياً، لكن النظام الأساسي هو النظام العشائري، وواصلوا هذا الميراث حتى يومنا هذا بالصراع فيما بينهم والتوحد في بعض الأحيان.

أظهرت الإمارات الكردية تطوراً متميزاً في عصر الإقطاعية، ولعبت أغلبيتها دوراً على شكل دول وحكومات محلية، وعاشت حالة اتفاق لمدة أربعمائة سنة مع العثمانيين، وكان دورهم قوياً في الإسلام والحضارة الإيرانية ما قبل الإسلام على مستوى شخصيات وسلالات بارزة وقوية، وتعرضت الطبقة الكردية العليا لصهر كبير بينما حافظ الوجود العشائري على ثقافته، فلعبت الإقطاعية لأكثر الأدوار رجعية، مهدت السبيل امام النتائج العكسية التي نجمت عن التمردات في المرحلة الرأسمالية، وعند دخول الأتراك إلى الأناضول لعب الكرد دور قوة داعمة أساسية في انفتاح الإمبراطورية العثمانية نحو الشرق في عهد السلطان ياووز وفي فتح شبه الجزيرة العربية، مقابل الحرية العشائرية وبقاءهم على مستوى حكومات محلية، وكان تمزقهم بعد الحرب العالمية الأولى في غير صالحهم، كذلك شاركوا في حرب التحرير وإنشاء الجمهورية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، كعنصر أصيل وشعب منقذ ومؤسس، ثم دخلوا مرحلة التمرد مرة أخرى بعد أن قام النظام الجمهوري بتخريب نظام الإمارة والعشائر وأدى ذلك إلى وضع تخريبي كبير بالنسبة لهم. في الوقت ذاته واجه الكرد

وضعاً قمعياً كبيراً نتيجة للتمردات التي قاموا بها، من قبل العرب في العراق، والفرس في إيران من خلال المفاهيم القومية والدولة المركزية، وتعرض الكرد فيما بعد إلى مرحلة تذويب كبيرة.

تبذل المساعي في يومنا الراهن لإبقاء الشعب الكردي في موقعه المسحوق في الشرق الأوسط، ويعتبر تمزقهم ووجود النظام الإقطاعي والعشائري أكبر سبب لبقائهم متخلفين، ولم يستطيعوا التخلص من كماشة الضغط الداخلي والخارجي، ولم تلعب الإيديولوجية الدينية والقومية دوراً إيجابياً في تطورهم السياسي كما حدث عند الشعوب المجاورة، ففي الوقت الذي حول الدين ومفهوم القومية كل من العرب والفرس والأتراك الى دول بتقويتهم كقومية ووطن، أما بالنسبة للكرد، فإنها لعبت دوراً أساسياً في اضطهادهم وتذويبهم، ولم يستطع الكرد جعل الدين الإسلامي الإقطاعي أو الإيديولوجية القومية الرأسمالية دليلاً قومياً لهم، كما لم تسفر محاولاتهم سوى عن ترويضهم. ويعيش الكرد كشعب فقير تعرض لخيانة الحضارات أكثر من غيره، وتتم تغذية الضعف القومي والاجتماعي بالقيم الإقطاعية والعشائرية دائماً، حيث لم يستطيعوا الارتقاء إلى مواقع قومية واجتماعية أكثر سمواً.

تظهر هذه التعريفات القصيرة أن التحول الديمقراطي هو المخرج الوحيد للكرد من حيث الماضي والحاضر، حيث يعتبر التجاوز العام للدين والقومية وانهيار العشائرية والإقطاعية بسرعة، الظواهر الأساسية التي تزيد إمكانية التحول الديمقراطي للكرد، وتؤثر مقاييس الحضارة الديمقراطية المتصاعدة في كل العالم على هذه المرحلة بشكل أكثر، كما إن إرغام العراق على التحول الديمقراطي من قبل العالم، وإسلامية إيران الديمقراطية، والتحول الديمقراطي المعاصر في تركيا، يشكل تحولاً إيجابياً في الإطار الذي يحيط بهم، كافة هذه التحولات الخارجية والداخلية الهامة تتيح إمكانية إيجاد حل بالمقاييس الديمقراطية للكرد لأول مرة، بنفس الشكل وصولهم إلى وضع ضمانة لوحدة متينة على أساس التحول الديمقراطي بالنسبة لجيرانهم وليس كعنصر تمرد وتقسيم، ولا مفر من دخول القضية الكردية في طريق الحل كلما تسارعت المرحلة الديالكتيكية نحو التحول الديمقراطي بالنسبة لكلا الطرفين، وهذا السبيل هو سبيل السلام والوفاق الديمقراطي، وليس طريق التمرد أو التقسيم. لأول مرة يحصل التاريخ على إمكانية السير والنجاح في خطوات التحول الديمقراطي مع جميع الشعوب التي تحيا مع بعضها.

حمل التاريخ الشعب الكردي دوراً لا مثيل له في هذه المرحلة، وأصبح البقاء في إطار حدود مقسمة عاملاً مساعداً لهذا الدور، كما ان عدم التحول إلى شعب التي سممته القومية زاد من فرص النجاح، فالشعب الكردي الذي حول

نفسه إلى شعب ديمقراطي سيرغم البلد والشعب الذي يحيا معه على الحل الديمقراطي، فقد كانت الحركة الكردية تبدو كأداة للتقسيم والألاعيب الخارجية، بينما الآن أصبحت الضمانة للسلام والحرية والأخوة، وأصبح العامل الوحدوي الأكثر قوة للبلد، أساساً للوحدة الدائمة للدولة، وسيتم ذكر تطور تكون فيه المقاييس الديمقراطية الفعالة مستندة إلى الحرية المشرفة في كل مكان أو أي دولة يتواجد فيها الكرد. فالجهل والتمرد والقمع والإبادة الجماعية ليست قدراً مكتوباً على جبين الكرد، بل سيكون الوعي الديمقراطي والمجتمع المدني المتطور والوحدة الحرة هو القدر.

سيكون الكرد من خلال مهمتهم التاريخية أصحاب خطوات التحول الديمقراطي المتين في إيران تحت لواء الجمهورية الإسلامية الديمقراطية أو الفيدرالية الإيرانية الديمقراطية الأكثر عصرية. وسيكونون في العراق الضمانة الأساسية لعراق ديمقراطي أو للفيدرالية العراقية الديمقراطية من خلال موقعهم الفيدرالي الديمقراطي، وسيلعبون أحد الأدوار الأساسية في ترسيخ الجمهورية الديمقراطية والعلمانية في تركيا كأصحاب خطوات منسجمة ومصممة على طريق الالتزام والديمقراطية، ولا يمكن التقليل من دورهم في خلق سورية ديمقراطية، جلي بأن الكرد سيقومون بهذه الأدوار بنجاح، أي أن الكرد الديمقراطيين سيكونون ضمانة على طريق فيدرالية الشرق الأوسط، وسيكونون القوة الشعبية الأساسية في التحول الديمقراطي والسلام. إن القيام بهذا الدور الذي اوكله التاريخ للكرد سيسير في طريق النجاح من خلال قيامهم بمهمة التحول الديمقراطي بوعي وتنظيم، والتحرك بشكل لائق بالقيادة الاستراتيجية الحقيقية.

يوجد في الشرق الأوسط الأرمن والآشوريون وشعوب ذات جذور قوقازية ودور هذه الشعوب يشبه دور الكرد. وكافة الظروف تأمر قيام هذه الشعوب بالعمل في طريق التحول الديمقراطي مع القوى الموجودة باعتبارها المنقذ الوحيد، وتزداد إمكانيات تطوير كيانها الثقافي والحرية بشكل يوازي تطور التحول الديمقراطي في الدول التي يتواجدون فيها والشرق الأوسط عامة، فهذه الشعوب التي تمتلك قيمة كبيرة على صعيد نقل الثقافة رغم قلة عددها، تمثل قوة وغنى وموزاييك التحول الديمقراطي.

عندما ننظر إلى الشرق الأوسط كوحدة متكاملة على أساس هذه التحليلات نلاحظ بأنه يعتبر اكثر تخلفاً من الكثير من دول العالم، وهو يسير في طريق بعيد عن ماضيه التاريخي العظيم، ولا يدرك تاريخه بعد، ولم يقدم على أي عمل يليق به، حيث تحكمه مجموعات هامشية نظمت مصالحها بخطوط الاستقلال المزورة وبتجسيد أقرب إلى الاستسلام، فلا تعتمد على قيم الحضارة الأوروبية تماماً ولا على جذور الشرق الأوسط، فحتى إن كان قد ظهر بعض

القادة اللائقين بالتاريخ كاستثناء، إلا انها ستبقى بعيدة عن الضغط على البنية العامة، ويصعب على الشرق الأوسط الذي لم يحقق الثورة النهضوية والتنويرية بشكل متكامل أن يغير هذه الصورة، ففي الوقت الذي تتوجه فيه معظم دول العالم نحو اتحادات إقليمية وعالمية، فإن بقاء الشرق الأوسط بعيداً عن استراتيجية مشتركة وخطوات التوحد في داخله إلى هذه الدرجة ليست لصالح شعوبها، ولن يتحمل تاريخ الشرق الأوسط القريب والشبيه بالفيدرالية هذا التشتت، فالظروف الإقليمية والداخلية للبلدان التاريخية تضغط تدريجياً من أجل التحول الديمقراطي في الشرق الأوسط.

يتضمن تطويري لهذه التحليلات في الوقت الذي تبدأ فيه المرحلة المتعلقة بالمحاكمة في محكمة حقوق الإنسان الأوروبية، معنى آخر بالنسبة لي، إن توجهي إلى أوروبا بنوايا الوفاق مع الإمبريالية التي ضغطت في الوقت الذي كنت أبحث عن الحق وأنا في الشرق الأوسط هي حقيقة. إن بذل الجهود من أجل إيجاد إمكانية حل معقول ضمن مقاييسهم الديمقراطية، قد جاء في الأولويات بدلاً من التوجه إلى الجبال الذي يفتك بالأرواح، مع أن الجبال كانت الرونق الحقيقي لأحلامي دائماً، لقد صبرت أربعين عاماً من أجل الصعود إليها، لكن كان من المستحيل ان أقوم بترجيح أو خيار فردي يؤدي إلى مزيد من الآلام في صفوف أصدقائي وشعبي، لأن أخلاقي المسؤولة ومفاهيمي لا تسمح بذلك، صحيح إنني لم أتوقع أن دخولي إلى أوروبا بهذه الأفكار سيؤدي إلى هذه النتيجة المأساوية، ومن الصحيح أيضاً أنني لم أضع في الحسبان أن الخيانة والمصلحة ستنتفض وستفقد حساسيتها أمام هذا الوضع إلى هذه الدرجة، لقد اجروا حساباتهم وكيلهم ثم القوا بي إلى موطن آكلي لحوم البشر في أفريقيا بخيانة ودناءة، ويدعون بأنهم خدعوني وعلبوني بمهارة ليضعوني في تابوت في إيمرالي، وبذلك ضمنوا مصالحهم المتزعزعة .

إذا كان هذا الوضع موجوداً، فإنه يتناقض مع القانون الأوروبي. ومشاهدتي لموقف المحكمة كمقياس للحضارة أمر هام بالنسبة لي، لكن والأكثر من ذلك، هو انه إذا تم الذهاب إلى أوروبا كشخص مستسلم لأمكن إيجاد مكان لي فيها، ونظراً لأن ذلك لم يتحقق لي، فإن إيجادي لطرح مضاد كان يمكنني من إقامة العلاقة مع أوروبا، وكان ذلك مرتبطاً بإبراز الطرح المضاد لحضارة الشرق الأوسط على الأساس التاريخي في مواجهة الحضارة الأوروبية، وقد حاولت تحليل وإظهار هذا الأمر، وأعتقد إنني نجحت ولو بشكل محدود في ذلك كما وإنني مؤمن بأنني استطعت الإجابة بشكل عام على الآراء والنقد الذي لم يستطع الكثير من الأصدقاء والرفاق إيصاله إليّ لعدم توفر الإمكانيات، وقد كان ذلك ضرورياً، ومهما كانت النواقص فإنني مقتنع بأنني قمت بمسؤولياتي.

ما قدمته من آراء وانتقادات هو بمثابة دفاع حاولت إعداده تحت تأثير مؤامرة ثقيلة وفي نظام الحجرة المنفردة، وسأعمل على أعداد القسم الثاني من مرافعتي وسأحاول تناول المشاكل المنهجية للتاريخ الكردي والعلاقات الكردية ـ التركية والحل الديمقراطي وتطور المؤامرة ومعناها وحقوق أوروبا وقيمة محكمة حقوق الإنسان الأوروبية، وأي نقد يوجه إلي سيمدني بمزيد من القوة، كما إن عدم تحريف ومغالطة المواضيع التي أتناولها وعدم الابتعاد عن تقرب علمي يتحلى بأهمية خاصة. لقد انتبهت إلى الجوانب التعليمية على الأغلب وحاولت وتطوير الأسلوب، وهناك حاجة ماسة لأدمغة تعرف التفكير، وتعمقت بالمسائل التي رأيتها هامة لقناعتي أنها ستقدم نتائج إيجابية.

يمكن مغالطة وتحريف بعض تقييماتي حول الدين والرب فقط، لكن لأؤكد منذ الآن أنني أمتلك قوة بهذا الموضوع أكثر من أي شيء آخر ومصمم على تعميق الثورة الإيديولوجية، كما ان الثورة الذهنية تحظى بأهمية كبيرة بالنسبة لي، ويجب أن أؤكد أيضاً على إيماني بتطوير الوجدان الحر، الذي يعرف كيف يسمع، فبدون القيام بثورة ذهنية ووجدانية لا يمكن أن يكون الإنسان حساساً وأخلاقياً هذا ناهيك عن ان يصبح ثورياً.

يجب أن أؤكد بأن نفسي قد اطمأنت لأنني قدمت جواباً للجميع ولشعبنا وذلك بالمستوى المتعلق به، أقدم تقييماتي هذه باسم ضحايا المآسي ولاسيما شهداء السجون. مع التأكيد أنني قدمت جواباً جزئياً إلى الملتزمين بشخصي من أعماقهم وأصالتهم، ولم يبق لي أي جانب عائد لي سوى أن أكون ملكهم أكثر من أي وقت مضى، وأقدم محبتي الكبيرة وتحياتي للجميع.

والمجد للإنسانية...!

عبد الله أوج آلان

2 تموز 2001 إيمرالي